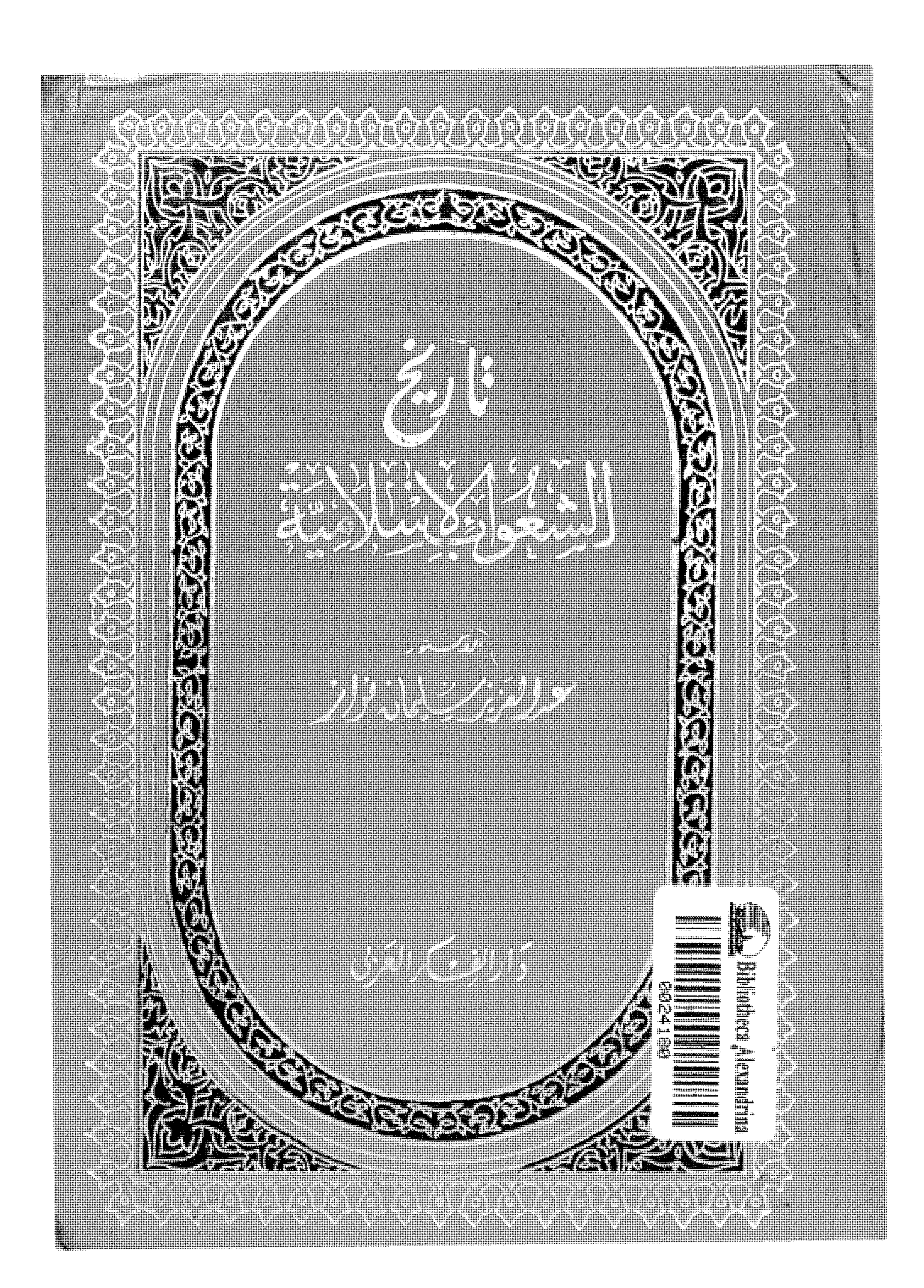
تاريخ
الشعوب الإسلامية
عبد العزيز سليمان نوار
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

ويه نستعين

شرع لكم من الدّين ما وصّى به نوحاً ، والذين أوحَيْنا اليك ،
وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى ·

(قرآن كريم : الشورى ۱۳)

كتب للمؤلف

اولا : موســوعة التاريخ الاســلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاســلامي كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اســهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ ــ الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

ــ مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى ــ تفسير التاريخ ــ هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ ــ فائدة التاريخ ــ مراحل تدوين التاريخ ــ قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاســلامى ــ علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...

ــ تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر ــ حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ــ الســيرة النبوية المطــرة : جوانب من الســيرة تدون لأول مــرة

ــ الدعــوة الاســلامية وفلســفتها ــ عصر الخلفــــاء الراشــدين

٢ ــ الجزء الثانى : (الطبعة السابعة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ ــ الجزء الثالث : (الطبعة السابعة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ ــ الجزء الرابع : (الطبعة السابعة)

ــ الأندلس الاسلامية ، وانتقال الحضــارة الاسلامية الى اوربا عن طريقهــا .

ــ المغرب ــ الجزائر ــ تونس ــ ليبيــا (من مطلع الاســلام حتى العهد الحاضر) .

ــ السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ ــ الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

ــ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .

ــ الحروب الصليبية : دوافعها ــ ادوارها ــ نتائجها .

ــ الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — **الجزء السادس :** (الطبعة الثالثة)

الاســلام والدول الاســلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلهـــا الاســلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .

— الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى :
غانة — مالي — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجـــرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .

— الدول الاسلامية الحالية :
موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيــا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — **الجزء السابع :** (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .

— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — **الجزء الثامن :** (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :

ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — **الجزء التاسع :** (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم . عصر محمـــد نجيب وعصر جمـــال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — **الجزء العاشر :**

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر انور السادات . (عصر النجاح فى الشئون الخارجية والفشل فى الشئون الداخلية) .

(ترجمت أكثر اجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجـزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاسـلام لهداية البشرية فى شـئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصـاد ، وفى مجـال الحيـاة الاجتماعية والتربوية والعسـكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية ،

واجزاؤها هى :

١١ — الجزء الأول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الثالثة)

مناهج التعليم فى صدر الاسلام — انحرافاتها فى عصـور الظلام — وجوب تصحيحها .

١٢ — الجزء الثانى : الفكر الاسلامى : منابعة وآثاره (الطبعة السابعة)

١٣ — الجزء الثالث : السـياسة (الطبعة السادسة)

فى الفـكر الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤ — الجزء الرابع : الاقتصـاد (الطبعة السادسة)

فى الفـكر الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة . ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ — الاسلام والمسلمون فى مواجهة المشكلة الاقتصادية .
٢ — مبادىء الاسلام الاقتصادية .
٣ — الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .
٤ — من تاريخ الاقتصاد فى الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .
٥ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامى فيها .

تاريخ الشعوب الإسلامية

الدكتور عبد العزيز سليمان نوار
كلية الآداب ــ جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ ش جواد حسني ـ القاهرة
ص.ب ١٣٠ ت: ٣٩٢٥٥٢٣

تاريخ الشعوب الاسلامية

تمهيد

العالم الإسلامى تعبير ينطوى على مفاهيم دينية وسياسية واستراتيجية ، بل ظهرت دراسات عن جغرافية العالم الإسلامى ، ولقد بلغ العالم الإسلامى ذروة إتساعه وكذلك ذروة قوته وحضارته فى عهد الدولة العباسية التى تمثل واحدة من الحضارات العالمية .

ويمكن القول أن هذا العالم الإسلامى يملأ قلب العالم القديم إذ يمتد من إقليم سينكيانج(١) وتركستان الصينية والجمهوريات السوفيتية الإسلامية السكان وأفغانستان والملايو (ماليزيا) وبورما . وتوجد أقليات إسلامية فى كوريا والفلبين ودول الهند الصينية (فيتنام — كمبوديا — لاوس — تايلاند) والفلبين واستراليا وأما القارة الهندية (الهند وباكستان) فكانت ولا تزال أكبر المناطق الإسلامية تعدادا أما أندونيسيا فتفوقها فى الكثافة العددية الإسلامية بينما تقع إيران (فارس) ، الفارسية اللغة ، وتركيا فى أقصى الغرب من العالم الإسلامى المتكلم بغير العربية . فالى الغرب والجنوب من فارس (إيران) وتركيا يمتد العالم العربى ، وبينما تقل الكثافة السكانية الإسلامية فى البلقان كلما اتجهنا من جنوبه نحو الشمال فان العالم الإسلامى يغطى الصحراء الكبرى ويتوغل فى أفريقيا جنوبا حتى الحزام الزنجى الممتد من السنغال إلى الكنغو ، وفى شرق أفريقية كثافة إسلامية واضحة تمتد بشكل متناقص فى اتجاه جنوب أفريقية فيما هو جنوب تنزانيا .

هذا الامتداد الكبير للعالم الإسلامى لا يرجع إلى السيف بقدر ما يرجع إلى الدعوة والدعاة والأسوة الحسنة ، وما جبل عليه المسلمون الدعاة من إيمان وتواضع وربط متكامل بين مطالب الحياة الدنيا والآخرة .

وجوهر الدعوة الإسلامية التوحيد بالله وأن محمدا رسول الله والقرآ الكريم كتاب أنزله الله على رسوله ليكون شريعة الله لكافة البشر .

ولقد كانت الدعوة إلى الإسلام موجهة إلى البشر كافة ولكن من الواضح أن بلاد المسلمين الرئيسية تركزت فى المنطقة الواقعة بين المنطقة المعتدلة الشمالية والمنطقة

المعتدلة الجنوبية لتتأثر اقليات صغيرة إسلامية فى قارة اوربا ويتضاءل عدد المسلمين إلى حد كبير فى الأمريكتين بالقياس إلى اوروبا .

ومن المبادىء الإسلامية الرئيسية الدعوة إلى الإسلام حتى يندرج تحت لوائه كافة الشعوب والجماعات ، ولكن الدولة الأموية والعباسية لم تستطع أن تحقق هذا الهدف الأعظم بل اخذت قطاعات كبيرة من اجزاء الدولة الإسلامية تنفصل لأسباب سياسية او اقتصادية أو مذهبية ، حتى لقد ظهر أكثر من خليفة فى وقت واحد ، ومئات المذاهب التى تكونت على أساسها دول إسلامية مستقلة ، وظهرت نداءات قوية ضد الشعوبية ، حتى جاء العصر الحديث الذى تميزت خلاله اوروبا بتفوق حضارى واضح وبمفهوم للقومية يزداد عمقا على مر السنوات . وانتقل هذا المفهوم بطريقة او اخرى إلى العالم الإسلامى، فأخذت تظهر الدول الإسلامية المعتمدة على الأساس العرقى .

فالعرب أصبحت لهم أكثر من دولة بالمفهوم الحديث . (أ) فى افريقية : مصر ، السودان ، ليبيا ، الجزائر ، تونس ، المغرب ، موريتانيا ، الصومال .

(ب) فى آسيا : سوريا ، لبنان ، شرق الأردن ، العراق، المملكة العربية السعودية، اليمن العربية ، اليمن الديمقراطية الشعبية ، سلطنة عمان ، إتحاد الإمارات العربية ، قطر ، البحرين ، الكويت .

ومسلمو أفريقية يدين لهم العالم بتونير أفريقية ونقل اجزاء واسعة منها من البدائية إلى نور الحضارة ، ولا نقصد بذلك الدول العربية فى القارة الإفريقية ، وإنما إلى شرق افريقية جنوبى الصومال ، وإلى غرب أفريقية ابتداء من موريتانيا والى البلاد الواقعة فى قلب الصحراء الأفريقية وحتى الحزام الزنجى فالإسلام والعرب والحضارة الإسلامية كان لها الفضل فى ارتقاء هذه البلاد سلم التطور الذى لا تزال تصعده . رغم ما حاوله الإستعمار الأوروبى للقضاء على هذا الدور الإسلامى السامى هناك فقد كان التراث الإسلامى — ولا يزال — مقدرا كل التقدير ويقوم بدوره فى عملية التطور .

وفى آسيا شعوب كانت لها حضارات هزت العالم بروعتها،فلما انتشر بينها الإسلام اصبحت قمة ومجدا ، مثلما حدث فى فارس والهند ، فتاريخ الفرس قبل الإسلام يملأ الأسماع بأحداثه وتطورات حضارية رائعة ، والهند قبل انتشار الإسلام كانت منارة

حضارية ، فلما آمنت فارس بالإسلام خرجت على العالم بما لا يزال حديث العـــامة والخاصة ، وعندما انتشر الإسلام فى الهند ضربت مثالا لا يزال يحير الباحثين فى تاريخ الحضـــارات .

ولكن عشرات الملايين من المسلمين كانوا مجهولين لدى اخوانهم فى البلاد الأخرى ، فموريتانيا مثلا كانت إسلامية قبل أن تستقل مثلما هى عليه الآن ، ولكن وجودها تحت الاستعمار الفرنسى جعل مسلمى الشرق لا يعرفون عنها إلا النزر اليســير ، وقليل من مسلمى المشرق كان يعرف أن نيجيريا والنيجر والسنغال وغيرها تضم ملايين من المسلمين، وصوت مسلمى الاتحاد السوفيتى والصين خافت ، ويعانى مسلمو الفلبين من سياســة تصفية وقعت تحت الاستعمار الأسبانى منذ اربعة قرون .

ومثلما انتشر الإســـلام بالموعظة والأسوة الحسنة فى قلب الصحراء والغـــابات الإفريقية ، انتشر الإسلام بالموعظة والأسوة الحسنة فيما وراء الهند فى سريلانكا (سيلان) واندونيسيا (جزر الهند الشرقية) وفى الهند الصينية الفرنســية (بورما ــ تايلاند ــ لاوس ــ كمبوديا ــ فيتنام) بل انتشر الإسلام فى الأجزاء الشرقية من الصين .

ومن استبس آسيا انطلقت قبائل احتياحية صوب الغرب افزعت المشرق الإسلامى ايما افزاع ، وهلع العالم من تلك الجحافل المغولية التى بدا وكأنها لا ترد ، حتى توقفت امام القوة المصرية فى عين جالوت لترد هذه الموجة لتقود موجة أخرى مغولية ، ولكن هذه المرة ــ مع انها كانت كذلك إجتياحية ــ كانت إسلامية ، كما أن العناصر التركية التى اسلمت لم تلبث أن تابعت هجرتها وضغطها على آسيا الصغرى (تركيا) حتى تركت تلك المنطقة لتقوم من بعد الدولة العثمانية آخر الدول العامة الإسلامية . تلك الدولة الإسلامية التى ملأت الأناضول (آسيا الصغرى) وامتدت عبر الدردنيل والبوسفور إلى الأراضى الأوروبية (البلقان) ، وظلت تضم اقاليمه الواحد بعد الآخر حتى قضت نهائيـــا على الامبراطورية الرومانية الشرقية (الامبراطورية البيزنطية) وحتى دقت أبواب (فيينا) عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة .

وانتشر الإسلام فى افريقية عبر معابر مصر إلى شمال افريقية وعبر البحر الأحمر إلى شرق افريقية ، حتى اصبحت الصحراء الكبرى إسلامية الشعوب وكذلك شرق افريقيا

ومنها اخذ الإسلام يتوغل الى قلبها · وأصبح لأفريقيا البدائية حضارة وتاريخ إسلامي·

تقدم الإسلام فى افريقية بنوع من البطء ، واصبحت فى افريقية مجتمعات إسلامية وأخرى وثنية ، واقدمت اوروبا على نشر المسيحية ، ففشلت فشلا ذريعا فى المجتمعات الإسلامية ، ولقيت نجاحا متفاوتا من مكان لآخر · وادى ذلك إلى أن نجـــد فى (بورتو نوفو) — عاصمة داهومى — مظاهر الإسلام والمسيحية والوثنية جنبا إلى جنب : مساجد وكنائس ومعابد وثنية ·

ولقد بذلت اوروبا جهودا ضخمة وتضحيات مالية وبشرية كبـــيرة من أجل نشر المسيحية فى المجتمعات الوثنية الافريقية ، وإنه لمن العسير حصر المؤسسات التبشـــيرية الأوروبية التى عملت فى المجال الافريقى نظرا لكثرتها وتوزعها على مختلف المناطق وعلى العديد من المذاهب والطوائف المسيحية ·

وعلى العكس كانت الدعوة الإسلامية والتبشير بها بين المجتمعات البدائية الافريقية تتضاءل حتى يمكن القول أنها أصبحت ضعيفة جدا فى القرن التاسع عشر وما بعده ، وذلك لغياب المؤسسات التبشيرية الإسلامية ولانخفاض المستوى الحضارى بين المسلمين الأمــر الذى ادى إلى ان ينطلق المبشرون المسيحيون للدعوة إلى المسيحية فى افريقيا ·

حقيقة ظهرت مؤسسات فى النصف الثانى من القرن العشرين تعمل على الدعــوة للإسلام فى العديد من البلاد الافريقية ، ولكنها رغم حسن النية وسلامة الهدف ، ليست ناجحة وليست على مستوى المسئولية،واذا كانت هذه المؤسسات قد نجحت فى شىء ربما هو الحفاظ على الإسلام فى قلوب المسلمين · وهو موقف دفاعى ليس فى صالح المسلمين·

ومن أبرز الدعاة إلى الإسلام والتبشير به وكسب أنصار جدد إليه من بين الجماعات الافريقية والأسيوية المتخلفة والبدائية ، من أبرز الدعاة : (رجال الطرق الصوفية) اذ يرجع إليهم الفضل فى دخول الملايين من الوثنيين فى الإسلام وحضارته ·

فعلى يد بعض هذه الطرق الصوفية إنتشر الإسلام فيما وراء الصحراء الكبرى فى أفريقية ، وقامت دول إسلامية على انقاض الدول الوثنية،خاصة بعد تدهور امبراطورية «غانه» وظهر فى مدنها العلماء والفقهاء،ومن أبرز تلك المدن «تمبكتو» ، وخرج من هذه

الدول والمدن الإسلامية عشرات الألوف من الحجاج سنويا إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة أو إلى معاقل العالم الإسلامى فى القيروان والقاهرة ودمشق وبغداد ·

ومن الواضح أن انتشار الإسلام كان أوسع نطاقا بكثير جدا عن انتشار اللغـة العربية،الأمر الذى جعلنا أمام خريطة لمسلمى العالم توزعهم ليس فقط إلى شعوب متميزة بل وإلى شعوب تتحدث لغات كثيرة ، فاذا كان مائة مليون يتحدثون بالعربية ، فهنـاك عشرات الملايين يتكلمون التركية ، وعشرات أخرى تتكلم الفارسية ، وعشرات ثالثة تتكلم الأوردية ، وعشرات تتكلم السواحلية ، اما عن اللهجات فأكثر مما تحصى ·

والكتابة لدى المسلمين متعددة الأشكال ، ولكن العرب لهم الفضل الأعظم فى دفـع اللغة العربية قدما إلى أعلى المستويات محتفظين بالفصحى كأساس للكتابة رغم تعـدد اللهجات العربية ، بينما اكتفى الفرس بكتابة لغتهم بحروف عربية ، وتطرف مصطفى كمال اتاتورك فكتب التركية — وكانت بحروف عربية — بحروف لاتينية ، وظهرت أكثر من دعوة لترك الفصحى الى العامية فتحطمت هذه التيارات وأصبحت أقل من زوبعـة فى فنجـان .

ولكن المشكلة الرئيسية التى لم يقم العالم الإسلامى بحلها حلا جذريا يرفعـه إلى مستوى التقدم السريع لأوروبا الحديثة ، هى أن العالم الإسلامى كانت تسيطر على معظم بلاده التشكيلات العشائرية ·

فالتشكيلات العشائرية الإسلامية العربية وغير العربية تغطى الأغلبية العظمى من البلاد الإسلامية من حدود الصين مرورا باستبس آسيا إلى إيران والبلاد العربية والبلاد الإسلامية فى أفريقية ·

ومع أن مبادىء الإسلام ضد العصبية القبلية ، فقد عادت العصـبية إلى ما كانت عليه قبل الإسلام فى وقت كانت أوروبا تنتقل فيه من التشكيلات القبلية الى النظام الإقطاعى الى شعوب قومية · وكان هذا التحول الرجعى نحو القبلية فى البلاد الإسلامية سببا رئيسيا فى اتساع الفجوة الحضارية بين البلاد الإسلامية والبلاد العربية .

ولقد ظهرت فى البلاد الإسلامية إمارات ودول قبلية ، ومن تلك دولة «القره قوينلو» أى الخروف الأسود، و «الآق قوينلو» أى الخروف الأبيض فى فارس والعراق والأناصول

خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، كما نمت قوة عشائر الأفغان والفلزاى والأوزبك فى مناطق افغانستان ، وقبائل البختيارى الفارسـية ، وقبائل كعب وبنى لام وزبيد وعنزة والبوعلى وقبائل اليمن والرولة وغيرهـا فى العراق وشبه الجـزيرة العربية والشام ، والقبائل العربية العديدة فى السودان وشمال أفريقيـة ونيجيريا .. وغيرها .. وغيرها مما يصعب حصره .

وإذا كانت الصراعات بين القبائل تثير مشكلات كثيرة قبل التفوق الأوروبى على الشرق الإسلامى ماديا وفكريا وعسكريا ، فقد اصبحت هذه الصراعات القبلية نكبة على البلاد الإسلامية فى التاريخ الحديث، وكانت هذه الصراعات القبلية العامل الرئيسى فى تمكين الاستعمار الأوروبى من السيطرة على كثير من البلاد الإسلامية . حدث هذا فى الصومال وحضرموت والخليج العربى وشمال افريقية . كما اصبحت هناك عشائر عربية تنظـر بعين القلق الشديد الى حكامها الفرس وعشائر كردية مترددة بين الولاء لفارس ولحكام العراق ، والفرس أرادوا فرض الفارسية على العرب والأكراد حاولوا خلق قومية كردية لهم على حساب فارس والعراق . ودخل عرب فى الخدمة العسكرية لدى المستعمر مثلما حدث فى الجزائر ، ونادى عرب مسيحيون فى لبنان بالقومية العربية ليتخلصوا من الحكم الإسلامى العثمانى ، بينما نادى عرب مسلمون بالقومية العربية لمواجهة تحول العثمانيين إلى سياسة قومية تركية ظالمة للعرب ولحقوقهم .

ولقد عاق هذا الانتشار الواسع للتركيبات العشائرية التطور نحو التحديث نظرا لأن الولاء الشديد للقبلية يتعارض مع مفهوم الدولة الحديثة لما للولاء للعشيرة من تعارض بل تناقض مع المفهوم الحديث للمواطنة ، حتى لقد قاومت بعض القبائل الحكومة الوطنية بشدة لا تقل عن مقاومتها للاستعمار الأوروبى .

وهذه العصبية القبلية اصبحت فى التاريخ الحديث مشكلة خطيرة تسـعى الدول الإسلامية الى وضع حلول جذرية لها بأسـاليب عديدة ومختلفة . كالتوطين والتثقيف والتحضير ، والدعوة الى مبادىء الإسلام . بل لقد لجأ مصطفى كمال (أتاتورك) الى نقل العشائر الكردية وبعثرتها . ولكن الى جانب المقاومة الشديدة من جانب شيوخ القبائل لتلك السياسات فقد عمل التفوق الأوروبى والاستعمار الأوروبى على شـد أزر التركيبات العشائرية ومقاومة التطور نحو الدولة الحديثة .

ومع ان فترة التسلط الاستعمارى على بعض البلاد الإسلامية كانت طويلة نسبيا مثلما هو الحال بالنسبة لأندونيسيا وسيلان (سيريلانكا) والهند فقد فشلت الجهود الاستعمارية فى تغيير الطبيعة الإسلامية لتلك البلاد ، ولكن نجحت ـ واحيانا إلى حد خطير ـ فى وقف تقدم وانتشار الإسلام ، وفى خلق قوى مناهضة للإسلام والمسلمين ، عن طريق التبشير تارة ، وتقوية الجماعات المتنصرة ورفعها إلى مستوى الحكم والسلطة والثروة وغير ذلك من الأساليب التى ادت إلى مشاكل معقدة فى تشاد وجنوب السودان والهند ولبنان وغيرها .

وإذا ما القينا نظرة على الكثافة السكانية للعالم الإسلامى نجد ان العالم الإسلامى فى الوقت الذى يضم فيه عددا من المناطق ذات الكثافة السكانية العالية جدا فى أودية أنهار السند ودلتا مصر ، نجد كذلك ان العالم الإسلامى يضم أقل مناطق العالم الإسلامى كثافة فى استبس آسيا والصحراء الكبرى، وتمثل اندونيسيا وبنجلاديش من جهة والصحراء الكبرى فى أفريقية من جهة اخرى متناقضات صارخة فى العالم الإسلامى من حيث الكثافة السكانية الضخمة فى المجموعة الأولى والكثافة السكانية المتناهية فى الضآلة بالنسبة للمجموعة الثانية . وإن كانت جميعها متقاربة من حيث التخلف الاقتصادى .

ومن حيث المستوى الاقتصادى ، فقد امتد الإسلام وانتشر فى قلب العالم القديم الخصب وفى أودية انهار عظمى ذات دالات متسعة كنهر السند والفراتين والنيل العظيم ، كما اصبحت سواحل قلب العالم القديم تحت السيطرة الإسلامية إمتدادا من الشواطىء الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط حتى سواحل الأطلنطى عند المغرب وموريتانيا والسنغال إلى السواحل الجنوبية الممتدة من شرق أفريقية إلى جنوب شرق آسيا ، وكان المسلمون رجال بحر على مستوى عال حتى تخلفوا فى بناء الموانى وفى بناء السفن واقتصروا على ارتياد البحار بسفن شراعية بينما اقبلت أوروبا على ارتياد البحار والمحيطات بسفن شراعية أكبر إبتداء من القرن الخامس عشر .

واستمرت أوروبا فى التفوق فى الملاحة البحرية والمحيطية وتشكلت شركات كبرى ذات اساطيل تعمل فى أعالى البحار والمحيطات وفى الأنهار الداخلية حتى احتكرت الملاحة على الخطوط العالمية التى يطل عليها العالم الإسلامى ، وحتى احتكرت الملاحة فى انهار كبرى إسلامية للمسلمين فيها مصالح رئيسية مثل دجلة والفرات وقارون والنيل والنيجر .

كما سيطر الاستعمار الأوروبى على المنافذ البحرية الإسلامية : طنجة — قناة السويس — عدن — الخليج العربى — ملقا ٠

وكانت المواصلات البرية عبر العالم الإسلامى كذلك قد استمرت بدائية،ففى الوقت الذى كان فيه الروس ينفذون خطوطا للسكك الحديدية فى خيوة ومرو فى اتجاه أفغانستان وفى ايران لإحكام السيطرة على تلك البلاد الإسلامية أو التمهيد للسيطرة عليها كان الانجليز والفرنسيون والألمان يفعلون نفس الشىء فى البلاد العربية فالأهداف معروفة من وراء المشاريع الأجنبية لمد خطوط السكك الحديدية وأهمها :

خط حديد برلين — بغداد وخط حديد الحجاز وخط حديد الاسكندرية القاهرة السويس وخطوط السكك الحديدية فى السودان وشرق أفريقية ٠ فالغالبية العظمى لهذه الخطوط وكذلك خطوط المواصلات البرية الحديثة كان لخدمة الاستراتيجية الغربية والاقتصاد الاستعمارى الأوروبى اولا ثم خدمة المصالح الوطنية ثانيا ٠

والعالم الإسلامى — بصفة عامة — يصدر خاماته خلال العصر الحديث إلى الدول الأجنبية بينما هى تحاول جاهدة أن تحصل منها على التكنولوجيا المعاصرة ، وحتى الآن لم تحصل البلاد العربية والإسلامية إلا على جزء منها ٠

وقد ساعد ضعف العالم الإسلامى على تقلص أطرافه تدريجيا ، بينما بلغت جموع المسلمين قلب فرنسا ودقت الجيوش العثمانية أبواب فيينا (١٦٨٣) نجد المسلمين قد فقدوا الأندلس وأجزاء إسلامية واسعة فى البلقان وقامت اسرائيل على ارض إسلامية ٠

وهناك العديد من المناطق التى أخذ المسلمون فيها يفقدون أكثريتهم أو قوتهم أو مكانتهم تحت الضغط المعادى ، فالصحافة فى البلاد الإسلامية لم تبرز مشكلة مسلمى الفلبين إلا بعد أن تناقصت نسبتهم هناك من ٣٥٪ إلى ٥٪ فقط ٠ كما يتناقص تعداد مسلمى الحبشة وتنزانيا وأوغنده بسبب الاستعمار والعوامل الطائفية والظروف الاستعمارية ، فلقد كانت الكلمة العليا للمسلمين فى معظم مناطق الحبشة حتى جاء البرتغاليون إلى المياه الإسلامية الجنوبية وتحالفوا مع الحبشة ضد المسلمين ، كما أن معظم تنزانيا (زنجبار وتنجانيقا) كانت تحت الحكم العربى حتى القرن التاسع عشر عندما سيطر الانجليز على أسرة « البوسعيد » وممتلكاتها ٠

وكانت هناك أجزاء من العالم الإسلامى معرضة للضياع فى التاريخ الحديث ، ونعنى بذلك ادعاء فرنسا أن الجزائر قطعة من فرنسا وبذلت هذه الدولة أقصى قدراتها لخلق شعب فرنسى على طول الساحل الجزائرى على الأقل ، كما حاولت إيطاليا فى عهد الملكية وكذلك فى الفاشستية أن تفعل بليبيا نفس الشىء، ولكن باءت كذلك محاولاتها بالفشل، حقيقة كان ذلك الفشل نتيجة للمقاومة الإسلامية الجزائرية والليبية ، كذلك بسبب تلك الوقفة الرائعة المصرية إلى جانب المقاومة الجزائرية والليبية . فلقـــد خرجت من مصر - رغم أنها تحت الاحتلال البريطانى - حملات ضد الاستعمار الإيطالى ســنة ١٩١١ ، وظلت مصر مقرا للوطنيين الليبيين وكان لمصر دورها المشهود فى حصول ليبيـــــا على الاستقلال فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ولم تجد فرنسا من وسيلة للبقاء فى الجزائر إلا بالعمل على توجيه ضربة قاصمة إلى مصر ترغمها على نفض يدها من القضية الوطنية الجزائرية ، فكان أن دبرت مع انجلترا واسرائيل العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦ فكان ان انقلبت الأوضاع على رأس الاستعمار وحصلت الجزائر على استقلالها . والأدوار التى لعبتها مصر فى تحرير واستقلال دويلات الخليج العربى واليمن الشعبية وغيرها من البلاد الإسلامية يشكل جزءا رئيسيا فى تاريخ العلاقات الدولية .

على أن تلك النجاحات التى أحرزتها بعض البلاد الإسلامية والعربية فى التخلص من التسلط الأوروبى يجب ألا تخفى عن أعيننا نوعا خطيرا من التراجع عن الفــكر الإسلامى الحقيقى ومن الأخذ بالفكر العلمانى وبالمذاهب المستوردة ، فإذا كان إلغاء الخلافة على يد مصطفى كمال أتاتورك فى ١٩٢٤ وتركيزه على اللغة التركية غاضا الطرف عن اللغـة العربية - لغة القرآن الكريم - وانتشار الفكر الشيوعى فى بعض أجزاء محدودة من العالم الإسلامى وفى أفغانستان إذا كان هذا مؤشرات تراجع إسلامى أمام فكر مناهض للإسلام فإن الزعامات الإسلامية بدأت تعنى باعادة النظر فى المواجهة الجادة بين الفكر الغربى على اختلافه والفكر الإسلامى فى محاولة لتجنب التقاليد المعرقلة للتطور ووقف عملية التخريب فى الفـــكر الإســـــلامى .

ولدى الأوروبيين ولع بتضخيم الفوارق بين المسلمين سواء من حيث العنصر او من حيث المذهب أو الأرض التى يعيشون عليها . وقد يكون هذا الاتجاه مقصودا من بعض المفكرين الأوروبيين ، وقد يكون انعكاسا لمنهج البحث التاريخى لديهم، حيث إن الأوروبى

يعامل الأقطار الإسلامية على اعتبار انها وحدات قومية قائمة بذاتها ، فكان أن وقفت الدول الأوروبية ضد الجامعة الإسلامية ورفضت الولايات المتحدة فكرة الوحدة العربية ٠

ولقد قوى وتعمق هذا الاتجاه بسبب الاستعمار الأوروبى فى الوطن العربى والعالم الإسلامى ، فأصبحت الحدود دولية ، واصبحت قوانين الجنسية والإقامة تطبق على المسلم اليمنى مثلما تطبق على الدنماركى ٠

بل لقد ظهرت إلى جانب ذلك مشكلات طائفية عمقت من هذه الفواصل الحديثة حقا ، لقد كانت هناك طوائف إسلامية منذ صدر الإسلام وكانت هناك مذاهب متعددة كذلك ، ولكن المذاهب الرئيسية لا تختلف فى الأصول وإنما فى التفاصيل ٠ وعمل الاستعمار على تعميق هذه الخلافات المذهبية وتحويلها إلى مفاهيم متناقضة فى بعض الأحيان ٠

فعندما جاء نابليون بونابرت على راس الحملة الفرنسية إلى مصر وفوجىء بالثورات الشعبية الكبيرة تأكد انه يعيش على ارض معادية فلجأ إلى التفرقة الطائفية وسعى الفرنسيون إلى تكوين فرقة عسكرية من الأقباط فى مصر مستغلين العاطفة الدينية ٠

كذلك يلاحظ ان الانجليز قبل احتلالهم لمصر وبعده كانوا يركزون على دورهم فى حماية الأقليات ، واعتبر الانجليز اقباط مصر من الأقليات وليسوا مواطنين ولكن فوجىء الانجليز فى ثورة ١٩١٩ ان الأقباط يرفضون تماما انهم اقلية تحت حماية أجنبية ٠

وفى السودان تكشف لنا نشرة لأحد المواطنين عما كان يفعله الانجليز من أجل إيقاع التفرقة بين المسلمين والمسيحيين ، ومن أجل القضاء على الإسلام وإيقاع الفرقة بين اهله تمكينا لسياستهم الاستعمارية فى السودان ومصر ، وتقول هذه النشرة :

« إن هدف السياسة البريطانية هو خلق انقسامات بين مختلف القبائل لاكتساب مساعدة الواحدة ضد الأخرى ٠٠ جردوكم من ارضكم التى تملكونها بحقوق قانونية ٠٠ بغية إعطائها إلى الشركات الانجليزية ٠٠ انظروا الى مدارسهم فى الخرطوم وأم درمان حيث يرغم الطلبة على التبشير بالإنجيل ، ثم ان الحكومة اخذت أيضا فى إدخال المسيحية فى جميع أنحاء السودان الجنوبى ٠٠ فى الخرطوم ذاتها ستة كنائس وجامع واحد فقط

وهو الذى لم يتم بناؤه بعد طوال عشرين عاما ٠٠ إن الانجليز قد تبنوا سياسة التفرقة بين (المحمديين) والأقباط فى مصر ، ناشرين الدسائس بين الفريقين ٠٠ على أنه متى عُرف الفريقان ذلك واتحدا معا ، فإنهما يتوصلان الى تحقيق غاياتهما والله هو المعين ٠

اتحدوا مع اخوانكم المصريين واعملوا من اجل استقلالكم ٠٠ إن أخوانكم المصريين يعملون الآن من اجل انفسهم ومن أجلكم » ٠

وكما طالب بعض المواطنين فى السودان بإزالة القيود المفروضة على الإسلام والمسلمين فى السودان الجنوبى ، نادى المسلمون فى لبنان بأن الامتيازات التى حصل عليها الموارنة لا تعد إلا إفتئاتا على الحقوق الشرعية للإنسان،وفى العراق بذل الانجليز جهودا كبيرة فى رفع النساطرة (الاثوريون) إلى قوة ضاربة طائفية ضارة بالكيان الإسلامى للعراق ، ولم تصف هذه المشكلة إلا بعد صدام دموى فى ١٩٣٣ ، كما عمل الانجليز على تعميق النزعة القومية بين الأكراد الأمر الذى حفر هوة لا يزال يعانى منها العراق حتى الآن ، كما اثار مؤرخون انجليز واداريو حكم الانتداب الانجليزى فى العراق جدلا عن هوية شيعة العراق وفجروا فتنة كانت نائمة بين شيعة العراق وسنته ، وعندما وقعت الحرب العراقية الإيرانية كان الشيعة العراقيون يذودون عن وطنهم العراق بكل تضحية وصلابة وفى اليمن كانت هناك ازمات بين الأئمة الزيديين والشوافع ، واستخدم الفرنسيون فى المغرب سياسة التفرقة بين العرب والبربر ٠

تلك بعض جهود خصوم الإسلام والمسلمين لتعميق الفوارق بين أهله ٠ فهل هناك سبيل إلى وحدة إسلامية ؟

لقد كانت الوحدة الإسلامية السياسية هدفا كبيرا لزعامات إسلامية متعددة خلال القرن التاسع عشر ٠ وفى عهد جمال الدين الأفغانى والسلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ — ١٩٠٩) اصبحت هذه الدعوة لوحدة إسلامية ذات أبعاد محلية ودولية ضخمة، ولكن إنهارت هذه الدعوة تحت ضغوط متعددة اهمها :

١ — لقد كان العصر عصر القوميات ، وانتشر الفكر القومى وكذلك الايديولوجيات الحديثة الغربية ٠

٢ — انتشار التعليم الغربى ٠

٣ ــ انتشار الاستعمار الأوروبى فى البلاد الإسلامية والعربية .

ويجب ان نعترف هنا ان مبدأ او نظرية الوحدة الإسلامية اصبحت من النظريات التى تتردد فى العالم الإسلامى ، احيانا بقوة مثلما حدث فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، واحيانا بضعف خلال النصف الأول من القرن العشرين . وهى حاليا تتردد فى اكثر من مكان ، ولدينا (المؤتمر الإسلامى) ولكن لا تزال النظرية فى حاجة إلى تعديل جوهرى حتى تتلاءم مع ظروف القرن الحادى والعشرين .

وتعانى بعض دوله من مشكلات حادة مزمنة مثل (الديون) وعلى راسها العراق ومصر وسوريا ، وهى ديون للدول الكبرى والدول الأوروبية الغربية،واستنفدت أحجاما كبيرة جدا من تلك الديون فى مواجهة الحروب أو نتائجها ، وهى فى نفس الوقت فى حاجة إلى أموال ضخمة أخرى حتى تعالج مشاكلها وتقوم بمسئولياتها ، وحتى لا تستخدم هذه الديون فى دفعها نحو التبعية وما يترتب عنها من نتائج خطيرة .

ونظرا لأن المجتمعات الإسلامية عاشت سنوات بل قرونا على تقاليد اجتماعية وسياسية واقتصادية غير سوية ، فإنها فى حاجة إلى اعادة تكوين او اعادة بناء . ومن ابرز ذلك (عشق) الوظيفة الحكومية ، وهذا داء اصاب المجتمع المصرى ، واصاب المجتمع العربى البترولى الثرى ، حتى ظهرت البطالة المقنعة فيه .

ولا يزال المجتمع الإسلامى ينظر إلى المرأة نظرة لا تقبلها الديمقراطية اللبرالية ، وليس هذا هو الأمر المفروض فقط وإنما هى مشكلة تعانى منها المجتمعات الشرقية وخاصة الإسلامية من حيث ان المرأة هى نصف المجتمع ، وإذا لم تكن انتاجية . وليس فقط فى الانجاب ــ فان المجتمعات الأخرى التى تعمل فيها المرأة وتنتج ستكون اقوى بكثير جدا من المجتمعات الإسلامية ، وتفرض نفسها عليها وتصبح المجتمعات الإسلامية مجالا لنشاط مجتمعات اخرى . ومن ثم يجب أن لا نفقد القدرات الانتاجية لنصف المجتمع الإسلامى ، وخاصة أن القرنين التاسع عشر والعشرين شهدا اقتحاما جيدا من جانب المرأة للغالبية العظمى من مجالات العمل والانتاج .

ومن يشاهد المرأة المصرية التى كانت (ملثمة) فى النصف الأول من القرن العشرين واصبحت منطلقة فى مجالات العمل فى القرن العشرين ، ومن يشاهد المرأة الكويتية وكانت

هى الأخرى ملثمة فى مطلع القرن ومنطلقة حضاريا استهلاكيا فى النصف الثانى من القرن العشرين يتبين له بسهولة أن القيود الاجتماعية غير المنطقية تزول بالتدريج،ولكن الأهم من ذلك هو أن تصبح الفتاة والمرأة الإسلامية (انتاجية) حتى يستطيع المجتمع الإسلامى أن يواجه المستقبل بكل طاقاته الانتاجية .

ولا يمكن أن يتحول المجتمع الإسلامى إلى قوة انتاجية عالمية إلا عن طريق التربية والتعليم والسلوك الاجتماعى والمنهج العلمى ووضع النظريات موضع التطبيق بما يتلاءم مع طبيعة المجتمع الإسلامى ومع التوقعات المستقبلية المحلية والاقليمية والعالمية بل والكونية .

ومن المشكلات العويصة التى تواجهها المجتمعات الإسلامية المتعددة الانتقـــال من (البداوة) إلى (الانتاجية الصناعية) ، حيث أن المجتمعات الإسلامية البترولية الغنيـة تعتمد على (العمالة) المستوردة فى المشروعات الاستهلاكية . ودون تنسيق يحدث نقلة انتاجية وإنما التنسيق لا يزال من منطلقات قطرية بحتة . ولسنا من أنصـــار ذوبان الأقطار الإسلامية بعضها فى بعض لاقامة الدولة الإسلامية الواحدة بسرعة غير محسوبة، وانما من انصار الملاءمة المربحة لكافة الأطراف بين متطلبات قطرين إسلاميين أو أكثر . ومن هنا يكون الاقبال الطبيعى على إزالة الحواجز بين قطرين أو أكثر وهكذا .

وهذه الخطوط الأخيرة قد بدأت فعلا فى المجتمع العربى ، حيث تشكلت وحدات اقليمية (مجلس التعاون العربى ، مجلس تعاون الخليج ، الوحدة المغـــاربية) ، ولكن الأهم من قيام أى تجمع أقليمى يجب أن يكون انتاجيا يعود بالفائدة على كافة الأطراف المشـــــاركة .

وكثيرا ما تردد أن المجتمعات الإسلامية غالبا ما تعيش فى منــــاطق صحراوية أو زراعية ، وأن الانتاج الصحراوى والزراعى لا يعطى الفرصة للارتفاع إلى مستوى العصر إلا اعتمادا على محصول نقدى (مثل البترول) أو (القطن) والحقيقة غير ذلك حيث أن دولة زراعية مثل هولندا تعتبر فى مصاف الدول المتقدمة ، ودويلة صغيرة هى (تايلاند) تعتبر دولة صناعية ولبنان الفقير الى المعـــادن اعتبر دولة متقـــدمة فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين .

إن المجتمع الإسلامى سواء الثرى فيه أو الفقير يعيش بصفة عامة فى مناخ غير صحى

(اقتصاديا) ولا بد من ان يتعدل هذا المناخ سواء بالنسبة للفـرد أو للجميع حتى يمكن الانتقال من عصر التناقضات إلى عصر الانتاج ٠

وهناك تصنيفات أخرى لشعوب الشرق الأوسط وللشعوب الإسلامية :

— شعوب فقيرة جدا وأخرى غنية جدا ٠ وابرز مثال على ذلك الغنى الفاحش للكويت ولدولة الامارات وقطر والفقر الشديد الذى يعانى منه السودان ٠
— دول راديكالية مثل البانيا وحكومة افغانستان وسوريا وليبيا واليمن الشعبى ودول محافظة جدا مثل السعودية ودول وسط بين هذا وذاك مثل مصر والمغرب ٠
— دول ذات كثافة سكانية منخفضة مثل معظم البلاد العربيـة البترولية ودول ذات كثافة سكانية معقولة مثل إيران وتركيا ودول ذات كثافة عالية جـدا مثل مصر لضيق الوادى المعمور وباكستان ٠

أما الوطن العربى والعالم العربى فهو الممتد من الاطار الأعجمى الشرقى عبر العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ووادى النيل وشمال أفريقية ، وهو الذى يضم دول الجامعة العـربية ٠

ويمكن أن نقسم المسلمين الى الأقسام الرئيسية التالية :

المجمـوعة الأولى :

— البلاد العربية وما جاورها من بلاد افريقية ذات تركيبات عربية إسلامية قوية ٠

المجمـوعة الثانية :

— مسلمو تركيا والبلقان ٠
— مسلمو إيران ٠
— مسلمو افغانسـتان ٠
— مسلمو الاستبس (الجمهوريات السوفيتية الإسلامية) ٠
— مسلمو الصحراء الكبرى ٠
— مسلمو غرب افريقية ٠
— مسلمو قلب افريقية وشرقها ٠

— المسلمون فى جنوب افريقية ٠

المجموعة الثـــالثة :

— المسلمون فى المهجر فى أمريكا الشمالية والجنوبية وفى استراليا ٠

وأما الوطن العربى فيمكن تقسيمه إلى الأقسام الرئيسية التالية :

١ — القلب أى وادى النيل ٠

٢ — المشرق العربى وينقسم إلى : العراق — الاردن — الشام — شبه الجزيرة العربية ٠

٣ — المغرب العربى : ويتكون من الدول الخمس : ليبيا ، الجزائر ، تونس ، المغرب ، موريتانيـــــا ٠

٤ — الصومال الكبير : الصومال ، جيبوتى وما سلب منها لصالح الحبشة ٠

والهدف من تلك التقسيمات هو سهولة تناول تاريخهـــا وفى نفس الوقت لأن كل مجموعة من تلك المجموعات تقدم دلالة معينة ذات خلفية تاريخية يجدر أن تؤخـــذ بعين الاعتبـــــــــار ٠

وتوجد مصطلحات أخرى ذات علاقة وثيقة بالشعوب الإسلامية :

١ — الشرق الأدنى ٠

٢ — الشرق الأوسط ٠

٣ — الأمة العربية ، والشعوب العربية ، والوطن العربى ، والعالم العربى ، والعرب ، وبلاد العــــــــــروبة ٠

ومصطلح الشرق الأدنى اقدم من مصطلح الشرق الأوسط ، وكلاهما من ابتـــداع الأوروبيين ٠ والشرق الأدنى كان يقصد به — إلى حد كبير — الدولة العثمانية التى كانت تمتد فى معظم البلقان إلى العراق إلى معظم الجزيرة العربية ومصر وشمال افريقية ، ومن ثم فهى الشرق القريب (الأدنى) من اوروبا ٠

أما الشرق الأوسط فهو مصطلح اطلقه الغرب (امريكا واوروبا) على المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية العالية فى قلب العالم القديم الممتدة من باكستان إلى إيران وتركيا والبلاد العربية حتى المحيط الأطلنطى ويدخل فيه كذلك حوض البحر المتوسط فى اطاره العربى بصفة خاصة ٠ وشاع استخدام هذا المصطلح خلال واعقاب الحرب العالمية الثانية ٠

ولكن تعرض هذا المصطلح لتطورات عديدة . فقد كان يستخدم فى أول الأمـــر ـ خلال الحرب العالمية الثانية وأعقابها ـ بمفهومه الواسع الذى أشرنا اليه آنفا .

وبنمو الاستراتيجية الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط تميزت داخله مناطق عن أخرى ، فظهرت دول الاطار الخارجى الإسلامى المتحالف مع الولايات المتحدة بشـــكل مباشر أو غير مباشر وكانت هى نفسها ـ أى تلك الدول الإسلامية ـ العصب الأساسى لحلف بغداد (تركيا ـ إيران ـ باكستان ـ بغداد) ، وكما هو واضح أنها كانت شعوبا إسلامية غير عربية باستثناء العراق ، بينما كانت البلاد المحيطة باسرائيل تعانى بشدة من الصراع مع اسرائيل التى كانت تدعمها الولايات المتحدة والدول الأوروبية بصفة عامة .

وادى انهيار حلف بغداد خلال الستينيات والسبعينيات واضطلاع مصر بمسئولية اعطاء دفعة قوية إلى الحركة الوحدوية العربية ، وعدم اشتراك الدول الإسلامية غـــير المماسة لاسرائيل اشتراكا ايجابيا فى الصراع العربى الاسرائيلى أدى إلى أن ينظر الراى العام العالمى إلى الشرق الأوسط وإلى مشكلة الشرق الأوسط على اعتبار انها صـــيغة أخرى للصراع العربى الاسرائيلى ، ثم حدث تطور كبير آخر عندما قامت الثورة الإسلامية على الطريقة الخمينية الشيعية ونجحت فى استلام السلطة فى ١٩٧٩ .

فقد أعلنت زعامات الثورة الإيرانية أنهم يسعون إلى تصدير الثورة الإسلامية وقيام الجبهة الإسلامية ، وتصفية الوجود الاسرائيلى ، وأنهم لناجحون فيما فشل فيه العرب بقوة الايمان وقوة السلاح ووصل بهم الأمر ان قالوا أن تحرير فلسطين يكون عبـــر العراق ، وتهيأت الظروف ليس لحركة تحريرية إيرانية لفلسطين ولكن لحرب إسلامية ـ إسلامية بين إيران والعراق،اتخذت شكل صراع بين النظرية الإسلامية والقومية العربية، وبين العجم والعرب ، إلى غير ذلك من مؤججات الصراع .

على أى حال فقد أدت هذه الحروب إلى اتساع مفهوم الشرق الأوسط مرة اخرى ، بل زاد اتساعا مع الغزو السوفيتى لأفغانستان والدور الباكستانى النشط فى مقاومته ، بينما توصلت مصر واسرائيل إلى صيغة للسلام العسكرى دون تطبيع العلاقات، فأصبحت أطراف الشرق الأوسط أشد توترا من قلبه بينما كان قلبه من قبل متواصـــل التوتر بسبب الصراع العربى ـ الاسرائيلى الذى لعبت فيه مصر الدور الرئيسى .

إن الحرب الأهلية اللبنانية منذ ١٩٧٣ وما صاحبها من غزوات اسرائيلية للبنان ومصادمات متباعدة بين اسرائيل وسوريا وتدخل عسكرى من جانب الولايات المتحدة، وإن الانتفاضة الفلسطينية منذ ديسمبر ١٩٨٧ واستمراريتها ودورها الايجابى فى مواقف بعض الدول الكبرى من الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى فضلا عن الحرب العراقية الإيرانية ، والحرب الليبية التشادية وحرب المغرب ضد البوليزاريو والحرب فى جنوب السودان ، كل هذا جعل صورة الشرق الأوسط والبلاد العربية كئيبة لدى الدول والشعوب الأخرى .

حتى بدت هذه الصورة الكئيبة تتحسن بتوقف الحرب العراقية الإيرانية ، ومحاولات التوصل إلى حل للمشكلات الأخرى فى المنطقة .

وخلال السنوات الأخيرة كانت التيارات الوحدوية على اساس اقليمى تنمو حتى ظهر (مجلس تعاون الخليج) فى السبعينيات و (الوحدة المغاربية) من دول شمال أفريقية الخمس ، و(مجلس التعاون العربى) الذى يضم أكبر دولتين مقاتلتين عربيتين هما مصر والعراق فضلا عن الأردن الذى تمرس منذ بداية الصراع العربى الاسرائيلى على خوض معاركه .

واتجهت تركيا إلى الافادة من تاريخها العثمانى الإسلامى ليكون لها موقع قوى فى المنطقة ، هذا فضلا عن تيار القومية العربية الذى أخذ يشتد عوده مرة أخرى فى عهد حسنى مبارك بعد استعادة مصر مكانها فى الجامعة العربية بعد مقاطعة عربية لمصر امتدت حوالى عشر سنوات (١٩٧٩ — ١٩٨٧/١٩٨٨) .

تلك كانت نظرة على مصطلح «العالم الإسلامى» و «البلاد الإسلامية»و«المسلمون» بما هم عليه وبما عليهم أن يفعلوه .

ولدينا عدة ملاحظات بشأن العالم الإسلامى هى :

١ — إن أطراف العالم الإسلامى أخذت تتآكل سواء فى البلقان أو فى مناطق الشرق الأقصى (الفلبين) . فقد كان البلقان كله تقريبا تحت السيطرة العثمانية الإسلامية ثم أخذت هذه السيطرة تنحسر بالتدريج حتىلقد ظهرت حركة منظمة لطرد المسلمين من البلقان خلال القرن التاسع عشر ، ونجحت فعلا فى تقويض الامبراطورية

(الدولة) العثمانية ، حتى لم يبق للاتراك العثمانيين على الأرض الأوروبية سوى رقعة صغيرة جدا حول (ادرنه) . كما ظهرت حركة منظمة لتصفية الوجـــود الإسلامى فى بعض الدول الشيوعية فى البلقان ، مما أدى إلى أزمة بين بعض هذه الدول وتركيا بصفة خاصة .

٢ ـ كان المسلمون قد وصلوا إلى جنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وبعد أن فقدوا هـذه المناطق وثبت القوى الأوروبية على شمال افريقية حتى أصبح فى القرن التاسـع عشر وقبيل الحرب العالمية الأولى قسمة بين الدول الاستعمارية وبصفة خاصة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، ولا تزال حتى الآن جيوب استعمارية فى شمال أفريقية مثل سبته ومليله .

٣ ـ إن العالم الإسلامى بأسره وقع تحت نير الاستعمار الأوروبى باستثناء بعض اجزائه المحدودة مثل (نجد) ـ فى قلب الجزيرة العربية ـ واليمن . وتلك الحقيقة وضعت شعوب العالم الإسلامى بأسره فى قائمة الشعوب المتخلفة ولكنها اخذت تتخلص من الاستعمار إلا أنها لا تزال تعانى من أنواع مختلفة من التبعية .

٤ ـ إن الشعوب الإسلامية وهى تحاول اللحاق بركب الحضارة الحديثة ، تبنت عـدة ايديولوجيات :

(أ) التقاء الفكرى العربى الإسلامى مع تطويع الحضارة الغربية وتطبيعها واعادة صياغتها واقتباسها مثلما حدث فى المملكة العربية السعودية .

(ب) التوفيق بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية مثلما فعلت مصر .

(جـ) الأخذ بالحضارة الغربية والاندماج فيها مثلما حدث لدعـاة الاندماج فى الجـزائر .

والخطورة التى تواجه العالم الإسلامى فى المستقبل القريب هى تفـوق الدول الغربية تفوقا حاسما فى التكنولوجيا ، ويخشى من أن تفرض الدول الغربية نفسها فرضا على الشعوب الإسلامية .

وما من مخرج من وجهة نظرنا من هذا المأزق سوى استعادة المسلمين المبـادأة

والمبادرة فى المشروعات الكبرى التى تحافظ على (الشخصية الإسلامية) ، وما من أسلوب أجدى من (الاقتصاد الانتاجى) للحفاظ على هذه الشخصية الإسلامية ٠

٥ ـ تضارب الايديولوجيات فى البلاد الإسلامية ٠ فبعض البلاد الإسلامية أخـــذت بالشيوعية ، مثل البانيا ٠ وتعيش كتل بشرية كبيرة فى الدول الشيوعية الكبرى مثل الاتحاد السوفيتى والصين ، وهذه الكتل البشرية الكبيرة معرضة لأن تفقـد يوما ما هويتها الإسلامية ٠ كذلك هناك كتل بشرية كبيرة استوعبتها الحضـارة الغربية حتى اصبحت اقرب إلى أوروبا منها إلى العالم الإســلامى ولم يبق من إسلاميتها سوى المظهر ، وحجم ليس بالقليل منها يعيش داخل الشعوب الإسلامية نفســـــــها ٠

وإننا لا ندعو إلى ارغام هؤلاء على اتباع التعاليم الإســلامية وانما ندعو الى اقناعهم بتلك التعـــاليم ٠

٦ ـ إن الايديولوجيات الغربية ـ مثل الديمقراطية اللبريالية ـ هى التى ستجتاح العالم خلال السنوات القليلة القادمة ٠ وينظر إليها العديد من القيادات الإسلامية على أنها ستدمر الفكر الإسلامى ، والحقيقة هى أنها ليست كذلك إذا ما تعامل معهـا الشرق الإسلامى بحكمة ٠ فعليه ان يعترف أولا بأنهـــا هى الايديولوجية التى ستحتل المرتبة الأولى فى العالم خلال الفترة القادمة ٠ وعليه أن يطبع العلاقات معها بدلا من أن تكسر على المسلمين أبوابهم بشكل يخرجهم من دينهم ٠

٧ ـ إن فى العالم الإسلامى مجموعة من الصراعات على رأسها الصراع بين مفهوم عالمية الإسلام ومفهوم القومية العربية والوطنية القطرية ٠ وهو صراع اشـتد أواره فى النصف الثانى من القرن العشرين ٠ وهو صراع إن لم نتحكم فيـــه فسيؤدى إلى تحكم الآخرين فينا باسم السلام من أجل الديمقراطية اللبرالية ٠ وتجد الشعوب الإسلامية قد فرض عليها السلام وفرض عليها ايديولوجية دون تطويع هذا السلام أو تلك الايديولوجية لمصلحة الشعب والشعوب الإسلامية ٠

٨ ـ إن الشعوب الإسلامية استهلاكية فى مجملها ومدينة للدول الكبرى ، معرضة لخوض حروب ضد جيران طامعين فيها ، وفوق هذا وتلك فهى فى حاجة مستمرة إلى دعم

الدول الكبرى بطريقة او بأخرى . وبالتالى فعلى هذه الشعوب أن تحدد شــكل التبعية ، والتبعية فى حد ذاتها خطر إذا ما تعدت المعقول ، وهذا ما يجب أن تحدده الشعوب الإسلامية بحيث تتخلص من (التبعية) وتدخل فى اطار (التعـــاونية) الدوليـــــــة .

٩ ــ إن الفكر الإسلامى يجب أن يتطور تطورا جوهريا بحيث يكون قادرا على استيعاب الايديولوجيات الأخرى . والفكر الإسلامى فيه ما يستوعب أية ايديولوجية أخرى. ونظرا لأن رجال الدين ليسوا على مستوى المسئولية لتحقيق هذا الهــدف ، فإن المؤسسات الدينية يجب أن تتعرض لأزمة حوار مفتوح حتى تجـــد الطريق الذى يحافظ على الهوية الإسلامية ويفيد من التطورات الحضارية الغلابة .

فمن المعروف أن بعض رجال الدين المسلمين خلال القرن التاسع عشر والعشرين اتخذوا مواقف متصلبة من الاقتباس من النهضة الأوروبية الحديثة والمعاصرة ، فبعضهم كان يرفض (التليفون ــ والراديو) فأصبحا فى زاوية من زوايا المنزل ، ولكن اخطر موقف سلبى لرجال الدين كان بالنسبة لتجارة الرقيق فلم يعلنـــوا تحريمها فى الوقت الذى كانت فيه انجلترا تتزعم حركة إنسانية واسعة النطــاق لتحريم هذه التجارة غير الإنسانية ، حتى لقد أصبح المفهوم فى أواخر القرن التاسع عشر أن المسلمين ــ وخاصة العرب ــ هم تجار العبيد،مع أن الأوروبيين هم الذين استنزفوا قوة أفريقيا البشرية ، وتوقفوا عن تجارة الرقيق بعـــــد أن توقفت المستعمرات الأوروبية فى العالم الجديد (امريكا الشمالية والجنوبية) عن استيعاب رقيق جدد . وهكذا اصبح الافريقيون مقتنعين ــ وعلى نطـــاق غير ضيق ــ بأن العرب مسئولون عن تجارة الرقيق ، وان الانجليز هم المخلصون .

١٠ ــ إن اعدادا كبيرة من الشعوب الإسلامية تعيش حالة حضارية شـــديدة التخلف واعنى بذلك حياة (القبائل) و (العشائر) وهذا يعتبر سبة فى جبين أى مسلم . وهذه التركيبات القبلية تكاد تغطى معظم العالم العربى بالذات . فتلك التركيبات القبلية ستكون لقمة سائغة لأية حضارة أخرى متفوقة .

١١ ــ كانت تموج فى البلاد الإسلامية الصراعات مثلما حدث فى القارة الهندية بين المسلمين

والهندوس ، وبين الشيعة والسنة والموارنة والدروز فى لبنان ، وبين العـــراق وإيران ، وبين السعودية واليمن وبين السعودية ومصر وبين ليبيا وتشاد وبين موريتانيا والسنغال ، وهذه اشارات وليست حصرا ، ومن ثم فان هذه الصراعات كفيلة بأن توقف عملية التنمية وليس فقط تعطيلها الأمر الذى يعرض تلك البلاد الإسلامية للوقوع فى نوع جديد من السيطرة والاستغلال الأجنبى •

١٢ ـ إن البلاد العربيـــة المحيطة باسرائيل هى التى تحملت أساســـا مغارم الصراع العربى ـ الاسرائيلى وبخاصة مصر • وهو صراع شبيه بتلك الحروب الصليبية • وهو صراع من نوع خاص يحتاج إلى حكمة عالية المستوى لعلاجه حتى لا تتحول اسرائيل الحالية إلى (اسرائيل الكبرى) • وفى هذا انقاذ لليهود من أنفسهم حتى لا يعيشوا على فـــكر خيالى قد يتحقق يوما ما ولكن على حســـاب مستقبلهم ومستقبل المنطقة • وابلغ دليل على ذلك ما يجرى فى الضفة الغربية من انتفاضة جعلت الاسرائيليين يعيشون على أرض محروقة يسمونها هم (جودايا والسامرة) أمل الأولين منهم ورثه عنهم الحاليون •

والملاحظ هنا أن دور الدول الإسلامية فى الصراع العربى الاسرائيلى محدود جدا لا يتعدى التأييد المعنوى والمالى اما مفهوم التضامن الإسلامى والعمـــل بمقتضى الآية (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) فلم يكن فى استطاعتهم ذلك نظرا لأن (النظرية القطرية) ـ أى أن كل قطر يعمل من منطلق مصالحه الخاصة به ـ كانت هى التى اخذت بها الدول والشعوب الإسلامية متشـــدقة بالتضامن الإسلامى أكثر منها منفذة له •

١٣ ـ إن الجامعة الإسلامية كانت نظرية سعت الدولة العثمانية دون جدوى أن تحققها، وقامت منظمة المؤتمر الإسلامى وهى تعمل من منطلقات (قطرية) ومع ذلك فهى منظمة ضرورية لمواجهة المنظمات العالمية الطامعة فى الشرق الإسلامى بطريقة أو بأخرى • ولكن المشكلة الحقيقية التى تواجه تلك المنظمة والمؤسسات الدينيـــة بصفة عامة أنها تفتقر إلى الروح التبشيرية •

١٤ ـ إن التيارات الإسلامية النشطة خلال السبعينيات والثمانينيات تستند بعضها إلى القوة أكثر منها إلى الحوار ، وإلى نظريات السلف أكثر منها على نظريات العصر

والمستقبل ، وتعمق من صراع الايديولوجيات أكثر من الانطلاق معها نحو مستقبل أكثر متقدما .

١٥ - إن هناك بعض الدول و الشعوب الإسلامية بدا وكأنها قد تطرفت - نوعا ما - في الابتعاد عن مجموع الشعوب الإسلامية ونخص هنا بالذكر (تركيا) و (تونس)، ثم نلاحظ أنها استعادت توازنها الإسلامى نظرا لأن الأرضية الشعبية إسلامية ، وإن هذه العملية من الابتعاد والاقتراب واستيعاب المبادىء الإسلامية وتطبيقها كلها ظواهر شملت الشعوب الإسلامية بدرجات مختلفة من القوة والضعف .

١٦ - إن العصر والمستقبل القريب يعيش عصر تنافس الشعوب المنتجة فى اطار من الديمقراطية . وهذا ما يجب أن يكون نصب عين كل شعب إسلامى وكافة الشعوب الإسلامية حتى تخطو بخطوات ثابتة عبر القرن الحادى والعشرين .

ولا شك أن كافة الامكانيات التى يمكن أن يقدمها المسلمون لأنفسهم والعالم الحضارى تكمن فى قدرتهم على ان يشعر المواطن المسلم فى اى بلد بمقدرته على الانتاج بالتعاون مع إخوة له حتى ولو كانوا فيما وراء البحار .

★ ★ ★

الباب الأول

نشأة ونمو الدولة العثمانية

منذ القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن الخامس عشر

الاتراك شعب من الشعوب الإسلامية التى ملأت التاريخ أحداثا وتطورا ، إذ مرت بالغالبية العظمى من الاتراك مظاهر الحضارة طيبها ومرها ، من البداوة إلى الدولة العامة (الامبراطورية) ، ومن أدنى المستويات الحضارية إلى أرفعها ، ومن حكم يقـــوم على نظرية (السلطنة) إلى نظرية (الخلافة) إلى (الجمهورية) ٠

وذاق الاتراك عبر تاريخهم الطويل حلاوة الجهاد فى سبيل الله ضـد الامبراطورية الرومانية الشرقية (الامبراطورية الشرقية) ، حتى استولوا على هذه الامبراطورية كلها، ومدوا ذراعا لهم قوية إلى المحيط الهندى واخرى إلى المشرق العربى والى وادى النيل حتى حوض البحر الأحمر الجنوبى وما وراءه بقليل ، وامتدت ذراع عثمانية ثالثة حتى وصلت إلى حدود مراكش (المغرب)،واصبحوا الدولة الإسلامية التى تضم ارضا إسلامية وأرضا اوروبية مســـيحية ٠

ويمكن ان نقسم تاريخ الاتراك العثمانيين إلى الأقسام الرئيسية التالية :

١ ـ نشأة ونمو الإمارة العثمانية فى شمال غرب الأناضول منذ منتصف القرن الثالث عشر حتى استيلاء السلطان محمد الفاتح على القسطنطينية ١٤٥٣ ٠

٢ ـ التوسع العثمانى فى البلاد العربية خلال القرن السادس عشر ٠

٣ ـ الدولة العثمانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠

٤ ـ المواجهة بين الحضارة الإسلامية التقليدية على الطريقة العثمانية والحضـــارة الأوروبية الحديثة فى القرن التاسع عشر ومحاولات التحديث فى الدولة العثمانية ٠

٥ ـ الايديولوجيات المتضاربة فى الدولة العثمانية : الجامعة الإسلامية ، القوميـــة (التركيـــة ـ العربيـــة) ، الخلافة أم الجمهورية ، الشورى الإســـلامية أم الديمقراطية الغربية ، السلفية والمعاصرة ٠

٦ ـ المغامرة الأخيرة (الاشتراك فى الحرب العالمية الأولى) وقيام الجمهورية وإلغـــاء الخـــــلافة ٠

فكما سبق ان ذكرنا لقد شهد الاتراك مختلف التطورات الكبرى التى مرت بالعالم منذ القرن الثالث عشر وكانت لهم مواقف ازاء تلك التطورات والأحداث الكبرى ٠

الفصل الأول

نشـــــأة ونمو الدولة العثمانيـــة
فى الأناضول والبلقـــان

١ ـ الظروف الممهدة لظهور الإمارة العثمانية

٢ ـ نمو الدولة العثمانية فى البلقـــان

٣ ـ فتح القسطنطينية

١ ـ نمو الامارة فى الأناضـول والبلقان

فى ذلك الأستبس المترامى الأطراف فى وسط آسيا كانت مواطن الاتراك الأولى ، ومنها خرجت هجرات قوية فى مختلف الاتجاهات ، إلا أن مستقبلهم العظيم كان فى الديار والمجالات الإسلامية . فللاسلام الفضل الأول فى فتح أبواب مستقبل باهر أما الأتراك . كانوا من قبل وثنيين رعاة غلاظ القلوب ، فلما اسلموا تهذبت طباعهم وأخلاقهـم ، واصبحوا قوة لها مكانتها . فباعتناقهم الإسلام اصبحوا اعضاء مقبـولين فى المجتمع الإسلامى ، وفى أى جزء من العالم الإسلامى ، (فالمؤمنون اخوة) .

ونظرا لتمرس الأتراك فى الأستبس على صنوف القتال وضراوته ، ونظـرا لأن الأتراك السلاجقة كانوا فى تركيا فى حرب ضروس ضد العملاق البيزنطى ، توافـدت الهجرات التركية من وسط آسيا إلى تركيا (آسيا الصغرى الأناضـول) وكانت فكرة الجهاد ضد بيزنطة واحدة من الأسباب الرئيسية التى دفعت بالأتراك إلى هذه الهجرة الى الأناضول ، حتى اصبح الأناضول تركيا كله،واخذت تظهر هناك الإمارات التركية.حقيقة كانت هذه الإمارات التركية وكأنها أقزام بجوار العملاق البيزنطى إلا انها كانت قادرة على رد العدوان البيزنطى عليها بشدة تماسكها ، بل كذلك صمدت خلال الفترة العصيبة التى اجتاح فيها المغول العالم الإسلامى وقوضوا الدولة السلجوقية وأسقطوا الخلافة العباسية فى بغـداد ١٢٥٨ م .

إن هذه الغزوة المغولية ادت كذلك إلى انتشار الإسلام بين المغول والتتار ، وبالتالى فتح الإسلام امامهم ابواب الهجرة إلى الديار الإسلامية ولهذا اقبل على الأناضول الكثير من الجماعات المغولية فضلا عن الجماعات التركية ، لتسهم هذه الهجرات فى اسـتكمال تتريك الأناضول حيث أن الأتراك والمغول من أصول واحدة . كانت الوثنية تجمعهم قبـل الإسلام ، وأصبح الإسلام يجمعهم منذ القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

ومع أن المغول قضوا على الدولة السلجوقية ، وقضوا على الخلافة العباسية فإنهم

لم يستطيعوا السيطرة سيطرة مباشرة على املاكهم الواسعة فى المشرق الإسلامى أو فى الأناضول ، فلم تظهر على يدهم او من بعدهم حكومة مركزية قوية فى الأناضول الأمر الذى افسح المجـــال لنمو العديد من الدويلات التركيـــة الصغيرة ومن بين هـــذه الدويلات « الإمارة العثمـــــانية » ٠

والفترة الأولى من تاريخ هذه الإمارة العثمانية الصغيرة تحيط بها الأساطير ٠ فمن المعروف أن أية إمارة تنمو إلى دولة كبيرة فان تطورها هذا كفيل بأن يضفى عليها الكثير من الصفات والأعمال المبالغ فيها ٠ كذلك من المعروف أن الإمارة الناشئة الصغيرة لا تلفت الأنظار وهى لا تزال فى المهد ، ولا يكتب عنها احد إلا إذا بدات تلفت الأنظار اليها ، وغالبا ما يكون ذلك بعد فترة طويلة من نشأة الإمارة ، وبعد أن يكون تاريخ النشأة قد أصبح اقرب إلى الأساطير ، خاصة إذا ما نمت هذه الإمارة حتى اصبحت الدولة الأكبر مثلمـــا حدث للإمارة العثمانية التى نمت حتى أصبحت دولة الخلافة الإسلامية ٠

تصدى لهذا الموضوع مؤرخ عظيم هو جيبونز [1] فى كتاب (تأسيس الامبراطورية العثمانية) ذلك الكتاب الذى اصبح مرجعا رئيسيا لمن يتصدى لنشأة الدولة العثمانية ، وله فى هذه النشأة نظرية تقول :

« كان ارطغرل ابو عثمان الذى تنسب إليه الامبراطورية هو رئيس قبيلة صـــغيرة عرفت باسم (قايى) وفدت على الأناضول فى عهد السلطان السلجوقى علاء الدين الأول فارة من خوارزم أمام زحف جنكيزخان واستقرت فى سكود فى شمال غرب الأناضول ٠٠ وكان عثمان وقبيلته اتراكا كفارا يزاولون الرعى ، فلما عاشوا فى بيئة إسلامية دخلوا فى الإسلام كأبناء جلدتهم من الترك السلاجقة ٠٠ ولم يكن تحت إمرة عثمان قبل دخوله فى الإسلام إلا اربعمائة محارب ٠٠ ولكن عدد العثمانيين ما لبث أن (تضاعف) بين سنتى ١٢٩٠ — ١٣٠٠ وامتدت حدودهم حتى صاقبت حدود البيزنطيين ، وادى ذلك إلى ظهور جنس Race جديد انتسب إلى رئيسه وذلك هو الجنس العثمانى ، ولكنه كان جنسا جديدا مختلطا ناشئا عن ذوبان العناصر الأصلية وقـــوامه الأتراك الوثنيون والاغريق المسيحيون » [2] ٠

---

(١) Gibbons; The Foundation of The Ottoman Empire

(٢) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة عن التركية ، وقدم له الدكتور احمد السعيد سليمان ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ٩ ٠

شاعت هذه النظرية حتى اصبحت اشبه بالحقيقة الثابتة لما كان يعرف عن جبونز من علو كعب فى التاريخ التركى ، ولأن عددا ليس بالقليل من مؤرخى أوروبا قبل النظرية وأخذ بها فى مؤلفاتهم ، حتى انبرى مؤرخ تركى لهذه النظرية دارسا ثم ناقدا ، وأخيرا وضع الأمور فى نصابها محددا الظروف والطريقة التى لابست نشـــأة الإمارة التركية فيقول كوبريلى :

« إنه لمن الخطأ أن نعزو تأسيس الامبراطورية العثمانية إلى قبيلة من اربعمائة خيمة كانت تقطن فى القرن الثالث عشر الحدود البيزنطية السلجوقية فى أقصى الشمال الغربى من الأناضول ، دون تفـــكر — لشرح هذه الواقعة — فى الظروف التاريخيـــة والاجتماعية للأناضول فى القرن الثالث عشر والرابع عشر » (١) .

لقد كان الأناضول (تركيا) فعلا — قبل ان تفد إليه قبيلة (قايى) — وكان إسلاميا كذلك . ولكون (قايى) قبيلة مسلمة وتركية ، كانت فرصتها واسعة للقـــدوم إلى الأناضول ولتكوين إمارة صغيرة ، مجاهدة فى سبيل الإسلام ، على الحدود السلجوقية — البيزنطية فى المنطقة المعروفة حول (أسكى شهر) . وكانت الدولة السلجوقية تعين بعض القواد للدفاع عن البلاد الساحلية وعن مناطق الحدود ، وعرف هؤلاء باسم (أمـــراء الحـــــــــــدود) .

كان أمراء الحدود يواجهون ظروفا صعبة للغاية ، ومشـــكلات متجددة من وقت لآخر ، وكانوا خلال هذا يجدون أنفسهم مضطرين إلى اتخاذ سياسات تختلف عن سياسة الحكومة الكبرى المسئولة عن الأناضول : الحكومة السلجوقية . وبطبيعة الحال ادى ذلك إلى أن يصبح ولاء هؤلاء الأمراء للدولة السلجوقية — المتدهورة — مجرد ولاء اسمى ، وأن يصبحوا فى نفس الوقت اقدر على التصرف والتحرك بحرية كبيرة فى مواجهة العملاق البيزنطى .

وحيث أن هؤلاء الأمراء كانوا يقومون بعمل بطولى إسلامى ، كانت ثقتهم بأنفسهم وبعملهم عظيمة وكبيرة وكانت ذكريات الحروب الصليبية لا تزال قريبة . وإلى جانب ذلك كانت هناك عدة عوامل ساعدت على هذا النمو المطرد للإمارة العثمانية .

---

(١) كوبريلى ، المصدر السابق ص ٩ وما بعدها .

فقد كان الأناضول خلال القرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر قد أصبح اشبه بمنطقة فراغ سياسي وبشرى . كانت السلجوقية والامبراطورية البيزنطية تتناحران عليه ، ولكن تلقت كل منهما وفى وقت متقارب ضربة قاصمة . انقضت أوروبا الغربية على هيئة حملة صليبية رابعة (١٢٠٤) على الامبراطورية البيزنطية وليس على الدولة الإسلامية فكان ان فرضت على القسطنطينية حكما كريها هدم الكثير من قيم أهاليها . فعندما سيطر الصليبيون الغربيون على عاصمة الامبراطورية البيزنطية اقدموا على اعمال وحشية إذ « استباح اللاتين المدينة طيلة ثلاثة أيام ودمرت أجزاء من القسطنطينية الجبارة وسلبت . واستهجن البابا انوسنت الثالث ما قام به اتباعه الكاثوليك الذين خرجوا على سياسته فقد كان يدعو إلى توطيد الصداقة بين الشرق والغرب ، أما حملة ١٢٠٤ فقد جعلت من المستحيل قيام اتحاد بين الشرق الأوروبى وغربه . وقال البابا أن الاتحاد أصبح الآن مستحيلا إلى الأبد » [1] .

حقيقة استطاع (ميخائيل الثامن) ان يعود إلى القسطنطينية امبراطورا بيزنطيا بعد اربعين عاما من تلك النكبة . ولكن تلك النكبة كانت قد هدت العاصمة والامبراطورية وكانت بمثابة بداية النهاية بالنسبة لها . فكان ذلك فرصة ذهبية امام هذه الإمارة الصغيرة الطموحة العثمانية . فقد ركزت الامبراطورية البيزنطية انظارها بسبب تلك النكبة على البلقان وما هو وراء البلقان اكثر من تركيزها على خطر الإمارات التركية النامية على حسابها فى الأناضول .

ويبدو ان السلطات الحاكمة فى القسطنطينية كانت قد تعودت على فقد أجزاء من ممتلكاتها فى الأناضول ، حتى فقدوا الأمل ، ليس فقط فى استرداد الأناضول بعد توالى وصول واستقرار القبائل التركية فيه وتحويله إلى أرض تركية تماما . فإذا ما حاولت

---

(١) برنادين كلتى : فتح القسطنطينية ، ترجمة شكرى محمود نديم ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بغداد ١٩٦٢ ، ص ٦١ ، وقد علقت (كلتى) على تلك الوحشية من جانب اللاتين بالمقارنة بالأتراك بقولها : « لم يدمر الأتراك فى اى وقت احتلوا فيه مدينة .. بالشكل الذى دمر به هؤلاء القوضيون من الفرنسيين والإيطاليين والفلمنكيين القسطنطينية المسيحية » .

بيزنطة استرداد الأناضول باسم المسيحية ، ستجد أنها تعمل على ارض معـــادية لها : أرض إســـــلامية ٠

تولى امر هذه الإمارة الصغيرة ، بعد موت مؤسسها عثمان ، ابنه أورخان ٠ وكان رجلا على جانب عظيم من الحكمة والنشاط ، سواء فى عهد ابيه ، أو بعد أن تولى هـــو الحكم ٠ فهو الذى فتح بروسه (١٣٢٦ م) ، وجعلها عاصمته ، وهو أول من عبر المضيق إلى غالبولى لتصبح قاعدة التوسع العثمانى فى البلقان ٠

وهناك عدة عوامل ساعدت أورخان على تأسيس دولة يحسب حسابها فى المنطقة ، اهمهـــــا :

١ ـ كانت الامبراطورية البيزنطية تعانى من امراض الشيخوخة ٠ واخطرها (الحرب الأهلية) والصراع حول العرش بين زعماء غير اكفاء لمواجهة الخطر الحقيقى الذى يواجه الامبراطورية ، وكان وقود هذه الحرب شعب كان يفقد الثقة فى نفسه وفى زعمائه سنة بعد اخرى ٠ حتى لقد استعان الامبراطور (كانتا كوزيناس) باورخان، فتمكن الأول من أن ينفرد بالحكم (١٣٥٣) وعندما حاول (كانتا كوزيناس) أن يتنصل من الثمن الباهظ الذى كان عليه أن يدفعه لأورخان ، توالت عليه النكبات والثورات حتى سقط عن عرشه ليجلس عليه (باليولوجاس) (١٣٥٨) الذى لم يجد بدا من الاعتراف بالوجود العثمانى فى تراقيا فى شمال اليونان ٠

٢ ـ أن أورخان ادرك أن الأعباء الملقاة على امارته أكبر من إمكانياتها خاصة بعـــد أن أصبحت السلطات البيزنطية تنظر إليه بعين المخاوف والأخطار الحقيقية ، وهذا ما لم يكن متوفرا لتلك السلطات قبل عبور العثمانيين البحر إلى البلقان ٠ ولهذا عنى باعادة تنظيم الجيش ٠ فقد كان الجيش العثمانى يعتمد على الفرسان ، إلا أن أورخان خلال المعارك ادرك حاجته الملحة إلى جيش من المشاة يستطيع أن يستولى على القلاع والأسوار الكبرى التى اشتهرت بها مدن البلقان ٠ ولكن خبرات الأتراك السابقة كانت متركزة على الخيالة ، وكان من العسير تحويل التركى إلى جنـــدى مشاة فاتجه أورخان إلى اســتخدام عنصر غير تركى فى تكوين جيش من المشاة ، وعرفت هذه الطريقة باسم الديوشيرمة ٠

والديوشرمة هى ضريبة الدم ، إذ كان الصبية الصغار المسيحيون يؤخذون من البلاد المفتوحة حديثا ، ليدخلوا فى الإسلام ويربوا تربية إسلامية عسكرية وفكرية . وكانوا يعيشون فى ثكنات خاصة بهم لا يتزوجون ولا يختلطون بالمجتمع وإنما وهبوا أنفسهم للدفاع عن الدين الإسلامى والملة والسلطان . وهذا النوع من الجند العثمانى هو الذى أطلق عليه اسم « الإنكشارية » أى الجيش الجديد .

وهناك نقد اوروبى شديد الوطأة لهذا النظام ، يتهم الأتراك بالقسوة المتناهية إزاء البشرية . ومع ما فى هذا النظام من قسوة فانه لا يمكن أن يقارن بما فعله الأسبان بمسلمى الأندلس الذين خيروهم بين التنصر والموت ، وبما فعله الأوروبيون بالزنوج الافريقيين خلال عهد الاسترقاق المروع .

ونظرا للدور الكبير الذى لعبه الإنكشارية فى توسيع الدولة العثمانية وفى سقوطها فى نهاية الأمر كتب تاريخ نشأة هؤلاء الإنكشارية بشكل بعيد عن الحقيقة ، فقد وردت فى الغالبية العظمى من المؤلفات التى تعرضت لهذا الموضوع أن الإنكشارية هم الذين كانوا يكونون الجيش العثمانى ، أو على الأقل عموده الفقرى منذ البداية ، والحقيقة هى أن نظام الفرسان ظل سائدا فى الجيش العثمانى ولم يصبح الإنكشارية اغلبية فى الجيش إلا فى القرن السادس عشر والسابع عشر . وعندما تدهور نظام الإنكشارية كان ذلك التدهور واحدا من الأسباب الرئيسية لضعف الدولة العثمانية .

كانت المؤلفات عن الإنكشارية تعتمد على الصورة السيئة الأخيرة لها ، دون ادراك حقيقى لقيمة هذا النظام فى الفترة المبكرة وانه كان مقبولا حينذاك إذ أن الفرق لم يكن كبيرا بين نظام الإنكشارية ونظام المماليك الذى كان شائعا فى العالم الإسلامى ، خاصة إذا اخذنا فى الاعتبار أن النظامين اجتذبا أعين الأوروبيين فكانوا أحيانا يدخلون أبناءهم إلى أى من النظامين — المملوكى والإنكشارى — حتى يصلوا إلى مراتب عليا فى الحكم لا يمكن أن يصلوا إليها فى مواطنهم الأصلية .

أن قيمة أورخان هو أنه شهد أول استقرار إسلامى فى أوروبا من جهة البلقان ، وشهد ظهور نظام عسكرى جديد سيصبح رعب أوروبا لمدة أربعة قرون تالية .

وكذلك فى عهد أورخان كانت قد بدأت عملية الاقتباس من النظم الحضارية الأخرى، وكانت تتم دون عقبات أو اعتراضات ، وأخذت نظم الضرائب البيزنطية تدخل فى الإدارة العثمانية الناشئة ، وكذلك بعض نظم وفنون البناء والهندسة • وكذلك نما الاقتباس من الآداب الفارسية فضلا عن العربية ، وظهر انتاج أدبى تركى له قيمته •

(٢)
نمو الدولة العثمانية فى البلقـــــان

إن تاريخ الإمارات الصغيرة والدول فى تطوراتها الأولى يكاد يركز على الشخصيات الحاكمة التى كان لها الدور الأكبر فى عملية التطور والنمو . وهذا ينطبق أكثر على تاريخ الإمارات والدول فى الشرق الإسلامى حيث لعب الفرد دورا رئيسيا فى تكوين وبناء الدولة حتى لقد اصبح لدينا العديد من بناة الدول الإسلامية الحديثة والمعاصرة من أمثال :

★ محمد على باشـــا ★ عبد العزيز بن سعود

★ محمد على جنـــاح ★ رضـــا بهلوى

ولذلك سنلاحظ أن دور الشخصيات الحاكمة الرئيسية فى بناء الدولة العثمانية كان رئيسيا الأمر الذى يجعلنا نركز عليهم بشكل واضح .

فى ١٣٦٢ توفى أورخان ، وخلفه ابنه مراد الأول ليواجه أعـــداء دولته فى اتجاهين متباعدين خطيرين :

١ ـ فى الشرق كانت إمارة قرمان التركية تنظر بعين الخوف الشـــديد الى نمو الإمارة العثمانية واستطاع مراد الأول أن يوجه ضربات الى خصومه أقعدتهم عن التحرك ضـــــــــــده .

٢ ـ فى اوروبا كان الامبراطور البيزنطى يسعى الى الانقضاض عليه ، ولكن (مــراد) استولى على (أدرنة) ١٣٦٦ واتخذها عاصمة له ، الأمر الذى كان له صدى سىء فى مختلف العواصم الأوروبية ، وخاصة لدى البابا فى روما وانطلقت مرة أخرى الدعوة الى حرب صليبية ولكن دون جدوى ، بينمـــا تابع العثمانيون تقدمهم واستولوا ـ فيما استولوا عليه ـ على سالونيك .

إلا أن هذا النمو فى الدولة العثمانية كان سببا فى قيام تحالف جديد من القـــوى المسيحية البلقانية لصد الغزو العثمانى وأحرز التحالف البلقانى النصر فى الجولات الأولى ولكن مراد الأول ـ فى النهاية ـ خاض ضد أعدائه معركة قوصوة الكبرى فى يونيو ١٣٩٨ . تلك المعركة التى سقط فيها مراد شهيدا ووقع فيها ملك الصرب أسـيرا فأعدمه بايزيد الأول الذى تولى الإمارة بعد إستشهاد أبيه .

بعد هذه التطورات اصبح العاهل الجديد وجها لوجه مع اكثر الشعوب البلقانية عداء للأتراك ونعنى بذلك البلغار والمجر •

كانت بلغاريا بين بايزيد الأول العثمانى من جهة و (سجسموند) ملك المجر من جهة اخرى ، وكان الأخير يدرك أنه لا يستطيع وحده صد الزحف العثمانى فى البلقان ، ولكن فى نفس الوقت كان ملوك اوروبا يدركون أن الطريق سيصبح مفتوحا امام الأتراك إلى قلب أوروبا لو نزلت بالمجر هزيمة كبيرة ، ولذلك كانت الدعوة التى أطلقها ملك المجر لإرسال حملة صليبية جديدة ذات صدى قوى بالقياس الى الدعوات السابقة عليها ولقد شد ازر المجر كل من بابا روما وملك فرنسا وملك انجلترا والبندقية •

وفى ٢٧ ايلول — سبتمبر ١٣٩٦ دارت موقعة نيقية التى أحرز فيها بايزيد الأول الانتصار الذى جعل من الدولة العثمانية حقيقة كبرى فى البلقان إذ اصبحت بلاد البلغار واليونان وجزء من البلقان الشمالى نفسه تحت السيطرة العثمانية • وقد كان لإنتصارات بايزيد رنة فرح فى العالم الإسلامى وفى مصر منح الخليفة العباسى لقب سلطان إلى بايزيد الأول •

نكسة أنقرة ١٤٠٢ :

حينذاك كانت قوة اجتياحية تنطلق من وسط آسيا قد وصلت الى الشرق الأسط بقيادة فاتح رهيب هو (تيمور لنك) الذى اخضع البلاد حتى فارس مؤسسا فى ظرف سنوات قليلة امبراطورية كبرى مترامية الأطراف تمتد من سهوب آسيا من سمرقند شرقا حتى بلاد الأفغان والهند وإيران غربا وحتى جورجيا وارمنيا ، وأصبح على مشارف الأناضول قلب الدولة العثمانية •

وهكذا اصبحت امبراطورية تيمور لنك مجاورة للدولة العثمانية الفتية ودولة المماليك التى كانت تضم مصر والشام والحجاز كما اصبحت تجاور الدولة العشائرية الناشئة قرة قوينلو فى شرق الأناضول والجلائرية المتداعية فى العراق والقبيلة الذهبية فى حوض الفولجا الأدنى •

إلى جانب الجوار وحدة الطبع التترى ، كانت هناك اسباب كفيلة باثارة الحرب بين الدولتين التترية والعثمانية أهمها :

١ — كانت امارات شرق الأناضول خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر تشعر

بتعاظم قوة الأتراك العثمانيين ، إنهم لن يلبثوا يوما ما ، وحين تواتيهم الفرصة ، أن ينقضوا ويفرضوا السيطرة عليهم . ومن ثم كانوا مستعدين لإغراء تيمور لنك بالدولة العثمانية .

٢ — كانت (سيواس) قد وقعت منذ وقت قليل فى يد (بايزيد) . وكانت فى نظر تيمور لنك مدينة ذات أهمية استراتيجية كبرى ، حتى أنه لما استولى عليها اكتفى بهذا التقدم متحولا الى العراق فأخذه ثم اتجه الى الشام فبسط سيطرته لفترة عليه .

٣ — كانت القوى الأوروبية الناقمة على الدولة العثمانية مستعدة لأن تمد يدها الى اية قوة كبيرة قادرة على هزيمة هذه الدولة العثمانية الفتية . ولذلك سعت (جنوة) و (قشتالة) الى تيمورلنك ، ولكن هذا لم يستمع الى رسلهما بسبب تمسكه بالإسلام من ناحية،ومن ناحية أخرى لم يكن هناك ما يدل على أن مساعدات مجدية يمكن أن تقدمها كل من جنوة وقشتالة له ، ولكن هذه الاتصالات شجعت تيمورلنك على العمل ضد الدولة العثمانية .

كان العثمانيون قبل هذه الحرب ضد تيمورلنك يتوسعون وينقلون عاصمتهم من مكان لآخر مقتربين بها من قلب ارض العدو ، أما فى حربهم ضد تيمورلنك فقد وجدوا انفسهم مضطرين الى الدفاع عن قلب دولتهم (الأناضول)·ومن هنا كانت المعركة المنتظرة تضع الدولة العثمانية فى موقف حرج للغاية بسبب العداوة المريرة بين القوى البلقانية المسيحية وهذه الدولة العثمانية ، وبسبب ضخامة الجيوش التى كان يقودها تيمورلنك الذى لم يهزم من قبل .

دارت معركة (أنقرة) (١) فى ٢٠ يوليو — تموز ١٤٠٢ وإذا بقوات تابعة للامارات التركية — الخاضعة حديثا لبايزيد — تنضم الى جيش تيمورلنك . حقيقة ثبتت فرق الإنكشارية والقوات الصربية التى لبت نداء بايزيد ، ولكن كان ثباتا الى حين بسبب التفوق الملحوظ لدى جيش تيمورلنك . وسقط بايزيد نفسه اسيرا فى يده ومات فى الأسر (١٤٠٣) ، وفر أولاده كل فى اتجاه ، بينما أمعن الجيش التترى فى تخريب

---

(١) تعرف عند الأتراك باسم (تيمور محاربه سى) .

الأناضول ومدنه . حقيقة كانت الضربة قاسية جدا للدولة العثمانية ولكن خفف منها أن تيمورلنك لم يكن يرغب فى الاستيلاء على الأناضول وإنما عاد الى سمرقند ليعد حملة على الصين ،ولم يلبث أن مات فى ١٤٠٥ تاركا الامبراطورية تواجه التفكك السريع الذى اعتادته مثل هذه الامبراطوريات المغولية فى أعقاب موت مؤسسها .

كان عدم إكتراث تيمورلنك بالأناضول ، أو باسقاط الدولة العثمانية عاملا جوهريا فى الابقاء على هذه الدولة وفى قدرتها من بعد على الظهور قوية رغم المتاعب الداخلية الشديدة التى ألمت بها فى أعقاب تلك الهزيمة النكراء .

وعلل المؤرخ الكبير ارنولد توينبى عدم سقوط الدولة العثمانية بعد تلك الضربة القاسية فى معركة أنقرة بأن هذه الضربة وقعت فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية لا تزال فى دور التكوين والفتوة ، وهو دور يعطى الدولة الناشئة القدرة على تلقى الضربة وامتصاصها ثم معاودة النهوض ، رغم ما كانت تواجهه من ظروف داخلية صعبة . فلا يكاد خطر التتر ينحسر عن الأناضول حتى تعرضت الدولة العثمانية لصراع أسرى مرير بين ابناء بايزيد الثلاثة . موسى وسليمان ومحمد .

خلال هذا الصراع بين الأخوة ظهر خطر تمزق الدولة ، فقد كان هناك مطالب بالعرش معتمدا على الأناضول ، وآخر فى البر الأوروبى مطالبا كذلك بالعرش . فعلى هذه الصورة كان الصراع بين محمد فى آسيا،وموسى فى البلقان(١).وكان كل منهما يعانى من خصوم له فى منطقته ، كان الصرب والامبراطور البيزنطى يعادون (موسى) ، وكان أمير أزمير وانقرة شوكة فى جنب (محمد) ، إلا أن (محمدا) كان أقدر من أخيه موسى فى تصفية المشكلات التى كانت تواجهه ، ولعل هذا يرجع الى أحوال الخصم فى كل جانب . كانت الخصومات دينية سياسية فى البلقان ، بينما كانت بالنسبة لمحمد خصومات سياسية فقط . ولهذا كان من اليسير على (محمد) أن يحصل على تحالفات فى البلقان يستخدمها ضد أخيه ، وكان الصرب والامبراطور البيزنطى مستعدين للتحالف معه ،

(١) لم يثبت أخ ثالث ــ هو سليمان فى الميدان طويلا إذ قتل فى معركة ضد أخيه موسى فى ١٤١٠ .

ولهذا كان النصر حليف (محمد) فى سهل غاليبولى على اخيه ، ليصبح السلطان الأوحد (١٤١٣) .

كان الخطر الداخلى الكبير الثانى يتمثل فى ثورة عقائدية صوفية ذات أبعاد اقتصادية وتنطوى على محاولة للتقريب بين الإسلام والمسيحية . تلك كانت حركة (بدر الدين الضمارنوى) وتابعه (بوركلوجه مصطفى) .

وكانت هذه الثورة تنادى بأن المسلمين والمسيحيين متساوون فى الإيمان بالله وأن الناس متساوون فى الإفادة من ارزاق الأرض فكان طبيعيا أن تلقى مثل هذه الدعوى قبولا لدى الفلاحين فى آسيا بسبب الارهاق الشديد الذى كانوا يعانون منه على يد كبار الاقطاعيين ولأن هؤلاء الفلاحين كانوا — فى غالبيتهم — حديثى عهد بالإسلام . ولكن مثل هذه الدعوات المتطرفة لا يكتب لها النجاح فى عصر كان فيه الفكر الدينى هو المسيطر على الأذهان ويحدد العدو من الصديق فى غالبية الحالات ، وكان الفكر الاقطاعى هو السائد حينذاك ، واستطاع (محمد) أن يقضى على هذه الحركة ، ولكن بعد جهد كبير (١٤١٨) .

واجه (محمد) ثورة أخرى لها خطورة تزعمها مطالب بالعرش ادعى أنه مصطفى ابن بايزيد ، ولكن لم يستطع مصطفى هذا ان يثبت طويلا أمام خصمه القوى .

وكان نجاح (محمد) فى إعادة السيطرة على الدولة العثمانية ، وقضائه على الثورات الداخلية هو المهد الحقيقى لنمو قوة الدولة على يد خليفته : ابنه (مراد) وحفيده (محمد الثانى) ، ولقد استطاع السلطان مراد ان يعيد تكوين وتثبيت الدولة ، وقام السلطان (محمد الفاتح) بالخطوات العملية التى أدت فى نهاية المطاف إلى استيلائه على القسطنطينية ١٤٥٣ واضعا حدا نهائيا لهذه الامبراطورية التى عاشت حوالى ألف عام .

(٣)

فتح القسطنطينية (١٤٥٣)

موقعة فارنا ١٤٤٤ :

بعد وفاة (محمد) المفاجئة تولى ابنه مراد العرش فى ١٤٢١ ٠ واذا كان عهد (محمد الأول) هو عهد إعادة الدولة الى ما كانت عليه قبل نكبة (أنقرة ١٤٠٢) ، فإن عهد (مراد) هو إعداد الدولة للمهام الكبرى التى كانت مسئولة عنها قبل النكبة ٠ ولهذا كان (مراد) معنيا بإعداد جيش قوى واقتصاد متين لدولته وإقامة حدود منيعة فى وجه أوروبا المتوثبة ضده وبوجه خاص لصد قوة (المجر) المتصاعدة،إذ كان يتولى الدفاع عن المجر ، واتخاذها قاعدة ضد الدولة العثمانية قائد صلب العود هو النبيل المجرى (حنا هونيادى) (١) ٠ فمع أن (مراد) استطاع ان يستولى على سالونيك إلا أن (هونيادى) كان يوجه ضربات قاسية للجيوش العثمانية ، حتى لقد شاع أن الرجل هو الذى قيد له المسيح أن يخرج الأتراك من أوروبا ، وأن حملة صليبية جديدة ، تسهم فيها أوروبا يمكن ان تحقق هذا الهدف المرحلى ٠

وحينذاك كانت الدعوة قوية فى الدوائر الدينية والسياسية الأوروبية نحو اتحاد بين الكنائس الشرقية والغربية ، ولهذا اتجهت الأفكار نحو عقد مجمع أساقفة فى فلورنسا فى ١٤٣٩،وفيه ووفق على ارسال حملة صليبية جديدة لإخراج الأتراك من الأرض الأوروبية وتخليص القسطنطينية من الخطر المباشر الذى أصبح يهددها منذ ذلك التوغل العميق الإسلامى التركى فى البلقان ٠

ودعا البابا (يوجين الرابع) (٢) ملوك أوروبا إلى المساهمة فى هذه الحملة الصليبية الجديدة ٠ وفى أعقاب ذلك كانت قوات كبيرة تحتشد تحت قيادة فيلادسلاف (٣) ـ ملك

---

(١) J. Huniade

(٢) Eugene

(٣) Vladislav

المجر وبولندا ، وانضم اليها جورج برانكوفيتش (١) — أمير الصرب • كما شاركت قوات من (الافلاق) (٢) وجماعات من الألمان ، ومن الثوار البلقانيين فى قتال العثمانيين •

وفى موقعة نيش (٣) أحرزت الجيوش الصليبية انتصارا (نوفمبر — تشرين الثانى ١٤٤٣) إلا أن المنتصرين لم يجنو ثمار انتصارهم، فلم يتقدموا جنوبا صوب القسطنطينية، وذلك بسبب صعوبة اجتياز البلقان فى الشتاء ، كما يبدو أن تعـدد القيادات فى الجيش الصليبى يوحى بالتروى عند اتخاذ قرارات خطيرة ضد الأتراك العثمانيين •

كانت هذه الهزيمة ، بالاضافة الى الأخطار التى تهدد الدولة العثمانية على يد امير قرمان من العوامل التى جعلت مراد يهدىء إحدى الجهتين ليتفرغ لواحدة فقط • ولهذا عرض الصلح على القوى الأوروبية بشروط مغرية ، فوافق (فلاديسوف) على عروض مراد الثانى ، ووقع الصلح لمدة عشر سنوات ، واقسم هذا على القرآن ، وذاك على الانجيل بالا يحنث بالعهـــد •

شعر السلطان أن الأعباء عليه كبيرة ، وان الأجدى هو أن يتنازل عن العرش لابنه ليستريح هو فى مغنيسيا • ولكن الظروف كانت لا تعطى لا للسلطان ولا للدولة فرصة للراحة ، وذلك لأن الزعامات المسيحية المسئولة عن شن الحرب الصليبية عادت ونظرت إلى الموقف بعين المصلحة الخاصـــة بغض النظر عن تلك المعـــاهدة التى عقدت بين (فلاديسلاف) والسلطان وتزعم هذه الحركة الكاردينال سيزارينى (٤) •

كان الاعتقاد السائد فى الدوائر المعادية للعثمانيين أن موقف هؤلاء أصبح حرجـا للغاية وأن دولتهم أضحت منهكة وأن أطرافها كلها معرضة للاقتطاع ، وفوق هـذا وذاك كانت توجد قوات كبيرة أوروبية معسكرة فى البلقان يتعذر جمعها مرة أخرى فضلا عن استمرار العمليات العسكرية الصليبية يجعل من الممكن تحريك ملوك أوروبا نحو تقديم مساهمات جديدة وجدية للحرب الصليبية القائمة •

---

(١) George Brankovich

(٢) Valaque اى ولاشـــيا •

(٣) Nich

(٤) Cesarini

ادى كل هذا إلى أن يتنكر زعماء وملوك بل والبابا نفسه لتلك المعاهدة التى وقعها فلاديسلاف وحللوا هذا النكث بالعهود بأن الاتفاق مع (الكفار ؟) لا قيمة له وإنما المصلحة العليا المسيحية هى التى يجب أن توضع فوق أية اعتبارات أخلاقية ٠

اقتنعت الزعامات المسيحية المعسكرة فى البلقان بهذا التفسير وتحركت مشاعر ملك انجلترا وملك فرنسا ، وكذلك تحركت حكومات البندقية وجنوة وفلورنسا — رغم ما بينها من منازعات — للمساهمة فى الحرب الصليبية الجديدة ٠

لقد أخذ عدد المشتركين فى هذه الحملة الصليبية الجديدة يتزايد ، إذ انضم اليها بلغار وترانسفاليون وبشناق (من البوسنة) وبولنديون والبانيون وافلاقيون (من ولاشيا أى الأفلاق) ودوقية برجندى فضلا عن البابوية ٠ إلا أن عناصر لها شأنها من داخل المنطقة نفسها أبت المشاركة فى هذه الجولة ٠ فقد رفض جورج برانكوفيتش المشاركة فى هذه الحرب الجديدة ، وعلى منواله سار عدد من الزعماء المحليين فى البلقان ٠

كانت العمليات العسكرية الصليبية الأولى تشير إلى نجاح كبير متوقع لهذا الحلف الأوروبى ، خاصة وأن السفن التابعة للبندقية وجنوة تمكنت من السيطرة على المضايق مانعة بذلك الجيوش العثمانية العاملة ضد امارة (قرمان) والمعسكرة فى آسيا من العبور الى البلقان إذا ما حاولت المشاركة فى صد هذه الغزوة الصليبية الكبيرة ٠

كان مراد قد اعتزل فى مغنيسيا بينما تولى ابنه محمد الثانى العرش وهو لا يزال فى منتصف العقد الثانى من عمره ، وكان الخطر أكبر من قدراته ٠ وكانت هزيمة أخرى غالبا ما ستؤدى الى تراجع عن كثير من الأراضى البلقانية ، ولكن الأدهى من ذلك أن الأناضول نفسه كان كذلك يعانى من ضغوط الامارة التركية المنافسة (قرمان) ٠ فذهب الوزراء الى (مراد) فى عزلته،وسألوه أن يعود الى الحكم والى القيادة انقاذا للدولة من خطر كبير محدق٠ولبى الرجل الدعوة،وتولى زمام الأمور فكان هذا واحدا من الأسباب التى أعطت للجيش العثمانى الثقة فى النصر٠وشكل السلطان مراد جيشا كبيرا ، ضخم الأعداء عدده بشكل خيالى ، ولكن مما لا شك فيه أن الجيش الذى زحف تحت قيادة السلطان كان اكبر مما توقعه قواد الحملة الصليبية ٠

وكان من المفهوم ان الجيش الصليبى وهو يزحف صوب الجنوب سيجد نفسه بين أرض مسالمة وشعب يرحب به ولكن هذا الجيش الصليبى هو الذى قضى على هذه الميزة

عندما أنزل العقاب بقسوة متناهية ببعض القرى المسيحية التى قاومته ، وعندما استمرأ النهب والحرق وهو فى طريقه جنوبا ٠ وهذا يرجع الى أنه إذا كان المسلمون — فى نظـــر الكاردينال سيزاريني — كفرة ، فمسيحيو البلقان الأرثوذكس هراطقة ٠

وإلى جانب هذا ، كانت الخلافات بين قيادات الجيوش الصليبية تزداد عمقا مرحلة بعد مرحلة ٠ وكانت تظهر خلافات جوهرية بين هذه القيادات حول الخطة التى يجب أن تنفذ ضد العثمانيين ٠ كان (هونيادى) يدعو إلى شن حرب هجومية جسورة ، وبينما كان قائد آخر يدعى فلاد — دراكيل (١) يفت فى عضد المقاتلين الأوروبيين ودعا إلى تأجيل الحملة الى السنة القادمة حتى يمكن إعداد حملة ضخمة متماسكة ، الا ان وجهة نظر (هونيادى) هى التى تفوقت ٠ فى الوقت الذى كان هناك من يحسد (هونيادى) على ما حصل عليه من شهرة،ويسعى إلى ان يحل محله فى زعامة الحركة الصليبية الجديدة مثل (فلاديسلاف) الذى كان يصر — بأى شكل — على أن يكون النصر باسمه ٠

وأخيرا وقعت المعركة فى ١٠ نوفمبر — تشرين الثـانى ١٤٤٤ فى فارنا (ورنة) ، فتهور فلاديسلاف فى هجومه دون ترو فسقط صريعا ، وقطعت راسه وعلقت على حربة مرتفعة والى جوارها حربة اخرى مرتفعة كان مثبتا على أعلاها نصا لمعاهدة الصلح التى أقسم (فلاديسلاف) على الإنجيل أن يحترمها ٠

أدى مصرع فلاديسلاف إلى اضطراب جيشه الذى فتك العثمانيون به ، وبالتالى شاعت الفوضى فى القوات الصليبية كلها ٠ وكان النجاح الصليبى فى هذه المعركة قاصرا على قيام هونيادى بجمع شتات بعض الجند ليفر بهم عبر الدانوب ٠ واستطاع بعد عدة سنوات أن يعاود الهجوم على العثمانيين ولكن دارت عليه الدوائر فى معركة (كوسوفو) (١٧ أكتوبر ١٤٤٨) ٠

سقوط القسطنطينية ١٥٤٣ :

كانت معركة فارنا (ورنة) آخر محاولة صليبية جماعية ضد الأتراك العثمانيين ٠ وكانت أنباء النكبة — التى منيت بها القوات الصليبية — من العوامل الرئيسية التى جعلت الحكام الأوروبيين يعتقدون أن فكرة الحرب الصليبية غير مجدية ، وبالتالى لم يعد هناك

(١) Vlad — Dracul بطل قومى مجرى (حوالى ١٣٨٥ — ١٤٥٦) ٠

أمل أمام امبراطور القسطنطينية بعد معركة (ورنة) ، وسيتولى (محمد الفاتح) مهمة توجيه ضربة قاضية لآخر معقل للإمبراطورية البيزنطية : القسطنطينية . وعلينا أن نلقى نظرة على هاتين القوتين فى هذه المواجهة التاريخية .

كان المدافعون عن القسطنطينية تحت قيادة امبراطورها قسطنطين باليولوج متعددى الجنسيات ، وإن كان سكان المدينة هم الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من هؤلاء المدافعين عنها ، كان فيها جنويون وبنادقة يضعون مصلحتهم الخاصة التجارية فوق أية مصلحة، وبدوا فى فترة من الفترات العصيبة — التى شدد الأتراك حصارهم على العاصمة — كأنهم يتناسون ما بينهم من خلافات وأحقاد مريرة كثيرا ما كانت تؤدى إلى اقتتال البنادقة والجنويين أينما التقوا . ولكن عمق هذه الأحقاد كان يدفع الطرفين إلى أن يضرب بعضهم بعضا فى أدق المراحل وأشد الظروف خطورة حتى لقد كان الامبراطور نفســه ينزل إلى الشوارع ليفصل بين الطرفين .

كذلك كان من بين المدافعين كاتالونيون (١) وكاثوليك وارثوذكس وبعض من أتباع الكنيسة الاتحادية ، ومفكرون احرار وانسانيون ، وأراخنة بيزنطيون وقواد إيطاليون لجند من المرتزقة ، كلهم اجتمعوا تحت لواء الدفاع عن المسيحية ضد الإســـلام ، وفى قلوبهم أحقاد فيما بينهم .

وكانت أشهر مظاهر الحقد وضوحا تلك التى كانت بين الأرثوذكس والكاثوليك ، أو بمعنى آخر بين اليونانيين وفرنجة الغرب ، أو بمعنى ثالث بين حضارة الشرق المسيحية وحضارة الغرب المسيحية أيضا .

كان الامبراطور يدرك عن حق أن العاصمة فى حاجة ماسة إلى نجدة عسكرية من الغرب ، وادرك أن ذلك الصراع الطويل المذهبى الذى كان يتشدق به أباطــــرة الدولة البيزنطية وبابوات روما وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة، دفعت الامبراطورية البيزنطية ثمنه غاليا وها هى قد أصبحت مهددة بأن تدفع حياتها كلها ثمنا له .

---

(١) Catalans

أقنعت المحنة (قسطنطين باليولوج) ان الأخوة والتعاون الأرثوذكسي — الكاثوليكي هو أحد الوسائل الجوهرية لانقاذ العاصمة من خاتمة مروعة . ولم يكن الرجل خياليا مثل رعيته التى استمعت بنوع من التصديق اللاشعورى الى كلمات القساوسة وهى تؤكد قرب وقوع معجزة من السماء ، على هيئة ملائكة سيهبطون إلى الأرض لإبادة الأتراك ان وطأت أقدامهم أرض العاصـــمة (١) .

كان قسطنطين واقعيا ويدرك أن الأسوار والسلسلة الطويلة التى أغلقت مدخل القرن الذهبى وعزيمة الرجال وحملة انقاذ من أوروبا الغربية الكاثوليكية هى التى يمكن ان تدفع الأتراك بعيدا عن العاصمة . ولهذا كان صادقا مع نفسه عندما تلقى — مع أنه رأس الأرثوذكسية وحاميها — البركة من يد الكاردينال الكاثوليكى (ايزيدور) ليقنع الناس اجمعين أن مواجهة الأزمة يتطلب الارتفاع فوق الخلافات المذهبية .

ولكن كان صدى هذه الحادثة سيئا للغاية بين صفوف العامة من رعية الامبراطور فقد قيل أن (نوتاروس) — الدوق الأكبر وأعلى النبلاء مركزا بعد الامبراطور — صرح : « إنى أفضل عمامة المسلم على قبعة الكاردينال الحمراء » .

وفى الشوارع تعالت احتجاجات الناس وعلى لسانهم كلمة (الخيانة) . فما كان للشعب أن ينسى تلك الأهوال والنكبات التى تحملها على يد الكاثوليك الغربيين ، ولا تلك القرون الطويلة من العداء بين بيزنطة وروما . لقد كانت المحنة الجديدة اشد قسوة من سابقاتها ، ومع ذلك فان ما جاء من الغرب كمساعدة للعاصمة القسطنطينية لم يتجـاوز الخمســين رجــلا .

اما فى الجانب الأقوى ، وهو الجانب العثمانى ، فكان (محمد الثانى) شابا فتيـا عندما تحمل مسئولية الاستيلاء على القسطنطينية . وبدأ فى السنة الأولى من حكمه وكأنه سلطان مسالم يود التعايش مع القوى العديدة التى كانت تعادى الدولة العثمانية من قبل .

---

(١) تردد أن رجال الدين كانوا يؤكدون للشعب الوجل « أن ملاكا سماويا سيحميكم بمشيئة الله » وقد تدخل قطعات الكفرة (كذا) المدينة إلا أنه فور دخولهم سينزل عليهم ملاك أزرق من السماء ويمحوهم عن آخرهم » .

فلقد تصالح مع (هونيادى) ومع صاحب (صربيا) ومع أمير (ولاشيا) (١) ومع جنوة وفرسان رودس (٢) ومع راجوسا (٣) ، ومع صاحب البلوبونيز (٤) ومع صاحب بولنده ومع أمير قرمانى ، وإلى جانب هذا وذاك تصالح مع الامبراطور قسطنطين باليولوج .

ولكن كان محمد الثانى حين أقدم على هذه الدبلوماسية الهادئة قد وضع نصب عينيه هدفا آلى على نفسه أن يحققه الا وهو القسطنطينية نفسها . لقد كانت السنوات التى سبقت هجومه الأخير عليها سنوات اعداد وتنظيم وتجهيز لهذه الحملة الكبرى .

وكان الجيش الذى اعده (محمد الفاتح) لهذه المهمة كبيرا يصل إلى أضعاف أضعاف القوة المدافعة . وكان يستخدم كل جديد من فنون الحرب ، وخاصة المدفعية وآلات الحصار الضخمة . ولكن حقيقة القوة العثمانية كانت فى الجند سواء الفرسان أو المشاة الإنكشارية . كانوا مؤمنين بالإسلام عن عقيدة كما كانوا مؤمنين بهدفهم وسلطانهم، إذ كانوا يتطلعون الى الشهادة فى تواضع . فالقائد كان لا يتورع عن اصلاح حدوة حصانه ان اختلت ، والإنكشارى يرى جنات ربه وهو يتلوى محترقا تحت سيل من الزيت المغلى تصبه القوات المدافعة عن الأسوار . وإذا انفتحت ثغرة فى تلك الأسوار كان التكبير يتردد فى المعسكر التركى وكأنه زلزال الحشر وبروح فدائية حقة كانت القوات التركية تريد أن تكسب الدنيا والآخرة فى آن واحد ، تحثها استصراخات رجال الدين والصوفية وسيرة المجاهدين من الصحابة وآلاف المؤمنين الذين سقطوا تحت اسوار هذه العاصمة المنيعة .

كان الإنكشاريون كتلة واحدة تشعر بواجبها وبالمهمة التى أعدوها لها . السيف سلاحهم والإسلام دينهم وعقيدتهم والسلطان أبوهم وسيدهم . مثقفون متدينون . كانوا قبل المعركة ، يستعدون للشهادة فيتطهرون ويسجدون لربهم فى صلاة خاشعة ويذكرونه فى إيمان بسيط وبنفوس صافية .

---

(١) Valachia

(٢) Cheualiers de Rhodes

(٣) Raguse

(٤) Ploponèse

(٥) Karamanie

كانت هناك استعدادات يقوم بها محمد الثانى لتحقيق هدفه ، ولكن دون أن يثير المخاوف الحقيقية المباشرة لدى الامبراطور قسطنطين باليولوج وحاشيته ، حتى انتهى الى اتخاذ الخطوة قبل النهائية لضرب الحصار على العاصمة ، وكانت هذه الخطوة عبارة عن إنشاء قلعة « روملى حصار » الى جوار القسطنطينية نفسها ، وفى موقع جعلها تسيطر سيطرة مباشرة على المضيق بحيث تجعل السفن الآتية من البحر الأسود تحت رحمتها ، فإن هى دفعت الضرائب الجمركية والمكوس فيها ، وإن هى رفضت اغرقتها مدفعيـــة القلعة . بذلك يكون (محمد الثانى) قد كسب موقعا استراتيجيا واقتصاديا فى آن واحد .

كان هذا العمل بمثابة النقطة الحرجة التى وصلت إليها العلاقات السلمية الحذرة بين الطرفين . كان (محمد الثانى) يرى فى هذه القلعة مقدمة لإسقاط المدينة فى يده ، وكان الامبراطور قسطنطين باليولوج يدرك هـذا أيضا . وقرر الامبراطور أن يوقف العمل فى هذه القلعة ، فحذره بعض رجال بلاطه من أن هذا لا يعنى سوى الإسراع باعلان حرب غير متكافئة ، وكذلك كان الامبراطور يدرك هذا ، ولكنه كان يعتقد بحق أن لا قيمة لتأجيل الحرب ، وفعلا أدى اعتراض الامبراطور على أعمال بناء القلعة إلى الحرب ، فكانت بداية النهـــــــاية .

كانت المدفعية سلاحا حاسما فى الحصار إذ أخذت فى قصف أبواب وأسوار وأبراج المدينة ، ولكن الخطوة الحاسمة جاءت على يد البحرية العثمانية التى نقلت برا (١) إلى (القرن الذهبى) خلف السلسلة العظيمة التى كانت تسده ، وبذلك أصبحت العاصمة مهددة من كافة الجوانب . وكانت الكارثة كبيرة لأن الأسوار فى هذه الناحية البحرية كانت رديئة ولم يكن يعتمد عليها، لأنه كان من المستبعد جدا أن يهبط اسطول معاد الى (للقرن الذهبى) ، وهكذا أصبحت العاصمة لأول مرة مهددة من البر والبحر على السواء .

توالى القصف والهجمات وتداعت الأسوار فى أكثر من مكان ومنعا لمزيد من سفك الدماء بين المهاجمين والمدافعين على السواء بعث السلطان (محمد الثانى) رســولا إلى الامبراطور قسطنطين باليولوج يدعوه إلى تسليم العاصمة بالشروط التالية :

١ ـ أن يخرج منها الامبراطور وبلاطه بكل الأموال إلى المورة (٢) ويحكمها تحت سيادة السـلطان .

---

(١) كانت خطة ذكية للغاية ، وكانت مفاجاة فتت فى عضد المدافعين .
(٢) فى اليونان .

٢ - أن لا يصاب سكان العاصمة - بعد دخول الأتراك اليها - بأى أذى ٠

ولكن الامبراطور رفض إلا الدفاع عن عاصمته أو الموت فيها ٠ فكان أن وقع الهجوم النهائى بعد ٥٣ يوما من الحصار ، وفى هذا الهجوم تجلت شجاعة وقدرات الإنكشارية واستولى الجيش العثمانى عنوة على العاصمة وسقط امبراطورها قتيلا فانتهت بذلك سلسلة الأباطرة من آل باليولوج مع تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، لتصبح القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية (٢٩ مايو - إيار ١٤٥٣) لمدة خمسة قرون تقريبا حتى اتخذ كمال اتاتورك من انقرة عاصمة لتركيا فى مطلع العشرينات من القرن العشرين ٠

وتتحدث المصادر بكثرة عن تلك الحملة الصليبية التى اعدتها البابوية والبندقية لإنقاذ القسطنطينية ، والتى كانت مؤلفة من ثلاثين سفينة محملة بالجند والذخائر ٠ وكانت هذه الحملة فى طريقها إلى القسطنطينية عندما ضيق محمد الثانى الحصار عليها ، ويقال ان رياحا معاكسة عطلت سيرها واخرت وصولها حتى بلغتها الأنباء - على يد الفارين من القرن الذهبى - بسقوط القسطنطينية ٠

وفى اعتقادنا أن مثل هذه الحملات ما كانت لتفعل شيئا للقسطنطينية إلا تأخير يوم سقوطها بضعة أسابيع ٠

كان محمد الفاتح قد عزم منذ البداية على أن يجعل من القسطنطينية عاصمة لدولته ولهذا عنى بأن تعود إليها الحياة بسرعة ، وأن تفيد من كافة المزايا العسكرية والاقتصادية التى كانت تتمتع بها ، بل ومن المزايا الجديدة التى هيئت لها ٠ وكان يدرك ان رعيته المسيحية بها تشكل جانبا نشطا من جوانب المدينة ويجب لاحتفاظ به واعطائه دفعة جديدة لمتابعة العمل والنشاط حتى تصبح العاصمة الإسلامية الكبرى الجديدة قاعدة الحكم والثروة فى آن واحد ٠ ولهذا أقدم على عدة خطوات ساهمت على سرعة انتعاش العاصمة ورقيها ٠

١ - كانت مسئوليات العاصمة كبيرة ، ولا يمكن ان يقوم بها شعب قليل العدد تبقى بها بعد ذلك الحصار الدموى المخرب ، وكان كثير من الجماعات الإسلامية تدرك قيمة الانتقال إلى هذه العاصمة الجديدة للافادة من قيمة موقعها التجارى من جهة ، ومن الفرص العديدة التى تسنح من الوجود بالقرب من الحكومة المركزية من جهة أخرى ، واستمرت هذه الهجرات الإسلامية إلى العاصمة حتى أصبحت عاصمة

إسلامية تماما ، ومع هذا لم يهمل محمد الفاتح أمر سـكانها اليونانيين الأصليين الذين سبق أن فروا منها خلال ذلك الحصار المدمر أو أولئك الذين بقوا فيها عنـد الفتح . فقد شجع هؤلاء وهؤلاء على العودة إليها والاستمرار فى البقاء بها ومزاولة نشاطهم بل وبدرجة أكثر عن ذى قبل .

٢ — كان فى حى (غلطه) — أحد أحياء القسطنطينية الرئيسية — جالية جنوية كان لها الدور الكبير فى تنمية تجارة المدينة ، ولهذا عمل على أن يبقى الجنويون فى حيهم ؛ فأبقى ما كان لهم من امتيازات وزاد عليها فكانوا بذلك أداة لنمو ثروة العاصمة وفى نفس الوقت كانوا أداته للاتصال بالدول الأوروبية . وهناك من يرى أن هـذه المعاملة اللينة التى نعم بها الجنويون ليست سوى نتيجة موقفهم الخائن — أو على الأقل — المحايد خلال الحصار العثمانى للعاصمة (١) .

ولقد سار (محمد الفاتح) على أسس سياسية دينية رائعة ، أساسها التسـامح وأن لا اكراه فى الدين ، مما أدى إلى أن يقلل من نفقات الاحتلال العثمانى للبلقان الى أقل درجـة ممكنـة ، وحتى يمكن الافـادة من هـذه العناصر المسـيحية فى استثمار البـلاد اليونانية والبلغـارية ، ولهـذا أبقى المسـئوليات الدينية لليونانيين فى يد الكنيسة وعلى رأسها (بطريرك الروم) ، بل وأضـاف إليهـا سـلطات مدنية . لقد كانت سياسة (محمد الفاتح) الدينية السمحة لا مثيل لها فى بقية مناطق الصدام بين المسلمين والمسيحيين .

إستمرار التوسع العثمانى فى البلقان :

كان لسقوط القسطنطينية دوى كبير سواء فى الشرق او فى الغـرب ، فقد طربت القاهرة عندما أتتها هذه الأنباء ، واتخذت زينتها . وكان هذا فى حقيقة الأمـر إعدادا للأذهان لتقبل الزعامة التركية الإسلامية الناشئة ، فمنذ سنوات طويلة لم تحرز أية دولة إسلامية انتصارا مدويا كهذا .

وكان سقوطها كذلك سببا فى أن يضطر بعض أمراء البلقان — مثل برانكوفتش امير

(١) Lamouche; Histoire de la Turquie. Paris 1953. P. 64.

الصرب ــ إلى أعلان الخضوع للسلطان . وان كان مستعدا لأن ينفض هــذه التبعية اذا ما وجد مشجعا له على ذلك .

وكان جورج كاستريوتا (اسكندر) فى البانيا على نفس المستوى من التفكير الذى كان لدى برانكوفتش .

أما أمراء ولاشيا وملدافيا (الافلاق والبغدان) فقد قبلوا السيادة العثمانية غـــير المباشرة نكاية فى خصمهم التقليدى : المجر ، ولكن كانوا كذلك لا يتورعون عن استخدام المجر وبولندا ضد الدولة العثمانية كلما سنحت الفرصة .

وقبل شقيقا الامبراطور قسطنطين باليولوج ــ اللذان كانا فى المــورة ــ أن يكونا تابعين للسلطان ، كما فضل حكام خيوس ولسبوس ــ وكانوا جنيويين ــ دفــع الجزية السنوية للســـــلطان .

وتابع محمد الثانى سياسته السلمية وتحركاته الدبلوماسية فى البلاطات المعــادية للدولة العثمــانية . فقد عقـــد معاهــدة مع جنــوة [1] ، كذلك عقد محمد الثانى اتفاقية سلمية مع دوق ناكسوس .

وهكذا كانت سياسة الأتراك فى البلاد البلقانية التى وقعت تحت سيطرتهم تنم عن بعد نظر ورغبة فى جعل هذه البلاد ارضا مسالمة لا خاضعة فقط ، وكما يقــول توينبى : كانت سيطرتهم على البلقان بطريقة جعلت شعوبه المسيحية متعلقة بالسلام العثمـــانى Pax Ottomana على نسق السلام الرومانى Pax Romana هذا السلام العثمانى لم يكن قائما على أساس الدبلوماسية ، وإنما كان سلاما مفروضــا يمنع ــ الى حين ــ قوى البلقان من أن تصبح شوكة خطرة فى جانب الدولة العثمانية .

إن هذا الاتساع والنمو فى مكانة الدولة العثمانية أدى الى أن تشعر بعض الدول بأن الخطر العثمانى قد اصبح داهما ونعنى بذلك الصرب والمجر والبندقية ، وكانت الأخيرة صاحبة النفوذ الأكبر على سواحل البلقان عسكريا واقتصاديا . وإلى جانب هذه الدول كان يوجد جيب صغير بيزنطى فى (طرابيزون) إذ كانت لا تزال تحت حكم أسرة «كومنين» .

---

(١) ١٨ أبريل ــ نيسان ١٤٥٤ .

وبجانب هذه القوى المسيحية المناهضة للدولة العثمانية، كانت توجد دولة إسلامية فتية ولكن عشائرية تركمانية قد اتسعت فى الشرق من الأناضـول ، وهى دولة الآق قوينلو بزعامة أوزون حسن (أى حسن الطويل) • وكان أوزون حسن على دراية بمشاكل محمد الثانى مع عدد من القوى المسيحية • وكان فى نفس الوقت واسع الآمال طموحا •

هذه هى القوى التى وجد محمد الثانى نفسه مضطرا لقتالها بعد فتحه القسطنطينية وكانت أسباب الصدام متوفرة مع أى منها • ولكن الذى مكنه من إحراز النصر أو منع العدو من الحصول على مكاسب واسعة من وراء أى انتصار يحرزه ، الذى مكنه من ذلك تباعد مراكز اعدائه ، وعدم القدرة لديهم على حشـــد جيوشهم فى جبهة واحدة ، وعدم قدرتهم على الارتفاع إلى مستوى تنسيق عملياتهم العسكرية ، رغم وجود فكرة التحالف بين هذه القوى أو بعضها لمواجهة هذا العملاق الفتى العثمانى •

فالصرب كانت تقع بين ممتلكات محمد الفاتح (محمد الثـانى) والدولة الصليبية العنيفة « المجر » تحت قيادة المقاتل هونيادى • واصر محمد الفاتح على أن تكون له وحدة السيادة على الصرب على اعتبار ان أى أمير مسيحى على هذه البلاد لن يتوانى عن التعاون مع القوى المسيحية فى تحالف هجومى ضد الدولة العثمانية • ولهذا شرع محمد الفاتح فى فرض سيادته كاملة على الصرب بينما التجأ برانكوفتش إلى هونيادى وتعاونا فى مقاومة ناجحة فى أول الأمر ضد الجيوش العثمانية وكان لديهما أمل فى وصول امدادات صليبية من أوروبا الغربية • ولكن اصبح الحديث عن حملات صليبية مجرد استهلاك محلى فى مختلف بلاطات أوروبا ، بينما كان (محمد الثانى) يستعد لمعركة كبيرة ضـــد الصرب والمجر ، وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه بسبب وفاة خصميه الكبيرين (هونيادى) ـ الذى كان قد انتصر فى موقعة بلغراد على الأتراك فى ١٤٥٦ ـ و (برانكوفتش) فى سنة واحدة (١٤٥٦) ، ودبت الفوضى فى حكومة بلغراد بسبب تنازع ورثة برانكوفتش فيما بينهم على التركة الأمر الذى مكن السلطان (محمد الفاتح) من أن يضع يده على بلاط الصرب (١٤٥٩) فيما عدا بلغراد التى ظلت تحت يد المجر وظلت بعيدة عن متنـــــاول العثمانيين زهاء ستين سنة حتى سقطت فى يد الأتراك فى ١٥٢١ •

وفى ١٤٦٣ وقعت البوسنة (بلاد البشناق) فى يد السلطان محمد الفاتح بسهولة

وذلك لوجود جماعة ملية عرفت باسم بوجميل (١) كانت قد تعرضت لاضطهاد شديد من جانب رجال الدين الكاثوليك والارثوذكس على السواء ، حتى أصبحت هذه الجماعة شديدة البغض للمسيحيين متطلعة إلى الأتراك العثمانيين ليس فقط لأن الأتراك يستطيعون إنزال القصاص بخصومهم بل لأن مبادىء هذه الجماعة كانت تلتقى مع الإسلام فى أشياء كثيرة . ويلاحظ أنه بعد أن سيطر العثمانيون على البوسنة دخلت هذه الجماعة واعداد كبيرة من الشعب فى الدين الإسلامى ، وإلى جانب هذا دخل عدد كبير جدا من النبلاء — يتبعهم أتباعهم — فى الإسلام فاحتفظوا بامتيازاتهم واملاكهم ، اما بقية البوسنة فظل مسيحيا ولكن موزعا بين المذهبين المتنازعين : الارثوذكس والكاثوليك .

وكانت البانيا قد تأثرت بالحضارة الإسلامية حتى أن بعض مثقفيها تفقهوا فى الدين الإسلامى ومنهم جورج كاستريوتا ، ابن أحد أمراء البانيا ، وقد درس كاستريوتا الإسلام واعلن إسلامه عندما كان رهينة فى بلاط السلطان مراد الثانى وترقى هناك وأصبح يعرف باسم (اسكندر بك) .

وحينذاك كانت البانيا مجالا حيويا للبندقية وكانت الدولة العثمانية تعمل على طرد النفوذ البندقى منها بل والسيطرة على البانيا وكان هذا يعنى اغلاق مجال هام لنشاط البندقية وتهديدا استراتيجيا لها .

وبينما كان العثمانيون يعملون على تصفية الموقف فى البانيا لصالحهم فر اسكندر بك إلى بلاده وارتد عن الإسلام وأعلن عزمه على الحفاظ على البانيا مستقلة بعيدة عن متناول يد الأتراك ، وكان طبيعيا أن تلقى اسكندر بك تأييد القوى المعادية للدولة العثمانية وبخاصة البندقية والبابوية التى ترى فى مثل هذه الحركات نواة لحرب صليبية جديدة فلقد أعلنه البابا كاليكستوس الثالث فى ١٤٥٧ قائدا عاما للحرب الصليبية .

ونظرا للطبيعة الوعرة للبلاد هناك وإمكانية تكوين فرق عسكرية ضاربة سريعة الحركة فقد أرهق اسكندر بك الجيش العثمانى حتى لقد اضطر السلطان محمد الثانى (محمد الفاتح) إلى عقد هدنة معه لمدة عشر سنوات تبدأ فى عام ١٤٦١ .

---

(١) Bogomile

كان ذلك فرصة لتعيد بعض الزعامات المسيحية حساباتها فى الوقت الذى كان فيه اسكندر بك يستعد لنقض الهدنة الأمر الذى مهد لوضع خطة واسعة لحملة صليبية كبرى كان يرعاها البابا بيوس الثانى ولكنه لم يلبث البابا أن توفى وخمدت من بعده الدعـوة لحملة صليبية جديدة الأمر الذى جعل اسكندر بك فى موقف حرج فنتيجة لذلك التطور أصبح اسـكندر بك وحيدا فى الميدان أمام السـلطان العثمانى محمد الثانى فاتح القسطنطينية ٠

ومع هذا صمد اسكندر بك لفترة ليست بالقصيرة ، بل أن العثمانيين لم يستطيعوا السيطرة على البانيا إلا بعد وفاة اسكندر بك فى ١٤٦٨ ٠

وبعد دخول البانيا فى الدولة العثمانية وانتشر الإسلام فى البانيا أصبحت من بعد مصدرا هاما لتزويد السلاطين العثمانيين بكبار رجال الدولة وبالمقاتلين ، فالملاحظ أن عددا ليس بالقليل من الصدور والعظام والقواد العثمانيين كانـوا البانيين ، وأصبحت كتائب الالبانيين العثمانية من أكثر القوات العثمانية شراسة خاصة فى القرنين الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ٠

ولكن البانيا نفسها ستكون من أكثر مناطق الدولة العثمانية شـغبا وتمردا على الحكومة العثمانية ٠ مثلها فى ذلك مثل الصرب ٠

خسرت البندقية بوفاة (اسكندر بك) حليفا شـديد الوطأة على الأتراك ، ولكنها وجدت فى أوزون حسن (١) — زعيم تركمان الآق قوينلو — حليفا قويا يهدد الأناضول من الشرق ٠ وفعلا كان الصراع بين أوزون حسن والسلطان العثمانى طويلا ومريرا ، ورغم الانتصار الذى احرزه السلطان على أوزون حسن فى ١٤٧٣ إلا أن دولة الآق قوينلو ظلت

---

(١) كان أوزون حسن قد تزوج من ابنة اخى (دافيد كومنين) حاكم طرابيزون وشن حملة تخريبية على شرق الأناضول فى (١٤٦٠) ، عندما اراد ان ينزل به السلطان العثمانى محمد الثانى هزيمة قاسية أسرعت والدة أوزون حسن إلى التفاهم مع السلطان ، فكف مؤقتا عن ضربه وركز السلطان جهده ضد طرابيزون فاستولى عليها وقضى على الأسرة الحاكمة فيها نهائيا ٠

شوكة فى جنب الدولة العثمانية • حتى قدم القدر خدمة جليلة للسـلطان بموت أوزون حسن (١٤٧٨) وتفككت دولته من بعده •

ولهذا كان من مصلحة البنادقة أن يعقدوا صلحا مع السلطان وتم ذلك فى ٢٦ يناير كانون الثانى ١٤٧٩ ، وهو الصلح الذى جعل اليد العليا للعثمانيين فى البانيا والمورة ، ودفعت البندقية مبلغا كبيرا من المال فى مقابل حقها فى المتاجرة فى الليفانت (١) وفى إقامة قنصل لها فى (غلطة) ضاحية القسطنطينية •

كان هذا الصلح إطلاقا للجيش العثمانى للعمل فى المورة ، فاستولى على زنتة (٢) وسان مورى (٣) ، وحاولت قوات عثمانية النزول إلى الساحل الإيطالى عند أوترانت (٤) ، ولكن ذلك كان مجرد هجوم عاصف غير مستقر •

كانت مصالح الجنويين قد تعرضت هى الأخرى للمخاطر بسبب ذلك النمو فى الدولة العثمانية ، إذا استصرخ زعماء المسلمين فى القرم بالسلطان العثمانى ـ الذى أصبح قبلة الزعامات الإسلامية المستضعفة ـ ضد الجنويين المسيطرين على اقتصاديات المنطقـة بواسطة الميناء (كافا) فرد السلطان بالاستيلاء على هذا الميناء ، وقضى نهائيـا على الوجود الجنيوى فيه • ولكن ظل الاتصال غير مباشر بين الممتلكات العثمانية فى البلقان وخانية القرم حتى تمكن بايزيد الثانى ـ خليفة محمد الفاتح ـ من التوسع على حساب (ملدافيا) بالتعاون مع خان القرم ، وامكن بذلك الاستيلاء على أكرمان فى (١٤٨٤ م) التى ربطت بين الحلفين ، والتى مكنت العثمانيين بعد ذلك من ارسال الحملات ضـد بولنـدا •

كما ادى هذا التوسع العثمانى فى اتجاه القرم إلى أن تحتك الدولة العثمانية بالدولة الناشئة الروسية • وأخذ التجار والسفراء الروس يأتون الى الاستانة للحصـول على تسهيلات تجارية (١٤٩٥ ـ ١٤٩٩) •

---

(١) الحوض الشرقى للبحر المتوسط Levant

(٢) Zante

(٣) Sainte Maure

(٤) Otrante

إن نظرة سريعة على انجازات محمد الثانى (محمد الفاتح) تبين لنا :

١ ـ كانت صفة الجهاد فى سبيل الله قد ارتبطت بتاريخ الأتراك العثمانيين وأعطتهم السمعة العظيمة فى مختلف البلاطات الإسلامية ، فكانت انتصارات الأتراك تقابل بكل فرح وترحاب فى تلك البلاطات ، ولما سقطت القسطنطينية رحبت القاهرة وازينت ، وباركت مكة المكرمة هذا النصر ، ولكن بمرور الوقت ، أخذت هذه الدولة العثمانية تكشف عن حقيقة قوتها الأمر الذى جعل بعض البلاد الإسلامية تحسدها ، ونخص بالذكر دولة المماليك فى مصر والشام · حقيقة لم يقع الصدام بين السلطان محمد الفاتح ومماليك مصر ، ولكن وقعت الحرب بين خليفته بايزيد الثانى والسلطان المملوكى بسبب استيلاء الأخير على أرض كيليكيا وعلى بعض المدن التى كانت واقعة تحت نفوذ السلطان العثمانى · وبدا واضحا أن الطرفان ـ وإن سعيا الى الحرب ـ أنهما كانا يريدان ايقافها فى أقرب فرصة · فبعد معركتين متتابعتين فى ١٤٨٩ و ١٤٩٠ ـ لغير صالح الأتراك العثمانيين ـ عقد الصلح بين الدولتين حقنا لدماء المسلمين ، ولكن كان هذا بداية للعلاقات العنيفة بين العثمانيين والمماليك ·

٢ ـ لقد صفى محمد الثانى الكثير من الجيوب التى كانت بمثابة اشواك فى جنب دولته·

٣ ـ وصلت حدود الدولة العثمانية إلى مسافات عميقة للغاية فى شرق أوروبا فضلا عن حصول الدولة العثمانية على اليد العليا فى ولاشيا وملدافيا وفى القرم ·

٤ ـ كانت الدول التى واجهت الدولة العثمانية وتريد صدها عن البلقان تواجه مشكلات معقدة · فالبندقية ـ أشد القوى عداوة لها ـ لا تستطيع أن تنزل جيشا بريا وانما كانت تسعى الى حليف مثل (المجر) أو (أوزون حسن) · اما الآق قوينلو فتلاشت بوفاة هذا الرجل ، اما المجر فحملت عبء المقاومة ومسئولية أوروبا فى شن الحروب الصليبية ودفعت ثمنها ، وكان الثمن غاليا · إذ ستستمر الحروب بين الدولتين العثمانية والمجرية · وقد أراد (بايزيد الثانى) ـ خليفة (محمد الفاتح) ـ أن ينتهز فرصة وفاة ملك المجر (ميناس كورفون) فى ١٤٩٢ ليستولى عليها ، ولكن الحرب الجديدة كانت أقرب ما يكون إلى المذابح المتبادلة بين الطرفين·كما كانت الحملات المتبادلة بين الدولة العثمانية والبندقية على هذا النحو ·

٥ - ان فتوحات (محمد الفاتح) - رغم أنها كانت فى أرض معادية غير إسلامية ، ورغم أن البلقان ظل مسيحيا فى غالبيته العظمى ، بعكس الأناضـــول ، فقد ظل تحت الحكم العثمانى حتى مؤتمر برلين ١٨٧٨ .

٦ - لقد ادت تلك المكانة الرفيعة التى حصلت عليها الدولة العثمانية بعد ســـقوط القسطنطينية ، والصدى المدوى فى أوروبا لهذا الحدث إلى أن تتخذ الدول الأوروبية سياسات معينة ازاء الأتراك ، اما صداقة مبطنة بالمؤمرات أو عداوة عنيفة . تلك كانت مواقف البابوية وفلورنسا وبيزا ونابلى وفرنســـا بل والامبراطورية الرومانية المقدسة فى بعض الأحيان على أن الامبراطورية الرومانية المقدسة كانت - بسبب طبيعة تكوينها وموقعها - تشعر بأنها هى المسئولة عن طرد الأتراك من أوروبا على الأقل .

٧ - كانت جهود محمد الفاتح ، ومن قبله سلاطين الأتراك ، مركـــزة على الجهــــاد فى البلقــــان ، وكذلك كان خليفته (بايزيد الثانى) . بينمـــا كانت أراجـــون وقشتالة (بزعامة فرديناند وايزابيلا) تشنان حربا لتصفية الوجود الإسلامى فى الأندلس وعندما توالت الاستنجادات على بايزيد لم يفعل سوى ارسال أســـطوله ليروع السواحل الأسبانية (١) . دون أن يحول ذلك دون سقوط (غرناطة) بشكل مأساوى مشابه لذلك الذى حدث للقسطنطينية قبلها .

لم يكن محمد الفاتح سلطانا محاربا فقط ، بل كان معنيا بالقانون والتشريع ، على اعتبار انهما مسئولان من تسيير عجلة الدولة بانتظام ويحولا دون تطور أمورها إلى فوضى واضطراب . حقيقة هناك غموض فيما جاء فى مؤلفات المؤرخين بشأن قيام (محمد الفاتح) بترتيب القانون العثمانى (قانون نامة) ، وأن هناك جمهرة من المؤرخين يسندون ذلك العمل الجليل إلى (سليمان الأول) الذى وصف بأنه سليمان (القانونى) . ولكن مما لا شك فيه أن النظم التى وضعها (محمد الفاتح) لإدارة دولته ظلت سارية المفعول وكانت من أسباب قيام الدولة من بعده بمجهودات كبيرة جعلتها أكبر دولة إسلامية واعظمها زمن سليمان القانونى .

---

(١) رد فرديناند الثانى بالمثل على الدولة العثمانية فى ١٥٠١ بأن بعث أســـطولا أسبانيا روع السواحل العثمانية - البلقانية ثم عاد .

وإذا كان هناك بعض الشك فى ذلك العمل القانونى الجليل فإن الأعمال المعمارية الرائعة التى تمت فى عهد (محمد الفاتح) تثبت — مما لا يدعو للشك — أن هذا السلطان ، وكذلك خليفته بايزيد الثانى ، على فكر حضارى راق . فتحويل كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد على أسس معمارية راقية ، وبناء العديد من المســـاجد التى تعتبر من التحف الفنية المعمارية ، وفتح المدارس والمكتبات والحمامات والمستشفيات بكثرة لم تشهدها العاصمة القسطنطينية من قبل ، وقصره الرائع بها ، وقلعة الأبراج السبعة الرهيبة ، وأحواض بناء السفن ، ودور الصناعة ، كل هذا يدل على مقدرة تركيـة فذة فى مجالات الأخذ بالحضارات والاقتباس منها وإدخال التحسينات عليها .

الفصل الثاني

الفتوحات العثمانية فى البلاد العربية

١ ــ الحرب العثمانية الفارسية الأولى .

٢ ــ الفتح العثمانى للشام ومصر .

٣ ــ الإمتداد العثمانى فى الحجاز .

٤ ــ الفتح العثمانى لليمن .

٥ ــ الفتح العثمانى للعراق .

٦ ــ التوسع العثمانى فى شمال افريقية .

(١)

الحرب العثمانية الفارسية الأولى

تولى السلطنة بايزيد الثانى فى ١٤٨١ خلفا لأبيه (محمد الفاتح) واستمر فى الحكم حتى ١٥١٢ . وهناك اتجاه شائع فى المؤلفات يصف بايزيد بانه سلطان مسالم اراد أن يهدىء المنطقة من تيار الحروب الجارفة التى لفها خلال القـــرن الخامس عشر . ومع أن بايزيد الثانى كان مستعدا لشن الحرب إذا تصور أنها مجدية ، مثلما فعل مع المجـــر ومع بولندا ومع البندقية ومماليك مصر ، فلا شك أن بايزيد الثانى كان ينظر إلى الأمور بعين تختلف عن عين ابيه محمد الفاتح إذ كان مضطرا لتصفية الجيوب العديدة المعادية فى دولته او حولها وهذا ما كان ليتم إلا بضرب القوى المتحالفة مع تلك الجيوب أيضا . أما وقد توصلت الدولة إلى حدود ثابتة مترامية فالأجدى أن تبذل الجهود لصيانتها وتقويتها حتى لا يصبح هذا الاتساع عبئا على الدولة نفسها . ولعل هذا هو الذى جعله يســـعى إلى التفاهم وديا مع القوى العديدة المجاورة له . متبعا أحيانا أسلوب الزواج من الأسرات الحاكمة الإسلامية . فقد زوج واحدة من بناته لوريث عرش فارس ، كما زوج بنت أخيــه إلى سلطان مصر . وتبادل السفارات الودية مع الدول المسيحية المجاورة .

وقد نجح بايزيد الثانى فى تحقيق هدفه من وراء هذا السلم الحذر ، خاصة من حيث نمو علاقاته الدبلوماسية مع الدول المجاورة والكبيرة . كما كان السلم الطويل نســبيا فرصة لتركيز بعض العناية على المشروعات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والمعمارية على نفس الخطة التى سار عليها أبوه (محمد الفاتح) ، بل من مآثره انه أعاد بناء أجزاء عديدة من القسطنطينية التى كان قد دمرها زلزال عنيف فى ١٥٠٩ . ولكن هذه السياسة السلمية — فى نفس الوقت كانت فرصة يمكن أن يستغلها خصوم الدولة العثمانية وبوجه خاص الزعيم الجديد القوى الداعية إلى المذهب الشيعى الاثنى عشرى « الشاه اسماعيل الصفوى » مؤسس الدولة الصفوية فى إيران ، الذى دفع بدعاته بنشاط الى الأناضول فحصلوا على أنصار عديدين هناك الأمر الذى كان يهدد الدوله العثمانية فى عقر دارها : (الأناضـــــــول) .

وهذه الديناميكية من جانب الشاه اسماعيل الصفوى ، إزاء الســلبية من جانب

بايزيد الثاني وضعف شخصيته أمام أولاده المتنافسين على العرش فى حياته ورطه كل هذا فى حرب أسرية كان النصر النهائى فيها لابنه سليم ، القوى الشكيمة الذى أيدته قطعات الإنكشارية ورفعته إلى العرش فى ١٥١٢ .

وبتولى سليم الأول العرش ، تبدأ صفحة جديدة فى تاريخ الدولة العثمانية تتحول فيها من دولة إسلامية تركية ـ بلقانية الي دولة اسلامية عامة تمتد من شمال البلقان حتى البحر العربى ومن حدود فارس حتى مراكش .

كانت اول مشكلة واجهها السلطان سليم الأول ـ الذى عرف بياوز ـ هى الخطر الذى كانت تشكله الدولة الفتية الشيعية فى فارس بزعامة الشاه اسماعيل الصفوى (١)، فما أن سيطر الشاه على فارس فى مطلع القرن السادس عشر حتى تطلع إلى العراق الذى كان لا يزال بيد (مراد بن يعقوب ميرزا) احد أولاد أوزون حسن ، وكانت تطلعات الشاه للعراق نتيجة لمجموعة من الدوافع المذهبية والسياسية والاقتصادية .

فمن حيث الدوافع المذهبية كانت حركة الشاه اسماعيل تعتمد على الدعاية الشيعية الاثنى عشرية . ومن ثم كانت سيطرته على كل من كربلاء (مرقد الإمام الحسين) وعلى النجف (مرقد الإمام على) تعطى لحركته دفعة قوية من النشاط، فضلا عن هذه السيطرة على العتبات المقدسة الشيعية فى العراق لا تحقق فقط أملا مذهبيا كبيرا وإنما تحقق كذلك أهدافا اقتصادية كبرى . فالعراق الخصب الزراعى يمكن أن يسد الكثير من حاجات سكان الهضبة الإيرانية الفقيرة . وفوق هذا وذاك فإن الاستحواذ على بغداد ـ القلب التقليدى للعالم الإسلامى ـ يعطى للشاه اسماعيل الصفوى مكانة رفيعة لدى المسلمين .

---

(١) سندرس بالتفصيل تاريخ هذا الرجل ونكتفى هنا بالإشارة إلى ظروف ظهور هذه الدولة . ففى أواخر دولة (القرة قوينلو) اشتهرت فى أردبيل ـ فى شمال فارس ـ أسرة صوفية شيعية تنتسب الى (صفى الدين) ، ونمت مكانتها حتى خشيت منها الأسرة الحاكمة نفسها فاضطهدتها ، فوضع رجال الأسرة الصفوية أنفسهم فى خدمة اوزون حسن زعيم الآق قوينلو . فلما قوض أوزون حسن دولة القرة قوينلو ارتفع شأن رجال الأسرة الصفوية ، وبعد موت أوزون حسن دبت الفوضى فى دولته الأمر الذى مكن اسماعيل ـ أحد احفاد صفى الدين ـ من أن يوجه ضربة قاضية لهذه الدولة واستولى على تبريز فى (١٥٠١ م) ثم على إيران كلها .

وكان مراد بن يعقوب يدرك تماما نه أعجز من أن يقف وحده امام أطماع الشاه إ. ولذلك استنجد بامارة ذى القدر — الواقعة فى جنوب غرب الأناضول بين إيران والشام . ولكن امارة ذى القدر كانت فى سنوات شيخوختها واعجز من أن تقدم مساعدتها لبغداد .

فاتجه مراد بن يعقوب — آخر حكام بغداد من الآق قوينلو — إلى السلطان قانصوه الغورى الذى يعيش الخليفة العباسى فى كنفه والذى يتربع على سلطنة مصر وصاحب الشام وحامى حمى الحرمين الشريفين وأمل المسلمين فى كفاح الفرنجة .

ولقد كان قانصوه الغورى يدرك خطورة استيلاء الشاه اسماعيل الصفوى السريع على إيران وانه امام زعيم شديد المراس سينافسه فى منطقة المشرق العربى فاتخذ بعض الإجراءات التمهيدية لإعداد حملة ضد الشاه وفرضوا الأموال على أهل دمشق لتمويل كتائب المشاة التى ستعسكر فى حلب استعدادا لخض شوكة « اسماعيل شاه الصوفى » .

ولكن هل كان السلطان قانصوه الغورى مستعدا لنجدة مراد بن يعقوب وإنقاذ العراق من « الصوفى » ؟

والواقع أن الظروف العامة التى كان يواجهها الغورى حينذاك كانت لا تسمح له بمناورات عسكرية فقط دون أن تورطه فى حرب حقيقية ضد الشاه . فقبل ذلك بوقت قصير كان فاسكودا جاما قد نجح فى الوصول إلى الهند بطريق رأس الرجاء الصالح ، وسرعان ما ضرب الأسطول البرتغالى حصارا حول السواحل العربية وأغلق مداخل البحر الأحمر والخليج العربى وأخذ كل سفينة عربية وإسلامية غصبا وحول التجارة الشرقية عن طريق مصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح — أوروبا . ولذلك انشغل السلطان قانصوه الغورى باتمام التجهيزات الحربية لإرسال الحملات البحرية الكبرى ضد الأسطول البرتغالى فى المياه الإسلامية الجنوبية ، ولتقوية الدفاع عن الأراضى المقدسة الحجازية وعن مفاتيح البحر الأحمر فى اليمن . كل هذا جعل السلطان الغورى يفضل إلا يفتح على نفسه جبهة جديدة غير مستعد لها ، ولهذا ترك صاحب العراق يدبر أموره بنفسه . ولذلك لم تكن مهمة الشاه صعبة خلال عملياته العسكرية التى إنتهت بالاستيلاء على العراق فى ١٥٠٨ .

وذهب الشاه اسماعيل بنفسه إلى العراق متفقدا حاجا الى العتبات المقدسة الشيعية فشق قناة للمياه الى النجف عرفت باسم نهر الشاه ، وعمر مراقد الأئمة الشيعة

وانقلب على علماء المذهب السنى هادما مقابرهم سافكا دماءهم ، عاملا على أن يصبغ العراق بالصبغة الشيعية بكل ما أوتى من أساليب وإمكانيات .

وانتفخت أوداج الشاه بعد ان وجد نفسه سيد بغداد والعراق دون أن تتحرك ضده اى من الدولتين الكبيرتين السنيتين ألّلتين اصبحتا تطلان على دولته من شمال ومن غرب وهما :.

١ ــ الدولة العثمانية فى الأناضول والبلقان .

٢ ــ الدولة المملوكية فى الشام والحجاز ومصر .

ولذلك مد الشاه أبصاره الى ما وراء العراق لعله يستطيع أن يحقق آمال الشيعة فى إقامة دولة شيعية كبرى فى المنطقة .

فمن قواعده فى العراق وضع الشاه اسماعيل الصفوى سياسته التوسعية على أساسين :

١ ــ التحالف مع القوى المعادية للدولة العثمانية وللدولة المملوكية .

٢ ــ نشر المذهب الشيعى الاثنى عشرى .

لقد بعث الشاه برسالة الى أوروبا مفاوضا بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه عونة على سلطان مصر وأنهم (يجيئون) من البحر (ويجيء) هو من البر فى حركة كماشة تؤدى إلى سقوط الدولة المملوكية ليقتسمها الشاه مع ملوك الفرنج بأن تكون مصر من نصيبهم بينما يستحوذ هو على الشام ليطل بذلك على البحر المتوسط . كما أنه بذل مجهودات كبيرة جدا لنشر المذهب الشيعى الاثنى عشرى فى الأناضول التركى ليجتث بذلك الدولة العثمانية السنية من أصولها حيث أن الأناضول هو البيئة التى نمت فيها وتعتمد عليها الدولة العثمانية .

ولا شك أن وجود السلطان بايزيد الثانى (١٤٨١ ــ ١٥١٢) اللين العريكة على العرش العثمانى أطمع الشاه اسماعيل فى مضاعفة جهوده فى تحويل الأناضول إلى المذهب الشيعى ، خاصة وأن تلك الجهود كانت تلقى نجاحا متتاليا .

وبينما لم يقدر بايزيد الثانى خطورة هذا التحول نحو المذهب الشيعى كان ابنه

سليم ــ حاكم طرابزون ــ شديد الحساسية لهذا التحول حتى أنه لم يتــــوان عن شن الهجمات ضد الفرس ليخض شوكتهم ٠ فاصبح بذلك امل القيادات العسكرية العليـــــا الإنكشارية فى وقف الخطر الشيعى. فكان أن تهيأت بذلك فرصة القيام ضد أبيه بانقلاب عسكرى تم بنجاح فى ١٥١٢ وتسلم سليم الأول العرش من أبيه ليبدأ سياســـــة عثمانية جديدة ازاء المشرق العربى ٠

والحق ان قوى المشرق الإسلامى بدت لسليم الأول وكأنها قوى عدوانية تدبر للدولة العثمانية حتفها حيث لم يكن سلوك الشاه فقط هو المعادى وإنما كان سلوك الغورى نحوه معـــاديا أيضـــــا ٠

فبينما كان الشاه ينشر المذهب الشيعى فى الأناضول كان الغورى يستقبل فى بلاطه الثائرين والفارين من وجه سليم وخاصة إخوته المطالبين بالعرش العثمانى ومن ثم كان لا بد وان يقع الصدام بين سليم الأول من جهة والشاه اسماعيل أو الغورى من جهة أخرى.

وكان من الطبيعى ان يبدأ سليم الأول بالشاه اسماعيل حيث انه كان يمثل الخطر المباشر على الدولة العثمانية ، وكان الأتراك بصفة عامة يفخرون بأنهم حماة المذهب السنى من الشيعة . فلا غرو ان بدأ السلطان سليم الأول بتطهير الأناضــول من المتحولين إلى المذهب الشيعى ، ودبر لهم مذبحة مروعة لم تقم لهم بعدها قائمة ٠

ثم التفت إلى أصل الداء ونقل الحرب الى بلاد خصمه فى وادى جالديران (١٥١٤) ودارت المعركة بين قزلباش الشاه من جهة وإنكشارية وسباهية السلطان من جهة أخرى ، واحرز السلطان العثمانى فى معركة بالديران نصرا كبيرا جدا ٠

حقيقة كانت الضربة قاسية على الشاه ، ولكنها لم تكن القاضية ، حيث استطاع الشاه ان يستعيد قوته وأن يعيد بناء جيشه ودولته ، بينما اكتفى الســـلطان العثمانى بمكاسبه فى شمال العـــراق حيث ســـيطر على (دياربكر) و (اورفة) و (ماردين) و (حصن كيف) ، أو بمعنى آخر لقد اصبحت مفاتيح العراق الشمالية فى يد العثمانيين، بل لقد اصبح سليم الأول صاحب سيادة على العراق عندما اعلن صاحب بغداد الولاء له ٠ وبتلك الحرب الناجحة ضد الشاه اسماعيل الصفوى أصبح السلطان ســـليم الأول من أصحاب الكلمة القوية فى تحديد مصير البلاد العربية ٠

ولدينا عدة ملاحظات على هذا الصدام العثمانى الصفوى :

١ — ان الدعوة الصفوية اعتمدت على قوة ضاربة عسكرية فتية تستند فعلا الى نظرية (الفتوة) . ولقد نجحت (الفتوة الصفوية) فى التحكم فى الأوضاع الداخلية فى فارس بكل قوة ، وأدى ذلك الى سيطرة الشاه اسماعيل الصفوى بقوة على امور فارس الداخلية . إلا أن هذا النظام من الفتوة أثبت فشله عند أول مجابهة خارجية (الحرب الفارسية العثمانية) إذ انتهت بهزيمة قاسية للغاية للجيش الفارسى ، ولكن دون أن تقع البلاد كلها فى قبضة سليم الأول ودون أن يخضع الأهالى الفرس للسلطان العثمانى المنتصر .

وانه يمكن مقارنة تلك الفتوة الصفوية ودورها الناجح فى الداخل ودورها الفاشل فى الخارج ، بما حدث لنظام حكم خمينى فى فارس حيث تمكن اتباع خمينى من السيطرة بكل قوة على الوضع الداخلى بينما اضطر النظام الحاكم الى وقف القتال مع العراق (اغسطس ١٩٨٨) بمعنى فشل القوة الضاربة عند المواجهة الخارجية .

واعتقد أن السبب فى هذا التشابه الكبير بين ما حدث للشاه اسماعيل وللخمينى يرجع الى طبيعة (التسرع) للعمل الثورى فيؤدى الى نكسة ، ويرجع كذلك الى الاعتماد على الحماس وتضخيم الانتصارات الفرعية دون اعطاء العناصر الأخرى قيمتها الحقيقية .

٢ — إن الهزيمة التى نزلت بالشاه اسماعيل فى جالديران هى التى وضعت الأساس لإعادة النظر فى طبيعة تكوين القوات الفارسية ، وفعلا أعيد تكوين القوات الفارسية على يد الشاه عباس الأول الذى أنشأ القزلباشية الجديدة وألغى القبلية فيها وادخل الأسلحة النارية واستعان بالأوروبيين فى تدريب القوات الفارسية .

٣ — بعد ضربة جالديران تقوقعت الدولة الفارسية ، حقيقة كانت لها غزواتها فى اتجاه الشرق وفى اتجاه الغرب ، ولكن بصفة عامة أصبحت فارس ذات كيان محدد واضح لديه كافة مقومات (الدولة القومية) باستثناء شىء واحد فقط هو اعلان ذلك ، إلا أن ذلك كان متعذرا لأن الفكر القومى من الناحية النظرية كان لا يزال أوروبيا وعسيرا على الشرقيين تفهمه حينذاك حتى ولو مارسوه على نحو ما كان عليه الفرس .

٤ ـ أن فارس الصفوية الشيعية قسمت العالم الإسلامى الى قسمين : المسلمون شرق ايران أغلبية سنية وشيعة والمسلمون غرب ايران وأغلبيتهم كذلك سنة · ومع أن الفكر السـنى كانت تعوزه النظـرية التبشـيرية إلا أنه كان ولا يزال هو الفكر السائد فى العالم الإسلامى والمعبر عنه ·

٥ ـ كان سليم الأول ورجاله شديدى الكراهية للفرس الصفويين على اعتبار أن التبشير بالصفوية يقوض دعائم المجتمع السنى الذىهو المجتمع الإسلامى الصحيح العقيدة· ولا شك أن التنظيم الصفوى القائم على التبشير بالمذهب الشيعى الاثنى عشر كان كفيلا بأن يكسب عشرات الألوف من المسلمين السنة الى جانب الصفويين بسبب غياب (التبشـير السنى) ·

وعلى اى حال كانت هزيمة الشاه اسماعيل الصفوى فى معركة جالديران هى العامل الرئيسى الذى أعطى الفرصة للسلطان سليم الأول ليتعامل مع مركز القوة الثانى أى مع السلطان المملوكى قانصوه الفورى ·

★ ★ ★

(٢)

الفتح العثمانى للشام ومصر

قبل أن ندخل فى تفاصيل الصراع الذى دار بين السلطان العثمانى سليم الأول والسلطان المملوكى قانصوه الغورى ، سنلقى ضوءا على طبيعة العلاقات بين الطرفين العثمانى والمملوكى خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر .

كانت الدولة العثمانية الناشئة محط اعجاب الدولة المملوكية نظرا لأن العثمانيين كانوا (مجاهدين) ضد أوروبا الشرقية المسيحية (الامبراطورية البيزنطية) . وكان المسلمون فى ارجاء العالم يطربون لسماع انتصاراتهم المتتالية .

ولكن طبيعة العلاقات الدولية والعوامل الجيوبوليتيكية كفيلة بأن تثير حذر اية دولة مجاورة من جاراتها. وهذا ما نلاحظه من موقف كل من الدولتين العثمانية والمملوكية من غزوة تيمورلنك لأراضى الدولتين ، فلم يتوصلا إلى اتفاق ضد عدوهما المشترك . فقد اجتاحت جحافل تيمورلنك الشام وطرد المماليك من دمشق فى ١٤٠٠ م ثم التقى فى معركة انقرة (١٤٠٢) بالسلطان العثمانى بايزيد الأول فوقع الأخير اسيرا وتشتت جيشه . حقيقة انحسرت بعد ذلك الموجة التترية وتتابعت العلاقات بين العثمانيين والمماليك ولكن من منطلق عدم الثقة ، وكأن درس تيمور لنك لم يجد لأى من الطرفين .

لقد كانت صورة مصر مهزوزة لدى بلاطات الدول الكبيرة فى الشرق الأوسط حينذاك ونعنى بها (الدولة العثمانية) و (الدولة الفارسية) . فقد حرض أحد رجال السلطان العثمانى بايزيد الثانى على الاستيلاء على مصر فى حوالى ١٤٨٦ . على ان المواجهة بين العثمانيين والفرس وضع العثمانيين والمماليك وجها لوجه .

ومن ثم كان على قانصوه الغورى أن يتخذ سياسة ما إزاء هذه التطورات السريعة بما يفيده ويبقى عليه كصاحب الكلمة الأولى فى المشرق العربى. فكان عليه ان يتبع واحدة من ثلاث سياسات كانت امامه .

فكان عليه ان يتبع واحدة من ثلاث سياسات كانت امامه :

١ — أن يأخذ جانب العثمانيين ضد الصفويين .

٢ — أن يأخذ جانب الصفويين ضد العثمانيين .

٣ ــ أن يقف على الحياد بين الطرفين ٠

واخذ قانصوه الغورى يقلب هذه السياسات أمامه ٠ فوجد أنه إذا وقف الى جانب السلطان العثمانى سليم الأول ضد الشاه اسماعيل فإنه بذلك يعطى العثمانيين قــوة ، ويجعل جهود العثمانيين فى القضاء على الصفويين غير شاقة ٠ وبالتــالى إذا ما توترت الأمور بين المماليك والعثمانيين يكون هؤلاء مستعدين دون ارهاق لخوض المعارك ضــد المماليك ٠ أو بمعنى آخر ان انضمام المماليك الى السلطان العثمانى كان سيخل التوازن إخلالا شديدا لصالح العثمانيين بالذات ٠

اما إذا اخذ السلطان قانصوه الغورى جانب الشاه اسماعيل الصفوى ، فكان عليه أن يقنع جمهرة المماليك بذلك ، ولقد كان من المستبعد أن ينجح فى إقناعهم لعدة أسباب :

اولا : لقد كانت العلاقات الصفوية المملوكية غير طيبة ، ولا تشجع على قيام تحالف على جناح السرعة ٠

ثانيا : كان مماليك مصر سنيين متحمسين لمذهبهم لا يقبلون التعاون مع الشـــاه الصفوى الشيعى ضد السلطنة العثمانية السنية المجاهدة ضـــد أوروبا منذ أكثر من قرنين من الزمـــــان ٠

ثالثا : لقد أثبت العثمانيون أنهم أكثر غيرة على الإسلام من الصفويين ، حيث لبى السلطان العثمانى بايزيد الثانى طلبات الغورى بشأن إمداده بالأخشاب والفنيين لإعداد أسطول كبير لخض شوكة الأسطول البرتغالى الذى اخذ كل سفينة إسلامية غصـــبا فى المياه الإسلامية الجنوبية ٠

ولهذا فضل قانصوه الغورى ان يقف على الحياد ، واكتفى بارسال قوة من مماليكه « الجلبان » إلى حلب لمراقبة تطورات الأمور ولحماية الأراضى والامارات الواقعة تحت نفوذ المماليك من الجيش العثمانى الزاحف من الأناضول الى أذربيجان الفارسية ٠

ولكن ارسال هذه القوة وقيامها بمنع الجيش العثمانى من المسير عبر طرق تمــر بأراضى واقعة تحت النفوذ المملوكى أدى الى تدهور العلاقات بين السلطان سليم الأول والسلطان الغورى بعد أن خرج الأول منتصرا فى موقعة جالديران على الشــاه اسماعيل الصـــــــــفوى ٠

وبدا واضحا أن سليم الأول عاد من جالديران وهو يضمر اقحام حرب على السلطان الغورى لأنه كان يخشى من وجود دولتين كبيرتين معاديتين له تشرفان على حـــــدوده الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية ·

وكان من ابرز هذه الاتجاهات أن السلطان سليم بعد عودته من جالديران أسرع إلى الانفراد بالنفوذ فى امارة ذى القدر الفاصلة بينه وبين المماليك ، فقتل أميرها الحاكم علاء الدولة ووضع مكانه على ابن شاه سوار ·

ولقد كان ذلك الإجراء لطمة شبه مباشرة للسلطان الغورى الذى عزم على أن يستعيد هيبته فى المنطقة فامر بالاستعداد للحرب إن لم يرفع السلطان سليم الأول يده عن امارة ذى القـــــدر ·

ولكن الغورى فى حقيقة الأمر كان يود من صميم قلبه أن لا تتطور الأمور إلى حرب وأن تتهيأ الفرصة التقليدية التى تؤدى الى تسوية ما بينه وبين السلطان سليم الأول تحت شعار حقن دماء المسلمين حيث أن الغورى كان يعرف تماما أن مماليك مصر محملون بأعباء ثقيلة إزاء القوى المناهضة لهم فى شبه الجزيرة العربية وازاء البرتغاليين فى المياه الإسلامية وفى المحيط الهندى كما كان الغورى يدرك أن المماليك غير مستعدين من وجوه عـــديدة لخوض غمار حرب كبيرة ضد جيش السلطان العثمانى ·

إن المقارنة بين ذلك السلطان العثمانى الجرىء سليم الأول — الذى ينقل الحرب فى المشرق الى أرض خصومه ويفرض عليهم خوض المعارك — وقانصوه الغورى الذى يسعى الى تجنب الحرب بطريقة أو بأخرى ، يعكس حقيقة أن مماليك مصر كانوا فى أحـــوال سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية يرثى لها · والمماليك أنفسهم مسئولون عن كثير من أسباب هذا التدهور الذى أصاب البلاد الواقعة تحت حكمهم (الشام والحجاز ومصر) ·

ولقد أشار المؤرخ ابن اياس بوضوح الى تحول الموانى على البحر الاحمر والبحر المتوسط من الازدهار الى الخراب فى مطلع القرن السادس عشر ، وقد عزا ابن اياس ذلك الى جشع وسوء الإدارة المملوكية فيقول ابن اياس ان حسين نائب جده قد ضـــاعف ما يجبيه عشرة أمثال «فامتنعت التجار من دخول بندر جده وآل امره الى الخراب» [1] ·

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٩٠ ·

وتحدث ابن اياس عن خراب بندرى الاسكندرية ودمياط فقال : « فامتنعت تجار الافرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم وعز وجود الأصناف التى تجلب من بلاد الافرنج » (١) ٠

وبذلك تكون التجارة المصرية ـ الهندية،والتجارة المصرية ـ الأوروبية قد أصيبت بحالة شديدة من التدهور ، وفقدت موانى مصر على هذين البحرين المتوسط والأحمر دورها الاقتصادى خاصة على المستوى الدولى ٠

إن مسئولية تردى أحـــوال الشـــام ترجع اساسا الى أيام الحروب الصليبية والاجتياحات المغولية والتترية للشام ، والى أن المماليك لم يعيدوا بناء اقتصاديات مصر والشام ، بل اتبعوا سياسة خاطئة اقتصادية حين تركوا سفن البنادقة تنقل التجـــارة الشرقية من مصر والشام الى أوروبا دون أن يعطوا فرصة للشعب كى يقوم بهذه التجارة العظيمة بل اكتفوا بفرض الضرائب المتزايدة على تلك التجارة الدولية واشتطوا فى ذلك حتى لقد فكر البنادقة فى وقت من الأوقات فى قطع علاقتهم بالمماليك .

ولعل اتجاه المماليك الى مضاعفة الضرائب على التجارة الشرقية يرجع أساسا الى فساد نظام الاقطاعات العسكرية الذى كان متبعا حينذاك ، حيث كان على كل مملوك أن يعيش على موارده من اقطاعه وأن يسلح نفسه ورجاله وهو ينفق عليهم من ارزاقه من هذا الاقطاع ، ولكن الذى حدث هو أن المماليك والأجناد كانوا يبيعون اقطاعاتهم او يتنازلون عنها حتى لقد اشترى أصحاب الحرف والصناعات كثيرا من هذه الاقطاعات فاصبحوا بسبب ذلك ضمن الاجناد وهم لا يعرفون فى أمور الحرب والقتال شيئا ٠

وزاد من تدهور البلاد اقتصاديا أن المماليك مدوا ايديهم بقسوة الى دخل الفلاحين الذى لا يسد رمقهم ٠ حيث ضاعفوا الضرائب عليه واشتطوا فى فرض الغـــرامات حتى جعلوه عاجزا عن المحافظة على مستواه المدنى ٠

وحيث أن أهل المدن ـ مثل الفلاحين ـ هم الذين كانوا فى متناول الحكام المماليك، فقد عانى أهل المدن من(الرمى على الحارات) بدعوى تمويل الحملات اللازمة لإنقاذ قافلة الحجاج من تعدى العربان عليها او لإعداد القوات اللازمة لحماية المدن العربية من الهجمات

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٩٠ .

القاسية التى كانت تشنها العشائر البدوية ، كما لجا المماليك الى مصادرة أموال الأثرياء والى تغيير سعر العملة من وقت لآخر ليحصلوا على دخل كبير من الفـــرق بين السعرين القديم والجديد الأمر الذى كان يعرض الاقتصاد المحلى لأزمات وهزات خطيرة ٠

ولم يكن هناك من رادع لمظالم المماليك وقسوتهم فى مصادرة ونهب أمـوال الناس ســـــــوى :

١ ــ العصيان المدنى من عامة الناس بزعامة الشيوخ « والأكابر » ٠

٢ ــ ثورة زعماء العصبيات وخاصة العشائر ٠

وكان أصحاب المتاجر وأهل الأسواق كثيرا ما يغلقون محلاتهم ويشكون لكبار رجال البلد ، فيذهب هؤلاء إلى الحكام المماليك ويرفعون الشكاوى اليهم احيانا بقوة وأحيـانا اخرى بضعف ٠ وكان المماليك يستمعون الى ما يقوله «الأكابر» و «ويجبرون بخاطرهم» ولكن لم يكن ذلك مطردا ، فيحدثنا ابن طولون عن أن المجتمع الدمشقى يئس من اعيانه والاكابر فيه لأنهم لم يتكلموا دفاعا عن الشعب حتى لقد ادى الأمر الى أن يهب الأهالى ضد الأعيان والقضاة والتجار ثائرين على أوضاعهم المتدنية ، وكأنها محاولة من الطبقة الشعبية المهضومة الحقوق لفرض مطالبهم على الحكومة والراسمالية المتحكمة فيهم وعلى القوى المتعاونة مع هاتين السلطتين وخاصة السلطة القضائية التى كانت هى الأخـرى فى حالة متدهورة ٠

لقد بذل المماليك ما بذلوه من جهد فى سبيل الاحتفاظ بمستواهم الســـياسى والاجتماعى بتعويض النقص فى خزائنهم بطريقة أو بأخرى ومع هذا كله ظلت خـــزانة السلطان فارغة. ولم تعد تلك الخزانة تسد حاجات الجيش المملوكى أو الحكومة المملوكية٠ ويتجلى ذلك عندما قارن الناس بين الأموال الكثيرة التى كان ينفقها السلطان المملوكى على جيشه عندما زحف لقتال السلطان بايزيد الثانى العثمانى والأمـــوال القليلة التى كان ينفقها قانصوه الغورى على جيشه قبيل الزحف الى الشام لقتال السلطان سليم العثمانى٠ وهذا فى الحقيقة تأكيد صادق لتدهور اقتصاديات الحكومة والبـــلاد المصرية فى زمن الغورى عنها فى أى زمن مضى ٠

فكان طبيعيا أن تزايدت مظالم المماليك وان تضاعفت الضرائب على الشعب،فتوالت المظالم حتى « ضاق الأمر » وكثر « وقف الحال » ٠

وكان على المماليك أن يعالجوا هذا التدهور الاقتصادى الخطير ، ولكنهم ظلوا متمسكين بتقاليدهم ولم يحاولوا اعادة النظر فى أساليب الحكم أو فى أساليب الانتاج الاقتصادى أو فى فتح مجالات اقتصادية جديدة مربحة للفرد وللجماعة وللدولة • بل إنهم ظلوا على اسرافهم فى المظاهر الاجتماعية ومن أبرز مظاهر الإسراف الحفلات التى كان يقيمها المماليك ، والأموال التى كان يوزعها وينثرها الغورى والمماليك خلال زحفهم من مصر عبر الشام للقاء الجيش العثمانى فى معركة مرج دابق •

فقد كان الغورى يريد أن يوهم الناس أن خزانته عامرة وأمواله كثيرة فابدى من مظاهر البذخ ما يتنافى مع حقيقة الانهيار الاقتصادى الذى كان يعانى منه • وهذا الأسلوب فى ايهام الشعوب بالرخاء وهى متدهورة اقتصاديا يذكرنا أيضا بما أقدم عليه الملك لويس السادس عشر وزوجته الملكة مارى انطوانيت حين أقاما الحفلات الكبرى وظهروا بمظهر اليسر لا العسر لعل ذلك يمكنهم من عقد قروض جديدة ، ولكنها أساليب لا تعالج الداء من أساسه ولذلك لا تلبث الأمور أن تتكشف عن واقع الحال وما كان أسوءه •

وفى مصر ، مركز الحكم المملوكى ، كانت عناصر التدهور تظهر تباعا حيث أصبح المماليك يواجهون دولا من طراز جديد تقوم اما على اساس الفكر المذهبى مثل فارس الصفوية الشيعية أو على أساس الجهاد الدينى مثل الدولة العثمانية فى الأناضول والبلقان ، أو الحرب الصليبية الاقتصادية مثل البرتغاليين ، أما المماليك فكانوا عقائديا قد فقدوا أسس احتكارهم للحكم والحرب فلقد قبلهم الشعب فى مصر والشام وتحمل مظالمهم ، وضحى برفاهيته وبكثير من مصالحه لمجرد ان هؤلاء كانوا يجاهدون فى سبيل الله ضد العدوان الصليبى •

وانه لارتفاع رائع الى مستوى التضحية الواجبة من جانب الشعب العربى فى مصر والشام حين تحمل كل ما تحمله من أجل تلك الأهداف السامية .

أما وقد انتهى الصليبيون وخرجوا من الشام • وارتد المغول عن المشرق لم تعد هناك حاجة الى استمرار تلك التضحيات من جانب الشعب ، ولكن استمر المماليك يعيشون على ذكريات تلك الانتصارات الرائعة ، ويبتزون أموال الناس باسم الأعمال المجيدة التى قاموا بها رغم مرور أكثر من قرنين من الزمان عليها ، دون أن يجددوا

شباب قوتهم أو قوة البلاد التى يحكمونها اتقاء شر مستطير يأتى إلى البلاد الإســـلامية من أوروبا مرة أخرى ٠

ولهذا عندما فوجىء المماليك بالأسطول البرتغالى وقد فرض سيطرته على الميـــاه الجنوبية الإسلامية ثم بجيش السلطان سليم الأول يستعد لفرض حرب مصـــيرية على المماليك لم يكن لدى المماليك القدرة على الارتفاع بسرعة إلى أساليب ومستويات التفوق العسكرى حينذاك سواء فى البر أو فى البحر ٠

فقد كان الجيش المملوكى يتكون من أقسام رئيسية :

١ ــ المماليك السلطانية من قرانصة وجلبان ٠

٢ ــ المماليك الأمراء ، حيث كان لكل مملوك قوته التابعة له وتدين له بالولاء والطاعة ٠

وكان المماليك يعتمدون فى تجديد شباب جيشهم على شراء اعداد كبيرة من القوقاز لتدريبها ورفعها من مراتب العسكر إلى القيادات ٠

وكان شراء المماليك الجدد يتم باعداد كبيرة ، ولكن هؤلاء المماليك الجدد فى القرن الخامس عشر كانوا على صفات أدنى بكثير من أولئك المماليك الذين كانوا يجلبون إلى مصر خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ٠

فيحدثنا المؤرخ ابن طولون عن الفوضى التى كان يثيرها هؤلاء المماليك الجدد خلال سفرهم عبر الشام إلى مصر ٠ ومع أن هؤلاء كانوا شرسين،غير مطيعين مرهقين للسلطان، إلا انه لم يكن قادرا على الاستغناء عنهم ، حيث أن المسئوليات التى ألقيت على كاهل جيش مصر تضخمت فجأة وبشكل مذهل اذا امتدت جبهات العمل العسكرى امامهم من مرعش وشمال العراق إلى طرابلس الغرب وعدن والحبشة والسواحل الهندية ، وبالتالى أصبح السلطان الغورى فى حاجة لأعداد متزايدة من المماليك الجدد ، ولكن كان لا بد وان يشعر الغورى ، وغيره من كبار رجال المماليك فى مصر أن القوقاز ــ وهى المصدرة للماليك الجدد لمصر عبر الأراضى العثمانية والشام ــ لن يظل مفتوحا أمامهم باستمرار ، وعندما توترت العلاقات بين السلطان سليم الأول والسلطان الغورى عمل سليم على منع مرور المماليك الجدد عبر أرضه . فيكون بذلك قد جمد نمو الجيش المملوكى ٠ ومع ان هـــذا التجميد لا تظهر آثاره إلا بعد وقت طويل نسبيا الا أن آثاره النفسية ليست بالقليلة على المماليك

فى مصر الذين كانوا مجرد أقلية حاكمة تعيش فى خضم عربى كبير يمكن أن يبتلعهم يوما ما إذا لم تستمر عملية التجديد والإضافة عن طـريق الشراء وتعويض النقص فى الجيش المملوكى . وأقبل الغورى على شراء المماليك حتى « تكاملت خاصكية السلطان نحو ألف ومائتى خاصكى من مشترواته » وكان لا بد من استمرار عملية الشراء هذه سنة بعد أخـرى لتعويض النقص حيث أن أعدادا كبيرة من المماليك كانت تذهب ضحية الأوبئة والمؤامرات .

ولقد دب الشقاق فى كل صفوف المماليك . فالقرانصة كانوا ضد الجلبان ، وكل صنف منهما كان يستكثر من الأموال ويتجنب المشاركة فى الحروب خوفا على النفس من الموت وعلى الأموال من الضياع وللاستمرار فى حركة المؤامرات الدائبة فى القاهـرة بين كبراء المماليك سعيا إلى المناصب العليا .

فالقرانصة يرفضون الذهاب لحماية العقبة والاسكندرية ويصرون على أن يعسكروا فى رشيد ودمياط دون غيرهما . والجلبان لا يقيمون وزنا للسلطان الغورى نفسه فكانوا « يدخلون إلى الأسواق ويخطفون القماش من على الدكاكين .. وصـار الناس فى غاية الضنك والقهـر » .

وحاول الغورى أن يصلح بعض أمور المماليك وأن يعيد الوئام بين كل المماليك ولكنه كان يرمى فرقة بأخرى وهذا أسلوب لا يؤدى إلى توحيد الصفوف ومجابهة العدو بقلب واحـد .

لقد تغلبت روح المؤامرات على الرغبة فى تصفية الخلافات وتوحيد الصفوف وانشغل المماليك أكثر بمؤامراتهم ، وفى رفع هذا المملوك أو ذاك إلى المناصب العليا .

لقد أصبح البطل لدى المماليك هو الذى يدبر مؤامرة ناجحة لا ذلك الذى يكسب معركة حامية . ومما عمق هذا الاتجاه الخطر فى نفوسهم هو أنهم لم يشتبكوا فى حـرب خارجية لعدة سنوات طويلة ، باستثناء تلك الحرب القصـيرة التى وقعت بين المماليك والعثمانيين فى أواخر القرن الخامس عشر .

وكان عدم الاحتكاك العسكرى بالقوى الأخرى عاملا رئيسيا أدى إلى تحويل نشاط المماليك من قوى قادرة على نقل الحرب الى أرض العدو وخارج مصر الى قوى متأخرة تجد العزة فى الاستبداد بأهل البلاد ، وفى الاقتتال فيما بينهم .

وغرق المماليك فى مؤامراتهم الداخلية ، ولم يعنوا بما كان يدور خارج البلاد فطاشت آراؤهم حول قوة جيرانهم ولم يدركوا أن أساليب الحرب والقتال كانت تنتقل من عصر الفروسية والسيف إلى عصر المشاة والمدفعية البرية والسفن البحرية المزودة الواحدة منها بأكثر من اربعين مدفعا كفيلة بأن تسوى بالأرض أى ميناء من الموانىء المصرية أو الشامية أو الحجازية حينذاك .

وإنه لقصور جد غريب حيث أنه لم ينشأ ذلك من عدم ادراك أو معرفة لقيمة هذه الأسلحة النارية ، اذ ان المماليك كانوا يعرفون أمرها وحاولوا استخدامها بل ادخلوها فعلا فى نظامهم الدفاعى ولكن بأسلوب لا يفيد فى رفع مستوى الجيش المملوكى إلى مستوى القرن السادس عشر ، فلقد كانت لديهم بعض المدافع ولكنهم أبوا أن يتولوا امرها وإنما اسندوا تشغيلها الى البنادقة .

بل عندما أدرك بعض القواد المماليك أنه لا بد من استحداث فرقة من المشاة رماة البنادق لجأوا الى تدريب عناصر من غير المماليك . وكان اختيارهم لهذه العناصر سيئا للغاية حيث أنهم كونوا هذه الفرقة من « زعر » دمشق ، وهم أشبه بفتوات بولاق والحسنية فى القاهرة وبشقاوات بغداد .

ولقد حاول الغورى أن يعيد النظر فى تشكيل جيش المماليك وتجديده ، وأعد فعلا قوة من رماة البنادق عنى بتدريبها الأمر الذى أدى الى فتنة كبيرة فى ١٥١٤ — ٩٢٠ هـ . إذ اتهمه أمراء المماليك بانه انفق على هؤلاء الجند ما كان يجب أن ينفقه عليهم ، وانه لن يلبث أن يستغنى عنهم عندما يكمل إعداد جيشه الجديد ، وهكذا كان الغورى فى ورطة معقدة ، فهو لا يستطيع أن ينشىء جيشا جديدا ، ولا هو بقادر على تطوير المماليك بما يتناسب مع حروب القرن السادس عشر ، فى الوقت الذى كان فيه المماليك يواجهون جيوشا من نوع جديد لا من حيث التسليح فقط بل من حيث أنها جيوش عقائدية .

فلقد كان البحار البرتغالى يستميت من أجل الهدف الصليبى الاقتصادى الذى يسعى إلى تحقيقه . بينما كان الجهاد فى سبيل الله والسنة المحمدية وتلبية اوامر السلطان العثمانى نصب عين رجالات الإنكشارية وسباهية الجيش العثمانى . وكان قزلباش اسماعيل الصفوى يبذلون دماءهم من أجل الشاه وعقيدتهم . اما السلطان الغورى فكان له جيش من المماليك يعتمد صيتهم على انتصارات أسلافهم فى القرن الثالث عشر

ولكنه اصبح غير كفىء للمعارك الحاسمة العالمية فى القرن السادس عشر ، ومع هذا كان الغورى مضطرا لخوض حروب ضد العثمانيين والبرتغاليين فكل منهما كان يهدده تهديدا مباشرا ، وكل منهما نال من مكانته وكرامته بشكل لا يمكن السكوت عليه ٠

فالبرتغاليون هزوا ثقة المسلمين فى المماليك فلم يعد المماليك حماة للإسـلام ولا للمسلمين فشتان بين دور المماليك فى تصفية الوجود الصليبى فى الشام ودورهم فى مقاومة الحملات البرتغالية على المياه الإسلامية الجنوبية ٠ شتان بين استرداد المماليك لعكا فى (١٢٩١) ونتائج معركة ديو ١٥٠٩ بين الأسطولين المملوكى والبرتغالى فقد أصبح البرتغاليون بعد تلك المعركة ، وإلى حد كبير ، أصحاب السيادة على المياه الإسلامية الجنـوبية ٠

هكذا فعل البرتغاليون بالمماليك ٠ ثم جاء السلطان سليم الأول ليشن حملة تحقير ضد المماليك ، فهم فى نظره مجرد عبيد اغتصبوا الحكم ٠ اذ خاطب سليم الأول السلطان الغورى بقوله :

« إنك مملوك تباع وتشترى ولا تصح لك ولاية ملك وأنا ملك الى عشرين جدا وقت توليت الملك بعهد من الخليفة والقضاة » ٠ وأصر السلطان سليم على أن يكون السيف هو الحكم ان لم يعلن الغورى خضوعه له فكان ذلك هو ذروة الاستهانة بالغورى والمماليك ٠

ونحن لا نستبعد أن يكون السلطان العثمانى صادقا فى رغبته فى أن يكف يده عن مقاتلة الغورى ، حيث أن هناك سابقة ، وهى ان سليم الأول بعد موقعة جالديران لم يستمر فى الزحف داخل الدولة الفارسية،واكتفى باعلان حاكم بغداد الخضوع للسلطان. ولكن ما كان فى استطاعة الغورى أن يعلن تبعيته للسلطان العثمانى هكذا بسهولة ودون حرب تحت شعار حقن دماء المسلمين ٠

فكيف يكون ذلك والسلطان الغورى كان يجلس فى حضرته أمير المؤمنين الخليفة العباسى الذى كان يصدر تقليد السلطنة حتى للسلطان العثمانى نفسه ؟ ثم اليس هو ـ أى الغورى ـ حامى حمى الحرمين الشريفين ؟ وأسلافه هم الذين هزموا المغول وقضوا على الصليبيين نهائيا فى الشام وقاتلوا البرتغاليين هناك بعيدا قرب السواحل الغربية الهندية عند ديو ؟ اليسوا هم الذين استنجد بهم حكام المسلمين فى الهند ودعوا إلى اقامة جبهة إسلامية ضد العدوان الصليبى البرتغالى ؟

إنهم — أى المماليك — لأصحاب تاريخ مجيد ، ولكن الحقيقة هى أن دولتهم عجوز ، ولكنه لا يستطيع إلا ان يحمل السلاح حتى تتكسر نصاله على النصال .

ونستطيع ان نحدد الأسباب الرئيسية للفتح العثمانى لمصر فيما يلى :

١ — التـــــوازن الدولى :

لا شك ان نظرية التوازن الدولى لعبت دورا هاما للغاية فى طبيعة الصراع الذى وقع خلال العقد الثانى من القرن السادس عشر حيث نلاحظ أن الشاه اسماعيل كان مستعدا لأن يتعاون مع (الفرنجة) أى الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية ، كما وقعت فى يد السلطان العثمانى سليم الأول مكاتبات من الغورى إلى الشاه اسماعيل الصفوى تحث على نوع من التحالف ، وحيث أن الدولة العثمانية تدرك أكثر من الدولتين الصفوية والمملوكية ماذا يعنى تحالف دولة أوروبية كبرى مع أى من الدولتين الصفوية والمملوكية من فتح ابواب البلاد العربية والإسلامية لحملة صليبية جديدة ، ومثل هذا الموقف الدولى يتطلب من السلطان العثمانى ان يوهن الى اقصى حد قوة كل من الدولتين الصفوية والمملوكية وضم ما يمكن ضمه من ممتلكاتها . ومن ثم لم تكن هنـــاك ثقــة بين القيـــادات الكبرى الإسلامية الثلاث (سليم الأول ، الغورى ، اسماعيل) . وكان موقف الدولة العثمانية — رغم مظهرها القوى — هو أكثر الدول الثلاث تعرضا لأخطار مروعة تهدد كيان الدولة نفســــــــــها .

فالدولة العثمانية قبل ظهور الدولة الصفوية ونشر المذهب الشيعى فى الأناضول كانت تحارب فى جبهة واحدة فقط هى جبهة البلقان وبظهور الدولة الصفوية وبموقف المماليك المريب من الأتراك العثمانيين اصبحت الدولة العثمانية مهددة بالقتال فى ثلاث جبهات مرة واحدة وهذا وضع استراتيجى خطير لا بد من علاجه ، وما كان علاجـــه إلا باضعاف الدولتين الإسلاميتين الصفوية والمملوكية . وأغلب الظن ان سـليم الأول كان يرغب فى أن يعلن سلطان مصر الولاء للسلطان العثمانى وأن تتوقف الأمور عند هـــذا الحد ، إلا أن التطورات ادت الى انتصار العثمانيين فى موقعة مرج دابق ، وسقوط الشام ومصر فى يد سليم الأول .

وباتساع الدولة العثمانية فى الشام وفى مصر وحوض البحر الأحمر اصبحت هناك دولة إسلامية كبرى (الدولة العثمانية ذات الشكل الامبراطورى) فى مواجهة دولة مسيحية

كبرى امبريالية (الامبراطورية البرتغالية) . بمعنى أن الدولة الإسلامية المجاهدة (الدولة العثمانية) أصبحت فى مواجهة الدولة المسيحية الصليبية (الامبراطورية البرتغالية) .

٢ ـ لقب حامى حمى الحرمين الشريفين والخلافة :

لا شك أن من يحمل هذا اللقب يكون له مكانة متميزة بين كافة الحكام فى البلاد الإسلامية فهو شرف لا يطاوله شرف آخر . ولقد كان سلاطين المماليك يفتخرون بأنهم حماة الحرمين الشريفين . والحقيقة هى أنهم حموه فى وقت لم تتعرض فيه البلاد المقدسة الحجازية لخطر شديد ، حيث تولى المماليك الحكم فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر فى وقت كان فيه الصليبيون فى بلاد الشام يزدادون ضعفا على ضعفت ولم يعودوا قوة يخشى منها على الحرمين الشريفين ، ولكن للمماليك الفضل فى انقاذ البلاد المقدسة الإسلامية من الخطر المدمر المغولى .

وفى اواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ظهر خطر حقيقى يهدد البلاد الحجازية المقدسة ويهدد الحرمين الشريفين تهديدا مباشرا الا وهو خطر البرتغاليين عندما اكتشفوا طريق راس الرجاء الصالح ، واعلنوا أنهم لن يتورعوا عن قصف المدينة المنورة ومكة المكرمة وان يفعلوا بمقدسات المسلمين ما تمكنهم قوتهم أن يفعلوه . حقيقة تحرك المماليك ، وارسلوا قوة عسكرية الى جدة ، وعملوا على تحصينها وبعثوا بأسطولهم لقتال البرتغاليين قرب سواحل الهند عند (ديو) . ولكن النتيجة العامة هى أن المماليك أصبحوا غير قادرين على التغلب على البرتغاليين وبالتالى أصبح الحرمان الشريفان فى خطـــــر .

وكان السلطان العثمانى سليم الأول يتعجب من الزمن الذى جعل حماية الحرمين الشريفين فى اشخاص غير مؤهلين ــ بمقياس ذلك العصر ــ للقيام بهذه المهمة العظيمة ، ونعنى بذلك كون المماليك عبيدا ، وأن مثل هذا العمل العظيم لا يقوم به إلا ذوى العروش الكريمة وعراقة المحتد .

إن المصادر التى بين أيدينا حتى الآن لا تشير صراحة الى أن السلطان سليم الأول كان يريد انقاذ الحرمين الشريفين من أى خطر يتهددهما وخاصة خطر البرتغاليين . ولكن لدينا بعض الملاحظــــات :

(أ) أليس السلطان بايزيد الثانى ــ والد سليم الأول ــ هو الذى لبى طلب الغــــورى

فارسل اليه الأخشاب والفنيين لبناء اسطول فى مصر للابحار الى سواحل الهند لقتال البرتغاليين، ولا شك أن نتيجة معركة ديو بين الأسطولين المملوكى والبرتغالى كانت معروفة لدى البلاط العثمانى وان البرتغاليين اخذوا كل سفينة إسلامية غصبا وإنهم صليبيون .

(ب) أن السلطان سليم الأول كان رجلا من طراز قيادى ومن بناة الدول ومثل هؤلاء الرجال الذين عاشت دولتهم على (الجهاد) ضد أوروبا المسيحية لا تغيب عنه مسئوليته فى الحفاظ على سلامة الحرمين الشريفين وأن يحصل على أشرف لقب (حامى الحرمين) ولدينا مثال وقع منذ قليل جدا حين فضل فهد بن عبد العزيز لقب (خادم الحرمين الشريفين) على لقب ملك وهل كان يغيب عن عبد العزيز ابن سعود — مؤسس الدولة السعودية المعاصرة — أن ضم الحجاز يعطيه مكانة مميزة بين مختلف القيادات فى العالمين العربى والإسلامى ؟

ونلاحظ ان السلطان سليم الأول رفض ان يلقب بـ (ملك الحرمين الشريفيين) وأعلن أنه فقط (خادم الحرمين الشريفين) وما اسماها من مسئولية . وأن هناك نوعا من التشابه بين القيادتين فى هذا الصدد . فالسلطان سليم الأول ضم الحجاز وافتخر بانه خادم الحرمين فى الوقت الذى كان فيه البرتغاليون يهددون بتدميرهما ، وضم عبد العزيز ابن سعود الحجاز فى الوقت الذى كانت فيه الهجرات اليهودية تتدفق على فلسطين ، وكل منهما عمل على انقاذ المنطقة من أهداف خطرة صليبية .

ورغم عدم وجود نص صريح بشأن مساعى السلطان سليم الأول لكى يصبح حامى حمى الحرمين الشريفين ، فإننا نرجح وبكل اطمئنان ان سليم الأول كان يسعى الى هذا الهدف .

ولكننا حين نقول أن السلطان سليم الأول كان يسعى الى الحصول على (الخلافة) إنما نقولها مع نوع من التحفظ . حقيقة تروى بعض المصادر ان سليم الأول كان على بينة تماما من أنه اذا ما استولى على مصر فستؤول إليه ليس فقط ولاية الحرمين وإنما سيؤول « مقام الخلافة .. الى الأسرة العثمانية » .

ولقد خاطب الشريف بركات السلطان سليم الأول بأنه خليفة ولكن الأهم من ذلك

أن السلطان سليم كان يتكلم من منطلق أنه المهيمن على « أمصار المسلمين وبلاد الموحدين » وانه ذاهب الى « الحرمين الشريفين » ومن ثم فهو المقصود حين تفسر الآية التى تقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » واوضح هدفه إزاء مقام الخلافة حين استند الى الآية التالية « إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

لقد دار جدل طويل حول موضوع الخلافة وحق آل عثمان فيها ، ويمكن أن نقول أن السلطان سليم الأول كان يقدر مقام الخلافة كل تقدير ، وكان يرى فى اتساع ملكه وفى خدمة الحرمين الشريفين ، وفى استجواذه على الخليفة العباسى ومقام الخلافة كل هذا كفيـــل بأن يكون أهلا للخـــلافة إلا أن منصب الســـلطنة كان قــوة أكبر بكثير جدا من منصب (الخلافة) ، وهو وضع كان قائما قبل فتح ســـليم الأول لمصر بعـــدة قـــرون .

ان الجدل الذى دار حول (الخلافة العثمانية) وصل الى حد القول أنهم (اغتصبوها)، وذهب البعض الى القول ان آخر الخلفاء العباسيين فى مصر استسلم الى السلطان سليم الأول تنازل له عن الخلافة خلال سنوات اسره فى الاستانة ، وهناك من يقول أن السلاطين العثمانيين العظام من امثال سليم الأول وسليمان الأول لم يعنوا بموضوع الخـــلافة ، واكتفوا بلقب السلطان .

واغلب الظن ان طول فترة ضعف الخلافة والخليفة منذ سقوط بغداد فى يد المغول وانتقال الخلافة الى القاهرة تحت سيطرة المماليك ، وهم فى نظر سليم الأول عبيد أرقاء ، واتخاذ آخر الخلفاء العباسيين موقفا مؤيدا للسلطان الغورى وما كان للخليفة حينذاك إلا أن يفعل ذلك ، كل هذا هبط من قيمة الخليفة العباسى فى نظر ســـليم الأول ولكن لم يهبط من قيمة (الخـــلافة) التى كان يقدرها سلاطين آل عثمـــان حق قـــدرها ، فقـــد ورد فى قانون نامة سليمان القاب هذا السلطان العظيم على النحو التالى :

« .. خاقان وجه الأرض وخليفة رسول رب العالمين ، ملك ممالك الدنيا ووارث الخلافة العظيمة .. صاحب الإمامة العليا والسلطان المجيد » (١) .

---

(١) انظر هاملتون جب وهارولد بوون : المجتمع الإســـلامى والغرب ، ج ١ ، دار المعـــارف ، ص ٥٣ .

ومن ثم فان مدرك (الخليفة والخلافة) واضح لدى آل عثمان وإنما ارتبطت افعالهم بالشكل (السلطانى) أكثر بكثير جدا من شكل (الخلافة) .

ونحن لا نأخذ برأى جب وبوون من حيث أن مصطلح (خلافة) و (خليفة) اخـــذ شكلا آخر ، وإنما حافظ على شكله ومعناه خلال حروب الفتح العثمانى للمشرق العربى ثم قل استخدامه بعد ان توقفت تلك الحروب .

على أننا نخرج من هذا كله أن خدمة (الحرمين الشريفين) كانت اعلا مرتبـــة من (الخلافة) ولقد كان الخليفة العباسى فى القاهرة طوال العهد المملوكى مجرد لقب ومرتبة بلا فاعلية حقيقية ، فالخليفة فى كنف السلطان سليم الأول يشبه الى حد كبير البابا عندما كان أسيرا لدى الامبراطور شارل الخامس فى أوائل القرن السادس عشر ، ولقد حدث ذلك فى وقت قريب من حادثة استيلاء السلطان سليم على مصر وعلى مقام الخلافة .

إنه عصر ضاعت فيه المعانى العالمية للخلافة الإسلامية وللبابوية المسيحية حتى اصبح البابا فى دويلته الصغيرة فى الفاتيكان اشـــبه بالرمز منه الى أى شىء آخـــر وكذلك الخلافة .. رغم محاولة عبد الحميد الثانى لاحيائها بقوة حتى الغيت فى ١٩٢٤ .

تلك كانت الرؤية الإسلامية للانطلاقة التوسعية العثمانية فى اتجاه فارس والمشرق العربى ووادى النيل وحوض البحر الأحمر . وهناك رؤية عربية للتوسع العثمانى حيث أطلق أحد المعاصرين لموقعـــة مرج دابق وهو (مترقجى) على كتابه (فتحنامة ديار عرب) ، ومعنى هذا ان الأتراك كانوا منذ البداية يدركون تقسيما عرقيـا (الفرس) و (العرب) و (ترك) تحت راية اسلامية لا تحول دون صراعات بينهم .

٣ ـ العامل الاقتصـــــادى :

لا شك أن هناك عمليات فتح وتوسع لا تستهدف أرباح اقتصادية،ولكن ذلك قليل، والهدف الاقتصادى من وراء حرب أو توسع غالبا ما يكون هو الأساسى وكثيرا ما يكون هو الهدف الباطن غير المعلن . وبناء عليه فاننا نرى أن التوسع العثمانى فى البلاد العربية كان يستهدف مكاسب اقتصادية . ويمكن نقد هذه الفكرة نقدا شديدا ، حيث أن من يراجع ما كتبه المؤرخ المصرى العظيم ابن اياس عن أحوال مصر قبيل وخلال واعقاب الفتح العثمانى يجد أنها فى اسوأ حال من حيث تعطل التجارة وانتشار الأوبئة .

ولكن اذا وضعنا فى الاعتبار أن حالة مصر والشام المزدهرة قبل تحول طرق التجارة الى رأس الرجاء الصالح ، لم تكن بعيدة وإنما لم يكن قد مر على تلك النكبة سوى عقدين على الأكثر ، ولا يستبعد أن يكون السلطان سليم الأول قد تطلع الى اعادة حالة الأزدهار تلك الى ما كانت عليه على اعتبار أن المماليك فشلوا فى توجيه ضربة قوية للبرتغاليين أما هو (أى سليم) فيستطيع ذلك ويستطيع ان يعيد الطريق عبر الشرق الأدنى بين الشرق والغرب الى ما كان عليه فتصبح التجارة الدولية بيد آل عثمان وليس بيـــد المماليك أو البرتغاليين . ولعل هذه الفكرة كانت وراء ارسال قوات عثمانية الى الحجاز واليمن فى أعقاب سقوط مصر فى يد سليم الأول .

ثم إنه ليس من المعقول أن يخوض السلطان سليم تلك الحـــروب الخطيرة دون أن يكون لديه تصور لما سيعود على دولته من مكاسب خاصة وان تطلعات سليم الأول لم تكن قاصرة على الشام ومصر بل الى الحجاز واليمن .

ونلاحظ أن الحرب التجارية هى التى بدأ بها سليم الأول صراعه مع الســـــلطان الغورى فبعد الانتصار الكبير الذى أحرزه سليم الأول فى موقعة جلديران،وأثناء استعداده للزحف على الشام أوقف التجارة بين البلاد الشمالية ومصر ، وهذا يدل دلالة واضحة الى اهمية الدور الاقتصادى فى الصراع .

٤ ـ اللاجئون لدى الطرفين العثمانى والمملوكى :

كان عدد من أمراء آل عثمان الطامعين فى العرش يفرون الى هـــــذا البلد أو ذاك لعلهم يجدون سبيلا الى تحقيق أهدافهم ، الأمر الذى كان يثير فى السلطان الحاكم (بايزيد الثانى ثم سليم الأول) الرغبة فى قتال أولئك الذين يحمون هؤلاء الأمراء ويستخدمونهم. وكان عدد من الأمراء ذوى المكانة قد فروا الى المماليك [1] .

وكان من أسلوب الطرفين المتقاتلين ان يكسب كل منهما أعوانا له من بين رجالات الآخر . وكان ذلك من الأمور التى تحدث عندما تقع الحرب بين دولتين إسلاميتين هذا فضلا عن أن الحكومتين العثمانية والمملوكية تركيتان إسلاميتان والخلاف من حيث درجة الأصالةالاجتماعية فقط .ومن‌ثم كان‌الانتقال فقط من‌المعسكر التركى‌العثمانى الى المعسكر

---

(١) أنظر الصفحات التالية .

المملوكي من الأمور اليسيرة . وهذا ما حدث فعلا ، فقد استقبل كل طرف الفارين من الطرف الآخر واندمجوا فيه بسهولة وبسرعة .

وكان من أخوة سليم من لجأ الى الغوري فأكرمه وأبقاه ليستعمله في الوقت المناسب. وكان بعض كبار المماليك قد فروا من مصر الى حمى السلطان العثماني سليم ومنهم خوشقدم . ولكن كانت افادة السلطان العثماني من اللاجئين اليه من المماليك أكثر من افادة الغوري من اللاجئين اليه من العثمانيين . حيث أن التفكك الداخلي في الدولة المملوكية كان يعطي فرصا واسعة للسلطان سليم للافادة المثمرة بينما كانت الجبهة الداخلية العثمانية صلبة يسيطر عليها السلطان سليم الأول بمحبة جنده وخوفهم منه لما عرف عنه من قسوة بالغة في معاملة المتمردين عليه .

وإذا قارنا بين الطرفين في هذا الصدد لوجدنا أن اللاجئين العثمانيين الى بلاط الغوري كانوا يمنحونه قوة معنوية ودعائية بينما الذين استطاع العثمانيون جذبهم الى صفهم من رجالات المماليك كانوا ذوي المناصب العليا وكبار القادة من أمثال نائب عينتاب وخايربك نائب حلب التي هي بمثابة خط الدفاع الأول عن الشام ومصر .

ولقد كانت رائحة الخيانة قوية وأصابع الاتهام مصوبة نحو خايربك بالذات لدرجة أن سيباي (أحد كبار المماليك) امسك بتلابيب خايربك وحذر الغوري منه مؤكدا له أنه إذا اراد أن يكسب المعركة المصيرية المقبلة فعليه أن يتخلص من رأس الخيانة خايربك ولكن الغوري لم يأخذ هذه الاتهامات بمحمل الجد والخطورة لأنه كان يستبعد مثل هذه الخيانة من خايربك نفسه ؛ فضلا عن أنه كان مقبلا على المعركة بعد قليل فإذا ما أشيع في المعركة أن هناك خيانات بين الأمراء المماليك تفكك الجيش وأصبح الأمل في النصر بعيدا للغاية .

٥ — مرج دابق :

وكان الغوري يدرك أن جيشه لا يستطيع وحده الصمود امام الجيش العثماني ، فقد حاول أن يدفع الشاه اسماعيل الصفوي الى التحالف معه ضد العدو المشترك . ولعل مما شجع الغوري على ذلك أن الشاه اسماعيل كان مصرا — بعد جالديران — على متابعة العمل ضد السلطان سليم الأول . ولكن الكراهية التي كان يكنها الشاه للغوري لم تكن تقل عن كراهيته للسلطان سليم . هذا فضلا عن ان الشاه كان منذ جالديران لا يفكر في خوض معركة مع العثمانيين واكتفى بتثبيت حكمه في إيران وما هو وراءها شرقا في اتجاه الأزبك لا في اتجاه الشام .

ولهذا لم تسفر مجهودات الغورى لدى الشاه اسماعيل الصفوى عن شيء ايجابى ؟ بل لقد أدت مكاتباته للشاه الصفوى الى تعميق الهوة بين الغورى وسليم . فلقد سقطت تلك المكاتبات التى بعث بها الغورى الى الشاه اسماعيل فى يد رجال السلطان سليم الأول . وكان الشاه اسماعيل عدوا غير عادى بالنسبة للسلطان سليم ، فالشاه اسماعيل لا يتورع عن طعن الدولة العثمانية من خلف ، بل لقد كان الشاه اسماعيل يفاوض فعلا البوكرك - الادميرال البرتغالى فى المياه الهندية - على عقد تحالف ضد السلطان العثمانى .

أما وقد اصبحت الحرب لا محالة واقعة بين العثمانيين والمماليك لجأ كل من الطرفين الى كل اسلوب يمكن أن يوهن قوى الطرف الآخر ، ولقد كان الاتهام بخيانة فكرة الجهاد ضد اوروبا الصليبية من اقوى أساليب الدعاية ، ولقد استخدمها الغورى . فلقد أذاع الغورى على ألناس أن السلطان العثمانى « قد جهز عساكر كثيرة من النصارى والأرمن وغيرهم » ليضرب بهم جند الله المجاهدين ضد البرتغاليين وغيرهم من الفرنجة الذين هددوا بتدمير الأراضى المقدسة الإسلامية الحجازية .

ولكن يبدو ان هذا الأسلوب فى الدعاية لم يلق نجاحا يذكر بين أهل دمشق ويرجع هذا الى أن الاتهام لا يستند الى أى دليل مادى واضح بل الذى كان شائعا هو أن العثمانيين منذ قرون مضت عاشوا مجاهدين ضد الفرنجة ولم يتأخروا عن امداد المماليك انفسهم بالمواد والفنيين اللازمين لقتال البرتغاليين .

وعلى أى حال أعد السلطان الغورى جيشه وغادر به القاهرة الى دمشق فدخلها فى جمادى الأول ٩٢٢ هـ سنة ١٥١٦ م . وكان يحيط نفسه بمظاهر البذخ والفخامة التى دأب عليها أسلافه ، فنثر الأموال يمينا ويسارا ومن حوله الخليفة العباسى ، وكبار رجال الدين من المذاهب الأربعة : الشافعية ، والمالكية ، والحنبلية ، والحنفية ، وأولاد محمد ابن بركات شريف مكة وخليفة السيد احمد البدوى وخليفة السيد ابراهيم الدسوقى وكانت تسير فى ركابه كذلك محفات لزوجة الغورى ، ومغنون وغير ذلك من تلك المظاهر التى دأب المماليك على التمسك بها منذ توطد نظامهم فى مصر والشام كذلك لم يغير جيش المماليك من سلوكه إزاء أهالى المدن التى كان ينزل فيها . فلقد اخرج العسكر الأهالى من بيوتهم ونهبوا أموالهم وتعرضوا للأعراض، الأمر الذى اساء الى المماليك كل الإساءة وكان له عواقب وخيمة بالنسبة لهم .

هذا هو الجيش المملوكي الذى زحف ليقاتل الجيش العثمانى فى مرج دابق القريبة من حلب (١٥١٦) . أما الطرف الآخر العثمانى فكانت مصـــــادر قوته العسكرية فى نمو طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر . حيث أن الجيش العثمانى كان مكونا من إنكشارية وسباهية (فرسان) مخلصين بقوة للسلطان العثمانى .

وكان هذا الجيش بصفة عامة من احسن جيوش العالم حينذاك وزحف به السلطان سليم الأول حتى هبط على مقربة من حلب (١٥١٦) وأصبح على مقربة من معسكر جيش المماليك بقيادة الغورى نفسه .

وهناك تبادل مع السلطان سليم الرسائل ، وبدا كأن هنـاك مشروعات للتفاوض وحقن الدماء وهو ما كان يريده الغورى . والحقيقة هو أن السلطان سليم كان لا يضمر إلا شن المعركة بينهما . ولقد أفاد السلطان سليم من هذه الفترة القصيرة التى سبقت وقوع المعركة فى تحريض المماليك على الغورى وعندما وقعت المعركة فى مرج دابق ظهرت امكانيات المماليك على حقيقتها .

فلقد قاتل بعض المماليك قتال الأبطال وخاض القرانصـــة المعركة ومنـــوا فى بدايتها بهزيمة قوية ، فلما عاينوا عدم اشتراك الجلبان فى المعركة بأمر من الســلطان الغورى تقاعسوا هم أيضا على اعتقاد منهم بأن الغورى يريد أن يكسب بهم المعركة وان يجعلهم فى نفس الوقت طعمة لنيران هذه المعركة ليتمتع هو والجلبان بثمار النصر . ونفذ خايربك مؤامرته ضد الغورى فانحاز الى جانب السلطان سليم وانكشف جناح الجيش المملوكى وحصد رصاص وقنابل مدفعية العثمانيين الكثيرين من المقاتلين المماليك ، فحلت الهزيمة فى جميع اجزاء الجيش المملوكى وسقط الغورى صريعـــا أو لم يعثر له بعد ذلك على أثـــــر .

ويتجلى العامل العسكرى كسبب رئيسى فى الهزيمة فى حديث دار بين كرتباى احد القواد المماليك والسلطان سليم بعد معركة مرج دابق فقد ظل كرتباى متمسكا بالتقاليد العسكرية المملوكية حتى بعد تلك المعركة وقال :

أن منا فرسان المنايا .. وإذا لم تصدق فجرب

فأمر عسكرك أن يتركوا ضرب البندق فقط .. وانظر بعينك كيف (نفعل) .. أن الملك لا يصلح إلا لمن يكون من الأبطال المخبورين ، كما كان عليه السلف الصالح .. اما

أنت فقد لفقت لك عساكر من أطراف الدنيا ٠٠ وجئت بهذه الحيلة التى تحيلت بهـا الافرنج لما ان عجزوا عن ملاقاة العساكر الإسلامية وهذه البندق التى لو رمت بها امرأة لمنعت كذا وكذا إنسانا ، ونحن لو اخترنا الرمى بها ما سبقتنا اليها ، ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الجهاد فى سبيل لله بالسيف والعود ٠.

ولكن يجب ان نؤكد انه ليس التنظيم العسكرى العثمانى هو وحـده السبب فى انتصـارات العثمانيين على الجيش الفارسى فى جالديران ثم على المماليك فى مرج دابق والريدانية ، وإنما كان التنظيم الإدارى من العوامل الرئيسية التى هيأت الظروف أمام جيش السلطان سليم لكى يخوض المعركة بعد المعركة ومعظم حاجات الجند والضـباط متوفرة أو على الأقل كافية لمواجهة متطلبات الحرب ٠

فماذا كان موقف اهالى الشام من حوادث الحرب بين السلطان العثمانى والسلطان الغـورى ؟

لقد كان الشعب فى الشـام يعانى مر المعاناة من مظـالم المماليك ومن النكبات الاقتصادية المتتالية التى كانت تتعرض لها البلاد دون أن تجد فى الحكومة المملوكية منقذا للبلاد من شر ما ابتليت به، بل تعرضت مدن شامية،مثل دمشق وحلب،لمظالم لا حد لها سبق الإشارة اليها ، وبالتالى كانت الحرب بين السلطانين تثير الكثير من انتباه الناس بعضهم يود لو اذاق الله الهزيمة للمماليك الظلمة وبعضهم يستعيد ذكريات جهاد المماليك ضد قوى العدوان الصليبى فيدعو لهم بالنصر ولكن الأغلبية كانت تكره المماليك ، وترى فى نفس الوقت فى انتصار العثمانيين على المماليك مجرد اسـتبدال اتراك يحكمون بدل آخـرين ٠

وبعد أن انجلت المعركة ، وعرف الناس ان المماليك هزموا شر هزيمة انقض الناس على فلولهم لينتقموا من أولئك الذين عتوا وتجبروا دون داع فأصاب المماليك اثنـاء انسحابهم من الشام أهوال وعذاب شديد ٠ وكانت بعض المدن الشامية تفتح أبوابها دون أية مقاومة للسلطان العثمانى ٠

كانت بعض القوى المحلية الحاكمة فى الشام تقف موقف المتردد من هذه الحرب بين سليم والغورى ، ومعظمها مثل آل معن فضل أن يقف موقف المتفرج ليتخذ بعد إنتهاء

المعركة الموقف الذى يتناسب مع مصالحه · ولكن لم يعدم المماليك وقوف بعض القوى الى جانبهم مثل بنى بحتر ، وترتب على مثل هذه المواقف ان هبطت مكانة بنى بحتر · وارتفعت مكانة آل معن ·

بعد انتصار سليم الأول انتصارا كبيرا فى مرج دابق وبعد أن تيقن أن السلطان الغورى أصبح أثرا بعد عين ، اكتفى بهذا النصر ، وأراد أن يوقف الحرب ، والا يستمر فى زحفه الى مصر ، فعرض على طومان باى — الذى تولى السلطنة بعد الغورى — أن يعلن خضوعه للسلطنة العثمانية فى مقابل أن يسند اليه السلطان سليم حكم مصر ، ولكن طومان باى لم يقبل ، لأنه كان يعتقد أن انتصار سليم الأول ليس إلا ومضة من ومضات الحظ القصيرة · والحقيقة هو ان عمر الدولة المملوكية هو الذى أصبح يعد بالأيام ، وأضطر السلطان سليم الى ان ينقل الحرب الى مصر ذاتها وأن يشن حربا شعواء فى وجه مقاومة جد عنيفة من المماليك وقوى الشعب المصرى المؤيد لهم ، وانتهت معركة الريدانية ومعارك الشوارع فى القاهرة بانتصار السلطان العثمانى انتصارا حاسما جعل مصر ضمن الدولة العثمانية وانقضت أيام الدولة المملوكية المستقلة ·

لقد تلقى المماليك الضربة العثمانية فى سنة ١٥١٦/١٥١٧ وهم فى شيخوخة دولتهم وفى آخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة إسلامية كبرى سواء فى الشرق الأوسط أو فى العالم · كانوا قد فقدوا حيويتهم وقدرتهم على تجديد شبابهم ، فكان أن زالت دولتهم، وذهبت البلاد التى كانت تحت حكمهم للسلطان العثمانى ·

فلقد ادت معركة مرج دابق الى وقوع الشام فى يد السلطان سليم وأدت الريدانية الى وقوع كل من مصر والحجاز وجزء من اليمن تحت الحكم العثمانى · فقد اعلن الشريف بركات خضوعه للسلطان سليم ، كما أن المماليك فى اليمن انقسموا على أنفسهم واعلن كثير منهم الخضوع للسلطان العثمانى مثلما فعل صاحب بغداد بعد جالديران ، ولهذا يمكن أن نقول ان فتح العثمانيين للمشرق العربى كان سهلا وسريعا بالقياس للفتوحات العثمانية الدموية المكلفة فى بلاد البلقان وفارس ، بل وجدوا فى القوى الحاكمة فى المشرق العربى عناصر مستعدة للتعاون معهم وفى تحمل مسئولية الحكم تحت إطار الدولة العثمانية من أمثال خايربك الذى اسند اليه سليم الأول حكم مصر ، وجان بردى الغزالى الذى

تولى حكم دمشق ، والشريف بركات الذى استمر فى منصبه فى مكة ، والإسكندر — القائد المملوكى فى اليمن .

ولم يرث العثمانيون ملك المماليك فقط وإنما ورثوا كذلك المشـــاكل التى كانت تواجههم سواء فى المشرق العربى ، أو فى المياه الجنوبية والهندية ، هذا كله بالإضافة الى الأعباء العسكرية الكبرى التى كانت ملقاة على كاهلهم وأصبحت الجبهات التى يحارب فيها السلطان سليم الأول متعددة وشديدة الاتساع ، بل إن مجالات الصدام بين الفرنجة كانت تمتد من قلب أوروبا الشرقية الى شمال أفريقية والى مداخل البحر الأحمر وشرق أفريقية والى العراق والخليج العربى حتى الهند . ثم أن الخطر الفارسى الصفوى على المشرق العربى كان يتزايد ، حيث أن الشاه اسماعيل الصفوى استطاع أن يستعيد قوته بسرعة بعد نكبته فى « جالديران » ، وعندما وقعت الحرب بين السلطان سليم والسلطان الغورى راى فيها الشاه الصفوى فرصته لاستعادة بعض ما فقده أثناء انشغاله فى تلك الحروب المصيرية . ولقد هدد الشاه اسماعيل فعلا مناطق شمال الشام وشرقى الأناضول خلال تلك الحرب ، الأمر الذى جعل السلطان سليم يعمل على تصـــفية الموقف فى مصر بأقصى سرعة ممكنة للعودة الى الأناضول حتى لا تتسع الفرصة أمام الشاه ولردعه مرة أخرى إذا لزم الأمر .

لقد كان شاه فارس « اسماعيل الصفوى » مستعدا كل الاستعداد للتفـــاهم مع البرتغاليين للوصول الى تعاون واسع النطاق ضد العثمانيين وبدا كان العثمانيين أصبحوا بين أطراف شديدة العداء لهم :

فارس فى الشرق ومراكش فى الغرب وعمان واليمن فى الجنوب والفرنجة يطوقون العالم الإسلامى من الشمال والغرب والجنوب .

ومما كان يزيد من متاعب العثمانيين فى هذه الفترة المبكرة من توســـــعاتهم ان الاساطيل الأوروبية كانت تضرب بيروت سنة ٩٢٦ هـ — ١٥١٩ م وتستولى على السفن الإسلامية بين بيروت ودمياط فى الوقت الذى كان فيه الأسطول البرتغالى يهـــدد بضرب جدة . وخطورة تلك القوى المعادية انها كانت قوى عقائدية صـــعبة المراس ولكن كان الخطر البرتغالى هو أشدها إلحاحا .

(٣)

الامتداد العثماني إلى الحجـــاز

كان الحجاز طوال العصور السابقة تابعا لمصر وكانت هـــذه التبعية تضفى على المماليك مكانة متميزة على اعتبار أنهم كانوا يفخرون بأنهم حماة الحرمين الشريفين ٠

وخلال العهد المملوكى كان الحجاز يتمتع بنوع من الاقتصاد النامى حتى تحولت التجارة الشرقية الى رأس الرجاء الصالح ٠ فكان ذلك بمثابة ضربة اقتصادية شـــديدة للغاية لميناء جدة بصفة خاصة ٠

ومما زاد فى الأزمة الاقتصادية فى الحجاز أن الأشراف — حكام مكة — كانوا فى حالة صراع شبه متواصل على (الشرافة) ، ولقد دار فعلا صراع شـــديد بين (بركات) و (الجازانى) فى الوقت الذى كان فيه البرتغاليون يتوعدون الأراضى الحجازية بضربها بأسطولهم ٠ وقد ثبت السلطان الغورى الشريف بركات قبل فترة قصيرة من نشـــوب الحرب ضد العثمانيين ٠

عندما بدأ الصراع بين السلطان سليم الأول والسلطان الغورى كانت أهمية الحرمين الشريفين واضحة كل الوضوح امام عينى سليم الأول ، والدليل على ذلك أن سليم الأول عقد مجلسا للتداول فى أمر الخطة التى يجدر به أن ينفذها بالنسبة لمصر،وفى هذا المجلس أشار عليه محمد شلبى بن نشانجى بان (ولاية الحرمين) و (مقام الخلافة) سيؤلان الى الأسرة العثمانية إذا ما فتح السلطان سليم مصر (١) ٠

كان طبيعيا ان يكون الحجاز من آمال السلطان سليم الأول ٠ وكان يرى فى السيطرة عليه تقوية لمكانته فى العالم الإسلامى ، خاصة بعد أن اصبحت دمشق تحت حكمـــه ، والقاهرة فى قبضته ، وخطب باسمه على منابر بغداد ٠ وأغلب الظن أن الأشراف ، حكام مكة ، كانوا يرون أن من يحكم فى القاهرة — مقر الخلافة العباسية منذ أعقـــاب استيلاء المغول على بغداد والعراق — هو صاحب الدولة الإسلامية العامة التى يجب ان يعمل كل المسلمين تحت رايتها ٠ فكان طبيعيا ان يتطلع شريف مكة (أبو البركات) الى موافقة

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، الفتح العثمانى ، ص ١٢٤ ٠

صريحة من السلطان سليم الأول عليه شريفا حاكما فى مكة وملحقاتها . فأعلن الشريف ولاءه للسلطان سليم الأول وبعث بابنه الى القاهرة لتقديم فروض الولاء والطاعة للسلطان الجديد ، لعل لدى هذا المنتصر الفتى علاجا لإنقاذ الحجاز من تدهوره الاقتصادى ، وحتى تظل أفواج الحجاج ، وخاصة من الشام ومصر والعراق ، تفد الى مكة والمدينة سنويا لما يحصل عليه الحجاز من وراء ذلك من انتعاش اقتصادى كبير .

ومن ناحية اخرى ، كان من المتعذر عسكريا أن يبقى شريف مكة غير معنى بالتطورات الجوهرية فى الشام ومصر واليمن . فقد كان عليه أن يحدد موقفه ازاء هذه التطورات الكبرى التى تدق أبواب الحجاز من شمال ومن جنوب . فلم يكن اشراف مكة سوى حكام تحت السيطرة المملوكية ، وخاصة فى أيام الغورى . وامتناعهم عن الخضوع للسلطان سليم الأول ، بعد استيلائه على الشام ومصر ، سيلفت أنظار هذا السلطان أن عاجلا أو آجلا ، خاصة وأنه كانت توجد فى الحجاز حامية مملوكية فى جدة ، من بقـايا القوات المملوكية التى بعث بها الغورى لتقوية قبضة الحكم المملوكى فى وجـه التمردات الداخلية هناك وفى وجه الخطر البرتغالى المهدد للأراضى المقدسة الإسلامية .

كما ان سيطرة سليم الأول على مصر ستجعله بلا شك ينظر بعين الحذر الى تلك القوى المملوكية المتناثرة على شواطىء البحر الأحمر الشرقية من جدة الى اليمن ، فإن الاستيلاء على شواطىء البحر الأحمر الغربية من جانب العثمانيين تحثهم الى التطلع الى سيطرة ثابتة على شواطئه الشرقية . وهى سياسة مصرية عامة تستهدف جعل البحر الأحمر بحيرة إسلامية آمنة من اية اخطار تهدد الأراضى المقدسة أو تهدد نمو التجارة بين الشرق الأقصى والبلاد الإسلامية واوروبا وهذا النمو يعود على حكومات اليمن والحجاز ومصر بثراء نعمت به تلك الحكومات طوال القرون الماضية ، حتى جاء البرتغاليون بأساطيلهم مهددين الأراضى المقدسة الإسلامية فارضين حصارا بحريا عسكريا على التجارة العربية الإسلامية فى المنطقة حتى لا يصبح البحر الأحمر — على الأقل — بحيرة إسلامية ، وهو الذى تمتع بهذا السلام الإسلامى المطلق طوال القرون العشرة السابقة على مقـدم البرتغاليين . ومما لا شك فيه أنه كان من أهداف شريف مكة فى اعلان الخضـوع للسلطان عدم السماح للقوى الصليبية بالتوغل فى البحر الأحمر والابقاء على هذا البحر بحيرة إسـلامية خالصـة .

لقد تلاقت أهداف أبو البركات — شريف مكة — مع تطلعات سـليم الأول التى فرضتها عليه ظروف انتصاراته فى مرج دابق والريدانية والأخطار السلبية التى تهدد العالم الإسلامى بصفة عامة والبحر الأحمر والأراضى المقدسة بصفة خاصة ، ولذلك كان دخول أبو البركات فى طاعة السلطان سليم ، وانقضاضه السريع على القوات المملوكية فى جدة تنفيذا للفكر السياسى المستنير من جانب ابو البركات .

وقد كسب الحجاز كثيرا من وراء ذلك الارتباط السريع بالدولة العثمانية . فقد كانت حملات البرتغاليين على البحر الأحمر متتالية وموجهة فى ١٥١٧ الى جدة بالذات ، فقـام البرتغاليون بهجمات عليها ، ورد العثمانيون على ذلك بارسال قـوات اليها تحميها من تكرار هذا العدوان .

ومن ناحية أخرى كان ارسال العثمانيين حملاتهم الى اليمن ومسـاعداتهم لامارة (عدل) الإسلامية ضد الحلف البرتغالى الحبشى ، كان كل هذا يحول دون تحـول الحجاز الى ميدان قتال بين البرتغاليين والعثمانيين ، وابعد الخطر الصليبى عن الأراضى المقدسـة الإسـلامية .

ولكن إدارة الأشراف للأراضى المقدسة الحجازية لم تكن تهدف الى رفع المستوى العسكرى والاقتصادى لمواجهة العصر حينذاك فظلت البلاد الحجازية تعانى من الصراعات القبليـة المرهقـة .

(٤)

الفتـــح العثمانى لليمـــن

اليمن مفتاح العالم العربى والإسلامى من جهة الجنوب ، وفى مطلع القرن السادس عشر تعرض اليمن مباشرة للخطر الصليبى البرتغالى وتضرر تضررا كبيرا بالحصـــــار البحرى البرتغالى ، وكان بسبب تعدد القوى المحلية المتصارعة عليه عاجزا عن التصدى للتطورات العالمية الجديدة بقدرات مناسبة . فالإمامة الزيدية كانت لا تستطيع توحيد البلاد بسبب ظهور دولة عربية إسلامية بزعامة « آل طاهر » الشوافع الذين اســـتولوا على صـــــــــــنعاء .

حقيقة أيقظ الخطر البرتغالى الضمير الوحدوى الإسلامى بين الأطراف المتنازعة ، فهناك من اليمنيين من كان يعد حملة لقتال « الأفرنج » فى الهند ، واتصـــل « عامر بن عبد الوهاب » الطاهرى بالسلطان الغورى ، وبعث المماليك حملة بقيادة حسين الكردى الى اليمن ، وبدلا من أن يتفرغ هذا القائد لمواجهة الخطر البرتغالى غرق فى دوامـــــة الصراعات المحلية اليمنية، فأضعف آل طاهر وتتبع هؤلاء فى معقلهم فى عدن وأبدى بعضهم الاستعداد للتعاون مع البرتغاليين حفاظا على البقية البـاقيـــة مما تحت يدهم . وتطلع المماليك إلى تصفية الموقف فى اليمن لصالحهم فاستولوا على صنعاء (١٥١٧) ، واصبح المماليك والإمامة الزيدية فى مرتفعات اليمن الوعرة وجها لوجه ، لتجىء فى هذه الأثناء أنباء مصرع الغورى وسقوط الشام ومصر فى يد العثمانيين ، فوجد القـــائد المملوكى « الاسكندر محمد » — ومعه اغلبية المماليك — أن من الأجدى اعلان الولاء للســـلطان العثمانى حتى يظل للمماليك فى اليمن كيان واضح ، وبعث العثمانيون بالامدادات الى اليمن وإذا باليمن يعانى من اضافة هذا العنصر الجديد الى العناصر المتقاتلة على اليمن . فقد اصطدم العثمانيون بمقاومة « اسكندر محمد » فضلا عن القوى المحلية الأخرى ، بل تقاتل المماليك فيما بينهم ، وتقاتل أولاد الإمام الزيدى شمس الدين ، وظهر فى ١٥١٩ مدع للإمامة فى بلاد « الخيمة » ، وكادت الفوضى تسود اليمن بأسره .

اثارت هذه الفوضى مخاوف العثمانيين فى الوقت الذى كانوا يدركون فيه حقيقة الخطر البرتغالى ليس على اليمن فقط بل على العالم الإسلامى بأسره ، وبعثوا بالحملات الى اليمن للسيطرة عليه بالسيف ، ولم يدركوا أن ذلك من الأمور المتعذرة ، فلقد أحرز

سليمان الخادم قائد الجيش العثمانى انتصارات متتالية ، إذ استولى على « عدن » غدرا فقضى على آل طاهر نهائيا ، ولكن غدره هذا أفقد حكام الشرق الإسلامى ثقتهم فى العثمانيين ، واستولى على « زبيد » ، فأنهى الوجود المملوكى فى اليمن ، وتطلع الى «تعز» فاصطدم بمقاومة الإمامة الزيدية العنيفة .

وتابع العثمانيون جهودهم للتحكم فى كل اليمن ، فاستولوا على صنعاء التى تعرضت لأشد ألوان المهانات على يد الجيش الفاتح ، ورغم هذا ظلت مقاومة الإمامة قوية ليقتنع القواد العثمانيون بأن الخير فى صلح يبقى لكل من الطرفين ما تحت يده ، وتم ذلك فى ١٥٥١ ، ولكن فشل العثمانيون فى تحويل هذا الصلح الى صلح دائم (١٥٦٠) . وعاد القتال ، فى وقت كانت فيه السلطنة العثمانية تواجه حروبا فارسية مرهقة على الجبهة العراقية وازمات فى الشام وفى الأناضول وشمال افريقيا وحوض البحر المتوسط . واخذت كفة الإمامة الزيدية ترجح واخذ العثمانيون يفقدون منذ أوائل القرن السابع عشر الأراضى أمام زحف الإمام الزيدى « المؤيد بالله محمد بن القاسم » ، حتى انتهى الأمر بخروج العثمانيين من اليمن فى ١٦٣٥ م/١٠٤٥ هـ . ولم يعد اليه العثمانيون إلا فى أعقاب انسحاب القوات المصرية من « تهامة » فى أربعينات القرن التاسع عشر .

فلماذا قبل العثمانيون خروجهم من اليمن ؟ الواقع أن الرقعة كانت قد اتسعت أمام قدرات الجيوش العثمانية التى كانت تقاتل فى جبهات متباعدة متناثرة ، وكانت الدولة العثمانية قد بدأت تضعف إذ كان على رأسها عند ضياع اليمن مراد الرابع آخر السلاطين العثمانيين العظام ، الذى استطاع أن يقضى على فخر الدين المعنى أمير لبنان (١٦٣٥) وأن يسترد العراق من الفرس (١٦٣٨) وتوفى مراد الرابع بعد عامين فقط من هذا النصر الكبير (١٦٤٠) . وركزت السلطات العثمانية جهودها من بعد فى إعادة تنظيم إدارتها ومواجهة نفقات حروب متطاولة فى الجبهات البولندية والبلقانية ، وحصل خلالها العثمانيون على انتصارات محدودة أعقبتها سلسلة من الهزائم فى البلقان وقلب أوروبا الشرقية ، وبالتالى لم يكن لدى العثمانيين الفرصة أو الامكانيات لاعطاء جبهة اليمن ما يلزمها من نفقات وقوات . ولعل ما أصاب البرتغال من تدهور فى أعقاب دخولها تحت الحكم الأسبانى فى ١٥٨٠ وهزيمة « الأرمادا » الأسبانية فى ١٥٨٨ على يد الأسطول

الانجليزى ، وتفوق البحرية الحربيـــة والتجارية الهولندية والانجليزية ذات الأهداف التجارية فى المياه الإسلامية الجنوبية ، على البرتغاليين ذوى الأهداف الصليبية كل هذا جعل العثمانيين أقل تحمسا نحو اعادة السيطرة على اليمن ·

ولا شك أن الحملات العثمانية على اليمن لم تكن لديها مخططات واضحة لتكتيل الزعامات ضد القوى الأوروبية ، وكانت الزعامات اليمنية المحلية لا تدرك قيمة التضحية بمصالحها الخاصة فى سبيل مواجهة الأخطار الخارجية ولهذا ، وبعد انسحاب العثمانيين من اليمن ، ظل اليمن يعانى من تصارع القوى المتنافسة ·

★ ★ ★

(٥)

الفتح العثماني للعـــراق

كان العراق في القرن السادس عشر قد اصابه تغيير كبير خلال عصور الإضمحلال التي مرت به منذ الاحتلال المغولي (١٢٥٨ م) ، فبعد أن دهمت جيوش المغول بغـــداد تحولت هذه العاصمة الإسلامية الى مجرد مركز فقير ، في الوقت الذي اصبح فيه العراق على توالي السنين من بعد ، يعاني من الثورات الداخلية ، والصراعات القبلية ، وسقوط الحكام وتداعي الأسرات الحاكمة ، وتوالت عليه حكومات الجلائريين (١٣٣٩ ـ ١٤١٠ م) والقره قوينلو (١٤١٠ ـ ١٤٦٨ م) والآق قوينلو (١٤٦٨ ـ ١٥٠٨ م) ، ولما ثبت الشاه اسماعيل الصفوي نفسه في حكم إيران انقض على العراق (١٥٠٨ م) .

دخل الجيش الإيراني بغداد ، وكان من الأعمال الأولى للفاتحين الجدد ذبح أئمـة السنة الموجودين وهدم مقابر الغابرين منهم . فكانت وصمة ذات صدى قوي في بلاط السلطان العثماني ، وبخاصة أن أمراء كردستان كانوا قد فروا من وجه الصفويين الى السلطان مستنجدين به ، ولقيت نداءاتهم آذانا جد مصغية إذ أن سقوط العراق في يد الصفويين هدد قلب الدولة العثمانية وأوجد الى جانبها قوة فتية ذات اهداف مذهبية امبراطورية واسعة ، فكانت الحرب الضروس وانتصار السلطان سليم في جالديران ودخوله تبريز والاستيلاء على كردستان والموصل . وكان لتقدم الفاتح العثماني في بلاد الدولة الصفوية صدى قوي في بغداد حيث استولى على الحكم ذو الفقار الكردي الأصل وأعلن ولاءه للسلطان العثماني ولكن الخيانة أعادت بغداد الى الحكم الصفوي سنة ١٥٣٠ ، على أن انتعاش الحكم الصفوي في بغداد لم يستمر أكثر من سنوات قليلة وذلك لأن الســلطان سليمان القانوني بعد أن انتهى من حروبه في أوروبا التفت الى الشرق والى خطورة عودة الحكم الايراني للعراق ، فلقد تحالف الشاه مع ملك المجر عدو السلطان فكان الشاه بذلك خائنا للحركة الإسلامية الكبرى التي تزعمها السلاطين العثمانيون . وواضـــح ان الاحتفاظ بكردستان والموصل لا يمكن أن يستمر قويا الا اذا توطد الحكم العثماني في العراق كله. لذلك زحف السلطان بجيوشه القوية على العراق ففتح بغداد سنة ١٥٣٤ بعد تردد شائن من حاكمهـــــــا .

رأى السلطان أن الشيعة الصفوية عملوا على صبغ بغداد بالصبغة الشيعية، ولذلك اتجه السلطان الى رفع شأن اهل السنة واعادتهم الى سابق تفوقهم . ولكن موقفه من مزارات الشيعة ومن شيعة العراق انفسهم كان طيبا إذ اتخذ بازائهم موقفا كريما من حيث الاعتراف بما فى العراق من خلافات مذهبية والنظر الى الطرفين بعين الاعتدال وتسهيل أمور العبادة لكل من اهل السنة والشيعة ، وإشعارهما بالطمأنينة والهدوء ، وهذه السياسة كانت من أسس الحكم العثمانى التى استمرت قائمة فى العراق ، فقد تركوا للشيعة مذهبهم وتركوا لهم مزاراتهم ولم يحولوا قط بينهم وبين هذه المزارات، بل حرصوا على أن يمهدوا للشيعة من خارج العراق أيضا زيارة هذه المزارات المقدسة . وأما من الناحية الاقتصادية فقد تابع السلطان العثمانى سياسة اسماعيل الصفوى من حيث الاهتمام بمشروعات الرى وحماية البلاد من غوائل الفيضان .

ومن الناحية السياسية اعترف السلطان بالعصبيات الكردية فى الشمال فأبقى حكم كردستان للبيوتات الكردية الحاكمة وجعل من الموصل أيالة — ولاية — قائمة بذاتها ضمت ست سناجق ، وكانت هذه الأيالة تتوغل قليلا فى كردستان شرقا حتى « بانه » وتمتد جنوبا الى تكريت الى ما وراء جبل حمرين بقليل . ولم تكن حدود هذه الأيالة واضحة نظرا لأنها كانت مجاورة لمنطقة كردستان التى أصبحت أيالة باسم « شهر زور » وهى أيالة لم تتضح إلا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، نظرا لأنها كانت مجالا واسعا للعمليات العسكرية من جانب إيران ، وبخاصة تابعتها أردلان (١) والدولة العثمانية، ومع ذلك فيمكن أن تقسم أيالة شهرزور الى حوالى العشرين سنجقا (٢) .

وكما اعترف السلطان بحكم العصبيات فى شمال العراق اعترف به فى العراق العربى إذ ترك الشيوخ حكاما على عشائرهم ، وكانت اهم المشيخات فى القرنين السادس

---

(١) إحدى الإمارات الإيرانية القوية التى كانت تدعى السيادة على كردستان .

(٢) وهى سناجق ، سروجك ، كسنان ، أربل ، شهر بازار ، جنكولة (ضمت الى بغداد) هازار مردود ، جوران ، مركاه ، حرير ، رودين ، تيل طارى ، سبه ، زنجير عجور ، ابرومان ، باق ، برتلى ، اوشتى ، قلعة غازى ، وكانت هذه السناجق سريعة الاختفاء وكان بها حوالى مائة أمير من مرتبة زعامت . انظر : عباس العزاوى : تاريخ العراق جـ ٤ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

غشر والسابع عشر هي مشيخات الخزاعل والعبيد وزبيد وبني لام وشمر والمنتفق (١)٠ وكانت عشائر المنتفق أقوى هذه العشائر تسيطر على البصرة عندما فتح السلطان بغداد فأعلن شيخها راشد المغامس ولاءه له ، فأبقاه تحت حكمه (٢) ٠ ولكن وجود هذه الامارة العربية شبه المستقلة كان يحول بين العثمانيين واعدائهم البرتغاليين(٣) فاستولت عليها القوات العثمانية سنة ١٥٤٦ (٤) وتقدم العثمانيون بعد ذلك على طول الساحل الغربي ، فاستولوا على الأحساء سنة ١٥٥٠ وهذه أيضا أصبحت أيالة ٠ ولم تقسم البصرة — وكذلك الأحساء — الى سناجق نظرا لقوة العصبيات العشائرية في كل من الأيالتين ٠ وبقيت البصرة بذلك وحدة إدارية واحدة وكانت هذه الأيالة ذات مميزات خاصة ٠ فهي تطل على البحر واتجاهها نحوه ومشكلاتها تتعلق بخطر عشيرة كعب عليها وباطماع إيران ٠

وبين الموصل وشهرزور في الشمال والبصرة في الجنوب كانت تمتد أيالة بغداد وهي أهم باشويات العراق وتضم أخصب المناطق واشهرها لأنها قلب العراق منذ أقدم العصور ، وأقوى باشوية فيه تحكم حكما مباشرا ٠ وكانت بغداد تتفوق على مدن العراق كلها بأنها كانت المركز الثقافي والاقتصادي الأول في العراق ، وكانت أكبر الباشويات مساحة إذ كانت تضم ثمانية عشر سنجقا ٠

وقد وضع الباب العالي نظام حكم أيالات العراق على غرار النظام الذي كان متبعا في بقية الدولة العثمانية ٠ فكان الوالي على رأس الجهاز الإداري ، ومدة حكمه سنة تجدد بموافقة السلطان فتصل احيانا الى ثلاث سنوات ٠ وكان الوالي أحيانا يعود الى ولايته أكثر من مرة او يعين في ديار بكر أو الموصل ثم يتولى بغداد أو البصرة فيكون ذلك من الأسباب التي تكسبه خبرة أدق بأمور العراق ٠ وكان باشا بغداد من المرتبة الأولى (أي

---

(١) سنتكلم بالتفصيل عن هذه العشائر العربية في الفصل الثالث ومعظم هذه العشائر في جنوب بغداد حتى البصرة ٠

(٢) العزاوي : تاريخ العراق ، جـ ٤ ، ص ٤٦ ٠

(٣) كان السلطان يعمل على قتال البرتغاليين في المياه الهندية « التفصيل في سياسة داود في الخليج العربي » ٠

(٤) العزاوي : تاريخ العراق ، جـ ٤ ، ص ٤٩ — ٥٠ ٠

صاحب ثلاثة أطواغ) وكان عدد كبير من باشوات العراق من حاشية السلطان حتى تولى حسن باشا ولاية بغداد سنة ١٧٠٤ فاصبحت الباشوية لابنه وللمماليك من بعده ٠

وكان باشوات بغداد متفوقين على زملائهم فى بقية الأيالات العراقية إذ أن اعتماد الأيالات الأخرى على بغداد جعل الباب العالى ينص فى الفرمان على حق باشا بغداد فى عزل ونصب باشوات كردستان (١) ، وهذا امتياز لم يحصل عليه أى باشا من باشوات الأيالات الأخرى العراقية ٠ على أن حكم الأيالات كان مطلقا تقريبـــا فلا يرجع الوالى الى الاستانة إلا فى الأمور الخطيرة وعلى الباشا أن يدبر أمور باشويته وأن يرسل الأموال الى الباب العالى وألا يزعجه بمشكلات خطيرة ٠

وكان الوالى يأخذ مرتبا سنويا ٠ وهو يقتطع هذا المبلغ من الأموال التى جمعها من أيالته وكانت عين الباب العالى تراقب — فى كثير من الأحيان — اعمال الباشا ٠ وبخاصة أن القاضى والدفتر دار (٢) كانا يعودان سنويا الى الاستانة فتصبح أمور الأيالة مكشوفة أمام الباب العالى ٠ وكان الشعب أيضا كلما أحس بظلم ملحوظ تمرد على الباشا وارسل الشكاوى فى حق الوالى ٠ وكانت شكاوى الشعب الى السلطان ذات صــــدى فى دوائر الاســـــــــــتانة ٠

على أن الديوان كان الهيئة الحكومية العليا القادرة على معارضة الباشا ٠ وكان يتكون من كبار ضباط الحامية وعلى رأسهم أغا الإنكشارية والدفتردار والعلماء وكبار حكام المدن ، وكانت العضوية فى الديوان غير ثابتة وكان الباشا هو الذى يختار الأعضاء ومن ثم كانت السلطة العليا للباشا الذى كان قادرا على ان يغير فى تشكيل الديوان ٠ وقد ثبت أن الديوان لم يستطع ان يكون قوة قائمة بنفسها نظرا لأن الإنكشارية اعتمدوا على قوتهم ، والعلماء اعتمدوا على الشعب ، واعتمـــد الشعب عليهم ، والوالى اعتمد على ما يجمعه من قوات ٠ وانتهى الأمر الى إهمال الديوان واصبح مجرد هيئة استشارية ولم يعد أداة من أدوات الحكم ، ولكنه بقى لاستقبال كبار الزائرين والمبعوثين ٠

---

(١) جودت باشا : ترتيب جديد استانبول : مطبعة عثمانية ســـنة ١٣٠٢ هـ ، ج ١ ، ص ٢٧٢ ٠

(٢) سوف نرى أن المماليك كانوا يسندون هذا المنصب الى أصـــــهارهم الذين يخلفونهم فى منصب الباشوية ٠

وكانت القوة التنفيذية لأوامر الباشا مسندة الى الكتخدا (الكخيا) فهـــو نائب الباشا ووكيله ، وهو القائد العام للقوات العسكرية ، والمشرف على أمن المدينة والولاية فكانت مكانته لذلك خطيرة . على ان هذه المكانة لم تظهر خطورتها إلا عندما بدأ حكم الممـــــــــاليك .

أما الأمور الاقتصادية فكانت مسندة الى الدفتر دار الذى كان بمثابة وزير المالية فى الولاية . وهذا المنصب لم يعد له مدلوله الذى كان عليـــــه فى القرن السادس عشر والسابع عشر . وقد اصبح الدفتر دار فى غضون القرن الثامن عشر والتاسع عشر يتولى قيادة الجيوش وأمور الولاية السياسية حتى كادت وظائفه لا تفترق كثيرا عن مهمة الكخيا فى بعض الأحيان . وكذلك كان الأمر بالنسبة للخازندار . واما الأمور القضائية الشرعية فكانت مسندة الى القاضى الذى كان يعين باقتراح من شيخ الإسلام وبفرمان سلطانى ، وتلحق به دار الإفتاء ويرأسها مفتى المدينة . وكان للقاضى نواب فى سائر أنحاء الولاية .

واما خارج عاصمة الولاية فإن المشيخات العشائرية تتبع أقرب المدن اليها أو يعين لها ضباط فى اماكن معينة يجمعون منها الأموال ويكونون واسطة بينهم وبين الحكومة . والواقع أن التنظيم الإدارى خارج بغداد كان بسيطا فلكل سنجق حاكم مسئول عنه من جميع النواحى العسكرية والاقتصادية ، ويتولى منصبه كل سنة أيضا حسب رغبــــة الوالى . ونظرا لأن الوالى عادة مدته قصيرة فإنه يمكن أن نقول ان إدارة العشائر كانت متروكة لشيوخها تماما حسب عرفها وما تتبعه من قوانين ، وهذا يرجع الى قوة هــذه العشائر العربية فى العـــراق .

على أن الاعتراف بالعصبيات الحاكمة وتقسيم العراق الى أيالات متعددة كان خطة لها عيوبها . لقد كان التقسيم يقوم على أساس جغرافى ،كما كان نتيجة لعوامل سياسية . فقد كانت الموصل على الحافة الغربية لجبال كردستان ، وبذلك لا تستطيع السـيطرة التامة على إمارات كردستان حتى الحدود الإيرانية . ولذلك كان انشاء امارة شهرزور من العوامل التى تجعل السلطة العثمانية أكثر قدرة على رقابة الحـــدود الإيرانية ــ العراقية فى تلك المنطقة المضطربة . وكانت البصرة لها وضـعها الذى كان يختلف كل الاختلاف عن أوضاع الأيالات الأخرى . فمشكلاتها بحرية ــ عشائرية ، واتصـــالها

مباشرة بالصراع الأوروبى الاستعمارى فى الخليج العربى ، وتعوق الأهـــوار والبحيرات الموسمية والقبائل المعادية الاتصالات السريعة مع بغداد · وكانت فى الوقت نفسه نقطة رقابة حساسة على نشاط عشيرة كعب الشيعية المهددة للبصرة،ومن ثم كانت فعلا جديرة بأن تصبح وحدة إدارية واحدة مستقلة عن بغداد·وأما الأحساء فكانت هى الأخرى وحدة إدارية واحدة لأن العشائر كانت تموج فيها والحكم الفعلى فيها كان للعشائر ولم يكن فى استطاعة الباشا « الحسا » بإمكانياته البسيطة أن يسيطر على هذه الأيالة التى تحيط بها العشائر العربية القوية من كل جانب ·

ومن العوامل الرئيسية التى أدت الى تقسيم العراق الى أيالات أن السلطان قدر خطورة تجميع العراق كله تحت يد والى واحد تكون ثورته مروعة إذا ما ناهض السلطات العثمانية · وقد كان تمرد الباشوات أمرا معهودا فى الدولة العثمانية · وكانت سياسة عدم الثقة هى التى تسيطر على أعمال الباب العالى · والباشا فى ذلك الوقت لم يكن قادرا على أن يسيطر على العراق كله دفعة واحدة نظرا لامتداد العراق امتدادا كبيرا ، ولأنه ضم بيئات مختلفة وجنسيات متنافرة ذات أهداف متباينة · وهذا أمر يختلف كل الاختلاف عن مصر التى عرفت فى مختلف العصور الحكومة الواحدة والسلطة المركزية · وذلك لتجانس السكان وارتباط الغالبية العظمى منهم بالأراضى الزراعية وقدرة هـذه البيئة على هضم العناصر الأخرى ·

وكان لهذا التقسيم أيضا عيوب من الناحية العســـكرية ، إذ أنه يوزع القيادات ويشتت المجهودات ولكن لم تظهر تلك العيوب واضحة إلا بعـــد أن ضعفت القـــوات الامبراطورية ، فقد ترك السلطان قوات إنكشارية فى عواصم الأيالات والمدن الكبرى ، وكانت ترد أحيانا من الاستانة فرق إنكشارية جديدة لتحل محل الفرق القديمة · وكلما توترت العلاقات مع إيران ـ الطامعة دائما فى العراق ـ أرسل السلطان القوات العثمانية الى العراق لتقوم بمهمة الدفاع عنه ، وكانت هذه القوات الإنكشارية المرسلة من الاستانة أو الموجودة فى قلاع عواصم العراق تحت قيادة أغوات تابعين للســـلطان · وفى أوقات السلم كانت الفرق الإنكشارية فى بغداد تقوم بأعمال الشرطة فى المدينة وجمع الضرائب .

★ ★ ★

(٦)

التوسع العثمانى فى شمال افريقية

بينما كان التوسع العثمانى فى المشرق العربى نتيجة لمعارك حربية كبرى فى جالديران ومرج دابق والريدانية ، وحملات متتالية على اليمن ، نجد أن التوسع العثمانى فى شمال افريقية كان معظمه نتيجة لالحاح القوى العربية هناك على العثمانيين ليقدموا دعما قويا للجهاد الإسلامى ضد العدوان الصليبى المتصاعد على شمال أفريقية خاصة بعد سقوط غرناطة · وكانت الأعداد الضخمة من الفارين المسلمين من أسبانيا الى شمال أفريقية تحث حكام هذه المنطقة على العمل ضد أساطيل أوروبا وتجارتها فأدى ذلك الى أن أصيبت التجارة الأسبانية بخسائر شديدة بل وهاجمت السفن الإسلامية موانى أسبانيا فى ١٥٠٥ مما أثار حدة الصراع فى الحوض الغربى من البحر المتوسط · وأرسل فردناند — ملك اسبانيا — حملة الى « المرسى الكبير » واستولى عليه بعد مقاومة عنيفة (١٥٠٥) وكذلك استولى على « وهران » (١٥٠٨) وبجاية (١٥١٠) وطرابلس (١٥١٠) وأصبح شمال افريقية وكأنه قد دق فيه أكثر من اسفين خطير ·

وكان طبيعيا أن يتطلع المسلمون فى تلك الجهات الى قائد على مستوى أعلى يستطيع أن يرد الهجمات البحرية المتتالية ، وكانت طبيعة الصراع فى شمال أفريقية تتطلب قائدا بحريا شديد المراس · ولقد كان « عروج » — أحد اصحاب السفن الحربيـــة فى البحر المتوسط — من هذا الطراز الذى كان يريده الناس هناك · ولكنه عندما وضع نفســه وقواته فى الدفاع عن تلك البلاد تعرض لمتاعب جمة ناشئة عن أن شمال أفريقية كان فى حالة من التفكك الشديد جعلت من اليسير على الأسبان أن يجدوا لهم أصدقاء وحلفاء بين الزعامات الإسلامية هنــــاك ·

وجد عروج فى أول الأمر أن الأسرة الحفصية فى تونس — وعلى رأســها حينذاك محمد بن الحسن (١٤٩٤ — ١٥٢٦) — وضعت بعض إمكانياتها فى خدمة قضية منكوبى الأندلس والجهاد ضد القوى الصليبية وتعاون الطرفان على الجهــاد ، وحيث أنه كان جهادا يؤدى الى مكاسب مالية ذات قيمة اتفقا على اقتسامها ·

ولقد قام عروج بواجبه المزدوج هذا بنجاح ملحوظ ، ولبى نداء حاكم « بجاية » ولكن دون نجاح ، واستولى على « جيجل » لتصبح قاعدة له بدلا من « جربة » بسبب تصاعد خلافاته مع السلطان الحفصى ، وانجد أهل مدينة الجزائر (١٥١٦) ولكن فشل فى احتلال القلعة التى كانت تشرف على الميناء والتى كانت بيد حامية أسبانية قوية • وأدى هذا الفشل الى صدام بين عروج وسالم التومى حاكم الجزائر وأصبح الموقف لا يحتمل إلا واحدا من أمرين :

إما أن يغادر عروج البلاد فاقدا الكثير من مكانته وآماله واما أن يبقى فى الجزائر لتصبح قاعدة قوية له •

وأصر عروج وجنده على الأمر الثانى واستولى على الجزائر ، ونصب نفسه حاكما فيها ، وثبت حكمه بالتغلب على حملة اسبانية ضده ، وتطلع من بعد الى مد سلطته الى ما وراء الجزائر ، فانتهز فرصة استنجاد زعماء « تلمسان » مقر الأسرة الزيانية — واستولى على هذه المدينة (١٥١٧) ، ولكن لم يتورع الزيانيون عن التحالف مع الأسبان وحوصر عروج فى تلمسان واضطر الى مغادرة المدينة وقتل خلال ابتعاده عنها (١٥١٨) ، ولكن لم يلبث أخوه خير الدين أن تابع كفاحه وهو الذى اشتهر باسم بارباروسا •

كان خير الدين يدرك أن الصراع فى شمال أفريقية ضد القوى الأوروبية يحتاج الى مشاركة دولة إسلامية كبرى كالدولة العثمانية كما كان يدرك أن العداء المطلق للدول الأوروبية لن يفيد الكفاح الإسلامى كثيرا ، خاصة أن هناك دولا أوروبية كبيرة — مثل فرنسا — كانت على عداء شديد مع الامبراطورية الرومانية المقدسة واسبانيا • ولقد كاتب خير الدين السلطان سليم الأول — فى أعقاب انتصاره الأخير على المماليك — معلنا ولاءه للسلطان ، فأمده بقوة من الإنكشارية وأسند اليه نيابة الجزائر وظهر خير الدين بارباروسا كرجل من كبار قادة الدولة العثمانية فى البحر المتوسط،وكان قد عزم ليكافح ليس فقط للدفاع عن الجزائر بل كذلك من أجل تحرير تونس من سيطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة ومن خيانات الأسرة الحفصية ومن أجل مجاهدة العدوان الصليبى فى أى مكان فى متناول قواته البحرية والبرية .

واستطاع خير الدين ان يوطد ـ بعد جهد ـ نفوذه فى الجزائر (١٥٢٥) وأن يستولى على القلعة التى كانت لا تزال فى يد الأسبان (١٥٢٩) ، وبعث بحملة الى تونس (١٥٣٤) ويبعد عنها الأسرة الحفصية مؤقتا ورد شارل الخامس ـ امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ـ على هذا التفوق الإسلامى بارسال حملة الى تونس ٠ ومع أن خير الدين لم يوفق فى صد هذه الحملة إلا أنه أصبح فى نظر السلطان العثمانى سليمان القانونى أجدر من يتولى مهمة اعادة تنظيم الأسطول العثمانى ليعده لمهامه الكبرى فى مواجهة الأساطيل الأوروبية المعادية فى حوض البحر المتوسط ٠ واسند الى خير الدين منصب قبطان باشى الأسطول العثمانى ٠ ورغم المؤامرات العديدة التى دبرت لابعاده عن السلطان العثمانى ، ظل خير الدين مخلصا له ٠

ويبدو أن الفضل يرجع اليه فى تكوين تحالف بين السلطان سليمان القانونى وفرنسوا الأول ٠ فما كان من شارل الخامس إلا ان بعث بحملة بحرية كبيرة بقيادة أمهر قواده « اندريا دوريا » الى الجزائر فى ١٥٤١ إلا ان عاصفة شديدة شتتت أسطوله واصبحت الجزائر آمنة ، بل أصبحت فى نظر الأوروبيين مدينة لا تقهر ، ولم يلبث خير الدين أن توفى فى ١٥٤٦ ٠

وتقديرا للمجهودات الكبيرة التى قام بها خير الدين أسند السلطان منصب بكلربكية الجزائر الى ابنه حسن باشا الذى واجه القوى التى تصدت لأبيه من قبل ، وهى :

١ ـ الأسبان فى وهران ٠

٢ ـ الأسرة الزيانية فى تلمسان وكانوا يحاولون اللعب على الطرفين العثمانى والأسبانى ٠

٣ ـ الأسرة السعدية الناشئة فى مراكش ٠

ورأى حسن باشا أن من الخير أن يتعاون مع الأسرة السعدية ضد الأسبان فى وهران ، إلا أن السعديين استغلوا هذا التحالف فى السيطرة على تلمسان (١٥٥٠) وتوسعوا بشكل يهدد العثمانيين لا الأسبان ، فأسرع حسن باشا الى وضع يده على تلمسان ولكن دون أن يقضى على الأسرة الزيانية التى قضى عليها فعلا صالح بن باديس ـ الذى حل محل حسن باشا فى الحكم (١٥٥١) ، واستولى ابن باديس على « بجاية »

من يد الأسبان (١٥٥٥) ، ولكنه لم يلبث أن توفى وهو يحاول منع قيـــام تحالف بين السعديين والأسبان فى وهران ٠

ومن بعد ابن باديس دبت الفوضى فى البلاد ، واستبد الجند بتوجيه الأمـــور ، وقتلوا الباشا ، مما جعل السلطان العثمانى يرسل اليهم « حسن باشا » ابن خير الدين ليعيد الهدوء (١٥٥٧) . حقيقة سيطر حسن باشا على الجزائر وعلى تلمسان ، واستعد لطرد الأسبان من وهران ولكنه رغم انتصاره عليهم إلا انه لم يستول على وهـــــران ، وتعرضت طرابلس لحملة اسبانية إلا أن الأسطول العثمانى تفوق ٠ ومع هـذا لم يلبث الجند أن تمردوا وقبضوا على (حسن باشا) وارسلوه مكبلا الى الاستانة (١٥٦١) ، إلا أن السلطان أعاده الى الجزائر ١٦٥٢ ليتابع العمل من أجل تحرير وهران ٠ ومع أنه لم يوفق فقد كافأه السلطان بتعيينه قبطان باشى الأسطول العثمانى ، وتوفى فى ١٥٧٢ ٠

تولى بكلربكية الجزائر من بعده « على العلج » فى ١٥٦٨ ، وكان يود تحقيق آمال خير الدين فى السيطرة الكاملة على شمال أفريقية ، وكانت أمـــور تونس قد آلت الى الحفصيين إلا أن أمورهم كانت فى تدهور مستمر خاصة بعد سيطرة القائد البحـــرى العثمانى « طرغوث » على طرابلس فى ١٥٥١ ، واصبحت تونس بذلك محصـــورة بين القوى العثمانية فى طرابلس والجزائر ٠ وفعلا استولى العثمانيون على تونس فى ١٥٦٩ ٠

لقد أدى هذا النشاط العثمانى الكبير فى شمال أفريقية ، واستيلاء العثمانيين على قبرص الى نشاط مضاد تزعمته البندقية لكسر شوكة الأسطول العثمانى ــ الجزائرى فى حوض البحر المتوسط ، فعقدت حلفا مع البابوية ومع الامبراطورية الرومانية المقدسة والتقى الأسطول الأوروبى بالأســطول العثمانى ــ الجزائرى عند ليبانتو ١٥٧١ ودارت معركة بحرية كبيرة منى فيها الأسطول الإسلامى بهزيمة كبيرة ، إلا أن والى الجـزائر استطاع أن يجمع شتات بقية السفن وينقذها من الدمار . فكانت هذه الهزيمة البحرية بداية النهاية للتفوق البحرى العثمانى فى حوض البحر المتوسط ٠ بل يعتبرها البعض بداية تدهور الدولة العثمانية ٠

وعلى اى حال ، بذل العثمانيون جهودا كبيرة لانقاذ بقية الأسطول العثمانى وأعيد بناء الأسطول خاصة بعد سقوط تونس مرة أخرى فى يد الأسبان (١٥٧٣)، ولكن استطاع

القائد العثمانى « سنان باشا » أن يستولى على تونس ويقضى نهائيا على حكم الأسرة الحفصـــــــــية ٠

وبعد استرداد العثمانيين لتونس تطلعوا الى المغرب ، وكانوا جادين فى تنفيـــذ مشروعهم ، ولكن حال دون ذلك عدة أسباب وظروف :

١ — لقد أحرز المغاربة نصرا كبيرا على البرتغاليين فى معركة وادى المخازن (١٥٧٨) جعلهم محط تقدير السلطات العثمانية فتوقفت الحملة المعدة ضدهم ٠

٢ — ظهور شخصية قوية حاكمة فى المغرب ونعنى به « المنصور السعدى » ٠

وبصفة عامة ، طبق نظام الولايات العثمانى ، فأصبحت طرابلس وتونس والجزائر ولايات عثمانية. وأصبحت الرقعة متسعة على السلطان العثمانى حيث كان جنده يقاتلون على أسوار فيينا (١٦٨٨) وفى الخليج العربى والعراق وفى المياه الإسلامية الجنوبية ٠

ويلاحظ أن العثمانيين كانوا أكثر توفيقا فى شمال أفريقية منهم فى المياه الجنوبية الإسلامية وذلك لعدة أسباب :

١ — أن العمليات البحرية العثمانية كانت مناسبة لأسطولهم البحـــــرى على عكس العمليات البحرية فى المحيط الهندى التى كانت تتطلب سفنا من طراز آخر أكثر قدرة على الحروب المحيطيـــــة ٠

٢ — كان الساحل الأفريقى الشمالى أقرب الى الاستانة عاصمة الدولة وكانت الامدادات من تركيا ومصر ترسل الى ميادين القتال بسرعة أكثر ، كما كانت صــــــــورة التطورات فى حوض البحر المتوسط لدى المسئولين العثمانيين أكثر وضوحا عن تلك التى كانت لديهم عن ميادين القتال فى المياه الإســـــلامية الجنوبية ٠ وكانت قواعد العثمانيين فى شمال أفريقية أكثر ثبـــــاتا من تلك التى كانت لديهم على السواحل العربية الممتدة من البصرة الى اليمن ٠

٣ — لم يلق العثمانيون مقاومة متطاولة مرهقة كتلك التى واجهتهم فى اليمن ٠

٤ — اتساع المستعمرات الأسبانية الغنية فى أمريكا جعل الأســـــبان لا يبذلون أقصى قدراتهم فى السيطرة على شمال أفريقية سيطرة كاملة ٠ أما البرتغاليون فقـــد

ركزوا على جهودهم الاستعمارية فى منافذ البحار الإسلامية الجنوبية وفى استعمار أفريقية والهند مما جعل لهم قواعد قوية يستطيعون منها كسر شوكة الحمـلات العثمانية هناك ، خاصة وان هذه الحملات العثمانية كانت ترسل من وقت لآخر لقتال البرتغاليين بينما كان الوجود البرتغالى مستمرا ومسيطرا هناك ٠

لقد استمرت ولايات شمال أفريقية ضمن الدولة العثمانية حتى أخـذ الاستعمار الأوروبى منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر يقتطع اجزاء منشمال أفريقيا حتى إذا ما أصبح العالم على وشك دخول الحرب العالمية الأولى كان شمال أفريقية وحوض النيل قد توزع بين الدول الاستعمارية : بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، مثلما توزع المشرق العربى بين بريطانيا وفرنسا حينذاك ٠

الفصل الثالث

الكفاح العثماني ضد العدوان البرتغالي

على الديار الإســــلامية

يمثل الوجود العسكرى البحرى الصليبى الاستعمارى البرتغالى عاملا جوهريا فى توجيه مقدرات المشرق العربى ، الى جانب ظهور ونمو الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين فى المشرق العربى : الدولة الصفوية والدولة العثمانية . ولا شك أن وصول الأسطول البرتغالى الى قليقوط فى مايو ١٤٩٨ يمثل بداية عصر جديد فى المنطقة ، وفى المشرق كله بصفة عامة .

ومما لا شك فيه أن وصول البرتغاليين الى المياه الإسلامية الجنوبية هو المسئول الأول عن وقف التطور التقدمى لعرب المشرق العربى ، حيث أن التفوق الذى أحرزه العرب فى فنون الملاحة والنقل البحرى فى المحيط الهندى والبحار الجنوبية كان كفيلا بأن يمهد لنهضة تأخذ بيد العرب خاصة بعد أن ظهر بينهم ملاحون ممتازون من أمثال أحمد ابن ماجد . فهل كان من الممكن أن يقدم البرتغاليون خدماتهم للمسلمين والعرب ويفتحوا لهم أبواب تعلم الفنون الجديدة عن طيب خاطر على نفس المستوى الذى قدم به أحمد ابن ماجد خدماته لفاسكوداجاما فقاده هو وأسطوله فى أول رحلة بحرية برتغالية بين شرق أفريقيا وساحل ملبار (الهند) . ولكن كان هناك فرق شاسع بين التفكيرين وبين الرجلين ؟

وكان العرب يعملون بنشاط وافر فى نقل المتاجر من موانىء الشرق الى السويس ، وكان الباب مفتوحا لكل صاحب أسطول أن ينقل المتاجر عبر البحار والمحيطات حيث كانت حرية الملاحة الدولية من الأمور التى لم يفكر العرب فى نقضها ، شأنهم فى ذلك شأن القوى الآسيوية الأخرى . فلا غرو أن كانت سفن الصين تصل بكل حرية الى عدن .

فلقد كان أحمد بن ماجد ، والعرب والمسلمون بوجه عام ، يرون فى البحار والمحيطات مجالات واسعة للغاية تستوعب كل من يريد العمل فى النقل البحرى . فكان المبدأ المطبق هو حرية الملاحة الدولية . فكانت سفن العرب تسير فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وتوغل حتى (ملقة) وما بعدها ، كما أن سفن الصين كانت توغل غربا حتى تصل الى سواحل بلاد العرب الجنوبية . وأدى هذا النشاط التجارى العربى الإسلامى الكبير الى نمو هرمز – عند مدخل الخليج العربى – وأصبحت بفضل تفوقها فى العمليات التجارية

الكبرى ، أكثر المراكز التجارية ازدهارا • ولقد امتد نفوذ هرمز من الاحساء والبحرين وعمان الى عدن ، حتى لقد اصبحت ذات شهرة وثروة عظيمة ، حتى لقد نظم فيها الشعراء قصائدهم مثلما فعل الشاعر الانجليزى ملتون فى (الفردوس المفقود) وهناك من زار هرمز قبل نكبة البرتغاليين لها بوقت قصـــير جدا ، فوصف اتســـاع تجارتها البحرية • فلقد كانت هرمز فى القرن الخامس عشر درة الخليج العربى فعــــلا ، وطغت حتى على البصرة وغيرها من الموانىء الأولى •

ولكن جاء البرتغاليون الى المياه الجنوبية الإسلامية بفكر صليبى شديد الإنفعـال تميز به أهل شبه جزيرة أيبيرية • وكان هذا الفكر الصليبى هو الذى يحثهم على الوصول الى الشرق الأقصى بطريق بحرى مباشر حتى يتجنبوا نقل التجارة الشرقية عبر مصر وحتى يوجهوا ضربة قوية للإسلام والمسلمين من هذا الباب الخلفى •

كما كانت الإنعامات البابوية على ملوك البرتغال تؤجج تلك الروح الصليبية المتوقدة فى نفوس البرتغاليين ، حتى لقد أصبح تدمير المقدسات الإسلامية فى الحجاز جـزءا من أهداف النشاط البرتغالى فى المياه الشرقية الإسلامية .

ولقد اتبع البرتغاليون فعلا فى سيطرتهم على صفحات البحار والمحيطات سياســة صليبية لا إنسانية ضد العرب بالذات ، فلقد كان البوكرك اذا أمكنه العثور على عربى كان افلاته من يده من المحال وانه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار ، واطلق القادة البرتغاليون عنان جنودهم ضد العرب فسمحوا لبحارتهم بأن يمارسوا أعمال القرصـنة ضد الملاحة العربية • وأخذوا كل سفينة عربية إسلامية غصبا كما كان الأســـطول البرتغالى كان يقوم بشن الحرب على المعاقل التجارية البحرية العربية ، فإن اســتطاع السيطرة عليها واحتلالها فبها وإن لم يستطع ذلك ضرب الأهداف المدنية واحرق الميناء بمنشآته ، والسفن والقوارب الراسية فيه ، وهذا ما فعله البرتغاليون فى عدن وقمران وهرمز وزيلع وقريات ومسقط والبحرين وصحار •

ولقد ادرك البرتغاليون أن استقرار تحكمهم فى التجارة الشرقية ومنع العرب من نقلها عبر المشرق العربى ومصر الى أوروبا يتوقف على سد منافذ الطريقين العالميين عبر الشرق الأدنى الى اوروبا وهما طريق الخليج العربى الذى تسيطر عليه هـرمز ، طريق

البحر الأحمر الذى تتحكم فيه عدن وسقطرة وباب المندب ، وكانت عدن شديدة المقاومة للبرتغاليين سنة١٥١٣،وامتنعت عدن عليهم،وذلك لأن دولا كبيرة نسبيا كانت تحمى ظهرها ونعنى بذلك دولة آل طاهر فى عدن واليمن حتى ١٥٣٨ كما كانت تحميها القوى البحرية والبرية التى ساقها المماليك ضد البرتغال فى البحر الأحمر واليمن ، هـذا فضلا عن أن عدن كان قد تولاها حكام عرفوا كيف يدرأوا الخطر البرتغالى بالسياسة الى جانب القوة من امثـــال مرجان الظافرى ١٥١٧ م/٩٣٣ هـ ، وعلى بن سـلمان البـــدوى فى ١٥٤٦ م / ٩٥٣ هـ ٠

أما هرمز فقد اضطرت الى ان تواجه بنفسها واعتمادا على قواتها العدوان الصليبى البرتغالى ٠ وكانت القوة غير متكافئة منذ البداية ٠ فقد كان البوكرك – الامـــيرال البرتغالى المشهور – الذى وطد العزم على أن ينشىء امبراطورية شرقية برتغالية قد قرر أولا تقليم أظافر هرمز فبدأ بالسيطرة على سقطرة ١٥٠٦ ، ثم دمر الموانىء الساحلية التابعة لهرمز على الخليج العربى وخاصة مسقط وصحار ، وحولوا الضريبة السـنوية التى كانت تدفعها لهرمز الى خزينة البرتغاليين ثم وجه البوكرك اسطوله الى هرمز ٠ وهناك وجد البرتغاليون أنهم أمام مدينة تختلف عن تلك الموانىء التى أحرقها الأسطول البرتغالى من قبل ٠ حيث أن ملك هرمز كان قد تلقى تحذيرات بأن البرتغاليين فى طريقهم اليه فاستعد بقواته البرية والبحرية للدفاع عن الجزيرة ٠

وكان ملكها حينذاك سيف الدين فى الثانية عشر من عمره تحت وصـــاية أتابكه « خوجة عطار » الذى كان يتصف بالجراة واستدعى قوات من البلدان المجاورة من فرس وعرب حتى بلغ عدد المقاتلين ٢٠ الف رجل ، وفى الميناء تجمعت ٤٠٠ سفينة عليها ٢٥٠٠ مقاتل ، بعضها كان مزودا بالمدفعية الصغيرة ٠ ولكن استطاع الأسطول البرتغالى أن يكسب المعركة واصبح ملك هرمز تابعا لملك البرتغال يدفع له ضريبة سـنوية ٠ وبنى البرتغاليون حصنا فى هرمز وانشأوا وكالة تجارية كما أرغموا الملك على أن يعفى التجار البرتغاليين من الضرائب ، اما إذا اشترى البرتغاليون من هرمز وتوابعها فيدفعون ضريبة مماثلة لما هو مفروض على الوطنيين واشترط البرتغاليون كذلك ضرورة حصول اية سفينة محلية يملكها أحد المواطنين على تصريح من البرتغاليين بالملاحة ٠ وبهذا تكون السـيادة السياسية والتجارية البرتغالية على الخليج العربى قد بدأت تتوطد ٠

وبضم سقطرة ، وبالسيطرة السياسية على هرمز وبفتح ملفه ، وبتقوية القاعدة البحرية الكبيرة فى « جوا » يكون البرتغاليون قد أسسوا لأنفسهم نظـــاما ، يتحكمون بواسطته فى الملاحة على صفحات بحار المنطقة . وكانت قيمة هرمز لهـذا النظام ، هى الأعظم لموقعها الإستراتيجى الخطير ولماضيها الاقتصادى والسياسى الحافل .

لقد أدرك ملك هرمز أنه لا بد من الاستعانة بدولة كبيرة تشد أزره ضد العـدوان البرتغالى وتخلصه منه . وكان السلطان الغورى هو أمل المسلمين فى ازالة هذه الغمـــة المفاجئة . ولقد قام الغورى — وقد فوجىء بوصول البرتغاليين الى الميـــاه الجنوبية — باعداد أسطول كبير أرسله فى ١٥٠٨ الى المياه الجنوبية بقيادة حسين الكردى . وهنـــاك عند « ديو » دارت أكثر من معركة بين الأسطولين البرتغالى والمملوكى دون ان يكسب اى منهما معركة حاسمة . ولكن انسحاب الأسطول المملوكى من المياه الهندية وعودته الى البحر الأحمر أبقى للبرتغاليين السيادة فى تلك المياه وفى داخل الخليج العربى وفى مدخل البحر الأحمر . ولعل هذا هو السبب الذى جعل الحركة الوطنية فى هرمز تتطلع الى الشـــاه اسماعيل الصفوى ، ولذلك اعترف ملك هرمز بالخضوع للشاه الأمر الذى جعل موقف البرتغاليين دقيقا (١٥١٤) ؛ حيث أن الشاه اسماعيل الصفوى كان هو حليفهم الطبيعى ضد العثمانيين ، وفعلا عقد مفاوضات مع السلطات البرتغالية فى جوا من أجل عقد معاهدة تحالف ضد العثمانيين . ومن ثم كان الوصول الى تسوية مع الشاه بشأن مستقبل هرمز أمـــــرا يســـــــــــيرا .

ولكن الذى حدث فى داخل الجزيرة نفسها جعل من الضرورى على الأســـــــطول البرتغالى — المتجه ضد عدن وسواحل البحر الأحمر — ان يعمل أولا على إخضاع الثورة الوطنية التى نجحت فى تسلم السلطة فى هرمز . وفعلا استطاع الأسطول البرتغالى ان يعيد سيطرته على الجزيرة . ولما جاء سفير الشاه دارت مفاوضات بين الطرفين الفارسى والبرتغالى انتهت بأن يظل ملك هرمز خاضعا لملك البرتغال دوم مانويل Dom Manael ومات البوكرك بعد ذلك بقليل ١٥/١٢/١٥١٥ .

لقد وجدت هرمز ومدن الساحل الغربى للخليج العربى نفسها تحت نير السيطرة البرتغالية دون أن يجدوا قوة كبيرة إسلامية قادرة على التعاون معهم ضد هـذا العدوان الصليبى ، وحيث فشل الأسطول المملوكى فى البقاء فى المحيط الهندى والميـــاه العربية

الجنوبية مناورا للأسطول البرتغالى ، وحيث أن الشاه الفارسى لم يتورع عن التخلى عن هرمز التى ألقت بنفسها تحت قدميه فى وقت الشدة ، لم يعد أمام هرمز ومدن الساحل الغربى للخليج العربى إلا أن يعتمدوا على انفسهم للقيام بثورة عامة مباغتة فى آن واحد ضد البرتغاليين وتجعلهم مضطرين للعمل على عدة جهات متباعدة فيمكن التخلص منهم وانتزاع الحرية من بين انيابهم ، وفعلا وقعت الثورة الكبيرة فى هرمز ومسقط والبحرين وقريات وصحار ، وهاجم الوطنيون الحاميات البرتغالية برا وبحرا • وفرض ملك هرمز الحصار بقوة على الحصن البرتغالى فى الجزيرة•ولكنه ظل صامدا حتى جاءته الامدادات• وفقد الملك أمله فى النصر فأحرق المدينة وغادرها الى جزيرة قشم ليصرعه هناك احـــد أتبـــــــاعه (١٥٢٢) •

وتولى العرش فى هرمز من بعد ذلك ابنه محمود شاه آخر ملوكها ، حيث عقد معه البرتغاليون معاهدة جديدة زادت من قوة القبضة البرتغالية على الجزيرة ثم لم يمر سوى وقت قصير حتى وضع البرتغاليون نهاية للحكم الوطنى ، عندما اسندوا حكم الجزيرة الى حاكم برتغالى فى ١٥٢٤ • ولتعيش هرمز بعد ذلك حوالى القـــرن تحت الحكم البرتغالى حتى يستولى عليها الشاه عباس الأول فى ١٦٢٢ •

هذا بينما وسع البرتغاليون من مجالات عملهم فى البصرة نفسها حتى اصبحت ضمن مشروعات البرتغاليين وهدفا لعملياتهم العسكرية • وذلك بعد ان اصبحت القــــواعد البرتغالية فى مسقط وهرمز قوية • وكانت المنازعات بين القوى المحلية الحاكمة فى جنوب العراق تعطى فرصا واسعة للأسطول البرتغالى للعمل فى مياه البصرة سواء برضاء الحكام أو رغما عنهم • فقد شب نزاع بين راشد بن مغامس ، شيخ عشـــــائر المنتفق وصاحب البصرة — وأمير الحويزة ، وناشد راشد بن مغامس البرتغاليين إعانته ضــد خصمه • وفعلا بعث دى كونها de Cunha قطعا بحرية برتغالية الى البصرة ولكن سرعان ما شب النزاع بين البرتغاليين وراشد بن مغامس وانقضت القطع البحرية البرتغالية على البصرة ، ومن الأسباب الظاهرية لهذا النزاع إمتناع راشد بن مغامس عن تسليم سفن تركية كانت راسية هناك،وأغلب الظن أن السبب الرئيسى فى تحول التفاهم الى اشتباك على هذا النحو يرجع الى أن التحالف كان قائما على أساس المصلحة الذاتيـــة فحسب

فضلا عن اختلاف الأهداف والمشارب اختلافا جوهريا بين شيخ عربى عشائرى مسلم وقائد أسطول برتغالى صليبى • فكل منهما يريد معونة لا أكثر ولا أقل دون أن يحصل الطرف الآخر على أى كسب مادى أو سياسى من وراء ذلك • والبرتغاليون كانوا يبحثون وراء كسب حقيقى جديد فى المنطقة •

ولم تتحول القوى الإسلامية الى الهجوم مرة أخرى إلا بعد أن سيطر السلطان سليم الأول العثمانى على الشام ومصر والحجاز فى ١٥١٦ — ١٥١٧ • وأصبح يتحمل مسئولية الكفاح ضد البرتغاليين سواء من أجل انقاذ الأراضى المقدسة الحجازية من تهديداتهم المتكررة لها أو من حيث اعادة التجارة الشرقية الى طريق مصر • فبدأت صفحة جديدة من الصراع فى المياه العربية الجنوبية لم يشترك فيه العرب إلا هامشيا أو بطريق غير مباشر • وانما أصبح فى يد العثمانيين التمويل والاعداد والقيادة للأساطيل الإسلامية ضد البرتغاليين فى المياه العربية والهندية • وبدأت هذه الهجمات البحرية العثمانية المضادة فى أعقاب التوسع العثمانى فى المشرق العربى مباشرة •

ومما لا شك فيه أن سليم الأول كان مدركا تمام الادراك للخطر البرتغالى من الجنوب • وكانت خريطة العدوان الأوروبى على البلاد الإسلامية سواء المطل منها على المحيط الهندى أ م المطل على البحر المتوسط واضحة امامه • فقد كان فرسان القديس يوحنا يهاجمون بيروت وطرابلس ودمياط فى الوقت الذى كان فيه الأسطول البرتغالى بروع السواحل الإسلامية الجنوبية فى ٩٢٦/١/١٩ هـ •

والملاحظ أن سليم الأول لم يتخذ إجراءات كبيرة ضد البرتغاليين ولعل هذا يرجع الى أنه كان قد خرج من حربين كبيرتين ضد فارس (١٥١٤) وضد مصر (١٥١٦ / ١٥١٧) وعاد الى مقر حكومته ليموت بعد سنوات قليلة (١٥٢٠) وهو يستعد لقتال فرسان القديس يوحنا فى رودس • كذلك كانت الفترة الأولى من حكم سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) مليئة بالأحداث الكبرى فى اوروبا خلال صراعه ضد الدولة الرومانية المقدسة وغيرها فى البلقان • كما ان مصر تعرضت لثورات قام بها بعض زعماء المماليك وعلى رأسهم اينال السيفى وجانم السيفى (١٥٢٢ م / ٩٢٨ هـ) ثم ثورات أحمد باشا الخائن (١٥٢٣ / ١٥٢٤) كما شغل العثمانيين بعد ذلك بتوطيد حكمهم فى مصر (١٥٣٤ — ١٥٣٥) وبفتح العراق وتخليصه من الفرس (١٥٣٤) ولعل هذا كان سببا فى الا يتخذ السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) إجراءات كبيرة ضد الوجود العدوانى

البرتغالى فى المياه الإسلامية الجنوبية حتى تولية سليمان الخادم للمرة الثانية على مصر (١٥٣٦ — ١٥٣٨) ٠

ومع ان العراق — الذى أصبح ضمن الدولة العثمانية منذ ١٥٣٤ — كان أقرب الى قواعد البرتغاليين فى المحيط الهندى ٠ إلا أن الأوامر صدرت الى سليمان باشا الخادم — والى مصر — بأن يعد حملة كبيرة بحرية ضد البرتغاليين وأن يتخذ من السويس قاعدة لإنطلاق حملته ٠ لأن السويس فعلا كانت هى الميناء الوحيد المناسب لمواجهة تلك المسئولية الكبيرة خاصة وأن البصرة حتى ١٥٤٦ لم تكن قد وقعت تحت الحكم المباشر العثمانى ٠

وحتى بعد ان استولى العثمانيون على البصرة فى ١٥٤٦ م ظلت مصر والسويس — فى العهد العثماني — هى القاعدة العسكرية التى تخرج منها الحملات البحرية الموجهة ضد العدوان البرتغالى ٠

أصدر سليمان القانونى أوامره الى سليمان الخادم سنة ١٥٣٧ « للجهاد » على رأس حملة كبيرة يذهب بها الى الهند « لتستولى وتحافظ على تلك الأجزاء » وأن يعمل على حماية مكة المكرمة والمدينة المنورة من العدوان الصليبى البرتغالى وأن يتوج جهوده بإزالة شأفتهم من تلك البحار ٠

وكان هذا التوقيت مناسبا فى الواقع حيث كان السلطان سليمان القانونى قد خرج منذ سنوات قليلة جدا منتصرا فى حربه ضد الفرس مستوليا على العراق (١٥٣٤) ٠ وهذا التوقيت يؤكد لنا ان العمليات العسكرية العثمانية ضد الوجود العدوانى البرتغالى فى المياه الجنوبية كان مرتبطا بالتوسع العثمانى فى المشرق العربى ٠ ولهذا فنحن لا نوافق قصر المؤرخ الكبير توينبى لأسباب التوسع العثمانى على أنه استمرار للصراع القديم بين أى دولتين كبيرتين تظهران فى الشرق الأوسط ٠

وعلى اى حال أعد سليمان الخادم حملته الكبيرة لا ليكسر شوكة البرتغاليين فقط بل للسيطرة أيضا على مفاتيح البحار الإسلامية فى الجنوب ، وبوجه خاص ميناء عدن الذى أصبح على اهمية كبرى استراتيجية خلال الصراع البرتغالى المملوكى العثمانى على المياه الجنوبية ، فاستولى على عدن غدرا ٠

وحيث أن سليمان الخادم كان قد عزم على الرحيل لقتال البرتغاليين ، وكان يريد

الاطمئنان الى أن الأمور اليمن ستظل ودية مع العثمانيين كتب الى الإمام الزيدى (شرف الدين) مؤكدا له انه يريد التعاون معه وانه خلص الإسلام والمسلمين من شر عامر ابن داود حاكم عدن لأنه كان « يريد بيع عدن للافرنج » .

ونحن لا نستبعد أن تكون هناك محاولات من جانب عامر بن عبد الوهاب للوصول الى تفاهم ما مع البرتغاليين الذين كانوا يمثلون خطرا ساحقا على عدن فى الوقت الذى كانت فيه عدن — آخر معقل للطاهريين — معرضة لهجمات عنيفة من جانب الإمام الزيدى .

سواء أكانت ظنون سليمان الخادم خاطئة أم أن عامر بن داود قد خان القضية الإسلامية ، فان الاستيلاء على عدن بالخديعة وإلقاء القبض غيلة على عامر بن داود ثم شنقه أساء الى سمعة سليمان باشا الخادم حيث اصبح فى نظر القوى المطلة على البحر العربى والمحيط غادرا لا يؤتمن على عهد . وقد سبقته أنباء مؤامراته هذه الى الهند فى وقت كانت فيه القوات البحرية الهندية بقيادة أميرال فاليقوط مشتبكة مع الأسطول البرتغالى ، واستطاع الاميرال البرتغالى مارتن دى سوزا Martin de Solza أن يشتت الأسطول الهندى قبل وصول الأسطول العثمانى .

ولكن الى جانب هذا كانت القوى البحرية الهندية المعادية للبرتغاليين ، قد اصبحت عازفة عن التعاون مع الأسطول العثمانى خوفا من غدر سليمان الخادم بها . ولهذا لم تكن حملته مثمرة فى المياه الهندية ، وعاد الى الخليج العربى ليقوم فيه بعدة عمليات عسكرية كبيرة ، إذ استطاع أن يحاصر هرمز وأن يستولى على مسقط والقطيف ، وعاد دون أن يعمل العثمانيون على الإبقاء على إسطول دائم فى تلك المياه لمناددة الأسطول البرتغالى الأمر الذى إبقى التفوق المطلق للبرتغاليين بعد عودة الحملات العثمانية الى قواعدها .

ومع هذا فقد أدى وصول الأسطول العثمانى الى الخليج العربى الى رفع معنويات المقاومة هناك لدى أهل المنطقة ، وخاصة فى القطيف فى أعقاب سيطرة العثمانيين على البصرة . فثارت القطيف ثورة كبيرة ضد البرتغاليين فى ١٥٥٠ وسلموا المدينة للأتراك العثمانيين . فكان أن رد البرتغاليون على ذلك بان دمروا القطيف بمدفعية اسطولهم[١] .

---

(١) Wilson; The Persian Gulf, P. 125.

لقد أدت كل تلك العمليات البحرية البرتغالية الناجحة منها أو الفاشلة الى تعميق اتجاه السلطات العثمانية فى الاستانة نحو ارسال حملة كبيرة ضد وجود العدوان البرتغالى فى المياه الإسلامية الجنوبية ، خاصة وان تدمير الأسطول البرتغالى للقطيف كان يعنى ضياع هيبة العثمانيين فى المنطقة ولا يمكن استردادها إلا بإرسال حملة كبيرة لمنـــازلة البرتغاليين والتفوق عليهم ٠ واسند السلطان قيادة الحملة الكبيرة التى كانت تعـــد فى السويس الى بيربك وكان تحت امرته ستة عشر الفا من المقاتلين على ظهر أسطول كبير من الفلاحين ، ابحر من السويس الى الخليج العربى ٠

وكان نورونها ــ القائد البرتغالى ــ فى هرمز ، فبعث بقطع من الأسطول بحثا عن أسطول بيربك فاصطدم به بيربك وكاد أن يقع فى أسره ، ولكن هاجم بيربك هرمز وكاد أن يستولى عليها تماما ، وهاجم بيربك مسقط ونهب المدينة واستسلم قائد القلعـــة البرتغالية جلودى ليزبا Joaoda Lisboa بعد ان تعرضت لقصف من الأسطول العثمانى استمر ثمانية أيام ، ونقل بيربك مدافع القلعة الى سفنه ٠ ثم عاد الى هرمز وحاصرها لمدة شهر تكبد خلاله خسائر جعلته ينهب ما استطاعه وذهب الى جزيرة قشم واستولى هناك على غنائم كبيرة ثم عاد ولكن مصادمات بيربك مع الأسطول البرتغالى كانت تؤكد أن كفة البرتغاليين كانت هى الراجحة رغم الازعاج الشديد الذى كان قد سببته عمليات بيربك ضدهم ٠ وأصبح التفوق البرتغالى واضحا تماما فى أعقاب إنتهاء بيربك من جولاته فى الخليج (١) حيث ظل الأسطول البرتغالى هو المنفرد على صفحات المياه ٠

كانت النتيجة السلبية التى انتهت اليها الحملة البحرية بقيادة بيربك تفرض على العثمانيين أن يحاولوا من جديد خض شوكة البرتغاليين فى المياه الجنوبية وأعدوا حملة بحرية جديدة بقيادة مراد بك ، وكانت له خبرة سابقة بحروب البرتغاليين فى الخليج العـــــــــربى ٠

ابحر مراد بك بأسطول قوامه ١٥ سفينة حربية ، واصطدم فى معركة عنيفة مع الأسطول ابرتغالى بقيادة Diego de Noranha على مقربة من الســـاحل الفارسى ، ولكن لم تسفر المعركة عن انتصار حاسم لأى منهما ٠

---

(١) عاد بيربك الى الاستانة وهناك أعدم لمخالفة اوامر الصدر الأعظم وتمرده عليه وطموحه الزائد ٠

وكرر العثمانيون محاولاتهم لخض شوكة البرتغاليين فأرسلوا حملة رابعة بقيادة على شلبى فأحرز عليه البرتغاليون انتصارا حاسما شدد سيطرتهم على المياه الإسلامية الجنوبية وخاصة فى الخليج العربى ٠

والملاحظ ان نشاط العثمانيين أصبح بريا بعد ذلك فقد هاجموا البحرين ولكن انتصر عليهم البرتغاليون ، كما لجأ العثمانيون الى الهجمات الخاطفة مثل هجمات على بك على مسقط سنة ١٥٨١ ولكن لم يلبث أن غادرها لتعود تحت قبضة البرتغاليين ٠

عند تحليل طبيعة الحملات والهجمات العثمانية ضد البرتغاليين نجد أنهـــا بدأت بأساطيل قوية كبيرة على يد سليمان الخادم وبير بك ، وكبدت البرتغاليين الكثـير من الخسائر ، وأثارت القوى الوطنية المحلية فى الخليج العربى ضد الوجود العـــدوانى البرتغـــالى فى المنطقـــة ٠

ولكن كانت الحملات العثمانية البحرية بعد بير بك ضعيفة غير مؤثرة بل واضعف من سابقاتها حتى كف العثمانيون عن ارسال حملات بحرية كبيرة أو لجأوا الى الهجمات الخاطفة البحرية غير المستديمة ، والى الحملات البرية غير المجدية ، بالتالى كان نمو القوة البرتغالية فى المياه الجنوبية فى تصاعد مستمر خلال الصراع ضد المحاولات العثمانية لكسر شـــوكتهم هنـــاك ٠

والواقع أن تدهور قوة الردع العثمانى للوجود العدوانى البرتغالى فى الميـــاه الجنوبية كان مرتبطا بالضعف الذى أصاب القوة البحرية العثمانية فى اعقاب هزيمتها أمام الحلف الصليبى فى ليبانتو ١٥٧١ ٠ كما أن هذا الضعف فى المياه الجنوبية الإسلامية يرجع فى الواقع الى أن قوى اليمن والخليج العربى والهند لم تكن على استعداد لتعاون كامل منسق مع الحملات العثمانية ، فضلا عن أن معظم تلك القوى وضعت مصـــالحها الخاصة فوق المصلحة العامة ٠

ومن ناحية اخرى ، كان العثمانيون يخوضون حربا محيطية غير تلك الحـــروب البحرية التى تعودت عليها اساطيلهم فى البحر المتوسط أو فى البحر الأســود ٠ ثم انهم دخلوا ميدان هذه الحرب المحيطية متأخرين بعد أن وطد البرتغاليون اقدامهم فى بعض المعاقل المنيعة فى الخليج العربى مثل هرمز ومسقط والبحرين ، وفى ساحل ملبار الهندى فى جـــوا

ومع أن قطع الأسطول البرتغالى كانت تتوافد على المحيط الهندى عن طريق رأس الرجاء الصالح الطويل وأن العثمانيين كانوا يبنون أسطول كل حملة فى السويس لينطلق الى المياه الاسلامية الجنوبية، فان طبيعة بناء الأسطول البرتغالى كانت هى الأنسب لمعارك فيما وراء البحار كما كانت قدرات الأسطول البرتغالى على البقاء بصفة مستمرة فيما وراء البحار كانت لا تبارى من جانب الأسطول العثمانى ·

ولا شك أن تلك القدرات البحرية البرتغالية كانت توحى بأن السيطرة والاحتكار البرتغالى على صفحات المياه الجنوبية وعلى طول طريق رأس الرجاء الصالح ستكون ستطول لعدة قرون · ولكن الذى حدث هو أنه فى الوقت الذى بلغت فيه السيطرة البرتغالية ذروتها فى الثمانينيات من القرن السادس عشر كانت البرتغال قد فقدت فعلا كيانها المستقل وأصبحت تحت حكم فيليب الثانى ملك أسبانيا ، الأمر الذى جعل مصالح البرتغال فيما وراء البحار فى المرتبة الثانية بالنسبة للمصالح الأسبانية · بل لقد أهملت المصالح البرتغالية وتدهورت ، ولا شك أن هزيمة الأسطول الأسبانى (الارمادا) فى ١٥٨٨ أمام الأسطول الانجليزى كان عاملا حاسما فى تدهور القوتين الأسبانية والبرتغالية معا ، وفتح طريق رأس الرجاء الصالح الى الشرق الأقصى أمام القوى البحرية الأوروبية الناشئة وعلى رأسها هولندا وانجلترا وفرنسا وعلى يد الهولنديين والانجليز وضع حد للتفوق البرتغالى فى المياه الإسلامية الجنوبية ، وتم ذلك فى أوائل القرن السابع عشر وخاصة فى أعقاب التعاون الفارسى الانجليزى ضد البرتغاليين ذلك التحالف الذى أدى الى طرد البرتغاليين نهائيا من هرمز فى ١٦٢٢ م ·

الفصل الرابع

الدولة العثمانيـــة
فى الذروة

ظهرت خلال عصر النهضة مجموعة من العمالقة في العلاقات الدولية ، بل وفي بناء الدول واقامة الامبراطوريات سواء في الغرب الأوروبي أو في الشرق الإسلامي . ونذكر منهم على سبيل الأمثلة لا الحصر :

- الأمبراطور شارل الخامس : امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك أسبانيا والمستعمرات الواسعة لها في العالم الجديد .

- فرانسوا الأول : ملك فرنسا العظيم الذى كان ينافس شارل الخامس على عرش الامبراطورية ، ويسعى الى جعل فرنسا صاحبة الكلمة المسموعة في أوروبا .

- هنرى الثامن : ملك انجلترا والذى أدخل اصلاحات جوهرية هيأت انجلترا لدور قيادى عالمي استمر من القرن السادس عشر حتى الحرب العالمية الثانية (أى حوالى ثلاثة قرون ونصف) .

وفي الشرق ظهر مع عصر النهضة الأوروبية عمالقة مسلمون من بناة الدول والامبراطوريات من أمثال : سليم الأول ، وسليمان الأول العثماني . والشاه اسماعيل الصفوى ، وعباس الأول في فارس . وبابر وأكبر في الهند .

كانت نظرية التوازن الدولي التى تحكمت في العلاقات الدولية في أوروبا ابتداء من الحروب الإيطالية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر قد تحكمت كذلك في أحوال الشرق العربي ، حيث ظهرت في الشرق العربي دولة عثمانية امبراطورية تستطيع منازلة البرتغاليين وحماية البلاد الإسلامية منهم ، بينما فقدت فارس القدرة على اقامة امبراطورية لها في الشرق العربي إلا لفترات محدودة للغاية ولم يعد في استطاعتها ان تصل الى البحر المتوسط فقد أغلق العثمانيون الطريق أمام الفرس اغلاقا .

وبينما كانت الدولة الفارسية الشيعية الصفوية مستعدة للتحالف مع البرتغاليين ضد الدولة العثمانية ، بل ومع الفرنجة (الدول الأوروبية) لنفس الهدف . كانت الدولة العثمانية تتحالف مع فرنسا بالذات ، على اعتبار أن العدو المشترك لهما هو

شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وكان ذلك مظهرا من مظـــاهر التوازنات الدولية سواء فى الشرق أو الغرب .

والحقيقة ان فرنسوا الأول كانت لديه الاستعدادات لأن يتصرف على النحو الذى يرضى جمهرة المسيحيين الا وهو التشدق باعداد حملة صليبية ضد السلطان العثمانى وضد الإسلام والمسلمين . ولكن التطورات التى وقعت فى أوروبا جعلته يغير من سياسته، من التعاون مع الدول الكبرى الأوروبية صليبيا الى التعاون مع السلطان سليمان القانونى.

فقد كان فرانسوا الأول يسعى الى ما كان يسعى اليه أسـلافه الأقربون ونعنى بذلك ان تكون الولايات الإيطالية تابعة لفرنسا أو على الأقل بعضها. إلا أن الدول الكبرى انزعجت كل الانزعاج من اجتياح القوات الفرنسية لشمال إيطاليا بشـكل يؤدى الى الاخلال بالتوازن الدولى .

وتشكل حلف كبير من الدول الأوروبية كان على راسه الامبراطور شارل الخامس، وانزل هزيمة قاسية بالفرنسيين فى موقعة بافيا ١٥٢٥ التى سقط فيها فرانسوا الأول نفسه اسيرا، وفرضت على فرانسوا معاهدة مدريد ١٥٢٦ تلك المعاهدة التى ضيعت مكاسب ومكانة فرنسا ، وكان من بين شروطها أن يشارك فرانسوا الأول فى حملة صليبية ضد الدولة العثمانية ، هذا بينما كان فرنسوا قد صمم على التخلص من هذه المعاهدة على اعتبار أنها مفروضة عليه تحت حد السيف . وقرر أن يخوض من جديد مواجهة عسكرية وهنا تبين له أن تحالفا يعقده مع السلطان العثمانى يمكن ان يقدم خدمات كبرى خلال الحرب لصـالح فرنســا .

وهكذا بينما كانت معاهدة مدريد تفرض على فرنسوا الأول ان يسـهم فى حملة صليبية على الدولة العثمانية ، قرر فرنسوا الأول التحالف مع السلطان العثمانى ضـد الامبراطورية الرومانية المقدسة العدو المشترك للطرفين .

وقبل أن نخوض فى تفاصيل الدور العثمانى فى العلاقات الدولية حينذاك يجب أن نضع الأمور التالية نصب أعيننا :

١ — أن الدول الأوروبية التى تسعى الى التحالف مع الدولة العثمانية هى فى حقيقـة

الأمر تضمر عداوة صليبيةليس فقط للدولة العثمانية وانما للمسلمين بصفة عامة .

٢ ـ ان نظرية التوازن الدولى التى بدأت تستقر منذ ذلك الوقت هى التى فرضت عدم الالتزام بالأهداف الدينية وأن يؤخذ فى الاعتبار أولا المصالح الجيوبوليتيكية للدولة القومية الأوروبية .

٣ ـ أن التحالفات التى تمت وستتم بعد ذلك بين الدولة العثمانية وفرنسا تقابلها محاولات من جانب الدولة الفارسية للتحالف مع دول أوروبية أخرى الأمر الذى يذكرنا بذلك التحالف أو على الأقل التفاهم بين الدولة العباسية والامبراطورية الرومانية المقدسة فى مواجهة تحالف بين بيزنطة والدولة الأموية فى الأندلس . وهى تحالفات من النوع السياسى الذى يضع الأهداف السياسية فوق الأهداف الدينية . وان كان هذا الموضوع محل جدل وحوار طويل . فالكل فى نفس الوقت لهم أهدافهم الدينية والسياسية وليس من اليسير القول بأنهم غلبوا هذا العامل على ذاك أو العكس .

لقد سعى فرنسوا الأول الى التحالف مع الدولة العثمانية وكان على رأسها أحد عمالقة السلاطين الإسلاميين وهو : سليمان الأول المشهور بسليمان القانونى أو سليمان العظيم . وكان سليمان يمنى نفسه بنصر تتحدث عنه الأجيال ، نصر لا يقل عن فتح القسطنطينية فى ١٤٥٣ ، لقد كان سليمان القانونى يتطلع الى فتح (فيينا) عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة . وفعلا زحف الجيش العثمانى فى ١٥٢٩ وحاصر فيينا ولكن لم يحقق هدفه وان استطاع أن يصبح صاحب الكلمة العليا فى شمال البلقان، خاصة عندما سقطت (بودا) ـ عاصمة المجر ـ فى يد القوات العثمانية فى ١٥٤١ ، وان يصبح سيد البحر المتوسط بفضل الأسطول العثمانى الذى كان يقوده خير الدين باربروسا . فقد روع السواحل الأوروبية وقدم مساعدات عسكرية هامة للجبهة التى كان يحارب فيها الفرنسيون فى منطقة الريفييرا الفرنسية على ساحل البحر المتوسط ، ولقد كان واضحا أن قيادة خير الدين بارباروسا للأسطول العثمانى والعمليات التى قام بها كانت تؤكد تفوقا واضحا على القائد البحرى المشهور أندريا دوريا رغم الأعمال الكبرى التى قام بهـــا .

ان سياسة التحالف مع الدولة العثمانية التى وضعها فرانسوا الأول أصبحت أشبه بالسياسة التقليدية للدولة الفرنسية ، فقد اتبعها — الى حد كبير — كل من هنري الثانى ، وهنرى الرابع ، وريشيلو ، ولويس الرابع عشر • حقيقة كانت هناك بعض الفترات التى تحدث فيها قطيعة بين الدولتين العثمانية والفرنسية ولكن سياسة التفاهم الفرنسي مع الدولة العثمانية كانت هى الأكثر وضوحا ، وذلك لأن العوامل الاستراتيجية هى التى كانت تفرضها على الحاكم فى باريس •

وإذا كان ملوك وحكام فرنسا فى حاجة الى الدولة العثمانية بسبب الصراعات المتتالية فى أوروبا ، فان الدولة العثمانية هى الأخرى كانت ترى أنها فى حاجة الى دولة اوروبية كبيرة تتعاون معها فى مواجهة التطورات هناك • فمن المصلحة الاستراتيجية العثمانية أن يضع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى حساباته باستمرار ان دولتين متحالفتين ضده يقع هو بينهما • وكذلك من مصلحة الدولة العثمانية أن تظل فرنسا مصدر تهديد لأسبانيا حتى لا يتصاعد انطلاق الأخيرة فى عملياتها ضد المسلمين فى شمال أفريقية وبالذات ضد بكلربكية الجزائر وغيرها من ولايات الدولة العثمانية هناك •

ولقد حصلت فرنسا من وراء تلك التحالفات والصداقات مع الدولة العثمانية على مكاسب كبيرة وان شاركتها فيها الدول الأخرى الأوروبية •

فقد عقد فرانسوا الأول مع السلطان سليمان القانونى معاهدة فى ١٥٣٥ وتعتبر هذه المعاهدة الركيزة التى اعتمدت عليها الدول الكبرى فى الحصول على امتيازات أسهمت — فيما أسهمت به — فى انهيار الدولة العثمانية سياسيا واقتصاديا •

وفيما يلى أهم نصوصها :

١ — حق التجارة والمتاجرة فى كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا •

٢ — حرية التنقل والملاحة فى سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة •

٣ — تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة فى الدولة العثمانية •

٤ — الضرائب التى يدفعها الفرنسيون فى الدولة العثمانية هى نفسها التى يدفعها الرعايا الأتراك •

ان سياسة التحالف مع الدولة العثمانية التى وضعها فرانسوا الأول أصبحت أشبه بالسياسة التقليدية للدولة الفرنسية ، فقد اتبعها — الى حد كبير — كل من هنري الثانى ، وهنرى الرابع ، وريشيلو ، ولويس الرابع عشر • حقيقة كانت هناك بعض الفترات التى تحدث فيها قطيعة بين الدولتين العثمانية والفرنسية ولكن سياسة التفاهم الفرنسى مع الدولة العثمانية كانت هى الأكثر وضوحا ، وذلك لأن العوامل الاستراتيجية هى التى كانت تفرضها على الحاكم فى باريس •

وإذا كان ملوك وحكام فرنسا فى حاجة الى الدولة العثمانية بسبب الصراعات المتتالية فى أوروبا ، فان الدولة العثمانية هى الأخرى كانت ترى أنها فى حاجة الى دولة اوروبية كبيرة تتعاون معها فى مواجهة التطورات هناك • فمن المصلحة الاستراتيجية العثمانية أن يضع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى حساباته باستمرار أن دولتين متحالفتين ضده يقع هو بينهما • وكذلك من مصلحة الدولة العثمانية أن تظل فرنسا مصدر تهديد لأسبانيا حتى لا يتصاعد انطلاق الأخيرة فى عملياتها ضد المسلمين فى شمال أفريقية وبالذات ضد بكلربكية الجزائر وغيرها من ولايات الدولة العثمانية هناك •

ولقد حصلت فرنسا من وراء تلك التحالفات والصداقات مع الدولة العثمانية على مكاسب كبيرة وان شاركتها فيها الدول الأخرى الأوروبية •

فقد عقد فرانسوا الأول مع السلطان سليمان القانونى معاهدة فى ١٥٣٥ وتعتبر هذه المعاهدة الركيزة التى اعتمدت عليها الدول الكبرى فى الحصول على امتيازات أسهمت — فيما أسهمت به — فى انهيار الدولة العثمانية سياسيا واقتصاديا •

وفيما يلى أهم نصوصها :

١ — حق التجارة والمتاجرة فى كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا •

٢ — حرية التنقل والملاحة فى سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة •

٣ — تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة فى الدولة العثمانية •

٤ — الضرائب التى يدفعها الفرنسيون فى الدولة العثمانية هى نفسها التى يدفعها الرعايا الأتراك •

الفصل الخامس

خصائص الدولة العثمانية

قامت الدولة العثمانية منذ نشأتها على نظرية الجهـاد · الذى يعطى للقائمين به فرص متابعته بالقوى البشرية والمادية ، فالسلطة العليا للمجاهد اى للعثمـانى أو من يختاره العثمانى ·

وكان للسلطان مجلس «الديوان الهمايونى» ولكنه مجرد مجلس استشارى،والمكانة الأعلى بعد السلطان تتمثل فى الصـدر الأعظم « الوزير الأول » وشيخ الإسلام والمفتى والثلاثة ينفذون أوامر السلطان وكان هناك وزراء ولكن دون ان يشكلوا مجلس وزراء · ومنصب شيخ الإسلام والمفتى كان يتولاه الأحرار ، أما منصب الصدر الأعظم والوزراء فكانوا غالبا عبيدا تحرروا ، وكانت الإدارة المركزية فى العاصمة استانبول وكذلك الولاة كانوا من أصول تركية أو مستتركة ·

وقد كان التعليم يجرى على الطريقة الإسلامية فى المساجد وفى المدارس ، كما أن القضاء كان على الطريقة الإسلامية وعلى المذهب الحنفى ·

واشتهر النظام الإدارى العثمانى بتسجيل الوقائع الأمر الذى جعل العهد العثمانى غنيا بالوثائق على عكس العهد المملوكى فى مصر والشام ·

ويعتبر النظام العسكر العثمانى من اقوى مؤسسات الدولة العثمانيـة ولذلك سنلقى نظرة عليه ·

ان القوات المسلحة دائما هى التى ينسب اليها النصر او الهزيمة ، والحفاظ على تمامية الدولة أو فقد أجزائها ، واننا لنعتقد أن القوات المسلحة لا يمكنها أن تحرز نصرا أو تخسر معركة إلا من منطلق المناخ العام للدولة الذى يهىء لهذه القوات امكانيات النصر واسباب وظروف الهزيمة ·

وتلعب القيادة العليا دورا رئيسـيا فى احراز النصر وافتقاده خلال العصـور السابقة · ولقد كانت الدولة العثمانية فتية قيض لها العديد من السلاطين والقواد الذين كانوا على مستويات عالية من القيادة والإدارة ·

وكانت القوات المسلحة العثمانية مشكلة – على ما كانت عليه الحال فى تلك العصور – من الجيش والأسطول . ونظرا لطبيعة المجتمع التركى المتميز فى مواطنه الأولى بالفروسية وكذلك فى الأناضول فقد كانت فرق (الخيالة) هى عماد القوات المسلحة العثمانية ، حتى بدت للسلاطين الأول أنها مرتبطة بالاقطاعات التى تمنح للسباهية (الخيالة) وأنه يمكن تشكيل جيش خاص من (العبيد) بجمع الصبية المسيحيين من البلاد المفتوحة حديثا فى البلقان ، وهذا ما عرف باسم (الديوشيرمة) ، وكان يختار اللائقين بدنيا وذهنيا واعدادهم فكريا واداريا فضلا عن الاعداد الدينى الإسلامى ليصبحوا حرسا للسلطان ثم أصبحوا من بعد أقوى من الجيش العثمانى وعرفوا بالجيش الجديد (الإنكشارية) وهو مصطلح محرف عن المصطلح التركى (يكى جيرى) وتنطق (ينى شرى) .

ونظرا للعناية الفائقة بالإنكشارية وتكوينهم البدنى والذهنى المتميز فقد اثبتوا انهم خيرة المقاتلين .

وكان هؤلاء الإنكشارية قد رصدوا أنفسهم للجهاد ، فلا يتزوجون ولا يختلطون بالمجتمع ويستشهدون فى سبيل الله ويضحون بأنفسهم دفاعا عن أبيهم السلطان .

لقد كان مجرد سماع الأعداء باسمهم كفيل بان يثير الرعب فى صفوفهم ولكن هذه الصورة الرائعة انقلبت الى العكس تماما عندما ضعف وتدهور هذا النظام واصبحت كلمة (إنكشارية) من كلمات السخرية والاستهزاء خلال القرن التاسع عشر وما بعده .

أما الأسطول العثمانى فانه تكون أساسا لمواجهة البندقية حين تصادمت المصالح العثمانية فى البلقان مع المصالح البندقية هناك ، وكانت البندقية صاحبة أسطول قوى .

وقبل هذه المواجهة العثمانية مع البندقية كانت العمليات التوسعية العثمانية تجرى عن طريق القوات البرية سواء فى البلقان أو فى فارس والمشرق العربى ، بل إن القوى الرئيسية البلقانية التى كانت تقاتل العثمانيين كانت (برية) ونذكر منها الصرب والمجر ، وكانت البندقية والقسطنطينية هما القوتان الرئيسيتان اللتان تتطلبان من العثمانيين استخدام الأسطول ضدهما فى معارك البلقان .

على أى حال اتجه العثمانيون الى بناء أسطول ويرجع اليه الفضل فى طرد البنادقة من معظم السواحل الغربية للبلقان ، وفى سقوط القسطنطينية فى يد السلطان محمد

الفاتح وفى طرد فرسان القديس يوحنا من رودس (١٥٢٢) وفى دعم الحصار الذى فرضه فرانسوا الأول - حليف السلطان سليمان القانونى - على نيس فى ١٥٤٣ ، وفى فتح وقبرص وكريت وفى العمليات البحرية التى قام بها خير الدين باربروسا على طول السواحل الجنوبية الأوروبية ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة ، كما بعثت الدولة العثمانية حملات الى المياه الإسلامية الجنوبية (الخليج العربى - البحر الأحمر - البحر العربى - المحيط الهندى) ضد البرتغاليين .

ومثلما أصبحت الإنكشارية أضحوكة العالم فى القرن التاسع عشر ، أصبح الأسطول العثمانى شيئا تافها لا يعتد به . وذلك يرجع الى العوامل الرئيسية التالية :

١ - كانت تعوز الأتراك العثمانيين الخبرة البحرية .

٢ - عدم بناء السفن الشراعية المحيطية التى كانت الطراز المتقدم المتفوق حينذاك .

٣ - سوء استخدام الاعتمادات المالية المخصصة للأسطول .

على أن المواجهة بين اسطول الدولة العثمانية ، واسطول البندقية وحلفائها فى موقعة ليبانتو فى ١٥٧١ وهزيمة الأسطول العثمانى تعتبر بداية لخروج الدولة العثمانية من قائمة الدول البحرية الكبرى ، وفقدت بذلك سلاح العصر حينذاك .

وخلال الفترة الواقعة بين وفاة السلطان سليمان القانونى وتولية سليم الثالث العرش فى ١٧٨٧ كان البلاط العثمانى والدوائر الحاكمة فى الدولة قد اصيبت بفساد شديد . فخلال هذه الفترة حكم حوالى سبعة عشر سلطانا ، كان منهم ثلاثة فقط على نوع من الكفاءة هم :

١ - محمد الثالث (١٥٩١ - ١٦٠٣) .

٢ - مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) .

٣ - مصطفى الثالث (١٧٥٦ - ١٧٧٣) .

وكان السلاطين الآخرون لا يمارسون الحكم إلا بواسطة وزراء كانوا أحيانا مثالا للفساد . واحيانا أخرى مشفقين على الدولة من الانهيار ، واحيانا ثالثة كانوا يقومون باصلاحات تعطى للدولة حيوية تدير بها أمورها لعدة سنوات . ولكن دون الاقدام على اصلاحات جذرية تنقذ الدولة من التخلف .

كان من أشد المهازل الدموية للبلاط العثماني ، مصارع أبناء السلاطين بيد الأخ الذى يتولى العرش دونهم ومن ذلك أن محمد الثالث خنق اخوته التسعة عشر ٠

وكثيرا ما كان يصل الى العرش صبية صغار أو سلاطين قصار العمر ٠ فقد تولى كل من أحمد الأول وعثمان الثاني العرش فى سن الرابعة عشر ومحمد الرابع كان فى السادسة من عمره عندما تولى العرش ٠ ومن السلاطين من كان معتوها من أمثال مصطفى الأول ٠ ولأول مرة تثور قطاعات من الجيش وتقتل السلطان عثمان الثانى ، وكم من سلطان عزل من منصبه بمهانة وتحقير ٠

وكان عدد من السلاطين قبل أن يتولوا العرش مجرد سجناء فى قبو مظلم ، وكانت تنعكس هذه الفترة المظلمة على سلوكهم خلال توليهم الحكم ، فمنهم من كان شديد الاسراف فى الأبهة والقتل ، ومنهم من شغل بالقنص والنساء والشراب والسطو على مالية الدولة واخذ الرشوة وبيع المناصب . وكان لنساء البلاط تأثير قوى على السلاطين ، وخاصة السلطانة الوالدة التى كانت حريصة على الاحتفاظ بالملك لأولادها ٠ ولقد جاء وقت فى القرن السابع عشر كانت فيه الدولة تحت حكم سيدات البلاط ٠

وأصيبت الهيئات الحاكمة أيضا بالفساد ، اذ تولى المناصب العليا من لا تجربة له، وفسدت الذمة فى الإدارة ، وأهمل السلاطين عقد الديوان الذى اقتصر على المراسيم والأعمال المظهرية ، بل ان القضاء أيضا أصبح يسير بالرشوة لا بالعدل ٠

وتدهور نظام الإنكشارية حيث اصبح نظاما باليا لا يتمشى مع العصر الحديث ٠ ويمكن أن نوجز العوامل والظروف التى أدت الى ضعف وتدهور هذا النظام فيما يلى :

١ — ان القاء نظرة سريعة على الحروب الطويلة المتتالية التى خاضها العثمانيون فى البلقان خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والتى خاضوها ضد الدولة الفارسية خلال القرنين سالفى الذكر يجد أن الخسائر فى الأرواح والأموال كانت مرتفعة للغاية ٠

٢ — كان ارتفاع الخسائرفى الأرواح قد صاحبه فقد اجزاء متتالية من الأراضى البلقانية التى كانت تنفذ فيها ضريبة (الديو شرمة) ، واخذ السلاطين يقللون من استجلاب

أبناء المسيحيين لادخالهم فى الجيش ، ولهذا كان العثمانيون يضعفون بعملهم هذا الأساس الذى قام عليه النظام الإنكشارى ٠

٣ ــ حيث أن الإنكشارية كانوا أقوى قوة ضاربة فى الجيش العثمانى شعر هؤلاء بمكانتهم وقدرتهم حتى اصبحوا يطلبون من كل سلطان جديد مبلغا من المال ، وإن لم يدفع السلطان لهم أثاروا الفتن عليه ٠

٤ ــ لم يعد الهدف العام الإسلامى واضحا أمام القوات الإنكشارية التى تقيم مدة طويلة فى قلعة أو فى مدينة نائية ، وفقد الإنكشاريون معنوياتهم بسبب ضعف نظم التدريب وعتاد الحرب،ولم تعد للسلطان تلك القداسة التى شب عليها الإنكشاريون من قبل ٠ وأصبح هؤلاء الإنكشارية أشد عناصر الفساد فى المدن التى يقيمون فيها ، حتى لقد هم بعض الولاة بالقضاء عليهم والتخلص منهم ٠ اذ أصبحوا عناصر فوضى وابتزاز للأموال ٠

٥ ــ كان من المعتاد أن يرابط الإنكشارية فى قلاعهم وثكناتهم لمدة معينة ، ثم يستبدلون بقوة أخرى ، ولكن الذى حدث ــ خاصة فى القرن الثامن عشر ــ هو استقرار الحاميات فى معاقلها ٠ وبسبب ضعف الدولة العثمانية ، ولقيام قوات الإنكشارية بمسئوليات جمع الضرائب ، اندمجت هذه القوات تدريجيا فى حياة المدينة ، وغادر رجالها ثكناتها وعاشوا حياة عادية ، واصبح لهم أسراتهم ، وأصبحوا عنصر اضطرابات مستمر فى الولايات وليس عنصر دفاع عنها ٠

٦ ــ اصبح نظام الإنكشارية نظاما للارتزاق ٠ فقد كان لكل ضابط أو جندى تذكرة يحصل بمقتضاها على (علوفة) نقدية او عينية ، ولما ضعفت الدولة العثمانية وقصرت حكومة الباب العالى فى دفع مرتبات الجند تولى هؤلاء تحصيل حقوقهم بالقوة ، أو بيع تذاكرهم لمن يدفع قيمتها ، والشارى يصبح صاحب التذكرة ٠ وبالتالى يصبح إنكشاريا ، حتى لقد وجد فى قوائم الإنكشارية آلاف من أصحاب الحرف والسيدات ٠

كما فسد نظام الإنكشارية فسد نظام السباهية (الفرسان) العثمانى ٠ وكان هذا النظام يقوم على أساس الاقطاعات الزراعية للسباهية،ولكن هذه الاقطاعات أصبحت

تعطى حتى للمحظيات سيدات القصر وموظفى الدولة ، دون أن يقدموا عنها فرسانا للدولة .

وفى مجال الأرض والضرائب لجأت الدولة الى نظام عقيم عرف باسم (الالتزام) ، أى أن يلتزم رأسمالى من رجال الدولة دفع الضريبة السنوية عن مساحة من الأرض يتولى هو من بعد ذلك جمع الأموال من اهلها ، وبالتالى يعتصر الملتزم الفلاح وأرضه ، بل أصبحت الولاية بأسرها تعطى التزاما للوالى فى مقابل مبلغ يدفعه للسلطان ، وظهر الدربيكات أى أصحاب الوديان الواسعة التى يعاملونها وكأنها ملك خاص لأسرهم .

وحيث أن الدولة العثمانية كانت قد تركت الخدمات الاقتصادية والاجتماعية لأهل البلاد انفسهم ، وان هؤلاء لم يقوموا بهذه الخدمات ، فقد تدهور التعليم والمؤسسات الدينية ، وطغى العربان على الأراضى الزراعية ، وهوى تعداد السكان فى المدن بسبب الأوبئة .

ثم ان الامبراطورية العثمانية حافظت على تكتلاتها الداخلية العنصرية بينما كانت أوروبا تسير بسرعة نحو الدولة القومية المركزية المتجانسة . ولم يعد أسلوب الحكم العثمانى ولا اسلوب الحياة اليومية قادرا على الوقوف أمام الخصوم الأوروبيين .

ونظرا لضعف قوة الدولة فى الولايات نمت العصبيات المحلية فى طول البلاد وعرضها ، ومما ساعد على ذلك أن سياسة الباب العالى (الملية) والعصبية كانت تضع كل ملة أو عصبية تحت حكم زعيم يكون هو المسئول عنها امام السلطات العثمانية ، الأمر الذى حفظ للقوميات قوميتها وطابعها ، ولم يتبع الأتراك سياسة (التتريك) أو هضم القوميات . ولهذا ظلت الأسس القومية سليمة لدى العناصر التى حكمها الأتراك . وعندما تطلعت هذه القوميات الى الاستقلال عن الدولة العثمانية وجدت فى قوميتها صلابة كافية للصمود أمام القوات العثمانية ، وفى البلاد العربية ظهر العديد من الأسرات المحلية الحاكمة (١) .

---

(١) آل جنبلاط فى حلب ، آل العظم فى دمشق وطرابلس وحلب وصيدا ، آل معن، وآل شهاب فى لبنان ، ظاهر العمر فى فلسطين ، احمد باشا الجزار فى عكا ، الأشراف فى

وبذلك تكون الحكومة العثمـــانية قد فقدت سيطرتها المباشرة على الولايات ، وأصبحت الولايات مصدر متاعب كبيرة للسلطان ولبابه العالى لتوالى تمردها من وقت لآخر ضد السلطان بغية الامتناع عن تأدية التزاماتها نحو السلطنة العثمانية ، والاكتفاء فقط بالتبعية الأسمية ، وبينما كانت الدول الكبرى تنزل الهزيمة بالدولة العثمانية سنة بعد اخرى ، وكانت الثورات الداخلية لا تهدأ ، كان الفساد يزداد سوءا فى الداخل .

فلماذا لم تسقط الدولة العثمانية بعد أن اصيبت بهذه الآفات القاتلات ؟ هنـاك عدة اسباب أعطت للدولة العثمانية عمرا طويلا رغم هذا الضعف الشديد :

١ — كانت الدول الكبرى الأوروبية تكره الدولة العثمانية وكانت روســـيا (١) تريد القضاء عليها ولكن كانت هناك دول اخرى تخشى من أن تصبح روسيا من القوة لدرجة تضر بمصالح الدول الأوروبية الأخرى . ومن هنا أعطى التنازع الأوروبى للدولة العثمانية فرصا طويلة للبقاء .

٢ — كان الوالى الذى يثور ضد السلطان يجد بجواره والى يحد من نموه (٢) فكان كل والى يتطلع الى السلطان ويخشى جاره .

٣ — كان الإسلام أساس الدولة ، وكانت الدولة العثمانية تمثل الدولة الإسلامية العامة الأمر الذى اوجد نوعا من الهدف العام يربط بين أجزاء الدولة الممزقة . وكان هناك رجال مصلحون يوجهون الانذار بعد الإنذار لانقاذ الدولة من الانهيـــار . وهناك من قارن بين ما أصبحت عليه الدولة وما كانت عليه أيام سليمان القانونى، حتى لقد قال أحد قضاة الأتراك فى القرن السابع عشر أن الوزراء هم أعـــداء الدولة والدين . ولكن ظهر وزراء عظام استطاعوا أن يدافعوا عن الدولة عادية السقوط بل ورفعها الى مـــكانة اعلى .

★ ★ ★

الحجاز ، آل سعود فى قلب الجزيرة ، الأئمة الزيدية فى اليمن ، اليعاربة ثم البوسعيد فى مسقط وعمان ، آل آفراسياب فى البصرة ، المماليك فى العراق ، الامارات الكردية المتعددة فى شمال العراق ، المماليك فى مصر ، الأسرة القرمنلية فى طرابلس الغرب ، البايات فى تونس ، الدايات فى الجزائر .

(١) نمت روسيا بسرعة منذ أيام بطرس الأكبر وأصــبحت هى والامبراطورية الرومانية المقدسة تتناوبان الحرب ضد الدولة العثمانية .

(٢) والى بغداد يراقبه والى الموصل ، ووالى دمشق يراقبه والى حلب ، وهكذا .

كانت أحوال الدولة معرضة للتدهور أكثر لولا أنها رزقت — خلال هذه الفترة من ضعف السلاطين — بعدد من الصدور العظام الذين حفظوا لها قوتها وقدرتها ، وبوجه خاص عدد من الصدور العظام من أسرة (كوبرلى) التى حكمت الدولة العثمانية تقريبا بين ١٦٥٦ — ١٧١٠ م • ومن أبرز رجالاتها (محمد كوبرلى) الذى كان يشغل فى أول حياته العملية مناصب متواضعة • ثم ارتفع بكفاءته الى مناصب الحكم والإدارة فى دمشق وطرابلس وبيت المقدس ، ثم تولى الصدارة العظمى ، واعطى من السلطات ما لم يتمتع بمثلها قبله أحد • وقد استخدم محمد كوبرلى سلطاته فى الضرب على أيدى العابثين بمصالح الدولة من رجال الإنكشارية أو السباهية أو رجال الدين ، وخلفه ابنه أحمد فى (١٦٦١) ، وتوالى من بعد عدد من رجالات هذه الأسرة [١] ، الذين اعطوا للدولة القدرة على الصمود أمام القوى المعادية المتعاظمة •

كان الصراع بين السلطنة العثمانية وبيت الهابسبورج على المجر متتاليا لا يهدأ الا لفترة قصيرة • وكانت كفة الامبراطورية الرومانية المقدسة هى الراجحة فى الغالب ، وبدأت أكبر الهزائم التى منى بها العثمانيون فى موقعة سان جوتار فى (١٦٦٣) ، ولم يخفف من وقعها سوى الانقسامات الشديدة فى جبهة الهابسبورج ، وسوى وجود أحمد كوبرلى فى الصدارة العظمى الذى دفع بالجيش العثمانى حتى أسوار (فيينا) فى (١٦٨٣)• وكان المدافعون عن (فيينا) يمثلون لونا من التكتل الصليبى ، وكان أمل الأتراك فى النصر يتركز على امتناع البولنديين عن المشاركة فى الدفاع عن فيينا ، وكان دبلوماسيو لويس الرابع عشر هم الذين قاموا بتلك المحاولات دون جدوى ، وانتهت المعارك بهزيمة الجيش التركى •

وبعد ذلك تراجع الأتراك باستمرار ، وأخلو (بودا) سبتمبر — ايلول ١٦٨٦ حتى وصلوا الى نهرى الساف والدانوب ، ثم تخلصت هنجاريا (المجر) من الاحتلال التركى بعد كفاح دام قرن ونصف قرن تقريبا• وحاولت جيوش الامبراطورية الرومانية المقدسة أن تتابع تقدمها إلا أن مصطفى كوبرلى — الصدر الأعظم — صدها الى ما وراء الساف والدانوب • ولم تنته سلسلة هذه الحروب الا بمعاهدة كارلوفينز فى ٢٦ يناير — كانون الثانى ١٦٩٩ التى وضعت المجر تحت حكم هاسبورج وتلتها حرب كانت هزيمة للأتراك

---

(١) أبرزهم : مصطفى وحسين ونعمان كوبرلى •

الذين وقعوا معاهدة جديدة هى معاهدة باساروبتز فى ١٧١٨ واصبحت (باجـــراد) بمقتضاها تابعة للنمسا • وتوالى ضغط الامبراطورية الرومانية المقدســة على الدولة العثمانية فى البلقان طوال القرن الثامن عشر ، ولكن دون الحصول على مكاسب جوهرية كتلك التى حصلت عليها من قبل ، وتمثل الحرب التى وقعت بين الدولتين فى ١٧٨٨ آخر حرب بينهما فى القرن الثامن عشر •

وكانت الامبراطورية الرومانية المقدسة قد دخلت هذه الحرب كحليف لروسيا فى حربها ضد العدو اللدود لها الدولة العثمانية ، وانتهت هذه الحرب بصلح سستوفا بين الأتراك والنمساويين سنة ١٧٩١ •

أما العلاقات بين الأتراك والروس حتى هذا التاريخ فكانت قد تحولت الى شبه أزمات متتالية منذ أيام بطرس الأكبر،على أن روسيا ظهرت أيام كاترين الثانية كقـوة قادرة على أن تملى مآربها على الدولة العثمانية التى ظهر عليها الضعف فعلا •

كانت كاترين الثانية ذات طموح كبير ، وهى التى عرفت كيف تقتسم بولنـدا مع مع النمسا وبروسيا ، وتطلعت الى تقويض الدولة العثمانية ، وكانت خططها فى هـذا الصدد بعيدة الأهداف متطورة التنفيذ • فقد عزمت على ضرب العثمانيين فى أكثر من جبهة بل وفى أماكن كان من المستبعد جدا أن يصـــل اليها الروس ، ففى الوقت الذى زحفت فيه القوات الروسية ضد العثمانيين فى الجبهات البرية التقليدية ، بعثت بأسطولها ليدور من البلطيق حول أوروبا الى البحر المتوسط ليتعاون هناك مع القوى الثائرة ضد السلطان العثمانى من أمثال ظاهر العمر فى فلسطين وعلى بك الكبير فى مصر ومنصـور الشهابى فى لبنان • وقد قام هذا الأسطول فعلا بعدة عمليات بحرية ، وضرب فيما ضرب بيروت ، وتعاون مع العناصر البلقانية الثائرة على السلطان العثمانى ، وانتهت هـــذه الحرب بمعاهدة مذلة عرفت باسم معاهدة كوجك قينارجى ١٧٧٤ •

بمقتضى معاهدة كوجك قينارجى حصل الروس على مكاسب كبيرة للغاية :

١ ـ أصبح القرم تحت يد الروس اسميا ولن يلبث أن يصبح تحت يدهم فعليا •

٢ ـ أن تصبح روسيا احدى الدول الأكثر تفضيلا من حيث المعاملة أى تحصل على أى امتياز تحرزه دولة أخرى أى أصبحت من الدول المتمتعة بالامتيازات •

. . ومعاهدات الامتيازات التى بدأت فى ١٥٣٥ أصبحت ذات طابع آخر فى أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر والعشرين . كانت أولى هذه المعاهدات قد عقدت بين تركيا وفرنسا فى ١٥٣٥ فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية فى ذروة قوتها وقد حصلت كل من بريطانيا (١) والامبراطورية الرومانية المقدسة وغيرها من الدول الأوروبية الكبرى حينذاك على معاهدات مماثلة أو مؤكدة على هذه الامتيازات. وكان حصول روسيا على معاهدة ١٧٧٤ بداية استغلال معاهدات الامتيازات بشكل يتعارض مع سلامة الدولة العثمانية ، حيث أن ضعف الدولة العثمانية أعطى للدول الأوروبية - استنادا الى تلك المعاهدات - فرصة التدخل فى أمور الدولة العثمانية الداخلية بحجة حمـــاية الرعايا المسيحيين فيها أو عن طريق منح الحماية لأعداد كبيرة من رعية السلطان او اســتغلال مواد تلك المعاهدات فى منع الرعايا الأتراك من استرداد حقوقهم من التجــار والأجانب المعتمدين على تأييد القناصل . بل لقد فتحت هذه المعاهدات البلاد العثمانية أمام التجار الأجانب بشكل اضر كثيرا جدا بمصالح التجار الوطنيين . واصبحت معاهدات الامتيازات سيفا مسلطا على رقاب الأتراك فى فترة ضعفهم .

وتوالت الحروب بين الدولة العثمانية من جهة والدولتين الروسية والنمساوية من جهة أخرى ، وتوالى تراجع الدولة العثمانية فى البلقان بصفة خاصة .

كان البلقان أرضا معادية فعلا للأتراك والمسلمين . وكان سوء الحكم عاملا جوهريا فى تعميق هذه الأزمة الدينية بين المسلمين والبلقانيين . ولكن الظلم الذى كان يقع على الناس فى البلقان كان يصيب المسلمين والمسيحيين على حد سواء ومن ذلك ان الإنكشارية كانوا يضطهدون المسلمين وكذلك الرعية المسيحية ، فكانت الثورة ضد هؤلاء الإنكشارية عنيفة ودموية خلال تلك الفترة ، وكانت الثورة بوضوح موجهة ضد الفساد والإنكشارية وليس ضد الحكومة العثمانية نفسها .

وبعث الشعب الصربى بمندوبيه الى الباب العالى ليعرض شكواه عليه ، وكانوا فى

---

(١) تعتبر معاهدتها مع تركيا فى ١٦٧٥ اساس التمتع بهذه الامتيازات ، كمــا أن معاهدة ١٥٣٥ أكدت فى ١٧٤٠ واعتبرت فرنسا هذه المعاهدة الأخيرة معاهدة الامتيازات لفرنســـا .

نفس الوقت يكسبون معاركهم ضد الإنكشارية ، ونظرا لماطلة الباب العالى فى تسوية المشكلة قوى الاتجاه نحو العمل على الاستقلال لصربيا ، خاصة وأن روسيا كانت تؤيدهم بدرجة اوضح بكثير من تأييد النمسا لهم . وادى ذلك الى ان تازمت العلاقات بين السلطان العثمانى وقيصر روسيا . وحيث ان القيصر كان بصدد حرب ضد الامبراطور نابليون(١)، كان من اليسير على هذا الامبراطور أن يكسب تحالف السـلطان ، ولم تلبث أن وقعت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية . ولكن كان نابليون يسعى الى كسب القيصر ، حتى ولو كان هذا على حساب حليفه الشرقى السلطان العثمانى ، وحدث هذا فعلا فى تلست ١٨٠٧ .

ولقد استمرت الحرب بين الأتراك والروس ودارت المعارك بعنف فى بلاد الصرب ، ولم تلبث خطط نابليون الأول أن ازعجت القيصر ، وادى هذا الى أن يتصالح مع السلطان فى ١٨١٢ فى معاهدة بوخارست وهى نفس السنة التى غزا فيها نابليون روسـيا ، وحصلت الصرب على نوع مخفف من الحكم الذاتى فى تلك المعاهدة ، ولكن نصـوص المعاهدة كانت غير محددة الأمر الذى ادى الى تجدد القتال بين الطرفين التركى والصربى مرة اخرى ، وكانت كفة الأتراك هى الراجحة بسبب انشغال روسيا فى مقاومة الغـزو النابليونى ، وعدم قدرة النمسا (١) المهيضة الجناح على التحرك الى جانب الصرب . إلا ان المقاومة الصربية المتفرقة ظلت موجودة حتى اعيد النظر فى معاهدة بوخارست فى ١٨٢٦، ثم فى ١٨٣٠ بعد هزيمة الأتراك امام الثورة اليونانية والتدخل الأوروبى ، وحصل الصرب على إمارة وراثية ومجلسين اعطاها شكل الحكم الذاتى بوضـوح وتولى (ميلوش) أول إمارة صربية فى نوفمبر — تشرين ثانى ١٨٣٠ فكان ذلك بداية حصـول الصرب على الاستقلال التام الذى ستفوز به فى مؤتمر برلين ١٨٧٨ .

على ان الشعب البلقانى الذى استطاع ان ينتزع من الأتراك استقلاله التام هـو الشعب اليونانى .

---

(١) انظر عبد العزيز نوار وعبد الحميد البطريق : التـاريخ الأوروبى الحديث ، ص ٤١١ وما بعـدها .

(١) كانت قد تلقت هزائم شديدة على يد نابليون الأول .

★ ★ ★

الفصل السادس

ازمات الدولة العثمانية منذ أوائل القرن التاسع عشر
حتى مؤتمر برلين

لقد تعرضت الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر لسلسلة من الأحداث كانت تؤكد الواحد منها بعد الأخرى أن الدولة العثمانية لم تعد دولة قوية وانما يمكن أن تصبح هدفا للتوسع والاستعمار وكانت الحملة الفرنسية على مصر قد أثبتت حين ذاك أن الدولة العثمانية غير قادرة على اخراج الفرنسيين من مصر الا بمساعدة الانجليز .

حقيقة خرج الفرنسيون من مصر ١٨٠١ ولكن الدولة العثمانية مرة أخرى وجدت فى فرنسا الدولة التى يمكن أن تعينها وتساعدها ضد روسيا العدو اللدود للدولة العثمانية ولذلك لم تلبث ان تحسنت العلاقات العثمانية الفرنسية ثم وقعت حرب عثمانية انجليزية ترتب عليها ارسال انجلترا حملة فريزر على مصر ١٨٠٧ أى بعد تولية محمـد على مصر بعامين فقط .

وتمكنت مصر من تحـرير نفسها من هذه الحملة الانجليزية المحـددة ولم يلبث السلطان العثمانى أن طلب من محمد على القضاء على الحركة الوهابيـة فى الجزيرة العربية ، ونفذ محمد على رغبة السلطان ووصلت قواته حتى الخليج العربى ١٨١٨ ثم انسحبت من هناك بينما كان الانجليز يعملون على توطيد أقدامهم هناك فى الخليج العربى

وبينما كان محمد على يسعى الى السيطرة على وادى النيل وتكوين جيش حديث استنجد السلطان العثمانى بمحمد على لانقاذ العراق من الغزو الفارسى الذى وصل حتى حصار بغداد « ١٨٢٠ » كما استنجد السلطان العثمانى بمحمد على لاخماد ثورة كريت واخماد الثورة اليونانية .

كان اليونانيون قد احرزوا تقدما ملحوظا تحت الحكم العثمـانى ، وتمتع رجال الدين اليونان بمكانة كبيرة فى اليونان وفى مختلف أرجاء الدولة العثمانيـة ، وكانوا يشكلون هيئات الاكليروس فى الكنائس البلغارية والصربية والالبانية ، حتى لقد أصبحت هذه الشعوب واقعة تحت سلطات الأتراك المالية والإدارية وسلطات الاغريق فى الشئون الروحية ، وأصبح اليونان سادة التجارة والملاحة ، ونشأت طبقـة من الراسمالية اليونانية المحبة لوطنها ولتاريخها وآدابهم الاغريقية ، وخدم عدد من المثقفين اليونان فى

مناصب الدولة ٠ وأصبحت وظائف الترجمة بالذات احتكارا ليونانيى الفنار ٠ وشعر اليونانيون خلال ذلك أنهم أعلى مكانة وعقلية من الأتراك ، وكانت وراء هذه الاتجاهات دولة كبيرة أرثوذكسية ، وهى روسيا ٠ حتى لقد قيل أن قيصرية روسيا كانت تسعى الى بناء امبراطورية يونانية على حساب الدولة العثمانية ٠

ولقد كانت انتصارات الروس ، وخاصة منذ معاهدة (كوجك قينارجى) ، تثير روح التحرك لدى اليونانيين ، وكان لروح الثورة الفرنسية ونمو الفكر القومى أثره الكبير فى تحرك اليونانيين نحو اهداف قومية وتحررية ٠ خاصة وأن الثورات البلقانية ضد الدولة العثمانية لم تهدأ فى المجر والصرب بل نشبت كذلك ثورات بزعامة قيادات إسلامية مثل على باشا والى (يانينا) ٠

كانت فى روسيا ظواهر قوية تحث اليونانيين على الاعتقاد أنها مستعدة لخوض حرب لانقاذ اليونان من الحكم التركى ، فلقد وصل اليونانى الأصل كابوديستريا الى منصب وزير خارجية فى حكومة قيصر روسيا ، بل مما شجعهم على الثورة أن صحافة أوروبا كانت تتحدث باستمرار عن مجد اليونان الماضى أيام الأغريق وبيزنطة ، وعن مأساتها تحت حكم الأتراك ٠

نمت الحركات الثورية والجمعيات السرية والعلنية اليونانية وانتشرت وأصبحت تشكل قوة ضاربة فى ١٨٢٠ ، وكان ابسلانتى — وهو ابن امير سابق لولاشيا — يتولى من منفاه فى روسيا مهمة الإشراف على تنظيم قوى الثورة ٠ وفى ١٨٢١ ذهب الى ملدافيا وولاشيا على أمل أن يجد مساعدات من يونانييها ، ولكن وجد الانقسام شديدا هناك بين الزعامات ، بل كان الزعماء الرومانيين (١) فى هاتين الولايتين يخشون من قيام حركة هللينية اغريقية لأنهم عانوا كثيرا من تسلط اليونانيين ٠ ولكن فى اليونان كان حظ ابسلانتى أوفر اذ أعلنت الثورة (Evanghelismos) فى ٢٥ مارس ١٨٢١ ٠

من العوامل التى اعطت اليونانيين قدرات عسكرية سريعة وفعالة عملهم — لسنوات طويلة جدا — فى الملاحة البحرية ، واتقانهم المهارات الملاحية وتحويل السفن التجارية الى حربية ، ولهذا كانت الحرب عند الثوار حربا فى البر والبحر ، وكانت تواجه العثمانيين

---

(١) الأفلاق والبغداد أى ولاشيا وملدافيا هما أصل رومانيا الحالية ٠

مصاعب كبيرة لكثرة الجزر المتعددة المتتالية والمنعزلة ، ولكثرة الجبال والوديان والممرات التى اشتهرت بها البلاد اليونانية والتى كان اليونانى يعرف أسرارها وكيف يستخدمها استراتيجيا ضد القوات العثمانية التى وجهت لاخماد ثورته ٠

حقيقة كان من اليسير على الأتراك العثمانيين أن ينزلوا الاضطهاد — ردا على تلك الثورة — بيونانيى الاستانة والأناضول ، ولكن كان اخضاع الثورة يتطلب أمورا أخرى ٠ إذ كانت المعارك فى اليونان أشبه بالمذابح المتبادلة بين الطرفين فى وحشية بالغة ودون تقدير لقوانين الحرب والأسرى ، مثلما حدث عندما استولى الثوار على تريبولتيزا فى ٥ أكتوبر ١٨٢١ إذ ذبحوا حوالى ثمانية آلاف تركى ثأرا لمن قتلهم الأتـــراك ٠ وكانت فظائع الأتراك تثير فى شعراء أوروبا العظام كوامن حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين فكانوا ينشدون شعرا مؤثرا عن فتيات اليونان الضـــائعات بين أيدى الأتراك ، والدمار الشامل الذى أضاع معالم القرى الجميلة فى وديان (خيوس) وعلى هذا الوتر الحساس كان يضرب فيكتور (هوجو) الفرنسى ، ولورد (بيرون) الانجليزى (١) ليبثوا الحمية فى نفوس الشعوب الأوروبية ٠

وكانت الصحافة الأوروبية ، وخاصة الانجليزية — شديدة كل الشدة على الأتراك، ترى فى كل مذبحة يونانية للأتراك نصرا ، وفى كل مذبحة تركية لليونانيين نكبة حلت على اليونان أم الحضارات ٠

وكانت القروض تعقد للثوار فى لندن ، والمؤن ترسل من كافة الموانىء الأوروبية ، والمتطوعون يفدون للمساهمة ٠ لقد كانت حملة صليبية جديدة مقنعة ٠

كان الموقف الأوروبى معقدا فى أول الأمر ازاء الثورة اليونانية ، كانت روسيا تريد التأييد القوى للثورة ٠ ولكنها كانت تخشى الانفراد وحدها اذ فى انفرادها بالمسألة اليونانية اثارة لمخاوف جارتها القلقة النمسا ومخاوف بريطانيا الشديدة الحذر من أى تحـــرك روسى ٠ وكانت روسيا حينذاك عضوا فى الحلف المقدس The Holy Alliance وكانت الدول الكبرى الأوروبية المتعاقدة فى المحالفة الرباعية Quadyuple Alliance (٢) قـــد

---

(١) مرض ومات فى موسولينجى ٠

(٢) عقد الحلفان (الحلف المقدس) و (الحلف الرباعى) ضد عودة فرنســا الى التوسع وضد الفكر الثورى التحررى ٠

نصت على ضرورة عقد مؤتمرات دولية لمواجهة المشكلات الدولية . وكان مؤتمر (فيرونا) [١] قد نجح فى إعطاء فرنسا الضوء الأخضر لضرب الثورة فى أسبانيا وكان هناك اعتقاد شائع أن مؤتمرا على هذا الشكل يمكن أن يقرر تدخلا اوروبيا لصالح الثوار اليونانيين .

وخلال المباحثات بين الدبلوماسيين الأتراك ودبلوماسيى الدول الكبرى ، أكد الأتراك أن الدول الأوروبية تعنى بالتدخل إلى جانب الثوار المسيحيين الواقعين تحت الحكم التركى الإسلامى ، أما إذا ثار مسلمو الهند أو روسيا فلا تتحرك أى من هذه الدول دفاعا عنهم . وكان من المعتقد أن مؤتمر فيرونا سيتخذ قرارا ما ازاء المشكلة اليونانية ، ولكن انفض دون قرار لأن الدول الكبرى كانت تخشى من حرب روسية تركية تؤدى الى تفوق روسى فى البلقان الأمر الذى كان يتعارض مع مصالح النمسا . وكان على رأس حكومة النمسا حينذاك مترنخ زعيم الرجعية المشهور الذى كان يرى فى نجاح الثورة اليونانية تشجيعا لثورات القوميات العديدة التى كانت تتكون منها الامبراطورية النمساوية .

وكان الروس ينظرون الى مستقبل الثورة نظرة تفاؤل ، وكانوا يعتقدون أن الأتراك لن يلبثوا ان يقبلوا مشروعهم الهادف الى تكوين ثلاث امارات يونانية :

١ — اليونان الشرقية : وتتكون من تسالى — بيوتيا — اتيكا .

٢ — اليونان الغربية : من ابيروس وأكرنانى .

٣ — اليونان الجنوبية : تتكون من المورة وكريت . وهو مشروع طموح يعطى اليونانيين أرضا لن يتوصلوا اليها إلا بعد الحرب العالمية الأولى .

إلا أن هذه الآمال الأوروبية فى الانتصار اليونانى تهاوت بسرعة عندما طلب السلطان محمود الثانى من محمد على باشا والى مصر أن يرسل قواته بقيادة ابنه ابراهيم باشا لاخضاع ثورة المورة . وكان محمد على مستعدا للقيام بهذا الدور على اعتبار ان الخطر موجه ضد دولة المسلمين العامة الدولة العثمانية .

كان الجيش والبحرية المصرية قادرة على تصفية الثورة اليونانية ، وبدا هذا واضحا من سرعة اخمادها لثورة كريت ١٨٢٢ وسيطرتها على معاقل الثوار الواحدة بعد الأخرى بسرعة، وانتشرت الشائعات عن أن ابراهيم باشا عزم على اخلاء اليونان من أهلها

---

(١) Verona.

ليحل محلها سكان من العرب . والهبت هذه الشائعات شعوب اوروبا التى نشطت بشدة للعمل ضد النجاح المصرى فى المورة ، وتوافد فرنسيون وانجليز والمان بل ووصلت سفن تابعة للولايات المتحدة الأمريكية الى اليونان تأييدا لها ضـــد الجيش المصرى . ولعب اليونانيون دورهم بمهارة فى هذه الظروف التى بدت فيها قضيتهم خاسرة إذا صـــمدوا وحدهم أمام الجيش المصرى لفترة ليست بالقصيرة،ولكن لم تلبث معاقلهم أن تهاوت تحت ضربات الجيش المصرى المنظم على أسس حديثة ، وكانت تحركاته وأعماله على شكل لم تتعوده أوروبا من الشرقيين من حيث معاملة العدو وفق قوانين الحرب وعدم التعـــدى على العــــــزل .

لقد اصبح اليونانيون فى حاجة الى تأييد أوروبى مباشر لتحقيق اهدافهم ، ولهـذا عرض زعماء منهم عرش اليونان على أمير فرنسى كسبا لفرنسا لجانبهم ، وعرض بعضهم وضع اليونان تحت الحماية البريطانية ، وكان هناك زعماء عديدون يونان يعملون بتوجيه من روسيا . وكانت بريطانيا بالذات ترفض انفراد روسيا بالعمل وحدها ، وترفض أن يتولى فرنسى امارة اليونان ولهذا قرر الانجليز الوصول الى تفـــاهم بين الدول المعنية حول مستقبل اليونان واتفق فى بروتوكول ســـان بطرسبورج فى ٢٣ مارس ــ ٤ ابريل ١٨٢٦ على إعطاء اليونانيين نوعا من الحكم الذاتى فى اطار التبعية الاســمية للسلطان العثمانى.ولكن بعد ذلك بوقت قصير سقطت موسلونجى فى يد الجيش المصرى، وكانت آخر معقل كبير للثوار (٢٢ أبريل ــ نيسان ١٨٢٦) .

وضخم الساسة ووسائل الاعلام الأوروبيين انباء ســقوط موسولنجى ، وكان سقوطها موضوع خطبة (شاتوبريان) فى مجلس النواب الفرنسى ، وندبها (فيــكتور هوجو) بأشعاره وكانت الدعوة واضحة نحو حملة كبرى جديدة لانقاذ اليونان . ولهذا اتجهت كل من روسيا وبريطانيا وفرنسا الى عقد معاهدة لندن فى ٦ تموز ١٨٢٧ التى تقرر فيها تنفيذ بروتوكول ١٨٢٦ وفرضه بطريقة ما على الطرفين العثمانى ــ المصرى واليونانى ، ومن هنا كانت فكرة ارسال الأســاطيل الفرنسية والبريطانية والروسية ومحاصرها الأسطولين المصرىوالتركى فى ميناء نافارين Navarina ، وفعلا ارسلت هذه الأساطيل وحاصرت الأسطولين المصرى والتركى فى هذا الميناء،واتفق على عدم اتخاذ اية اجراءات عسكرية من اى طرف انتظارا لنتيجة المفاوضات الدبلوماسية الجارية حينذاك.

وكل الأخبار والروايات تؤكد ان حادثة اطلاق النار واغراق الأسطولين المصرى والتركى فى ميناء نوارين فى ٢٠ تشرين الأول — أكتوبر ١٨٢٧ على أنها مجرد مصادفة كانت نتيجتها هى غرق الأسطول المصرى والعثمانى ولكن اعتبر ذلك الحادث فى مصلحة روسيا بالذات ، وأحدث ذلك امتعاضا شديدا فى الدوائر السياسية البريطانية • وفى اعتقادنا أن الحكومة البريطانية كانت تريد فرض القيود الشديدة على الأسطولين المصرى والعثمانى وأن القائد الانجليزى كادرنجتون وجد أن من الخير القضاء عليهما حتى تسوى القضية اليونانية بالطريقة التى تريدها بريطانيا ، وهذا ما حدث فعلا •

فضل محمد على بعد ذلك سحب قواته من اليونان وتم له ذلك فعلا ، ورفض أن يشارك السلطان محمود الثانى — الذى كان قد قضى على الإنكشارية فى ١٨٢٦ — فى حربه ضد روسيا • ووجدت الدول الكبرى الأخرى أن الأمور تتحول بسرعة لصالح روسيا ، ولهذا أسرعت فرنسا الى ارسال جيش الى المورة باسم حماية اليونان من القوات المصرية ، وفى الحقيقة لمنع الجيش الروسى من الذهاب اليها تحت ستار مساعدة اليونان على الاستقلال •

ولقد كانت الجيوش الروسية تتقدم بسرعة فى البلقان حتى لقد احتلت أدرنة فى ١٩ اغسطس — آب ١٨٢٩ ، وكانت بعض الدوائر السياسية الفرنسية تريد استغلال هذه الفرصة بالتحالف مع روسيا وبروسيا ضد النمسا وبريطانيا لكى تستطيع من وراء ذلك التخلص من قيود معاهدات باريس ومؤتمر فيينا ١٨١٥ ، ولكن نيقولا الأول — قيصر روسيا — كان يخشى فرنسا تماما ، وكان فى نفس الوقت موقنا أن الجبهة الروسية — الفرنسية أضعف من الكتلة الأوروبية الأخرى ، وأن من الخير له الحصول على مكاسبه بنفسه دون معونة فرنسية ، خاصة وأن السلطان العثمانى محمود الثانى ابدى رغبته فى الوصول الى صلح ثم أن بريطانيا كانت تضغط عليه بشدة لقبوله حتى لا يتعرض السلام الأوروبى للخطر • وفعلا وقع السلطان معاهدة أدرنة مع القيصر فى أيلول — سبتمبر ١٨٢٩ التى اعترف فيها السلطان باستقلال اليونان، وكانت هذه الدولة الجديدة كانت تقتصر على المورة واليونان الوسطى بما فيها موسولنجى وايبويا وجزر الكيكلاديز •

كانت هذه الهزائم المتلاحقة من أيام كوجك قينارجى حتى اســـتقلال اليونان قد ابرزت بوضوح أن الدولة العثمانية بحالتها تلك كفيلة بأن تسقط بين يد أعدائها ، بل لقد ظهرت فى الدوائر السياسية الأوروبية ، وخاصـــة على يد الدبلوماسيين الروس ، مشروعات لاقتسام الدولة العثمانية • وبدا واضحا أنه إن لم تعمل حـــكومة الدولة العثمانية على اعادة تنظيم نفسها على أسس حديثة فمصيرها هو التمزق والاقتسام على مائدة الدول الامبريالية الأوروبية المتربصة بها • ولهذا ظهرت حركة الاصلاح من ابتداء عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٧ — ١٨٠٧) •

الفصل السابع

حركات الاصـــلاح والتنظيمات
فى القرن التاسع عشر

كانت هناك محاولات عثمانية لتجديد شباب الدولة وذلك بالاقتباس من الغرب ، وكانت حضارة الغرب تتسرب بشكل أو بآخر الى الدولة العثمانية ، ولكن بشكل بطىء. ومن ذلك استخدام الطباعة على يد (ابراهيم متفرقة) فى أوائل القرن الثامن عشر وحيث اقتصرت الطباعة على الكتب غير الدينية والشرعية ، ظهر من بعد ذلك عدد من المثقفين العلمانيين من غير رجال الدين •

كذلك وفد عدد من الخبراء الأجانب على الدولة العثمانية ووضعوا خبراتهم فى خدمة العثمانيين من أمثال الفرنسى Bonnval والبارون دى توت Tott •

وكانت الاحتياجات العسكرية تفتح أمام الأتراك بعض مجالات الاقتباس ليس فى العلوم الجديدة فقط ولكن كذلك فى العلوم الطبية وفى تعلم اللغات الأوروبية وخاصة الفرنسية •

وتعتبر الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فترة هزت كافة الأسس التى كان يقوم عليها المجتمع الأوروبى أو الشرقى ، فالثورة الفرنسية جعلت أوروبا تواجه أفكارا جديدة واتجاهات سياسية جديدة ، والحركة الاصلاحية التى سارت عليها الدولة العثمانية منذ سليم الثالث (١٧٨٧ ــ ١٨٠٨) كانت بداية عهد جديد من الاصلاح والتغيير لانقاذ الدولة من الأطماع الأوروبية وسياسة التقسيم التى كانت تنادى بها روسيا ، ومن الضغوط الاستعمارية التى كانت تشنها بريطانيا وفرنسا ، ومن الضغوط العسكرية المتتالية من جانب الامبراطورية النمساوية ، ومن جانب الدولة الفارسية •

ولا شك أن الثورة الفرنسية هزت أفكار سليم الثالث ولكن فكرة الاصلاح والتغيير كانت تمليها ضرورات داخلية أقوى من تأثير الثورة الفرنسية • فعلى يد سليم الثالث كثرت البعثات التركية الى أوروبا ، وشجع التعليم وخاصة العسكرى منه ، وتحدث عن رغبته فى الغاء نظام الالتزام ، ودعا الى انشاء (مجلس مشورة) من كبار الموظفين ، وفعلا عقد مجلسا من هذا النوع ، وطلب من كبار موظفيه أن يكتبوا آراءهم فيما يجب أن

يجرى من اصلاحات لانقاذ الدولة من تخلفها عن ركب الحضارة ، وخاصة من حيث انشاء جيش جديد قادر على دفع العدوان عن الدولة الإسلامية العامة (الدولة العثمانية) ٠

كان سليم يدرك ان الإنكشارية لم يعودوا قادرين على التطور وان النظام الجديد يجب أن ينشأ بعيدا عنهم ، ومن هنا شرع فى وضع النظام الجديد على أسس أوروبية . ولكن الإنكشارية أدركت ان حتفها فى تفوق هذا النظام الجديد . فثارت على السلطان وقتلته فى ١٨٠٨ ٠

نجا محمود الثانى - الذى اعتلى العرش فى ١٨٠٨ - من مصير سلفه سليم الثالث لأنه اختبأ فوق سطح القصر ٠ وعندما تولى السلطنة كان موقفه مزعزعا لأن العلماء والإنكشارية - الذين اسقطوا سلفه - كانوا اقوياء وبالمرصاد للمحاولات التى تبذل لاصلاح الدولة ٠ وأما سلطة محمود الثانى خارج العاصمة فكانت هى الأخرى ضعيفة للغاية ، إذ كانت حكومات العصبيات فى الولايات قد شلت تدخل الباب العالى فى أمورها٠

كان محمود الثانى يضمر الاصلاح ، وكان يبحث عن وسيلة تمكنه من القيام به دون أن يثير أعداء الاصلاح ، ولذلك كان يتلمس طريقه ببطء ٠ بل كان يهدف اولا الى أن وطد سلطته فى داخل البلاد لكى يفرض خطته الاصلاحية فرضا ، وحين عزم على تحقيق هذا الهدف واجه ازمات فى منتهى التعقيد والخطورة ٠ ويمكن ان نحدد الرئيسى منها على النحو التالى :

١ - الغزوة الانجليزية لمصر فى ١٨٠٧ والفوضى التى حدثت فى مصر خلالها وبعدها حتى عقد الصلح مع بريطانيا فى ١٨٠٩ ٠

٢ - انتصارات الموحدين بقيادة آل سعود وسيطرتهم على البلاد من حدود العراق حتى الحجاز ٠

٣ - القلاقل المزمنة فى البلقان ٠

٤ - الضغط الروسى الذى كان أشبه بحرب متصلة ٠

٥ - الضغط الفارسى على العراق الذى كان هو الآخر اشبه بحرب متصلة فى تلك النواحى ٠

وفوق هذا وذاك كانت التطورات العالمية الكبرى الناجمة عن سياسات نابليـــون التوسعية وردود فعلها تثير المتاعب المتواصلة للدولة العثمانية بطريقة أو بأخرى . فخلال الفترة الأخيرة من الحروب النابليونية اشتبكت الدولة العثمانية مع روسيا فى حرب طويلة استمرت من ١٨١٠ الى ١٨١٢ ، وبعد سقوط نابليون نشطت روسيا فى اثارة القلاقل والثورات فى البلقان ، وتخللت الثورة اليونانية حرب عثمانية ـ روسية ، انتهت بمعاهدة مذلة فى ١٨٢٩ .

وكانت الجبهة الشرقية لا تقل سوءا عن الجبهة الغربية ، فقد كان الشاه الفارسى ورجاله يشددون الضغط على العراق حتى وقعت حرب كبيرة بين الدولتين فى ١٨٢١ حتى عقدت معاهدة ارضروم الأولى فى ١٨٢٣ ، وكانت حركة الموحدين اقوى من ان يخمدها السلطان وحده ولذلك كلف والى مصر باخضاعها (١٨١١ ـ ١٨١٨) ولن يلبث أن يقع الصدام الكبير بين السلطان محمود الثانى ومحمد على ـ والى مصر ـ حول مستقبل الشام ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ .

رغم كل هذه الأخطار سار السلطان محمود الثانى فى طريق التغيير الجذرى لنظم الدولة العثمانية على أساس الاقتباس من نظم الغرب Westerni Zation ، وتقـــوية قبضة الحكومة المركزية على مختلف أجزاء الولايات مع اجتثاث المفاسد من جذورها ان امكن . فكانت هذه الخطة الثلاثية هى التى سار عليها السلطان محمود الثانى ، فكيف نفـــــــذها ؟

كانت الخطوة الأولى هى ان يقضى على أكبر معارضى الاصلاح اى الإنكشارية . وكان يبحث عن الوســــيلة حتى ضرب له محمـــد على ـ والى مصر الذى قضى على المماليك فى مذبحة القلعـــة ١٨١١ ـ المثل فى اجتثاث مثـل هـــذه الطغمة الفاسدة من جذورها . فدبر مذبحة للانكشارية فى ١٨٢٦ ليشرع من بعد ذلك فى تكوين جيش جديد على الطراز الأوروبى الحديث ، واطلق عليه السلطان اسم « العساكر المنصورية المحمدية » ، واستدعى لتدريبها ضباطا ومهندســين فرنسيين والمان (١) ، وتأسست اكاديمية عسكرية فى ١٨٣٤ وأرسل بعض خريجيها الى العواصم الأوروبيــة لاستكمال دراساتهم العليا ، واسس مدرسة الطب ، وكان التدريس بها باللغة الفرنسية، وانشأ نظام الحجر الصحى .

---

(١) من بينهم فون مولتكه المشهور وكان لا يزال فى مقتبل نبوغه العسكرى .

وأنشأ عددا من الوزارات الحديثة (وزارة الداخلية ووزارة المالية) وعلى راسها الصدر الأعظم . الا أن هؤلاء كانوا يشكلون مجلسا للوزراء ، اذ كان كل وزير مسئولا عن وزارته ، ويمكن عزله دون أن يؤثر ذلك فى مكانة الصدر الأعظم (١) .

ويرجع الفضل الى محمود الثانى فى انشاء (ترجمة اوده سى) أى (إدارة الترجمة) التى تحولت بعد ذلك الى وزارة الخارجية . ومن (ترجمة اوده سى) خـرج عدد من مشاهير رجال الدولة العثمانية من أمثال عالى باشا وفؤاد باشا ونامق كمال بك . ومن اسباب تفوقهم احتكاكهم بالمعضلات السياسية الأوروبية خلال عملهم .

وفى مجال القضاء اسس « المجلس الأعلى للقضاء » الذى كلف باعـداد القوانين الجديدة ، وعرف باسم « مجلس والى احكام عدلية » وكان أعضاؤه من مختلف الأديان، ومن هذا المجلس انبثق فى ١٨٦٨ مجلس الدولة (شوراى دولت) .

وفى أيام محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) ظهرت قوة الباب العالى الذى كان مقرا للصدر الأعظم ووزارات الدولة ، ولكن بعد عهد محمود الثانى سيصبح للبـاب العالى الدور الأول فى توجيه سـياسـة الدولة ، وسيصبح بمثابة القلب النابض المسيطر على السلاطين والإدارة البيروقراطية فى العاصمة والولايات ، حتى يضع السلطان عبد الحميد الثانى السلطة كلها فى يده بين ١٨٧٦ حتى ١٩٠٨ .

أعاد محمود الثانى تنظيم إدارة الولايات فى الاستانة وفى مراكز الولايات ، فأصبح الولاة يعينون من قبل السلطان ، وسحبت منهم سلطة تنفيذ احكام الاعدام إلا بعـد موافقة السلطان . ونمت الإدارة فى فى الولايات مثلما نمت فى الاستانة ، فتضخم الجهاز الإدارى ، وظهرت طبقة (الأفندية) التى رتب لها السلطان مرتباتها لعله بذلك يقضى على الرشوة السائدة بين موظفى الدولة . وهؤلاء الأفندية كانوا فى غالبيتهم يتعلمون الفرنسية ويعملون كتابا فى الدواوين واخذوا يكتسبون فى العاصمة الطباع الأوروبية، ولكن الغالبية العظمى من هؤلاء الأفندية تلقوا من أوروبا معلومات سطحية طفت فوق كتلة ضخمة من الجهل والمعلومات والعادات الفاسدة . وكان هذا (الأفندى) معتزا بفرنسيته الركيكة وبملابسه الأفرنجية (الطربوش والاستنبولية) ولكن لا هو يتقن الفرنسية ولا الطريقة

---

(١) تعدل هذا اللقب أكثر من مرة .

الغربية فى الحياة ، وانما اختلطت عليه العادات القديمة بالمفاهيم الأوروبيـة الجديدة ، وكان يعيش فى الواقع حياة غير مستقرة فى مجتمع ينظر اليه بنوع من الاستهزاء والقبول فى آن واحـــد .

وكانت المكاتب الإدارية الحديثة — اذا صح التعبير — صورة من صـــور فوضى الشرق ، الكتبة يعملون والزوار يملأون طرقات الإدارات ، والبـــاعة يتنقلون بين الحجرات ، والأوراق غير منظمة على المكاتب ، والإدارات لا أرشيف يمكن الرجوع اليه . ومن هنا كانت القضايا السياسية الدولية لا تجد من يفهمها بدقة إلا من عاصرها ، فان عزل أو مات الموظف المسئول عنها اضطرب الأمر وضاعت الوثائق .

إن من أهم وسائل وأساليب الاصلاح كان انشاء مجالس الولايات ، ولكنه نظـام لم يجرب إلا على نطاق ضيق فى أول الأمر،وكانت هذه المجالس تضم مسلمين ومسيحيين وتناقش المسائل المدنية والمالية والقضائية ، وأصبح على الوالى أن يحصل على محضر موقع من أعضاء المجلس على أعماله . وكانت هذه المحاولة تهـــدف الى ربط الولايات بالحكومة المركزية مع زيادة الرقابة المحلية على اعمال الوالى .

ولكن المشكلة الحقيقية هى ان الوالى كان يختفى وراء هذه المضبطة ليتنصل من المسئولية ، وان المجلس كان تحت توجيه كبار الملاك فى الولاية ، وكان هؤلاء قادرين على توجيه أعمال الوالى وفق مصالحهم الخاصة .

وما كان فى استطاعة السلطان فى الواقع أن يعالج كل المصائب المتراكمة على الجهاز الحكومى ، حتى الرشوة التى كان معتنيا كل العناية بالقضاء عليها زادت بشكل أكبر عن ذى قبل وذلك لعدة عوامل :

١ — كانت مرتبات الموظفين صغيرة ، واصبحت تطلعاتهم اكثر بعـــدا فزادت اغراءات الرشوة عن ذى قبل .

٢ — لم تكن هناك اجهزة رقابة على أعمال الموظفين ، خاصة الكبار منهم ، وهؤلاء كانوا قد تعودوا على شراء مناصبهم رغم تشديد السلطان بمنع ذلك ، حتى لقد قال أحد الولاة وهو والى ديار بكر :

« ليس لدى دوافع لكى أكون أمينا ، فاذا ما حاولت أن أحكم بالعدل تكاتف ضدى كل الباشوات الآخرون ، ولن البث أن اطـــرد من وظيفتى ، اذا رفضت الرشوة سأصبح أفقر من أن اشترى وظيفة أخرى » ٠

وهناك اشارات عن أن محمود الثانى كان يتجه جادا الى المســاواة القانونية بين جميع رعاياه بغض النظر عن الدين ، وهى خطوة كانت تحول دونها التقاليد التى اتبعت طوال القرون الماضية بل يقال ، انه كان معنيا بوضع دستور للبلاد وإقامة حـــــكومة دستورية وبرلمان من مجلسين ٠

ومن حيث تقوية قبضة الحكومة على الولايات العثمانية لقى السلطان محمـــود الثانى كثيرا من النجاح فى بعض الأماكن ، فقد سحق عددا من (الدربيكات) ، وابعـد بعضا من هؤلاء الدربيكات عن مواطنهم وحدد اقامتهم ، ووجه ضربة قاضية للماليك فى العراق فى (١٨٣١) بمذبحة مشابهة لمذبحتى الإنكشارية فى الاستانة ١٨٢٦ ومذبحـة مماليك مصر فى القلعة (١٨١١) ، وانهى حكم الأسرة القرمنلية فى طرابلس فى ١٨٣٥ ٠ والغى الاقطاعات العسكرية ، وأصبحت سياسات الولايات توجه من الاستانة التى قويت سلطاتها المركـــــــزية ٠

وعند تقييم حقيقة جهود محمود الثانى نجدها واضحة فى عمليات الهدم أكثر منهــا فى عمليات البناء ، حيث أنه بالنسبة للبناء كان يواجه مصاعب كثيرة ، وكان يواجه مزالق خطرة تجعله يتريث من سنة لأخرى،هذا فضلا عن أن النتائج لا تظهر فى مثل هذه المجالات إلا بعد سنوات طويلة وكانت حاجات الدولة تبتلع كل من يظهر نوعا من المهارة فى صنعته حتى لو لم يتقن أساسياتها ٠

إن قيمة عهد محمود الثانى واصلاحاته تكمن فى انه فتح باب الاصلاح واصبح من المستحيل أن يغلق بعــــده ٠

ولم تؤد هذه الاصلاحات الى استعادة الدولة قدرتها على الانتصار فى المعــارك ، وتجلى ذلك فى فشل القوات العثمانية — بعد انسحاب القوات المصرية من المورة — فى صد الهجوم الروسى واضطرار السلطان الى توقيع معاهدة ادرنة ١٨٢٩ التى أرغمته على ترك اليونان لأهلها ٠ ولم يلبث ان استولى الفرنسيون على الجزائر (١٨٣٠) وانزلت

القوات المصرية الهزائم المتتالية فى الزراعة وقونية فى ١٨٣٢ وزحفت حتى اقتربت من المضـــــايق لولا صلح كوتاهيه (١٨٣٣) الذى أعاد القـــوات المصرية الى أطنة بين الشـــــام وتركيـــا ٠

لماذا تحركت بريطانيا الى جانب السلطان محمود الثانى قبيل وبعد كوتاهية ؟

كانت سلطات الاستانة تبحث عن حليف لها يصد القوة الجارفة المصرية ، فوجدت أن فرنسا تؤيد محمد على ، وبريطانيا لا تستمع الى نداءات السلطان ، وربما بسبب مشاغلها فى المشكلة البلجيكية (١) ، ولم تجد سوى القيصر الروسى ٠ وما كان السلطان ليقبل هذا التحالف مع عدوه اللدود ، ولكن الظروف كانت قاسية وعقد معه اتفاقية خنكار سكله سى (١٨٣٣) ٠ التى اعطت للقيصر حق ارسال جيش للمضايق للدفاع عن السلطنة العثمانية ، وفعلا نزلت القوات الروسية على مقربة من الاســتانة الأمر الذى ازعج الانجليز كل الازعاج ٠

وفى ١١ يوليو — تموز ١٨٣٣ استجوب أحد النــواب الانجليز الوزارة فى مجلس العموم مشيرا الى ان أبواب الدولة العثمانية وفارس أصبحت مفتوحة أمام الروس ٠ وقد بالغ النائب فى تصوير الخطر الروسى ، ولكن تجدر الاشارة الى أن هذه المبالغة كانت من اساليب الانجليز لاثارة المشاعر ضد خصمهم ٠ وخلال هذه المناقشات تجلت حقيقة هامة هى أن الروس بعد خنكار سكله سى أصبحوا القوة المواجهة للمصريين ، وأصبحوا فى نفس الوقت حماة الدولة العثمانية ، ولهذا عملت حكومة بالمرستون على تدويل القضية وعلى مشاركة الدول الأوروبية فى ايجاد حل للنزاع بين السلطانومحمد على حتى لا تنفرد روسيا بالعمل ، بل وحتى تصبح بريطانيا هى التى تفرض هذا الحل الدولى ٠ ويقال فى كثير من الوثائق أن الانجليز هم الذين كانوا يحرضون السلطان العثمانى على التحرش بالجيش المصرى فى الشام وارغامه على خوض الحرب مجددا ٠ ولكن ادى ذلك الى نكبة اخرى حلت بالجيش العثمانى بهزيمة قاسية أمام الجيش المصرى فى موقعة نزيب ١٨٣٩ ولم يلبث أن ابحر الأسطول العثمانى من تركيا منضما طواعية الى الأسطول المصرى فى الاســــــكندرية ٠

---

(١) كانت ثائرة على هولندا كى تستقل ٠

وحيث أن السلطان محمود الثانى كان قد لفظ انفاسه الأخيرة قبل أن تأتيه أنباء نكبة نزيب ، أصبحت الدولة العثمانية بلا جيش ولا أسطول ولا سلطان . وكان الأمر يتحول الى انهيار تركيا لولا وقوف الدول الأوروبية الى جانب السلطان الجديد عبد المجيد الأول ووزيره النشيط رشيد باشا .

لقد أدرك رشيد باشا أن انقاذ تركيا أصبح فى يد الدول الكبرى ، ومن هنا ارتبط ارتباطاوثيقا بها ، وخاصة بيريطانيا التى كانت ترى فى تركيا القوة القادرة على منع أى من روسيا أو مصر من التفوق فى الشرق الأوسط ، رغم أن مصر أكدت لبريطانيا أكثر من مرة أنها كفيلة بروسيا إلا أن بريطانيا كانت تدبر الانفراد بالمنطقة ان أمكن .

تحت وطأة هذه الأحداث أصدر السلطان عبد المجيد أول مرسوم من مراسيم التنظيمات وعرف بخط كلخانه فى نوفمبر — تشرين الثانى ١٨٣٩ . وهناك العديد من المؤرخين الذين يربطون فقط بين صدور هذا الخط والهزيمة أمام القوات المصرية ورغبة تركيا فى كسب الدول الأوروبية الى جانبها ضد مصر . وفى اعتقادنا أن هذه ربما كانت بعض الأهداف من وراء اصدار خط كلخانة ، ولكن مما لا شك فيه أن حركة الاصلاح كانت قد بدأت من قبل ، وان اصدار هذا الخط لا يعنى سوى حلقة من حلقات هذا الاصلاح . وأن ظروف الهزيمة أوجبت هذا الاصدار حتى تبدو الدولة — وهى بصدد طلب المساعدة من أوروبا — جديرة بأن تعامل معاملة الدولة المتحضرة الحديثة .

يؤكد خط كلخانة أن عدم الانقياد الى الشرع الشريف كان السبب فيما أصاب الدولة خلال القرون الماضية من تدهور وضعف وان المقصود من هذا الخط هو احياء الدين والملة . ومع هذا كان هذا الخط هو الخطوة الكبيرة الثانية نحو الأخذ بالقوانين الوضعية حين قرر المساواة بين المسلم وغير المسلم ، فكان ذلك هو الخطوة الأولى لفرض الخدمة العسكرية على غير المسلمين . كذلك ساوى (الخط) بين الطوائف المختلفة فى فرض الضرائب أمام القانون بصفة عامة . وقضت القرارات بفرض التجنيد على الرعايا جميعهم والغاء نظام الاقطاعات العسكرية الغاء تاما ، كما قررت تحديد الضرائب على كل فرد والغاء نظام الالتزام الذى وصفه (خط كلخانة) بانه من آلات الخراب فى الدولة ومن أسباب تدهورها .

وركز (الخط) على تحديد مرتبـــات موظفى الدولة وعلى منع شراء المناصب ٠. وصدرت فى أعقاب خط كلخانة سلسلة من القوانين التنظيمية لوضع أسس خط كلخانة موضع التنفيذ ، فصدرت القوانين الجنائية والقضائية والمدنية ، وظهرت المحاكم على مختلف أنواعها وصدرت فرمانات بتأسيس بنك الدولة والأوراق النقدية ، وانشـــاء جامعة عثمـــانية ٠

ومثل أى قرار جذرى ، واجه خط كلخانة عاصفة من النقد وسيلا من التأييد ٠

فقد حذر السياسى النمساوى الكبير الرجعى (مترنخ) العثمانيين من الخطـــر الكامن وراء استعارة أساليب الحضارة الأوروبية المتعارضة مع الحضارة الإســـلامية العثمانية ٠ ومع أن خط كلخانة حرص على أن يكون الاصلاح أوروبيا فى اطار الشريعة الإسلامية فان تطبيق مثل هذا الاصلاح كان عسيرا للغاية خاصة فى دولة تزداد ضـعفا عاما بعـــد آخـــر ٠

وهناك من الأوروبيين من تحمس جدا للاصلاح الجديد ، مثل السفير البريطانى استراتفورد كاننج S. Canning الذى كان صاحب كلمة مسموعة فى الباب العالى ٠ وكانت وجهة نظر الانجليز هى أن الاصلاح على الطراز الأوروبى هو وســـيلة الدولة العثمانية للصمود أمام الخطر الروسى ، ومن ناحية أخرى كانت حركة الاصلاح الجديدة العثمانية تبدو مرتبطة برباط خاص ، ورضيت عنها بريطانيا لأنها لم تمس المصـــالح البريطانية فى الدولة ، وبخاصة معاهدة بلطة ليمان المعقودة فى ١٨٣٨ والتى أعطت لرعايا الدولة البريطانية حق المتاجرة مباشرة فى اى جزء من أجزاء الدولة العثمانية تصـــديرا واستيرادا وتجارة داخلية وخارجية ونهرية وبرية فى مقابل ضريبة محددة بسيطة ٠

وهكذا فتحت التنظيمات العثمانية باب الدولة للحضارة الأوروبية لتتدفق عليهـا بأقصى سرعة ممكنة ، فى نفس الوقت الذى كانت فيه هذه الحضارة تستغل بشكل بشع الدولة العثمانية اقتصاديا ٠ هذا فضـلا عما توقعته الدول الأوروبيـــة من فتح باب الارساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية على مصراعيه ٠

وفى داخل البلاد واجهت هذه الاصلاحات معارضة قوية ، خاصة فى تلك الجهات التى تتجاور فيها عصبيات مذهبية مختلفة : إسلامية ومسيحية ٠

ففى جبال طيارى فى شمال العراق وفى جبل لبنان وقعت الصدامات المذهبيــة ، حيث أن بعض زعامات للاقليات المسيحية فى الدولة العثمانية ابدت نوعا من الارتباط مع الدول الأوروبية نكاية فى الزعامات الإسلامية التى كانت لها السلطة المطلقة من قبل ، وأدى ذلك الى تردى العلاقات خاصة وأن يد الأجنبى كانت تنتظر مثل هذه الفرص ٠

واستغلت الدول الأوروبية هذه التنظيمات والاصلاحات لجعلها تخدم أغراضـــها لا اغراض الدولة منها ٠ فقد سعت فرنسا الى حماية الكاثوليك فى الدولة العثمانية ، كما سعت روسيا الى حماية الارثوذكس ، وسعى مبشرو بريطانيا وامريكا الى تحـــويل مسيحيى الكنائس الشرقية الى الكنيسة البروتستنتية ٠

ولقد بدا فى اعقاب صدور خط كلخانة أن الأخطار كبيرة واستغلالها سيكون على نطاق واسع على يد الدول الأوروبية، خاصة بعد أن أصبح للدول الأوروبية الكبرى الفضل الأول فى ارغام (محمد على) على سحب قواته من الشام والجزيرة العربية[1] ٠ حتى لقد بدأ التفكير فى عزل رشيد باشا لوقف مفعول خط كلخانة منذ ١٨٤١ ولكن لم تكن أجهزة الدولة المضطربة هى المسئولة وحدها عن عزله ، بل لقد لعبت روسيا دورا كبيرا فى عزله حيث انها كانت ضد سياسة التنظيمات ٠ والفارق بين روسيا المناهضة للتنظيمات وبريطانيا (المؤيدة للتنظيمات) هى ان الأولى ترى فى هذا الخط حائلا دون تحقيق اطماعها والثانية ترى فيه معينا لها على تحقيق اطماعها ٠

وعلى أى حال توقفت الحركة الاصلاحية مؤقتا بعد عزل رشيد باشا ، ثم استعادت قدرتها على المسير مرة أخرى ٠

ويبدو أن المسئولين عن الاصلاحات بعد رشيد باشا أدركوا أن الشعب لم يدرك حقيقة التنظيمات الجديدة أو أهدافها ، وان من واجب الحكومة أن تقنع الشعب بخطواتها الاصلاحية وليس فقط تركه يتفهمها وحده ٠ ولهذا عقد الســـلطان فى ١٨٤٦ (مجلس شورى الدولة) الذى حضره مندوبان عن كل ولاية للتدارس والتباحث فى أســـاليب

---

(١) يمكن مراجعة تفاصيل الصراع بين محمد على والسلطان محمــود الثانى فى كتابنا (تاريخ العرب المعاصر) ٠

الاصلاح والتنظيم ، وكانت هذه هى المحاولة الأولى التى قام بها العثمانيون لأخذ رأى الولايات فى الاصلاح والتنظيم ، ولكن يبدو أن المحاولة كانت غير حسنة الاعداد وأن من ذهبوا كانوا لا يعرفون حقيقة دورهم ، فعندما سئلوا وطلب منهم مقترحاتهم لم يقدموا شيئا • فكان ذلك خاتمة للاجتماع ، وعاد الباب العالى الى وسيلته التقليدية فى معرفة أحوال الولايات أى ارسال مندوبين من قبله لكتابة تقارير عن الولاية التى يزورونها •

وخلال الفترة التى حكم فيها السلطان عبد المجيد • (١٨٣٩ — ١٨٦١) كانت حركة الاصلاح نشطة وتأسست كافة الدوائر الحديثة تقريبا ، لتاخذ طريقها فى النمو المضطرب من بعد ذلك • فكثرت المدارس بصفة خاصة ، والمدارس الفنية ، وإدارات الجمارك والهيئات الصحية ، والخدمات العامة مثل مد الطرق وصيانة الأمن الداخلى •

استمرت الأمور تسير على هذا النحو حتى جاءت المحنة الرابعة [1] الكبرى التى واجهت الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر ونعنى بها حرب القرم •

حرب القرم

وتعتبر حرب القرم واحدة من تلك الحروب العديدة التى تصارعت فيها الدول الكبرى الأوروبية ،ولكنها هى الحرب التى كان سببها الرئيسى كامنا فى الشرق العثمانى • ويمكن أن نحدد العوامل الرئيسية التى أدت اليها فيما يلى :

العامل الاستراتيجى :

فى أعقاب الحروب النابليونية نشطت حركة الاختراعات فى مجالات النقل البرى والبحرى على المستوى العالمى ، فاصبح القطار والباخرة أداة النقل الحديثة • وظهرت المشروعات العديدة لمد خطوط ملاحية بخارية أو خطوط سكك حديدية بين أوروبا والشرق الأقصى عبر الشرق الأدنى ،واخذت فرنسا تفكر بحماس فى شق قناة السويس ، واخذت بريطانيا تفكر فى مد خط ملاحى فى انهار العراق او مد خط حديدى بين الاسكندرونة والموصل وبغداد والبصرة للاتصال السريع بالشرق الأقصى • حيث كان من وجهة نظر الانجليز والفرنسيين يجب منع روسيا من الوصول الى منطقة الشرق الأدنى،

---

(١) الأولى هى (الحملة الفرنسية على مصر) والثانية (حرب المورة) والثالثة (الحرب ضد محمد على) والرابعة (حرب القرم) •

بينما كانت وجهة نظر روسيا مختلفة ، وهى أن بريطانيا وفرنسا بقيامهما بمثل هـذه المشروعات فى العراق ومصر يجب أن تحصل هى على القسطنطينية لتتوازن معهما · ولكن مفهوم التوازن الدولى عند بريطانيا كان يعنى ابعاد روسيا باستمرار عن المضايق · ولهذا جاهرت بريطانيا بسياسة الدفاع عن كيان الدولة العثمانية لا حبا فى الدولة العثمانية وانما لتمنع روسيا من الوصول الى المضايق ·

العـــامل الاقتصـــادى :

كانت روسيا خلال الفترة التى أعقبت الحروب النابليونية معنية بزيادة حجـــم صادراتها ، وخاصة من القمح الذى كان يزرع بكميات كبيرة فى روسيا · وكان ميناء (اوديسا) من أهم الموانىء التى تصدر عن طريقها قمحها ، ولكن كان فى البلقان ولايتان عثمانيتان هما (ولاشيا) و (ملدافيا) كانتا تصدران كميات كبيرة من القمح نافست بشدة صادرات روسيا من اوديسا · ولهذا سعى القيصر نيقولا الأول الى السيطرة على هاتين الولايتين حتى يتحكم فى انتاجهما بما يفيد روسيا ، وحتى يستطيع القيصر منهما ان يتحكم فى البلقان المتطلع الى روسيا ·

العـــامل الدينى والمذهبى :

أصبحت روسيا — بعد الحروب النابليونية — أكثر الدول تركيزا على الحـروب الصليبية · وكان كثير من ساسة روسيا يتعجبون من عدم مشاركة الدول الأوروبيـــة لروسيا فى حربها المقدسة هذه · ولكن هذه الفكرة الصليبية كانت تجد ترحيبا فقط بين الشعوب البلقانية وزعمائها وبين شعوب أوروبا وليس بين زعمائها ، فالفكر الصليبى لدى فرنسا وبريطانيا تحول الى التبشير والتسلط التجارى والسياسى ان أمكن · وكان التبشير الفرنسى كاثوليكيا أما الانجليزى فكان بروتستنتيا ، وكل منهما كان ناجحا الى حد كبير وكان هذا التفوق التبشيرى الفرنسى والبريطانى يهز مكانة روسيا فى المنطقة ، فكان أن وقع الصدام فى بيت المقدس بين رجـــال الدين الكاثوليك ورجـــال الدين الارثوذكس ليتحول الى حرب كبرى باسم الدين المســيحى بينما كانت الأهـــداف الاقتصادية أكثر قوة ·

الأسباب الشخصية :

يركز كافة المؤرخين على الدور الذى لعبه سفير بريطانيا فى الاستانة ستراتفورد كانնج المشهور باسم لورد ستراتفورد دى ريدكليف ٠ ويذهب البعض الى أنه هو السبب فى وقوع الحرب ٠ ولقد كان (كاننج) فعلا يدرك حقيقة الكراهية الشديدة التى كان يكنها الشعب الانجليزى للروس بسبب تصادم المصالح فى أكثر من مكان فى العالم ٠ وكان لكاننج مكانة كبيرة فى الباب العالى ، حتى لقد وصف بأنه « السلطان العثمانى » غير المتوج ٠ ولقد كان كاننج يدرك تماما أن روسيا بلغت من القوة الدرجة التى اصبحت فيه قوة خطيرة مهددة للامبراطورية البريطانية ، وأن تقليم اظافرها فى وقت مبكر خير من تأجيل الحرب التى لا بد أن تقع يوما ما ٠ وكانت ظروف بريطانيا مواتية تماما حيث أن نابليون الثالث — امبراطور فرنسا — كان قد عقد العزم على أن لا يصطدم ببريطانيا وان تكون امجاده العسكرية بالتعاون معها ضد روسيا أو النمسا مثلا ٠

كان السبب المباشر للحرب هو تلك البعثة التى ارسلها القيصر الى السلطان العثمانى ، وكانت هذه البعثة برئاسة منشيكوف ، وذهبت فى ظروف كان القيصر يعتقد — خطأ — أن انجلترا لن تعترض سبيل اقتسام الدولة العثمانية ٠ وكان منشيكوف متغطرسا ولكنه وجد فى وزارة الخارجية رجلا كيسا قادرا على دحض حججه — هو فؤاد باشا — ولذلك سعى الى ابعاده عن منصبه ٠ وفعلا استقال فؤاد باشا ، ولكن صمد الباب العالى — بتأييد من كاننج — امام مطالب القيصر المتتالية التى كانت تتمثل فى تعيين من تريده حكومة القيصر وعزل من لا تريده ، وفى فرض السيطرة الروسية على ولايتى الافلاق والبغدان (ولاشيا و ملدافيا) ٠ وشرعت روسيا فى احتلالهما فعلا فى منتصف ١٨٥٣ ٠ فما كان من السلطان الا أن طلب نجدة من القوات المصرية التى وصلت الى الاستانة فعلا بعد وقت قصير ، واسرعت الأساطيل الفرنسية والبريطانية الى المضايق لارغام روسيا على الانسحاب من الولايتين ٠

وسرعان ما تصاعدت الأزمة عقب غدر القيصر وحنثه بوعده الخاص بعدم ضرب القوات العثمانية إلا اذا بدأت هى القتال ، وذلك عندما أغرق الأسطول الروسى القطع البحرية العثمانية فى ميناء (سينوب) ، وظهرت نية نابليون الثالث القوية نحو ارسال أسطوله الى البحر الأسود وخشيت بريطانيا من انفراد فرنسا بالقيام بمثل هذا العمل

الدولى الخطير فقررت الدخول فى حرب ضد القيصر الى جانب السلطان العثمـــانى (مارس — آذار ١٨٥٤) • وكانت بذلك كفة الدول الحليفة هى الراجحة خاصة — إثر بعد اغراق الأسطول الروسي فى سباستبول — كانت فكرة انزال القوات الفرنســية والانجليزية ثم البيدمنتية فى القرم كانت تدل على أن عنصر التفوق كان لدى الحلفاء •

استمرت الحرب عنيفة حول سباستبول بأهوال ومذابح وأوبئة فتاكة حتى جاءت ١٨٥٦ بعوامل جديدة فتحت الباب أمام الوصول الى صلح وكانت الأسباب الرئيســية لعقـــد الصـــلح :

١ — حقق الانجليز والفرنسيون هدفهم وهو تحطيم الأسطول الروسى وبذلك لن يكون فى استطاعة الروس القيام بدور فى حوض البحر المتوسط • وثبتت الســيطرة الكاملة البحرية للحلفاء فى البحر الأسود • واكتفى الحلفاء بهذا النصر ورفضــوا التقدم وراء سباستبول •

٢ — اختلاف وجهات النظر الفرنسية عن الانجليزية من حيث استمرار الحرب حيث أن نابليون الثالث أصر على وقف هذه الحرب الأمر الذى أرغم الانجليز على وقفها مع انهم كانوا يريدون الاستمرار فيها حتى تذل روسيا اذلالا كاملا ويقضى على دورها فى السياسة الأوروبية •

وفى مؤتمر عقد فى باريس فى ١٨٠٦ تقرر عقد صلح بين الدول المتحـــاربة على الأسس التـــالية :

١ — تجريد البحر الأسود من السلاح ، وهذا موجه ضد روسيا بالذات •

٢ — اغلاق المضايق أمام السفن الحربية الأجنبية •

٣ — اعادة قارص الى الدولة العثمانية •

٤ — حكم ذاتى لولايتى الافلاق والبغدان (ولا شيا و ملدافيا) •

واتفق لقبول الدولة العثمانية ضمن المجموعة الأوروبية أن تصدر (خطا) جديدا يضع برنامجا واضحا للاصلاح اكثر اتساعا ودقة من (خط كلخانة) وعلى هذا الأساس صدر الخط الهمايونى ١٨٥٦ •

والحق ان حركة الاصلاح استمرت حتى بعد الحركة الرجعية التى ابعدت رشيد باشا

عن الحكم . فقد صدرت خلال حرب القرم نفسها فرمانات ذات أهداف بعيدة عميقة ، فقد صدر فى ١٨٥٥ فرمان يرفع الجزية عن المسيحيين، وبعد ذلك صدر الخط الهمايونى ومن ثم فلا شك أن دافع الاصلاح كان وراء اصداره وليس فقط الضغط الأوروبى .

أكد الخط الهمايونى ما سبق أن ورد فى (خط كلخانة) . ولكن زاد عليه التفاصيل المتعلقة بحقوق المسيحيين والتنظيمات الإدارية الجديدة ، فبالنسبة للمسيحيين تقــــرر تشكيل مجالس مخصوصة وانتخاب البطريرك لكل ملة وتحديد رواتب رجال الدين غير المسلمين ، وكفل لهم حرية العبادة وبناء المدارس على أن تتفق مع مناهج الدولة ، وأكد الخط الهمايونى حق الدولة فى تجنيد المسيحيين وان أبقى على حقهم فى دفع البـــــدل العسكرى . كما سمح للأجانب بامتلاك العقارات ولكن وفق شروط معينة . وأكد (الخط) على ضرورة انشاء مجالس الولايات ، وكان مطبقا على نطاق ضيق .

فهم هذا الخط من زوايا متعددة ، ففسرته كل جماعة حسب مصالحها . فالغالبية العظمى من مسيحيى الدول العثمانية كانت ترى فى صدور هذا الخط مظهرا من مظاهر ضعفها ، وتطلع بعض زعمائهم الى الدول الأوروبية ، وتمسكوا بما فى الخط الهمايونى من حقوق لهم ضاربين صفحا عما به من التزامات وواجبات عليهم، بل تمسكوا فى نفس الوقت بما كان لديهم من امتيازات قديمة تتعارض مع الخط الهمايونى .

وانتشرت الشائعات عن أن الدول الأوروبيــة ستقف الى جانب مسيحيى الدولة لو ثاروا ضدها : وساعد هذا على وقوع فتن الشام ولبنان بين المسلمين والمســيحيين ليسير لبنان فى اتجاه الحكم الذاتى وبنظام خاص عرف بالمتصرفية ، ذلك النظــام الذى كان يتعارض مع خطة العثمانيين فى توحيد البلاد العثمانية تحت نظام واحد يعتمد على الخط الهمايونى ، فقد طبق فى لبنان نظام طائفى لا يزال يعانى منه لبنان .

وصدرت بعد الخط الهمايونى مجموعة من القوانين التنظيمية التى مست المجتمع العثمانى بقوة اهمهـــا :

١ ـ قانون الأراضى (الطابو) ١٨٥٨ .

٢ ـ قانون الولايات ١٨٦٤ .

٣ ـ مجموعة القوانين الجنائية والتجارية ١٨٦٠ ـ ١٨٦٣ .

كان الغرض من قانون الأراضى التخلص نهائيا من بقايا نظام الالتزام والاقطاعات العسكرية وتحسين حال الفلاح بتمليكه قطعة من الأرض تمليكا غير مطلق يرتزق منها ، وعندما وضع القانون موضع التنفيذ جاءت نتيجته على غير ما كان يتوقع منه ٠ فقد كان الفلاح فقيرا عاجزا عن دفع قيمة الأرض ٠ بينما كان لدى الملتزم المال والخبرة فسجل الملتزمون باسمهم مساحات واسعة من الأراضى ، وتحول الفلاح الى مجرد أجير لدى هؤلاء الملاكون الكبار ، كذلك سجل شيوخ العشائر الأراضى باسمهم وأصبحوا هم الملاكون وافراد العشيرة عمالا عندهم أو اجراء ٠

اما قانون الولايات فيعتبر المحاولة العملية لاصلاح حال الولايات من جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتأكيد خضوعها للدولة ٠ فقد حدد القانون نظام الإدارة واختصاصات الوالى وغيره من موظفى الولاية وطريقة انتخاب اعضاء مجلس الولاية وكان من اهداف هذا القانون اشراك الأهالى فى إدارة أمور بلادهم وفى الاصلاحات التى أدخلت فى مختلف النواحي ٠ كذلك كان من أهداف هذا القانون أن يتمشى مع أحوال كل ولاية ٠ اذ أدرك العثمانيون أن الولايات العثمانية تختلف عن بعضها اختلافات جوهرية احيانا ، وانه من العسير وضع قانون موحد ينتظم القوميات المسيحية البلقانية المتعددة المذاهب والأكراد الجبليين وعشائر العراق وعصبيات الشام وعرب شمال افريقيا وترك الأناضول ومسلمى البوسنة والبانيا ٠

كان قانون الولايات يضع السلطة العليا فى يد الحكومة المركزية فى الاستانة وقد اتجه حكام الاستانة هذا الاتجاه لاعتقادهم أن فساد الإدارة فى الولايات هو المسئول عن عدم تحسين أحوالها ، وأنه لهذا السبب يجب أن يكون الوالى مجرد منفذ لأوامر رؤسائه فى الاستانة ويرجع اليهم فى أمور الولاية الهامة ٠ وساعد على هذا استخدام الخطوط البرقية فى الدولة العثمانية على نطاق واسع فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ٠

الدولة العثمانية ومؤتمر برلين ١٨٧٨

كان عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦) قليل الحروب نسبيا . على على عكس عهود أسلافه ، إلا أنه كان فترة خطيرة من التاريخ التركى . اذ كانت كافة الأقاليم البلقانية تستعد للحصول على امتيازات أكثر من الأتراك الن لم يكن الاستقلال الكامل .

فقد تحركت المشاعر فى الجبل الأسود ، وفى صربيا وكانتا تتمتعان بالاستقلال الذاتى ، والولايتان الرومانيتان كانتا قد اتحدتا تمهيدا لتحقيق ظهور (رومانيا)،وكانت فرنسا تؤيد اتجاهات هاتين الولايتين نحو الاستقلال لأن الرومانيين كانوا كاثوليكا .

وكانت اليونان تتطلع الى استكمال وحدة اليونانيين الخاضعين للأتراك، بل وكانت تتطلع الى (أزمير) ، والى الهدف الضخم (القسطنطينية) .

أما كريت فثارت ، وذهب اليها آلاف المتطوعين من الجيش اليونانى لضرب المسلمين فى الجزيرة وابادتهم وبالتالى تخلص لليونان ، حقيقة وضع نظام وحكم خاص يشترك فيه المسيحيون والمسلمون ، ولكن كانت كلمة المسيحيين هى السائدة (١٨٦٧) والاتجاهات نحو الاتحاد مع اليونان قوية .

كذلك كانت القلاقل فى البوسنة والهرسك متتالية ، والبلغار ضد الأتراك وضد الاكليروس اليونانى المفروض عليهم ، وظهرت الكتائب البلغارية هنا وهناك فى الستينات .

وفى ١٨٦٤ هاجر الى البلقان عدد كبير من الشركس المسلمين الذين فروا من أمام الروس بعد فشل مقاومتهم الطويلة للتسلط القيصرى ، وقد استقرت أعداد كبيرة من هؤلاء فى بلغاريا وعلى طول الحدود الصربية ، وتوالى الصدام بين القادمين الجدد والبلغاريين وفى بعض مناطق الدانوب .

كانت هذه القلاقل العديدة فى البلقان هى التى جعلت الباب العالى يسند ولاية الدانوب الى المصلح الكبير مدحت باشا الذى بذل جهودا كبيرة للتغلب على تمردات

البلغار ، وارغم العديد منهم على الفرار الى الولايتين الرومانيتين. وارضاء للبلغار اصدر الباب العالى فرمانا بانشاء كنيسة بلغارية مستقلة بنفسها . وكان هذا فى حد ذاته من العوامل التى كانت تعمل على تجميع شمل البلغار نحو الهدف الكبير : اقامة دولـــة بلغارية قومية . وكانت انظار البلغار معلقة بالروس على اعتبار أن الانتصارات الروسية هى أقصر طريق الى إستقلال البلغار . ولكن كان أساس التحرك هو ثورة بلغارية كبيرة تفرض نفسها على السلطان وتكسب عطف الدول الكبرى وخاصة روسيا .

وفعلا قامت حركة تمرد فى ١٨٧٢ قضى عليها خـــلال السنتين التاليتين . ولكن استمرت حركات العصابات تشد ازرها روسيا التى تخلصت من قيود حيدة البحـــر الأسود فى ١٨٧١ منتهزة فرصة الحرب البروسية — الفرنسية، وفى ١٨٧٥ اشتعلت ثورة الهرسك ، لتضع السلطات العثمانية أمام أزمة جديدة .

كانت اجراءات الحكومة العثمانية قد أثبتت عجزها عن مواجهة هذه الأزمـــات وفقدت مكانتها بسبب عجزها عن دفع ديونها ، واسرع عـــدد من المصلحين — وعلى رأسهم مدحت باشا — الى التحرك ضد السلطان عبد العزيز الذى أغرق البلاد فى فوضى عارمة من الاسراف والسياسات الخرقاء ، وعزلوه ورفعوا السلطان مراد الخامس الى العرش ليعزل بعد قليل لأنه كان معتوها وخلفه السلطان عبد الحميد الثانى ، فى أغسطس — آب ١٨٧٦ على أساس اصدار دستور للبلاد . وفعلا صدر أول دستور عثمانى فى ذلك العام ، وبهذا تبدأ أهم فترة من التاريخ العثمانى الأخير .

تولى السلطان عبد الحميد العرش وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره . كان ذكيا ، وكان كثير العمل ، ولكن كانت فترته السابقة على توليه العرش خليطا من الحياة التعسة فى القصور ، والزيارة الرائعة لأوروبا . وكان شديد الخوف حذرا من كل انسان . وهو لم يكن محبا للحكم الدستورى ، وانما كان معاديا له . ومع هذا وجد نفســه يأتى الى العرش كأول سلطان دستورى فى تاريخ الدولة العثمانية، ولهذا كان ينتظر الظروف التى تمكنه من التخلص من هذا الدستور ومن صاحبه مدحت باشا .

وكانت الظروف تعطى الفرصة الكبيرة للسلطان عبد الحميد الثانى ليتخلص من الدستور . فقد أسرعت روسيا الى اعلان الحرب نيســـان — ابريل ١٨٧٧ على الدولة

العثمانية لتقضى على الحركة الدستورية فيها وتعيد القوة الى الثورة فى البلقان ضد السلطان،وأحرزت الجيوش الروسية انتصارات سريعة حتى وصلت الى (بلفنا) فضربت عليها القوات الروسية الحصار ودافعت عنها القوات العثمانية ببسالة عظيمة ، حتى سقطت فى ديسمبر — كانون الأول ١٨٧٨ ، وأصبحت العاصمة الاستانة نفسها مهددة مما اضطر حكومة السلطان الى عقد هدنة ثم فرض الروس معاهدة سان استيفانو على السلطان العثمانى (١٨٧٧) ٠

وتنص معاهدة سان استيفانو على :

١ — أن تستولى روسيا على قارص وبايزيد وباطوم فى الشرق ، وعلى (دبروجة) فى الغرب ٠

٢ — حصلت الصرب على مخرج على البحر الأدرياتيكى ٠

٣ — تحصل البوسنة والهرسك على حكم ذاتى ٠

٤ — امتداد بلغاريا من الدانوب الى بحر ايجة ، وضمت الروملى ومعظم مقدونيا ٠

ان النتيجة الخطيرة التى ترتبت عن معاهدة سان استيفانو هى أن بلغاريا — مخلب القط الروسى — أصبحت ضخمة للغاية من وجهة نظر بريطانيا بالذات ، وان النفوذ الروسى فى البلقان أصبح يهدد مكانة النمسا فى المنطقة ٠ وكادت الأمور تتطور الى حرب كبرى تتزعمها بريطانيا ضد روسيا لولا أن دعا بسمارك الدول الكبرى الأوروبية الى عقد مؤتمر لتسوية المشكلات الأوروبية على حساب الدولة العثمانية حيث أن الدولة العثمانية — من وجهة نظر بسمارك — غير جديرة بحرب تقع بين الدول الكبرى الأوروبية ولكن جديرة فقط بأن تتولى هذه الدول الكبرى اقتسامها وتسوية مشكلاتها على مائدة المفاوضات وليس فى ساحة القتال ٠

وعلى هذا الأساس عقد مؤتمر برلين ١٨٧٨ الذى أهملت فيه آراء الأتراك ، بل وكانوا محتقرين خلال انعقاده ، وانتهت المفاوضات الى قرارات اعادت رسم خريطة البلقان من جديد ، وكانت كلها موجهة ضد مصالح الدولة العثمانية،وسعت كل دولة الى نهب قطعة منها بوسيلة شريفة او بوسيلة تآمرية أيا كانت ٠

ففى مقابل حماية — غير اكيدة — للأملاك العثمانية الآسيوية ، اقتنصت بريطانيا قبرص ، وحتى ترضى فرنسا عن هذه (الخيانة) لفتت بريطانيا — الطامعة فى مصر [١] — انظار فرنسا [٢] الى تونس . وتقلصت بلغاريا [٣] وسلخ منها الروملل الشرقى الذى وضع تحت الحكم التركى ، ووضعت البوسنة والهرسك تحت إدارة النمسا ، ولكن ظلتا تحت السيادة العثمانية وبصفة عامة خسرت الدولة العثمانية فى مؤتمر برلين ما لم تفقده فى اى حرب سبقت .

ومن نتائج مؤتمر برلين غير المباشرة ان الأرمن شعروا ان الوقت قد أزف ليحققوا آمالهم ، وكانت مادة مؤتمر برلين قد نصت على أن يقوم السلطان باصلاح حال ارمينيا والأرمن ، ولكن مرت السنون دون تطوير يذكر بينما كانت اتصالات الأرمن بالعالم الخارجى تزيد مداركهم اتساعا وظهر منهم علماء وباحثون ودعاة الى ان الأرمنى أرقى من سيده التركى ويجب ان ينقلب الوضع ويصبح الرعية سيدا ، بل كانت هناك دعوات بين الأرمن الى طرد المسلمين من ارمينيا ، كما كانت هناك دعوات بطرد المسلمين من البلقان بالنقل أو بالابادة ، وتصاعد التوتر فى بلاد الأرمن ، ولم يلبث ان وقع الاضطراب وكان ان نكل الأكراد بالأرمن بقسوة اهل الجبل فى اهل الجبل .

ووقفت كل الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا منددة بالسلطان عبد الحميد الثانى واطلقت عليه (السلطان الأحمر) ، أما المانيا وقيصرها فقد وقفت الى جانب السلطان لهدف كان يسعى اليه وهو كسب ثقة السلطان . والجدير بالملاحظة هنا ان بريطانيا التى تحركت بقوة دفاعا عن مسيحيى البلقان والأرمن لم تفعل شيئا للبولنديين والايرلنديين الا الايذاء طالما كان هذا متمشيا مع مصالحها .

(١) احتلتها فى ١٨٨٢ .

(٢) احتلتها فى ١٨٨١ .

(٣) لم تلبث ان استقلت .

لقد كان السلطان العثمانى يدرك أنه فى حاجة ماسة الى قوة أوروبية تقف الى جواره بسبب تلك العزلة الكبرى التى حدثت له بسبب مذابح الأرمن ، وكان السلطان فى حاجة الى دولة كبرى يستطيع أن يستعين بها فى تنفيذ الكثير من مشروعاته الحيوية الكبرى دون ان تتحول هذه المشروعات الى مخططات استعمارية على الطريقة الانجليزية والفرنسية ، وكان يعتقد أن القيصر الألمانى ولهلم الثانى ليس استعماريا مثل فيكتوريا ملكة الانجليز أو مثل الفرنسيين ٠ هكذا كان يتصور عبد الحميد الثانى ٠

وكانت ألمانيا قد نمت وعظمت بعد وحدتها وتبحث عن مجالها الحيوى فوجدته فى الولة العثمانية وبوجه خاص فى تركيا والعراق، كانت صناعة الآلات فى ألمانيا نامية وكانت تنافسها الصناعات البريطانية وكانت هذه الصناعة تجد مجالا لها فى الدولة العثمانية وكانت هذه بحاجة الى الخبرة الفنية المتوفرة فى ألمانيا التى اصبحت هى الأخرى منطقة طرد بشرى ٠ بينما سيطرت بريطانيا وفرنسا على أحسن المستعمرات وتركوا لألمانيا افقرها وأكثرها تعبا ٠

كانت عين الامبراطور الألمانى على تركيا ، وكانت التقارير تأتيه متتالية عن الخيرات الدفينة فى باطنها ٠ وكانت هناك مبالغات فى التقديرات ، ولكن القيصر كان معجبا بالفكرة فاستولت عليه وآل على نفسه أن يشرف على تنفيذها وكان اول مظهر قوى هو قيامه بزيارة (١) خليفة المسلمين ظل الله على الأرض السلطان عبد الحميد الثانى ٠ وأدت الزيارة الى ان يحصل القيصر على موافقة مبدئية على مشروعه الكبير : خط حديد برلين — بغداد — الخليج العربى ، وذهب القيصر الى القدس ، وهناك رحب العرب والمسيحيون واليهود ، كل فى نفسه هدف أو غرض خاص ٠

ونظرا لأن مشروع خط حديد برلين — بغداد ليس سوى جزءا من الصراع الدولى المحتدم منذ أواخر القرن الثامن عشر حول خطوط المواصلات العالمية عبر المشرق العربى بصفة خاصة والشرق الأدنى بصفة عامة فيجدر بنا ان نلقى نظرة عليه ٠

---

(١) زار القيصر الألمانى الدولة العثمانية مرتين ١٨٨٩ بعد توليه العرش مباشرة والثانية هى التى زار فيها بيت المقدس سنة ١٨٩٨ ٠

الفصل الثامن

الصراع الدولى على خطوط
المواصلات العالمية عبر المشرق العربى
خلال القرن التاسع عشر

وقع تطور كبير فى أوروبا فى أعقاب الثورة الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر فى انجلترا ، وادى استخدام البخار فى ادارة آلات المصانع الى تضاعف الانتاج الأمر الذى تطلب سرعة نقل الانتاج الصناعى الى الأسواق الاستهلاكية فيما وراء البحار بأسرع أساليب النقل وأرخصها • فكان طبيعيا أن تصبح العربات التى تجرها الدواب والسفن الشراعية عاجزة عن مواجهة المتطلبات الجديدة ، ولذلك أصبحت فكرة استخدام السفن البخارية فى الأنهار والبحار والمحيطات تشغل بال المعنيين بالنقل المحلى والنقل البحرى عبر القارات •

كذلك كان حجم التجارة المتبادلة بين الهند وانجلترا قد تزايد جدا فى الفترة الواقعة بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر خاصة وأن الهند اصبحت تصدر القطن الى انجلترا ليعود اليها على هيئة منسوجات رخيصة • وادى ذلك التطور فى العلاقات التجارية بين الهند وانجلترا الى زيادة عدد المشتغلين من الانجليز فى الهند فى مختلف المجالات السياسية والتجارية والاجتماعية فضلا عن المجالات العسكرية ، وهؤلاء الانجليز أصبحوا فى حاجة الى أن تكون اتصالاتهم مع انجلترا سريعة ورخيصة حتى يؤدوا واجباتهم على خير وجه ، والى أن يكون سفرهم وترددهم بين انجلترا والهند فى وقت قصير والى أن تصل المكاتبات الرسمية والرسائل البريدية الى انجلترا فى الوقت المناسب •

كل هذه الأمور كانت تؤكد للانجليز يوما بعد يوم أن طريق رأس الرجاء الصالح الطويل بسفنه الشراعية لم يعد قادرا على مواجهة متطلبات الثورة الصناعية ونتائجها أو متطلبات التوسع الاستعمارى فى الهند [1] • بل بدا واضحا ــ منذ الحملة الفرنسية

---

(١) من أهم الأسباب التى كانت تدعو الانجليز الى تجنب طريق رأس الرجاء الصالح والعودة الى طريق الشرق الأدنى : (أ) كانت الرحلة البحرية طويلة بين الميناء الانجليزى بورتسموث والميناء الهندى بمباى،ولهذا كان من الضرورى أن تختزن السفينة كميات كبيرة من المواد الغذائية لسد حاجات البحارة خلال تلك الرحلة الطويلة ولهذا كانت هذه المواد الغذائية تشغل حيزا كبيرا من السفينة • (ب) كثرة تعرض البحارة لمرض

على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) - أن الدفاع عن الهند اصبح يتطلب سيطرة عسكرية لا على طريق راس الرجاء الصالح فقط بل كذلك على الطرق القديمة العالمية عبر الشرق الأدنى. واتجهت أنظار الانجليز والرأى العام الانجليزى بقوة الى الشرق الأدنى بصفة عامة والليفانت (الحوض الشرقى للبحر المتوسط) بصفة خاصة .

وأصبحت الدوائر البريطانية ذات حساسية عالية لما يجرى فى منطقة الليفانت ، فى نفس الوقت الذى تكون فيه رأى عام بريطانى يدعو الى اسراع انجلترا فى استخدام البواخر فى المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى قبل أن تسبقها دولة أوروبية اخرى فى هذا الاتجاه ، فيصبح الدفاع عن الهند واهيا وتتعرض الامبراطورية الاستعمارية الانجليزية هناك الى الضياع . هذا الى أن عددا من الرحالة الانجليز - الذين استخدموا طريق العراق أو مصر للتردد بين الشرق والغرب - نشروا مؤلفاتهم عن رحلاتهم تلك وطالبوا باستخدام البواخر فى أحد الطريقين القصيرين عبر مصر أو العراق ، كما أنهم أسالوا لعاب المستعمرين الانجليز بما كتبوه عن الخير الوافر المادى والسياسى الذى يمكن أن يحصل عليه الانجليز اذا ما سيطرت الحكومة الانجليزية على هذين الطريقين او احدهما ، وإذا ما استخدمت البواخر فى البحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر العربى والخليج العربى والمحيط الهندى .

وجاءت هذه الاتجاهات فى وقت حلت فيه البواخر محل السفن الشراعية فى العمل بين الجزر البريطانية ، وبين انجلترا وأوروبا ، كما أصبحت البواخر تستخدم حينذاك فى انهار أمريكا الشمالية وكذلك شرعت حكومة الهند البريطانية فى تنفيذ خطوط بخارية فى انهار الهند الكبرى . وأدى النجاح المتواصل فى تلك الجهات الى أن يعمل الانجليز على

الاسخربوط . (جـ) هبوب عواصف مفاجئة تعرض السفن للتخريب والغرق . (د) كان طول الرحلة بين انجلترا والهند يجعل السفينة تصل الى الهند لتجد الوضع السياسى فيها على غير ما كان متوقعا . فقد كان يحدث أن تنشب الحرب بين انجلترا وفرنسا بعد اقلاع السفن ، وفى الطريق تجد هذه السفن نفسها فجأة فى مواجهة الأسطول الفرنسى. (هـ) الحاجة الى نقل أكبر الكميات التجارية بأسرع وقت وأرخص التكليف.
انظر :

استخدام البواخر فى رحلات محيطية . وقد شرع الانجليز فى تنفيذ هذه الخطوة الجريئة ابتداء من العقد الثالث من القرن التاسع عشر .

وكان أمام الانجليز ثلاث خطوط ملاحية يمكن استخدام البواخر فيها لربط الشرق بالغرب بمواصلات سريعة ، وهى :

١ — طريق رأس الرجاء الصالح .

٢ — طريق مصر — البحر الأحمر .

٣ — طريق الشام — العراق — الخليج العربى .

وظهر من يؤيد هذا الطريق أو ذاك ، الا ان طريقى مصر وراس الرجـــاء كانا يتصدران موضوع المفاضلة بين هذه الطرق . بينما ظل طريق العراق هامشـــيا لفترة طويلة . وكان جيمس جونستون J. Johnston هو الذى قدم مشروعا متكاملا لخط بخارى بين انجلترا والهند . وشرع جونستون فى ١٨٢٢ فى تأليف شركة للملاحة البخارية تعمل بين كلكتا والسويس ، ولكن توقفت جهوده فى هذا المشروع بسرعة لأن التطورات الداخلية فى مصر كانت كثيرة بشكل أدى الى اقتناع المشرفين على المشروع — دون وجه حق — بأن عدم الاستقرار السياسى فى مصر يعنى عدم القدرة على نقل البضـــــائع والمسافرين من السويس الى الاسكندرية فى أمن تام . ومن ناحية اخرى كانت نفقات تنفيذ هذا المشروع باهظة ومن ثم كان من العبث اقناع المساهمين بالمضى فيه طالما كان هناك ما يهدد بلقضاء على المشروع ، ومن ناحية ثالثة لم يلق هذا المشروع تأييد الحكومة فكان ذلك عاملا هاما فى أن يتحول جونستون الى طريق راس الرجاء الصالح .

أعد جونستون باخرة أطلق عليها اسم الانتربرايز Enterpize للعمـــل بين انجلترا والهند عن طريق رأس الرجاء الصالح على اعتبار أن هذا الطريق تحت السيطرة المباشرة للأسطول البريطانى ولأنه لا توجد فيه عقبات سياسية كتلك التى كانت فى مصر . وفعلا قامت الباخرة « انتربرايز » برحلتها حول رأس الرجاء الصالح ، ولكن هذه الرحلة اثبتت أن هذا الطريق الطويل لا يصلح كخط للبواخر بين الشرق والغرب [1] .

---

(١) يرجع ذلك الى أن الباخرة خلال رحلتها هذه اضطرت الى استخدام آلاتهـــا

كان طبيعيا أن تلتفت الأنظار الى طريقى الشرق الأدنى (عبر مصر أو العراق) بعد ان ثبت أن طريق راس الرجاء الصالح لا يصلح لأساليب المواصلات الحديثة البخارية ٠ ولهذا احتدم الجدل بين الداعين لطريق العراق والداعين لطريق مصر ٠ ولكن كان الطريق عبر مصر يكسب بسرعة أنصارا أكثر وهذا يرجع الى ان مصر خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر استطاعت ان تحرز تقدما ملحوظا لم نشاهد مثله فى العراق ٠ فمصر منذ ١٨٠٥ الى ١٨٤٨ كانت تحت حكم محمد على الذى صعد الى كرسى الحكم بسواعد زعماء الشعب المصرى ، واستطاع أن يثبت أقدامه فى الحكم ، وان يكسب ثقة السلطان ، وامتد حكمه خارج مصر الى شبه الجزيرة العربية ، والى السودان مسيطرا بذلك على جانبى البحر الأحمر ٠ وكان فى نفس الوقت معنيا جدا بسلامة القوافل بين السويس والاسكندرية وكانت حكومة محمد على قوية فى الداخل ولها كلمة ذات قيمة فى الخارج ٠

أما العراق فقد توالت عليه أحداث كبرى خلال الثلث الأول من القرن التاسع

البخارية خلال ٢/١ ٣ المدة فقط بينما اضطر الى استخدام الشراع فى المدة الباقية ، وتعرضت لأزمات قاسية مثل نفاذ الوقود وعندما تعطلت بعض الآلات لم تكن هناك امكانية القيام باصلاحها أو تشحيمها أثناء الرحلة ٠ وكانت المياه التى استخدمت فى ملأ خزانات المراجل مأخوذة مباشرة من المحيط وهى مياه مالحة جدا فأدى ذلك الى تلف المراجل والأنابيب ٠ وخلال الرحلات الطويلة تكون بدالات الباخرة أكثر عرضة للتلف فى الرحلات القصيرة ٠ هذا الى أن نفقات الرحلة كانت باهظة للغاية ٠

أنظر :

Hoskins, British Routes to India PP. 88 — 98 .

وهناك ظروف أخرى لعبت دورا هاما فى الاجهاز على طريق راس الرجاء الصالح ٠ ففى الوقت الذى أثبتت فيه رحلة الباخرة انتربرايز أن نفقات الرحلة حول ذلك الطريق باهظة التكاليف ومحفوفة بالأخطار قامت باخرة أخرى هى الهولندساى Hughlindsay برحلة ناجحة بين بمباى والسويس ، فازداد تحمس المسئولين لطريق البحر الأحمر ولمد خط ملاحى بخارى عالمى بين بمباى والسويس خاصة وان مصر أصبحت تتمتع منذ العقد الثانى من القرن التاسع عشر بحكومة مستقرة مركزية قوية هى حكومة محمد على ٠

عشر . فبعد وفاة سليمان باشا الكبير ١٨٠٢ توالى على الحكم فى بغداد خمس ولاة ، قتل منهم ثلاثة (١) وهم يدافعون عن حقهم فى الحكم ضد منافسيهم واستسلم خامسهم داود باشا للجيش الذى بعث به السلطان لطرده وللقضاء على حكم المماليك (١٨٣١) (٢) كذلك يلاحظ أن خمستهم تعرضوا لمضايقات عديدة من ايران بل غزت القـــوات الايرانيـــة العراق فى ١٨٢٠ (٣) ، كما تعرضت البصرة لحصار أسطول مسقط لها فى ١٨٢٦ (٤) ، والى جانب هذا وذاك كانت هناك ثورات عشائرية عربية وكردية تكاد لا تنقطع .

وهكذا كان العراق يثير مخاوف القائمين على المشروعات الكبرى الهـــادفة الى احياء العراق كطريق بين الشرق والغرب ، وتركزت الأنظـــار على مصر ، وكان حاكم بمباى منستيورات الفنستون Elphineston من أولئك الذين اقتنعوا بأن الوقت قد أزف لاستخدام البواخر فى طريق مصر فاقترح على مجلس ادارة شركة الهنـــد الشرقية بأن تستخدم باخرة تعمل بين بمباى والسويس وأخرى بين الاسكندرية والموانىء الانجليزية . وفى نفس الوقت اقترح هـ . الفنستون بأنه فى حالة تعذر استخدام طريق مصر — اذ كان هو الأساسى فى مشروع الفنستون — يصبح طريق العــراق بديلا له فى الظـــروف الحـــــــرجة (٥) .

استطاع م . الفنستون أن يذلل بحماسه كثيرا من العقبات التى اعترضت مجهوداته لاثبات أن طريق مصر هو الذى يجب أن تسير فيه البواخر ، حتى أنه بعد انتهاء مدة عمله

---

(١) وهم سليمان القتيل (١٨٠٨ — ١٨١٠) وعبد الله (١٨١٠ — ١٨١٣) وسعيد (١٨١٣ — ١٨١٦) .

(٢) أنظر : ع . نوار : داود باشا والى بغداد . الفصل السابع .

(٣) المرجع السابق : الفصل الرابع .

(٤) C. Aitchison, Acollection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India Reute Said : Said Bin Sulton .

لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث .

(٥) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين الجزء السادس ، ع . نوار . داود باشا والى بغداد : لفصل الثالث .

كحاكم لبمباى سافر عن طريق مصر للدعاية لفكرته (١٨٢٧) • ومما ساعد على ازدياد اهمية مصر فى هذا المجال ان خليفة الفنستون فى حكم بمباى — وهو جــــون مالكولم Malcolm — كان متحمسا هو الآخر لطريق مصر . فاستمر مالكولم فى نفس الاتجاه الذى سار فيه سلفه ، وقام بمجهودات كبيرة من أجل دراسة هــذا الطريق من الوجهـــــة الفنية (١) ، كما أنشئت مراكز لتموين البواخر على طول الطريق (٢) ووضـــــع مالكولم مشروعا يقوم على أساس استخدام بواخر خفيفة وسريعة فى هذا الطريق ، وتعمـــــد ارسال البريد الحكومى عن طريق مصر ليثبت للمسئولين فى لندن قيمـــة هذا الطـريق وصلاحيته ، وكان تحمس جون باركر القنصل الانجليزى فى مصر لمشروعات مالكولم هذه عاملا هاما فى نجاح تلك الخطوات الأولى • ولكن تأييد محمد على — والى مصر — لتلك الخطوات ، وموافقته على نقل البريد والمسافرين بين السويس والاسكندرية كانت عاملا حاسما فى ذلك النجاح الذى أحرزه مالكولم (٣) •

ولم هناك عقبات تحول دون التنفيذ النهائى للمشروع سوى عدم موافقة حــكومة لندن عليه،وعدم قيامها ببعض الاجراءات الضرورية الأخرى وعلى رأسها مد خط البواخر بين بورتسموت ومالطة الى الاسكندرية (٤) حتى يصبح المشروع متكاملا • ولكن حكومة لندن أهملت هذا الموضوع ، ومع هذا استمر جون مالكولم فى مجهوداته حتى ترك منصبه فى عام ١٨٣٠ فكتب تقريرا مطولا عن تلك التجارب وقيمتها ، ووضع فى تقريره هذا — بالتعاون مع أخيه سير تشارلز مالكولم (المشرف العام على الأسطول الهندى) — مشروعا جديدا يهدف الى استخدام خط بخارى حكومى بين بمباى والسويس لنقـــــل البريد الهنـــــــــــــدى •

---

(١) كان من المعروف أن العواصف المفاجئة فى البحر الأحمر كانت شديدة الخطورة على السفن البخارية ، هذا فضلا عن أن البحر الأحمر لا يحتوى على موانىء طبيعية وأنه عميق جدا لا تصل المرساة لقاعه •

(٢) فى مخا وعدن وجدة والقصير والسويس •

(٣) Hoskins, British Rerites, PP. 104 — 105.

(٤) كان خط البواخر يمتد من بورتسموت الى مالطـــة فقط دون ان يصـــل الى الاســــــكندرية •

ويبدو أنه كان يرى أن النجاح فى استخدام البواخر بين بمباى والسويس سيؤدى حتما الى حث حكومة لندن على مد خط بواخرها من مالطة الى الاسكندرية وبذلك تتم حلقات المشروع ويصبح فى وسع المسافر أن يستخدم البواخر من بمباى الى السويس ثم الطريق البرى القصير بين السويس والاسكندرية ثم بالبواخر مرة اخرى من الاسكندرية الى انجلترا مباشرة ٠ ولكن مرت عدة سنوات دون أن تقدم حكومة لندن على تلك الخطوة الهـــــــــامة (١) ٠

ان تلك المشروعات التى لم تحقق هدفها النهائى كانت مشروعات بين مندوبى شركة الهند الشرقية وحكومة لندن ، وكانت المباحثات فى هذا الشأن ذات طابع حكومى مرتبط ارتباطا قويا بالبيروقراطية الانجليزية البطيئة ٠ كان هناك فى نفس الوقت جمـاعة من المغامرين الانجليز الذين اعتقدوا أن مثل هذه المشروعات اذا تولتها شركة من الشركات الكبرى فانها ستحقق ما عجزت الحكومة عن تحقيقة ٠ وكان من أشهر هؤلاء المغـــامرين ثلاثة هـــــــم :

١ ــ جيمس و ٠ تيلر J. Taylor وهو أخو الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد ٠

٢ ــ توماس واجهورن T. Waghorn

٣ ــ فرانسيس راودن كسنى F. R. Chesney الذى اشتهر بقيادة بعثة الفرات بين (١٨٣٤ ــ ١٨٣٨) ٠

كان جيمس تيلر فى اول الأمر من دعاة مشروع استخدام البواخر فى طريق مصر (انجلترا ــ الاسكندرية ثم السويس ــ بمباى والعكس) ولكن لم يستطع أن يعمل بحرية فى هذا المجال حيث أن جون مالكولم ــ عندما كان حاكما على بمباى ــ كان لا يوافق على قيام الأفراد بتلك المشروعات الكبرى وانما كان يصر على أن تتولى الدوائر الحكومية هذه المشروعات ٠ فأدى ذلك الى أن يترك جيمس تيلر مجال مصر لمالكولم واتجـــه تيلر الى دراسة امكانية استخدام البواخر فى طريق العراق (انجلترا ــ الساحل السورى ــ نهر الفرات ــ الخليج العربى ــ الهند) ٠ وكان طريق العراق قد بدأ يكسب الدعاة خــلال

(١) Hoskins, op. cit, P. 109 — 111.

الثلث الأول من القرن التاسع عشر كما كان بعض الرحالة قد فضلوا طريق العراق عند سفرهم من الهند الى انجلترا من أمثال بكنجهام (١) وهود (٢) . وقد فضل جيمس تيلر أن يسافر عن هذا الطريق نفسه للدراسة وللدعاية .

ومما لا شك فيه أن وجود روبرت تيلر R. Taylor — كوكيل سياسى لبريطانيا فى بغداد — كان عاملا هاما من العوامل التى جعلت جيمس تيلر — وهو اخو روبرت تيلر — ينظر الى العراق ويلتفت اليه رغم ان سمعة العراق كانت سيئة بسبب كثرة الفتن الداخلية فيه بشكل لا يبشر بانه سيصلح كممر عالمى سريع بين الشرق والغرب . وعلى اى حال غادر جيمس تيلر الهند الى العراق . وهيأ له أخوه الامكانيات اللازمة لصعود نهر دجلة حتى بغداد . وهناك تدارس الأخوان معا خطة عمل سياسى اقتصادى لتنفيذ المشروع الكبير الذى يربط الهند بالبحر المتوسط وباوروبا بواسطة بواخر تعمل فى أنهار العراق . وكان طبيعيا ان يمتزج العمل التجارى بالعمل السياسى حيث أن « جيمس » كان يفكر تفكيرا اقتصاديا بينما كان أخوه « روبرت تيلر » يفكر تفكيرا سياسيا عسكريا فى نفس الوقت ، فقد إتصل جيمس تيلر بداود باشا والى بغداد (١٨١٦ — ١٨٣١) . وعرض عليه مشروعه . مبينا له ما سيعود على العراق من وراء ذلك من مكاسب كبيرة . ويقال ان داود وعد جيمس تيلر بأن يعطى الانجليز حق استخدام البواخر فى نهر دجلة لمدة عشر سنوات وحق احتكار الانجليز تزويد البلاد بالأسلحة (٣) .

ان امتيازا كهذا كان كفيلا بأن يشحذ همم الأخوان جيمس وروبرت تيلر وأن يفتح مجالات واسعة أمام الانجليز فى العراق وفى المنطقة بأسرها . ولكن شاء القدر أن يقضى جيمس تيلر نحبه قرب الموصل . فمات ومات معه ذلك الامتياز (٤) .

أما منافسه واجهورن Waghorn الداعى الى مشروع البواخر فى طريق مصر فلم يلق هو الآخر نجاحا كبيرا . حقيقة كان هناك متحمسون كثيرون لمشروعه ولكن دون أن ينتقل التحمس الى مرحلة التنفيذ . ومع أن بعض البواخر قامت بعدة رحلات بين بمباى

(١) Buckingham

(٢) Heude

(٣) انظر د. نوار : داود باشا .

(٤) المرجع السابق .

والسويس وثبتت جدوى استخدامها بين هذين الميناءين • الا أن الحكومة الانجليزية تقاعست عن استخدام البواخر بين الاسكندرية ومالطة ، مع أن البواخر كانت تعمل فعلا بين مالطة والموانيء الانجليزية • فكان هذا عاملا هاما فى تعطيل المشروعات العديدة التى وضعت فى الهند لانشاء خطوط بخارية بين بمباى - السويس ثم الاسكندرية والموانيء الانجليزية • ووجهة نظر الحكومة البريطانية فى الامتناع عن مد خط بواخرها من مالطة الى الاسكندرية هى أن مثل هذا الأمر يتطلب أولا الدخول فى مفاوضات معقدة مع الحكومة العثمانية لعقد معاهدة بشأن استخدام البواخر فى المياه العثمانية وبشأن نقل التجارة والمسافرين من السويس الى الاسكندرية وبالعكس • وكانت الحكومة الانجليزية تعتقد أن هذه المشروعات قد تورطها فى أزمات دولية هى فى غنى عنها •

ولكن وقعت سلسلة من التطورات السياسية والاقتصادية الكبرى فى انجلترا نفسها وخارجها وفى مجالات السياسة الدولية أدت الى أن يعيد المسئولين الانجليز النظر فى موقف الحكومة الانجليزية من المشروعات العديدة المطروحة أمامها بشأن استخدام البواخر فى خطوط منتظمة بين الموانيء الهندية والمصرية والانجليزية •

وعلى رأس هذه التطورات :

١ - أصبح التنافس العالمى التجارى شديدا بين الدول الكبرى الأوروبية منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر وكلما كانت تحت يد الشركات الكبرى امكانيات سريعة لارسال التعليمات والرد على الطلبات كانت فرص الأرباح تتزايد بسرعة • وحيث أن السوق الهندية وأسواق الصين أصبحت مفتوحة أمام التجارة البريطانية ، فان الشركات فى انجلترا شعرت برغبة ملحة فى أن تكون اتصالاتها بالهند والشرق الأقصى سريعة حتى يمكن تلبية الطلبات فى أقصر وقت ، ولهذا كانت هذه الشركات تلح على الحكومة البريطانية من أجل انشاء خط بواخر بين بورتسموث والاسكندرية للتعاون مع خط بين السويس وبمباى من أجل نقل المراسلات التجارية بصفة خاصة والبريد بصفة عامة بواسطة البواخر •

٢ - لقد أصبح لفرنسا نشاط كبير جدا فى البحر المتوسط ، فقد شاركت فرنسا فى تدمير الأسطول المصرى العثمانى فى نوارين ١٨٢٧ ، وأرسلت حملة بحرية لحصار

الجزائر فى أعقاب ذلك، ثم أنزلت جيوشها لاحتلال الجزائر ابتداء من ١٨٣٠، وكان الانجليز الى جانب هذا يعتقدون أن محمد على لم يقم بهجومه الكبير على سوريا فى أكتوبر ١٨٣١ الا بتحريض من فرنسا ، هذا الى ان فرنســا عنيت عناية واضحة باستخدام البواخر فى البحر المتوسط وانشأت فعلا خطا بخـــاريا بين مينائى مرسيليا والاسكندرية ١٨٣٥ ، وخشى الانجليز من ان يصبح البحر المتوسط بعد وقت وجيز بحيرة فرنسية ٠ وكان الرأى العام الانجليزى شديد الحساسية لمثل هذه النشاطات الفرنسية ٠

٣ — كان التوسع المصرى فى سوريا (١٨٣١ — ١٨٣٣) سريعا وقويا بشـــكل لم تكن تتوقعه الحكومة الانجليزية ٠ وكانت تعتقد أن محمـــد على سيكتفى بتثبيت الامتيازات التى حصل عليها من الباب العالى وبالاكتفاء بضم عكا دون بقية أجزاء سوريا ، ولكن محمد على أصر على أن يسيطر على كل سوريا وبالتالى أصـــبح طريق مصر وطريق العراق فى قبضته ، حيث أن من يسيطر على الشام يسيطر بالتالى على طريق العراق ٠ ثم أن التوسع المصرى فى الشام جعل العراق نفسه قاب قوسين أو أدنى من الانضمام الى مصر ضد السلطان العثمانى وهو أمـــر كانت تبغضه الامبريالية الانجليزية كل البغض ٠ وفوق هذا وذاك دخلت روسيا فى ١٨٣٣ طرفا ثالثا بين الحكومة العثمانية ومصر ، عندما عقد قيصر روسيا مع السلطان العثمانى معاهدة خنكار سكله سى ١٨٣٣ (١) ، التى جعلت الدولة العثمانية — من وجهة نظر الانجليز — تحت الحماية الروســـية ، واصبحت انجلترا تخشى على طريق العراق لا من مصر فقط بل كذلك من الروس أيضا ، فلقد حذر الوكيـــل السياسى الانجليزى فى بغداد حكومته من ان الروس سيستغلون معاهدة خنكار سكله سى الى أقصى حد ممكن ، وأن الروس لن يتوانوا عن استغلال انهار العراق فى مشروعات تقوض المصالح البريطانية فى المنطقة وتهدد الهند تهديدا خطيرا (٢) ٠

---

(١) معاهدة هجومية دفاعية قصد بها السلطان العثمانى الاستعانة بالروس ضـــد التوسع المصرى ٠ أنظر نصوصها فى :

Hurewitz; Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. I, p. 106

Taylor to Secret Committee, October 10, 1823; India Office Records, Persia and Pérsian Gulf, Vol. 51, pp. 357—390; March 17, 1834; Ibid; Vol. 50 pp. 193—204; F. O. 78/371: Werry to Palmerston; July 5, 1839.

ولقد وضعت الحكومة الانجليزية سياستها على اســـــاس ارغام مصر (١) على الانسحاب من سوريا ومن شبه الجزيرة العربية على اعتبار أن مصر المسئولة عن هزيمة السلطان العثمانى ، وبالتالى عن عقد الأخير لمعاهدة خنكار سكله سى مع قيصر روسيا . ورأت بريطانيا أن نفوذها الامبريالى فى منطقة الشرق الأوسط يتوقف على ابعاد روسيا عنه وعلى انسحاب المصريين من الشام وشبه الجزيرة العربية .

وكان ابعاد المصريين عن سوريا يحقق لانجلترا فى الوقت نفسه بقاء طريق العراق بعيدا عن متناول الروس والمصريين .

بحثت الحكومة الانجليزية هذا الموقف بالتفصيل ووجدت أن هناك طريقين لتحقيق أهدافها فى الشرق الأوسط :

الطريق الأول : هو استخدام القوة المسلحة ضد مصر وارغامها على الخـــروج من سوريا ومن شبه الجزيرة العربية .

الطريق الثانى : هو وضع بواخر بريطانية مسلحة فى نهرى دجلة والفرات تحول دون انضمام العراق الى مصر انضماما فعليا .

وفضلت الدوائر السياسية الانجليزية هذا الطريق الثانى ، وطلبت من الباب العالى أن يصدر فرمانا يسمح لها باستخدام باخرتين فى نهر الفرات بقصد العمل على تنشيط التجارة . وبعد تردد أصدر السلطان فرمانا فى ديسمبر ١٨٣٤ بهذا المعنى (٢) .

وبناء على ذلك ارسلت الحـــــكومة الانجليزية الكابتن فرنسيس راودن جسنى Chesney على راس بعثة تتكون من سفينتين بخاريتين الى الشاطىء السورى ، ثم نقلت هاتان الباخرتان الى بيره جك فى أعالى الفرات وركبتا هناك ، وأخذتا فى هبوط نهـــر الفرات ، وقد غرقت احدى الباخرتين بينما استمرت الثانية وهى الباخرة (الفرات) فى هبوطها للنهر حتى القرنة ، ثم صعدت نهر دجلة الى بغداد ثم عادت الى شط العرب .

---

(1) Rebort Taylor to India Board. March 14, 1834. F.O. 78/245

(٢) انظر التحليل التفصيلى لظروف اصدار هذا الفرمان فى كتابنا « المصـــالح البريطانية فى أنهار العراق » . مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٨ الفصل الثالث .

فقامت بدراسة واسعة لأنهار العـــراق ، وكان من المقرر أن تنتهى بعثـــة جسنى فى ٣١/١/١٨٣٧ ، وفعلا انتهت البعثة فى ذلك التاريخ ، ولكن ظلت الباخرة فى الميـــاه العــــــراقية ٠

وعندما وقعت معركة نزيب بين الجيوش العثمانية والمصرية فى يونيـــو ١٨٣٩ وأصيبت الجيوش العثمانية بهزيمة نكراء ، أسرعت انجلترا الى تعزيز قوتها فى العراق ضد أية اتجاهات مصر نحوه ، فأرسلت على عجل ثلاث بواخر مســـلحة انضمت الى الباخرة (الفرات) فى العراق ووقفت هذه البواخر الأربع فى أنهار العراق على أهبـــة الاستعداد لمنع انضمام العراق الى مصر ٠ وهكذا أصبح العراق قاعدة انجليزية ضـــد مصر (١) ٠

واستمر الحال على هذا النحو حتى ارغمت الجيوش الأوروبية الجيش المصرى على الانسحاب من الشام ثم من شبه الجزيرة العربية وبعد ذلك سحبت انجلترا بواخرها من المياه العراقية فيما عدا باخرة واحدة كانت نواة للقوة البحرية المسلحة الانجليزية فى المياه العراقية تلك القوة التى ظلت موجودة فى العراق حتى سقوطه فى يد الانجليز سنة ١٩١٧٠

وهكذا كان العراق خلال أزمة التوسع المصرى قاعدة ضد المصريين (١) تحت ستار مشروعات خطوط المواصلات العالمية وتنشيط التجارة ٠ ولم يلبث الانجليز أن أهمـلوا العراق لأن سياستهم اتجهت نحو تفضيل مصر كطريق سريع بين الهند وأوروبا ٠ وفى هذا يقول السير جو هبهوس Hobbhouse فى مجلس العموم البريطانى أن الغـرض من مد خطوط الملاحة البخارية بين الهند وانجلترا غرض قومى ٠ وحتى لو نجحت بعثـــة جسنى فى اثبات أن نهر الفرات صالح للبواخر ولربط الشرق بالغرب فانه لا بد أيضا من استخدام الطريق عبر مصر والبحر الأحمر ٠ وهذا يؤكد لنا أن الطريق عبر مصر كانت له دائما الأفضلية لدى الانجليز ٠ حتى أن هوسكنز Hoskins كان يرى أن النقد الحقيقى الذى يوجه الى بعثة الفرات هو أنها عطلت أمر استخدام طريق مصر (٢) ٠

---

(١) عن هذا الموضوع أنظر دراستنا التفصيلية فى تاريخ العراق ١٨٣٠ — ١٨٧٢ الفصل الخامس والسادس ٠ وانظر كذلك ٠

F. R. Chesney; The Expidition for the Survey if the River Enphrates and Tigris; London 1850, Vol. I-II; Hoskins; British Routes to India Chapters VI - VII.

وخلال الفترة التى كانت فيها بعثة الفرات تعمل فى العراق كانت عدة بواخر محيطية كبيرة على وشك الانتهاء فى أحواض السفن الانجليزية لاستخدامها فى البحر المتوسط ، وفى نفس السنة التى انتهت فيها بعثة الفرات رسميا تشكلت لجنة برلمانية جديدة ألقى على عاتقها دراسة أحسن الوسائل التى يمكن بواسطتها انشاء خطوط مواصلات بخارية مع الهند عن طريق البحر الأحمر ۰ وكان من الطبيعى أن تتجاهل مثل هذه اللجنة التقارير التى وضعت عن بعثة الفرات ۰ وكان التقرير الذى قدمته هذه اللجنة يؤكد ضرورة انشاء خط ملاحة تجارى بين السويس وبمباى (١٨٣٧) ۰ ووقعت عدة تطورات جعلت طريق البواخر عبر البحر الأحمر أكثر سهولة للانجليز وأهم هذه التطورات :

١ ـ مد الخط الملاحى البريطانى من مالطة الى الاسكندرية ومن ثم أصبحت الرحلة مباشرة بين الاسكندرية وانجلترا بواسطة البواخر ۰

٢ ـ الاتجاه الى احلال البواخر فى الأسطول الهندى محل السفن الشراعية ۰

٣ ـ الاحتلال الانجليزى لعدن سنة ١٨٣٩ التى اصبحت من اهم محطات تزويد البواخر بالفحم (١) ۰

وخلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر كانت محطات الفحم متوفرة فعلا على طول الطريق الملاحى بين الهند والسويس ، ونظم الانجليز ـ منذ أواخر الثلاثينات ـ رحلات بخارية بين بمباى والسويس ، وبين الاسكندرية وموانىء انجلترا واستخدام طريق البحر الأحمر على نطاق واسع منذ ذلك الوقت خاصة بسبب التحسينات التى ادخلت على البواخر التى أصبحت أكثر سرعة واتساعا عن ذى قبل الأمر الذى جعل فكرة شق قناة السويس اكثر الحاحا عما مضى (٢) ، ثم ان المسافة بينا السويس والاسكندرية رغم أنها قصيرة الا أنها كانت شاقة بالنسبة لنقل البضائع والمسافرين على حد سواء ۰ ولهذا ظهرت مشروعات انجليزية لمد خطوط حديدية بين السويس والاسكندرية ۰ فعلاوة على ان هذا الخط الحديدى يعطى نفوذا كبيرا لانجلترا فى مصر ،

(1) Hoskins, op. cit. pp. 197-207

(2) Ibid, pp. 183-235.

فانه سيحل كذلك مشكلة النقل بين السويس والاسكندرية ، ولقد كانت لدى الانجليز رغبة قوية فى أن يرسلوا بريدهم الى الهند عن طريق مصر ، وكان من قبل يرسل عن طريق العراق وذلك بسبب المشاغبات التى لا تنقطع فى العراق بين الحكومة والعشائر العربية الأمر الذى كان يعرض البريد من وقت لآخر للضياع . ومن هنا نتبين أن انظار الانجليز والفرنسيين على السواء أصبحت مركزة على مصر أكثر من العراق منذ بداية الأربعينات من القرن التاسع عشر ، وظهرت الدعوات القوية الى أن مد خط حديدى من الاسكندرية الى السويس خير من مد خط حديدى من الساحل السورى وعبر العراق الى الخليج العربى ، خاصة وأن عباس الأول — والى مصر — كان متحمسا لمشروع الخط الحديدى عبر مصر (١) .

وعمل الباب العالى على منع عباس الأول من المضى فى مشروع خط حديد السويس الاسكندرية، كما عمل على التدخل فى أمور مصر بما يحقق له أهدافه، ومع ذلك شرع عباس الأول فى تنفيذ الخط الحديدى بين السويس والاسكندرية ، ذلك الخط الذى تم فعلا بعد وفاة عباس (٢) .

لقد كان الانجليز أسرع فى الوصول الى تفاهم مع عباس الأول لمد خط حديدى يربط الاسكندرية بالقاهرة بالسويس . وتم لهم ذلك فى ١٨٥٢ . ورأى الانجليز أن هذا الخط يغنيهم عن المشروعات العديدة التى كانت تروجها فرنسا لشق قناة السويس أو المشروعات التى كان يروجها المتحمسون لمد خط حديدى على طول نهر الفرات . وكان طبيعيا أن يثير هذا العمل الذى أقدم عليه عباس الأول — دون أخذ موافقة الباب العالى — حنق الدوائر العثمانية عليه . ووقعت أزمة شديدة بين عباس والسلطان كان لها أثر على العراق .

فقد تنبه الباب العالى الى أنه أهمل المشروعات المتعددة التى ترددت بشأن مد خطوط حديدية على طول العراق تربط البحر المتوسط بالخليج العربى . ووجد أن مد

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل الجزء الأول ص ١٤ .

خط حديد الاسكندرية — القاهرة — السويس يقضى على أى أمل فى جعل العراق طريقا عالميا للمواصلات • فتحرك الباب العالى معترضا على حق عباس فى أن يقدم على مشروعه سالف الذكر ، وأخذ الباب العالى يردد بعد وفاة عباس الأول تحـول تيار السياسـة المصرية صوب الفرنسيين لأن سعيد باشا كان يميل اليهم واصدر امتياز شق قنـاة السويس لشركة عالمية فرنسية الطابع • ولكى تقضى انجلترا على هذا المشروع الفرنسى لجأت الى احياء طريق العراق ، وقامت دعايات بريطانية قوية نحو مد خط حديدى على طول العراق يربط بين البحر الأحمر والخليج العربى• وأصبح التنافس بين مشروع خط حديد العراق (الانجليزى) ومشروع شق قناة السويس (الفرنسى) على أعلى المستويات الدولية • بل كان حجر الزاوية فى السياسة الشرقية للدول الأوروبية الكبرى • وتزعم فرانسيس داودن جسنى Chesney وكذلك اندرو Andrew حركة الدعـــاية لمد خط حديدى على الفرات (١) ، وامتدت هذه المشروعات الانجليزية الى أوروبا نفسها حتى لقد طالب دعاة المشروع باقامة معبر بين كاليه ودوفر لتسهيل السفر والنقل من انجلترا الى القارة الأوروبية الى العراق بخطوط حديدية متصلة • وأغرى جسنى حكومته بأن زراعة الطقن فى العراق سيفوق ما تنتجه مصر ويصبح العراق متفوقا فى تصديره الأمـر الذى سيؤدى الى الحصول على أرباح وفيرة من عمليات نقل القطن بالسـكة الحديدية التى سيملكها الانجليز •

والواقع أن فرنسا كانت فى الوقت الذى تركز فيه جهدها من أجل تنفيذ مشروع قناة السويس ، كانت تنافس بريطانيا أيضا فى مشروعات خطوط المواصلات العالمية عبر العراق • وهكذا كما كانت بريطانيا تشاكس فرنسا فى مشروع قناة السويس ، كانت فرنسا تشاكس بريطانيا فى مشروع خط حديد الفرات •

كذلك كان السفير البريطانى فى الاستانة السير بولور Bulwer من المتحمسـين لمشروع خط حديد الفرات ، ويبدو أن ذلك شجع المتحمسين من الرأسماليين الانجليز لهذا الخط للتقدم الى السلطان العثمانى للحصول على امتياز مد خط حديدى فى العراق فى وقت قريب من صدور امتياز قناة السويس • ولكن بينما صدر امتياز قناة السويس (١٨٥٤/١٨٥٦) لم يصدر امتياز خط حديد الفرات • والسبب فى عدم صـدور امتياز خط حديد الفرات هو أن السلطات البريطانية الحكومية المسئولة — وعلى راسـها

بالمرستون Palmerston كانت تعارض فى مد أى من الخطوط العالمية السريعة سواء فى العراق أو فى مصر ٠

لقد كان بالمرستون يقدر تماما أن قناة السويس الفرنسـية ستقضى على مكانة بريطانيا الامبريالية ، وأن طريق الفرات لا يستطيع أن ينافس القناة أو أن يحافظ على مكانة انجلترا فى العراق ٠ ولهذا لم يكن من مصلحة بريطانيا فى نظره مد خط حديدى فى العراق أو شق قناة السويس فى مصر ، وانما الذى يهمه هو عدم القيام بهذه المشروعات الكبيرة لتظل لبريطانيا اليد العليا فى العراق ومصر ٠ وحاول الفرنسيون اخراج الانجليز من صلابتهم بأن عملوا على اغراء الانجليز بانشاء جبهة انجليزية فرنسية تشرف على خطوط المواصلات عبر الشرق الأدنى ولكن دون جدوى (١) ٠ بل شعر الانجليز أن فرنسا بعد حرب القرم أصبحت أكثر خطورة على مستقبل الأطماع البريطانية سواء فى الشرق الأوسط او فى الشرق الأقصى ٠

بل لقد دخلت فرنسا مجال المنافسة الفعلية على طريق العراق أيضا٠وربما هدفت فرنسا من وراء ذلك أن تظهر أمام بريطانيا بأن طريق مصر والعراق — فى آن واحـد — سيصبحا فى أيد فرنسية ، الأمر الذى يجعل فرنسا قادرة على مساومة انجلترا بصلابة أكثر على أساس أن يتنازل الفرنسيون عن مشروعاتهم فى العراق فى مقـابل أن يتخلى الانجليز عن معارضتهم لمشروع شق قناة السويس ٠ وفعلا تقدم الفرنسيون سنة ١٨٥٦ الى السلطان العثمانى بمشروع لمد خط حديدى على طول نهر الفرات ٠ ولكن الانجليز لم يتحولوا عن سياستهم ولم يتخلوا عن معارضة كل هذه المشروعات الفرنسية سواء فى العراق أم فى مصر ، ونجحوا فعلا فى القضاء على المشروع الفرنسى الخاص بخط حديد الفرات ، كما استمرت معارضتهم لمشروع شق قناة السويس ٠ واستمرت هذه المعارضة أثناء عمليات الحفر حتى انتهت هذه العمليات بنجاح وافتتحت قناة السويس فى ١٨٦٩ ٠ فكان ذلك تحولا حاسما فى التاريخ وأصبح الطريق بين الشرق والغرب بواسطة قنـاة السويس هو الأكثر تفضيلا لدى الدول وتزاحمت السفن والبواخر على عبور هذه القناة منذ ذلك التاريخ ٠

---

(1) Hoskins, op. at. pp. 335-336.

ولقد أصاب العراق بعض الفوائد من وراء شق قناة السويس . وذلك لأن اتصال العراق بأوروبا قبل شق القناة كان يتم بواسطة الطريق البرى الطويل الخطر المؤدى الى الموانىء السورية . وكانت نفقات النقل بين أوروبا والعراق عالية ، أما بعد افتتاح قناة السويس فقد أصبحت اتصالات العراق بأوروبا مباشرة بواسطة السفن البخارية التى تستطيع أن تقوم برحلتها — دون عقبات — بين الموانىء الأوروبية والبصرة . ولهذا نجد أن عدد البواخر الراسية فى ميناء البصرة كان قد تزايد بشكل ملحوظ بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ بسبب كثرة ورود السفن الأوروبية الى البصرة عن طريق القناة فكان ذلك عاملا هاما فى نمو العلاقات بين العراق وأوروبا ، فصدر العراق التمور والحبوب الى أوروبا بتكاليف نقل أقل عن ذى قبل . كما صدر التمور والصوف الى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكثرت الكميات التى استوردها العراق من منتجات أوروبا الصناعية (١) .

ولكن من ناحية اخرى ، كان العراق قبل افتتاح قناة السويس يستورد البن من اليمن والمنتجات الهندية العديدة ليصدرها الى دمشق وحلب . وبشق قناة السويس أصبح من الأرخص نقل متاجر الهند مباشرة الى السواحل السورية ، وكذلك بالنسبة لنقل منتجات اليمن الى الموانىء الشامية .

لقد بدا بسرعة كان قناة السويس أصبحت شريان الحياة بالنسبة للعلاقات التجارية بين أوروبا والشرق الأقصى ، وأن الطريق الثانى عبر العراق فقد قيمته فى هذا المجال،وشعر الباب العالى ان هذه الميزة الكبرى التى حصلت عليها مصر يجب ان ينافسها العراق فيها ، وندم المسئولون العثمانيون على تفريطهم فى حق العراق فى هذا الشأن وتقاعسهم عن تنفيذ بعض المشروعات الكبرى التى كانت تعرض عليهم . وكان مدحت باشا — المصلح العثمانى الشهير — من اكثر المتحمسين للعمل على احياء طريق العراق بين الشرق والغرب ، كما انه دعا الى أن يفيد العراق الى أقصى درجة ممكنة من قناة السويس . ولهذا كان حكمه للعراق (١٨٦٩ — ١٨٧٢) نقطة تحول هامة فى تاريخ هذه البلاد .

---

(١) يعقوب سركيس : مباحث عراقية : جـ ٢ ، ٢٧٦ — ٢٧٧ .

وضع مدحت مشروعه على أساس :

١ ـ توصيل الساحل السورى بأعلى نهر الفرات بطريق برى ·

٢ ـ ازالة العقبات التى تحول دول استخدام البواخر فى أنهار العراق ·

٣ ـ ربط البصرة بالاستانة بخط بواخــر مباشر يعمل بين البصرة والخليج العربى ، والبحر الأحمر ، وقناة السويس ، والبحر المتوسط ، والاستانة ·

وبالنسبة للطريق البرى بين الساحل السورى ونهر الفرات ، فقد أقام على طول هذا الطريق البرى نقطا للحراسة لمنع العشائر ـ التى يمر هذا الطريق بالقرب منها ـ من التعدى على القــوافل ·

وفيما يتعلق بنهر الفرات عنى مدحت باشا عناية كبيرة بدراسته لتحديد العقبات التى حالت دون استخدام البواخر فيه على نطاق واسع ، واستقدم « كراكات » لازالة هذه العقبات ، وأما ربط البصرة بالاستانة بالبواخر فهو المشروع الذى لقى نجاحا أكبر فى الوقت الذى لم تسفر مجهودات مدحت فى نهر الفرات وفى الطريق البرى بين الفــرات والساحل السورى الا عن نجاح محلى فقط · ولم يلبث هذا النجاح أن تلاشى بعد رحيل مدحت عن العراق · أما البواخر التى استقدمها مدحت باشا لتعمل بين البصرة والاستانة فقد استمرت فى القيام برحلاتها حتى بعد رحيل مدحت عن العراق ١٨٧٢ (١) ·

---

(١) عن مدحت فى العراق وعن مشروعاته هذه انظر : عباس العــزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين · جـ ٧ ، ص ٢٠٩ مدحت : تبصرة عبرت ، ٩٨ .

★ ع · نوار : تاريخ العراق الحديث الفصل الحادى عشر وعن مدحت فى العراق بصفة عامة · أنظر الفصل العاشر والحادى عشر ، ومجموعة كبــيرة من الوثائق التى صــورت من دور المحفوظات البريطانيــة

India Office and Public Record office

محفوظة بكلية الآداب بجامعة عين شمس · وكذلك عن اعماله أنظـر صحيفة (زوراء) التى أصدرها فى العراق عقب وصوله اليه واليا فى ١٨٦٩ ، وكتب احمد امين عنه فى كتابه زعماء الاصلاح وكتب حيدر مدحت كتابا باللغة الانجليزية وآخر باللغة الفرنسية عن أبيه مدحت باشــا هما : The Life of Midhat Pacha, Midhat Pacha.

لم تستطع تلك المجهودات التى بذلها مدحت باشا فى العراق أن ترفع العراق الى مستوى المنافسة الحقيقية لقناة السويس ، ومن ناحية اخرى اصبحت مصر هـــــدفا رئيسيا من أهداف الاستعمار البريطانى للسيطرة على هذا الممر المائى العظيم ٠ وساعدت الظروف المحلية والدولية الاستعمار البريطانى على احتلال قبرص مفتاح مصر الشمالى (١٨٧٨) ، وتطورت الأمور بسرعة ، فنشبت الثورة العرابية التى اصرت على أن تضع مصالح الوطن العربى والشعب المصرى قبل مصالح الأجانب ، وعلى ان يحكم الشعب نفسه بنفسه ، فأسرعت انجلترا الى ضرب الثورة العرابية فى مهدها مستخدمة القـــوة المســـلحة واحتلت مصر ١٨٨٢ ٠

ولقد كان من مصلحة الاستعمار البريطانى فى مصر أن لا تنفذ اية مشروعات تحيى طريق العراق حتى لا ينادد قناة السويس ٠ ومع هذا ظهرت المشروعات التى تعمــل على احياء طريق العراق ليكون بديلا لقناة السويس ٠

ولقد اثير فعلا موضوع استخدام خطوط مواصلات عالمية بديلة لقنـــاة السويس بواسطة بعض المفكرين الانجليز ومنهم اللورد لمنجتون الذى طالب باعادة النظر فى هـــذا الموضوع الحساس على اعتبار أن الاعتماد كلية على قناة السويس فى أمور النقل البحرى التجارى والعسكرى يعرض المصالح البريطانية لأخطار جسيمة لو حدث وتعطل استخدام القناة لأمر من الأمور ٠ وقد أثار لمنجتون فى احد جلسات اللوردات فى يوليو ١٨٨٣ نقطة طريفة وهى أن آخر لجنة شكلت للنظر فى مشروع مد خط حديدى بين البحر المتوســط والخليج العربى يمتد على طول نهر الفرات كانت فى ١٨٧٢ ، وأن تلك اللجنة استفسرت عن هذا المشروع من ٣٥ خبيرا بالموضوع ٠ وبين هؤلاء ثلاثون أيدوا مشروع مد الخط الحديدى على طول نهر الفرات وخمسة فقط هم الذين عارضوه ، ومع هـــذا رفضت الحكومة الأخذ برأى هذه الأغلبية الساحقة من الخبراء ، وركزت الحكومة جهودها فى السيطرة على قناة السويس حتى تم لها ذلك وأهملت طريق الفرات ٠ واشار لمنجتون الى أن هذا تقصير من جانب الحكومة البريطانية حيث ان تكاليف مد الخط الحديدى على طول العراق لن يكلف الحكومة مبالغ كبيرة فى نفس الوقت الذى تضمن فيه استخدام هذا الطريق البديل عند الحاجة ٠

وتشبثت الحكومة البريطانية بموقفها ، وبأن قناة السويس كافية لسد حاجات

النقل البحرى التجارى العسكرى (١) ، فضلا عن ان احتكار بواخر شركة لينش للملاحة البخارية فى نهرى دجلة والفرات يضع هذين النهرين فى خدمة المصالح البريطانية هناك ٠

ولم يثر موضوع استخدام العراق كخط للمواصلات العالمية بشكل عنيف إلا على يد المانيا فيما عرف باسم خط حديد بغداد الذى أثار ازمات كبرى منذ أواخر القـــرن التاسع عشر حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى ٠

يعتبر مشروع خط حديد بغداد من أغنى المشاريع من حيث المناورات الدبلوماسية والمفاوضات التى اشتركت فيها الدول الكبرى ، فى الوقت الذى وقف فيه أهل العراق بصفة خاصة وبقية أجزاء الوطن العربى بصفة عامة موقف المتفـرج ٠ بل أن المعلومات التى كانت تتسرب عن هذا المشروع الكبير كانت قليلة فلم يعرف الشعب إلا القليل عنه وحيل بينه وبين فهم التطورات على حقيقتها ٠

ولقد شعرت دوائر الاستانة انها تقاعست عن جعل العراق خطا رئيسيا للمواصلات الحديثة بين الشرق والغرب ٠ خاصة بعد أن رات بنفسها كيف أن قناة السويس جعلت لمصر مركزا دوليا خطيرا ، فى نفس الوقت الذى كان يعتقد فيه أن دخل مصر من القنــاة سيكون ضخما ٠ ولهذا تطلع العثمانيون الى تنفيذ مشروع خط حـديدى عبر العراق ، وكانت الاتجاهات الأولى تفضل أن يمتد هذا الخط من الاستانة الى أنقـــرة ومنها الى الموصل وبغداد وينتهى بالكويت (١٨٧٢ ــ ١٨٧٤) ٠ وكان أحد المهندسين النمساوين وهو الفون بروسل William von Prousel صاحب هذا المشروع (١) ٠

كذلك دعا المصلح التركى المعروف مدحت باشا بمد خط حـــديدى من طرابلس (على الساحل السورى) الى بغداد ٠ ولقد تقدم بعض الفنيين الروس بمشروع مشابه له ، ولكن لم تستطع هذه المشروعات أن تدخل مرحلة التنفيذ ٠ حتى التقى الســـلطان العثمانى عبد الحميد الثانى مع المؤسسات المالية الألمانية عنــد تنفيذ مشروع مد خط

---

(١) الدكتور لؤى بحرى : سكة حديد بغداد ٠ دراسة فى تطور ودبلوماسية قضية سكة حديد برلين ــ بغداد حتى ١٩١٤ ٠ شركة الطبع والنشر الأهلية ســـنة ١٩٦٧ ، ص ١٣ ــ ١٤ ٠

حديدى الى بغداد ، ولقيت هذه المشروعات ترحيب وليم الثانى — قيصر المانيا — وأعلن تاييده الرسمى لمشروع خط حديد بغداد (اكتوبر ١٨٩١) ، وما أن عرف ذلك فى الدوائر السياسية والاقتصادية الفرنسية والانجليزية حتى شرع الانجليز والفرنسيون فى القيام بحملة كبرى لمنع حصول الألمان على امتياز مد خط حديد بغداد . وكانت بريطانيا فى الحقيقة تعمل على القضاء على المشروع من أجل مصالحها فى قناة السويس ، ومنعا لوصول الألمان — أو لأية قوة كبرى مناهضة لها — الى الشرق الأدنى ، الا اذا كان ذلك تحت اشراف بريطانيا نفسها (٢) .

وقد كان نشاط السفير البريطانى فى الاستانة السير كلارفورد Clarford سببا فى اندلاع ازمة عنيفة أصبحت مصر طرفا فيها دون أن يكون لها يد فى ذلك .

فلقد أثار خط حديد بغداد أزمات دولية كانت مصر طرفا فيها كما أن بعض الأزمات التى وقعت لمصر كان العراق طرفا فيها من خلال مشكلة خط حديد بغداد ، وسنتعرض هنا لعدد من هذه الأزمات وهى :

(أ) علاقة خط حديد بغداد بتطوير الجيش المصرى .

(ب) علاقة خط حديد بغداد بحادثة فاشودة .

(جـ) علاقة خط حديد بغداد بمشروع خط حديد الكاب — القاهرة .

(د) أوجه التشابه بين مشكلة الكويت (١٨٩٩) ومشكلة طابا سنة ١٩٠٦ .

(هـ) تجاهل حكومة الاتحاديين مصالح أهل العـراق فى أنهارهم (ازمة لينش) ونفض يدها من الحزب الوطنى المصرى .

لقد كانت الحكومة البريطانية تماطل فى أمر الجلاء عن مصر،وكانت سياسة المانيا، خاصة فى أيام بسمارك ، تحث انجلترا على احتلال مصر والاستمرار فى ذلك الاحتلال ، واستمرت العلاقات الألمانية — البريطانية طيبة حتى قدم السفير البريطانى فى الاستانة

---

(٢) وفى هذا قال جاسترو عن خط حديد بغداد :

وانظر لؤى بحرى ، ص ١٣٦ .

السير كلارفورد Claford احتجاجا شديد اللهجة الى السلطان عبد الحميد الثانى طالبا منه أن يمتنع عن اعطاء رأى نهائى بشأن خط حديد بغداد الا بعد أن يحاط السلطان علما بوجهة نظر الحكومة البريطانية فى هذا المشروع الخطير · وقد أثار هذا الاحتجاج على تلك الصورة ثائرة الدوائر السياسية والاقتصادية الألمانية المعنية بذلك المشروع ·

حقيقة كان الاحتجاج البريطانى مهينا للسلطان العثمانى ، ولكنه فى نفس الوقت كان يعنى اعتراضا بريطانيا على المشروع الذى يسعى الألمان الى تنفيذه ، ومن ثم فالانجليز فى نظر الألمان أصبحوا يعرقلون النشاط الألمانى مع أن الألمان كانوا يتوقعون من الانجليز أن يكونوا مؤيدين لهم فى مثل هذه المجالات حيث ان مواقف ألمانيا المؤيدة للنشاط الانجليزى فى الشرق كانت مما لا ينكره أحد ·

لقد كان لذلك الاحتجاج البريطانى رد فعل عنيف فى وزارة الخارجية الألمانية لدرجة أن وزير الخارجية الألمانية البارون مارشال فون بيبرشتين Baron Marschal von Bieberstein قرر أن يوجه لوزارة الخارجية البريطانية احتجاجا لا يقل فى حقيقته عن تهديد قوى لبريطانيا · فقد استدعى البارون مارشال فون بيبرشتين اليه السير ادوارد مالت Edward Malet — سفير بريطانيا فى برلين — وقدم اليه احتجاجا على تلك الاجراءات التى قام بها السير كلارفورد ضد المشروع الألمانى لمد الخط الحديدى الى بغداد ، وبعث فون مارشال كذلك الى القنصل الألمانى فى القاهرة بتعليمات تقضى بأن يسحب موافقة ألمانيا على طلب بريطانيا الخاص باعادة تكوين الجيش المصرى وتطويره (١) ·

لقد قدم هذا التهديد بسحب الموافقة الألمانية على تطوير الجيش المصرى فى وقت كانت فيه فرنسا كذلك قد رفضت الموافقة على تقوية وتطوير الجيش المصرى · وحيث أن عملية التطوير والتقوية فى الجيش المصرى تتطلب نفقات كثيرة ، فقد كان فى استطاعة فرنسا وألمانيا أن تضعا العقبات الكثيرة أمام سلطات الاحتلال الانجليزى فى مصر على اعتبار أن تقوية الجيش ستؤدى الى تقليل كفاءة مصر نحو دفع ديونها للدائنين الأجانب·

ومن ناحية أخرى كانت بريطانيا تلقى معارضة شديدة من جانب فرنسا ضد

---

(١) لؤى بحرى : سكة حديد بغداد ، ٣٦ ·

الوجود البريطانى غير الشرعى فى مصر ، فضلا عن مجهودات فرنســـية مضنية لمنع الانجليز من استخدام الجيش المصرى — بعد تطويره — فى عمليات استرداد السودان : فقد كانت فرنسا تعتبر السودان أرضا بلا صاحب منذ انســـحاب القوات المصرية من السودان بعد سقوط الخرطوم فى يد قوات المهدى فى ١٨٨٥ ، بعكس بريطانيا التى ظلت متمسكة بأن السودان تابع لمصر ، فكانت فرنسا تريد أن تشق طريقها من مستعمراتها فى أفريقيا الغربية الى السودان عن طريق بحر الغزال ، وكانت فرنسا لا تهدف الى هذا فقط بل كانت تسعى الى منع الانجليز من تنفيذ مشروعهم الكبير الذى نادى به الاستعمارى الشهير « سيسيل رودس Cicil Rhodes » الا وهو مد خط حـــــديدى بين الكاب والقاهرة (١) بل لقد كان « سيسيل رودس » هذا يدعو الى ان توافق بريطانيـــا على المشروع الألمانى الخاص بمد خط حديد بغداد فى سبيل الحصول على تأييد المانيا لمشروع خط حديد الكاب — القاهرة (٢) ٠

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن تهديد المانيا بسحب موافقتها على تطـــوير الجيش المصرى جاء فى وقت جد عصيب بالنسبة للوجود البريطانى غير الشرعى فى مصر ٠

فقد بدأت الحركة الوطنية فى مصر حينذاك تظهر كقوة جديدة على مسرح السياسة المصرية ، فضلا عن أن عباس حلمى الثانى (خديوى مصر) (١) كان لا يزال شابا ويسعى الى اثبات وجوده أمام اللورد كرومر Cromer المندوب السامى البريطانى الذى اســـتبد بأمور مصر كل الاستبداد ، ولقد وقعت فى ١٨٩٣ أزمة مشهورة بين الخـــديوى عباس حلمى الثانى وكرومر بسبب اقدام الخديوى عباس حلمى على عزل مصطفى فهمى من الوزارة (٢) ، وكان عباس حلمى الثانى يعتمد على الحركة الوطنية التى كانت لا تزال فى مهدها للوقوف فى وجه كرومر ٠ وقد خرجت مظاهرات طلابية فى يناير ١٨٩٣ — كان يشعل حماسها مصطفى كامل — تؤيد موقف الخديوى ضد الانجليز ٠

---

(١) على ابراهيم عبده : مصر وأفريقيا ، ص ٥٩ ٠

(٢) لؤى بحرى : سكة حديد بغداد ، ص ٥٩ ٠

(١) تولى الحكم بعد محمد توفيق باشا فى ١٨٩٢ ٠

(٢) انظر ما كتبه كرومر بالتفصيل عن هـــذه الأزمة فى Cromer, Abbas II London pp. 16-22 وانظر كذلك وجهة النظر القومية فى هذه الأزمة فى عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ٠

كذلك كان هناك اتجاه عام فى القاهرة يدعو الى كسب تأييد فرنسا للحركة الوطنية ضد كرومر بصفة خاصة وضد الوجود البريطانى فى مصر بصفة عامة . فقــد وقفت الصحافة الفرنسية فى مصر بكل قواها مؤيدة الخديوى فى حقه فى ابعاد مصطفى فهمى عن الوزارة . حتى لقد نجح فعلا فى ابعاده وان خلفه فى الوزارة رياض باشا (١) .

هذا التأييد من جانب الحركة الوطنية الناشئة ومن جانب فرنســا والصحف الفرنسية فى مصر للخديوى ضد كرومر ظهرت بوضوح قوى فى ازمة أخرى عرفت باسم حادثة الحدود سنة ١٨٩٤ ، وهى التى نشأت بسبب انتقاد الخديوى عباس حلمى الثانى لضباط فرقتين من فرق الجيش المصرى فى اسوان ، فما كان من قائد الجيش (السردار كتشنر) أن قدم استقالته ، فأصر كرومر على أن يقوم الخديوى بعمل يثبت فيه رضاه عن الجيش المصرى تحت القيادة البريطانية كترضية للضبــاط الانجليز الذين أهانهم الخديوى ، واضطر الخديوى الى أن يوجه شكرا الى السردار كتشنر ، فكانت محاولات كرومر للنيل من خديوى مصر فرصة للصحافة الفرنسية لمهاجمة الاحتلال البريطانى فى مصر واتهمت الانجليز بأنهم جاءوا الى مصر لحماية الخـــديوى فى ١٨٨٢ وفى ١٨٩٤ اصبحوا يستخدمون الجيش لكبت الحركة الوطنية المصرية ولاخضاع الخديوى للتوجيه البريطـــــانى .

هذه هى الظروف التى صدر فيها ذلك التهديد الألمانى بسحب الموافقة على تطوير الجيش المصرى ، وهى ظروف دقيقة فى الواقع بالنسبة للوجود البريطانى فى مصر ، فلو تآلفت القوى الوطنية مع الخديوى مع فرنسا مع هذا المارد الجديد الألمانى ضد بريطانيا فى مصر لأصبح مركز الأخيرة فعلا مزعزعا تماما .

ان استخدام وزير الخارجية الألمانى للموقف فى مصر سلاحا ضد بريطانيا من أجل ارغامها على التخلى — ولو مؤقتا — عن معارضتها لمشروع خط بغداد كان مجديا للغــاية حيث أبرق اللورد روزبرى Lord Rosebery وزير الخارجية البريطانية — فى ٩ يناير ١٨٩٣ الى حكومة برلين مؤكدا :

---

(١) محمود نجيب أبو الليل : الاحتلال البريطانى والصحف الفرنسية . القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٧٧ — ٢٢٢ .

« انه ليس لدى حكومة جلالة الملكة رغبة فى اتخاذ أية خطوات غير ودية ضد النفوذ أو المصالح الألمانية فى القسطنطينية » (١) . وبذلك كسبت ألمانيا فى العراق على حساب مصر .

وكما استفادت ألمانيا فى موضوع خط حديد بغداد على حساب مصر . نجد فرنسا كذلك تحاول ان تحصل على تأييد ألمانيا لها فى ازمة فاشودة لتكسب على حساب مستقبل العراق وخط حديد بغداد ففى أول الأمر بذلت فرنسا مجهودات كبيرة من أجل عرقلة مشروع خط بغداد منعا للتفوق الألمانى فى المشرق ، بل قدمت الحكومة الفرنسية تحذيرا الى الحكومة العثمانية من أية أضرار تصيب المصالح الفرنسية من جراء اعطاء الألمان امتياز خط بغداد (٢) . حقيقة كانت فرنسا فى أول الأمر متشددة ولكنها تراجعت عن هذا التشدد بسبب الأزمة التى نشبت بينها وبين انجلترا فى فاشودة (٣) .

وهكذا بدا كان التطورات تؤدى الى اطلاق يد ألمانيا فى مشروع خط بغداد ، واطلاق يد انجلترا فى مصر خاصة بعد حادثة فاشودة ولكن فى الحقيقة كان اتجاه الحكومة العثمانية نحو اعطاء الألمان امتياز خط حديد بغداد واضحا ، كما كان الاتجاه نحو تسوية

(١) لؤى بحرى : سكة حديد بغداد ، ص ٢٧ .

(٢) نفسه : ص ٤١ .

(٣) فاشودة قرية صغيرة على النيل الأبيض وحادثة فاشودة من أهم الحوادث التاريخية فى خاتمة القرن التاسع عشر . والسبب فى وقوعها هو أن القوات المصرية تحت القيادة البريطانية كانت منذ ١٨٩٦ تعمل على استعادة السودان وفعلا استطاعت أن تتغلب على قوات التعايشى واستولت على الخرطوم وعلم الانجليز اثناء ذلك أن قوة فرنسية بقيادة الكابتن مارشان كانت تشق طريقا من الكونغو الى السودان لاحتلال أكبر قسم منه على اعتبار أنه ارض لا صاحب لها . ووصل مارشان بقوته الى فاشودة ، وعلم كتشنر اثناء وجوده فى الخرطوم بذلك ، فذهب كتشنر الى فاشودة وقابل مارشان فى ١٩ سبتمبر ١٨٩٨ وطلب منه الانسحاب على اعتبار أن فاشودة تابعة للخديوى عباس حلمى الثانى ولكنه رفض ، وتوتر الموقف على المستوى المحلى فى فاشودة وعلى المستوى الدولى بين كل من فرنسا وبريطانيا وكادت الحرب تقع بينهما لولا موافقة فرنسا على التراجع بلا قيد أو شرط . وكانت هذه التطورات بداية التفاهم البريطانى الفرنسى على حساب مستقبل مصر الذى كانت فرنسا تدافع عنه بحرارة قبل تلك الأزمة .

أزمة فاشودة من العوامل الرئيسية التى مهدت للتقارب الفرنسى الانجليزى الذى انتهى الى عقد الوفاق الودى (١٩٠٤) الذى أدى الى حدة الصراع الدولى بين دول الوسط (المانيا والنمسا) ودول الوفاق انجلترا وفرنسا وروسيا ٠

ويهمنا هنا ذلك الصراع الدولى الذى نشب حول خطوط المواصلات الحديدية بين كل من العراق ومصر ومدى تأثر مصر بالصراع على خط حديد بغداد الذى كان مقررا له أن ينتهى بالكويت ، وتأثر العراق بالصراع على خط حديد الحجاز الذى كان مقررا له أن تكون طابا — داخل حدود مصر — نهاية له ٠

ويمكن أن نعتبر عامى ١٨٩٨/١٨٩٩ من الأعوام الهامة فى تاريخ التفوق البريطانى فى كل من العراق ومصر ، فقد وقعت حوادث دولية خطيرة كانت كلها لصالح ذلك التفوق البريطانى ونعنى بها :

١ — حادث فاشودة (١٨٩٩) (١) ٠

٢ — الاتفاقية الكويتية الانجليزية (١٨٩٩) ٠

٣ — أزمة طابا (١٨٩٨ / ١٩٠٦) ٠

والمعروف أن انجلترا — التى رفعت يد الفرنسيين عن فاشودة واغلقت الطريق أمام التغلغل الفرنسى نحو السودان وصعدت الأزمة الى درجة كادت تؤدى الى حرب بين فرنسا وانجلترا — هى نفسها التى أقدمت على عقد اتفاقية مع الشيخ مبارك — حاكم الكويت — فى ١٨٩٩ بقصد رفع يد العثمانيين عن الكويت ومنع التغلغل الألمانى الى العراق الأمر الذى كان يعتقد الانجليز أنه تهديد مباشر للمخططات الاستعمارية الانجليزية فى الشرق الأدنى والأقصى على السواء ٠ وكانت الكويت فى أواخر القرن التاسع عشر قد أصبحت النهاية المناسبة لأى خط حديدى يربط بين الاستانة وسواحل البحر المتوسط من جهة والخليج العربى من جهة اخرى ٠

ومن مذكرة كتبها الكولونيل ميد Meade المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بشأن خطورة استخدام اية قوة اوروبية — غير انجليزية — للكويت كنهاية لخط

(١) أشرنا اليهما فيما سبق هامش صفحة ١٨٣ ٠

حديدى ، ويمكن أن نكتشف أن الموضوع لم يكن يعنى العراق فقط بل كذلك مصر . فلقد أشار الكولونيل ميد الى أن هناك مشروعا لمد خط حديدى بين بورسعيد — الميناء المصرى المعروف — والكويت ، أو بين الاسكندرونة والكويت (١) .

وهذه الاشارة الى مشروع خط بين بور سعيد — الكويت تؤكد لنا كم كان الصراع العالمى على خطوط المواصلات يربط مصير العراق بمصر فالانجليز الذين قاوموا تنفيذ مشروع قناة السويس غيروا سياستهم بعد تنفيذ المشروع واحتلوا مصر للسيطرة على القناة . وعندما شعروا أن مشروع خط حديد بغداد سيدخل عن قريب حيز التنفيذ قاموا هم انفسهم بمقاومة مشروع خط حديد بغداد ، بالسيطرة على الكويت منفذ هذا الخط ومفتاح العراق الجنوبى . وفى اعتقادى أن الانجليز هم الذين روجوا لفكرة مد خط حديدى من بور سعيد الى الكويت كمشروع مضاد لخط حديد بغداد الألمانى .

فقد كانت بورسعيد تحت يد الانجليز ، ومثل هذا المشروع سيجعل الخط يسير من هذه المدينة الى أحد الموانىء فى جنوب فلسطين ومنها الى بغداد والكويت ، أو الى الكويت مباشرة . فاذا ما وضعت الكويت تحت الحماية البريطانية فان بداية ونهاية هذا الخط المقترح ستصبحان فى قبضة الانجليز وبالتالى يصبح هذا الخط حاجزا بين الألمان والعراق وشبه الجزيرة العربية . حقيقة أن هذا المشروع لم يدخل حيز التنفيذ . ولهذا يمكن القول بأنه كان مناورة انجليزية لمقاومة المشروع الألمانى لخط حديد بغداد ، ولتقوية الأسباب التى تدعو الحكومة البريطانية الى وضع الكويت تحت الحماية البريطانية .

وأيا كان الأمر فقد عزمت الحكومة الانجليزية على أن تضع يدها على الكويت وتم ذلك فى ١٨٩٩ بعد اتفاقيتهما المشهورة مع الشيخ مبارك . حقيقة لم يحتل الانجليز الكويت كما فعلوا بمصر ، وانما حصلوا على تعهدات من جانب الشيخ مبارك بعدم قبول أى ممثل اجنبى فى الكويت الا بعد موافقة الحكومة الانجليزية ، وبألا يتنازل أو يبيع أو يرهن أى جزء من اراضيه لرعايا أية دولة غير بريطانيا الا بعد موافقة الأخيرة . ومعنى

---

(١) Col. Meade to Secretary to Government to India (Confidential) No. 20; April 25, 1897 F.O. 78/113.

عن محمود الداود : محاضرات عن الخليج العربى والعلاقات الدولية ١٨٩٠ — ١٩١٤ ، ص ١١٧ .

هذا أن الكويت أصبحت بعيدة عن متناول العثمانيين والألمان على حد السواء ، وأصبحت موافقة بريطانيا على مد اى خط حديدى الى الكويت أمرا محتمـــا اذا أريد لأى خط حديدى أن يصل الى المنفذ الطبيعى له على الخليج العربى (١) ٠

وبذلك يكون الانجليز قد وضعوا يدهم على الطريقين القصيرين المؤديين الى الشرق الأقصى ، فقد كانت شركة الملاحة البخارية فى نهرى دجلة والفرات (شركة لينش) تحتكر الملاحة فى هذين النهرين وتحول دون استخدام أية سفينة بخارية أوروبية لهـــذين النهـــرين (٢) ٠

---

(١) عن الكويت والاتفاقية الانجليزية الكويتية سنة ١٨٩٩ انظر :

★ لؤى بحرى : سكة حديد بغداد دراسة فى تطور وبلوماسية قضية سكة حديد ـ بغـــداد ١٩٦٧ ٠

★ محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية ١٨٩٠ ـ ١٩١٤ ، القـــاهرة ١٩٦١ ٠

★ صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ٠ مكتبة الأنجـلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ ٠

★مجموعة ضخمة من الوثائق البريطانية التى صورتها من دور المحفوظات البريطـــانية ٠

India Office Records and Public Record Office

وهذه الوثائق مصورة على ميكروفيلم وموجودة بكلية الآداب بجامعة عين شمس ٠

— Gooche and Temperley; British Documents on the Origins of the War 1898—1914, London. 1938.

— A Cheradam; La Question dêOrient Paris 1903.

— H. Dickson ; Kuwait and her Neighbour London 1956.

— D. Fraser ; India under Curzon and After. London 1911.

— M. Jastrow; The War and the Baghdad Railway, Philadelphia, 1918.

— M. Earle! Turkey. The Great Pawers and the Baghdad Railway. N.Y. 1923.

— N. Whigham, The Persian Question' London 1903.

(٢) انظر كتابنا « المصالح البريطانية فى انهار العراق ١٦٠٠ ـ ١٩١٤ » ٠

وحاول السلطان عبد الحميد ، يحثه الألمان ، اعادة ســــــيطرته على الكويت ولو باستخدام القوة ، فرد الانجليز على ذلك بارسال قوة بحرية الى الكويت ، وحث الانجليز الشيخ مبارك على وضع يده على جزيرة بوبيان وعلى الأراضى الممتدة حتى خور عبد الله، وبدا واضحا أن الخط لا يمكن ان يمتد الى ما وراء البصرة الا بموافقة بريطانيا ، وهذا ما حدث فعلا حيث ان بريطانيا سمحت فى سنة ١٩١٣ بمد خط حديد بغداد ولكن بشرط أن يقوم الانجليز بمد الجزء الأخير منه بين البصرة والخليج (٢) ولكن هذا اتفاق لم ينفذ بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى ٠

وكما قاوم الانجليز وصول خط حديد بغداد الى الكويت قاوموا وصول خط حديد الحجاز الى « طابا » القريبة من ميناء العقبة ٠ وكما رفعوا يد الســلطان العثمانى عن الكويت منفذ العراق — ضاربين عرض الحائط بما سيكسبه العراق من وراء مد هـــذا الخط الحديدى — عملوا كذلك على رفع يد السلطان العثمانى عن « طابا » لكى يضعوها تحت سيطرتهم ، ضاربين كذلك عرض الحائط بمستقبل العقبة وطابا كميناء عربى يمكن أن يتطور الى ميناء عالمى يستطيع أن يستقبل سفن الشرق الأقصى ٠

حقيقة كان على العثمانيين ان يطوروا ميناء العقبة ليصبح ميناء كبيرا عالميا بحريا٠ ولكن هذا ما كان ليتم بدون « طابا » كنهاية للخط الحديدى المقترح ، فلقد كانت «طابا» بالنسبة للعقبة « كالكويت » بالنسبة للبصرة ٠ فان ســـلامة خط حديد الحجاز كانت تتوقف على طابا ، مثلما كانت قيمة خط حديد بغداد تتوقف على الكويت ٠ ولقد قال كرومر : « ان خط الحجاز سيكون تحت رحمة الانجليز عندما يصل الى البحر عنــــد العقبة » (١) ٠ طالما كانت طابا داخلة فى حدود مصر التى يحتلها الانجليز ٠

ولما قامت القوات العثمانية باحتلال طابا ردت بريطانيا على ذلك بأن اعلنت ان طابا ضمن الأراضى التى يحكمها الخديوى عباس حلمى الثانى ٠ وأرسلت بوارجها الى قرب

---

(١) انظر نص الاتفاقيات النهائية بشأن خط حديد بغداد فى :

Hurewitz; Diplomacy in the Near and Middle East, Val. I p. 182.

عن مقال للدكتور يونان لبيب رزق بعنوان (ازمة طابا) فى مجلة الدراســــات التاريخية ١٩٦٨ العدد ١٣ ٠

العقبة . واضطر السلطان العثمانى الى التراجع وانسحبت القوات التركية من طابا (١)، وعند وضع حادثتى الكويت (١٨٩٩) وطابا (١٩٠٦) موضع المقارنة نجد أن الأسلوب البريطانى كان واحدا فى السيطرة على المنافذ المائية البحرية لكل من العراق ومصر . فقد ارسلت بريطانيا قطعها البحرية الى كل من الكويت وطابا لمنع السلطان من اعادة سيطرته على الكويت وتطرد القوات التركية من طابا . لقد كانت السيطرة البحرية على الخليج العربى وعلى البحر الأحمر هى العامل الحاسم فى وقوع هـــذه المراكز الاستراتيجية فى العراق ومصر تحت رحمة الانجليز .

ولكن بينما كانت المانيا وراء ازمة الكويت بوضوح كانت الدلائل تشير الى أن المانيا لم تكن تؤيد السلطان فى أزمة طابا وقد عللت صحيفة Deutch Kolonial Zeitung عدم تأييد ألمانيا للسلطان فى أزمة طابا بأن نمو المصالح التجارية الألمانيـــة فى مصر كان يتعارض مع فكرة تأييد السلطان ضد الانجليز فى مصر (٢) .

وبسيطرة بريطانيا على منفذى خطى حديد بغداد والحجاز (الكويت وطابا) تكون قد أحرزت انتصارا هاما فى مجال التنافس حول خطوط المواصلات العالمية ســـواء عبر العراق أو عبر مصر .

وقبل أن نختم هذا الحديث عن العلاقات المصرية والعراقية فى خضم المنافسة بين الدول الكبرى على خطوط المواصلات العالمية يجدر بنا الاشارة الى أن مشروعات مد خط حـــديدى الى بغـــداد لم تكن بقاصرة على الألمان أو على منافســـيهم الكبار الانجليز والفرنسيين والروس (٣) والأمريكيين (٤) فالطريف حقا أن أحد المهندســـين المصريين ويدعى محمد رشدى أفندى — الخبير فى المحاكم المصرية — قام برحلة كبـــيرة فى ولايات الدولة العثمانية ، ثم وضع بعد ذلك خريطة يبين عليها السكك الحديدية التى يقترح مدها

---

(١) انظر د . يونان لبيب رزق : ازمة العقبة المعروفة بحادثة طابا ١٩٠٦ . مجلة الجمعية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٨ العدد ١٣ .

(٢) يونان لبيب رزق : ص ٢٩ .

(٣) محمود الداود : محاضرات فى الخليج العربى : ص ٢٠٠ — ٢٠٢ .

(٤) صدى بابل ، العدد ٢٠ فى ١٨ ذى الحجة ١٣٢٧ هـ / ١٩١١ م .

فى تلك الولايات لما ستجلبه عليها من منافع اقتصادية بعيدة المدى ٠ وقدم المهندس محمد رشدى هذه الخريطة الى معتمد الدولة العثمانية بمصر طالبا منــه الاهتمام بها ، وحث العثمانيين على تأسيس الشركات لاستثمارها فى مد خطوط حديدية تكون لها ســيطرة كاملة عليها بعيدة عن التدخلات الأجنبية وفيما يلى الخطوط الحديدية التى اقترحهـــا محمد رشـــدى افنـــدى :

١ ـ خط يمتد من الاسكندرونة مارا بأنطاكية فحلب فتصبح تلك البـــلدان مرتبطة بدمشق بخط حلب الذى كان موجودا حينذاك (١٣٧٢ هـ / ١٩١٠ م) ٠

٢ ـ خط يمتد من اللاذقية الى حماة ومنها الى دير الزور وميادين على نهر الفرات ويمتد الى الكويت محاذيا لشاطىء نهر الفرات ٠

٣ ـ خط من طرابلس الشام الى حمص ومنهـــا الى عين كركات فيرتبط منها بالخط الممتد من دمشق الى الكويت ٠

٤ ـ خط يمتد من دمشق الى الرصافة (بغداد) مارا بمدينة تدمر ويمتد حتى الكويت، وهذا الخط معارض فى سيره لخط حديد بغداد الألمانى ، وبعيد عن طريقه ٠

٥ ـ خط بين بيروت والقاهرة ٠

والملاحظ هنا ان هذه المشروعات تعنى بالدرجة الأولى ربط بلدان المشرق العربى بعضها ببعض ، وان هذه المشروعات تضع مصالح الولايات العربية فوق مصالح تركيا ، بينما كانت المشروعات الأوروبية المقترحة لمد خطوط حديدية فى المشرق العربى تضع فى المرتبة الأولى حاجات واهداف تركيا العثمانية ، جنبا الى جنب مع أهداف الاستعمار الأوروبى بغض النظر عن حاجات ومستقبل الشعب العربى نفسه ٠ أما المشروعات التى وضعها محمد رشدى أفندى فكانت فى حقيقة الأمر تعبيرا صادقا صادرا عن مواطن عربى يعيش فى المنطقة ويدرك متطلباتها ولا شك أن محمد رشدى كان يدرك كم أضرت قنـاة السويس بمستقبل مصر لأنها قامت على اموال أجنبية وجلبت التنافس الدولى الذى أدى الى وقوع مصر تحت الاستعمار البريطانى ٠

ولهذا كان يحاول أن يمنح الولايات العربية القدرة على استخدام المواصلات الحديثة

العالمية بدون الوقوع فى قبضة لاستعمار . ولهذا كان يصر على أن يكون ممولو هـــذه المشروعات من أثرياء العثمانيين (١) .

ولدينا ملاحظة ثانية وهى أن محمد رشدى بعد أن وضع مشروعاته لخطوط السكك الحديدية لم يقدمها الى السلطات المصرية أو الى سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر ، وانما قدمها الى معتمد الدولة العثمانية فى مصر (٢) .

وذلك لأن الحركة الوطنية فى مصر كانت تشد ازر المشروعات العثمانية لمد الخطوط الحديدية فى البـــلاد العربية ، وكان معتمد الدولة العثمانية فى مصر على صـــلة بتلك الحركات الوطنية الملتهبة (٣) ، فاذا أضفنا الى هذا أن مصطفى كامل — شعلة تلك الحركة الوطنية — قد أخذ يتطلع الى المانيا كقوة أوروبية يمكن الاستعانة بها ضـــد الاستعمار الانجليزى لأدركنا كم كانت الحركة الوطنية فى مصر قادرة على الخروج من قوقعة الكفاح المحلى ضد الانجليز الى العمل على تحرير المنطقة بأسرها من الاستعمار .

وبدخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى الى جانب المانيا والنمسا ضد دول الوفاق (بريطانيا — فرنسا — روسيا) بدأت بداية النهاية بالنسبة للدولة العثمانية .

(١) صدى بابل . العدد ١٣ فى ٢١ شوال ١٣٢٧ هـ .

(٢) د. يونان لبيب رزق : حادثة العقبة .

(٣) لقد بذلت الحكومة البريطانية جهدها بعد تصفية ازمة طابا حتى ابعدت معتمد الدولة العثمانية عن مصر . المصدر السابق .

الفصل التاسع

الجامعة الإسـلامية

إن نظرية الدولة الإسلامية الواحدة التى يستظل بظلها كافة المسلمين هى نظرية قامت منذ الدعوة الإسلامية ووصلت ذروة قوتها ومجدها فى العصر العباسى الأول ثم أخذت تتفكك الدولة الإسلامية العامة الى دول ودويلات • وغالبية حكام الدول الإسلامية كانوا يتلقون (التقليد) من الخليفة العباسى بمعنى أن الخلافة أصبحت رمزا للوحدة الإسلامية •

كما ظهرت بعض الدول التى ترفض الخلافة العباسية مثل الدولة الأموية فى الأندلس • ولكن بصفة عامة كان هناك مفهوم سائد هو أن المسلمين يعيشون تحت مظلة دولة إسلامية عامة حتى ولو كان الخليفة يسيطر على رقعة صغيرة من البلاد الإسلامية • فظل الخليفة العباسى يصدر قراراته بتعيين هذا السلطان أو ذاك رغم ان هذا الخليفة العباسى الذى كان يقيم فى مصر — منذ القرن الثالث عشر الميلادى — كان لا حول له ولا قوة • وعندما أصبحت الدولة العثمانية دولة قوية لم يعن السلاطين كثيرا بنظرية الجامعة الإسلامية الا عندما دب الضعف فيها وأصبحت فى حاجة الى نظرية جديدة تلم الشمل حول السلطان العثمانى •

كذلك شعر المفكرون الإسلاميون فى القرن التاسع عشر أن العالم الإسلامى أصبح نهبا للدول الاستعمارية وأن انقاذه يتطلب توحيد المسلمين ليقفوا وقفة رجل واحد أمام الاستعمار الأوروبى •

وكانت هناك دعوات الى التضامن الإسلامى والجامعة الإسلامية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وأعقابه ولكنها لم تتخذ شكل (الحركة) حتى دعا اليها جمال الدين الأفغانى ، فقد كرس الرجل فكره ولسانه وقلمه للدعوة الى الجامعة الإسلامية ، ليس فى قطر بعينه وانما عبر الأقطار الإسلامية وبين العجم والعرب بل وبين الأوروبيين أنفسهم •

كان الأفغانى داعية صعب المراس فى الحق فكم من بلد إسلامى أبعدته مثل فارس ومصر ، ولكنه كان يغادر هذا البلد ليدعو الى الجامعة فى بلد اسلامى آخر وكان يترك حيثما يقيم تلاميذا يدعون الى الجامعة الإسلامية •

لقد جاءت دعوة جمال الدين الأفغانى هذه فى الوقت الذى كان فيه السلطان عبد الحميد الثانى يعانى مر المعاناة من النهب الاستعمارى الاقتصادى والسياسى والتوسعى ٠ واصبح فى حاجة ماسة الى نظرية تجمع رعيته تحت مظلته بل وتعمل على تجميع المسلمين فيما وراء دولته فى مشارق الأرض ومغاربها تحت لوائه ٠ فمهد الأفغانى الأرضية لها واطلق عبد الحميد الثانى الدعاة ورجال الدين لينشروا الوعى بين المسلمين على اساس :

١ ــ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ٠

٢ ــ انما المؤمنون اخوة ٠

٣ ــ وجعلناكم خير امة ٠

٤ ــ فليصبح المسلمون كالبنيان المرصوص ٠

وانطلقت حناجر خطباء المساجد فى خطبة كل صلاة جمعة داعين الى وحدة المسلمين واقامة الجامعة الإسلامية فى ظل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثانى ٠

ان الغالبية العظمى من المسلمين رحبت بل وهللت لهذه الدعوة حتى خيل للناس أن العالم الإسلامى أصبح قاب قوسين أو أدنى من قيام جامعة إسلامية من الهند الى سمرقند الى مسلمى البشناق (البسنة) الى الطوارق من غرب افريقيا الى وادى النيل٠

واذا أردنا أن نضرب مثالا على ذلك التضامن الإسلامى مع الدولة العثمانية فلدينا مثالين بارزين أحدهما خط (حديد الحجاز) والثانى الحرب العثمانية الايطالية ٠

فقد دعا السلطان عبد الحميد الثانى الى مد خطوط حديدية فى الشام تربط بين حلب وحمص وحماة ودمشق وبيروت وطرابلس والموزيريب الى المدينة المنورة والى مكة المكرمة تسهيلا لحجاج بيت الله الحرام ٠

ورغم ما قيل عن ان هذا الخط كان يحقق هدفا استراتيجيا للدولة العثمانية وهو سرعة نقل القوات التركية العثمانية الى الشام والجزيرة العربية لضرب العناصر المتمردة على السلطة العثمانية ، رغم هذا فقد انهالت التبرعات من المسلمين على الخزانة العثمانية لتمويل هذا المشروع الكبير الذى تحقق الجزء الأعظم منه قبيل الحرب العالمية الأولى ٠

والمثـــال الثانى هو الحـــرب الطرابلســية فعندما غزت الجيوش الاستعمارية الإيطالية ولاية طرابلس (ليبيا) حمل مفكرون مصريون وعسكريون مصريون ســلاحهم متسللين من بلادهم مصر ، الواقعة تحت الاحتلال البريطانى المتآمر مع الاســـتعمار الإيطالى متسللين من بلادهم مصر الى جارتهم العزيزة ليبيا ليشاركوا أهلها نعمـــة الاستشهاد والقتال دفاعا عن أرض عربية إسلامية ، مقاتلين جنبا الى جنب القـــوات العثمانية العاملة فى ليبيا • وتوالت التأييدات من الغالبية العظمى من الزعامات العربية من عبد العزيز بن سعود ومن إمام اليمن ومن أمير الكويت ومن غـــيرهم من الزعامات العربيـــــة •

إذ كانت هذه الزعامات ترى أن الدولة العثمانية — وان أصبحت غير جديرة بأن تكون ممثلة للدولة الإسلامية العامة الا أن الواجب الإسلامى كان يفرض عليهم أن يشدوا ازر أى مسلم فى محنـــة •

ولكن شتان بين النظريةوالتطبيق خاصة اذا كانت النظرية مجرد احيـــاء لنظرية ليست ابداعا جديد' بل ان الدعوة الى الجامعة الإسلامية فى القرن التاسع عشر هى شكلا من اشكال السلفية • وهناك سلفية ابداعية تحدث نقلة حضارية ، وسلفية تسعى الى العودة الى اعادة الماضى بأدواته البالية •

فالنهضة الأوروبية فى القرن السادس عشر كانت ترتكز على احياء الحضارة القديمة اليونانية والرومانية ولكن دون العودة اليها بأدواتها وانما بأدوات العصر الجديدة ، فأدى ذلك الى النهضة الأوروبية الحديثة • أما دعاة الجامعة الإسلامية فإنهم ارادوا اقامة دولة إسلامية عامة بأساليب قديمة ، فكانوا كمن يريد السير الى الأمام بينما عيونهم خلف رءوســـــهم •

والحقيقة ان رؤية جمال الدين الأفغانى للجامعة الإسلامية كانت أكثر تقدما من رؤية عبد الحميد الثانى • كان جمال الدين الأفغانى ينادى بجامعة إسلامية دستورية ، فى حين كان عبد الحميد الثانى يريد جامعة إسلامية يتمتع هو بزعامتها كخليفة للمسلمين ظل الله على الأرض له الكلمـــة الأولى والأخـــيرة ، بينما كان العصر عصر الحكومات الدستوريه البرلمانية القومية ومن ثم كانت نظرية عبد الحميد الثانى لا تنسجم اطلاقا مع

العصر ، اذ كان ضد النظام الدستورى وضد التمثيل النيابى للشعب فضلا عن أن نظرية الجامعة الإسلامية كانت ضد النظرية القومية التى هى نظرية القرن التاسع عشر • لقد كان السلطان عبد الحميد الثانى بصفة خاصة يسير عكس التيار العام •

وتعتبر المواجهة بين النظرية القومية ونظرية الجامعة الاسلامية واحدة من أخطر العوامل التى ادت الى فشل تطبيق نظرية الجامعة الإسلامية • وسنتناول بعد قليل المواجهة بين الدولة العثمانية والقومية العربية • ومن أهم العوامل الأخرى أن الأقليات فى الدولة العثمانية تحركت بعنف ضد الدولة العثمانية ، ونخص بالذكر ما دار من صراع دموى بين الأرمن من جهة والأتراك والحركة الصهيونية والحركة المارونية فى لبنان •

وهنا يجب ن نتساءل هل كان سلوك عبد الحميد الثانى ينم فعلا عن ايمان بنظرية الجامعة الإسلامية قولا وعملا • هناك كثير من المفكرين وخاصة الغربيين منهم يرون أن عبد الحميد الثانى كان يعمل فقط على الحفاظ على مكانته كخليفة للمسلمين وان تظل الدولة العثمانية كممثلة للدولة الإسلامية العامة دون أن يعطى للمسلمين غير الأتراك حقوقا مماثلة لبنى جلدته • فلقد ثبت تماما أن عبد الحميد الثانى كان يعتمد فى الحكم والإدارة العسكرية سواء فى الأناضول أو البلقان أو فى الولايات العربية على العناصر التركية فنلاحظ أن عددا قليلا جدا من العرب هم اللذين تولوا بعض المناصب الهامة فى الدولة ، مع أن العرب كانوا يمثلون جزءا رئيسيا من الدولة العثمانية • ومن ثم فان الجامعة الإسلامية التى دعا اليها عبد الحميد الثانى كانت جامعة إسلامية على الطريقة .ركية العثمانية ، ومثل هذا الاتجاه كفيل بأن يثير أشجان العناصر العربية والعناصر التركية الأخرى •

وكان من أولى الحركات التى رفضت هذه اليد العليا العثمانية الحركة الاصلاحية على الطريقة الحنبلية التى تبناها آل سعود منذ منتصف القرن الثامن عشر فى الجزيرة العربية ، والحركة الإمامية فى اليمن ، وأسرة البوسعيد فى مسقط وعمان والعديد من القبائل العربية فى العراق بل لقد دعا عبد الغفار الأخرس شاعر العراق المشهور هو والمفكر عبد الغنى جميل والأديب عبد الباقى العمرى بكل وضوح الى ان يحكم العرب أنفسهم بأنفسهم دون الأعاجم • وتسمى ابراهيم باشا — القائد المصرى المشهور — عندما

زحف فاتحا الشام سنة ١٨٣١ باسم سر عسكر عربستان ، ونسب اليه قوله ، أنه لن يتوقف فى زحفه الا بعد أن نحرر كل من ينطق بلغة الضاد • ولكن هذا التيار العربى لم ياخذ طريقه الى المفهوم الأوروبى للقومية الا على يد الزعامات المسيحية اللبنانية التى دعت الى يقظة العرب والتخلص من الحكم التركى • وتطرف بعضهم مثل نجيب عازورى الى وضع البلاد العربية تحت السيطرة الانجليزية والفرنسية حتى يمكن أن يتمتع العرب بفرصة لاعلان دولة قومية عربية •

ومهما قيل عن دور هذه الزعامات المسيحية فى ذلك الوقت فى العمــل على اقامة دولة قومية عربية فانما نرى أنهم كانوا يسعون أولا الى تحطيم الدولة العثمــانية على اعتبار أنها ممثلة للجامعة الإسلامية،وثانيا الى اقامة دولة قومية عربية للمسيحيين يكون لفرنسا فيها اليد العليا • ومن ثم فانها حركة تتناقض مع سمو الحركة القومية ولكن مهما كان الأمر فان العصر كان عصر القوميات وكان لا بد وان تسرى الروح القوميــة بين المسيحيين والمسلمين على حد سواء وفعلا انتقلت الدعوة الى الحركة العربيــة الى الزعامات الإسلامية ومن بينها عبد الرحمن الكواكبى •

واذا كان الأفغانى رومانســيا إسلاميا ونجيب عزورى مســيحيا طائفيا كا عبد الرحمن الكواكبى مفكرا يحاول أن يقترب من الواقع العربى تحت مظلة إســلامية واستبعد الأتراك العثمانيين لأنهم استبدوا بالعرب ولأنهم ضعفوا واضعفوا المســلمين واصبح على العرب ان ينهضوا ، وأدت بساطة تفكيره الى أن يتجه الى عرب الجــزيرة العربية مثلما فعل حينذاك محمود شكرى الآلوسى – المفكر العــراقى المشهور – فكل منهما اتجه الى عرب الجزيرة على اعتبار أنهم يحتفظون بنقائهم • وإن لديهم مقــومات القيادة والنهضة وكان يرى أن الخلافة يجب ان تكون عربية قرشية وأن يستند نظــام الحكم الى (الشورى) ومن ثم فقد عاش على نظرية كانت تحتــاج الى تقنين ، ثم ان الشعوب العربية كانت تتجه الى (القطرية) أكثر من اتجاهها نحو (الوحدوية) •

فمصر الواقعة تحت الاحتلال البريطانى كانت تنظر بعين الحذر الشديد الى دعاة الحركة العربية اذ كانت ترى فيهم معول هدم للدولة الإسلامية العامة (الدولة العثمانية) بينما كان عبد العزيز بن سعود لا يقر حقا للأتراك فى الخلافة ، وكان اليمنيون قطريون وكذلك دولة البوسعيد •

ومن ثم كان الاتجاه القطرى حين ذاك أقوى من الاتجاه الوحدوى ، ولذلك يمكن القول أن الأرضية الإسلامية لم تكن مهيأة لاقامة جامعة إسلامية وأن الأرضية العربية لم تكن مهيأة لاقامة دولة عربية واحدة وأن القطرية حين ذاك كانت هى الأقوى لأنها هى التى كانت تساعد على اقامة الدولة القطرية العربية الحديثة ٠

لقد أسهمت سياسة السلطان عبد الحميد الثانى فى تهيئة الظروف لسقوطه فقد كان يعتمد على سياسة استبدادية قاسية وعلى ألوف من الجواسيس ، فى وقت كانت تتحفز الدول الأوروبية للانقضاض على الدولة العثمانية الأمر الذى حدا بالعديد من المفكرين الأتراك الى العمل على احداث تغيير جوهرى فى نظام الحكم لانقاذ الدولة من الانهيار ، فقامت جمعية الاتحاد والترقى بانقلاب فى ١٩٠٨ ٠

الفصل العاشر

تطور العلاقات بين العـرب والترك

منـــــــذ

القرن التاسع عشر حتى أعقاب الحرب العالمية الأولى

كانت فلسفة الحكم العثمانى تقوم على أساس ترك الأمور فى الولايات على ما هى عليه دون ما تدخل جوهرى من جانب الحكومة فى حياة الناس على أن يكون ذلك فى اطار التبعية للسلطان العثمانى . وهذا ما نعبر عنه بسطحية الحكم العثمانى . فهو لم يتغلغل فى الأمور الداخلية ، وانما اكتفى بوضع حاميات للدفاع عن البلاد ، ولنشر الأمن فيها . اما ما عدا ذلك فقد ترك أمره لأهل البلاد ، ولحكامها من ولاة يعينهم السلطان أو من شيوخ واعيان أو امراء يتصدون لعلاج مشاكل بلادهم وأهالى البلاد .

فأدت هذه السياسة الى تجميد أوضاع البلاد العربية ، فى أول الأمر . ثم لما أصيبت الحكومة العثمانية بالضعف والفساد وانتقل ذلك الى مختلف الولايات وسارت هذه الولايات كذلك نحو التدهور فى مختلف مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

بدات الملامح الأولى لظهور شعوب ودول الأمة العربية خلال فترة ضعف الدولة العثمانية ، وعلى وجه الخصوص خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

كانت الدولة العثمانية قد استطاعت أن تبسط سيطرتها بدرجات متفاوتة من القوة والضعف على الغالبية العظمى من البلاد العربية من حدود العراق الشرقية ومن الخليج العربى وشبه الجزيرة العربية واليمن والحجاز والشام ، الى مصر وطرابلس الغرب (ليبيا) والجزائر ، بينما ظلت المغرب مستقلة خلال حكم الأسرة السعدية وخليفتها الأسرة العلوية .

فقد ادى ضعف الحكومة العثمانية ، وسياستها التى تترك امور الولايات للقوى المحلية القادرة على تحمل اعباء الحكم والإدارة والدفاع ، أدى ذلك الى ان تظهر أسرات حاكمة فى مختلف الولايات العربية فى الدولة العثمانية . واخذت كل أسرة حاكمة فى كل ولاية تدعم نفسها بان تخلق لها كيانا واضحا قد يعتمد على حدود جغرافية واضحة ، مثلما هو الحال بالنسبة لمماليك مصر ومماليك العراق وائمة اليمن أو يركز نفسه حول مدينة أو فى اقليم ذات مكانة اقتصادية وسياسية مثل آل العظم فى دمشق

والأشراف فى مكة وآل الصباح فى الكويت ، وآل ثانى فى قطر ، وآل خليفة فى البحرين ، والعبدلى فى لحج ، والفونج فى السودان ، والأسرة القرمنلية فى طرابلس (الغرب) وبايات الأسرة الحسينية ودايات الجزائر ٠

فكانت هذه التشكيلات السياسية والأسرية بمثابة البدايات الأولى لتكوين الدول العربية الحالية ٠

واذا كان القرن الثامن عشر قد شهد تلك البدايات فان القرن التاسع عشر شهد ظهور بعض الوحدات السياسية العربية بشكل يكاد يقارب الى حد كبـــير ما أصبحت عليـــــــه الآن ٠

وكان التدهور مظهرا عاما فى مختلف البلاد العربية ٠ فى العراق ، وشبه الجزيرة العربية وفى الشام ومصر وفى طرابلس (الغرب) وتونس والجزائر ومراكش ٠

وكان طبيعيا ، وقد ضعفت القوة العثمانية أن تظهر على حسابها قوى محلية تعمل على الحلول محلها ٠ وكانت هذه هى فعلا ظاهرة عامة ٠ فقد ظهرت فى العــراق حكومة المماليك (١٧٤٩ — ١٨٣٠) وحاولت ان تسيطر على العراق من موصله الى البصرة ٠

وكانت الجزيرة العربية قد فقدت تلك المنة الكبرى التى اعطاها اياها الإســلام ، ونعنى بها الوحدة ٠ ويبدو انه منذ انتقال كرسى الخلافة بعيدا عن مكة والمدينة ، أهمل خلفاء بنى امية وبنى العباس أمر شبه الجزيرة العربية وعلى هذا المنوال سارت بقيـــة الدول الاسلامية وآخرها الدولة العثمانية ٠ فعاد شبه الجزيرة العــربية الى صــورته القبلية التقليدية التى كان عليها ، وتصاعدت نعرات العصبية الجاهلية الى مستويات لا تقل عما كانت عليه زمن الجاهلية الأولى،حتى قوافل الحجيج ما كان ليسمح لها بالذهاب الى مكة والمدينة الا اذا دفعت لهم الأموال ، والا تعرض الحجاج للنهب والسلب والقتل ، وما هو أشد من ذلك ٠

ولكن خلال القرون الواقعة بين السابع عشر والثامن عشر وخلال القرن التاســع عشر بصفة خاصة بدأت تظهر الملامح الرئيسية للوحدات السياسية الموجودة الآن ٠ فقد وقعت هجرة (العتب) التى اسست الأسرات الحاكمة المعــروفة حاليـــا فى الكويت

(آل الصباح) والبحرين (آل خليفة) وقطر (آل ثانى) وانفصلت مشيخات جنوب اليمن (اليافعى ، الكثيرى ، العبدلى ، العولقى ٠٠ الخ) عن اليمن الذى حرر نفسه من الحكم العثمانى منذ ١٦٣٥ ٠ وفى الركن الشرقى من الجزيرة كانت أسرة البو سعيد فى عمان قد نجحت فى تحرير البلاد من الغزو الفارسى ٠ ولكن فى مواجهة تيارات التفكك هذه فى شبه الجزيرة العربية بدأت حركة الموحدين (الوهابية) تعمل على توحيد شبه الجزيرة ، وما يمكن توحيده من وراء ذلك ٠ ولكن اصطدمت هذه الحركة بسياسة معاكسة مصدرها الخلافة العثمانية التى كانت تنظر الى نفسها على أنها هى التى حفظت البلاد الإسلامية من العدوان البرتغالى ، وانها هى التى حملت لواء الجهاد ضد أوروبا دون غيرها من البلاد الإسلامية ٠ ومن ثم فعلى البلاد الإسلامية والعربية أن تبقى فى اطار الخلافةالعثمانية حتى لا تنهشها أظافر القوى الاستعمارية التى تتربص بالمنطقة وتستعد لاقتناصها وانتزاعها عنوة ٠ وكانت مخاوف الحكومة العثمانية فى محلها من هذه الناحية ، خاصة عندما انقضت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت لتستعمرها ولتصل الى الهند — ان استطاعت — عبر مستعمرات فرنسية على طول الشرق العربى ٠ أو بتأييد حكام فى الولايات العثمانية استبدوا بالحكم من دون رجال السلطان ، حيث تعاون الباشا القرمنلى فى طرابلس مع الحملة الفرنسية فى مصر ، وكذلك والى الجزائر ٠ ولذلك وخلال محنة وجود الحملة الفرنسية فى مصر وفلسطين بدا للحكومة العثمانية واضحا انها عجزت عن أن تخرج هؤلاء الغزاة وحدها ، وأن طردهم من مصر لم يتم الا بعد ان دمر الأسطول الانجليزى فى موقعة ابى قير البحرية الأسطول الفرنسى ، والا بالمساعدات البحرية العسكرية التى قدمت للمدافعين عن عكا ضد الفرنسيين ، والا بعد التحالف الانجليزى العثمانى ضد فرنسا والا بعد الحملة البريطانية الكبرى التى نسقت أعمالها مع الحملة العثمانية الى مصر ٠

لقد بدا واضحا أن الدولة العثمانية ، وولاياتها لم تعد على مستوى العصر ، وانها أصبحت مهددة بتكرار غزوات على نمط الحملة الفرنسية ، وبعدم قدرة امكانيات الدولة العثمانية وحدها هى وولاياتها على التصدى لمثل تلك الحملات ٠ ولذلك شرعت الحكومة العثمانية فى العمل على القضاء على الأسرات الحاكمة المحلية فى مختلف ولاياتها ، والقضاء على الحركات المناهضة للعثمانيين ، وعلى وجه الخصوص الحركة الوهابية بقيادة آل

سعود التي تنكر على السلطان العثماني حقه في ان يحكم وفي ان يحتكر الخلافة . فضلا عن أن استيلاء آل سعود على الحجاز سلب من السلطان العثماني أقوى مظهر من مظاهر الخلافة الا وهو حماية الأراضي المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة .

وحيث أن السلطان العثماني كان مشغولا في العقدين الأول والثاني من القرن التاسع عشر بمشكلات دولية كبرى ، وكان في حاجة الى تعبئة كل ما لديه من قوات لمواجهة ثورات شعوب البلقان ضده ، ولمواجهة الضغط الروسي ، والضغط النمساوي عليه ، كان عليه أن يجد قوة قريبة من قلب شبه الجزيرة العربية تتولى مهمة القضاء على آل سعود . وكان ان اتجه الى محمد على باشا والي مصر الذي استطاع أن يتولى حكمها بواسطة زعماء الشعب ، والذي استطاع أن يثبت أقدامه في حكم البلاد في وجه مقاومة عنيفة من جانب تحالف مملوكي — انجليزي ضده . ولقد استطاع الشعب المصري أن يعطي محمد على الفرصة لكي يتابع حكمه عندما تغلب الشعب بنفسه على ذلك التحالف المملوكي — الانجليزي في معركة رشيد (١٨٠٧) وارغم حملة فريزر على الانسحاب من مصر . وكان هذا في نفس الوقت تقريبا الذي توسع فيه آل سعود من نجد صوب الحجاز واستولوا عليه (١٨٠٣) .

ومن ثم أصبح محمد على واحدا من القوى المجاورة لشبه الجزيرة العربية القادرة على توجيه حملة ضد آل سعود ، وكانت القوة الأخرى هي مماليك العراق وكان والي العراق حينذاك هو سليمان باشا الكبير (١٧٧٩ — ١٨٠٢) ولكن كافة حملاته اثبتت فشلا ذريعا ضد آل سعود ، بل أدت الى أن يهاجم آل سعود بقسوة العتبات المقدسة الشيعية (١٨٠١) .

وكانت القوة الثالثة هي والي الشام ، ولقد أثبت ولاة الشام كذلك عجزهم تماما عن توجيه حملة ذات قيمة الى شبه الجزيرة العربية ، وبالتالي أصبح والي مصر محمد على باشا هو المرشح للقيام بتلك المهمة .

كان محمد على يريد التوسع في الشام وفي السودان ، ولم يكن معنيا كثيرا بأمور شبه الجزيرة العربية ، وقد طلب محمد على فعلا من السلطان العثماني أن يمنحه الشام مقابل اخماد حركة الموحدين ، ولكن هبت العواصف السياسية على محمد على واتهم بأنه

يسعى الى سلب السلطان حقوقه فى مصر ، وحيث ان محمد على كان فى سنوات حكمه الأولى ويخشى من أن ينفض عنه الشعب المصرى لو اصطدم علانية بالسلطان العثمانى ، ففضل أن يلبى طلبات السلطان وأن يضع ما لديه من قوات من أجل توجيه حملة ضد آل سعود ، ليطالب هو من بعد ذلك بضم الشام اليه ٠

ومن هنا يتبين لنا ان موقع مصر واهميته فى قلب الوطن العربى يملى على زعمائها اتجاهات عربية قومية ، فلقد وجد محمد على نفسه فى تيار عارم يدفعه نحو البلاد العربية ، فدور مصر فى اتجاه هذه البلاد العربية تمليه اوضاع المنطقة السياسية والاقتصادية والاستراتيجية من القدم ، فضلا عن أوضاع مصر نفسها ٠

أرسل محمد على حملاته الى شبه الجزيرة العربية ، ودارت المعارك فى أول الأمر لصالح الموحدين ، ولكن لم تلبث الامكانيات العسكرية الحديثة البسيطة التى كانت لدى ابراهيم باشا (ابن محمد على باشا) أن تغلبت على الحماس الدينى لدى الموحدين ٠

وتجدر الاشارة هنا الى ان هذه القوات التى ارسلت الى شبه الجزيرة العربية بقيادة ابراهيم باشا لم تكن مصرية وانما كانت مكونة من الارناءوط من ذوى الأخلاق السيئة ، فكان أن اساءوا الى اهل البلاد ، واساءوا الى المصريين على اعتبار أنهم وصفوا بانهم قوات (مصرية) ٠

وعلى أى حال ، استولى ابراهيم باشا على الحجاز ثم على نجد ووصلت قواته حتى الاحساء (١٨١٨) ولم تبق القوات المصرية فى منطقة الاحساء الافترة وجيزة وانسحبت بسرعة الى نجد ، والى ما وراء نجد٠وهذا يعتبر فى نظرنا نوع من قصر النظر السياسى، خاصة وان القوى الحاكمة القريبة من الاحساء والخليج العربى كانت هى الأخرى لا تقدر حقيقة الأوضاع فى الخليج العربى تقديرا سليما ٠ اذ كان الانجليز — من قواعدهم فى الهند البريطانية — يتحينون الفرص لفرض نفوذهم على منطقة الخليج العربى واحتكار التجارة والملاحة هناك ٠ كذلك كانت هناك قوة عربية ناشئة — وهى اسرة البوسعيد فى عمان — تعد نفسها لان تلعب الدور الرئيسى فى توجيه مقدرات الخليج العربى ٠

كان فى دست الحكم فى مسقط حينذاك (السيد سعيد) الذى حكم من ١٨٠٦ — ١٨٥٦ ، وكان يملك أكبر قوة بحرية عربية فى الخليج العربى فى ذلك الوقت ٠ ولكنه لم

يستطيع التفوق ذلك لأنه كان يتنافس مع قوة أوربية استعمارية كبرى تهدف الى نفس الهدف وهى بريطانيا الممثلة فى شركة الهند الشرقية .

وعلى اى حال ضربت البحرية الانجليزية معاقل القوى العربية المتحالفة مع الموحدين (الوهابيين) ، خاصة رأس الخيمة (١٨١٩) .

بعد تلك الحملة الانجليزية المسقطية المشتركة ، أصبحت اليد العليا فى الخليج العربى للانجليز ، وفرضوا على الامارات والمشيخات العربية فى الخليج العربى معاهدة (١٨٢٠) ، تلك المعاهدة التى جعلت بريطانيا تنفرد - الى حد كبير جدا - بتوجيه أمور تلك المشيخات والتحكم فيها .

وبعد عامين تقريبا بدأت دوائر حكام بغداد من المماليك ، ودوائر حكومة محمد على فى القاهرة تدرك كم أصبحت عليه أوضاع الخليج العربى ، والمياه الجنوبية العربية الإسلامية من خطورة على مستقبل المنطقة بسبب سياسات الانجليز الاستعمارية فى تلك المناطق . خاصة وان النشاط الاستعمارى الانجليزى لم يكن قاصرا فى تلك الجهات على الخليج العربى وانما كذلك امتد الى البحر الأحمر . فقد كانت حكومة الأئمة الزيديين فى اليمن شديدة الانغلاق على نفسها ، تعانى من الصراعات الداخلية الدموية ، فانتهز الانجليز هذه الظروف المواتية وضربوا بأسطولهم ميناء (مخا) اليمنى فى ١٨٢٦ تمهيدا للسيطرة عليه .

وهكذا بدا واضحا أن القوة الاستعمارية البريطانية قد بدأت تدق بعنف أبواب شبه الجزيرة العربية والعراق واليمن ، وقد يمتد ذلك بسرعة الي السويس نفسها . وحيث أن مقاومة مثل هذا الخطر البريطانى كان يتطلب استخدام أسطول مناسب ، ولم يكن ذلك متوفرا حينذاك ، احرز الأسطول البريطانى تفوقا حاسما .

فلا غرو أن اتجه والى بغداد داود باشا (١٨١٧ - ١٨٣٠) الى محاولة شراء بعض السفن الحربية . وحيث ان ذلك كان غير متيسر الا من القواعد البريطانية فى الهند ، فقد لجأ اليها، وكان طبيعيا ان ترفض تزويده بشىء منها حفاظا لها على السيطرة على مقدرات الخليج العربى .

اما محمد على ، فقد سعى الى تكوين جيش واسطول كبيرين،وكانت ظروفه أفضل وذلك للأسباب التالية :

١ — كانت أوضاع مصر قد استقرت الى حد كبير بعد أن قضى هو على المماليك المشاغبين فى مذبحة القلعة ١٨١١ ·

٢ — وفر له انتاج مصر الكبير من الأراضى الزراعية على يد فلاحها المثابر الأموال الكثيرة للانفاق منها على مشروعه العسكرى الكبير ·

٣ — قرب مصادر الأخشاب من مصر ، ونعنى بذلك (لبنان) ·

٤ — وجود موانىء كبيرة صالحة لبناء السفن : الاسكندرية والسويس ·

ونمت قوة مصر العسكرية بحريا وبريا ، واصبح فى نظر السلطان العثمانى أداة يمكن ان يستخدمها فى أية جبهة تستدعى منه ارسال جيش اليها ·

فعندما غزا الفرس العراق فى ١٨٢٠ — ١٨٢٣ اتجه السلطان العثمانى الى مصر ، طالبا من واليها ان يسرع الى انقاذ العراق من الغزو الفارسى · ان هذه أول مرة يطلب فيها من والى مصر أن يخف للدفاع عن العراق فى التاريخ الحديث (١) ·

وشعر محمد على أن السلطان العثمانى سيصر على تكليفه بتلك المهمة ومن ثم اصبح عليه أن يعد العدة العسكرية اللازمة لمواجهة هذه الحرب فى أرض العراق · بينما كان محمد على حينذاك مشغولا بفتح السودان ·

بدا واضحا لمحمد على أنه فى حاجة الى جيش كبير ، وبأقصى سرعة ممكنة · وكان حتى ذلك الوقت يسعى الى تكوين جيش من غير المصريين · ولذلك كتب الى ابنه ابراهيم باشا — الذى كان يقوم بعمليات فتح السودان — أن يسرع فى ارسال أعداد كبيرة من السودانيين الى مصر ليعد منهم جيشا كبيرا يخوض به معارك تحرير العراق من الفرس·

ومن هذا تتكشف لنا حقيقة خطيرة ، وهى أن محمد على كان لا يريد تكوين جيش وطنى مصرى ، وانما كان يريد الاعتماد على المرتزقة أو على السودانيين ولكن نبت لديه

---

(١) هناك سابقة حدثت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ولكنها كانت على نطاق ضيق للغاية ·

بعد ذلك انه اذا أراد أن يبنى مصر الحديثة ، وأن تظهر فى مصر دولة قوية ، فان السبيل الوحيد الى ذلك هو اقامة جيش من فلاحى مصر نفسها ، وهذا ما اضطر محمد على اليه بعد فشل تجربة تجنيد السودانيين وتكوين جيش منهم ٠

أدت تلك الحرب الفارسية — العراقية الى نتيجة هامة أخرى بالنسبة لمصر ٠ فقد وسعت مدارك محمد على ، وجعلته يرتفع الى مستوى المسئوليات الجسام الملقاة على كاهل مصر من منابع النيل الجنوبية الى مخا ومسقط والعراق والشام ، وكريت والبلقان ٠ لقد اتسعت الصورة امام محمد واتسعت معها الآمال ، وتعاظمت الأعباء ٠

عمل محمد على على أن تكون أمامه صورة واضحة لما كان يجرى فى الجبهة العراقية ٠ وادرك أن الحملة المطلوب ارسالها ستواجه متاعب قاسية بسبب طول الطريق بين مصر والعراق ، والحاجة الى نفقات باهظة بينما كانت انظار محمد على متركزة على الشام وليس على العراق ، على اعتبار انه هو المجال الذى يجب أن تعمل فيه مصر أولا لاعتبارات سياسية واقتصادية وعسكرية عديدة ٠ ولذلك ترك محمد على أمر الحرب فى العراق ، خاصة وانها كانت تسير نحو انسحاب الجيش الفارسى منه وركز جهوده فى بناء جيش وأسطول مصرى كبير يستطيع بهما ان يدافع ضد التيار الاستعمارى البريطانى سواء فى مصر او فى الشام ٠

خلال العشرينات من القرن التاسع عشر أصبح تحت يد محمد على جيش واسطول كبيران كانا موضع حسد الدول الكبرى ، الشرقية والغربية على السواء اذ كانت فكرة ظهور دولة قوية فى قلب الوطن العربى كفيلة بأن تثير مخاوف الدول الكبرى الطامعة فى المنطقة ٠ وقد بدأ هذا يتجلى عندما كلف السلطان العثمانى محمد على باشا ان يقوم باخضاع ثورة المورة (اليونان) التى عجزت الجيوش العثمانية عن اخضاعها خلال جهود مضنية استمرت ست سنوات ٠ فارسل محمد على الجيش المصرى ، والأسطول المصرى الى المورة ، وسيطر على الموقف ، فتكاتفت الدول الأوروبية بأساطيلها ضد الأسطول المصرى فى نوارين وهاجمته مجتمعة ، واغرقته (١٨٢٧) ٠ ولكن كان هذا حافزا أكثر لمصر لكى تعيد بناء جيشها وأسطولها لكى تتولى المهمة التاريخية الملقاة عليها وهى انقاذ المشرق العربى من الأخطار الاستعمارية الأوروبية ومن الحكم العثمانى المتداعى ٠ أو بمعنى آخر ركز محمد على جهده صوب الشام التى وعده بها السلطان لو اخضع ثورة

المورة ، ولكن لم يلبث السلطان ان رفض تنفيذ ما وعد به فقرر محمد على أن يحقق ذلك بالقـــــــــوة ٠

ولكن يجب التأكيد هنا بادىء ذى بدء ، أن علاقة محمد على بالشام لم تكن بقاصرة على تلك الأهداف الاستراتيجية والاقتصادية التى ترددها المؤلفات ، وانما كانت زعامات الشام هى التى تلح عليه كذلك كى يقدم اليهم وينقذهم من الفوضى التى كانوا يعـــانون منها ٠ ولقد لجأ الى مصر العديد من زعماء الشام وحكامه من أمثال بشير الشـــهابى ، عبد الله الجزار ، زعماء نابلس وزعماء القدس ٠ كذلك كانت العلاقات تنمو بسرعة بين مصر والشام ٠ فقد حث محمد على بشير الشهابى على الاكثار من استخراج الفحـــــم الحجرى وارساله الى مصر ، كما أن الشام كان فى حاجة الى كميات متزايدة من قمـــح مصـــــــــــر ٠

قبل أن يرسل محمد على قواته المسلحة الى الشام كانت منطقة الشرق الأوســـط بصفة عامة والدولة العثمانية تتعرض لهزات عنيفة ٠ فقد كانت الدولة العثمانية لا تزال تعانى من مرارة هزيمتها أمام روسيا التى فرضت عليها معاهدة ١٨٢٩ ، ونزلت القوات الاستعمارية الفرنسية فى الجزائر فى ١٨٣٠ ، وكانت هناك ثورة فى العراق ضد السلطان العثمانى يقودها داود باشا (١٨٣٠) ٠

وبدا كأن المنطقة تسير فى تيار خطر ، وان على محمد على أن يضمن سلامة مصر ، وسلامة الشام بوضعهما تحت حكم واحد ، فبعث بابراهيم باشا على رأس القـــوات المصرية لضم الشام الى مصر ٠

وخلال (١٨٣١ ــ ١٨٣٢) توالت انتصارات الجيش المصرى على الجيش العثمانى خاصة فى موقعة قونية (١٨٣٢) التى جعلت الطريق الى الاستانة مفتوحا أمام الجيش المصرى ٠ وفعلا لم يتوقف الجيش المصرى الا بعد أن وصل الى كوتاهية فى أقصى الشمال الغربى من الأناضول ٠ وكان توقف الزحف المصرى نتيجـــة لتدخلات الدول الكبرى الأوروبية ضد مصر ، وكانت تدخلات دبلوماسية قوية مغلفة بتهديدات عسكرية ٠ ومع ذلك اضطر السلطان العثمانى الى منح محمد على حكم (أطنة والشام) وقد عقد السلطان معاهدة سرية دفاعية هجومية مع روسيا (خنكار سكله سى ١٨٣٣) بعد أن يئس من

تدخل فرنسى أو انجليزى ضد محمد على ٠

كان فى هذه التطورات فضلا عن وقوع خطوط المواصلات العالمية عبر الشرق الأدنى بين الغرب والشرق فى يد حكومة مصر عاملا جوهريا فى تحرك الاستعمار البريطانى ضد مصر ، فاعلنت الحكومة البريطانية سياستها الخاصة بالمحافظـــة على « كيان الدولة العثمانية » تمهيدا لارغام محمد على على التخلى عن الشام وعن شبه الجزيرة العربية ، واثارت انجلترا القوى المحلية فى الشام ضد الحكم المصرى ، ووضعت سفنا مسلحة فى نهر الفرات لمنع القوى العراقية المناصرة لمصر من التعاون مع القيادة المصرية فى الشـــام ، ومنعوا شيخ البحرين من التعاون مع مصر ، واستولوا على عـــدن (١٨٣٩) ، وحاصر الأسطول الانجليزى مدخل البحر الأحمر والسواحل المصرية والشامية ٠ وحرضــــوا السلطان العثمانى على خوض معركة جديدة ضد محمد على ، فخاضها ولكنه هزم هزيمة شنيعة فيها (موقعة نزيب ١٨٣٩)، فاسرعت بريطانيا الى تكوين تكتل أوروبى ضد مصر وارغمت القوات المصرية على الانسحاب من الشام ومن شبه الجزيرة العربية وفرضت على مصر تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ التى جعلت حكم مصر فى أسرة محمد على ، وحددت عدد الجيش ، وابقت لمصر حكما ذاتيا فى اطار التبعية الاسمية للدولة العثمانية ٠

والجدير بالذكر، أن هذا التكتل العثمانى الأوروبى ضد مصر خلال ١٨٣٣ — ١٨٤١ كان يتم فى نفس الوقت الذى كانت فيه فرنسا تستعمر ولاية الجزائر العثمانية بموافقة انجلترا الضمنية ، ورغم أنف الباب العالى ٠

بعد انتهاء أزمة التوسع المصرى فى المشرق العربى ، اصبح الوضع فى البلاد العربية على النحـــو التـــــالى :

١ — العراق : قضى العثمانيون على مماليك العراق ، وحكموا العراق مرة اخرى حكما مباشرا استمر من ١٨٣١ — ١٩١٧ ٠

٢ — الخليج العربى : قوى فيه التسلط الانجليزى على مشيخاته ، وعلى دولة البوسعيد خاصة بعد وفاة السيد سعيد فى ١٨٥٦ ٠

٣ — عدن : استولى عليها الانجليز فى ١٨٣٩ وشرعوا فى تنفيذ سياسة فصل (المحميات التسع) عن اليمن وهى التى كانت فى منطقة حضر موت ٠

٤ ـ نجد : استعادت اسرة آل سعود حكمها فى نجد ومدت سيطرتها الى الاحساء ثم فقدتها فى ١٨٧١ ، ولم تحاول مرة أخرى السيطرة على الحجاز (١) • وكانت اسرة آل سعود قد أصيبت بضعف شديد حتى انها لم تلبث ان تفوقت عليها فى الثمانينات أسرة آل رشيد فى حائل ، ولم تستعد أسرة آل سعود مكانتها الا فى مطلع القرن العشرين (١٩٠١) عندما استرد عبد العزيز آل سعود الرياض ليؤسس الدولة السعودية الثالثة ولا تزال الى الآن وضمت اليها الحجاز فى ١٩٢٥ •

٥ ـ الشام : كان موزعا الى عدة ولايات ، ولاية الشام (دمشق) ولاية طرابلس ، ولاية حلب ، سنجقية القدس ، وامارة جبل لبنان ، وكان الموارنة قد أصبحوا أكثر تقدما من المسلمين وكانوا يعدون العدة لاقامة دولة لهم (مستقلة) الأمر الذى أدى الى صراع بينهم وبين المسلمين وخاصة الدروز ، وهو صراع نشب بشدة بعد الانسحاب المصرى من الشام الأمر الذى أدى الى تدخل الدول الكبرى الأوروبية لصالح موارنة لبنان وترتب على ذلك اقامة نظام القائمقايتين أى تقسيم جبل لبنان بين المسيحيين (الموارنة) والدروز ، الا أن هذا النظام ساعد على تصاعد الصراع الطائفى الذى وصل ذروته فيما عرف باسم مذابح الستين (١٨٦٠) • وانشاء نظام المتصرفية حتى وقوع الحرب العالمية الأولى • أما فى دمشق وحلب فقد قامت نهضة عربية ، وكذلك فى لبنان سيكون لها أثرها فى الحركة التحررية فى الوطن العربى هذا بينما أصبحت فلسطين هدفا للاستعمار الصهيونى منذ العقدين الأخيرين للقرن التاسع عشر •

٦ ـ مصر قامت بنهضة كبرى تعليمية ، واقتصادية ، وسياسية ، ولكنها نكبت بأزمة مالية أدت الى ثورة أحمد عرابى ثم الى الاحتلال البريطانى لها •

٧ ـ السودان : تقدم حضاريا تحت الإدارة المصرية ، ولما احتلت بريطانيا مصر انتهزت فرصة الثورة المهدية واحتلت السودان لتنفرد به •

٨ ـ طرابلس : كانت الدولة العثمانية قد قضت على الأسرة الحاكمة فيها (الأسرة

---

(١) الا فى ١٩٢٥ •

القرمنلية) فى ١٨٣٥ وحكمتها حكما مباشرا ولكن منذ أن استولت فرنسا على تونس (١٨٨١) تطلعت إيطاليا الى طرابلس ٠

٩ ــ الجزائر : ادعت فرنسا انها جزء منها ثم تطلعت من بعد الى فرض الحمـــاية على مراكش ٠

١٠ ــ مكة : كانت تحت حكم أشراف الحجاز ٠

١١ ــ اليمن : تحت حكم أئمة زيديين يعانون الكثير من الصراعات الداخلية والتقوقع المريـــــــع ٠

وكانت تلك الهزائم التى منيت بها الدولة العثمانية امام الدول الأوروبيـــة وأمام مصر وشعور الحكومة العثمانية بأنها متخلفة عن باقى الدول الأوروبية بل وعن تابعتها مصر ، عملت على الاسراع فى اعادة تجديد نفسها لعلها بذلك تستطيع التصدى للتدخل الأوروبى فى أمورها ، ولعلها تعيد قبضتها قوية على مختلف أجزاء الدولة العثمانية . فأقدمت على اصلاحات فى مجال العلاقة بين الحكومة والرعية وفى المجال العســكرى . وكانت أهم مظاهر التجديد فى الدولة العثمانية هى المراسيم التى اصدرها الســـلطان العثمانى وعرفت باسم (التنظيمات العثمانية) . وعرفت فترة التنظيمات العثمانية بانها الواقعة بين صدور أول خط (مرسوم) فى ١٨٣٩ وهو خط كلخانة وصدور الدســتور العثمانى على يد مدحت باشا أبو الأحرار الأتراك فى ١٨٧٦ .

وبين هذين التاريخين صدر خط هام جدا هو (الخط الهمايونى) فى أعقاب حرب القرم (١٨٥٦) ، وكان ينص على مساواة الرعية فى الحقوق ، والواجبات ، وفى ادخال الإدارات والنظم الأوروبية فى مختلف اجزاء الدولة العثمانية . ولكن فى الوقت الذى كانت فيه حكومة الدولة العثمانية تحاول أن تدخل هذه النظم التجديدية واجهت عدة عقبات عنيفة للغاية حالت دون تحقيق الأهداف من ورائها :

١ ـــ استمرار الضغط العسكرى على أجزاء الدولة العثمانية بشكل جعلها تولى المشكلة العسكرية أهمية أكثر بشكل عرقل عجلة الاصلاح .

٢ ـــ ان الدول الأوروبية الكبرى كانت توجه الاصلاح الى النواحى التى تخدم مصالحها الاستعمارية حتى ولو اضر ذلك بمستقبل الدولة العثمانية ومن ذلك اســـتخدام القروض فى النواحى الاستهلاكية دون الانتاجية .

٣ ـــ فى الوقت الذى كانت فيه الدول الأوروبية تنادى بضرورة تطبيق المســـاواه بين مختلف رعية السلطان العثمانى ، كانت تثير النعرات الطائفية خاصة فى لبنـــان الأمر الذى أدى الى الحوادث الدامية فى لبنان (١٨٦٠) وفى جدة (١٨٥٨) وفى العراق حوالى ذلك الوقت .

يعتبر عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ ـــ ١٩٠٩) من أخطر عهود الدولة

العثمانية لانه وضعها أمام المشكلة القومية وأمام المشكلة الدستورية وأمام المشكلة الاستعمارية وأمام المشكلة الاقتصادية ٠

والمعروف أن الدولة العثمانية منذ حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) قامت بجهود كبيرة من اجل تطبيق وتنفيذ الاصلاحات وقد طبقت فعلا مجموعة كبرى من الاصلاحات على راسها تنفيذ نظام الأراضى (الطابو) وتنفيذ قانون الولايات ٠

وكان يقصد من قانو الأراضى التخلص نهائيا من بقايا نظام الالتزام وتحسين حالة الفلاح بتمليكه قطعة من الأرض ولكن عندما وضع القانون موضع التنفيذ جاءت النتيجة أن الفلاح ظل بلى ارض وان اصحاب رؤوس الأموال وشيوخ العشائر هم الذين تحولوا الى ملاك كبار وقد سجل شيوخ العشائر الأراضى باسمهم ٠

أما قانون الولايات وقد تزعمه مدحت باشا فكان يقضى بانشاء مجالس محلية فى كل ولاية وتطبيق النظام الضرائبى ولكن قانون الولايات كان ينجح عندما كان الوالى مصلحا مثل مدحت ويفشل عندما وضعت الولاية فى يد موظفين غير جديرين ، هذا فضلا عن أن العصبيات العشائرية ظلت خطرا على هذا النظام ٠

دعا مدحت باشا كذلك لتطبيق الدستور ورفع البلاد الى مستوى العصر عن طريق نظام حكم دستورى خاصة وان السلطان عبد العزيز كان مسئولا عن التدهور الاقتصادى فى البلاد الأمر الذى جعل مدحت باشا يعمل على تنفيذ نظامه الدستورى بأية وسيلة ٠ ولهذا عزل مدحت السلطان عبد العزيز واسند الحكم والعرش الى عبد الحميد الثانى ٠

جاء عبد الحميد الثانى بعد وعد قاطع باصدار الدستور ولكنه كان يضمر الوصول الى الحكم المطلق لا الى الحكم الدستورى ٠ وبتولى عبد الحميد العرش بدا وكأن دعاة الاصلاح سيتفوقون فى الدولة العثمانية وانهم باصدار الدستور سيوحدون البلاد ويقضون على الفتن ، الا أن القوى الأوروبية الطامعة فى الشرق الأدنى كانت ترى فى التطور الدستورى خطرا على اطماعهم ، فلا يكاد مدحت باشا يتخذ الخطوات الأولى نحو اصدار الدستور حتى اعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية واستطاعت روسيا أن تهزم جيوش الدولة العثمانية واستولت على باطوم وقارص وبايزيد واصبحت تهدد ارمينيا ، وبالتالى أصبحت المنطقة الواقعة فى أعالى نهر دجلة فى متناول الروس ثم جاء

الانتصار الكبير فى بلفنا ، الذى جعل الروس على مشارف الاستانة ، ولما فرضت روسيا معاهدة سان ستيفانو (١٨٧٧ — ١٨٧٨) على الدولة العثمانية واصبحت بلغاريا نتيجة لتلك التطورات أكبر وأقوى من اللازم بدا كان الدولة العثمانية على وشك الانهيـــار ، وكان هناك اعتقاد بان انجلترا تحافظ على كيان الدولة العثمانية وانها لا بد وأن تتدخل الى جانبها ضد روسيا ولكنها فى هذه الظروف لم تتمسك بتلك السياسة ٠

حقيقة قررت بريطانيا القضاء على معاهدة سان استيفانو التى فرضتها روسيا على السلطان العثمانى بعد تلك الحرب القصيرة سنة ١٨٧٧ ، ولكن انجلترا التى أيدت الدعوة الى أن يكون الصلح المفروض على الدولة العثمانية مشرفا عن طريق مؤتمر دولى نجدها تسير فى تيار تمزيق الدولة العثمانية فى هذا المؤتمر الدولى (مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨)٠ وهناك مجموعة من الأسباب يسوقها المؤرخون فى هذا الصدد لتبرير سياسة انجلترا نحو تمزيق الدولة العثمانية وهى : أن الدولة العثمانية أصبحت عاجزة عن التطور وانهـــا أصبحت عاجزة عن تسديد ديونها المتراكمة وأن البلقان تحت الحكم العثمانى لن يتراجع فحسب بل سيصبح مسرحا للمعارك الدموية وكان هناك من يدعوا من الزعماء الانجليز الى طرد العثمانيين من البلقان باسم الحضارة وباسم المسيحية ٠

الى جانب هذا كانت انجلترا تسعى الى تكوين عصبة البحر المتوسط من كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا لمنع انتشار الروس فى حوض البحر المتوسط ولكنها لم تنجح فى هذه السياسة فكان البديل أمامها هو الاتفاق مع كل من فرنسا وإيطاليا على اقتسام ولايات الدولة العثمانية ٠

وحينذاك كانت انجلترا قد اشترت أسهم قناة السويس وبدأت تخطط لاحتـــلال مصر وكان دزرائيلى يسعى الى السيطرة على قبرص وكريت كما كان هناك ســــياسى مصرى (نوبار باشا) يحث دزرائيلى على احتلال الانجليز لمصر وكان نوبار قد اتصـــل أيضا ببسمارك الذى كان يرى أن الدول الأوروبية يجب أن لا تحارب بعضها البعض من أجل اقتسام ولايات الدولة العثمانية وانما عليها أن تقسمها على مائدة المفاوضات ٠

وفعلا عقد المؤتمر واصدر مجموعة من القرارات أدت الى أن تفقد الدولة العثمانية معظم البلقان٠أما فيما يتعلق بالبلاد العربية فقد اكتشفت فرنسا أن انجلترا قد اقتنصت

سرا قبرص من الدولة العثمانية ، ولكى تهدىء انجلترا من ثورة فرنسـا وجهتها الى تونس ولما كانت إيطاليا تطمع فى تونس وجهتها الى طرابلس ٠

هذه هى بعض من المشاكل الكبرى التى واجهها السـلطان الخليفة عبد الحميد الثانى ٠ واجه متناقضات ضخمة ، الحكم الدسـتورى والهزيمة العسـكرية والمذلة الدبلوماسية فى اروقة مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ٠

فادى كل هذا الى ان يفكر السلطان عبد الحميد فى أن يتولى بنفسه مهمة انقـاذ الدولة واعتقد انه هو — لا الدستور — القادر على ذلك ، وفى اعتقادنا أن الحكم الفردى المطلق لكى يكون ناجحا ولمصلحة الدولة يجب ان يكون مؤقتا ولاجتياز فترة حرجة تتطلب تركيزا فى القوة وتتطلب قرارات حاسمة سريعة ٠ ولقد كانت الدولة العثمانية حينذاك فى حاجة الى مثل هذا الحكم الفردى لمواجهة مثل هذه الأزمات الكبرى ٠

ولكن السلطان عبد الحميد استمر فى حكمه المطلق بل سار فيه الى ابعد المراحل كما انه اعتمد على فكرة سامية من أجل توطيد حكمه المطلق واعنى بذلك فكرة الجامعة الاسلامية على اعتبار ان الخلافة العباسية التى يدعى العثمانيون وراثتها كانت تعطى الخليفة كل السلطات دون قيـد ٠

لقد كان عبد الحميد نفسه شخصية متناقضة مليئة بالخير مليئـة بالشر مليئـة بالشجاعة مليئة بالجبن صاحب مروءة ومكر قاتل كانت أمه جارية قوقازية تعمل راقصة وعاش هو طفولته بين الارقاء وفقد أمه فى وقت مبكر بعد مرض قاص وهـو الدرن ٠ ومات أبوه وهو فى التاسعة والثلاثين ومات عمه السلطان عبد العزيز منتحرا وعمه الآخر مراد الخامس الذى كان مخلولا ثم جىء به سلطانا دستوريا ٠

وسرعان ما التف حوله جماعات من المنتفعين بالسلاطين وهى جماعات تعيش على الدس والمؤامرة وسلب الأموال وتطلع عبد الحميد حوله وتساءل كيف يستقر على عرشه فى هذا الجو العجيب الملىء بدسائس المقربين وعادات السفراء اللطيفة السامة والعسكريين الوطنيين المتخاذلين ورجال الدين المتشدقين بالإسلام الجاهلين بتعاليمه ٠ فقرر ان يضع نفسه فوق كل هؤلاء ٠ فكانت فكرة الجامعة الإسلامية تهىء له تكوين شخصيته القائمة على الزعامة والانفراد والفكر الإسلامى ٠

ولا شك أن مؤتمر برلين والأزمات التى واجهته قوت فى نفســـــه فكرة الجامعة الإسلامية وسنشير الى هذه الأزمات بسرعة ٠

١ ــ كانت الدولة العثمانية تعانى من ازمة مالية مشابهة لأزمة مصر ٠ لولا أن أصــدر عبد الحميد المرسوم المعروف باسم مرسوم محرم سنة ١٨٨١ الذى قضى بانشاء صندوق الدين العثمانى العام الذى اشرف على مالية الدولة فنظم عملية تســـديد ديونهـــــــــا ٠

٢ ــ الأزمة الأرمنية التى ترتبت عن ثورة الأرمن من أجل الاستقلال وما أعقب ذلك من مذبحة على يد الأتراك ربما بتدبير السلطان نفسه ٠

٣ ــ الأزمة الكويتية التى اثارتها اليونان لتحصل على كريت وأدت الى حصول كريت على الحكم الذاتى فى سنة ١٨٩٢ تمهيدا لضمه لليونان ٠

٤ ــ الأزمة المقدونية بسبب طمع بلغاريا واليونان فى مقدونيا العثمانية ٠

٥ ــ الأزمة التونسية التى أدت الى احتلال فرنسا لتونس ٠

٦ ــ الأزمة الدستورية فى مصر ، وكان السلطان يكره أن يكون لمصر دســتور حتى انه اسهم فى اغراق الثورة العرابية ٠

٧ ــ الأزمة الكويتية التى أثارها الانجليز بعقد اتفاقهم مع مبارك الصباح لمنع ألمانيا من ايصال خط حديد بغداد الى الخليج ، ومثيلتها أزمة طابا لمنع الدولة العثمانية من السيطرة على هذا المنفذ الاستراتيجى ٠

ليست فكرة الجامعة الإسلامية من ابتداع السلطان عبد الحميد وانما هى دعـــوة كرس جمال الدين الأفغانى نفسه لها تهدف الى قيام حكم إسلامى دستورى ٠

كان الأفغانى يكره الاستبداد ولهذا عارض استبداد الشاه واســتبداد الخديوى اسماعيل ٠ كان الأفغانى يهدف الى حياة إسلامية ديمقراطية تهدف الى مقـــــاومة الاستعمار الاوروبى وكان يؤيد اية حركة ضد الاستعمار مثل الثورة العرابية ، والثورة المهدية فى السودان ٠

وحيث أن عبد الحميد كان يقاوم التغلغل الأوروبى فان فكرة الجامعة الإسلامية كانت تركز على هذا الهدف ، ولكن كان عبد الحميد يرفض الاتجاه الدستورى لهذه الفكرة ، ولهذا اخذ عبد الحميد بالمفهوم الايدولوجى السطحى دون المفهوم الدستورى الديمقراطى هذا التمسك بالاتجاه الايدولوجى السطحى دون الديمقراطى الدستورى خلق قوى معارضة من داخل البلاد نفسها ، بعضها كان أصيلا نابعا من فكر وتقليد إسلامى عربى وبعضها كان مطعما بفكر غربى ، وبعضها كان شديد الارتباط بالفكر العربى وكان عبد الرحمن الكواكبى من الطراز الاسلامى ٠

وظهر نجيب عازورى الذى طالب بخلافة عربية ايضا ولكنه فى نفس الوقت كان يدعو الى استقلال العرب وارتباطهم ارتباطا شديدا بأوروبا وخاصة فرنسا ٠

لقد ادى ظهور هذه الاتجاهات الى اهتزاز مكانة السلطان عبد الحميد وتهيأت الأذهان لاحداث تغيير جوهرى فى أوائل القرن العشرين ٠ لقد كانت الأوضاع العامة فى العالم العربى كله تشير الى ان هذا الوطن يواجه فترة دقيقة واجتياحا استعماريا فى مختلف جوانبه فى مصر والسودان ، وفى الجنوب العربى وشمال أفريقيا وجنوب اليمن او تصاعد فى المصالح الأوروبية بشكل يمهد للاستعمار مثل احتكار شركة لينش للملاحة فى العراق وتضخم أعداد المبشرين فى الشام ٠ وكان ان ظهر شعور عام فى البلاد العربية المتقدمة والمتخلفة يحث على اعادة النظر فى شكل الحكومة القائمة خاصة وأن العلاقة بين العرب والترك منذ القرن السادس عشر وكانت تقوم نظريا على أساس المشاركة ولكن منذ أواخر القرن التاسع عشر ومنذ ظهور مراسيم المساواة فى الحقوق والواجبات بدأ العرب يرون انهم ليسوا على قدم المساواة مع الترك ٠

فلا غرو أن ظهرت المعارضة العربية للاحتكار التركى للحكم منذ دستور ١٨٧٦ ذلك الدستور الذى صدر على يد مدحت باشا وانشأ مجلس المبعوثان (مجلس النواب) ، فى هذا المجلس تعرض حكم عبد الحميد الثانى لنقد خشيه السلطان كل الخشية ، فكانت هذه المعارضة من الأسباب التى جعلت عبد الحميد يوقف العمل بالدستور وفى البرلمان ٠

ولم يكن من اليسير على السلطان عبد الحميد أن يقضى على هذه المعارضة فمع انه سيطر على الصحافة فى داخل الولايات العثمانية ، الا أن صحف لبنان ومصر كانت

شديدة الوطأة عليه • فمن لبنان ومصر خرجت قوى المعارضة يشد أزرها الانجليز فى مصر والفرنسيون فى لبنان •

كان الكواكبى يعمل ضد السلطان العثمانى من مصر دون أن يعمل على تقويض الدولة العثمانية أما الانجليز فى مصر فكانوا يرون فى حركة الكواكبى تقويضا للدولة العثمانية •

كانت هناك فرصة كبرى لصهر المقاومة العربية والتركية للاستبداد الحميدى فى بوتقة واحدة واعنى بذلك الانقلاب الذى وقع على يد رجال جمعية الاتحاد والترقى ضد السلطان عبد الحميد ١٩٠٨ • فهى جمعية — وان كانت تركية — الا أنها تهدف الى انقاذ الدولة العثمانية كلها من الرجعية •

لقد وضع العرب ثقتهم فى حكومة الاتحاديين ووقف الزعماء العرب من أمثال رفيق العظم وياسين الهاشمى وعزيز على المصرى وعبد الرحمن الشبندر ، وسليم الجزائرى وقفوا موقف التأييد من الاتحاديين •

ولكن الأتراك الاتحاديين كانوا يخشون من ظهور اغلبية عربية فى مجلس النواب الجديد، لقد كان الاتحاديون دستوريين ولكنهم كانوا أتراكا أولا • وأصرت جمعية الاتحاد والترقى أن تظل أمور الدولة فى يد الأتراك بل بلغ من بعض متطرفى الأتراك أن نادى بأن تصبح كلها تركية وانه على العرب أن يغادروا لغتهم وهذا ما يطلق عليه (سياسة التتريك) • وقد اتخذت فعلا اجراءات فى هذا الاتجاه :

١ — فاللغة التركية اصبحت لغة المحاكم فى الولايات العربية •

٢ — الصحف التركية الرسمية اصبحت تصدر بالتركية فقط •

وعندما اجريت انتخابات مجلس المبعوثان الجديد ١٩٠٨ نجح المرشحون الذين ساندتهم جمعية الاتحاد والترقى ، وبينما كان ٥/٢ الدولة العثمانية من العرب كان عدد النواب عن العرب هو ٥٠ نائبا مقابل ١٥٢ معظمهم كانوا ميالين الى الترك أو من أصول تركية • وعندما حاولت مصر أن تنتهز فرصة صدور الدستور عام ١٩٠٨ وانشاء مجلس المبعوثان عندما أرادت مصر انتهاز هذه الفرصة لاعادة ارتباطها بالدولة العثمانية تخلصا

من الحكم الانجليزى ابى الاتحاديون ذلك وأعلن الصدر الأعظم حلمى باشـــا أن الدولة العثمانية موافقة على بقاء مصر تحت الحكم الانجليزى ٠

وحملت الصحف التركية حملات شعواء على الحزب الوطنى المصرى وهى حملة لم تكن صادرة عن هذه الجمعية (الاتحاد والترقى) وانما كانت بتوجيـــه مخطط ضد اى تفوق عربى فى مجلس المبعوثان أو فى الهيئة الحاكمة العثمانية ٠

ومع هذا لم يتخل المصريون عن ارتباطهم بالدولة العثمانية فعندما انتزعت النمسا اقليمى البوسنة والهرسك قاطع المصريون البضائع النمساوية ، وأيد المصريون الكفـاح العثمانى ضد الاحتلال الايطالى لليبيا سنة ١٩١١ ٠

وظهرت فى دمشق اتجاهات عربية مناهضة لتفوق الأتراك فى الحكومة الجديدة ، ومعأن الأتراك احتكروا المناصبالعليا وسيطروا علىمجلسالمبعوثانفقد فضل العربعدم رفع المشكلة الى مستوى المواجهة بين عربى وتركى وانما الفوا جمعية الآخاء العثمانى الداعية الى تعاون عربى تركى ، وبعد الجلسات الأولى التى عقدها مجلس المبعوثان بدأت تظهر افتراءات سخيفة من جانب الأتراك المتعصبين ضد العرب وأخذ الجفاء يتصـــاعد وحاول الأتراك اخراج النائبين العربيين نصيف المؤيد وطالب النقيب من المجلس ولكنهم فشـــــــلوا ٠

وزادت حدة التحدى التركى للعرب فى أعقاب المحاولة الفاشلة التى قام بها السلطان عبد الحميد لاستعادة سلطاته كاملة فى ١٩٠٩ فالملاحظ ان الأتراك اتهموا العـرب بأنهم أعوانالسلطانعبد الحميد وأبعدوا الوزراء العرب وأحلوا محلهم وزراء متعصبين للتركية ٠

لقد خشى العرب من نوايا الاتحاديين الذين فاجأوا العرب بعقد الصلح مع ايطاليا فى الوقت الذى كان فيه العرب يعتقدون أن استمرار الكفاح هو السبيل الوحيد لانقـاذ ليبيـــــــــــا ٠

وتصاعد الموقف بسبب الجمعيات التى تألفت مثل « المنتدى » التركى الذى دعا الى تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية ، كما تألفت جمعية الوطن التركى التى شاركت فيها الأديبة التركية المشهورة (خالدة أديب) والأديب المشهور (ضياجوك الب) الذى يوصف بانه أبو القومية التركية فكانت هـــذه الجمعية تدعوا الى تجميع الاتراك من حدود الصين الى البلقان ٠

كانت خيبة امل العرب كبيرة فى جمعية الاتحاد والترقى،وكانت سب
العرب عن هذه الجمعية ، بل اقدموا على خطوات لمعارضة هذ
خطوة يقوم بها الأتراك تتعرض لمستقبل العرب ولكيانهم • فتّ
الجمعيات والأحزاب ، كلها تخدم الفكرة العربية • وهذه الأنوا
والجمعيـــــــات :

(أ) جمعيات سرية مثل (القحطانية ١٩٠٩) ، والعهد (١٩١٠) •

(ب) حزب الحرية والائتلاف فى العراق والشام وكان حـزبا يعمل داخل الدولة العثمـــــــــــانية •

(جـ) جمعيات واحزاب عربية فى لبنان وفى مصر وهما بعيدتان عن متناول أيدى السلطات العثمانية حيث ان لبنان كان قد حصـل على نظام حكم خاص به بحماية الدول الكبرى الأوروبيـــــة • وكان « حزب اللامركزية والادارة العثمانية » ـ الذى تأسس فى ١٩١٢ ـ من أنشط الأحزاب العربية ، كما كان حزب الحرية والائتلاف أول ضربة قوية موجهة توجيها مباشرا ضــــد سياسة الاتحاديين •

ومع أن حزب الحرية والائتلاف كان مفتوحا للعرب وللأتراك على حد سواء الا انه أصبح مركزا للحركة العربية • كذلك ظهر المنتدى الأدبى الذى ضـــم الطلاب العرب فى الاستانة وضم معظم زعماء الحركة العربية من امثـــــال عبد الكريم الخليل الذى آمن بالقضية العربية وبانها لا تحل بالخطب أو الاجتماعات وانما بالتربية والتعليم وغادر الى مصر ليقنع زعماءها بقيمة التعليم العربى فى توحيد العرب كما حث العرب على توحيـــد المناهج التعليمية • هذا المنتدى الأدبى أيضا فتح الوحدة السياسية امام العرب لأنه كان يتيح للزعماء العرب فرصة التحدث والمناقشة فى مختلف مصـــالح العرب وفى بيروت تألفت الجمعية الاصلاحية البيروتية ١٩١٣ ، وهى تعمل على ترقية العرب واضافت الى هذا استخدام المستشارين الأجانب لاستصلاح حال الإدارات الحكومية وفيما عدا ذلك تتفق مع الجمعيات الاخرى فى المطالبة بالحكم الدستورى وبان تكون اللغة العربية لغــة رسمية على قدم المساواة مع اللغة التركية •

وكانت المناداة بتلك المبادىء حينذاك تثير فى الأتراك أشد مظاهر الحنق والغيظ لأن الزعماء الأتراك كانوا قد وطدوا العزم على سياسة التتريك فحاربوا تلك الجمعية وأغلقوا ابوابها ولكنها كانت قد تركت اثرا قويا فى نفوس العرب حتى أن جمعية مشابهة لها تأسست فى الطرف الأقصى من البلاد العربية اعنى به البصرة ٠

أما حزب اللامركزية فتأسس فى ١٩١٢ فى القاهرة بعيدا عن متناول يد السلطات التركية،وكانت له فروع فى الشام والعراق ومفتوحا أمام العربى والتركى على السواء ، ولكنه اصبح معقلا للعرب ، وظهرت ايضا جمعيات سرية اهمها الجمعية القحطائية التى أسسها سليم الجزائرى وعزيز على المصرى ومع انهما كانا من مؤيدى جمعية الاتحاد والترقى الا انهما تخليا عنها عندما انحرفت عن اهدافها الأولى وأسسا تلك الجمعية القحطائية ٠ الا انها لم تعش طويلا ، كذلك شكل عزيز على المصرى جمعية عرفت باسم جمعية العهد وكانت قاصرة على الضباط العرب ومع ذلك كانت تعمل من أجل العرب ومن أجل الدولة العثمانية ٠

ومن هذا كله يتبين لنا أن العرب كانوا أكثر لينا وأقل تعصبا عندما اسسوا جمعياتهم العلنية والسرية بعكس الأتراك٠ونلاحظ ايضا أن القيادات التى تزعمت الحركة العربية فى أوائل القرن العشرين أصبحت عربية اسلامية وكانت من قبل عربية مسيحية وساعد هذا التحول على انتشار الفكر السياسى العربى ٠

ومع ذلك فعندما وقعت الحرب العثمانية البلقانية فى سنة ١٩١٣ وقف العرب الى جانب الأتراك ولكن بعد تلك الحرب وجد الاتحاديون أن ممتلكاتهم اصبحت قاصرة على قسمين واضحين هى الأناضول ، وبلاد العرب وأصبحت الولايات العربية فى المشرق تمثل غالبية الدولة العثمانية وظهر هنا سؤال لماذا اذن تمسك الأتراك بالمراكز القيادية ؟

وزاد الموقف سوءا عندما تألفت وزارة محمود شوكت عام ١٩١٣ التى لم تضم أى وزير عربى بل ثلاثة من الوزراء اليهود ، ووجد العرب انه لا بد من ان يجتمع الزعماء العرب ليتدارسوا هذا الموقف وفعلا عقد المؤتمر العربى الأول فى باريس ١٩١٣ ٠

وكانت الرغبة فى تطبيق اللامركزية هدفا واضحا من اهداف هذا المؤتمر ليحمى العرب من التتريك وليحمى العرب من المخططات الأوروبية بشأن اقتسام ولايات الدولة

العثمانية · ولقد كانت هناك فعلا مشروعات لاقتسامها ومن ذلك مشروع طرح خلال المباحثات بين الانجليز والألمان بشأن خط حديد بغداد على النحو الآتى :

أن تحصل روسيا على ارمينيا وما حولها ·

أن تحصل فرنسا على الولايات السورية ·

أن تحصل بريطانيا على أجزاء من آسيا الصغرى والعراق ·

أن تحصل ألمانيا على بقية آسيا الصغرى ·

وكان العرب خارج الدولة العثمانية أكثر اطلاعا على تلك النيات التى كانت لدى الدول الكبرى وفعلا عقد المؤتمر فى باريس وتعرضوا للموضوعات التالية · (١٩١٣) :

ـ التضامن الإسلامى المسيحى ·

ـ الولاء التام للرابطة العثمانية ·

ـ المحافظة على حقوق العرب القومية وعلى اللغة العربية ·

ـ تطبيق اللامركزية ·

ـ نبذ التدخل الأجنبى وخاصة فرنسا فى سوريا ·

فكان طبيعيا أن تقاوم الحكومة العثمانية المؤتمر فجمعت عددا من كبار أعيان العرب وجعلتهم يشنون حملة شعواء على المؤتمر وأعضائه · ولكن تبين أنهم أضعف من أن يقوضوه واضطر الأتراك الى تغيير سياستهم الى التفاهم مع أعضاء المؤتمر واتفق الطرفان العربى والتركى على القرارات الرئيسية التالية :

١ ـ أن تكون اللغة العربية لغة المدارس فى الولايات العربية مع استمرار اللغة التركية لغة البلاد الرسمية ·

٢ ـ أن يتولى ثلاثة من العرب المناصب الوزارية وأن تسند بعض المناصب العليا الى موظفين عرب ·

٣ ـ اعطاء صلاحيات واسعة للمجالس المحلية فى الولايات العربية ·

٤ ـ أن يظل الضباط العرب والجنود العرب فى ولاياتهم خلال فترات السلم ·

٥ ـ استخدام الخبراء الأجانب فى اصلاح أمور الولايات العربية ·

ولكن هذا الوفاق العربى التركى لم يلبث أن تدهور لأنه كان يحمل فى طياته بوادر فشله كما ساعدت التطورات السياسية العالمية والمحلية على فشله وذلك للأمور التالية :

١ — كان المؤتمر قاصرا على المندوبين من الولايات العربية العثمانية فقط ومن ثم فهو لا يمثل كل العرب ، ولقد حاول شاب عربى مصرى أن يشارك فى المؤتمر العربى باسم مصر ليرفع صوتها فى هذا المؤتمر فرد عليه عبد الحميد الزهـــراوى رئيس المؤتمر قائلا أن مصر عربية عثمانية وبما أن لها إدارة خاصة لا ينفذ فيهـــا رأى العثمانيين وكذلك للبلاد العثمانية إدارة خاصة لا ينفذ فيها رأى المصريين لذلك أرجو أن يكون هذا عذرا لبقاء مناقشة الأمور العثمانية الداخليـــة منحصرة فيمن ورائهم حق التأثير على أحوالهم ·

وبذلك يكون المؤتمر قد أبعد القوى المكافحة فى مصر والسودان وشمال أفريقيا من مجال التضامن العربى · بل انه لم يستجب لنداء عرب فلسطين من أجـــل مناقشة الخطر الصهيونى عليها ·

٢ — وضعت الأمور فى يد عبد الكريم الخليل والزهراوى على أمل تنفيذ قرارات المؤتمر ونحن لا نشك فى وطنيتهما ولكن يجب أن تكون الفكرة الوطنية موجهة أيضا بعقلية دبلوماسية قادرة على مواجهة المناورات السياسية وهذا ما كان ينقص عبد الكريم الخليل والزهراوى ولهذا كانا أقل خبرة من زعماء جمعية الاتحـاد والترقى وكان على رأسهم طلعت باشا وأنور وجمال وهؤلاء الثلاثة سيطروا على جمعية الاتحـاد والترقى · وكانت محاولة الاتحاديين تسوية خلافاتهم مع العرب فى ١٩١٣ هو جزء من سياسة عامة لهم لتسوية مشكلاتهم المعقدة فى مختلف المجالات فأصـــبح عام ١٩١٣ عام التسويات · تسويات بشأن خليج العقبة ، وشط العـــرب ، وشركة لينش ، وسكك حديد بغداد ، والمحميات ، وحضر موت ·

فبالنسبة للخليج العربى كان الانجليز قد نجحوا فى عقد اتفاقية ١٨٩٩ مع مبارك الصباح لمنع الألمان من توصيل مشروع خط حديد بغداد الى الخليج العـــربى ، حتى اذا ما أراد العثمانيون والألمان توصيله الى الخليج فيجب أن يكون ذلك تحت الســـيطرة الانجليزية ، وعندما علم عبد العزيز بن سعود أن انجلترا تسعى الى الوصول الى تسوية

مع الاتحاديين والمانيا بشأن خط حديد بغداد أسرع هو الى استرداد الاحساء ١٩١٣ ولعل عبد العزيز خشى أن يتنازل الأتراك عن الاحساء للانجليز فاسرع هو للسيطرة عليها • ومع هذا سنجد ان الانجليز فى التسوية التى عقدوها عام ١٩١٣ يعترفون بان الاحساء تابعة للأتراك •

ولهذا كانت مشكلة الكويت وخط حديد بغداد من اهم نقاط المفاوضات بين انجلترا والاتحاديين لايجاد تسوية عامة بين الطرفين واتفق الطرفان على ان تكون الكويت مستقلة استقلالا ذاتيا وأن تعترف الحكومة العثمانية باتفاقية ١٨٩٩ وان تتولى شركة انجليزية مد الخط الحديدى المزمع انشائه الى البصرة والكويت • وترتب على هذا الاتفاق تخلى الألمان للانجليز عن هذا الجزء من الخط الحديدى كما اتفقت الدولتان على تكوين شركة للنفط • من ثم يمكن أن نقول ان الاتفاقية الانجليزية الألمانية عبارة عن تقسيم للنفوذ بين الدولتين فى الدولة العثمانية ، وبالنسبة لقطر والبحرين اعترفت الحكومة العثمانية بانها لن تتدخل فى شئونها وفيما يتعلق بشط العرب اتفق الطرفان على اعتبار هذا الشط مفتوحا للملاحة الدولية •

أما بالنسبة الى حضر موت : فقد حددت الحدود بين اليمن من جهة وعدن والمحميات من جهة أخرى •

أما التسوية الفرنسية العثمانية : فنصت على معاملة المدارس الفرنسية فى الدولة العثمانية على قدم المساواة مع مدارس الدولة وعلى اعتراف ضمنى بالحماية الفرنسية على شمال افريقية وأن تتولى الشركات الفرنسية مد الخطوط الحديدية فى الشام •

من كل هذا يتبين ان الاتحاديين كانوا يريدون الوصول الى تسوية عامة لمشاكل الدولة ، ولكن هذه التسويات أعطت لألمانيا وفرنسا وبريطانيا امتيازات دون أن تحصل الدولة العثمانية على مقابل لها • ومع أن هذه التسويات توحى بانها أوجدت توازنا بين الدول الكبرى الأوروبية فى الشرق العربى الا ان حكومة الاتحاديين اخذت تميل نحو الألمان وذلك لشعور الاتحاديين بحاجتهم الى مساندة دولة كبرى لهم ، خاصة وان المانيا كانت اقل الدول الأوروبية طمعا فى الدولة العثمانية ، كما أنها كانت أقربها الى الدولة العثمانية وان امبراطورها كان يبدو كصديق شخصى للدولة العثمانية • هذا الى ان

العسكرية الألمانية كانت ذائعة الصيت ٠ وكانت المانيا حينـــذاك فى حاجة الى الدولة العثمـــــانية ٠

١ ـ كانت الدولة العثمانية هى المفضلة لدى الحكومة الألمانية لانطلاقة استثمارية واسعة النطاق تفتح أبوابا كثيرة أمام الألمان ٠

٢ ـ كانت المانيا فى حاجة الى الدولة العثمانية استراتيجيا ، فالمعروف أن الدول الكبرى الأوروبية كانت قد انقسمت الى كتلتين متعاديتين ، الأولى مشـــكلة من (دول الوفاق) وهى فرنسا وانجلترا وروسيا ٠ والثانية هى (دول الوسط) وهى ألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر وانضمت اليهما إيطاليا ٠

وحيث أن الدولة العثمانية ذات حدود مشتركة مع روسيا ، فان تحالفا المانيـــا عثمانيا يهيىء الظروف لفتح جبهة عسكرية جديدة ضد روسيا ٠ وحيث أن فرنســـا وانجلترا كانتا تسيطران على ولايات عديدة عثمانية سواء فى شـــمال افريقيا (تونس والجزائر) وفى وادى النيل (مصر والسودان) وفى شبه الجزيرة العربيـــة (الخليج العربى) فان تحالفا المانيا عثمانيا ربما يستطيع طرد الانجليز والفرنسيين من هـــذه المناطق لتستردها الدوله العثمانية ولتصبح مجالا للاستثمارات الألمانية تمهيدا لتحويلها الى مستعمرات المانية ٠

ومن عوامل التحول التركى نحو ألمانيا أن القوميين الأتراك الطورانيين أصبحوا هم الذين يحكمون الدولة العثمانية ويعتمدون على شعب وجيش تركى يدعو الى الرابطـة الطورانية على اعتبار أن هذه الرابطة هى التى ستعيد للأتراك كيانهم وقوتهم وتستطيع بالتحالف مع ألمانيا الانتصار على دول الوفاق ، ثم انه كان هناك اتجـاه عام فى الشرق يؤيد ألمانيا ضد دول الوفاق فمصر كانت تميل الى المانيا عاطفيـــا لأن بريطانيا كانت تحتل البلاد ولأن فرنسا خانت القضية المصرية بعقدها الوفاق الودى ١٩٠٤ م ولكن هذا الاتجاه نحو الطورانية كان يؤدى الى عداء سافر مع العرب ولقد بلغ ميل الاتحاديين الى الألمان ذروته عندما عقدوا اتفاقية سرية مع المانيا فى ١٩١٤ ولم يلبث الأتراك أن دخلوا الحرب الى جانب الألمان ٠ فماذا كان موقف العرب من دخول تركيا الحرب ؟

كانت ليبيا ودارفور وحائل، اقاليم جندت نفسها لقتال الحلفاء بينما أعلن الشريف حسين شريف مكة الثورة على الدولة العثمانية وأيده فيها الأدريسى فى عسير ٠

وكانت اليمن قد وقعت اتفاقا مع الأتراك سنة ١٩١١ وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى حاول الانجليز اقناع إمام اليمن بان يعلن الحرب على الأتراك دون جدوى ، فتحول الانجليز من الضغط الدبلوماسى على الإمام الى الضغط العسكرى واحتلوا ميناء الحديدة ، وبدا وكأن الانجليز قد خنقوا الدولة اليمنية بعد فشل هجمات اليمنيين على عدن ، واغلب الظن أن الفكرة الإسلامية كانت الدافع الأول للإمام لكى يتعاون مع أعدائه الأتراك ضد الانجليز .

اما فى الداخل فكان ميل الانجليز واضحا الى جانب آل سعود والأدريس ، وكان عبد العزيز بن سعود فى مواجهة آل رشيد حكام حائل وكانت تدعمه الدولة العثمانية . وأدى ذلك الى عقد اتفاقية مع الانجليز عرفت باسم اتفاقية دارين فى ١٩١٥ بين عبد العزيز والانجليز .

أما الشريف حسين فلعب أخطر دور خاصة وأن الانجليز كانوا يبحثون عن زعيم عربى حيث أن الخليفة العثمانى اعلن الجهاد الدينى واصبحوا فى حاجة الى دعوة دينية مضادة ومن ثم فان دعوة بالكفاح العربى يمكن لها أن تنادد دعوة الجهاد ، ولكن كان من العسير جدا أن تشب ثورة عربية فى داخل الولايات العثمانية العراقية والشامية بسبب سيطرة الأتراك عليها سيطرة عسكرية واذا قامت هذه الثورة فى احدى ولايات الدولة العثمانية الواقعة تحت الاستعمار الانجليزى مثل مصر ، فان مثل هذه الثورة ستتهم بسرعة بأنها دسيسة انجليزية وسرعان ما تفقد قيمتها ، بل الملاحظ أن الجمعيات العربية السرية فى داخل ولايات الشام والعراق نفسها كانت غير راضية على قيام تعاون عربى انجليزى ضد الدولة العثمانية ، وقد حاول الانجليز كسب ثقة هذه الجمعيات فاتصلوا بعزيز على المصرى فى القاهرة والزعيم العراقى طالب النقيب وبالزعيم العربى رشيد رضا، وطلب منهم الانجليز التعاون معهم لاشعال نيران ثورة كبرى عربية ولكن هؤلاء الزعماء خشوا من أن يؤدى هذا التضامن العربى الانجليزى الى وقوع البلاد العربية فى قبضة الانجليز، ولقد ابدى عزيز على المصرى استعداده للتعاون مع الانجليز بشرط أن يصدروا تصريحا واضحا يعترفون فيه باستقلال البلاد العربية استقلالا تاما بعد الحرب ، كذلك اشترط عزيز على المصرى أن لا يبعث الانجليز بقواتهم الى العراق أو سوريا وأكد أنه كفيل بأن يحرر العراق من الأتراك اذا ما قدم الانجليز له السلاح فقط ، ولكن الانجليز وجدوا فى

عزيز على المصرى عقلية متنورة قادرة على فهم اهدافهم وصعبة المراس ولهذا فهو لا يخدم اهدافهم فبحثوا عن شخصية أخرى . واثناء ذلك اتصل بهم عبد الله بن الشريف حسين وعرض عليه الانجليز التعاون معهم ضد الأتراك واصبحت أمامهم فرصة ذهبية بان يحثوا الشريف حسين وهو من سلالة آل البيت على ثورة توقف مفعول دعوة الجهـــاد التى أطلقها الخليفة العثمانى . لقد كان الشريف حسين ملتقى المتناقضات .

فهو لم يكن على المستوى الفكرى لذلك العصر . وكان الرجل معنيا بأمور العرب ومستقبلهم دون أن يكون لديه مخطط واضح .

واذا بالشريف حسين يجد نفسه فجأة ملتقى آمال الأتراك الذين يعملون على جذبه الى جانبهم ومحط آمال الانجليز الذين يحثونه على الثورة ومحط آمال الزعماء العرب الذين يحثونه على الضغط على الأتراك من أجل الحصول على حياة افضل تحت الحـكم العثمـــــانى .

ولقد حاول الأتراك ان يجذبوا الشريف حسين الى جانبهم عن طريق التأكيد بأن الأمانى التركية والعربية غير متعارضة ولكن كان هذا قبل حملة جمال باشا على قنـــاة السويس . وبعد فشل هذه الحملة تحول الأتراك الى نوع من التهور ازاء العرب وشنقوا عددا من زعمائهم فى سنة ١٩١٥ رغم المجهودات التى بذلها الشريف حسين لتخفيف حكم الاعدام . وانتهز الانجليز الفرصة وأعلنوا أنهم يقاتلون الأتراك من أجل تحرير العرب .

وزادت الاتصالات بين الشريف حسين وكتشنر المعتمد البريطانى فى مصر ، ورأى الشريف حسين أن يأخذ رأى الزعماء العرب ، وكان رأى هؤلاء الزعماء هو أن التفاهم بين الشعوب العربية والأتراك اصبح عسيرا للغاية وأكدوا أن استقلال البلاد العربية هو السبيل الوحيد ودارت المراسلات المعروفة باسم مرسلات حســين ـ مكماهون ، وقد طالب الشريف حسين فى رسالته المؤرخة فى ١٤ يوليو ١٩١٥ باعلان استقلال العرب مع اعتراف بريطانيا به من مرسين واطنة الى الخليج العربى ومن الحدود الفارســـية الى البحر الأحمر . ورد مكماهون على هذه المطالب باخراج مرسين والاسكندرونة والأجزاء الواقعة غربى دمشق وحماة وحمص وحلب من الدول العربية وطالب بإدارة بريطانية لولايتى بغداد والبصرة واحترام الشريف حسين المعاهدات المعقودة بين بريطانيـــا والامارات العربية واعترف مكماهون باستقلال العرب .

حقيقة تشبث الحسين بوحدة المشرق العربى ومؤكدا أن الدولة العربية المستقلة ستضع الرعايا بغض النظر عن الدين على قدم المساواة ، فلا حاجة لان تحكم فرنسا لبنان مثلا وتشبث بأن ما هو غربى حلب وحمص وحماة ودمشق عربى خالص الا أنه تساهل بالنسبة للعـــــراق ٠

لقد كان هدف الحسين الحصول على موافقة صريحة من الانجليز على استقلال البلاد العربية أما الانجليز فكانوا يهدفون الى ثورة يعلنها الحسين لا تغير من مخططاتهم الاستعمارية فى المنطقة ولا من اتفاقاتهم السرية مع حلفائهم وخاصة فرنسا ٠

واستطاع الانجليز أن يحققوا هدفهم هذا حيث أن الشريف كان يعتقـــد أن تلك التحفظات يمكن أن تزول بعد الحرب ، ولكن فى الوقت الذى كان فيه الانجليز يتفاوضون مع الشريف حسين ، كانوا يتفاوضون مع حلفائهم حول اقتســـــام الولايات العثمانية ووضعوا عدة اتفاقيات أشهرها اتفاقية القسطنطينية التى نصت على :

١ ـ أن تحصل روسيا على ولاية ارضوم ووان ، وبتليس فى شرق الأناضول وعلى المنطقة الواقعة شمالى جزيرة بن عمر والعمادية فى شمال العراق ٠

٢ ـ كما نصت على حصول فرنسا على لبنان وسوريا وولاية اطنة وكيليكية والموصل ٠

٣ ـ وتحصل انجلترا على مينائى حيفا وعكا وعلى ولايتى بغداد والبصرة ٠

٤ ـ أن تقسم المنطقة الواقعة بين الشام والعراق الى مناطق نفوذ بين فرنسا وبريطانيا يقام فيها مستقبلا ولايات مستقلة ٠

٥ ـ ان تكون الاسكندرونة ميناء حرا وتدويل فلسطين ٠

ولكن بخروج روسيا من الحرب العالمية الأولى فى ١٩١٧ استبعدت من الاتفاقية التى أصبحت تعرف باسم اتفاقية سايكس ـ بيكو ٠ وظلت اتفاقية سايكس ـ بيكو سرية حتى بعد اعلان الشريف حسين ثورته ١٩١٦ وشاركت القوات العربية بقيــادة فيصل بن الحسين قوات الانجليز فى الحملة على الشام ولكن عمل الانجليز على ابعـــاد هذه القوات العربية عن الساحل وحصر عملياتها الحربية على الداخل ، حيث أن الانجليز كانوا يعملون على ضوء اتفاقية سايكس ـ بيكو ٠

وهكذا عرف الانجليز كيف يسيطرون بأنفسهم على البلاد العربية دون أن يظهروا هذه النوايا الا فى حدود معينة · وعندما استولوا على بيت المقدس اسندوا بعض المناصب العليا المباشرة الى الصهيونيين كخطوة لتنفيذ وعد بلفور الذى صدر فى ١٩١٧ ، ويعتبر هذا العام هو اسوأ أعوام القضية العربية ففيه اذاعت روسيا نصوص اتفاقية سايكس — بيكو ·

واسرع الانجليز الى اقناع الشريف حسين بأن الحلفاء لن يفرضوا حكما على أهل البلاد بل سيأخذون موافقة السكان عند تحديد مستقبل الحكم فى البلاد العربية وقبل الشريف حسين هذا التفسير الغامض ·

أما بالنسبة لوعد بلفور فأكدوا له أن الوعد لا يتنافى مع حرية السكان العرب فى فلسطين ، وشعر الزعماء العرب بخطورة السياسة البريطانية على مستقبل العرب واستقلالهم وقدم ٧ من الزعماء العرب مذكرة بهذا المعنى الى المسئولين الانجليز فى سنة ١٩١٩ فأكد لهم الانجليز انهم يعملون من أجل استقلال العرب وقيمة هذا الوعد انه صدر بعد اتفاقية سايكس — بيكو وبعد وعد بلفور ·

وقد كانت الولايات المتحدة تتحدث كثيرا عن حق تقرير المصير،ولكن ثبت بعد ذلك أن كل هذه الوعود كانت خداعة ، حيث أن انجلترا وفرنسا تصورتا فكرة استقلال العرب بأنها قاصرة على الحجاز ، بل ان انجلترا ، التى كانت تسيطر على المشرق العربى عند انتهاء الحرب ، أخذت تعمل على التخلص من فكرة منح العرب استقلالهم بل التخلص كذلك من اتفاقية سايكس — بيكو نفسها · فدارت مفاوضات بين الأطراف المعنية : انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة والشريف حسين · وكان الانجليز قد ادركوا فعلا أن الموصل يجب أن تبقى فى يدهم بسبب البترول ، وكذلك فلسطين التى اعتبرها الانجليز خطا دفاعيا عن قناة السويس حيث أن سيطرتهم على فلسطين يبعد الفرنسيين عن قناة السويس ·

وجدت انجلترا نفسها أمام تحديات رئيسية :

١ — أولها رغبة العرب فى الاستقلال ·

٢ — رغبة فرنسا فى الحصول على حقها كاملا طبقا لاتفاقية سايكس — بيكو ٠

٣ — اتجاه الرأى العام العالمى الى تطبيق مبدأ حق تقرير المصير ٠

ومن حيث رغبة العرب فى الاستقلال نجد انجلترا تترك فيصل ابن الشريف حسين حاكما على سوريا الداخلية ، وتتفاوض مع فرنسا بشأن الموصل وفلسطين ٠ وحيث أن الشام والعراق كانت فعلا تحت سيطرة الانجليز فان بريطانيا كانت تتفاوض مع فرنسا من مركز القوة ٠ وعقد فى سنة ١٩١٩ مؤتمر ضم بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة حضره الأمير فيصل للتداول فى مستقبل الأمة العربية ٠ وأبدت كل من فرنسا وبريطانيا روحا استعمارية واضحة استهدفت وضع البلاد العربية فى منطقة الهلال الخصيب تحت الانتداب البريطانى والفرنسى بينما طالبت الولايات المتحدة بضرورة موافقة العرب على الدول المنتدبة عليها ٠ وكانت فكرة الانتداب هذه قد شاعت حينذاك ، والتقط فيصل هذا الوضع وعقد مؤتمرا فى دمشق سنة ١٩١٩ وأعلن فيه الاعتراف بسوريا وفلسطين دولة واحدة ذات سيادة وأن يكون فيصل ملكا عليها ٠ والاعتراف باستقلال العراق وتفضيل المعونة الأمريكية على المعونة الانجليزية ٠ وعندما أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية بعثة « كنج كرين » لتقصى الحقائق فى سوريا وفلسطين وجدوا شعورا معاديا لفرنسا وأوصت هذه البعثة باستبعاد فرنسا من مركز الانتداب على سوريا وأوصت بأن يكون الانتداب اما أمريكيا أو انجليزيا ، ولكن تجاهلت انجلترا وفرنسا هذه المجهودات الأمريكية ، واتفقوا مؤقتا فى سنة ١٩١٩ على ان يحل الفرنسيون محل الانجليز فيما هو غربى حلب وحمص وحماة ودمشق وأن تكون العقبة وحمص وحماة وحلب ودمشق تحت حكم فيصل وأن توضع فلسطين تحت الانتداب الانجليزى ٠

فرد العرب على ذلك باعلان استقلال سوريا وليكسبوا ثقة عرب لبنان أكدوا احتفاظه باستقلاله الذاتى ورشحوا عبد الله لعرش العراق ٠ لكن الانجليز والفرنسيين عقدوا مؤتمر سان ريمو فى ابريل سنة ١٩٢٠ وفيه اصبحت حلب وحماة وحمص ودمشق تحت السيطرة الفرنسية وتخلت فرنسا عن الموصل فى مقابل حصولها على نصيب من بترولها وتركت فلسطين والعراق للانتداب الانجليزى ووافقت الولايات المتحدة على هذه الانتدابات بل وعلى الحماية الانجليزية على مصر ، وأصبح الانتداب هو الفلسفة الاستعمارية الجديدة التى تبرر للدول الاستعمارية سيطرتها على الدول العربية أمام

الراى العام العالمى . ونزلت القوات الفرنسية فى سوريا وانشأت لبنان الكبير سنة ١٩٢٠ ثم فرض الفرنسيون حربا على فيصل ودارت معركة ميسلون التى انتهت بالقضاء على حكومة فيصل فى دمشق كما سيطرت انجلترا على بقية المشرق العربى فيما عدا الحجاز واليمن وأراد الانجليز الانتقام من اليمن باعطاء الحديدة لحاكم عسير واعطوا الفرصـــة لظهور شرق الأردن . وهكذا أصبح على العرب بعد الحرب العالمية الأولى أن يعملوا ضد القوى الاستعمارية . والعمل على انقاذ فلسطين والتطلع الى مصر كقوة عربية فى المنطقة، ورغم تلك المشاعر العربية الواحدة الا أن التعبير عنها لم يكن منظما فقامت الثورات فى الوطن العربى ولكن فى أوقات مختلفة ودون تنسيق بسبب السيطرة الاستعمارية ، وعلى رأس هذه الثورات ثورة ١٩١٩ فى مصر التى كانت من أســباب تشجيع العراقيين على ثورة ١٩٢٠ ، وثورة سوريا سنة ١٩٢٥ والثورات المتتالية فى فلسطين .

الباب الثاني

تاريخ فارس الحديث

الفصل الأول

عهد الأسرة الصفوية فى فارس

١٥٠٠ ــ ١٨٢٢

مقـــــــدمة :

لإيران تاريخ قديم مجيد ، وبعد ان انتشر فيها الإسلام أصبحت قوة حضـارية كبيرة ساعدت على انتشاره ، وعندما سعت الى نهضة حضارية جديدة مطعمة بالحضارة الأوروبية كان لنهضتها أهمية كبيرة فى المجالات المحلية ، والعربية ، والإســـلامية ، والدوليـــــة .

وتاريخ الشعب الإيرانى ، كأحد الشعوب الإسلامية الكبرى ، يعتبر ركنا أساسيا من تاريخ الإسلام وشعوبه فى العصر الحديث . فباستثناء العالم العــربى تعتبر فارس وتركيا وافغانستان وباكستان والجمهوريات الإسلامية فى الاتحـــاد السوفيتى من أهم الشعوب الإسلامية الآسيوية ، ولإيران بينها اهمية خاصة ، حيث أنها هى التى تربط بين هذه الشعوب كلها ، كما انها تقع على الطرف الشرقى للبلاد العربية .

وكلمة إيران مشتقة من اسم الشعوب الآرية التى هاجرت اليها فى التاريخ القديم، ومعناها (موطن الآريين) ولم يستخدم هذا الاسم فى العهد الإسلامى وانما استخدمت كلمة « فارس » للدلالة على إيران القديمة .

ويجب أن نفرق بين فارس ككل واقليم فارس.وهذا الاقليم هو الذى فرض أسمه على كل الهضبة الإيرانية . وظل مستخدما فى مختلف الدوائر المحلية والعالميـــة حتى ١٩٣٥ عندما عمم الشاه رضا بهلوى اسم إيران تأكيدا للفكر القومى الذى تزعمه هـــذا الشـــاه المجـــدد .

وإيران بصفة عامة . عبارة عن هضبة مرتفعة ، تتعدد فيها سلاسل الجبـــال ، واهمها سلاسل جبال الزاجروس وهى التى توازى الحدود العراقية وتمتد الى ساحل الخليج العربى ، وكأنها حائط هائل تتخلله بعض الممرات ، على مسافات متباينة . وتميل الهضبة من جهـــة الشرق الى الانحدار حتى تصبح صـــحراء ممتدة الى افغانستان وباكستان . كما توجد منطقة سهلية نهرية خصبة فى قمة الخليج العربى ، هى خوزستان (عربستان) وهى فى الحقيقة امتداد للسهل العراقى سواء من ناحية السطح أو من ناحية

التشكيل البشرى حيث يعيش العرب — من آل كعب وغيرها من العشائر العربية — منذ ازمنة بعيدة فى هذه المنطقة (خوزستان) ٠ وفى خوزستان نهر كارون (قارون) الذى يصب فى كل من شط العرب والخليج العربى ، ويعتبر من أهم منافذ فارس الى الخليج العـــــــــربى [1] ٠

وتطل إيران على بحرين أحدهما مغلق هو بحر قزوين والثانى مفتوح على المحيط الهندى ، وهو الخليج العربى الذى كانت حكومة طهران تصر على تسـميته خليج فارس لاعتبارات توسعية فى المنطقة ٠ هذا مع أن السواحل الشرقية للخليج العـــربى ، وهى سواحل إيرانية ، كانت تسكنها ولا تزال عشائر عربية ، لها تاريخ طويل يكاد أن يكون مستقلا عن الحكومة الفارسية المركزية فى طهران ٠

اما بحر قزوين ، فهو أكبر البحار المغلقة ، وهو ينكمش تدريجيا منذ عدة قرون مضت ، وكانت البلاد القوقازية الواقعة بين هذا البحر والبحر الأسود محل صراع بين القوى المطلة على المنطقة : روسيا وتركيا ٠

ومع ان الطابع العام هو الهضبة ، الا أن فى إيران صحراوات واسعة قاسية مثل صحراء دشت لوت (الصحراء الخالية) ودشت كوير (الصحراء المالحة) ٠

ويقدر تعداد إيران بحوالى أربعين مليون حاليــــا معظمهم على المذهب الشيعى الاثنى عشرى ، منهم حوالى أربعة ملايين نسمة منهم القبائل ، والباقى مستقرين فى المدن والقرى والوديان الزراعية ٠ هذا فى الثمانينيات من القرن العشرين ، أما فى القـــرون السابقة فقد كان التشكيل القبلى هو السائد فى مختلف أجزاء فارس ، ولعل ذلك يرجع أساسا الى النقص الشديد فى مساحات الأرض الصالحة للزراعة ٠

ومع أن الآريين هم الذين انتشروا أولا فى إيران ، الا أن البـــلاد تعرضت لموجات متتالية من الهجرات التركية والعربية ٠ ولكن رغم هذا التعدد فى الأصول العرقية ، فان هناك حضارة عامة فارسية تلف الشعب بأسره حولها ، باستثناء الجزء العربى،المعروف باسم (عربستان) أو (خوزستان) ٠

---

(١) أنظـــــــــر :
Lorimer: Gazetteer of the Persian Gulf. Vol. 1, Part 1. Culwtta 1908.

فلقد توالت على إيران فى القرون القديمة هجرات عديدة الا ان اهمها هجرة آرية (أندو — أوروبية) استوطنت ايران وعمرت فيها القرى والمدن ومن بين هـذه العشـائر الآرية من لعب دورا كبـيرا فى التاريخ بل وأسس امبراطوريات ذائعة الصيت مثل : (الميديين ، والفرس ، والبارثيين ، والباكتيريين ، والسيذيين) ٠

ولمعت فى تاريخ فارس القديم اسماء كورش مؤسس أكبر امبراطورية فى الشرق فى القرن السادس قبل الميلاد وقمبيز ، ودارا الذى بعث بجيوشه حتى قلب اليونان ، وزور دشت (Zorathushtra) الذى وضع القواعد الدينية على اساس ان هناك صراعا ازليا بين الخير والشر ٠

وتعرضت إيران — مثل بقية أجزاء الشرق الأدنى — لغـزوة الاسكندر الكبرى ٠ وما تبع ذلك من ظهور دولة يونانية فى فارس وأخرى فى مصر وسـوريا ٠ وعلى أنقاض الدولة اليونانية فى فارس ظهرت الدولة البارثية فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ٠ وكان البارثيون يتكلمون لغة فارسية ويدينون بالمزركية (المجوسية) ، ومن بعد هـذه الدولة المجوسية جاءت آخر الدول الإيرانية قبل الإسلام ، وهى الدولة الساسانية التى تغلب عليها العرب ، وانتشر الإسلام بسرعة فى فارس وازدهرت حضارتها الإسلامية الى مرتبات عالية من التفوق خلال العهد العباسى بصفة خاصة ٠

وبضعف الخلفاء العباسيين اصيبت الدولة بعدة انقسامات سياسية وظهرت عدة اسرات شبه مستقلة فى مختلف ارجاء العالم الإسلامى : كالأسرة الطاهرية ، والصفارية ، والسامانية ، والبويهية ، والسلجوقية ، واخيرا دهم فارس غزو خطير شنه المغـول ٠ فاستولوا عليها ثم لم يلبثوا ان استولوا على بغداد نفسها (١٢٥٨) لتنتقل الخـلافة العباسية بعد ذلك الى القاهرة [١] ٠ بينما اصبحت تحت حكم وثنى مغولى شديد العداء للإسلام وللمسلمين ٠

واذا كان المغول قد فتحوا فارس بالسيف،فقد اخضعت الحضارة الإسلاميه هؤلاء الغزاة لها حتى أسلم الملك المغولى غازان وبدأت البلاد الفارسية تسـترد تدريجيا بعض

---

(١) ستستمر بها حتى ١٥١٧ ثم تخفت اصواتها ليدعى من بعد العثمانيون أنهم هم ورثة الخلافة العباسية الشرعيين ٠

مكانتها فى مجالات التقدم الحضارى تحت حكامها الايلخانيين (المغول) ، وكان من أبرز مظاهر هذا التقدم ظهور الشاعرين الكبيرين جلال الدين الرومى صاحب كتاب المثنوى الذى يعتبر أساسا للتصوف الفارسى ، « وسعدى الشيرازى » صاحب « كلستان » وهو ارفع أنواع النثر الفارسى ، أو بمعنى آخر لقد أصبحت الحضارة هناك إسلامية فارسية .

تعرضت إيران لموجة مغولية جديدة على يد تيمورلنك الذى استولى على فارس فى العقد الأخير من القرن الرابع عشر . وكانت دولته التى أسسها بالسيف والنار تركية ذات حضارة إيرانية .

ولم تلبث امبراطورية تيمورلنك ان تفككت بسرعة بعد موته (١٤٠٤ م/٨٠٧ هـ)، فأفادت قبائل « القره قوينلو » من هذه الفرصة واستولت على اذربيجان وانحدروا الى أصفهان والعراق وظلوا يحكمون فارس والعراق حتى قضت عليهم قوة قبلية أخرى هى « الآق قوينلو » فى ١٤٦٩ م/٨٧٤ هـ ، بينما كان القسم الشرقى من إيران تحت حكم شاه رخ بن تيمورلنك ، وكانت عاصمته فى هراة وأخيرا استطاع اسماعيل الصفوى أن يصفى الموقف كله فى فارس لمصلحته مؤسسا الأسرة الصفوية (١٥٠٠) التى تعتبر بدايتها بداية لتاريخ فارس الحديث . وهذا ما سنفصله فيما يلى .

ظهور الأسرة الصفوية :

ففى الوقت الذى أصبحت فيه فارس ، خلال حكم أسرة الآق قوينلو ،مرتعا للحروب بين المطالبين بالعرش وبالولايات ، كانت تنمو فى الشمال ، فى منطقة (اردبيل) أسرة تركية تخصصت فى الوعظ على أساس الفكر الشيعى وعرفت باسم الأسرة الصفوية التى يقال أن نسبها يرتفع الى الإمام موسى الكاظم وتنتسب الأسرة الصفوية الى رجل تقى ورع هو صفى الدين الذى توفى (١٣٢٨ م) . وكان ابنه — صدر الدين — لا يقل عنه تدينا ونشاطا من أجل نشر المذهب الشيعى وتعاليمه . ولقد حظى خوجا على (حفيد صفى) بمقابلة تيمورلنك ، واستطاع الشيخ أن يحصل منه على عفو عن الأسرى الأتراك الذين كانوا لديه [1] . ومن نسل هؤلاء الأسرى من لعب أدوارا هامة فى تأسيس الدولة الصفوية وتثبيت اركانها .

---

(١) انتصر تيمورلنك خلال عملياته الاجتياحية على السلطان التركى العثمانى فى موقعة أنقرة وحبسه فى قفص (١٤٠٢) .

وتوالى بعد ظهورهما عدد من رجال الدين من الأسرة الصفوية اتصفوا بالقدرة على المشاركة فى الأحداث السياسية فى المناطق التى يقيمون فيها وبالقيام بأعمال تخلد ذكراهم ولكن كان نشاط جنيد هو الممهد لتأسيس أسرة صفوية حاكمة ٠

كان جنيد يسعى الى تكوين عصبية مذهبية مرتبطة به ، فاجتذب العـــديد من الاتباع ، واصبح يشكل قوة محلية قادرة على العمل - عندما تسنح لها الفرصة - ضد الحكومة القائمة حينذاك،الأمر الذى أقلق أمير القره قوينلو حتى أمر بنفيه خارج البلاد٠

وحينذاك كانت هناك منافسة محتدمة بين قوة القره قوينلو - التى كانت تعانى آخر أيامها - والقوة الصاعدة على حسابها (الآق قوينلو) ٠ فذهب جنيـد الى اوزون حسن (حسن الطويل) زعيم الآق قوينلو فى ديار بكر ، فرحب به الرجل على اعتبار انه معول هدم للقره قوينلو ٠ وأقام لديه حوالى ثلاث سنوات (١٤٥٦ - ١٤٥٩) وزوجه من اخته واتصل جنيد كذلك بالسلطان العثمانى ٠

وتابع حيدر نشاط أبيه جنيد وتزوج من ابنة حسن الطويل فى منفاه ، بل شارك فى أحداث المنطقة وجمع حوله أعوانا من التركمان ، ولم يلبث أن لقى مصرعه فى بعض الصدامات التى وقعت فى منطقة شيروان (١٤٨٨) ٠

وبدات سلسلة من الاضطهادات للأسرة خرج منها اسماعيل الصفوى وقد صقلته التجارب وجعلته قادرا على الانتقال منمجال الحركات المحلية الى مجال الحركات العامة٠

فارس فى عهد الشاه اسماعيل الصفوى
(الدولة الصفوية فى دور التأسيس)

اعتلاء الشاه اسماعيل العرش :

كان اسماعيل يدبر أموره على اساس أن القوة السياسية يجب أن تعتمد على قوة عسكرية مخلصة تربطها به وشائج عقائدية متينة تجعلها مستعدة للاستماتة فى الدفاع عن قائدها وعن معتقداتها ٠

وحيث أن العصر كان عصر العصبيات العشائرية (١) ، وان المذهب الشيعى كان قد بدأ ينتشر فى البلاد حينذاك ، وحيث أن اسماعيل كان من أصل تركى ، فقد أصبح من اليسير عليه أن يعتمد على قوى عشائرية تركية (٢) متعصبة للمذهب الشيعى ٠ وكانت هذه الصفات متوفرة فى القبائل التركية الساكنة فيما وراء القوقاز عند الشاطىء الجنوبى لبحر الخزر والى الغرب من خراسان وهذه القبائل عرفت باسم (القبائل السبعة) وهى :

١ ــ اوستاجلو ، ٢ ــ شاملو ، ٣ ــ نكالو ، ٤ ــ بهارلو ،
٥ ــ ذو القدر ، ٦ ــ قاجار ، ٧ ــ افشار ٠

وكانت هذه القبائل قد هاجرت من أواسط آسيا فى أول الأمر مع من كان يهاجر من السلاجقة ٠ وأصبحت فيما بعد دعامة من دعائم الشاه اسماعيل أولا ، ثم سندا رئيسيا للأسرة الصفوية ٠

جمع اسماعيل لنفسه قوة عسكرية ليقوم بأولى عملياته التى مهدت له الطريق

---

(١) كانت أهم العشائر المؤثرة فى تاريخ إيران هى : عشائر البختيارى واللار والقشقاوى والأكراد والبلوش ٠

(٢) كان الأتراك مشهورين بتعصبهم للمذهب السنى فيما عدا أتراك تلك البقاع الواقعة الى الشمال من إيران لظروف خاصة بهم ٠

الى عرش فارس ، وكان حينذاك لا يزال فتيا . فشن أول حملة ضـــد باكو وشــماقة Shamaka . وكان يهدف من وراء هجومه عليهما ان يؤسس لنفسه اقليما يستطيع أن ينطلق منه الى ما وراءه .

نجحت العمليات العسكرية الأولى التى قام بها فضاعف من قدراته العسكرية ، وبدأ يهاجم قوات الآق قوينلو . وكانت هذه تعانى خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر فترة الاحتضار رغم اتساع ملكها من إيران الى العــراق . وانتصر اسماعيل على (الوند) امير الآق قوينلو ، وزحف بعد ذلك الى تبريز واستولى عليها واعلن نفسه هناك « شاها » على فارس . ثم انتصر بعد ذلك بوقت قصير على « الشاه على مراد » أخى « الوند » ولما استسلم اليه أعدمه (١٤٩٩) وانتهت الآق قوينلو كأسرة حاكمة فى إيران .

كان ارتقاء اسماعيل عرش فارس يختلف فى طبيعته عن ارتقاء أى من شـــاهات الايلخانيين ، أو الجلائريين أو من زعماء القره قوينلو ، أو الآق قوينلو عرش فارس . فقد كان اسماعيل يجمع فى نفسه صفة الشاه و (المرشد الأكبر) للدعاة للمذهب الشيعى الاثنى عشرى ، فهو زعيم روحى ودنيوى فى آن واحد ، واتخذ من السيف والقلم والدعوة باللسان أساليب متكاملة لتحقيق أهدافه الخاصة والعامة . ومن هنا كانت أهمية حركته واعتلائه العرش الفارسى . فاتخذ من المذهب الشيعى الاثنى عشرى مذهبا رسميا للدولة ، واخذ يوطده فى داخل فارس .

كان ارتقاء الشاه اسماعيل عرش فارس ، لا يعنى ان الأمور قد توطدت ، أو أن طموحه البعيد قد توقف عند هذا الحد . ومن ناحية اخرى كانت الأمور من حوله تسير فى اتجاهات تفرض عليه أن يصطدم بها أو يعمل على تطويعها واخضاعها ليستمر مع أهدافه وآمـــــاله .

فبصورة عامة كانت القوى المعادية للشاه الصفوى تحيط به . وكان عليه — الى جانب الوصول الى حدود آمنة — أن يشبع حماسه الدينى على حساب القوى الأخــرى المناهضة للمذهب الشيعى . وكانت هذه القوى المناهضــة تحيط بدولته من اكثر من جانب . وكان هو معنيا عناية خاصة بنشر المذهب الشيعى ، لا بين من نصادقه فقط ، وانما فى اراضى أعدائه أيضا .

ويجدر بنا أن نحدد هذه القوى المحيطة بفارس عند مطلع حكم الشاه اسماعيل :

(أ) فمن الغرب كان يوجد العراق ، الذى لاذ به مراد بن يعقوب آخر أمراء الآق قوينلو ، هذا فضلا عما للعراق من مكانة مذهبية خاصة فى قلوب الشيعة . والى الشمال كانت توجد امارة تابعة ايضا للآق قوينلو يطمع فيها الشاه اسماعيل وهى امارة البستان وكان عليها علاء الدولة .

(ب) ومن جهة الشمال والغرب كان الأناضول قلب الدولة العثمانية الفتية ، بلادا تركية سنية مجاهدة فى البلقان ضد القوى الأوروبية .

(جـ) فى مياه الخليج العربى فى أقصى الجنوب الغربى من بلاده ظهر الأسطول البرتغالى — بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح — كقوة تتحكم فى مقدرات الخليج بأسره .

(د) من الشمال الشرقى كانت توجد قبائل الازوبك بزعامة محمد الشيبانى الشديد البأس . وكان يسيطر على خراسان وعلى أجزاء من شمال شرقى فارس .

(هـ) والى الشرق توجد القبائل الأفغانية الشديدة المراس النازلة فى مناطق صعبة المسالك .

نشاط اسماعيل الصفوى فى اتجاه الغرب :

كان على الشاه اسماعيل أن يصفى دولة الآق قوينلو سواء فى داخل فارس أو خارجها . وكانت هناك منطقتان احداهما العراق الذى اعتصم بها آخر أمراء هذا البيت المتداعى وهو مراد بن يعقوب ، والمنطقة الأخرى هى البستان التى كانت امارة صغيرة ، ولكن هامة ، تحت حكم علاء الدولة .

وكانت حملة الشاه اسماعيل ضد علاء الدولة من أولى حملاته الهامة فيما وراء فارس . وقعت هذه الحملة فى عام ١٥٠٧ ، وتغلب فيها الشاه على الأمير ، واصبح هو المتنفذ فى الامارة .

ومنذ تفوق الشاه اسماعيل الصفوى فى البستان اصبح محتكا احتكاكا مباشرا بأكبر قوتين فى هذا القسم من الشرق الأدنى : (الأتراك العثمانيين ، والمماليك) . وكان

العثمانيون يمتدون من طوروس والأناضول الى قلب اوروبا الشرقية وكانوا فى جهاد ضدها ، بينما كان المماليك يمتدون من طوروس والشام حتى مصر والحجاز ، وكانوا فى جهاد ضد البرتغاليين فى المياه الجنوبية الإسلامية ٠ فبدأ الشاه اسماعيل بالاستيلاء على العراق (١٥٨) ٠

وكان استيلاء الشاه اسماعيل على العراق من أهم العوامل التى وجهت أنظار الدولة العثمانية نحوه ، وتحرك ضـــد السلطان ســـليم الأول وهزمه فى موقعة جالديران ١٥١٤ (١) ٠

اكتفى السلطان العثمانى سليم الأول بهذا الانتصار الكبير ، ولم يشأ ان يتوغل فى قلب الهضبة الإيرانية وذلك لعدة أسباب :

١ ـ كانت وعورة مسالك الهضبة تعطى للشاه اسماعيل فرصة للنيـــل من الجيش العثمانى فتهدد بضياع ثمرة النصر على السلطان سليم وتطيل أمد الحرب الأمر الذى يعطى لمماليك مصر فرصة لاحراج مركز العثمانيين العسكرى والسياسى فى المنطقـــــــة ٠

٢ ـ وقوع نوع من التمرد بين صفوف ضباط الجيش العثمانى على متابعة الحرب فى فارس بعد أن حقق السلطان هدفه وخض شوكة اسماعيل الصفوى ٠

٣ ـ ان السلطان سليم الأول نفسه كان يرى ان العمل فى الجبهة الشـامية ـ المصرية هو الذى يجب أن يستقطب كل جهوده ٠

أدى هذا الى أن يستمر الشاه اسماعيل الصفوى قويا فى داخل إيران ولكن مكانة الحكم الفارسى فى العراق كانت قد اهتزت بعنف فى بغداد ٠ فقد أعلن حاكمهـــا الولاء للسلطان العثمانى سليم الأول ، واصدر السلطان العثمانى مرسوما بذلك ٠ ولم يستطع الشاه اسماعيل الصفوى أن يقوم بعمل جدى ازاء العراق حتى توفى ١٥٢٤ ٠

مما سبق يتبين لنا ان هزيمة الشاه اسماعيل الصفوى فى معركة جالديران كانت قاسية ، ولكنها لم تكن قاتلة ٠ ومن ناحية أخرى كان الحكم الصفوى يقوم على أساس

---

(١) أنظر الباب الأول ٠

عقائدى مذهبى · ولذلك لم يلبث ان استعاد الشاه كيانه ، وجمع جيشه ، واستعد لمناوشة العثمانيين ، وان كان أضعف من أن يخوض الحرب المكشوفة مرة أخرى ضد العثمانيين · وشجعه على ذلك أن السلطان العثمانى لم ينتظر طويلا بعد جالديران اذ اقحم السلطان سليم حربا على مماليك مصر وبعد انتصاره عليهم فى موقعة مرج دابق ١٥١٦ ، تتبعهم الى مصر حتى استولى عليها · فكان غياب السلطان سليم فى مصر وطول مدة الحرب بين العثمانيين والمماليك (١٥١٦/١٥١٧) من اهم العوامل التى شجعت الشاه اسماعيل على التحرك مرة اخرى ضد السلطان سليم · ويعلل عدد كبير من المؤرخين عودة السلطان سليم من مصر الى الأناضول فى وقت مبكر بأنه كان يريد العمل على علاج الموقف الناشىء عن تهديد الشاه اسماعيل الصفوى للأناضول اثناء غيابه عنه ·

ويبدو أن مجرد عودة السلطان سليم من مصر الى الاستانة منتصرا كان كافيا لأن يكف الشاه عن مناوراته على الحدود الفارسية — التركية حتى لا يعرض نفسه لحملة شاملة عثمانية اخرى · الا ان الشاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء له ضد الدولة العثمانية التى أصبحت القوة الكبرى التى تحول بينه وبين الوصول الى البحر المتوسط · وكان مستعدا لأن يتحالف حتى مع البرتغاليين أشد القوى خطرا على العالم الإسلامى حينذاك · وهكذا بينما كان البرتغاليون يخشون من وجود جبهة إسلامية قوية ضدهم فى المياه الإسلامية ، وجدوا أن هناك من يريد أن يتعاون معهم · ومع أن ملك هرموز — الجزيرة الصغيرة التى اضيرت بشدة فى اقتصادياتها التجارية بمجىء البرتغاليين — وضع نفسه تحت سيادة الشاه لعل الأخير ينقذه من سطوة البرتغاليين المريعة ، الا أن الشاه وضع مصالحه الخاصة وحقده الشديد على الأتراك العثمانيين فى مقدمة اية تسوية أو تحالف مع البرتغاليين فلا غرو أن وافق على أن تظل هرموز تحت السيطرة البرتغالية فى مقابل حصوله على الاحساء · ولكن حتى هذه الفرصة لم يتحها البرتغاليون لحليفهم الشاه · وكانت النتيجة ان ساعدت سياسة الشاه هذه على تقوية التسلط البرتغالى على الخليج العربى ·

الشاه اسماعيل والأوزبك :

كانت سيطرة الشاه اسماعيل على إيران فى ١٥٠٠ لا تعنى أنه أصبح سيد البلاد كلها ، بل ظلت الأجزاء الشرقية ، والشمالية الشرقية وخاصة خراسان بعيدة عن متناول

حكمه ، ولهذا كان طبيعيا ان يعد العدة لكي يضع يده على كل فارس • وأدى هذا الى أن يصطدم الشاه بقوة فتية ناشئة الى الشمال الشرقى منه وهى قوة الأوزبك (١) بزعامة محمد الشـــــيبانى •

كانت قبائل الأزبك الرحالة تموج فى المناطق الشمالية الشرقية من فارس • وكانت وثنية ثم اعتنقت الإسلام على المذهب السنى • ونظرا لتفكك هذه القبائل لم يكن لهـــا تاريخ واضح حتى اذا ما استطاع (محمد الشيبانى) أن يسيطر على قسم كبير منها برزت هذه القبائل فى تاريخ المنطقة •

ويعتبر محمد شيبانى من اشهر زعماء الأوزبك ، ويطلق عليه أيضا (شاه بخت / أى ملك الحظ) • ولقد كانت تسنح له فعلا فرصا طيبة لابراز تفوقه ، وكانت له مهارة فى انتهاز هذه الفرص ، والاقدام عليها بجرأة وقوة ، والجرأة والقوة هى من طابع الزعماء الذين يتولون أمور قبائل أو عشائر ، خاصة فى ذلك الوقت •

استطاع محمد شيبانى ان يبنى — معتمدا على قوة رجال الأوزبك — ملكا لنفسه على حساب الدولة التيمورية المحتضرة — وبذل جهودا كبيرة حتى استولى على سمرقند (٩٠٦ هـ / ١٥٠٠) • ولكن سمرقند — عاصمة الأسرة التيمورية المحتضرة — كانت قد استنجدت بظهير الدين بابر — امبراطور المغول فى الهند (٢) — وهو أيضا من ســــلالة تيمورلنك • فلبى بابر النداء وصعد بجيوشه من الهند حتى سمرقند ، وخلصها من يد محمد شيبانى ورجال الأوزبك •

لم يكن شيبانى بالقائد الذى يتقاعس بعد الفشل ، وانما كان شــــديد الاصرار ، خاصة وأن هناك من العوامل ما شجعه على أن يخوض جولة أخرى ضد بابر وجيوشه • وفى هذه الجولة الثانية كان النصر حليف شيبانى رغم استماتة بابر ورجاله فى القتال • وسقطت سمرقند للمرة الثانية فى يد شيبانى ودالت دولة التيموريين منها نهائيا •

وتابع شيبانى خطواته التوسعية ، فمد سيطرته على (هراة) فى ١١ محرم ٩١٣ / ٢٤ مايو ١٥٠٧ واستولى كذلك على خراسان •

---

(١) كلمة أوزبك تعنى (سيد نفسه — أى المستقل) •

(٢) أنظر الباب الثالث من هذا الكتاب •

وهكذا أصبح شيبانى وجها لوجه امام قوة فتية جديدة فى إيران (الشاه اسماعيل) تكره أن ترى خراسان بالذات تحت حكم الأوزبك . فقد كان هناك تراشق مذهبى متطاول بين علماء (ما وراء النهر) السنة ، وعلماء إيران الشيعة ، وأصبح الصراع بين شيبانى والشاه ، لا على الأرض فقط وانما كذلك كان صراعا عقائديا ، كل منهما يعتقد أنه هو الذى يسير على الحق . واخذ محمد شيبانى فى استعلاء ظاهر يدعو الشاه اسماعيل الى العودة الى (إجماع اهل السنة) ، مهددا اياه بحـــرب ضروس فى قلب ايران ذاتها . واصبحت الحرب لا مفر منها ، وشرعت قوات الأوزبك تهاجم أطراف إيران الشرقية وتتوغل فى البلاد (١٥٠٨) .

وبينما كان الشاه اسماعيل يعد قواته للزحف شمالا لملاقاة جيش الأوزبك بقيادة محمد شيبانى ، وقعت عدة تطورات سريعة احرجت مركز زعيم الأوزبك أيما احراج . فقد ثار اهالى فيرزكوه على شيبانى ، وهؤلاء كانوا عبارة عن قبيلة إيرانية تقطن منطقة وعرة جبلية أعجزت شيبانى عن اخضاعها . بالاضافة الى ذلك وقعت عدة اضطرابات ساعدت على تشتيت قوات شيبانى .

كان شيبانى يتصف بالجرأة والاقدام ، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن على مستوى عدوه اسماعيل من حيث الخداع والتكتيك ، فاستغل اسماعيل صفات الجرأة والاقدام فى شيبانى وجره الى ميدان معركة سيطر عليه اسماعيل بقواته ســـيطرة كاملة حتى اباد جيش شيبانى ، وسقط شيبانى نفسه فى المعركة . لتدفن بقاياه فى مدرسته التى بناها فى سمرقند (٩١٩ هـ ـــ ١٥١٠ م) .

ويعتبر شيبانى فى نظر عشائر وسط آسيا شهيدا ، وقصص بطولاته واستماتته فى القتال جعلت اسمه علما من أعلام تاريخ المنطقة ، ولا يزال قبره يزار على اعتبار أنه من أعظم الشهداء .

ويعتبر شيبانى آخر الفاتحين العظماء الذين ظهروا كقادة لعشائر قوية فى وسط آسيا : قادرين على تكوين امبراطورية كبيرة ، من امثال جنكيز خان ، وتيمور لنك ، وكان شيبانى فعلا يتخذ من جنكيز خان مثله الأعلى ، ففى رسالة بعث بها الى اسماعيل الصفوى يتهدده ويتوعده قال :

« أنا ورثت السيف والملك من جـــــدى جنكيز ذائع الصيت ، فان لم تقنع بعكاز الشحاذ فعليك أتم ما تفعل » •

وبسقوط شيبانى ضعفت دولته ، وتعرضت لأخطار كبيرة من جانب الهند وفارس على حـــد ســــواء •

فلم يتخل بابر — امبراطور المغول — عن الاستحواذ على سمرقند وطن أجداده ، وكان مستعدا لأن يعيد الكرة بعد الكرة ، وأن يضع يده فى يد القوى الأخرى المعـــادية للأوزبك • وكان الشاه اسماعيل الصفوى مستعدا لأن يضع يده فى يد امبراطور المغول ، رغم اختلاف المذهب •

فقد اتفق الشاه اسماعيل مع بابر — امبراطور المغول — على أن يزود جيش المغول بما يلزمه من مؤن خلال العمليات العسكرية ضد الشيبانيين • فزحف بابر على رأس جيش كبير ، واستولى على سمرقند مرة أخرى ، الا ان قائد الأوزبك الجديد كان رجلا صعب المراس عرف كيف يستغل ظروف المنطقة لصالحه •

كان عبيد الله قد تولى زمام الأمر ، واعد جيش الأوزبك ليخوض معركة كبيرة ضد جيش امبراطور المغول قرب بخارى • وهناك أنزل عبيد الله خان هزيمة قاسيه بجيش بابر ، استعاد فى أعقابها عبيد الله خان مدينة سمرقند (٩١٨ هـ — ١٥١٢ م) •

كانت هزيمة بابر تلك تعنى أن الأوزبك استعادوا قدرتهم على توجيه الضربات الى الأجزاء الشمالية الشرقية لإيران،هذا فضلا عن أن تلك الهزيمة كانت تعنى كذلك ضياع آمال الشاه اسماعيل فى السيطرة على تلك الاقاليم الشرقية • واذا كانت الآمال معقودة فى تحقيق هذا الهدف على تحالف قوى بين امبراطور المغول ، والشاه الفارسى • فان تحقيق تلك الآمال سيصبح بعيد المنال لو تمكنت القوات الأوزبكية من الانفراد بالجيش المغولى وارغامه على الانسحاب من الحرب •

وكان الشاه اسماعيل الصفوى يدرك قيمة هذا التعاون ، ويدرك أن هذه الفرصة على جانب عظيم من الأهمية ويجب انتهازها لقيام تعاون عسكرى كبير بين المغول والفرس قبل ان يصبح عبيد الله خان فى مركز يستطيع منه أن يرغم المغول على الخروج نهائيا من الحرب او ان يصبح قادرا على أن يضرب هذا الطرف تارة وذاك تارة أخرى •

لهذا كله أسرع الشاه اسماعيل الى ارسال النجدات القـــوية الى جيش بابر . والتقى الحليفان فعلا عند « ترمذ » ، وبدا أن كفة الحرب ستتحول بسرعة ضد عبيد الله خان . ولقد كان الأمر كذلك فى البداية . وأحرز الحليفان نصرا عندما استولت جيوشهما على مدينة « قارشى » . ولكن كان الاستيلاء على هذه المدينة وما وقع لحاميتها على يد « نجم ثانى » ــ القائد الفارسى من العوامل التى ادت الى تحول جوهرى فى الموقف .

كان قائد حامية (قارشى) من أبناء عمومة عبيد الله خان.، ولما وجد أن الدفاع عنها أصبح مستحيلا ، استسلم وسلم المدينة فما كان من « نجم ثانى » الا أن قتل كافة رجال الحامية،وسكان المدينة حتى ذلك العالم الشاعر العظيم « ملا بنائى » . فكان لذلك صداه العميق لدى بابر .

حقيقة كان عبيد الله ورجاله بمثابة ألد اعداء بابر ، ولكن بابر كان مقاتلا كريمــا وفيا لعهوده اذا قطعها ، مقدرا للعدو الشجاع ، ومحتقرا للمنتصر المنتقم ، خاصة اذا كان انتقامه بلا مبرر . ولقد كان انتقام « نجم ثانى » ، وانزاله سيف العقاب الصارم على الجند وغير الجند دون تمييز بين محارب وعالم ، مثار ازعاج لنفسية بابر العظيمة . خاصة وأن بابر ادرك ان وراء تلك القسوة تعصبا منهبيا ضد السنة ، وكان بابر سنيا ، ولكن كان يحترم الى حد كبير مذاهب الآخرين ، كان ينتقدها ، دون أن يهزأ منها ، كان يناظر أهلها ، دون أن يفرض عليهم رأيه او معتقده . ومن ثم كانت اجراءات (نجم ثانى) الانتقامية عاملا جوهريا فى أن يعيد بابر النظر فى أمر التحالف مع الشــــــاه اسماعيل الصــــــــــفوى .

لقد كان التحالف بين بابر والشاه اسماعيل تحالفا محدود الأهداف ، لمجرد كسر شوكة الأوزبك ، واستعادة بابر عاصمة التيموريين . وكانت الأهداف العاطفية الأسرية هى التى تحث بابر على ارسال الجيوش ضد الأوزبك ، وكان بعد المسافة ، يرغمه على أن يتعاون مع القوة الأخرى المناهضة للأوزبك . ولكن لم يكن هناك تقارب مذهبى بين المغول والفرس ، فى وقت كانت فيه للفكرة المذهبية اهمية بالغة فى عقد التحالفات او شن الحروب . لقد كان بابر مسلما غير متعصب ، كانت له آفاقه الفكرية البعيدة عن نظرية التعصب المذهبى ، بعكس الشاه اسماعيل الصفوى.ولذلك طالما كانت المصلحة المشتركة

ــ وهى العمل ضد الأوزبك ــ قائمة ظل هناك تحالف بين بابر والشاه اسماعيل ، على الا تظهر خلال ذلك مشاكل مذهبية أو انسانية بين الرجلين ٠

فلما تجلت قسوة ، القائد الفارسى (نجم ثانى) ازاء اهل (قارشى) ، وأنهـــا قسوة صادرة عن نفس متعصبة كل التعصب لمذهبها بدا لبابر أن هـــــذا التحالف مع المتعصبين يجب أن ينحل ٠ خاصة و ن هذا لم يكن رأى بابر وحده ، بل كانت كل عشائر وسط آسيا تنظر فى وجل وخوف شديدين،الى توسع الشاه الصفوى ، اذ كانوا يقدرون ان هذا التوسع ليس مجرد ظهور فاتح جديد ، أو تولى ملك عليهم بقوة السلاح فقط ، وانما كانوا يدركون أن وراء ذلك سيفا سيكون مسلطا على رقابهم باستمرار اذا هم ظلوا متمسكين بمذهبهم السنى ٠

لقد كانت الظروف تلح على بابر ان يعيد النظر فى التحالف مع الشاه ، ولم يلبث أن قطع علاقاته معه وغادر المنطقة الى الهند ، ليتصارع الأوزبك والفرس عليها ٠

ويبدو أن « نجم ثانى » كان قائدا مغرورا ، ولم يدرك أن قدراته العسكرية ــ بعد رحيل المغول ــ أصبحت أوهن من أن تتفــوق على الأوزبك فى أرضهم ٠ فتابع مهاجمته للقلاع الأوزبكية ، وأحرز عدة انتصارات محلية ٠ وكان الأوزبك يراقبونه عن كثب ، ويفسحون له الطريق ليتوغل داخل بلادهم حتى اذا ما نزل فى منطقة احــــكم الأوزبك دراستها ، أطبقوا عليه ، وكان جنده قد أرهقهم طول المسير ، فدارت معركة كانت اقرب الى المذبحة منها الى الكر والفر وسقط (نجم ثانى) نفسه صريعا ، فى هذه المعركة التى عرفت باسم معركة غجديوان (١٥١٣) ٠

ولكن المنتصرين فى هذه المعركة لم يكونوا جيشا ضخما ، ولم يكن المنهزمون يمثلون جيش فارس كلها ، ومن ثم كان لا بد من معارك أخرى طاحنة بين الطرفين ٠

ادى انتصار عبيد الله خان فى غجديوان الى النتائج التالية :

١ ــ لقد بدا واضحا ان التعصب الدموى الشيعى ضد السنة الأوزبك يجب ان يواجه بتعصب مذهبى مماثل ٠ وكان أن تصاعدت حرب التدمير والابادة بين الطرفين ٠

٢ ــ كانت هزيمة القائد الفارسى (نجم ثانى) تعنى أن بلاد الأوزبك قد تحــررت من الفرس ، وفعلا اصبحت مساحة البلاد التى يحكمها عبيد الله خان بعد موقعـــــة غجديوان تعادل تقريبا تلك التى كان يحكمها محمد شيبانى فى أوج قوته ٠

٣ ــ اما وقد اســـتعاد الأوزبك بلادهم ، فان الدوافع عديدة لكى يعملوا على اجتياح اقاليم فارس الشمالية والشرقية ، وخاصة خراسان • وفعلا بدأ الضغط الأوزبكى الشديد على تلك الاقاليم فى وقت كان فيه الشاه اسماعيل يواجـــه أدق فترة فى تاريخ حكمه عندما تولى السلطان العثمانى ســـليم الأول العرش فى ١٥١٢ وشن حملته ضد الفرس وانتصر عليهم فى موقعة جالديران (١٥١٤) •

وقبيل وقوع هذه المعركة كان هناك زحف كبير يقوم به الأوزبك فى أقاليم فارس الشرقية • ودخلت جموع الأوزبك خراسان وأخذوا يخربون مدنها وقراها وينهبونها •

ولكن بعد هزيمة جالديران تغير الموقف • فقد اصيب الجيش الفارسى بضعف شديد ، اذ تحطمت قوته الرئيسية فى تلك المعركة • وكان المعتقد أن عبيد الله خان سيجد الطريق الى النصر ــ بعد ذلك ــ سهلا • وفعلا قام جيش الأوزبك بزحف كبير فى اتجاه فارس• واستولى على ما هو شرقى هراة ، ثم ضرب الحصار على هذه المدينة ذات الموقع الاستراتيجى الهام بالنسبة لفارس بصفة خاصة • ولقد ابرز الأوزبك الكثير من ضروب الشجاعة والجرأة التى اتصفوا بها ، كما كان الحماس المذهبى يحثهم على العمل على تقويض القوى الشيعية التى تتصدى لهم وضربها بشدة ، ونهب الأراضى التى تقع تحت ايديهم وتخريبها • ورغم كل هذه الجهود ، لم يحرز الأوزبك نصرا واضحا • ومع هــذا ساروا فى عملياتهم التدميرية وزادوا منها فى أعقاب وفاة الشــــاه اسماعيل الصفوى فى ١٥٢٤ م •

وأغلب الظن أن الأوزبك اعتقدوا أن وفاة الشاه اسماعيل ستهز كيان فارس هزا عنيفا ، وأن دولته ستتقوض من الداخل ، وأن الفوضى ستجتاحها فتكون فرصة للاجهاز عليها بواسطة جيش الأوزبك ، أو على الأقل يكون فى استطاعة الأوزبك أن يضموا اليهم اقاليم شرق فارس التى يتطلع اليها زعماء الأوزبك باستمرار • ولهذا شن عبيد الله خان حملات ضارية استولى بها على « مرو » و « مشهد » و « استراباد » ، ولكن دون أن يحرزوا نصرا يفتح أمامهم الطرق المؤدية الى قلب فارس •

والسبب فى هذا يرجع الى أن الأوزبك بالغوا جدا فى النتائج المترتبة على وفـــاة الشاه اسماعيل الصفوى ، ولم يدركوا أن الرجل كان من بناة الأمم ، وأن الأسس التى

اقام عليها دولته كانت كفيلة بأن تستمر من بعده وأن تمد خليفته بمقومات النهوض من الكبوة ، والظهور مرة أخرى كقوة كبيرة فى المنطقة · هذا فضلا عن أن مقومات فارس الطبيعية والبشرية والاقتصادية قادرة على اعادة تكوين نفسها كدولة بعد كل تدهور ، ولذلك سيعود الصراع عنيفا بين الفرس والأوزبك بعد وفاة الشاه اسماعيل ، وسيتولى قيادة فارس فى الجولات القادمة ابنه طهمسب ·

الشـــــــاه طهمسب

١٥٢٤ ــ ١٥٧٦

علاقة طهمسب بالأوزبك والعثمانيين :

تولى طهمسب العرش على قاعدة وراثة الابن لأبيه ، وكان لا يزال فى العاشرة من عمره ، واستمر فى حكم البلاد زهاء نصف قرن اذ توفى فى (١٥٧٦) ، ومن ثم كانت مدة حكمه طويلة وهى ميزة هامة حينذاك ٠

ونظرا لصغر سنه ، كان طبيعيا أن يتولى زعماء (القزلباش) مهمة إدارة الدولة حتى يتولاها هو بنفسه ٠ وفى مثل هذه الظروف يكون هناك أكثر من زعيم ، وأكثر من راى ، وأكثر من واحد يريد أن ينفرد بالأمور ٠ ومع هذا كله استطاع طهمسب بعـــد سنوات قليلة أن يشارك مشاركة فعلية فى توجيه امور البلاد،وبدات الأمور الداخلية تأخذ شكلا مستقرا يؤكد تحرك الدولة الفارسية ضد القوى المعادية لها ســـــواء فى الشرق (الأوزبك) أو فى الغرب (شاه بغداد) ذو الفقار الكردى ٠

وكما تناولنا أوجه نشاط الشاه اسماعيل فى اتجاه الشرق وفى اتجاه الغـــــرب سنتناول نشاط طهمسب كذلك ضد الأوزبك (الشرق) وضد العراق (الغرب) ٠

كانت حملة طهمسب على الأوزبك من أولى جهوده خـــارج إيران وكانت معظم الظروف غير مواتية لاحراز نجاح كبير،ولكن عبيد الله خان،كان يدرك أن ارتقاء طهمسب العرش وهو لا يزال صغير السن سيدفعه الى أن يثبت ذاته وقدراته ، وإن الرجـــال الملتفين حوله كل سيحاول أن يثبت له مدى اخلاصه للعرش عن طريق حملة كبيرة ناجحة٠ ومثل هذه الحملة تكون فى الغالب موجهة الى الأوزبك على اعتبار أنهم كانوا الخطـــر المباشر المهدد لفارس حينذاك ٠

هذا التوقع ، جعل عبيد الله خان . وزعماء الأوزبك يعملون على حشد جيوش كبيرة

لمواجهة الغزو الفارسى المنتظر • وكان عبيد الله خان يرى ان الهجوم فى مثل هذه الأحوال خير له من البقاء فى موقف الدفاع فقاد جيشه الى خراسان (١٥٢٨) •

كانت هذه هى الحملة الرابعة التى شنها عبيد الله على خراسان ، لكنها اختلفت عن سابقاتها من حيث ضخامة الحشود ، واشتراك الغالبية العظمى من عشائر الأوزبك فيها • وزحفت هذه الجيوش الى المنطقة الفاصلة بين أفغانستان وفارس (أى بين هراة وخراسان) لتلتقى بجيش الفرس فى سهل هناك معروف باسم « جام وزور آباد » ، ووقعت المعركة ولكنها كانت موقعة من طراز جديد لم تشهده أقاليم وسط آسيا •

لقد كان تشكيل جيش الأوزبك هو نفسه الذى كان عليه زمن محمد الشيبانى : جيش يعتمد على القوى العشائرية ، وعلى القيادة الماهرة ، والكثرة العددية ، والقدرة على الكر والفر ، والشجاعة والاقدام • أما الجيش الفارسى المستعد لمعركة (جام وزور آباد) فقد كان مختلفا عن ذلك الجيش الذى قاتل جيش محمد الشيبانى وعن ذلك الجيش الذى انهزم فى موقعة جالديران أمام السلطان سليم العثمانى •

كانت هزيمة الجيش الفارسى فى موقعة جالديران ترجع اساسا الى أن الجيش العثمانى كان مزودا بالمدفعية وبحملة البنادق بحيث انزل هؤلاء خسائر فادحة فى جيش الشاه الفارسى • واصبح ذلك درسا وعاه الفرس • وأدركوا أنهم ان ارادوا المحافظة على دولتهم ، ومتابعة سياستهم التوسعية فعليهم أن يرتفعوا الى مستوى العصر من الناحية العسكرية الى جانب التمسك بالعقيدة والمذهب • وكان الارتفاع الى مستوى العصر عسكريا يتطلب استخدام الأسلحة النارية الجيش الفارسى • وفعلا زود القادة الفرس جيوشهم بهذه الأسلحة ، واستعملوها اول ما استعملوها ضد الأوزبك فى معركة (جام وزور آباد) •

فى معركة (جام وزور آباد) قاتلت جموع الأوزبك بكل حماس وانقضت فاتكة بالجيش الفارسى ، ولكن الأسلحة النارية فى كل مرة كانت تفتك بشدة بالمهاجمين ، ثم انقض حملة البنادق ، والمدفعيون على مؤخرة الجيش الأوزبكى المهاجم ، فقضوا عليها لتشديع من بعد ذلك الفوضى فى جيش الأوزبك،وهو تكتيك اقتبسه الفرس من العثمانيين واحرزوا به نصرا حاسما •

كان نصرا كبيرا للشاه طهمسب فى (جام وزور آباد) ولكنه لم يكن قادرا على أن يضرب الأوزبك فى عقر دارهم ، وذلك لأن تنفيذ مثل هذه الخطة يتطلب نفقات ضخمة وجهودا مضنية لا يكسب من ورائها الشاه الصفوى الا أرضا معادية مرهقة لقـــوات الاحتلال بينما كانت آماله هو ، وآمال قواده متجهة بقوة الى استرداد العراق من يد ذى الفقار الكردى الذى أعلن خضوعه للسلطان العثمانى فبعث الشاه بجيش كبير الى العراق استولى على بغداد وتخلص من ذى الفقـــار فى ١٥٢٠ م ٠ ولكن لم يلبث أن رد السلطان العثمانى بهجوم كبير شامل أدى الى طرد الفرس من العـــراق ١٥٣٤ م (١) ، وتوقف القتال بين الطرفين ، ليتفرغ الشاه طهمسب مرة اخـــرى من الالتفاف الى الخطر الأوزبكى ٠

فى نفس العام الذى استرد فيه طهمسب بغداد ١٥٣٠ شن الأوزبك غزوة خامسة على أقاليم شرق فارس مبتدئين بهراة ومشهد واستراباد ، وأخذت قواتهم تجوس فى ارجاء خراسان زهاء عام ونصف ناهبة مخربة ٠ ولم يستطع طهمسب أن يلتفت الى أقاليمه الشرقية الا بعد أن توقف القتال بين الفرس والعثمانيين ١٥٣٤/١٥٣٥ ٠

ولا يكاد طهمسب يبعث بجيشه الى الأقاليم الشرقية حتى سارعت القوات الأوزبكية الى التراجع عنها حاملة ما تستطيع حمله من المنهوبات والأسرى ٠

ان تلك الصورة من الصراع بين الفرس والأوزبك تكشف عن النواحى الهـــامة التـــــــــــالية :

١ — أن الأوزبك من بعد محمد سيبانى كانوا قادرين فقط على الحفـــاظ على دولتهم دون أن يتحولوا من المحافظة على الدولة الى توسيعها ، فأصبح موقفهم دفاعيـــا أكثر منه هجـــوميا ٠ وتلك الهجمات التى كانوا يشنونها على الأقاليم الشرقية الفارسية كانت أشبه بالغارات الكبيرة التى لا تهدف الى استمرار السيطرة بقدر ما تهدف الى النهب والسلب ٠

---

(١) أنظر الصراع بين الفرس والعثمانيين الذى ادى الى استيلاء السلطان سليمان القانونى على العراق فى ١٥٣٤ فى الباب الأول ٠

٢ ـ ان قدرات الدولة الفارسية انتقلت من مرحلة القوقعة بعـد جالديران الى مرحلة التوسع مستخدمة الأسلحة النـارية ، وأصبحت قادرة ـ الى حد ما ـ على أن تقاتل فى الجبهتين الشرقية والغربية• ومع أن طهمسب خسر العراق نهائيا ، الا أن هـذا كان يعنى أن جيشه فى الجبهة الغربية أصبح قادرا على دعم الجبهـة الشرقية وقادرا على أن يسهم فى منع عبث القوات الأوزبكية بتلك الأقاليم الشرقية بل وعلى نقل القتال الى قلب أراضى الأوزبك أنفسهم •

٣ ـ بعد أن عقد طهمسب الصلح مع العثمانيين ، أصبحت الجبهة الفارسية الغربيـة آمنة ولم تعد فارس مهددة بخطر الحرب فى جبهتين واسعتين فى آن واحـد ، بل لقد أصبح الأوزبك مهددين بأن يجدوا أنفسهم فجأة معرضين لغزوات من الشرق ومن الغرب فى آن واحد• فقد ادت تدهور دولة الشيبانيين الى ان تطمع فيها القوى المجاورة لها من الشرق ولكن استطاعت قـوى الأوزبك أن تثبت وسط هـذه العواصف لفترة ليست بالقصيرة حتى واجهت الشاه عباس الأول •

ولا شك أن هذا الهدوء فى الجبهة الشرقية وطول الحروب بين الفرس والعثمانيين قد حث طهمسب على عقد صلح مع السلطان العثمانى سـليمان القانونى • وقد كانت الظروف مهيأة لعقد صلح آماسيا Amassia فى ١٥٥٤ وهو يكشف عن بعض نيات وآمال الطرفين • فتنص اتفاقية الصلح على ما يلى :

١ ـ تترك ولاية قارص وقلعتها للدولة العثمانية •

٢ ـ تحدد حدود ولاية شهرزور [١] منعا لوقـوع الحوادث المعكرة لصفو السـلام بين الدولتين •

٣ ـ تأمين سلامة الحجاج الفرس الذاهبين الى زيارة العتبات الشيعية المقدسـة فى العراق والى الأراضى الاسلامية المقدسة فى الحجاز •

هذه الاتفاقية على بساطتها ، وقلة موادها تكشف لنا عن الأسباب التى أدت الى نزاعات متطاولة بين الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين المتجاورتين :

---

(١) كان العراق مقسما الى عدة ولايات هى (شهرزور والموصل وبغداد والبصرة)•

١ ـ كانت الدولة العثمانية تسعى بجد لأن تطمئن على حدودها شرق الأناضول ، وكانت قارص من القلاع والمواقع الحصينة التى تعطى العثمانيين فرصا أوسع لصد الغزوات لا من جانب الفرس ، كما هو الحال فى القرن السادس عشر والسابع عشر ، بل من جانب الروس فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ٠

٢ ـ ان مشكلات الحدود العثمانية الفارسية كانت مثار أزمات متطاولة وكانت أعقد هذه المشكلات وأوضحها فى أول الأمر هى تحديد الحدود الشمالية بين الطرفين فى المناطق الجبلية التى يسكنها الأكراد ٠

٣ ـ ويعتبر كذلك تأمين سلامة الحجاج الفرس الشيعة الى العتبات المقدسة الشيعية فى العراق والى الأراضى الحجازية المقدسة باستمرار واحدا من أسباب المنازعات بين الطرفين لاتهام الفرس السلطات العثمانية الحاكمة وكذلك السلطات المحلية فى العراق ، والعشائر العراقية بابتزاز أموال هؤلاء الحجاج الفرس ومعاملتهم معاملة سيئة ٠ ومع أن العثمانيين كانوا يعملون على حماية الحجاج الفرس ، لما فى ذلك من كسب مالى ودخل للخزينة العثمانية الا أن أوضاع العراق العشائرية كانت تحول دون استمرار هذه الحماية فعالة ، ففى بعض الظروف تنتقم بعض العشائر الثائرة من الحكومة عن طريق مهاجمة قوافل الحجاج على قدم المساواة مع مهاجمتهم لقوافل التجار٠وكان هذا يحدث سواء لقوافل الحج الفارسى أو لقوافل الحج الشامى ٠

سادت العلاقات بين طهمسب وسليمان القانونى على نوع من الهدوء ٠ وكان الطرفان يريدان هذا الهدوء فعلا ليتفرغ كل منهما لمواجهة المشاكل الكبرى المسئول عنها٠وبدت هذه العلاقات طيبة عندما فر بايزيد بن السلطان سليمان الى طهمسب ومعه عدة كتائب عسكرية (١٥٥٩) ٠ ومع أن طهمسب استقبله بحفاوة الا انه سرعان ما ادرك أن الرجل لن يفيده كثيرا وان أباه سليمان القانونى قوى الشكيمة ٠ ولذلك نجحت المفاوضات التى دارت بين الطرفين العثمانى والفارسى لتسليم بايزيد الى ابيه فى مقابل مبلغ كبير من الذهب وتمت الصفقة ، ودخل الذهب خزينة الشاه والقى بايزيد فى قبره بعد أن أمر والده سليمان بقتله ٠

حادثة أخرى بينت أن الشاه طهمسب كان معنيا بالابقاء على هدوء العلاقات بينه وبين السلطان سليمان القانونى • فقبيل وفاة طهمسب جاءه سفير من البندقية هـــو فنسنتيود السندرى Vincentiod Alessandri يحذر من أن العثمانيين يستعدون للاستيلاء على قبرص • وكان هذا فى الواقع ضربة قاســـية للبندقية جعلها تسعى الى التحالف مع أعداء السلطان بأى شكل ولما كانت أوروبا مشغولة بأمورها عن استصراخات البندقية بها،اتجهت البندقية الى حث الفرس — أعداء العثمانيين الألداء — على التحالف معها • ولكن كانت الانتصارات العثمانية الكبيرة فى أوروبا الشرقية وفى فارس تحول دون أن يصل البنادقة الى أى نتيجة مجدية فى هذا الصدد • فلم يتحرك طهمسب رغم تشديد البنادقة على أن قبرص ان سقطت ، فان الهدف الثانى للعثمانيين ســــيكون فارس نفســـــــــها •

كان الجزء الأخير من حياة طهمسب على نوع من الهدوء السياسى وكانت فى نفس الوقت عوامل الفوضى والاضطراب تتجمع • وطهمسب نفســـــه مسئول عن كثير من الاضطرابات التى وقعت من بعد وفاته فى ١٥٧٦ م / ٩٨٤ هـ •

ففى عام ١٥٨١ م / ٩٥٧ هـ وقعت مجاعة كبيرة مروعة فى البلاد صاحبها طاعون كان يبيد بعض القوى ويخرب القوى البشرية ، ورغم هذا كله ظل الشـــاه منهمكا فى أشغاله الخاصة وبأمواله دون أن يلتفت الى شعبه فى هذه المحنة •

وكانت معاملة الشاه لأولاده على نفس الأسلوب الذى كان ســـائدا لدى البلاط الإسلامى فى الاستانة • كانت عداوة مريرة بين الشاه وأولاده • ولعل ذلك كان أقـــوى الأسباب فى أن يلقى الشاه طهمسب مصرعه بالسم فى ١٥٧٦ •

تولى العرش بعد طهمسب ابنه الذى عرف فى التاريخ باســم اسماعيل الثانى • وكان مكروها من أبيه ، فوضعه فى الحبس ، وظل به زهاء ربع قرن • وها هو بعد طول شقاء يصبح شاها ، ويصبح قادرا على أن ينفس عما عاناه من آلام السجن المريرة خلال تلك الفترة الطويلة • ان مثل هذا الشاه ينتظر منه أن يكون قاسيا فظا غليظ القلب ، حتى على أقرب المقربين اليه من أفراد اسرته • فانهال بسيفه على أفراد أسرته ، وصرع العديد من أعيان دولته ، ومثل هذه الحماقات لا تتوقف غالبا الا اذا تحركت القـــوى الأخرى الخائفة من الشاه أو الطامعة فى العرش •

وفعلا كانت مدة حكمه القصيرة عبارة عن سلسلة من المآسى انتهت بمصرعه هو فى ١٥٧٨ •

★ ★ ★

فارس فى أيام الشـــاه عباس الكبير

١٥٨٧ — ١٦٢٩

لقد بدا مستقبل البلاد الفارسية كئيبا سواء خلال حكم الشاه اسماعيل الثانى ، أو فى أعقاب مصرعه . فقد وقعت حرب اهلية متشعبة الأطـــراف ، بين أولاد طهمسب وهم : (حيدر ميرزا ، اسماعيل ميرزا ، ومحمد ميرزا وابنـه عباس) ، فى الوقت الذى انتهز فيه العثمانيون هذه الفرصة وبعثوا بجيشهم الى فارس واستولى على (تبريز) وتفليس وداغستان (١٥٩٠ م / ٩٩٨ هـ) . حقيقة بذل القواد الفرس جهودا كبـــيرة لاسترداد تبريز من العثمانيين ، وان هذه الجهود لم تحقق الهدف ، ولكنها أثبتت أن العثمانيين — وقد منوا خلال ذلك بهزائم متتالية وخســــائر فادحة — انما يحتفظون (بتبريز) لأن فارس تعانى من الحرب الأهلية ، وأنه متى توقفت الحرب الأهلية وظهر رجل قوى يمسك امور البلاد بأسرها بين يديه ، فان ارغام العثمانيين على الانسحاب من تبريز يصبح مسالة وقت لا أكثر ولا أقل .

استطاع عباس أن يتولى العرش وسيعرف فى التاريخ باسم (الشــــاه عباس الكبير) وقد حكم من (١٥٨٧ — ١٦٢٩ م) (٩٨٥ — ١٠٣٨ هـ) ، أى حوالى اربعين عاما،وهو عمر طويل فى تاريخ الحكام وكان يافعا عندما اعتلى العرش ، فكان تحت توجيه كبار الشخصيات الراغبة فى أن يكون لها اليد الطولى فى حكم البلاد . ولكن هذه الزعامات المتصارعة كانت تعمل باسم الحفاظ على عرش الشاه عباس . وكان أشـد المتنافسين ضراوة (على قونى خان) زعيم (الشاملو) ، (ومرشد قولى خان) زعيم الاوستجلو . وأدى هذا الصراع بين هذين الزعيمين الى أن يضعف كل منهما الآخر ويتمكن الشــاه عباس من ان يضع الأمور تدريجيا فى يده هو وحده .

وفى مطلع أيام حكمه كان العثمانيون قد هزموا الفرس ، وتوسعوا على حسابهم فى لورستان وخوزستان بينما كان الأوزبك يقـــــومون بغزوات جديدة للأقاليم الشرقية

الفارسية • ووجد الشاه انه بين المطرقة والسندان • واصبح مهددا بحرب فى ميدانين متباعدين فى آن واحد ، وهذا يعتبر خطر داهم عليه ولذلك آثر أن يعقد صلحا مع الأتراك العثمانيين عرف باسم (معاهدة فرهاد باشا) فى ١٥٩٠ م • وفى هذه المعاهدة تنازل الشاه عن (تبريز) وعن سيروان بمينائها على بحر قزوين وعن جورجيا ولورستان • ونصت المعاهدة على عدم قيام الإيرانيين بالاستفزازات العقائدية ، وعلى أن يبقى حيدر ميرزا (ابن أخى الشاه) رهينة فى الاستانة حتى لا ينكث الشاه بتعهداته • والتفت الشاه عباس من بعد الى خطر الأوزبك ، ومن بعدهم التفت الى السيطرة على العراق منتهزا تمردا وقع فى الحامية العثمانية فى بغداد ، كما التفت الى السيطرة على هرمز منتهزا فرصة ظهور منافس خطر للبرتغاليين فى الخليج العربى ، ونعنى بذلك الانجليز • وسنحاول أن نعالج هذه الموضوعات كل على حدة •

الشاه عباس والأوزبك :

جاءت وفاة طهمسب فرصة كبيرة امام الأوزبك ، بسبب التنافس الذى وقع فى البلاط الفارسى من بعده ، وهو تنافس لم يهدأ الا بارتقاء الشاه عباس الكبير عرش البلاد فاستولى عبد الله خان — زعيم الأوزبك — على (هراة) ، وأنزل الدمار بخراسان ، ثم استولى عبد المنعم بن عبد الله على (مشهد) وبها ضريح الامام الرضا فأعمل جند الأوزبك سيوفهم فى المدينة ونهبوها واصبح عبد الله خان مسيطرا على بلاد الأوزبك بالاضافة الى هراة ومشهد ومرو فضلا عن خراسان التى تعتبر شوكة غائرة فى جسد الدولة الصفوية• وكان هذا ذروة مجد عبد الله خان وبدات الأمور تسير ضده من مختلف الجوانب :

(أ) فقد ثار عليه ابنه عبد المنعم ووقعت البلاد فى حرب أهلية •

(ب) اندحرت قواته باستمرار أمام غزو عشائرى من الشمال قام به (القالموق) •

(جـ) انضمام أمراء خوارزم (الأوزبك) الى الشاه عباس ضد عبد الله خان • حيث أن عبد الله خان كان يضغط بقوة على بنى عمومته فى خوارزم فتحالف هؤلاء مع الد أعداء عبد الله ، وكان طبيعيا أن يرحب الشاه عباس بهذا التحالف الذى يهدد الدولة الأوزبكية تهديدا مباشرا • وبدا عبد الله خان يفقد الكثير من أرضه أمام الشاه عباس حتى مات عبد الله فى ١٠٠٦ هـ / فبراير ١٥٩٧ فى الفترة التى كان فيها نجم الشاه عباس يصعد •

بل لقد وقعت فتن كبيرة بعد موت عبد الله خان ، فان ابنه عبـد المنعم ــ الغليظ القلب ــ لم يلبث أن قتله بعض رجاله وتصارع الطامعون من بعده على العرش • فلا غرو أن هزم الشاه عباس الأوزبك هزيمة دموية • واصبحت الدولة الأوزبكية معرضـة من جراء تلك التطورات الى الانهيار • وأغلب الظن أن بقاء دولة الأوزبك لسنوات أخرى حول بخارى يرجع الى عدد من الملوك عنوا بالسلم أكثر من الحرب ، وان كان هذا لا يعنى تعرض البلاد من وقت لآخر لحروب أهلية • ولكنها على أى حال لم يعد لها ذلك المجـد الكبير الذى كان على أيام محمد شيبانى وعبيد الله •

اخراج العثمانيين من الولايات الفارسية :

أمضى الشاه عباس زهاء خمسة عشر سنة حتى اقدم على الحرب ضـد الدولة العثمانية • وقبل أن يشن هذه الحرب أبدى جهدا كبيرا فى اعادة تشكيل جيشه وتزويده بمقومات جيوش العصر ، الا وهى الأسلحة النارية والمدفعية ، وأصبح الجيش الفارسى على مستوى الجيش العثمانى من حيث التسلح ، ولكن اختلف الجيشان اختلافا لصالح الجيش الفارسى • فقد كانت القدرة على نقد الذات واصلاح العيوب لدى الفرس أيام الشاه عباس الكبير واضحة بعكس حالة الاستعلاء المزمنة التى اصابت الجيش العثمانى وقادته وجعلتهم يتجنبون استقدام أو استخدام الخبراء الأجانب لتطوير جيوشهم •

فقد انتهز الشاه عباس وجود أحد الضباط الانجليز وهو انتونى شيرلى Anttony Sherley وأفاد من خبرته فى تجديد الجيش الفارسى بل اسند اليه واجبات قيادية فى المعـــارك •

بدأ الشاه عباس بمهاجمة معاقل الأتراك العثمانيين فى الولايات الفارسية فاسترد منهم (تبريز) فى ٢١ أكتوبر ١٦٠٣ ثم اريفان وشيروان وقارص•واثبت التجديد ــ الذى أجراه الشاه عباس ــ فى هذه المعارك فعاليته الكبرى • ثم عندما سنحت له الفرصة لكى يتوسع على حساب العثمانيين لم يتوان عن انتهاز الفرصة •

محاولات الشاه عباس الاستحواذ على العراق :

كان العراق تحت الحكم العثمانى ، قد تأثر بسرعة بمظاهر ضعف الدولة العثمانية خاصة من حيث ظهور قيادات عسكرية عمدت الى الاستناد على قوتها من أجل الانفـراد

بالحكم فى اطار التبعية الأسمية للسلطان العثمانى ، ظهر هذا فى العراق عندما استطاع آفراسياب وهو كاتب من كتاب الجند فى البصرة فى ١٥٩٦ أن يشترى حكم البصرة من واليها العثمانى ، وان يؤسس فيها أسرة حاكمة امتدت الى ١٦٦٢ ، وعندما استطاع بلوك باشى (أى رئيس كتيبة) أن ينفرد بحكم بغداد فى ١٦٠٣ / ١٦٠٤ ، فكان هذا كله نذير تطورات خطيرة فى البلاد العراقية • اذ أصبح فى الامكان أن يقع تمرد يعلن انفصاله عن الدولة العثمانية • وحدث هذا فعلا على يد بكر صوباشى — أحد ضباط حامية الإنكشارية فى بغداد ١٦٢١ م / ١٠٣١ هـ • — عندما عهد بأمر اخضاعه الى جيش عثمانى كبير • وأدرك بكر صوباشى انه أضعف من أن يصده فبعث الى الشاه عباس معلنا خضوعه له • فكانت فرصة ذهبية انتهزها الشاه وبعث بجيش كبير الى العراق •

وبسرعة أدرك بكر صوباشى انه لن يحتفظ بمكانته تحت الحكم الفارسى ، بينما يستطيع أن يحتفظ بها لو وصل الى تفاهم مع القائد العثمانى • وفعلا وافق القائد العثمانى على أن يحتفظ بكر صوباشى بالحكم على أن يعلن الخضوع التام للسلطان العثمانى ، وكان بكر صوباشى مستعدا تماما لذلك وتم الاتفاق بين الطرفين ، ولكن بقى الخطر الفارسى على ما هو عليه بل لم يعترف الشاه عباس بتلك التدابير واصر على أن العراق قد أصبح تابعا له سواء رضى بكر والعثمانيون ، أم لم يرضوا • وشن الشاه حملات قوية ضد بغداد ولكنها لم تحرز نصرا ، فلجأ الى استخدام الخيانة ، فدبر مؤامرة ناجحة فى داخل بغداد ضد بكر صوباشى قضت عليه وفتحت أبواب المدينة للجيش الفارسى •

بعد أن استولى الشاه عباس الكبير على بغداد أصبح عليه أن يستكمل فتح العراق بالاستيلاء على البصرة التى كانت تحت حكم آل آفراسياب • وكان الحكم الافراسيابى عميق الارتباط بالأهالى ، معتمدا على نفسه فى الدفاع عن البصرة ، وكان الشاه مصرا على أن يفتح البصرة • لأهداف اقتصادية جوهرية :

١ — كان البرتغاليون مسيطرين على تجارة البصرة والقطيف والاحساء ، حتى بعد ن تعاون الشاه مع الانجليز فى اخراج البرتغاليين من جزيرة هرمز ١٦٢٢ (١) • ومن

---

(١) سندرس هذا الموضوع بعد قليل •

ثم لم يكن طردهم من هرمز كافيا لأن يركز التجارة الخارجيـــة فى ايدى إيران ، وحيث أن الفرس لا يملكون أسطولا فى مياه الخليج فقد كان من المستحيل عليهم أن يوقفوا نشاط البرتغاليين التجارى الا عن طريق حصار برى بالاستيلاء على الموانى التى كانوا يتعاملون معها ، وبوجه خاص البصرة ٠

٢ — ان منفذ العراق (وقد اصبح معظمه فى يد الشاه) هو البصرة ، ومن ثم لا بد من استكمال الفتح بالسيطرة عليها،والا ظلت شوكة فى جنبه خاصة وأن اعداءه الألداء البرتغاليين مستعدون للتعاون مع الحكم الافراسيابى الى أبعد مدى ٠ لقـــد كان اخراج البرتغاليين من هرمز على يد الحلف الفارسى الانجليزى ضربة قاضية للوجود البرتغالى فى المنطقة وأصبح على البرتغاليين أن يبذلوا أقصى ما يستطيعونه من أجل البقية الباقية من نفوذهم فى الخليج العربى ٠

بعث الشاه الى حاكم البصرة آفراسياب « خلعا فاخرة والقـــابا معظمة يستميله اليه » وطلب منه أن يصك العملة باسم الشاه وان يعقد اهل البصرة عمائمهم على الطريقة الإيرانية ٠ وفى مقابل هذا وعد آفراسياب بالابقاء على حكم البصرة فى أسرته وراثيا ، وأن يعفيه من الجزية ، وأن يترك أمر تصريف امور المدينة له بحرية ٠ ولكن على حد قول أحد معاصرى تلك الأحداث :

« لم يجد رسول الشاه الا الطرد قبل اللقاء » ٠

كان آفراسياب يدرك حقيقة واحدة جوهـــرية هى أن الفرس لا يمكن ان يتركوه حاكما اذا ما استتبت الأمور لهم ، وانه سيقاتلهم ان آجلا أو عاجلا ، خاصة وان التعصب المذهبى كان واضحا فى أعمال الشاه عباس وهو أمر يرفضه آفراسياب بعنف ٠ وفوق هذا وذاك كان الأسطول البرتغالى قد لبى نداء آفراسياب وقدم الى البصرة واصبحت قوى الفريقين متوازية ، فرغم التفوق العددى للفرس كان الدفاع عن البصرة والاستيلاء عليها يتطلب استخدام قوة بحرية مناسبة (١٦٢٥) ٠

واستعد الطرفان للمعركة ، ولكن الذى حدث هو عدة مناوشات دون أن يغـــزو الجيش الفارسى الرئيسى البصرة ، بل — لأمر غير واضـــح حتى الآن — غادر الجيش الفارسى معسكره ، تاركا الكثير من احماله عائدا من حيث اتى (١٦٢٥/٣/٢٣) ، ولم

تتبدل الأوضاع فى العراق تبدلا جوهريا الا بارتقاء السلطان مـراد الرابع عرش الدولة العثمانية وعزمه الأكيد على طرد الفرس من العراق ، ولكن هذا الصـــدام المروع بين العملاقين الكبيرين : الشاه عباس الكبير ، والسلطان مراد الرابع آخر السلاطين الفاتحين العثمانيين ، لم يقع اذ توفى الشاه عباس الكبير فى (١٦٢٩) ٠

شن مراد الرابع حملته الشاملة الكبرى على الفرس فى العراق فى ١٦٣٨ وتمكن من طردهم منها واضطر الفرس الى عقد معاهدة ١٦٣٩ التى تعتبر من الأسس التى قامت عليها معاهدات الحدود بين إيران والعراق فيما بعد ٠

وقد نصت معاهدة ١٦٣٩ على تحديد الحدود بين فارس والعراق على اعتبار أن بدرة وجسان ومندلى ودرتنك والسهول الواقعة بين تلك المدن وعشائر الجاف وعشائر قطور تابعة للدولة العثمانية وان الممر المؤدى الى شهرزور هو الحد الفاصل بين الدولتين الا أن صياغة هذه المعاهدة ما كان ليحسم الخلافات بين الدولتين حول الحدود فضلا عن اهمال الاشارة الى طبيعة الحدود بين الدولتين فى المناطق الجنوبية وبوجه خاص منطقة (عربســـــــتان) ٠

ومع ما لمعاهدة ١٦٣٩ من أهمية بالغة فى تطور العلاقات بين الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين فليس لدينا نسخة موثوق بها كل الثقة فالنسخة التركية احترقت خلال أحد الحرائق الكبيرة التى تعرض لها الباب العالى فى الاستانة ٠ كذلك فقدت نسختها الفارسية خلال واحدة من الاضطرابات العديدة التى وقعت فى طهران ٠ وانمـــا عثر على بعض نصوصها فى مؤلفات مؤرخين عثمانيين ٠ واخيرا عثر على نسخة منها فى ارشيف فيينا Vienna ٠ هذه صورة من صور المتاعب التى تواجه الكتابة التاريخية لإيران ٠

ومن ناحية أخرى فان صياغة هذه المعاهدة كانت كفيلة بأن تفجر المشاكل عندما تتهيأ الفرص لذلك وهذا يرجع الى ان المعاهدة كانت تنص على «مناطق حدود» اذ لم تكن عقلية الساسة الفرس أو العثمانيين قد ارتفعت بعد الى مستوى كتابة معـــاهدة على أساس « الحدود الدقيقة » لا مناطق الحدود ٠ على انه من الواضح تماما فى هذه المعاهدة أن منطقة كردستان كانت ضمن العراق ٠

علاقات الشاه عباس بالانجليز :

كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ووصول الأسطول البرتغالى الى المياه الإسلامية الجنوبية فى وقت كانت قد تصاعدت فيه الأزمة بين الفرس والعثمانيين ، فلا غرو أن مد الشاه اسماعيل يد التعاون مع هؤلاء القادمين الجدد الصليبيين • ولكن كانت المكاسب للجانب البرتغالى دون الجانب الفارسى • ولم يكن هناك من قــوة قادرة على كسر شوكة البرتغاليين فى المياه الإسلامية الجنوبية الا اذا كانت قوة بحرية ، وفارس لم تكن قوة بحرية ، وبذلت الدولة العثمانية جهودا كبيرة لكسر شوكة البرتغاليين فى المياه الإسلامية الجنوبية دون جدوى، فاكتفت الدولة العثمانية بالمحافظة على البلاد الإسلامية من الخطر البرتغالى ، تاركة أمور البحر لهم •

ولكن الدول البحرية الأوروبية الناشئة أبت أن تترك للبرتغاليين أمر احتـــكار المواصلات العالمية حول رأس الرجاء الصالح والتجارة العالمية مع الشرق الأقصى • وحيث أن الأسطول البرتغالى كان متفوقا على غيره من أساطيل الدول الأوروبية لجأت بعض هذه الدول الى استخدام الطرق البرية للوصول الى فارس ، ومن ذلك محـاولة الانجليزى انتونى جنكنسون Anthony Jenkenson •

كان انتونى جنكنسون هو المســـئول عن السفن التابعة لشركة موســـكو Moscow Co. • ومن روسيا قام جنكنسون برحلات كشفية فى اتجاه فارس نحو بخارى وخيوه • ووصل الى هناك فى الوقت الذى كان فيه عبيد الله خان يستعد لغزوة كبيرة ضد اذربيجان (١٥٥٩) • ثم عاود جنكنسون الكرة فى محاولة لفتح طريق للتجارة بين روسيا وفارس ، وبالتالى بين انجلترا وفارس • وفعلا وصل جنكنسون الى شمال فارس والتقى بالشاه طهمسب فى قزوين فى الوقت الذى كان يستعد فيه الأخير لتسليم بايزيد الى أبيه سليمان القانونى •

دارت المفاوضات بين طهمسب وجنكنسون ، وكانت الآمال قوية لدى تجار شركة موسكو فى أن يتمكنوا بالاتفاق مع شاه فارس على ان يوصلوا تجارتهم الى الهند عن هذا الطريق البرى الطويل • وتلقى جنكنسون من الشاه فرمانا يمنح الانجليز حق المتاجرة فى البلاد الفارسية وأعفاهم من الضرائب ولكن لم يوضع هذا الفرمان موضـع التنفيذ من

الجانب الفارسى او الانجليزى لأسباب غير واضحة · وهناك من يقول ان السبب فى هذا يرجع الى التعصب الدينى من جانب الشاه طهمسب وهذا ما يذهب اليه مارك سايكس(١) وان كانت الشواهد السابقة واللاحقة تؤكد أن شاهات فارس ، بل وطهمسب منهم لم يكونوا يتورعون عن التحالف مع القوى الأوروبية (الصليبية) ضد الدولة العثمانية ·

ولكن هناك عوامل أخرى ساعدت على اقناع جنكنسون نفسه بأن الوقت لم يحن بعد لفتح التجارة — وان ثبت امكانية ذلك — مع فارس عبر روسيا ، وأهم هذه العوامل :

١ — الاضطرابات العديدة التى كانت تتعرض لها فارس حينذاك ·

٢ — انتشار القراصنة فى بحر قزوين ·

٣ — ان طبيعة محاولة جنكنسون كان يغلب عليها شكل المغامرة عن كونها محاولة تجارية محددة الأهداف ·

وقعت بعد ذلك الاتصال بين جنكنسون وطهمسب أحداث وتطورات عالمية جعلت اتصالات الانجليز بفارس تنتقل من المجال الفردى الى المجال الدولى ، وعلى رأس هذه الأحداث والتطورات :

١ — المعاهدة العثمانية الانجليزية ١٥٨٠ : لقد كانت محاولات الانجليز لفتح التجارة مع فارس غير قاصرة على هذه الدولة الإسلامية بل كان نشاط جنكنسون فى بلاط السلطان العثمانى لا يقل قوة عن نشاطه لدى الشاه ، وحصل كذلك من السلطان العثمانى على فرمان بحرية التجارة دون أن ينفذ تنفيذا كاملا ، ولكن تزايد النشاط التجارى الانجليزى مع الدولة العثمانية الى الدرجة التى أصبح من الضرورى وضع اتفاقية تنظم العلاقات التجارية بين الدولتين العثمانية والانجليزية وتم هذا فى معاهدة ١٥٨٠ ·

٢ — وفى العام التالى لعقد تلك المعاهدة البريطانية العثمانية تشكلت شركة الليفانت (٢) كنتيجة لتلك المعاهدة · وأخذت العلاقات الاقتصادية الانجليزية العثمانية تنمو بسرعة ·

---

(١) M. Sykes, A History of Persia, Vol. 2.

(٢) The Leuant Co.

٣ — بعد ذلك بسبع سنوات فقط هزم الأسطول البريطانى الأسطول الأسبانى (الارمادا) فى ١٥٨٨ وفتحت البحار على مصراعيها أمام الأسطول البريطانى سواء البحر المتوسط أو الالتفاف حول أفريقيا بطريق راس الرجاء الصالح الى المياه الإسلامية الجنوبية والى الشرق الأقصى،وتألفت فى أعقاب ذلك بعدة سنوات (أى ١٦٠٠) شركة الهند الشرقية البريطانية East India Co. التى سيكون لها دور ضخم فى بناء أكبر امبراطورية استعمارية انجليزية فى الشرق الأوسط والشرق الأقصى •

بعد هزيمة الارمادا وبعد ان أصبحت البحار مفتوحة أمام الانجليز ، تعددت رحلات المغامرين والتجار وأصحاب الأعمال الى مختلف أجزاء بلاد الشرق بحثا عن الأعمال المجزية المرتب أو التجارات المربحة • ومن بين هؤلاء المغامرين المحترفين اثنان من الأخوة هما انتونى وروبرت شيرلى Anthony & Robert Sherley اللذين رحلا الى بلاط الشاه عباس الكبير ، والتقيا به فى الوقت الذى كان فيه يستعد لغزو الأوزبك •

كان الشاه عباس الكبير على ذكاء يمكنه من أن يدرك أن (الفرنجة) أصبحوا متفوقين فى ميدان الحرب ، وخاصة فى ميدان الأساطيل البحرية المدججة بالمدافع ، والجيوش التى تعتمد على سلاح المدفعية • وكان أمام عينى الشاه عباس الكبير سلسلة من الأدلة الواضحة التى ثبت فيها أن الجيش الذى يعتمد على الأسلحة النارية هو الذى يكسب المعركة حتى ولو كان قليل العدد : كانت هناك جالديران ، وهزيمة الأوزبك بفعل المدفعية ، وتفوق البرتغال بفعل أسطولهم الملىء بالمدافع ، وتفوق أكبر امبراطور المغول فى الهند — بفضل مدافعه [١] •

لقد كان الشاه عباس الكبير فى حاجة الى خبراء ليتولوا اعادة بناء سلاح المدفعية فى جيشه ويدربون رماة البنادق فيه • وها قد أتى اثنان على هذه الصفات العسكرية • فأسند اليهما أمر اعادة تنظيم سلاح الخيالة والمدفعية • وكان من نتيجة ذلك أن أحرز الجيش الفارسى انتصارات كان مشكوكا فيها بدون هذا التجديد •

أدى نجاح انتونى شيرلى فى المهمة العسكرية ، الى ان يسند اليه الشاه عباس

---

(١) أنظر الباب الثالث •

مهمة سياسية خطيرة ، ألا وهى الاتصال بالملوك الأوروبيين • وحثهم على عقد تحالف مع شاه فارس ضد الدولة العثمانية•وغادر انتونى شيرلى فارس فى ١٦٠٩ مزودا بفرمانات تعطى للأوروبيين امتيازات تجارية واسعة • وزار انتونى شيرلى بولندا وألمانيا وروما ووصل الى انجلترا فى ١٦١١ ولكن هناك فى انجلترا واجه معارضة شديدة من جانب شركة الليفانت البريطانية Levant Co. اذ كانت تعتقد أن جهـــوده السياسية والتجارية تهدف الى فتح باب التجارة مباشرة بين انجلترا وفارس بشكل يضر بتجارة الشركة فى منطقة حوض البحر المتوسط • ولقد كانت خطط (شيرلى) التجارية تهدد فعلا مصالح الشركة سالفة الذكر • وعاد (شيرلى) الى فارس دون أن يحقق شــيئا جديرا (١٦٢٣) •

وكانت هناك اتصالات انجليزية من جهة أخرى بالشاه عباس الأول • عن طريق الجناح الانجليزى الذى وصل الى الهند عن طريق راس الرجاء الصـــالح واعنى بذلك شركة الهند الشرقية • فقد اثبتت الشحنات التجارية الأولى التى قامت بها هذه الشركة أن المنطقة تستطيع أن تستوعب الكثير من الانتـــاج البريطانى ، ولكن كانت تقديراتهم الأولية لكمية البضائع الانجليزية اللازمة لأسواق الهند مبالغا فيها حتى لقد تراكمت فى (وكالاتهم) فى موانىء الهند دون تصريف الأمر الذى جعل رجـال الشركة يبحثون عن موانىء جديدة لتصريف منتجاتهم ، وتطلعوا الى موانىء الخليج العربى ، على اعتبار أن فارس والعراق يمكنهما استيعاب هذا الفائض من أكداس التجارة الانجليزية •

وكان من أسباب قلة اقبال أهالى الهند على البضائع الانجليزية ــ رغم جودتها ــ أن الأقمشة الصوفية تشكل جانبا كبيرا منها ، بينما مناخ القارة الهندية الحار يجعـل الرواج للأقمشة القطنية البيضاء الرخيصة لا للأقمشة الصوفية الغالية الثمن •

وأثناء ذلك علم رجال شركة الهند الشرقية البريطانية من أحــد الانجليز الذين خبروا فارس ويدعى Steel ستيل أن مناخ هذه البلاد القارص على المرتفعات يتيح فرصا واسعة لبيع الأقمشة الصوفية البريطانية • هذا فضلا عن أن الشتاء على الهضبة الفارسية أطول نسبيا مما يتيح فرصا أوسع للاستهلاك •

لم تكن نصائح ستيل Steel بقاصرة على فرص بيع الصوف فقط بل فتح أعين

التجار الانجليز الى مجال هام من مجالات التجارة مع فارس ، الا وهى تجارة الحرير .

كان الانجليز يشترون من قبل الحرير الفارسى من حلب وكانت أسعاره هنـاك غالية ، واشار ستيل Steel الى أن الاتصـال المباشر بفارس يمكن الانجليز من شراء الحرير بنصف ثمنه فى حلب ، فضلا عن انه يمكن بيع الصوف وشراء الحرير بثمنه .

التقط مدير وكالة الهند الشرقية البريطانية فى سورات (بالهند) هذه النصيحة ، وبعث ستيل Steel نفسه وآخرون الى فارس فى بعثة للتفاوض مع الشاه عباس الكبير من أجل الحصول على فرمان بحق المتاجرة فى بلاد الشاه .

دارت المفاوضات بين البعثة الانجليزية والشاه فى ظروف ملائمة حيث أن الشـاه كان قد حصل على مكاسب عسكرية كبيرة بفضل الخدمات التى قدمها اليه السـير (انتونى شيرلى) . وكان طبيعيا أن يبذل انتونى شيرلى ما فى وسعه من أجل اقنـاع الشاه بالأرباح المجزية التى سيحصل عليها اذا ما فتح بلاده للتجارة الانجليزية .

ونتيجة لهذه المفاوضات وتلك الجهود أصدر الشـاه عباس الكبير فرمانات ثلاث للانجليز . واختار الانجليز جزيرة (جسك) الواقعة على مقربة من الشاطىء الفارسى فى الخليج العربى لتكون ميناء تصديرهم واستيرادهم،وذلك لأن البرتغاليين كانوا يسيطرون على هرمز ، ومستعدين لكى يضعوا ما يستطيعونه من عقبات أمام التجارة البريطانية .

ولكن التجار الانجليز كانوا يريدون كذلك أن يشتروا كميات كبيرة من حـرير فارس . وكانت تجارة الحرير تجارة يحتكرها الشاه الذى كان معنيا جدا بتصديره عن طريق الخليج العربى لسببين رئيسيين :

١ ــ حرمان الأتراك العثمانيين من الضرائب الجمركية التى كانوا يجبونها على تجـارة الحرير المارة بممتلكاتهم .

٢ ــ مساعى الشاه عباس الكبير للحصول على أسعار أعلى وقد عرض سير أنتونى شيرلى على الملك فيليب الثالث ــ ملك أسبانيا والبرتغال حينذاك ــ أن يشترى الحرير الفارسى ، ولكن الملك الأسبانى لم يستجب لهذه الدعوة .

وعندما درس تجار شركة الهند الشرقية البريطانية الموضوع رأوا أن الطرق طويلة

وخطيرة ، وان التجارة غير مأمونة ، بل وقد تضر بالمصالح التجارية البريطانية فى الدولة العثمـــــــانية ٠

وعندما عاد ستيل Steel الى أصفهان كان شيرلى قد عـاد اليها كذلك ، وكان مستعدا لأن يبدأ بعثة جديدة الى بلاط أسبانيا ٠

والذى حسم الموقف هو أن المسئولين عن الوكالات الانجليزية فى الهند اجتمعوا فى (سورات) لدراسة الموقف على الأسس والظروف التالية :

١ ــ الحرب الفارسية العثمانية ٠

٢ ــ مغادرة سير انتونى شيرلى فارس الى اسبانيا ، وكان المسئولون عن شركة الهنـد الشرقية البريطانية يشكون فى نواياه ازاء مصالح الشركة التجارية فى فارس ٠

٣ ــ الحاجة الملحة الى أسواق لبيع الأقمشة ٠

قرر هؤلاء المسئولون أنه لا بد من ارسال البضائع الى فارس كمحاولة اختبارية لعلها تنجح،وبعثوا بالسفينة جيمس James الى جسك وبدت الأمور فى الخليج العربى بين الشاه والبرتغاليين تزداد تعقيـــدا ٠

فبينما كان سير انتونى شيرلى فى مدريد يفاوض البلاط الأسبانى بشأن العلاقات التجارية الأسبانية الفارسية ، كانت هناك بعثة سياسية أسبانية تزور بلاط الشـــاه عباس الكبير وكانت هـــذه البعثة برئاســـة (دون جارسيا دى سلفاى فيجـــارول Don Garscia de Silvay Figuerol) ومكلف بالحصول من الشاه على تأكيد باحترام السيادة الأسبانية (البرتغالية) على جزيرة (هرمز) ٠

قابل الشاه البعثة مقابلة طيبة ، ولكنها لم تحصل منه على الغرض المنشود ٠ فقد كان الشاه يضمر لهرمز أمرا ٠٠

لقد ادرك الأسبان والبرتغاليون ان هناك تطورات جديدة تتوالى على منطقة الخليج العربى قد تضر بمصلحتهم خاصة بعد أن علموا بأمر وصول السفينة البريطانية جيمس James الى جسك ، فارسلوا حملة بحرية الى هناك الا ان الصدام لم يقع لمجرد أن السفينة جيمس كانت قد غادرت جسك عائدة الى سورات٠ولكن بدا واضحا أن الصدام

البرتغالى الانجليزى اصبح وشيك الوقوع ٠ فضلا عن أن الصدام الفارسى ـ البرتغالى كان قد بدأ فعلا بين الأسطول البرتغالى والموانىء الفارسية المطلة على الخليج العربى ٠

وتحولت الأزمات المحلية بين الفرس والبرتغاليين الى هجمات متبادلة بين الطرفين حتى لقد أصبح من المعتاد ان ينهب أسطول البرتغال ميناء فارسيا ، بينما يكون جيش فارسي فى مكان آخر قد ضرب الحصار على قلعة برتغالية ٠ وكان الفرس يركزون على طرد البرتغاليين من قلعتهم الحصينة فى (قشم) ويبحثون عن وسيلة لطردهم من معقلهم الحصين فى (هرمز) وخلال هذه الصراعات المتفرقة ادرك المسئولون الفرس حقيقة هامة وهى ان التغلب على البرتغاليين يتطلب أسطولا وحيث أنه لم يكن للفرس أسطول فى مياه الخليج العربى أصبح من اللازم أن يستعينوا باسطول شركة الهند الشرقية البريطانية فهو الذى يمكن الاعتماد عليه فى مثل هذه الظروف التى أصبح فيها البرتغاليون يمثلون العدو المشترك للطرفين ٠

كان « الله وردى خان » حاكم (اقليم فارس) رجلا سياسيا محنكا ٠ واخذ يحذر الانجليز من أن تقاعسهم عن تقديم المعونة اللازمة ضد العدوان البرتغالى لن يضر فقط بالعلاقات الفارسية الانجليزية ، وانما سيحرم الانجليز أنفسهم من تجارة الحرير ٠ بل لقد هددهم بأنه سيصادر كميات الحرير التى كانت فى طريقها عبر فارس اليهم ٠

كان هذا التهديد بالنسبة للانجليز خطيرا للغاية اذ سيحرمهم مصدر ربح وفير ، ووجدوا أن التعاون مع الفرس ضد البرتغاليين فى هذه الظروف سيفيدهم لو انتهى الأمر بهزيمة البرتغاليين ٠

دارت المفاوضات بين الفرس والانجليز عما ستكون عليه هذه المحالفة العسكرية ، واخيرا توصل الطرفان الى اتفاقية عقدها الانجليز مع المندوب الفارسى (امام قولى خان)٠

نصت الاتفاقية البريطانية ـ الفارسية على :

١ ـ يدفع الفرس نصف تكاليف الحرب ويدفع الانجليز النصف الآخر ٠

٢ ـ اقتسام متساو للدخل الجمركى فى هرمز بعد الاستيلاء عليها ٠

٣ ـ اقتسام متساو للغنائم ٠

٤ – تسليم الأسرى المسيحيين للانجليز وتسليم الأسرى المسلمين للفرس ٠

لم يكن هناك ما يمنع الشاه من أن يعلن الحرب على البرتغال ، الا ان مديرى شركة الهند الشرقية البريطانية وجدوا فى شن الحرب على البرتغال حرجا كبـــيرا ، اذ كانت البرتغال وأسبانيا حينذاك فى حالة سلام مع بريطانيا ، ومن ثم يجب على الشركة التزام سياسة حكومتها ، ولكن هنا التزمت الشركة مصالحها اولا وقررت مقاتلة البرتغاليين فان نجحوا كسبوا عطف حكومتهم لما سيحصلون عليه من أرباح ، وان فشلوا عليهم أن يتحملوا مسئولية هذه المجازفة السياسية والعسكرية ٠

اتجه الاسطول الانجليزى الى هرمز اولا على احتمال أن الأسطول البرتغالى سيواجه التحدى بمثله ، ولكن الأسطول البرتغالى تجنب الاشتباك ، فصعدت وحدات الأسطول الانجليزى الى قشم وقصفت قلعتها البرتغالية حتى استسلمت ٠ ثم عاد الأســـطول الانجليزى الى (هرمز) وخاض معركة كبيرة ضد الأسطول البرتغالى فى الوقت الذى كان فيه جيش برى كبير فارسى يستولى على الجزيرة قطعة قطعة ٠ وانتهت المعـــارك باندحار البرتغاليين (١٦٢٢) وانتقلوا من هرمز الى مســقط ولكن لم يلبث أن تعاون الهولنديون – الوافدين الجدد – مع الانجليز ضد البرتغاليين ومع أنهم لم يكسبوا معركة حاسمة – الا ان قوة البرتغاليين اخذت فى التدهور وخاصة بعد أن طــرد (اليعاربة) البرتغاليين من مسقط فى ١٦٥٠ م ٠

لقد بدأ الشاه عباس الكبير فى عام ١٦٢٢ / ١٦٢٣ وكأنه فى أوج عظمته ٠ فقد طرد البرتغاليين من هرمز ، واستولى على العراق من يد العثمانيين ويبذل الجهود ليستولى على البصرة ، وبدا كذلك ان الانجليز أحرزوا نصرا حاسما ، ولقد كان طرد البرتغاليين من هرمز حدثا ضخما لدى الانجليز ٠ وارسلت الحكومة الانجليزية الى الشاه بعثـــة سياسية كبيرة برئاسة سير دودمور كوتون Sir Dodmore Cotton ومعه سير انتونى شيرلى لتهنئة الشاه على ذلك الانتصار الذى كان ثمرة التحالف الفارسى – الانجليزى ، ولتهنئته كذلك على استيلائه على العراق ، وليعرض على الشـــاه خططا جديدة لزيادة مجالات النشاط التجارى الانجليزى فى بلاد الشاه ٠

ولقد ابدى الشاه تفهما لرغبات الانجليز فى زيادة حجم تجارتهم فى الحرير بالذات

ووعد كوتون Cotton بأن يتسلم الانجليز فى مطلع كل كانون ثانى (يناير) فى بنـــدر عباس عشرة آلاف بالة من الحرير ·

وأغلب الظن أن هذه العروض السخية التجارية من جانب الشاه انما كانت لتحقيق الهدف السياسى والعسكرى الذى كان يسعى اليه منذ زمن طويل الا وهو تحالف بينه وبين ملوك أوروبا ضد الدولة العثمانية · لقد كان الشاه يدرك ، عن حق ، أن جولاته مع السلطان العثمانى لم تنته،وان الخير له كل الخير فى أن يفتح على العثمانيين جبهة جديدة تخفف من وطأتهم على الجبهة العراقية · ولكن اوروبا لم تكن مستعدة لمثل هذا التحالف باستثناء الامارات الايطالية الصغيرة وخاصة امارة تسكانا والبابوية اللذين كانا يضعان الآمال الكبار على تحالف يتم بينهم وبين فخر الدين المعنى ـ أمير لبنان ـ وشاه العجم لشن حرب كبرى ضد السلطان العثمانى ، ولكن هذه المخططات ظلت فى حيز الآمـــال والمكاتبات ولم تخرج الى حيز التنفيذ ·

ومن ناحية أخرى لم يكن البلاط الانجليزى نفسه مستعدا لأن يصعد علاقاته مع الفرس الى مستوى التحالف الكامل ضد جميع أعداء الشاه،خاصة وان للانجليز مصالح تجارية حيوية فى الدوله العثمانية ترتبط بنشــاط شركة الليفانت · ولذلك لم يستطع الشاه ان يكسب تحالف الانجليز ضد العثمانيين · بل لقد آثر الانجليز فى الخليج العربى ـ بعد ان حققوا أهدافهم بطرد البرتغاليين من هرمز ـ ان يعيدوا الهدوء الى المنطقة بقدر الامكان ، حيث أن الازدهار التجارى لا يتم الا فى أوقات السلم ، واستمرار العمليـــات العسكرية يعنى ضياع فرص التجارة مع فارس ، وهو السبب الذى خاض من أجـــله الانجليز الحرب ضد البرتغال ، ولذلك عقدوا صلحا مع البرتغـــال فى ١٦٢٥ أدى الى ازعاج الفرس والى فتور العلاقات بينهم وبين الانجليز ·

ومما زاد من تعقيد الموقف امام الانجليز فى الخليج العربى ظهور الأسطول الهولندى هناك بعد هزيمة البرتغاليين فى هرمز · حقيقة تعاون الهولنديون مع الانجليز فى فترة من الفترات ضد البرتغاليين ، ولكن كان عمر هذا التحالف مرتبطا بكون البرتغاليين خطر مشترك على الطرفين · فلما ضعف البرتغاليون جدا فى الخليج العربى ، ونمت التجارة الهولندية فى فارس اصبح الصدام بين الهولنديين والانجليز أمرا لا مفر منه ·

كان نشاط الهولنديين التجارى فى فارس فى أول الأمر على حساب البرتغاليين ، وفى ١٦٢٣ حصل هيبرت فينش Hubert Vinich على فرمان [١] من الشاه عباس الكبير يعطيه حق فتح وكالة فى بندر عباس ، الميناء الفارسى الناشىء فى الخليج العربى ٠

والشاه عباس عندما سمح للهولنديين بمقتضى ذلك الفرمان بأن يشتروا ويبيعوا فى مختلف أجزاء دولته دون أن يدفعوا ضرائب جمركية يكون قد اضر — من وجهة نظر الانجليز — بالمصالح الانجليزية ضررا بليغا ٠ فضلا عن أن ذلك يعتبر — من وجهة نظرهم أيضا — اخلالا بشروط اتفاقيتهم معه فى ١٦٢١ ٠ بل تصاعد التفوق الهولندى بسرعة كبيرة فى مجالات التجارة مع فارس لانهم نجحوا فى تحويل حق المتاجرة الى شبه احتكار لتجارة تصدير الحرير من فارس ، ولعل الحرب الأهلية فى انجلترا هى التى أعطت الهولنديين فسحة كبيرة من الوقت تمكنوا خلالها من توطيد علاقاتهم مع فارس وتوسيع نطاق تجارتهم معها ٠ ولكن هذا التفوق الهولندى لم يلبث ان تلاشى بعد أن استعاد الانجليز قدراتهم على العمل فى مياه الخليج العربى وفى فارس ٠ ولكن لم يلبث أن ظهر منافس جديد قوى للانجليز فى الخليج العربى وهو الأسطول الفرنسى ، ولكنه لم يستمر طويلا ، وان كان الفرنسيون سيظهرون بقوة فى فارس بعد ذلك ٠

هكذا كانت علاقات الشاه عباس الكبير بالقوى الأوروبية التى ظهرت فى الخليج ، وبالدولة العثمانية ، وبدا انه كسب جولات مهمة ، ولكنها لم تكن الجولات الحاسمة ٠

وشهرة الشاه عباس الكبير لا تكمن فقط فى انتصاراته العسكرية ، وانما كذلك فى اصلاحاته الإدارية ، وفى العناية بخطوط المواصلات عبر الامبراطورية اذ شيد العديد من الخانات على طول طرق لقوافل ٠

واما بناء عاصمة جديدة (أصفهان) فمن اعماله المجيدة ٠ وفى ضاحية لها وضع الشاه عباس اساس قرية ارمنية اصبحت فيما بعد مقر البعثات الدبلوماسية الأجنبية ومقر البيوتات الأوروبية الكبيرة ٠ ولا شك أن تسامح الشاه الدينى كان عاملا جوهريا فى نمو هذه القرية ، وفى نمو التجارة الأوروبية فى البلاد ٠

---

(١) أنظر نصه فى :
Hurwity; Diplomacy in the Near and Middle Gast. Vol. 1

والى جانب تسامحه الدينى ازاء مسيحيى أوروبا ، كان متشــبثا كل التشبث بالمذهب الشيعى الاثنى عشرى ، ولكن كان تفكيره بدأ يتحول الى نوع من الاقليمية حتى فى مجال التعصب للمذهب الذى يعتنقه . فقد كان يلح فى جعل (مشهد) - وبها ضريح الإمام الرضا - المزار الأول والأقدس للشيعة . فكان يذهب اليه ماشيا على قدميه قاطعا مئات الأميال فى سبيل الدعاية لتحقيق هدفه المذهبى الذى كان وراءه دوافع اقتصادية وسياسية واضــحة .

فان تحويل تيار الحج من العتبات المقدسة العراقية الى مشهد يبقى على كميات ضخمة من النقد الذهبى والفضى فى داخل البلاد ، فضلا عن ان ذلك سيجلب أعدادا أكبر من الحجاج الشيعة الى مشهد . وهذا كله بالتالى يؤدى الى حرمان العراق العثمانى من الدخل الكبير الذى كان يحصل عليه من وراء قوافل الحجاج الفرس التى كانت تتوافد على العــراق .

بينما كان الشاه عباس ناجحا الى حد بعيد فى سياسته الخارجية ، كانت معاملته لأفراد أسرته ، وحتى معاملته لأولاده تدل على تطرف شديد للغاية ، وان كان هــذا التطرف قد أصبح مألوفا فى البلاطات الإسلامية فى القرن السادس عشر المغوليــة والعثمانية بصفة خاصة . فقد قتل الشاه عباس الكبير ابنه (صفى ميرزا) وسمل عينى أثنين آخرين من أولاده .

لقد كان الشاه الكبير يخشى من صميم قلبه أن يظهر من أسرته من يفرض نفسه عليه وينتزع العرش منه . وكانت سياسته تلك من الشدة والقسوة لدرجة أعمت الشاه نفسه عن الكوارث التى ستحل بدولته من بعده حيث لن نجد من هو كفء ليتولى الحكم من بعده ، وهذا ما حدث فعلا . فقد أوصى بان يخلفه على العرش حفيده (صفى) الذى حكم فارس من (١٠٣٨ - ١٠٥٢ هـ) (١٦٢٩ - ١٦٤٢ م) ولكن متأثرا بفظاظة جده وسار على خطته المريضة .

فبعد أن وضع مقاليد الحكم فى يده ، أمسك صفى بالسيف وانهال به على أفراد أسرته أمراء كانوا أم أميرات . وقتل الغالبية العظمى من مستشارى جده ، حتى لقد قتل إمام قولى خان المخطط الحقيقى لطرد البرتغاليين من هرمز .

وكان طبيعي ان تسير الدولة الفارسية نحو الانحدار فى عهد خلفاء الشاه عباس :

١ - صـــــــفى	١٦٢٩ - ١٦٤٢
٢ - عباس الثـــانى	١٦٤٢ - ١٦٦٧
٣ - ســـــليمان	١٦٦٧ - ١٦٩٤
٤ - حســــــين	١٦٩٤ - ١٧٢٢

ومن أهم الأحداث الرئيسية التى وقعت أيام الشاه صفى تلك الحملة الكبرى التى شنها السلطان مراد الرابع لاسترداد العراق ١٦٣٨ .

أما عباس الثانى فقد عاش فى اللهو دون أن يلتفت الى مصالح الدولة الا قليلا . ولم يحرك الشاه سليمان ساكنا عندما علم أن الهولنديين استولوا على قشم ، ولا عندما سمع عن اجتياح غارات الأوزبك لاقليم خراسان ، ولا عندما هدد اســــطول اليعاربة - الذين حرروا بلادهم من البرتغاليين - ميناء بندر عباس نفسه . اذ فضل حياة الحريم على مسئولياته كحاكم اعلى للبلاد .

وعاشت إيران فترة هدوء أيام الشاه سلطان حسين ، ولكنه كان الهـــدوء الذى يسبق العاصفة . وعندما هبت العاصفة لم يكن فى مقدور رجالات الفرس أن يتصدوا لها ، ونعنى بذلك الغزوة الأفغانية الكبرى لفارس .

واذا ما قمنا بعملية تقييم للأسرة الصفوية فاننا نجد :

١ - ان الأسرة الصفوية بدأت على يد شخصية مؤسسة نشـطة (الشاه اسماعيل) ، وبلغت الذروة أيام عباس الأول الذى وطد دعائمها ، وبعدها اخذت تنهـار حتى سقطت فى عام ١٧٢٢ . وهذا هو شأن الأسرات الحاكمة .

٢ - ان الأسرة الصفوية لم تكن ذات اهداف توسعية كبــرى كتلك التى كانت لدى جارتها الدولة العثمانية ، وكانت غزوات الأسرة الصفوية خارج إيران لا تتعـدى العراق وافغانستان والأوزبك .

٣ - ركزت هذه الأسرة المذهب الشيعى الاثنى عشرى على أساس سياسى يكاد أن يتخذ

شكلا قوميا . الأمر الذى منح هـــذه الأسرة مكانة هامة فى قلوب الشعب وفى تاريخــــه .

٤ — ان هذه الأسرة كانت تسير على أساس الحكم المطلق الإسلامى فى القرون الأخيرة الذى يعطى الشاه كل السلطات دون أن تكون هناك مؤسسات لتراجعه .

٥ — ان عهد الأسرة الصفوية جعل من إيران حدا فاصلا بين قوى السنة فى الشرق منها وقوى السنة فى الغرب منها .

٦ — ان تعاون الأسرة الصفوية أو رغبتها فى التعاون مع الأوروبيين ضد الدولة العثمانية جعلها — بمقارنتهــا بالدولة العثمانية — فى الدرجـــة الثانية فى ترتيب الدول الإسلامية الكبرى .

★ ★ ★

الغزوة الأفغـانية لفارس

(مير محمود وأشرف)

١ ـ مير محمـــــود

توصف افغانستان (١) أحيانا ، ومع تجاوز كبير ، بانها سويسرا آسيا من الناحية الجغرافية ، رغم الطبيعة الجبلية فرضت نفسها بقوة على تاريخ أفغانستان بصـفة خاصة . وتاريخ المنطقة بصفة عامة ، فقد كانت موطنّ قبائل تعتصم بالجبال كلما شعرت بخطر غزو كبير ، وتهبط السهول غازية كلما استشعرت ضعفا فى جيرانها ، كذلك شهدت افغانستان فى الماضى الجيوش الكبيرة التى كانت تريد الوصول الى الهند من أبوابهـا الشمالية ، اما بعد استخدام طريق الرجاء الصـــــالح بين الشرق والغرب ، أصبحت الغزوات الموجهة الى الهند تضرب أبوابها البحرية أيضا ،

ومن بين قبائل افغانستان العديدة توجد قبيلتان رئيسيتان هى :

١ ـ الدورانى Durrani فى الأجزاء الشرقية من افغانستان واطلق عليهم أسم العبدلى فيما بعـــــد ،

٢ ـ غيلزاى Ghilzai فى الأجزاء الجنوبية من افغانستان ، وهم عشائر مختلطة الجنس وكانوا من اقوى عشائر قندهار ،

بينما سكان المناطق الواقعة الى الشمال من الهنـــد فمن الأوزبك ، واما قلب أفغانستان نتسكنه القبائل المغولية الرئيسية التالية :

١ ـ هـــــازار Hazara
٢ ـ تايمـــــانى Taimany
٣ ـ شـــهر ايمـــاك Chahar Aimack

---

(١) يطلق على سكان افغانستان أسم (الباثان Pathan) ويتكلمون البشتو Pashtu وهى لهجة أكثر منها لغة ، فالفارسية هى اللغة الرســــمية ولغة الأدب ، ويتكلمها كل الأفغـــــانيين ،

وتسكن منطقة هراة قبيلة آرية هى طاجق Tajik ، كما توجد تشـــكيلة من القبائل الآرية القديمة الى الشرق من كابول فى واخان ، وروشان ، وكافرستان ، هذا الى جانب بقايا عشائر آرية لجأت الى جبال أفغانستان وفى وديانها .

والغالبية العظمى من هذه العشائر ، وخاصة القبائل الآرية ، والأوزبك يدينون بالإسلام على مذهب السنة . بينما نجد العناصر الفارسية فى عشيرة (هازار) من الشيعة . وكما كانت هناك اتصالات قوية بين الفيلزاى وأباطرة الهند من السنة ، كانت هنـــاك علاقات بين الفرس والعناصر الشيعية القليلة فى أفغانستان .

وكانت قوى أفغانستان العشائرية قد وجدت نفسها بين عملاقين كبيرين أحدهما الى الجنوب والآخر الى الشرق : امبراطورية المغول فى الهند ، والأسرة الصـــفوية فى فارس . وكانت قوى أفغانستان خلال القرن السادس عشر والســابع عشر مفككة غير قادرة على دفع أى من هاتين القوتين عنها الا بشق الأنفس ، وغالبا ما تقع فى يد مغول الهند تارة ، وشاهات الفرس تارة أخرى .

فقد كانت منطقة أفغانســــتان هدفا لبابر ، ولاكبر ، وهميون آياطرة دولة المغول (١) . واستطاع هميون ان يستولى على قندهار بمساعدة جيش فارسى فى ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م ، ولبرد له الشاه طهمسب الجميل تنازل له عنها دون أن يفرط فيها تفريطا كاملا . وتمكن الشاه عباس الكبير من أن يسيطر على قندهار . ونظرا لضعف فارس من بعده ، تمكن الأوزبك من الاستيلاء عليها ، ليطردهم الامبراطور المغولى «شاه جهان» منها فى ١٠٢١ هـ / ١٦٣٤ م ، ليسلمها للشاه عباس الثانى فى ١٠٣٨ هـ / ١٦٥٠ م . كذلك شن عليها امبراطور المغول (أورانجزيب) حملة كبيرة قادها بنفســـه ، الا أن حصانة المدينة والاستماتة فى الدفاع عنها حالت دون وقوعها فى يده . ومع هذا لم تكن قندهار قد استكملت بعد قدرتها على استقلال ، وكانت تعتبر فى عهد « الشاه حسين » جزءا من الدولة الفارسية . ولكن حدثت تطورات فى المدينة ادت الى ارتفاع الأصـــوات المطالبة باســـــتقلالها .

---

(١) أنظر تفاصيل تاريخها فيما بعد .

فقد أسند الفرس حكم قندهار الى أمير جورجيا المسيحى (جوركين) الذى كان تابعـــا للشـــــــاه الفارسى • وزحف جوركين على رأس جيش فارسى • وحيث أن قوة الجيش المهاجم كانت متفوقة للغاية على قدرات المدافعين فقد قبلوا الخضوع للسيطرة الفارسية • ولكن المنتصرين عاملوا المدينة وأهالى المنطقة على اعتبار أنهم فى أرض فتحتها القوات الفارسية عنوة • وأصبح الأهالى كأن لا حقوق لهم • وجار الأهالى بالشكوى وبعثوا بالمكاتبات العديدة الى بلاط أصفهان ضد طغيان (جوركين) •

ونظرا لأن البلاط الفارسى لم يستمع الى تلك الشكايات ، وأن أمور قندهار تركت ليدبرها جوركين كيفما شاء ، قرر جوركين أن يقضى على هذا التمرد عن طريق القضاء على الزعامات التى تحرك الأهالى • وكان من أبرز المتمردين ميرويس الذى كان مسئولا عن إدارة أمور بلدته قندهار • فقبض عليه (جوركين) وأبعده الى فارس•ولكن ميرويس كان رجلا ذكيا وكان الحق الى جانبه ، فضلا عن تمتعه بثراء كبير واستعداده للانفاق من أجل اثبات حقه وحق أهالى المدينة فى أن يعيشوا أحرارا بعيدا عن سيف الانتقـــــام الصليبى • ولقد نجح فى أن يصبح — خلال اقامته فى أصفهان — رجل الشاه المفضل • ولم يلبث ان غادر فارس الى مكة المكرمة • وهناك عرض قضيته على رجـــالات الدين فكتبوا له فتوى بان الحكم الصفوى أصبح خطرا يجب مقاومته والقضـــاء عليه قبل أن يقضى على الإسلام فى المنطقة •

وعاد ميرويس الى وطنه ، وصادف حينذاك وجود بعثة أرســلها القيصر الروسى المشهور بطرس الاكبر ، ورحبت به تلك البعثة ، واستطاع أن يقيم معها علاقات ودية ، بل استطاع بمهارته الشخصية أن يبعد (جوركين) عن الحكم وأن يحل هــــو محله (١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م) •

ولكن جوركين كان رجلا طموحا ، لا يترك الأمور هكذا تسير ضد رغباته • فقرر أن يفرض حربا على « ميرويس » قبل أن يستكمل استعداداته•وقدم طلبا كان من المستحيل أن يلبيه ميرويس ، مع العلم ان ميرويس كان فى الواقع مستعدا للوصول الى اتفاق سلمى مع خصمه « جوركين » ، ولكن الأخير أبى الا أن يحسم الخلافات بحد السيف • ومن ثم كان على ميرويس أن يتخلص من جوركين بأية وسيلة فاستخدم الحيلة حتى قتـله غدرا• ولقد كان مصرعه فعلا من العوامل الرئيسية التى ثبتت أقدام ميرويس فى قندهار•

فلقد كان البلاط الفارسى غير مستعد لأن يبعث بالجيوش ضد ميرويس ،.وانمـــا كان يسعى الى التوصل الى اتفاقية تترك الحكم « لميرويس » ، وتضمن بقاء قندهار فى اطار الدولة الفارسية • الا أن « ميرويس » شعر ان استعداداته قد استكملت وان البـلاط الفارسى أصبح أعجز من أن يزحزحه ، بل تحول « ميرويس » الى توجيه الاتهـــامات والتهديدات لبلاط الشـــاه نفسه •

فعندما بعث البلاط الفارسى مسئولا لمفاوضة « ميرويس » رفض الأخـــير ان يتفاوض معه وحمله تهديدا للشاه جاء فيه :

« لتكن واثقا من أن ساعة الانتقام قد أزفت • وأن الأفغانيين البواسل هم من اختارهم الله لمعاقبة الفرس المارقين » •

لقد أدرك البلاط الفارسى أن الحرب آتية لا ريب فيها بينه وبين « ميرويس » ومع هذا لم يتخذ الا اجراءات ثانوية منها تكليف حاكم خراسان باخضـــاع المتمردين الأفغان ، الا أنه هزم أكثر من مرة •

ومرة أخرى سلط الشاه الفارسى حاكم جورجيا لضرب ميرويس للاستيلاء على قندهار • وكان خسرو خان — حاكم جورجيا — ابن أخى جوركين ، ومن ثم كان مستعدا لأن يقوم بتلك المهمة للانتقام من ميرويس ثأرا لعمه •

أدرك ميرويس ، والأفغانيون من ورائه ، أن الحرب القادمة حرب حياة أو موت ، خاصة بعد أن طالت فترة حصار خسرو خان لقندهار وخاصة عندما رفض خسرو خان استسلام المدينة وعندما رفض أن يصـــــدر اى امان للأهالى فى حالة استسلامها • فاستماتوا فى الدفاع وردوا الهجمات الفارسية على أعقابها • ولم يلبث ان وضحت قوة المدافعين ، فتحولوا من الدفاع الى الهجوم ، واستطاعوا ان يبيدوا ٢٤ الفا من جيش « خسروا » المؤلف من ٢٥ ألف مقاتل ، بل لقد سقط خسرو نفسه صريعا فى المعركة (١٧١١) •

حاول الشاه الفارسى أن يعيد نفوذه الى المنطقة بقوة الســلاح ، ولكن الجيش الذى أرسله بقيادة محمد رستم لم يلبث ان حلت به هو الآخر الهزيمة،ليعيش «ميرويس»

من بعد هذا كله حاكما مطلقا فى قندهار ، واســـــتمر كذلك حتى وفاته فى ١٧١٥ م ٠ واصبحت هذه الامارة فى عهده قوية فتية ، وأصبحت ذات تطلعـــات أبعد مما هـــو وراء حـــــدودها ٠

ومع هذا ، بدت الأمور وكأن قندهار تكسب الكثير من وراء تلك الانتصارات بعد وفاة ميرويس ، واستبداد أخيه عبد الله بالحكم دون الوريث الشرعى له ، وهو محمود الذى لم يبلغ بعد الثانية عشرة من عمره ، فقد كان عبد الله ميالا الى عقـــد الصلح مع الفرس ٠ ولعله كان يدرك أن قندهار تستطيع أن تدافع عن نفسها ضـــد الجيوش الفارسية ، ولكن الى متى تستمر فى رد الجيش الفارسى تلو الجيش ٠ هذا الى جانب أطماعه فى الانفراد بالعرش ، وهو امر يتطلب أولا وقف الحرب ضـــد فارس ٠ الا أن شروطه لعقد الصلح كانت لا توحى بأن كفة الأفغان خلال تلك المعـــارك هى التى كانت رائجة اذ اكتفى بما يلى :

١ ـ الغـــاء الجزية لفارس ٠

٢ ـ عدم ارسال أية قوات ضد قندهار ٠

٣ ـ أن يكون الحكم وراثيا فى أسرته ٠

فأدى هذا الى تذمر بين صفوف رجالات الأفغان ، ولم يلبث (محمود) واعوانه أن قتلوا (عبد الله) لأنه لم يسلب محمود حقه فى العرش فقط ، بل لأنه وضع شروطا لا تليق بالأفغانيين المنتصرين ٠ وهكذا اصبح فى حكم قندهار جناح قوى الشكيمة مستعد لتوجيه الضربات الى فارس ٠ ومثلما فعل هؤلاء الغيلزاى فعل الدورانى (العبدلى) ٠

فمن بين النتائج الهامة التى ترتبت على انتصـــارات « ميرويس » على الفرس ، واعلانه استقلاله ، أن القوى العشائرية السنية الكبرى فى المنطقة حذت حذوه ٠ اذ أعلنت عشائر (العبدلى) الثورة وتحالفت مع الأوزبك على غزو خراسان ٠

وكان تحت قيادة أسد الله (زعيم العبدلى) وحاكم هراة جيش يقدر بخمسة آلاف مقاتل ، كما كان لدى الأوزبك ١٢ ألف مقاتل ٠ حقيقة كان الفرس قد احرزوا انتصارا على الأوزبك ، الا ان « أسد الله » أصر على أن يخوض معهم المعـــركة ٠ ومع ان الجيش

الفارسى كان مزودا بالمدفعية الا أن هذه المدفعية التى قامت بواجبها فى اول الأمـر لم تلبث أن أخطأت أهدافها وصبت قنابلها على فرق الخيالة الفرس ، فتطايرت الاشاعات عن أن هناك خيانة دبرت للايقاع بالجيش وابادته ، فتشتت الجيش الفارسى متكبـــدا خسائر فادحة تاركا مدفعيته تسقط فى يد العبدلى الأفغان ، وبذلك حصل هؤلاء مثـل منافسيهم « الغيلزاى » على استقلالهم وظهرت امارة أفغانية جديدة على حدود فارس الشرقية فى هراة ولكنها لم تكن على علاقات ودية مع شقيقتها قندهار ٠

شرعت قوات العبدلى فى اجتياح خراسان ، كما قامت عشائر الليجيان Lesghian باجتياح شيروان (١٧٢١ م / ١١٣٤ هـ) وتعاونت الزلازل مع الغزاة فى تدمير المنطقة حتى أصيبت تبريز بأضرار فادحة نتيجة أحد الزلازل حينذاك ، وأشاع المنجمون الذعر فى الناس عندما رددوا ان دور أصفهان آت لا ريب فيه ٠

ورغم فداحة الخسائر ، وعظم الأخطار ، كان الشاه لاهيا عن ذلك ، وكان رجاله غير جديرين بتحمل مسئولية هذه الشدة ، هذا فضلا عن أن معنويات واخلاقيات شعب فارس كانت قد تدهورت خلال السنوات الأخيرة حينذاك ، حتى انه يمكن القـــول بأن فارس حينذاك كانت أشد بلاد العالم ضعفا سواء من جانب الحكومة أو الشعب ٠

فى مثل هذه الظروف ، يكون لدى هؤلاء الأفغان فرصا واسعة لا للاغارات على الأقاليم الشرقية لفارس فقط ، بل كذلك التوغل فى قلب فارس نفسها ٠ فعبر محمود بجيشه الصحراء ٠ وأخذ يستولى على المدن الفارسية الواحدة بعد الأخرى ٠ وكان اذا صادفته مدينة حصينة تعرقل من استمرار زحفه تركها كجيب مقاومة محاصر (١) وتابع سيره صوب أصفهان ٠

وبينما هو فى طريقه الى أصفهان قابلته سفارة فارسية ، عرضت عليه مبلغا كبيرا نسبيا من المال فى مقابل عودته برجاله الى افغانستان ٠ ولكن هـــذه المحاولة جعلت (محمود) يعتقد أن الفرس ما كانوا ليقدموا على هذا الأسـلوب الضعيف الا اذا كانوا فعلا يدركون أنهم أضعف من ان يصدوا الجيش الأفغانى ، خاصة وان هـــذا الجيش الافغانى أصبح فعلا فى قلب الامبراطورية الفارسية ٠

---

(١) هذا ما فعله بالنسبة ليزد ٠

قرر محمود الأفغانى متابعة المسير حتى عسكر على بعد اثنى عشر ميلا من اصفهان وكانت حالة الجيش الأفغانى حينذاك ، غير مشجعة على خوض المعارك الكبرى ، بسبب الخسائر التى منى بها خلال زحفه الى أصفهان ، وأمام مقاومة كرمان ويزد ، وبسبب تخلف بعض القوات عن متابعة الزحف .

وخلال هذه المسيرة الطويلة لم تنضم الى جيشه أية قوات جديدة ، وانما انضمت فقط اليه قوة من رجال زردشتيين .

وبينما كانت مدفعية الأفغانيين المحمولة على الجمال من نوع (الزنبرك) التى تطلق قنبلة أقل من رطلين ، كان الجيش الفارسى المجتمع فى اصفهان يحوى مدفعية أكثر فعالية ، وكان عدد الجيش الفارسى نفسه يعادل ضعف الجيش الأفغانى . هذا فضلا عن ان المدينة كانت كثيرة السكان واصبحت تدرك أنها مقبلة على معركة مصيرية لا بالنسبة للعاصمة فقط بل كذلك بالنسبة لفارس بأسرها .

كان هناك اتجاهان لدى القيادة الفارسية :

الأول : كان يطالب بأن يتخذ الفرس جانب الدفاع وراء اسوار المدينة .

الثانى : تزعمه حاكم عربستان الذى هز المشاعر بقوله أنه من العار على الشاهنشاه ان يتقاعس عن مقارعة السيف بالسيف وعن مقاتلة شرذمة من قطاع الطرق الأفغان فى ميدان معركة مفتوحة . وكسب والى عربستان ببلاغته وقدراته الجدلية المسئولين الى جانبه . ومما ساعده على ذلك أن مشاعر العنجهية لدى القواد الفرس احيانا تصبح من القوة لدرجة تجعلهم اقرب الى الحمق منهم الى القواد .

خرج الجيش الفارسى لملاقاة الجيش الأفغانى فى معركة جلناباد Gulnabad فى ١٣٣٥ هـ / ١٧٢٢ م . وبدأ الفرس بالهجوم ولكن رد الأفغان الهجوم ليتحول من بعد ذلك الى انهزام المدفعية ، والى وقوع المدفعية الفارسية نفسها فى يد الأفغان الذين لم يتوانوا عن إدارة هذه المدفعية لضرب المشاة الفرس . وتحول التراجع الى فرار من جانب الجيش الفارسى وبشكل مخزى جعل الأفغان يكسبون بسرعة نصرا كبيرا .

والملاحظ ان ظروف اقتفاء الجيش الأفغانى للجيش الفارسى الفار كانت مواتية تماما • ولكن هذا لم يحدث ، ولم ينطلق الجيش الأفغانى لمطاردة الفارين وهنـــاك تفســيرات لهـــذا :

١ ــ ربما كان محمود ــ وهو يعمل على أرض معادية ــ يخشى من أن يقــع جيشه فى كمـــــين •

٢ ــ وربما كذلك لأن جيش محمود آثر ان يجمع الأسلاب بدلا من مطاردة العدو ، وهذا فعلا من صفات القوات العشائرية •

٣ ــ ربما أن محمود كان ينوى العودة الى بلاده ثم غير رأيه بعد ذلك •

ومع هذا كله ، فلا شك أن اهمال محمود ورجاله فى توجيه الضربات المناســبة للفرس ، شجعت هؤلاء على أن يعودوا الى ميدان المعركة نفسه ليستردوا مدفعيتهم •

شملت أصفهان فوضى كبيرة بعد سماع أهلها بأنبـــاء كسرة الجيش الفارسى ، وشجع هذا محمود الأفغانى ليصر على فتح العاصمة الفارسية • ولكن قبل أن يركز جهده فى هذا السبيل عمل على اخضاع بعض المعاقل الرئيسية • فوضع يده بســهولة على (فرح أباد) [1] بسبب انسحاب الحامية الفارسية ، ثم هاجم محمود جلفـــا Julfa الواقعة على الضفة الغربية لنهر (زندارود) • وحيث كانت القوى التى كانت مستعدة للدفاع هناك منقسمة الى قسمين أحدهما أرمنى والثـــانى فارسى عربى وكان الصراع المذهبى بين القسمين شديدا اضطربت الأمور،واستسلم الأرمن وفرض عليهم المنتصرون شروطا قاسية من حيث غرامة تبلغ ١٤٠ الف جنيه استرلينى•ورضخ الأرمن للشرطين ، وتابع محمود هجومه على أصفهان محاولا اولا ضمان تحكمه فى جسر استراتيجى يؤدى اليها • فلما فشل فى ذلك خفف من مطالبه وكان أهمها :

١ ــ غرامة حـــــربية •

٢ ــ زواجه من أميرة فارسية •

---

(١) بناها الشاه حسين على هيئة قلعة •

٣ — تنازل الشاه له عن قندهار وخراسان وكرمان ولكن رفض الشاه هذه المطالب بينما طفق الجيش الأفغاني في جماعات ينهب القرى والمدن الصغيرة ، الأمر الذي جعل سكان هذه القرى والمدن يفرون الى صفهان . وكان هذا يحدث دون أن يهب الجيش الفارسي ليوقف الأفغانيين عن متابعة عمليات النهب المروعة .

وبينما كان الجيش قد تقاعس عن انقاذ البلاد من نهب الأفغانيين لها ، قام الشعب بالدفاع عن نفسه وعن ممتلكاته ، واستطاعت المقاومة الشعبية أن تهـزم بعض القوات الأفغانية ، بل استطاعت قوات تابعة لقرية [١] فارسية أن تأسر أخا وعما واثنين من أبناء عمومة محمود ، وعندما اتصل محمود بزعماء القرية ليتوصل الى اطلاق صراح ذويه علم بأن القرية أعدمت أسراها ، فما كان من محمود الا ان أمر باعدام ما تحت يده من أسرى الفرس ، وكانوا يعدون بالآلاف .

أخذت الأمور تزداد سوءا بين صفوف الجيش الفارسي ، وفي مختلف ارجـــاء البلاد ، الأمر الذي كان يزيد من ضعف الفرس امام الأفغان . ومن ذلك أن الشـــاه لم يعرف كيف يستفيد من العرض الذي تقدم به أمير « جورجيا » لمساعدته ضد الأفغان .

ولم يكن في استطاعة الشاه كذلك اكتشاف حقيقة رجاله المخلصين خلال هـــذه الأزمة الطاحنة . فقد كان (احمد اغا) من رجاله المخلصين فعلا وقاد جزءا كبـيرا من شعب أصفهان في حملة ناجحة ضد الأفغان . وكان الشعب الجائع قد حث (أحمد اغا) على أن يشن هذه الحملة . ولكن الشاه لم يكافئه ، بل حقد عليه فما كان من (احمد اغا) الا ان انتحر بتناول السم .

وقام ولي العهد — طهمسب ميرزا — بمحاولة يائسة لتجميع جيش جديد من نواحي قزوين ولكن هذه المجهودات كانت غير واضحة النتائج حينذاك .

وخلال هذه الفوضى الضاربة في أرجاء البلاد ، كان من الطبيعي أن تنتهز بعض الزعامات المحلية الفرصة لاعلان استقلالها عن حكومة الشاه . ومن أولئك الذين أقدموا

---

(١) تسمى هذه القرية بن أصفهان Ben Asfihan

على هذه الخطوة (مالك احمد) الذى جمع جيشا من (تون Tun) وقاتل زعيم الأفشار وقتله وأعلن « مالك احمد » استقلاله فى (تون) ٠

وبينما كان الجيش الأفغانى يحاصر اصفهان زحف « مالك احمـــد » على رأس جيش كبير الى كنبادGulnabad فارتفعت معنويات الفرس ولكن رشاه الأفغـــان بمقاطعات خراسان وسستان وبعض الهدايا القيمة فعاد ادراجه ليفرض ســـيطرته على الولايات التى حصل عليها ٠

حاول الشاه أن ينقذ عاصمته بأية وسيلة ٠ فعاد ووافق على الشروط التى سبق وقدمها محمود ٠ الا أن محمود رفض أن تكون هذه الشروط أساس الصلح على اعتبار أن الظروف قد تبدلت لصالحه ٠ وخلال هذه المفاوضات ظهر (مالك احمد) على مسرح الأحداث فكان انسحابه ضربة قاضية للشاه ، وحيث أن أصفهان كانت تمـــوت ببطء بسبب المجاعة التى جعلت الناس يأكلون لحوم بعضهم قرر الشـــاه التنازل عن العرش لمحمود وتسليم المدينة (١١٣٥ هـ / ١٧٢٢ م) ٠ وهـــكذا سقطت عاصمة الصفويين وكانت ايذانا بانتهاء الأسرة الصفوية نفسها كأسرة حاكمة ٠

كان مير محمود يعيد النظر فى توجيه سياسته بعد أن فتح العاصمة أصـــفهان ٠ واصبح ــ كما يبدو له ــ صاحب الحق الشرعى فى أن يحكم البلاد ، فقد عمل على أن يستمر دولاب العمل الحكومى فى مسيرته دون توقف ٠ ولهذا ابقى الموظفين الفرس فى وظائفهم ، وانما أبقى بعض المراقبين الأفغان معهم ليتأكدوا من أن الأمور لا تســـير فى اتجاهات مضادة للحكم الجديد الأفغانى ٠

وعامل الأوروبيون ، أفرادا ، ووكالات ، معاملة طيبة ، معطيا الفرصة لهم بمتابعة اعمالهم التجارية مبقيا على الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها أيام العهد الصفوى ٠

بل ذهب مير محمود (الشاه محمود) الى أبعد من هذا فى سياسته المعتدلة هذه ٠ فقد كافأ أولئك الزعماء الفرس الذين استمروا على وفائهم للشاه السابق حسين ، وأنزل العقاب بأولئك الذين خانوه ٠ ولا شك أن مثل هذه السياسة كانت مفاجئة للفرس ، حتى لكاد يبدو أن إيران مقبلة على عهد جديد من الهدوء والسلم البنـــاء الذى هى فى أمس الحاجة اليه منذ زمن طويل ٠

لقد كانت آمال مير محمود (شاه محمود) هى هذه فعلا • ولكن الاستيلاء على شرق فارس ووسطها ، والجلوس فى قلب العاصمة الفارسية أصفهان واتباع تلك السياسة المعتدلة — التى كانت فى نظر الغالبية العظمى من الشعب مجرد رياء وخداع من جانب فاتح بربرى — والدعوة الى التعاون معه على اعتبار انه هو الوريث الشرعى للأسرة الصفوية ، كل هذا ما كان ليعطيه أملا واضحا فى أن الأمور قد تستتب اليه ان عاجلا أو آجلا • فقد كانت هناك قوى عديدة محيطة بفارس قد عزمت على أن تفرض نفسها على الأحداث ، فاذا كان الأفغانيون قد غزوا إيران من الشرق ، فليغزوها العثمانيون من الغرب ، وليغزوها الروس من الشمال • ثم هناك فى الشمال كذلك ولى العهد الصفوى (طهمسب) الذى كان يعمل على تكوين جيش كبير للدفاع عن بلاده وللوصول الى العرش الذى اصبح من حقه واصبح عليه ان يكافح من أجله والحصول عليه بحد السيف •

ثم ان ذلك التعدد فى القوى المتوثبة على إيران ، وذلك التفكك فى قلب الدولة الإيرانية نفسها ، جعل من اليسير على زعماء العصبيات العشائرية الفارسية والكردية أن تنفصل عن الحكومة المركزية ، وان تصبح وحدات سياسية على نوع من الاستقلال لتجنب نفسها — من بعد ذلك — مغبة الولاء للشاه الأفغانى الجديد (مير محمود) وتجنب نفسها كذلك الارتباط غير المجدى — من وجهة نظرها — بالأسرة الصفوية المتداعية •

وكان على « مير محمود » (الشاه محمود) أن يتغلب على كل هذه القوى ليثبت أنه فعلا حاكم إيران الحقيقى • وأن مثل هذه الأمور لتبدو بسرعة وكأنها فوق قدراته ولكن تحمسه وانتصاراته السابقة كانت تعطيه الدافع والأمل فى تحقيق تلك الأهداف •

بدأ مير محمود (الشاه محمود) بتصفية النزاع على العرش لمصلحته نهائيا عن طريق القضاء على المطالب الوحيد بعرش الأسرة الصفوية (طهمسب) على اعتبار أن ذلك سيجعل الولاء كله لمحمود • وفعلا بعث (مير محمود) حملة كبيرة الى شمالى فارس ضد (طهمسب) كما كان من اهداف هذه الحملة كذلك « قزوين » و « قم » و « كاشان » • ولقد نجحت الحملة فى الاستيلاء على هذه المدن الهامة ، دون أن تتمكن من القضاء على طهمسب نفسه •

وخلال هذه الحملة بدأت بوادر تنذر بتدهور خطير فى جانب الأفغان • فقد كانت

هذه المسئوليات الجسام تتطلب من (محمود) أن يجيش جيوشا كبيرة للغاية • وحيث ان الفرس انفسهم كانوا غير مستعدين للانخراط فى سـلك الجندية تحت الأفغانيين ، اصبح على محمود أن يستجلب القوات الجديدة من افغانستان نفسها •

بعث محمود بالأموال الى قندهار لجمع جيش كبير من هناك • ولكن لا الأمـوال وصلت الى من كان يجب أن يتسلمها،ولا أتت من أفغانستان امدادات جديدة الى إيران•

فقد استولى حاكم سستان على مبلغ يصل الى ٣٠٠ الف جنيه استرلينى كان فى طريقه الى قندهار لذلك الغرض • وحتى لو وصلت الأموال الطائلة الى أفغانستان ، فقد كان من المتعذر جدا تجييش جيوش جديدة من افغانستان وارسالها الى إيران •

فعندما قام محمود بهجومه على إيران ، وخلال عملياته العسكرية العـديدة فى إيران كان محمود قد استخدم الغالبية العظمى من طاقة افغانستان البشرية المستعدة للجنـدية •

ومن ناحية اخرى ، كان انقضاض افغانستان على إيران يعنى انقضاض قـوة أصغر على أخرى اكبر • وبالتالى كان المجهود الذى يتطلبه ذلك الهدف ضخما جـدا خاصة وان الأفغانيين سعوا الى تحقيقه دفعة واحدة ، وليس على أساس اقتطاع جـزء بعد الآخر من فارس •

ولهذا كانت خسائر (مير محمود) العسكرية لا تعـوض ، وكانت الثورات التى تنشب ضده تثير فيه اشد معانى القلق • ولقد كان كثـير من المدن الإيرانية مستعدة للثورة على الأفغانيين المتغطرسين ، وكانت مدن الأطراف أكثر المدن استعدادا وامكانية للتمرد الناجح ضد الأفغانيين • وكانت ثورة قزوين من أنجح ثورات المـدن عليهم • اذ طردت الحامية الأفغانية منها •

ومن الظواهر ذات الدلالة خلال ثورة قزوين أن الحامية الأفغانيـة التى طردت لم تذهب للانضمام الى مير محمود (الشاه محمود) وانما عادت مهزومة الى قنـدهار • الأمر الذى يكشف لنا كم كانت قوى (مير محمود) العسكرية تنهار بسرعة •

استطاع (مير محمود) خلال هذه الفترة العصيبة من حكمه ان يجتذب اليه الأكراد، وان يجندهم ويصبحوا قوة لها فعاليتها • وهذا الاقبال الكردى على الانخراط فى سلك

الجندية الأفغانية يرجع أساسا الى التقارب المذهبى بين الطرفين ، فضلا عن ان الأكراد فى مثل هذه الظروف يصبحون فى مكانة الصدارة ٠ واستطاع (مير محمود) بعد جهد أن يبعث بعدة حملات ضد المراكز الرئيسية الثائرة عليه فى (خونســـان) و (كاشان) و و (شيراز) و (بندر عباس) و (يزد ، وبهبان) ٠ وكانت معظم حملاته ناجحة فى بدايتها ولكن نتائجها كانت سيئة ٠ بل لقد صدت الوكالات الانجليزية والهولنـــدية الهجمات التى شنت على بندر عباس بما كان لديها من مدفعيـــــة يحسن الانجليز والهولنديون اســــــتخدامها ٠

فى هذه الظروف أبدى قيصر روسيا بطرس الأكبر نيته فى أن يتوسع فى إيران ٠ ووضع خطته السياسية على أساس عدم الاعتراف بالشاه الأفغـــــانى (مير محمود) والتمسك بالشاه (الشرعى) حسين ٠ ولهذا بعث بطرس الأكبر بسفارة الى (الشـــاه حسين) ٠ وادعى الروس أن الغرض الظاهرى من هذه السفارة هو المطالبة بتعويض عما أصاب قافلة روسية من خسائر تكبدتها على يد خان (خيوه) التابع لإيران ٠ وأما الغرض الخفى فقد كان محاولة لجس نبض قوى فارس ٠ تمهيدا للقيام بعمل عسكرى ضـــدها ٠ وخلال هذه السفارة الروسية أدركت الدبلوماسية الروسية أن (مير محمود) على جانب كبير من الجهل السياسى والاستراتيجى وذلك عندما شـــكا اليه الدبلوماسيون الروس من اختلال الأوضاع فى شمال فارس ٠ فبدلا من أن يؤكد عزمه على الســـيطرة والتحكم فى تلك الجهات قال للروس أنه لا يملك القدرة على السيطرة على الأوزبك أو على الليجيان ٠ فما كان من بطرس — بعد أن علم بذلك — الا ان هبط الفولجا على رأس ٢٢ الف مقاتل معلنا انه لم يزحف على فارس طمعا فى أراضيها ، وانما انقاذا لها من الطاغية الأفغانى ٠ واستولى على (دربند) واتجه الى شماكا ، الا أنه بينما كان فى طريقه اليها وصل مبعوث عثمانى معلنا احتلال الجيش العثمانى لشماكا ، وحـــذر المبعـوث العثمانى المسئولين الروس من أن أى تقدم من جانب الجيش الروسى على حساب الدولة الفارسية يعنى حالة حرب ضد الدولة العثمـــانية ٠ ولما كان بطرس الأكبر لا يرغب فى الاشتباك فى حرب ضد العثمانيين آثر التوقف عند دربند تاركا فيها حامية كبيرة ٠

وهناك عامل عسكرى جعل بطرس لا يغامر بحرب ضد العمثانيين هو أن الجيش العثمانى كان لا يزال قوى الشكيمة ، وكانت سمعته لا تزال رهيبة ٠ وفوق هذا وذاك

كانت خطوط مواصلات بطرس طويلة ومرهقة للغاية والى جانب هـذا ، كان بطرس قد فقد الكثير من سفنه الناقلة للمؤن اذ غرقت فى النهر الأمر الذى شل قطاعات كبيرة من جيشه عن العمـل .

ولم تلبث أن دارت المفاوضات بين الروس والعثمانيين خاصة وأن تطورات خطيرة كانت تحدث على حدود الدولتين المشتركة مع فارس . فبينما كان الأفغانيون يضغطون على (رشت) استنجد حاكمها الفارسى بالروس فاستولوا عليها ، وعقد طهمسب مع الروس معاهدة ليستميلهم الى جانبه تنازل بمقتضاها للروس عن الأقسام الشمالية من فارس (شـيروان ، داغستان ، جيلان ، مازندان ، استراباد) ، واستنجدت شروان — التى تسكنها اغلبية سنية — بالسلطان العثمانى . ولهذا لم يلبث أن اتفق الطرفان على تقسيم فارس فيما بينهما (١٧٢٤) على النحو التالى :

١ — تحصل روسيا على سواحل بحر قزوين وجيلان ومازندان الى ما هو شمالى المجرى الجنوبى لنهر آراس . أو بمعنى آخر تعترف الحكومة العثمانية بما سبق أن تنازل عنه (طهمسب) لروسـيا .

٢ — تحصل الدولة العثمانية على الولايات الغربية الفارسية .

٣ — اذا اعترف طهمسب بهذه المعاهدة اعترف به شاها على فارس .

٤ — يتحالف الروس والعثمانيون ضد أية محاولة يقوم بها طهمسب لاسـترداد ما يسيطر عليه الطرفان (الروس والعثمانيون) . بمقتضى هذه المعاهدة .

وبعد توقيع معاهدة التقسيم هذه استولت روسيا على الأجزاء الشمالية من فارس . وأصبح على العثمانيين أن يضعوا يدهم على نصيبهم من فارس . فبعث السـلطان العثمانى الى العراق بوالى قوى الشكيمة ، هو حسن باشا ، الذى حكم العـراق من ١٧٠٤ — ١٧٢٤ وخلفه ابنه (احمد باشا ١٧٢٣ — ١٧٤٧) [١] ، وكلف السلطان حسن باشا بالتوسع فى فارس، واستطاع أن يتوغل حتى همدان ، واطلق عليه (فاتح همدان) .

---

(١) سيتولى احمد باشا بعد ابيه مهمة الكفاح ضد الفرس وخاصـة على أيام نادر شاه ، وسنتعرض بعد ذلك لهذا الموضوع .

هذا بينما فشل جيش عثماني — زحف داخل فارس من جهات اريفان — في الاستيلاء على تبريز ، ولم يحتلها الا بعد استعدادات جديدة ضخمة ومعارك دموية ٠

هذه التطورات الداخلية والخارجية أرهقت محمود ، ليس عسكريا فقط بل كذلك ذهنيا ٠ اذ لم تستطع قدراته العقلية أن تواجه هذه الأعباء الجسام ، وبدأت قــــواه العقلية تتداعى ، وانعكس هذا على تطور سياسته المعتدلة الى نوع من العنف والقسوة ثم الى نوع من الجنون والانتحار السياسي ٠

اصر (مير محمود) على أن يحتفظ بالعرش وباصفهان رغم أن كل الشواهد كانت تدعو الى التخلي عنها والعودة بما تبقى لديه من جيش الى إفغانستان ٠ وبسبب شعوره بالضعف تخلي عن سياسة الاعتدال ولجأ الى الارهاب ٠ فأولم لنبلاء الفرس ووزرائهم وليمة انتهت بمذبحة عامة لهم ٠ ثم اصدر اوامره بقتل ثلاثة آلاف مقاتل من قوة الحرس الفارسي ، وأمر كذلك بقتل كافة من خدم الشاه حسين ٠ ولم يلبث أن أمر بقتل كافة أفراد الأسرة المالكة الصفوية باستثناء الشاه حسين ٠ واستمرت هذه المذابح زهـــاء اسبوعين ادت الى أن يهبط عدد سكان المدينة الى الحضيض ٠ وفرض ضرائب جديدة على الأراضي ، وامتدت يد جنده الى متاجر الهنود نهبا ومصادرة ، ولم تسلم من ذلك الوكالات الانجليزية والوكالات الهولندية التي كانت في متناول يدهم ٠

أدرك كبار رجال الأفغان أن محمود بدأ يفقد قدراته العقلية ، وانه لو استمر على هذا النحو سيقضي على ما تبقى تحت يده ٠ ولهذا استدعوا الأمير اشرف من افغانستان ، واسندوا اليه أولا ولاية العهد ، ثم رفعوه الى العرش بعد أن أصيب محمود بالجنـــون تماما ٠ (١٧٢٥ م / ١١٣٧ هـ) ٠

★ ★ ★

٢ ــ اشـــــــرف

ولا شك أن الظروف كانت اقوى من قدرات محمود • وأن الظروف ايضـــا هى التى فتحت أمامه مجالات أوسع من امكانياته فأدى ذلك الى تدهور حكمه • ولكن الى جانب هذا توجد عدة عوامل أخرى أدت الى هذا التدهور •

١ ــ منذ أن أصبح محمود غير قادر على استقدام قوات جديدة من أفغانستان وعجزه عن تجنيد المزيد من الجند من داخل إيران نفسها ، اصبح الأفغان يعيشـــون فى ارض معادية ، واصبحوا أقلية تعيش بتماسكها كجزيرة صغيرة وســـط محيط مضطرب • ولم يكن فى استطاعة محمود ان يسيطر على كل إيران • ولا حتى على الجزء الأكبر منها ، لا بقوة السلاح ، ولا بدعوى الحق الشرعى • اذ أصبحت فارس عبارة عن قوى متعددة اذا سيطر على اقليم ثار آخر وهكذا ، هذا فضلا عن القوى الأخرى الكبرى المتربصة بفارس ، وعن استمرار الأسرة الصـــــفوية ممثلة فى (طهمسب) تكافح ضده وفى سبيل حقها الشرعى فى العرش •

٢ ــ كان (مير محمود) قائدا شجاعا ، جريئا • وكان قاسيا فى تدريب جنـــوده على الأعمال العسكرية ، وكان محبوبا من هؤلاء الجند ، خاصة بعد تلك الانتصارات الكبرى التى حققها • ولكنه اجهد هؤلاء الجند بطاقات تفـوق قدراتهم • ويرجع السبب الحقيقى فى انتصاراته الى قوة الاندفاع الكبيرة التى كان يتميز بهـا مير محمود وجنده • ولكن مهمة السيطرة على فارس كانت تتطلب قوات أكبر ، خاصة اذا كانت هذه القوات غير فارسية •

٣ ــ أن فارس كانت ضعيفة ، وأن القوى العسكرية كانت مفككة • وظن مير محمود أن قوته وملكاته العسكرية هى العامل الأول والأخير فى الانتصـــــار وغرر به ذلك الانتصار حتى اصطدم بأن استمرار السيطرة على فارس أكثر ارهاقا له وان الأمر يتطلب منه قدرات أخرى •

٤ — كانت قدرات محمود العسكرية تفوق قدراته التنظيمية والإدارية • شأنه فى هـذا شأن القادة العظام الذين خرجوا من أواسط آسيا • كان غازيا عظيما ، دون أن يكون صاحب فكر إدارى وتنظيمى ، الأمر الذى افقده اهم عنصر من عناصر بنـاء الأسرة الحاكمــــة •

كان على أشرف أن يواجه هذه الأزمات الكبيرة التى تعرض الوجـود الأفغانى فى فارس للخطر • ولكى تكون الصورة امامنا واضحة يجدر بنا ان نحدد القوى الكبرى التى تتحكم حينذاك فى مقدرات فارس •

١ — كان اشرف يسيطر على أصفهان وشيراز وجنوب شرق إيران • ولكن من العسير جدا القول بأنه كان يدير أمور هذه البلاد • كما أن تعدد القوى الخارجية ، وتعدد الثورات الداخلية جعلت اشرف — وهو الذى يعتمد على امكانيات بشرية محدودة — يركن الى الأساليب الدفاعية •

٢ — كان طهمسب يردد باستمرار انه صاحب الحق الشرعى فى العرش (١) وكان مركزه فى مازندان • ونظرا لقلة ما تحت يده من جند كان يراقب تطورات الأمور ومحاولة الافادة منها • ولكن بعد أن انضم اليه (فتح على خان) زعيم (القاجار) اصـبح طهمسب قادرا على المشاركة فى توجيه مصير البلاد الى حد ما •

٣ — استمرت روسيا فى اتباع سياسة القيصر بطرس الأكبر بعد وفاته • وهناك دعاية واسعة النطاق حول وصية كتبها بطرس الأكبر يحث فيها الروس على مضـاعفة الجهد من أجل التوسع وتنمية الامبراطورية الروسية على حســاب فارس • وستصبح روسيا قوة خطيرة ازاء فارس بل وازاء الدولة العثمانية فى عهد كاترين الثانية قيصرة روسيا المشهورة •

٤ — الدولة العثمانية كانت ترى فى نفسها صاحبة الحق الشرعى فى حكم فارس وحمايتها سواء من الأفغانيين أو الروس • وكانت قد توغلت قواتهـا فى داخل فارس الى

---

(١) خاصة بعد تنازل الشاه حسين خلال تلك الأحداث عن عرشـه لمحمود • ولم يقتل الا بعد هزيمة اشرف — خليفة محمود — أمام (نادر خان) •

مسافات بعيدة . وأن حسن باشا — والى بغداد — توفى فى همدان ، الا أن ابنه أحمد باشا حل محله . وكان شخصية قوية على نمط أبيه .

اتجه أشرف فى أول الأمر الى دفع الجيش العثمانى الى ما وراء الحدود الفارسية العراقية . وبعث الى السلطان العثمانى محتجا عليه بسبب تلك المعاهدة التى عقدها مع دولة مسيحية (يقصد روسيا) ضد دولة إسلامية أخرى بقصد تقسيم فارس . ولقد كانت الميول العامة فى دوائر الاستانة الى جانب الأفغانيين ، ولكن الأفغانيين ما كانوا ليعرفوا الأسلوب اللين الدبلوماسى الا قليلا . فكانت طريقتهم فى الاحتجاج غير لائقة ، وكان أسلوبهم فيه عنيفا قاسيا ، الأمر الذى جعل الباب العالى يعلن الحرب على أشرف . ووجه الباب العالى جيش والى بغداد الى الزحف صوب أصفهان نفسها، ولكن « أشرف » ضرب مقدمة الجيش العثمانى وأوقف زحفه .

وشن (اشرف) حرب أعصاب ضد العثمانيين ، فبعث اليهم بعدد من كبار العلماء الأفغان السنة (١)، والتقى هؤلاء العلماء بأحمد باشا وبعدد من كبار علماء العراق ، وطرح العلماء الأفغان السؤال التالى :

« لماذا يشهر سنى السيف فى وجه سنى آخر ؟ » .

حقيقة رد العلماء العراقيون على ذلك بأن أوامر الخليفة يجب أن تطاع لا من قبلهم هم فقط بل كذلك من قبل « أشرف » نفسه على اعتبار أنه تابع للخلافة العثمانية .

وعلى أى حال ، فهذه المناورات المذهبية كان المقصود من ورائها اهدافا عسكرية وسياسية . ولذلك نجح علماء الأفغان فى تحقيق جزء من هذه الأهداف . فقد انفصلت قوة لها فعاليتها من الأكراد العاملين فى جيش احمد باشا ، وانضمت الى جيش اشرف .

لم تلبث أن دارت المعركة الكبيرة بين الطرفين (أشرف ووالى بغداد احمد باشا) وفيها احرز اشرف انتصارا كبيرا وساحقا على العثمانيين . وفرت فلول الجيش العثمانى . وكان فى مقدور اشرف ان يتعقب هذه الفلول ولكنه رفض ذلك ، لأنه كان فى حاجة الى الوصول الى تفاهم مع السلطان العثمانى ، بسبب نمو قوة عدوه طهمسب

---

(١) معروف عن العلماء الأفغانيين تضلعهم فى الفقه والشريعة الإسلامية على المذهب السنى .

الذى كان يتعاون معه حينذاك نادر خان (نادر شـــــاه فيما بعد) . ولهذا لم يكتف « أشرف » بترك الجيش العثمانى ينسحب بل رد الى العثمانيين الكثير من الغنائم التى استولى عليها من الجيش العثمانى .

كانت هذه المعاملة الكريمة سببا فى أن يدخل العثمانيون مع أشرف فى مفاوضات للصلح . واتفق الطرفان على عقد معاهدة فى ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م قضت بأن يعمـــل العثمانيون على حماية قوافل الحجاج الى العتبات المقدسة فى العراق والحجاز ، وعـــدم قبول المجرمين أو الفارين من دولة لأخرى ، وبعدم التدخل فى شئون الطرف الآخر . وأهم ما ورد فى هذه المعاهدة :

١ — أن تستبقى الدولة العثمانية ما فتحته تحت يدها .

٢ — أن تدخل الحويزة فى اطار الدولة العثمانية .

٣ — واعترف أشرف بأن السلطان خليفة المسلمين ، واعترف السلطان بأشرف شاها على فارس .

وهكذا ظلت فارس قسمة بين :

١ — أشـــــــرف .

٢ — قيصرة روســـيا .

٣ — السلطان العثمـــانى .

٤ — طهمسب .

واذا كان أشرف قد وصل الى وضع مستقر فى الجبهة العثمانية عن طريق هــذا التنازل الواسع النطاق ، فقد كان عليه أن يواجه القوى الأخرى المتعــددة التى تناصبها العداء . وكان العدو المباشر التالى هو طهمسب الصفوى .

وكانت أمور طهمسب خلال السنوات الثلاث التى أعقبت معاهدته مع روسيا قد تحسنت الى حد كبير ، لا بسبب انضمام (فتح على قاجار) اليه ، وانما كذلك بانضمام نادر خان اليه ، وهذا الرجل هو الذى سيعرف باسم (طهمسب قولى خان) ، وأخيرا سيشتهر باسم (نادر شاه) ، بعد أن يتولى عرش فارس .

الفصل الثاني

فـــــارس

في عهد نادر شـــــاه وكريم خان الزند

– ١ –

نادر شــــــــاه

يعتبر نادر شاه آخر الفاتحين العظام الآسيويين • ولا تزال اسـاطير بطولته على الألسن فى موطنه الأصلى • وهو من قبيلة كيركلو Kirklu ولم تكن هذه القبيلة ذات سطوة او مكانة كبيرة ، ولم تكن تشكل عصبية عشائرية قوية ، ولهذا كانت عرضة لأن تقع تحت سيطرة العشائر الكبرى ، او ان تفضل هى من نفسها الانضواء تحت عشـيرة كبيرة تتمتع فى ظلها بالحماية من عشيرة أو عصبية اخرى تريد أن تفرض نفسها عليها • ولهذا فضلت عشيرة كيركلو أن تنضوى تحت لواء عشيرة كبيرة مجاورة لها هى عشـيرة الافشــــــــار •

كانت الأسرة التى خرج منها (نادر) فقيرة الحال ، فهو ابن لراعى أغنام قـرب (محمد أباد) ، وتدعى حاليا قلعة كهنة (القلعة القديمة) • وكانت ولادته فى ١٦٨٨ م / ١١٠٠ هـ • وامتهن مهنة أبيه من رعى وجمع للاخشاب ونقلها على جمل وحمار ورثهما عنه • عاش فى شظف العيش وعاناه ، وصبر عليه • ولكنه فوجىء بأشد ما يصيب المرء ، فبينما هو لا يتجاوز بعد الثامنة عشرة من عمره ، قبض عليه الأوزبك هو ووالدته فى واحدة من حملاتها الاجتياحية العديدة • ونقلوهما الى (خيوه) ، وبعد أربع سنوات ماتت أمه فى الأسر • ثم تمكن هو من الهرب والعودة الى وطنه والى عشيرته الكبرى (الافشار)• وحيث انه كان قوى البنية ، طموحا ، قادرا على العسكرية ، وجد أن الدخول فى الخدمة العسكرية هو اللائق به • وكان حاكم ابيفارد Abivard عاصمة المقاطعـــة حينذاك فى حاجة الى شباب يعملون فى فرقه العسكرية ، فقبله بين رجاله المقاتلين • وكان حاكمها حينذاك هو (بابا على بك) • وأسدى (نادر) الى (بابا على بك) خدمات كبيرة جعلته يزوجه ابنته • ولكن تطلع نادر بعد ذلك الى حكم أبيفارد نفسها ، ويقـــال انه تعجل الوصول الى الحكم عن طريق التخلص من صهره بالسم • وعلى أى حال ، فقد تولى نادر خان حاكم المدينة من بعد الوفاة المريبة لحاكمها •

لم تكن هذه هي آمال نادر خان الطموح، بل تطلع بسرعة الى ان يحكم كل خراسان، فكان ان اصطدم بحاكمها ، ولم يستطع الصمود أمامه ، ففر من مدينته ليتحول ببساطة وبسرعة الى مجرد قاطع طريق · ونظرا لأنه كان على ذكاء كبير ، وكانت الظروف تمكنه من أن يجمع بعض القوات حوله ، أثناء الاضطرابات العديدة والحـــروب المتتالية التى اجتاحت ايران، استطاع أن يتحول من مجرد قاطع طريق الى قوة عسكرية قادرة على أن تشارك فى الأحداث ، أولا فى خراسان ، وبدأ يصبح له مكانا صغيرا فى الأحداث فى أعقـــاب استيلائه على (قلعة) التى عرفت بعد ذلك باسمه (قلعة نادرى) ·

ومن قاعدته ، شرع يوسع دائرة نفوذه ، واتجه أولا الى نيسابور · وقد أرهقته الجهود التى بذلها من أجل فتحها · وعندما تم له ذلك اعلن انه لم يفتحها لنفسه ، أو انه يؤسس لنفسه امارة ، وانما اعلن انه من رجال الشاه الشرعى على البلاد « طهمسب » ، وأنه فتح نيسابور باسم الشـــــاه ·

لقد كان نادر خان يدرك ان «الحكم الشرعى الوراثى» مبدأ له قيمته فى ذلك الوقت وأنه عليه أن يعلن تبعيته لواحد من الأسرتين الحاكمتين المتنافستين فى البلاد ، فاختار الأسرة الوطنية ، وأعلن أنه يعمل باسم الشاه طهمسب · ولكن الى حين ·

وهنا لك نبؤة رددت ان (نادر) هو الذى سيحرر فارس ويتوسع على حساب أربـع ممالك · ومع أن الدراسة التاريخية لا تعنى كثيرا بمثل هذه الأمور ، الا أن صيغة النبؤة هى التى تهمنا لأنها على الأقل تعبير عما كان يجيش فى صدر (نادر خان) من آمال · وفعلا سنجده باستمرار معنيا كل العناية بتحرير فارس من الأفغانيين ، ويعمل على التوسع فى الشرق والغرب وعبر الخليج العربى ·

وواضح مما سبق ان سياسة (نادر) ستسير فى الاتجاهين التاليين لفترة ليست بالقصـــــيرة :

١ ـ أن يتوسع فى الأقاليم الشمالية الفارسية باسم الشاه طهمسب محررا تلك البلاد من الأفغـــانيين ·

٢ ـ أن يحتفظ لنفسه باستمرار باليد العليا فى التحرك السياسى والعسكرى ·

ركز نادر خان جهوده فى منطقة خراسان ، ونصح (نادر) طهمسب بأن يسيطر أولا على مشهد وهراة وكانت تحت سيطرة الأفغانيين • ويبدو أن (فتح على قاجار) كان على خلاف مع (نادر خان) ، وما كان نادر ليترك الأمور تسير على هوى منافسيه ، فدبر بسرعة مصرع منافسه (فتح على قاجار) عندما كانا فى الطريق الى الاستيلاء على مشهد وهراة • ونجحت جهود نادر خان ، وسقطت مشهد وهراة فى يده (١٧٢٧) •

أدى استيلاء « نادر خان » على مشهد الى أن يرتفع قدره ، كمـــا ارتفعت مكانة طهمسب فاصبحا على مستوى المنافسة الكبيرة ضد « أشرف » • وادرك أشرف نفسه ذلك ، وأن الفرس سينضوون بسرعة تحت لواء هذا التحالف بين نادر وطهمسب فهم من الفرس ، واصحاب الحق الشرعى فى الحكم ومن هنا فـــكر أشرف فى أن يسرع الى خراسان ، ويرغم خصومه على خوض معركة كبيرة ينتصر فيها قبل ان تتجمع قـــوات كبيرة لدى هذا التحالف • ولكن نظرا للاضطرابات التى كانت تجتاح افغانستان ومنطقة (قندهار) بصفة خاصة ونظرا لتوزيع قطاعات كبيرة من جيشه على المدن الكبـــرى كحاميات ، كان الجيش الذى جمعه للزحف الى خراسان لخوض المعركة الفاصلة لا يزيد عن ثلاثين ألف مقاتل ، لم يكن كله من الأفغانيين ، ولكن كانت لديهم ميزة هامة وهى أن انتصاراتهم السابقة على الجيش العثمانى أعطت لهم قدرات معنوية عالية •

وكان نادر خان هو الآخر يدرك ان المعركة القادمة ضد أشرف هى الفاصلة بين الأسرتين الحاكمتين المتنافستين • وكان قد أعد قواته لمواجهة هذه المعركة بأســـاليب أحدث ، اذ اعتمد على فرقة من رماة البنادق دربها تدريبا جيـــدا ، ووضع خطته على اساس أن يكسر حماس الجند الأفغانيين عن طريق حصد صفوفهم الأولى برصـــاص جنده • وعند دامغان Damghan دارت المعركة ، وسارت وفق الخطة التى وضعها (نادر خان) الذى اصبح يعرف منذ دخوله فى خدمة طهمسب باســـم (طهمسب قولى) أى عبـــد طهمسب •

تحولت المعركة — التى عرفت باسم (مهماندوستة) — الى كارثة للأفغانيين ولم تقم من بعدها لهم قائمة • (١١٤١ هـ / ١٧٢٩ م) • فقد انكفأ أشرف الى اصفهان وجمع فلول جيشه وكذلك الأسرات الأفغانية فى (القلعة) • وعزم على أن يدافع عن عرشـــه • ولكن كل العوامل كانت تسير ضد آماله •

أسرع (طهمسب قولى) الى أصفهان ، وتوافدت عليه الجموع على اعتبار أنه منقذ البلاد من الأفغانيين ، وفرض الحصار على أصـــفهان ، ولم يقاوم الأفغانيون الا فترة قليلة ، ثم انهارت قواهم ، وفر أشرف وفلول جيشه صوب شيراز • وقبل أن يغـادر أشرف أصفهان ، قتل الشاه السابق (حسين) • بينما دخل كل من طهمسب ، وطهمسب قولى العاصمة ،وبكى طهمسب عندما شاهد قصور أمراء البيت الصفوى مدمرة منهوبة • ولكن ادهشه كل الدهشة اقتراب سيدة عجوز منه ، فيها ملامح يعرفها ، كان قد فارقها منذ زمن طويل ، لقد كانت أمه التى كانت قد اختفت فى شكل جارية لتنجو من المذبحة التى دبرها (مير محمود) للأسرة الصفوية ، واتقنت السيدة دورها خلال تلك الفترة فلم يكتشف احد امرها حتى دخل ابنها طهمسب العاصمة أصفهان منتصرا •

تلك صور مآسى الأسرات الحاكمة ، وتلك صورة من الخراب الذى كانت تسببه الحروب الأهلية • ولقد كانت إيران مسرحا لما هو أشد وأمر من تلك الصور • فهناك من القرى ما أحرق ومن المدن ما اصبح مجرد اكوام من الأحجار لها مسميات فى التاريخ •

وعلى أى حال ، ادرك طهمسب شاه أنه لكى يصفى الموقف كله لمصلحته ، عليه ان يقطع دابر الأفغانيين نهائيا • وكان نادر اى (طهمسب قولى) يدرك هو الآخر أهمية ذلك لسيده • فما أن طلب طهمسب شـــــاه من قائده نادر (طهمسب قولى) أن يقتفى اثر الفلول الأفغانية المذعورة وأن يقضى على أشرف ، حتى طالبه (طهمسب قولى) بالمكافأة التى تليق بقائد منتصر فتح لسيده عاصمته • وما كان فى استطاعة طهمسب شاه الا ان يلبى رغبات قائده الطموح اذ كانت القوة العسكرية الرئيسية تحت يده ، وما كان تحت يد طهمسب شاه من جيش لا يمكنه من فرض إرادته على قائده • لقد لعب (نادر) دوره بمهارة ، وحصل منه — كمكافأة على جهوده تلك — على حق جمع الضرائب من البلاد • فأصبح بذلك هو المسيطر على القوات العسكرية وعلى القدرات المالية للبلاد •

زحف نادر بجيشه صوب الجنوب ، وعند زارغان Zarghan على بعد عشرين ميلا من شيراز — انتصر على الأفغانيين • وحاول أشرف أن يحصل من (طهمسب قولى) على صلح مشرف دون جدوى ، بل أعلن (طهمسب قولى) أنه مصمم ليقتلن جميع الأفغانيين ما لم يسلموه أشرف نفسه •

اسقط فى يد اشرف ، ومر من شيراز على راس مئتين من رجاله فقط • فكان ذلك نذيرا بتفكك الجيش الأفغانى الى عدة جماعات ووحدات متفرقة كل منها اتخذت طريقها بنفسها صوب (قندهار) • وكانت هذه الجماعات تعانى خلال ذلك من الجوع وهجمات خيالة الفرس • ففقدت الكثير من رجالها ولم تصل الا أعداد قليلة منها الى قندهار • اما أشرف فقد حاول أن يفرض سيطرته فى منطقتى (اللار) و (كرمان) فثارت عليه تلك الأقاليم • وأدرك أن وجوده فى تلك الأقاليم النائية ربما يؤدى الى القضاء عليه • فاتخذ طريقه مع شرذمة من رجاله راجعا الى قندهار • ولم يلبث أن سقط اشرف صريعا وارسلت راسه الى الشاه طهمسب (١١٤٢ هـ / ١٧٣٠)• وحاولت جماعة من الأفغانيين الخروج من إيران عن طريق البحر فمرت بالبحرين وتعرضت للهجمات حتى كادت أن تتلاشى •

وبذلك انتهت المحنة التى عاشها الأفغانيون فى إيران ، والمحنة التى عاشتها ايران خلال الغزوة الأفغانية ، لينتهى ذلك دون أن تحصل ايران من وراء ذلك على تقدم حضارى يذكر •

كان على نادر بعد ذلك ان يواجه القوى الأخرى التى كانت لا تزال تحتل أجزاء من فارس هى :

١ – الدولة العثمانية •

٢ – الدولة الروسية •

وبدأ نادر (طهمسب قولى) بالأتراك العثمانيين،وهزمهم فى موقعة عند «همدان»، واستطاع ان يسيطر على أذربيجان وعلى اجزاء من العراق • وبينما كان يحاصر (اريفان) جاءته أنباء ثورة فى خوراسان ، فترك (طهمسب قولى) الجبهة التركية مؤقتا والتفت إلى خوراسان •

وثارت حمية (طهمسب شاه) – بعد تلك الانتصارات الكبيرة لقائده – واراد ان يثبت وجوده ومكانته ، فانقض على الجيش العثمانى فى هجوم كان يعتقد أن الجيش العثمانى المهزوم منذ وقت قصير لن يقوى على الصمود له • ولكن الهزيمة القاسية كانت

من نصيب طهمسب شاه (١٧٣١ م / ١١٤٤ هـ) . وفقـد بذلك الفرصة لكى يحتفظ بمكانته . وشعر طهمسب شاه بذلك فعمل نفس ما سبق ان اقدم عليه أشرف من قبل وهو شراء سكوت العثمانيين بمعاهدة يتنازل فيها عن الكثير من الأراضى الفارسية لهم .

فقد عقد طهمسب شاه معاهدة الصلح مع السلطان العثمانى على الأساس التالى :

١ ــ اعتبار نهر آراس حدا لفارس .
٢ ــ تنازل الشاه عن جانجا Ganja وتفليس وأريفان ونخشاوند وهمدان ولارستان ، أو بمعنى آخر عن معظم الولايات الغربية لفارس التى كانت تطمع فيها السلطنة العثمـــــانية .

٣ ــ تسهيل التجارة وتبادل السفارات بين كل من العاصمتين أصفهان والاستانة . ولكن يلاحظ أنه لم تشر هذه المعاهدة الى اطلاق سراح الأسرى .

رأى (طهمسب قولى) ــ الطموح ــ فى هذه المعاهدة الفرصة المناسبة جدا ليضرب ضربته ، اذ أعلن اعتراضه على هذه المعاهدة متخذا من اغفال الاشارة الى اطلاق الأسرى الفرس وسيلة للتشنيع على طهمسب شاه ، ومؤكدا أن هذه المعاهدة تتعارض مع مكانة الامبراطورية الفارسية العظيمة الشأن ، والتى يجب ان تكون كذلك . بل قال أن هذه المعاهدة تتعارض مع ارادة الإمام على ، ومع ارادة الله . وكتب بهذه المعانى الى حـــكام الولايات الفارسية محذرا من التقاعس عن بذل كل الجهود من أجل انقاذ البلاد من هؤلاء الذين تهاونوا بحقوقها الى هذا الحد المشـــين ومن أولئك الذين يطمعون كل الطمع فى إيران من امثال السلطان العثمانى . بل لقد بعث (طهمسب قولى) الى السلطان العثمانى نفسه محذرا اياه من الانسياق وراء الشاه طهمسب على اعتبار انه لم يعد ممثل البلاد ، ومطالبا السلطان باعادة الولايات التى وضع يده عليها الى اصحابها الشرعيين (الفرس) .

أسرع السلطان نادر ، وكان قد حصل على هذا اللقب من قبل ، الى العمل ضد طهمسب فزحف الى أصفهان ، وقبض على الشاه ورفع ابنه الطفل الى العرش وفرض (نادر) نفسه وصيا على الشاه الطفل (١٧٣٢ م / ١١٤٥ هـ) .

تابع نادر من بعد ذلك قتال العثمانيين فى العراق وضرب الحصار على بغـــداد

والموصل . واستماتت بغداد فى الدفاع عن نفسها بينما بعثت الدولة العثمانية جيشا ضخما بقيادة واحد من أحسن قوادها طوبال عثمان باشا . ويحدثنا لوريمر فى موسوعته عن الخليج العربى (١) عن هذه المعارك بقوله :

« حدث اشتباك من اعنف الاشتباكات التى دارت بين الإيرانيين والأتراك .. وانتهت المعركة بهزيمة تامة ساحقة لقوات نادر .. الذى لم يكف عن التراجع حتى وصل همدان .. وخلال ثلاثة شهور قام نادر — الذى لم تضعف هذه الكارثة من روحه — بهجوم على الأقاليم التركية فى جيش جديد . ودارت معركة أخرى انتصر فيها الايرانيون هذه المرة . وكان عثمان طوبال بنفسه بين القتلى » .

ان هزيمة طوبال على تلك الصورة القاسية لا ترجع الى اخطاء من الرجل فقط وانما انعكست مساوىء البلاط العثمانى والباب العالى على الموقف . فقد توقفت الامدادات العثمانية عن الوصول اليه ، ولم يستطع أن يدفع مرتبات الجند . ومن ثم كان عليه أن يتجنب خوض المعركة ، ولكن صفاته كقائد منتصر ، وخشيته من أن يتهم بالجبن جعلاه يدخل معركته الخاسرة .

وأراد نادر — بعد ذلك الانتصار الكبير — أن يضع يده على مفتاح العراق الجنوبى (البصرة) . ولكنه وجد أن ذلك يتطلب منه استخدام أسطول . ولم يكن لديه حينذاك شىء منه . فاتجه الى شركة الهند الشرقية البريطانية طالبا اقراضه بعض السفن . ولكن هذه الشركة كانت تخشى من انتقام الأتراك العثمانيين ولذلك رفضت أن تمده بما طلب .

ولا شك أن نادر كان مستعدا لاطالة أمد الحرب فى العراق لو لم تأته أنباء ثورة ضده فى (اقليم فارس) . فآثر نادر أن يعقد معاهدة مع أحمد باشا والى بغداد على أساس اعادة الأمور الى ما كانت عليه قبل التوسع العثمانى فى إيران .

أغلب الظن أن تلك الاتفاقية بين السلطان نادر وأحمد باسا كانت محاولة من الأول لتهدئة الأمور فى الجبهة العراقية حتى يفرغ من اخماد تلك الثورة وغيرها ليعود الى

---

(١) دليل الخليج العربى ص ١٧٨٢ وما بعدها .

العراق مرة أخرى • ومن ناحية أخرى لم يرض السلطان عن تلك الاتفاقية وعزم على أن يستعيد فتوحاته فى إيران بالقوة مرة أخرى • وبعث السلطان العثمانى بجيش جديد بقيادة عبد الله كوبرلى • فما كان من نادر الا ان استدرج جيش كوبرلى الى منطقة عرفت باسم (باغواند) Baghuand ورغم تفوق الجيش العثمانى فى العدد الا أن نادر أحـــرز نصرا كبيرا جعل « تفليس » و « أريفان » و « جانجا » فى قبضته • وكانت هذه الهزيمة سببا فى أن يتخلى السلطان عن تصلبه وفى أن يوافق على ما سبق أن توصل اليه نادر مع أحمد باشا من تفـــــاهم •

ولقى نادر نجاحا فى الجبهة الروسية لا يقل عن نجاحه فى الجبهة العراقية • فلقد توفى بطرس الأكبر • وتوقفت من بعده — ولفترة ليست بالقصيرة — سياسة التوســـع الروسى • اذ لم تكن القيصرة آن Ann من ذلك النوع الطموح الذى سنشاهده فى كاترين الثانية • فقد وافقت آن Ann على أن تتخلى عن الولايات الفارسية وتعيدها الى إيران وتم الاتفاق فى معاهدة رشت Recht ١٧٣٢ على استرداد فارس لكل من مازندان ، واستراباد ، وجيلان (١) •

ولم يلبث نادر أن استرد من الروس أيضا « باكو » و « دربند » مهددا بالتحالف مع الدولة العثمانية ضد روسيا • وكانت الحرب حينذاك على وشك الوقوع بين الدولتين العثمانية والروسية الأمر الذى عجل بتنازل روسيا عن هذين المكانين •

وهناك عامل آخر جعل روسيا تترك باكو ودربند لفارس بسهولة ، وهو أن مصلحة روسيا باستمرار ابعاد الدولة العثمانية عن مثل هذه المناطق خاصة وأن إيران لم تكن حينذاك بمثل الخطورة التى كانت عليها الدولة العثمانية بالنسبة لروسيا •

وقعت هذه الانتصارات الكبيرة قبل وفاة الشاه الطفل (١٧٣٦) بثلاث سنوات فقط • الأمر الذى جعل من نادر الرجل الأول بلا منازع عسكريا أو شرعيا على اعتبار أنه

---

(١) تقول الرواية الفارسية أن نادر هو الذى طلب من الروس اخلاء تلك الولايات القزوينية • فبعث البلاط الروسى سفارة للتفاوض مع نادر • وعنـــدما دخل المفاوض الروسى على نادر كان الأخير قد تعمد أن يتناول طعامه ويديه مخضبتين بالدماء مؤكـــدا للروس أنه لن يتنازل عن جيلان فحصل عليها •

هو الذى أصبح المسئول عن البلاد بصفته الوصى على العرش · ولا شـك أن نادر كان يطمع فى ان يكون هو صاحب اليد العليا فى البلاد ، أما أن يكون شاها فهذا ما لم يتطلع اليه الا بعد ان استمر فى منصب الوصى لفترة ليست بالقصيرة جعلته يعيش حيـاة الملوك ولم يعد ينقصه الا اللقب · ومع هذا أبدى زهدا فى العرش ·

وفى احتفال النوروز — وهو اهم احتفال إيرانى سنوى — دعا نادر أعيـان ونبلاء الدولة ، وطلب منهم أن يختاروا شاها من بين أبناء البيت المالك · ولكن الأعيان والنبلاء رفضوا الا هو شاها على البلاد · فرفض غير مرة ، ولمدة شهر ظل يرفض العرش حتى استجاب اخيرا وقبل العرش لانقاذ فارس ولمتابعة رفعها الى اعلى المستويات ·

ونادر شاه على هذا النحو ليس مرتبطا بسياسات الأسرة الصفوية ولا بتراثها ، ومن هنا كانت قدرته على أن يقدم على تغييرات جذرية فى البلاد من الناحية المذهبية · فقد كان يعتقد أن المذهب الشيعى مسئول الى حد كبير عن تدهور البلاد ، وعن عزلتها عن بقية جيرانها · ولكن الانقلاب الكامل نحو المذهب السنى كان أمرا عسيرا للغاية لأن ذلك سيضعه فى مصاف الزعامات السنية الأخرى فى الدولة العثمانية وفى افغانستان ، فضلا عن أن ذلك يثير عليه شيعة فارس وشيعة العراق · فاتجه نادر الى حل وسط وهو اعلان المذهب الجعفرى — نسبة الى الامام جعفر الصادق — مذهبا سنيا خامسـا · والمعروف أن لجعفر الصادق منزلة كبيرة فى قلوب المجتهدين الشيعة · ثم ان اعلان هـذا المذهب ربما ينسى الناس تراث الصفويين المذهبى (المذهب الاثنى عشرى) ويجعـله قادرا على كسب اهل العراق — وهو قسمة بين الشيعة والسنة — اليه ، وهـو الذى يطمع طمعا كبيرا فى السيطرة على العراق ·

ويبدو أن النبلاء والأعيان كانوا أكثر تفهما للأهداف السياسية وراء هذه الفكرة المذهبية الجديدة فوافقوه على ما ذهب اليه · وربما كانوا مفتونين بالانتصارات التى أحرزها فمنحوه الثقة فى مختلف المسائل · ومن ناحية ثالثة لا شك أنهم كانوا يخشون معارضته ، خاصة وهو فى أوج قوته ·

بعد أن جلس على العرش اتجه نادر شاه الى التوسع على حساب جيرانه ، توصلا الى مجد جديد · وهناك عوامل أخرى حثته على التوسع العسكرى · فهو شاه جديد ، ومن

شيمة الملوك الجدد التوسع وضم البلاد . ولقد كانت جهوده العسكرية فى البلاد المجاورة تؤكد له انه يستطيع السيطرة عليها وضمها الى إيران . ولما كان نادر شاه قد شكل جيشا كبيرا لتحرير بلاده من القوى العديدة التى كانت تسيطر عليها فان هذا الجيش كان فوق طاقات إيران الاقتصادية وبالتالى لا سبيل الى المحافظة عليه الا بالتوسع والحصول على دخل جديد من وراء الفتح وضم الأراضى وجمع الأسلاب من الأعداء المقهورين .

اتجه نادر شاه أولا صوب قندهار ، وكانت حينذاك تحت حكم حسين (أخو محمود الأفغانى) . وكان حسين يدرك أنه أعجز من أن يتصدى لجيش نادر شاه فى معركة مكشوفة فآثر أن يغلق أسوار المدينة على جيشه بعد أن شحنها بالمؤن اللازمة . فضرب نادر شاه عليها الحصار وطال أمده الى حوالى العام حتى سقطت فى يده .

لم يعامل نادر شاه (قندهار) بقسوة ، وانما كان حكيما نحوها . وادخل عددا من الأفغانيين فى جيشه ، وأصبحوا بعد ذلك من أكثر الجند اخلاصا له .

ولكى يكسر شوكة العصبية العسكرية فى قندهار نقل نادر شاه أعدادا كبيرة من الغيلزاى الى نيسابور واحضر مكانهم أعدادا مماثلة تقريبا من عشيرة (العبدلى) لتقيم فى قندهار .

ولما كان حاكم بلخ قد وعد (حسين) بالوقوف الى جانبه ضد غزوة نادر شاه له ، وجه الأخير جيشا ضده بقيادة ابنه رضا قولى ميرزا ، فاستولى على بلخ ثم هزم جيشا للأوزبك . ويبدو أن ميرزا قولى كان ينوى متابعة الزحف صوب بخارى ولكن نادر شاه سحبه ومنعه من متابعة سياسة التوسع فى أراضى جنكيز خان والتركمان . ومع هذا فقد عمد الى فتحها هى وخيوه بعد عودته من حملة فى الهند (١٧٤٠) .

وخلال تلك العمليات وجدت القوات الأفغانية المهزومة طريقا بسرعة الى الهند الأمر الذى كان يمثل خطرا على استمرار أفغانستان تحت يده .

وأغلب الظن أن نادر شاه عندما كان يدير الحرب فى قندهار كان يفكر فى ارسال حملة الى دلهى . فللهند جاذبية كبيرة لكل من يقترب منها، وبالذات لكل من يضع قدميه بقوة فى أفغانستان ، فهى مفتاح الهند الشمالى .

ولقد كانت أحوال الهند نفسها تغرى نادر شاه بالتوجه اليها · فلقد توفى آخـــر الملوك المغول الكبار أورانجزيب فى ١٧٠٧ تاركا وراءه امبراطورية واسعة تمتد من كابول الى خليج البنغال · وكان يسيطر على الغالبية العظمى من الهند نفسها وان كانت سلطاته ضعيفة فى الجنوب بصفة خاصة · ومن بعده أخذت هذه الامبراطورية المغولية الذائعة الصيت تتفكك وتظهر على حسابها قوة منافسة لها عســـكريا ومذهبيا هى قوة الماراثا الهنـــــــــدوس ·

جلس على العرش فى ١٧١٩ م / ١١٣١ هـ محمد شاه ولم يكن رجلا جديرا بعرش المغول اذ القى بنفسه بين النساء والخمر ، ولم يعد جيشه قادرا على خوض المعارك وبدا واضحا أن دولته على شفى الانهيار ·

أزعجت هذه الأحوال عددا من كبار رجال دولته · وبحثوا عن شخص يستطيع أن ينقذ البلاد · وكانت أنباء نادر شاه قد بلغت الهند ، فكان بطلا من أبطال المسلمين،ومن ناحية أخرى كانت فارس وأفغانستان ملجأ ملوك المغول لكى يعيدوا تنظيم قواهم ، ولكى يستعينوا بفارس ضد أعدائهم · ولهذا كان تطلع رجال (الشاه محمد) الى نادر شـــاه أمرا طبيعيا · فكاتبوا نادر شاه لكى يقدم عليهم ، وهونوا عليه أمر فتح البلاد ، وقاموا باضعاف سيطرة رجال (محمد شاه) على القلاع الرئيسية فى المناطق المتطرفة ·

ومن ناحية أخرى ، بعث نادر شاه الى بلاط دلهى محذرا من خطـــورة اللاجئين الأفغانيين فى الهند على مستقبل العلاقات الطيبة بين الدولتين · ولكن حكومة الشـــاه محمد كانت واهية ، وما كانت لتعتنى بمثل هذه الأمور فكان أن قامت القوات اللاجئة الأفغانية بعبور الحدود الى كابول وغزنة فى حرية تامة ، بل وقد تجرأ (محمد شاه) على قتل مبعوث أرسله نادر اليه ليتفاهم معه على حل للمشكلة · ويبدو أن (محمد شاه) ما كان ليعتقد أن نادر شاه يستطيع ان يفكر فى غزو الهند · ولذلك عنـــدما بدأت غزوته للهند كانت مفاجأة قاسية لمحمد شاه ورجاله جعلتهم فى حالة ارتباك شديدة ·

انقض نادر شاه أولا على كابول ، وغنم منها أموالا دفعها مرتبات لجنـــده ، ثم استولى على بيشاور وعبر نهر السند والتقى بجيش محمد شاه فهزمه هزيمة مروعة ثم

استولى على دلهى (وعرش الطاووس) وعلى مغانم وصلت الى حوالي ٨٧ مليون جنيه استرلينى على الأكثر أو ٣٠ مليون على الأقل · وهو مبلغ ضخم للغاية حينذاك .

ويبدو ان نادر شاه كان يود ان يظهر بمظهر الفاتح القوى العادل الذى لا تمتد يد جنده الى رقاب السكان · ولكن لم يلبث أن أمر بمذبحة بشعة لسكان دلهى لمجرد هجوم وقع على عدد قليل من جنده ·

ولا شك أن تطرف وقسوة نادر شاه هذه ترجع الى أنه وجد نفسه فى محيط غريب عليه ، مترامى الأطراف ، يكاد أن يضيع هو وجيشه فيه · ومن ثم كان فى حاجة الى استخدام الارهاب حتى يحافظ على كيان قواته فكان ان وقعت تلك المذبحة وحتى الآن لا تزال مثلا يتداوله الناس على القسوة البشعة ·

ولعل هذا الشعور بالضياع فى خضم الهند هو الذى حدا بنادر شاه الى أن يعلن نفسه شاها على الهند ، اذ ابقى محمد شاه على عرشه ، وأمر الرعية بطاعته · ولم يضع نادر شاه يده الا على ولايات شمالى السند · وهذا تصرف سياسى حكيم (١١٥١ / ١١٥٢ هـ) (١٧٣٩) ·

بعد أن فتح نادر شاه بعض الهند، عاد الى فارس واستولى على بخارى وخيوه، وذهب الى « قلعة نادرى » وبنى فيها قصرا وضع فيه كنوزه ومجوهراته · ثم ذهب الى مشهد واحتفل هناك بانتصاراته · ويكون بذلك قد بلغ نادر شاه ذروة مجده وقوته (١٧٤٠ / ١٧٤١) · ولكن ابتداء من ١٧٤٢ بدأت الأمور تتغير ضده ، وبدا هو نفسه يتغير ويفقد كثيرا من ميزاته السياسية والعسكرية · وكانت اول أزمة وقع فيها تورطه فى حرب الليزغيان Lesghian ·

هناك مثل ايرانى يقول انه اذا كان هناك ملك فارسى غبى فليزحف ضد الليزغيان· وهو مثل سيثبت نادر شاه صحته · فهذه العشائر تقطن منطقة وعرة للغاية ، يصعب الوصول اليها · وقد اثاروا نادر شاه ضدهم عندما انتهزوا فرصة غيابه فى الهند · فأخذوا يجتاحون داغستان وشروان وغيرها من المناطق الهادئة ، حتى لقد قتلوا الأخ الوحيد لنادر شاه وهو (ابراهيم خان) · فاقسم نادر شاه لينتقمن لأخيه · وبعث بحملة

كبيرة ضدهم . وسارت الأجزاء الأولى من خطة الحملة حسب ما هو مرسوم لها من حيث اخضاع القبائل على طول مسيرة الحملة ونقل بعض عائلاتها الى خراسان ، ثم وضع ثمانية آلاف جندى على حراسة خطوط تموينه ، ثم سار متعقبا المتمردين عبر الجبال الوعرة وغاباتها ، حتى حانت الفرصة لتلك القبائل لتضرب ضربتها بالطريقة التى اتقنتها .

وفى الموقع المناسب انقضت قوات المتمردين على جيش نادر شاه ، وأبادت قطعات كبيرة منه ، وتشتت شمله ، وبلغ جند الليزغان الخيام الملكية ، واستولوا على بعض النساء والمجوهرات .

ازاء هذه النكبة العسكرية المفاجئة آثر نادر شاه ان يتراجع الى قواعده الخلفية ، وكاد الجيش أن يهلك جوعا خلال تقهقره لولا أن وصلته امدادات من استراخان .

ومما ضاعف من مظاهر هزيمة نادر شاه ان الروس كانوا قد نظروا بعين القلق الشديد الى تحركات الجيش الفارسى فى اراضى الليزغيان ، لدرجة ان روسيا بعثت اليهم بقوة عسكرية تشد ازرهم ، وتحثهم على طلب الحماية الروسية . وكان المفروض أن يثبت نادر شاه أنه قادر على مواجهة هذه التحديات ولكنه كان يدرك ان هناك فى فارس من ينتظر يوم هزيمته ليثور عليه .

وفعلا وقعت محاولة فاشلة لاغتياله عقب عودته من حملته الفاشلة تلك . واشارت أصابع الاتهام الى ابنه رضا قولى ميرزا . وكانت هناك سابقة توحي بأنه لا يتورع عن ذلك . فقد سبق له ان انتهز فرصة شائعة ضعيفة تقول أن نادر شاه مات فى الهند واعلن نفسه شاها على فارس . ورغم ان رضا قولى خان كان يكرر براءته ويؤكدها الا أن أباه كان فى حالة قلق شديد من جراء هزيمته امام الليزغيان ، فأمر بسمل عينى ابنه فقال له رضا قولى :

« ليست عيناى هما اللتان تطفىء نورها ، انما أنت الذى تطفىء نور فارس » .

واصبح الأمير ضريرا ، واصبح نادر شاه أكثر قلقا وعنفا وقسوة وشراسة حتى انه لم يلبث ان أمر بسمل عينى كل من حضر مشهد سمل عينى ابنه رضا قولى .

كانت ثورة الليزغيان الناجحة الأولى من الثورات التى هدت من كيان نادر شاه • فقد وقعت ثورات عدة فى كل من شيراون وفارس واستراباد •

فقد ظهر فى شيروان من أدعى انه ابن الشاه حسين ، وقدم له الليزغيان مساعدة قيمة وهزموا قوة فارسية فرد نادر شاه على ذلك بأن أرسل حملة كبيرة ضد شيراون واسال دماء المنطقة انهارا ، وقبض على الثائر نفسه وفقع احدى عينيه ليرسله الى السلطان العثمانى مصحوبا برسالة تقول أن نادر شاه لم يعدم هذا المتمرد الذى لا يساوى شروى نقير والذى وافقه السلطان العثمانى على ثورته •

وتمرد (تقى خان) حاكم اقليم فارس لفشله فى تنفيذ سياسة نادر شاه فى الخليج العربى بنجاح فأدبه • والواقع أن ظروف الخليج كانت تشجع نادر على السيطرة عليه وذلك عندما استنجد الامام سيف بن سلطان (الثانى) امام عمان اليعربى فى ١٧٣٧ بنادر شاه لمواجهة التمردات ضده • وانتهز نادر شاه هذه الفرصة للاستيلاء على عمان وبعث بحملة اليها (١٧٣٧) واجتاح الايرانيون عمان واستولوا على مسقط وضربوا الحصار على صحار وبها أحمد بن سعيد (مؤسس دولة البوسعيد فى عمان) • وبينما مات الامام سيف بن سلطان ظل أحمد بن سعيد صامدا حتى استطاع أهل عمان ان يوحدوا قواهم ويشنوا حربا شعواء على الفرس حتى هزمهم واجهز عليهم أحمد بن سعيد فى (١٧٤١) •

وفى استراباد وقعت ثورة بزعامة (القاجار) فهزمهم نادر وقسا عليهم ودمر منطقتهم وقضى على امكانياتها الانتاجية •

ثم شن حربا ضخمة على الدولة العثمانية لعدم اعترافها بالمذهب الجعفرى مذهبا خامسا سنيا ولصدور فتوى باعتبار اتباع هذا المذهب مارقين عن الدين • واصبح بذلك موقف نادر شاه صعبا للغاية فهو مكروه من السنة ، وكذلك كان من العسير جدا على المجتهدين فى العراق ، وعامة الشعب الفارسى ان يأخذوا بنظريته •

اجتاحت الحملة الفارسية شرق العراق ، وحاصرت الموصل ، كما حاصرت فى أقصى الشمال « قارص » وكان الجيش الفارسى متفوقا فى البداية ولكن بتوالى الهجمات من

جانبه على الجيش العثمانى كان يفقد الآلاف المتتالية التى تضعف من قوة الجيش بسرعة ولكنه لم يلبث أن انتصر انتصارا كبيرا فى معركة مكشوفة ضد الجيش العثمانى اضطرت السلطات العثمانية الى عقد صلح فى ١٧٤٦ على أساس معاهدة ١٦٣٩ ٠

وكما كان نادر شاه فاشلا فى معظم تحركاته العسكرية بعد ١٧٤١ ، كذلك كانت الأمور الاقتصادية لا تحرز الا النجاح القليل ٠ فقد كان الانجليز معنيين بفتح التجارة مع فارس عن طريق روسيا وميناء رشت Recht ، ولكن خشيت روسيا من تفوق التجارة البريطانية على التجارة الروسية وفشل المشروع نهائيا بعد مصرع نادر شاه (١٧٤٧) ٠

كذلك فشلت جهود نادر شاه فى انشاء أسطول فارسى كبير فى بحر قزوين أو فى الخليج العربى ٠ وكانت روسيا تعارض هذا النمو البحرى الفارسى فى بحر قزوين ، كما كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تعارضه فى الخليج العربى ٠

أما فى مجالات الادارة والتنظيم فلم يكن له نشاط يذكر ، ولم يخفف الضرائب ، وانما اوقع البلاد فى أواخر حكمه فى فوضى الخوف والارهاب والتمردات ٠

كانت الأيام الأخيرة لنادر شاه مليئة بالجماجم ، والضحايا بالألوف ، وفر كثير من الناس الى الكهوف والصحارى خوفا من بطشه ، واصبح هناك سخط عام عليه ٠ فتمرد عليه عمه وأعلن نفسه شاها فى سستان ، وثار الأكراد فى كوشان فذهب لتأديبهم فلقى مصرعه — وهو على بعد قليل منهم — على يد أحد أبناء عشيرته ، ولفظ أنفاسه وهو يصارع قاتله (١٧٤٧ م / ١١٦٠ هـ) ٠

ولو كان نادر شاه مات خلال غزوته للهند أو بعدها لربما ظل بطلا اسطوريا لفارس٠ ومع هذا فهو من عداد شاهات فارس العظام ٠

ولقد رضى قواد نادر شاه عن مصرعه بعد تلك الأعمال المتطرفة التى قام بها فى أواخر أيامه ٠ ولكن ظل قائد كبير واحد معارضا لبقية القواد فى هذا الصدد هو « أحمد خان » الدورانى الذى كان يقود فرق الأفغان والأوزبك ٠ ودارت المعركة بين الطرفين وانهزم احمد خان الى قندهار ليؤسس فيها مملكة له ٠ فسيطر على افغانستان تقريبا

واستولى على هراة ومشهد ، وغزا الهند واستولى على كشمير والسند وعلى جزء من البنجاب ، بل لقد وضع يده على دلهى لفترة قصيرة ٠

اسند العرش بعد مصرع نادر شاه الى ابن اخيه (على قولى) الذى عـرف فى التاريخ باسم (عادل شاه) ٠

وكانت اولى اعماله أن اعلن انه هو المسئول عن مصرع عمه نادر شاه متذرعا بأنه كان ينقذ البلاد من بربرية ووحشية نادر شاه ولكن عادل شاه سـلك نفس الطريق الوحشى مبتدءا بأسرة نادر شاه نفسه اذ بعث بقوة عسكرية الى (قلعة نادرى) فأباد حاميتها واستولى على كنوزها واذل اسرة نادر شاه بين قتيل وشريد فى مذبحـة لم يستثنى منها الا صبى فى الرابعة عشرة من عمره هو (شاه رخ مرزا) (١) ٠

كان « عادل شاه » من ذلك النوع القادر على تدبير المؤامرات دون أن يكون قادرا على الاحتفاظ بعرش ٠ ومن هنا بدات فارس تتعرض لمشكلات معقدة وتتفكك بسرعة ٠

ولم يمكث « عادل شاه » طويلا فى العرش ٠ اذ كانت فترة حكمـه فترة ضعف للسلطة المركزية ٠ ولم يلبث أن سملت عيناه بواسطة أخيه ابراهيم الذى هزم هو الآخر وقبضت عليه قواته وقتل وهو فى طريقه الى مشهد كما قتل « عادل شاه » وارتفعا الى العرش « شاه رخ » ٠

كان من المعتقد ان أصله الملكى ودماثة اخلاقه كفيلة بان تعطيه حكما طويلا ولكن برز منافس قوى له فى شخص ابن احد المجتهدين المشهورين وهو (مرزا سيد محمد) وكان مرزا سيد محمد ابن أخت الشاه حسين ٠ واعلن مرزا سيد محمد أن شـاه رخ سيسير على نفس سياسة عمه من حيث القضاء على المذهب الشيعى وجمع جيشا هزم به شاه‌رخ وقبض عليه وسمل عينيه واعلن نفسه الشاه سليمان ٠

ولم يلبث أن ظهر على المسرح « يوسف على » قائد جيش « شاه رخ » الذى كان غائبا خلال تلك الأحداث فقبض على سليمان وسمل عينيه ثم قتله هو وولديه ٠

---

(١) هو ابن رضا قولى — السىء الحظ — من فاطمة ابنة الشاه حسين ٠

ارتقى « شاه رخ » مرة أخرى العرش واصبح « يوسف على » وصيا ٠ ولكن لم يلبث أن شن قائدان هما « علم خان » وكان يقود قوات عربية ، « وجعفر خان » ويقـود قوات كردية ، حملة هزت كيان « يوسف على » وسملت عيناه ، واخذ شاه رخ مـرة أخرى الى السجن ٠

ولم يلبث أن تشـاجر القائدان ، وانتصر « علم خان » وسمل عينى منافسـه « جعفر خان » ، وأصبح على « علم خان » أن يواجه تقدم أحمد شاه قندهار الذى سبق أن استولى على « هراة » ولكن انهزم « علم خان » وقتل واستولى أحمد شـاه على « مشهد » وحاول أن يحصل على خراسان ــ بعد أن ضم هراة ومشهد وسستان ــ على أن تظل ولاية مستقلة تحت السيادة الاسمية للأفغان ١٧٤٩ ٠

— ٢ —

كريم خـــان الزند

مهدت هذه الفوضى لظهور شخصية تستطيع أن تسيطر على الموقف ولو سيطرة جزئية ٠ وكان ذلك هو دور كريم خان الزندى ٠

كان كريم خان الزندى واحدا من الذين سعوا الى الحكم والســـيطرة خلال فترة الفوضى تلك ٠ وهو من قبيلة لك Lak ، وكان قد عمل جنديا فى جيش نادر شاه دون أن يكون لنفسه حينذاك مكانة ذات قيمة ٠ وبدأ نجمه يرتفع عندما تحالف مع « على مردان » زعيم البختيارى ٠ ولكن لم يلبث أن دب الصراع بين الطرفين ، وبعـد مصرع الزعيم البختيارى اصبح كريم خان سيد جنوب فارس ، واستطاع بشخصيته وكرمه ، وعدله أن يكسب القلوب هناك ٠

أصبح الموقف فى فارس معقدا فخراسان كانت فى يد « شاه رخ » بينما كان كل من « كريم خان الزندى » و « محمد حسين خان » و « أسد » يتصارعون على العرش ، وبدا لكل منهم أن فرحة النجاح باتت فى متناول يده ٠ ولكن الذى كسب الجولة الأخيرة هـو كريم خان ٠ فقد دارت المعركة الافتتاحية بين كريم خان الزندى والقاجار على حـــدود « مازندان » وكانت الغلبة لكريم خان ، ولكنه لم يستطيع مطاردة المهزومين بسبب تقدم الأفغان ٠ وكان هؤلاء الأفغان قد غزوا « جيلان » ولكنهم عندما سمعوا بأنباء انتصـار كريم خان على القاجار تراجعوا ٠

وخلال ذلك كان كريم خان قد أعاد تنظيم جيشه ولكنه بدلا من ان يهاجم محمـد حسين خان — كما كان معتقدا — هاجم « أسد » فاغلق هذا الأفغـــانى « قزوين » على نفسه ٠ ومن موقعه هذا أخذ يعمل على طرد كريم خان من المنطقة ٠ ومنى كريم خان بعدة هزائم حتى اضطر الى التراجع الى بوشهر وطارده الأفغان حتى استطاع أن يوقع بهم بمساعدة رستم سلطان رئيس « كشت » وأبادهم وعاد كريم خان من بعد الى شيراز ٠

سارت الأمور لصالح كريم خان ، اذ تساقط منافسوه الواحد بعد الآخـــر اذ لم يصمد أى من حسين خان أو أسد أمامه ٠ وشرع كريم خان فى حكم فارس وهو حكم امتد

حوالى تسعة وعشرين سنة (١١٦٣ — ١١٩٣ هـ) (١٧٥٠ — ١٧٧٩) • ولمدة عشرين عاما كان حاكما لفارس دون منازع ، ولكن دون أن يطالب بالعرش اذ اكتفى بوضع يده على كافة السلطات معلنا نفســه « وكيلا » عن الشـــــاه الذى كان محتجزا لديه ، واتخذ من شيراز عاصمة له التى عنى بها كل العناية • وكان معنيا برفاهية شعبه ، وكان اذا عرف — أن قسما من أهالى المدينة لا يستمعون الى أنغام الموسيقى يستفسر ويبحث ويدفع الأموال للموسيقيين ليعزفوا موسيقاهم الشجية لهم • وشاعت روح المحبـــة والحبور بين الأهالى •

ولقد أعطى كريم خان فعلا فارس المتعبة التى ملأت ارجـــاءها أقاصيص البؤس والقتل الجماعى وتلال الجماجم ومآسى الاعتداء على المحصنات وسمل العيـون ، لقد أعطى إيران هذه ثلاثين سنة من نعمة الهدوء والاستقرار •

وكان الاستقرار الذى نعمت به فارس على يد كريم خان سببا فى ان يتجه الانجليز الى اعادة علاقاتهم المباشرة الاقتصادية مع فارس • فمنذ الغزو الأفغانى والفوضى التى أعقبته من الأمور الرئيسية التى ادت الى اغلاق الوكالات الأوروبية فى فارس وبعد انتهاء موجة الفوضى العارمة لم يعد فتح بعضها • وقد أغلق الانجليز وكالتهم فى بندر عباس فى ١٧٦١ بسبب الضغوط التى كان يمارسها حاكم لار (لرستان) • وفى ١٧٦٣ أختيرت بوشهر — ميناء شيراز — لتكون مركزا للنشاط التجارى البريطانى • ولما كان كريم خان الزند معنيا كل العناية باستمرار الانجليز فى توسيع نشاطهم التجارى فى بوشهر أصدر فرمانا يتضمن امتيازات مشجعة لتنمية النشاط التجارى البريطانى هناك •

نص فرمان كريم خان الزند لشركة الهند الشرقية البريطانية فى يوليـــو ١٧٦٣ على ما يلى : —

« للجانب البريطانى الحرية فى اقامة وكالة فى بوشهر أو أى ميناء آخـــر فى الخليج وله أن ينصب فيها من المدافع بالقدر الذى يشاؤه على ألا تكون هذه المدافع أكثر من عيار ستة أرطال وأن يبنى فيما يتعلق بهذا الغرض فى أى جزء من المملكة أى عدد من الأبنية العادية كما يجب أن تعفى تجارتهم من رســـوم الاســـتيراد والتصدير الداخلية فى كل من بوشهر أو أى ميناء آخر ، كما يجب أن لا يتقاضى

شيخ بوشهر والحكام المحليون الآخرون أكثر من ٣٪ كضريبة تصدير على البضائع البريطانية التى تشترى من قبل التجار الإيرانيين كما يجب أن يكون للبريطانيين حق احتكار توريد البضائع الصوفية الى إيران كاجراء ضد جميع الجنسيات الأخرى • كما يجب على الحكام المحليين مساعدتهم فى استيفاء ديونهم المشروعة فى إيران • وفى حالة فشلهم فان للبريطانيين الحق فى اتخاذ اجراءاتهم ضد المستدينين منهم • وأن تجارتهم يجب أن تكون حرة من جميع القيود فى أنحاء إيران كما يجب على التجار الوطنيين عدم شراء بضائع من أى سفينة بريطانية تصل الى ميناء إيرانى بدون معرفة وموافقة الممثل البريطانى الرسمى • كما أنه يجب على السلطات المحلية عدم نهب اى مركب بريطانى فى الخليج اذا ما ضاع أو قذف الى الشاطىء ، بل عليها مساعدته بدون مقابل وأن يتمتع البريطانيون ومن هم تحت حمايتهم بتسامح دينى فى جميع أجزاء البلاد وعلى السلطات الإيرانية أن تسلم للبريطانيين الأشخاص الفارين من الخدمة سواء أكانوا بحارة أو جنودا او خدما •• وأن يعفى المترجمون والوسطاء وخدم الوكالة من الضرائب الإيرانية ، وكذلك رعايا الادارة البريطانية • كما يجب تحديد بقعة من الأراضى فى أى مكان يعينونه كمقبرة لهم • واذا ما رغبوا فى أرض كحديقة لهم فيجب أن تقدم سواء كانت بدون ثمن من أراضى التاج الإيرانى أو بدفع ثمن زهيد لأرض ليست من أملاك التاج كما يجب ان تعاد اليهم الدار السابقة التى تمتلكها شركة الهند الشرقية فى شيراز وما يتبعها من حديقة وما يخصها من مياه • ويرغب الوكيل فى الاشتراط بالاضافة الى البنود السابقة بأن يأخذ البريطانيون المنتجات الإيرانية مقابل دفع كامل او جزئى بالبضائع ، وعدم تصدير قيمة مبيعاتهم نقدا وألا يسيئوا معاملة المسلمين كما يجب تفضيل التجار الرئيسيين والرجال الموثوقين عند بيع مستورداتهم كما يجب عليهم عدم ايواء الأشخاص الثائرين على السلطات الإيرانية بل يجب على العكس تناول الموضوع بالدراسة للتأكد من أنهم لم يعاقبوا للمرة الأولى أو الثانية • واخيرا يجب على البريطانيين عدم مساعدة أعداء حاكم إيران سواء بشكل مباشر أو غير مباشر •

حقيقة لم توافق مقيمية بومباى — المسئولة عن تلك الاتصالات مع كريم خان —

عن بعض تلك الشروط ولكن سارت الأمور بين كريم خان والانجليز نحو التطور والتعاون. فقد كان كريم خان فى حاجة الى الأسطول البريطانى فى الخليج العربى لاخضاع مير مهنا الذى كان يشكل قوة بحرية كبيرة متمركزة فى (بندر رق) ، أو الى الأسطول الهولندى فى (خرج) (١) ، ولقد قدم الانجليز بعض المساعدات وهاجموا عبثا جزيرة (خرج) ، ولكن خلال ذلك وقع سوء تفاهم وتباعد بين كريم خان والانجليز ووصلت هذه الأزمة ذروتها عندما سحبت الشركة ممثليها من بوشهر الى البصرة .

كانت هناك عوامل عديدة تلح على كريم خان لكى يستولى على البصرة بالاضافة الى ارغام الانجليز على العودة الى بوشهر ، وهى عوامل تقليدية متعلقة بتعديات العشائر على الأراضى الايرانية . وكانت ذكريات النجف وكربلاء والمعاملة السيئة التى يعامل بها حجاج العتبات المقدسة الايرانيين من الدوافع القوية لان يعد الفرس المبررات لاعلان الحرب على العراق العثمانى لامتلاكه .

وكان كريم خان نفسه كرديا ، فمالت اليه العصبية الكردية فى شهرزور . واعطى النزاع الأسرى العنيف الذى لا ينقطع فى الامارات الكردية فرصة لتدخل كريم خان فى أمور العراق فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية تجاهد فى الوقوف على قدميها عسكريا أمام جيوش قيصرة روسيا الطموحة (كاترين الثانية) المنتصرة . ولذلك لم يكن لدى الدولة العثمانية جيوش لتوجه الى العراق لانقاذه . هذا الى أن قوات والى بغداد المملوكى (عمر باشا) نفسها وامكانيات الشعب كان قد ارهقها الطاعون .

كان من الطبيعى ، والحالة كذلك أن تنهار مقاومة عمر باشا — والى بغداد المملوكى — أمام الهجوم الفارسى فى شهرزور . أما البصرة فقد حمل لواء الدفاع عنها متسلم على جانب عظيم من المقدرة هو سليمان اغا . والذى عرف فيما بعد باسم سليمان

---

(١) خلال فترة الفوضى اسيئت معاملة كنبهاوزن (الهولندى) وسجن . ثم استولى على جزيرة (خرج) عند مدخل الخليج العربى واستطاع بذلك أن يتحكم فى مدخل شط العرب وارغم حاكم البصرة أن يدفع ثمن معاملته السيئة له . وبفضل الوجود الهولندى فى (خرج) تحولت هذه الجزيرة القاحلة الى جزيرة عامرة ، ولكنها لم تلبث أن فقدت أهميتها بعد أن استولى عليها مير مهنا .

باشا الكبير (١) وكان المتسلم محبوبا من أهل البصرة ، فتفانوا فى الدفاع عنها واستنجدوا بكافة القوى التى كانت مستعدة للتعاون معهم فجاءتهم امدادات بحرية من مسقط وقدم المقيم البريطانى مساهمة بحرية فعالة ٠ واستمات المدافعون حتى استنفدوا طاقتهم ، وحتى آتاهم من أخبرهم بان بغداد لن تمد يدها اليهم فى الدفاع عن ميناء العراق ٠ ولكن كانت الضربة القاصمة لقوى الدفاع على المدينة على يد المقيم البريطانى فى البصرة ٠

فعندما اشتد حصار الإيرانيين للبصرة آثر المقيم البريطانى هناك أن ينسحب فجأة وأن يتفق مع الإيرانيين ففتح الطريق أمام الإيرانيين وسقطت المدينة فى يدهم ، ولم يلبث أن أعاد الانجليز فتح وكالاتهم فى البصرة تحت الحكم الفارسى ٠

وكان لما حل بالعراق صدى قوى فى الاستانة وكان السلطان قد خرج منذ وقت قليل من حربه الخاسرة مع قيصرة روسيا كاترين الثانية فالتفت الى العراق وارسل جيش انقاذ اليه ٠ ولكن الباب العالى اقتنع بان تبعة ما حدث تقع على عاتق (عمر باشا) والى بغداد فصدر الحكم بقتله دون أن يعنى العثمانيون العناية الكافية بانقاذ البصرة ، لأن السلطان كان ينوى أن يعيد العراق الى الحكم العثمانى المباشر بالقضاء على حكم المماليك، ولكن اثبت رجال الباب العالى فى العراق عجزهم عن السيطرة على العراق أو عن اخراج الفرس من البصرة واستمرت تحت حكم صادق خان — أخى كريم خان الزند — زهاء خمس سنوات ٠ ولم يخرج الفرس منها الا نتيجة لتطورات الأحداث فى داخل إيران نفسها فى أعقاب وفاة كريم خان فى ١٧٧٩ ٠

بعد وفاة كريم خان الزندى (الوكيل) وقعت سلسلة من الصراعات حول العرش، وكانت هذه الصراعات ليست بقاصرة على أسرة الزند فقط بل اشتركت فيها اسرة (قاجار) التى كانت خصما عنيفا للزنديين ٠ فكان ان ضعفت الأسرة الزندية ودالت دولتها لصالح الأسرة القاجارية ٠

كان لكريم خان أخ من أمه يدعى (زكى خان) ٠ وكان الرجل عنيفا ٠ وتجلى ذلك عندما وجهه كريم خان ضد القاجار برئاسة (حسين قولى خان) استخدم زكى خان

(١) حكم واليا على العراق من ١٧٧٩ — ١٨٠٢ ، وكان قبل ذلك متسلما (حاكما) على البصرة ٠

أساليب بربرية قاسية جدا ضد الثوار الأمر الذى جعله مكـــروها ومخيفا فى مختلف أرجاء فارس ٠

وعقب وفاة كريم خان استبد زكى خان بالحكم (مارس ١٧٧٩) وكان عليـــه أن يواجه عددا كبيرا من المنافسين له ٠ فقد وضع بعض أفراد الأسرة الزندية ايديهم على شيراز ورفعوا أبا الفتح خان (ابن كريم خان) الى العرش٠ فلعب زكى خان لعبة سياسية ناجحة حين أعلن أنه هو نفسه يعمل من أجل (أبو الفتح خان)٠وعلى هذا الأساس تفاهم مع الزعماء المسيطرين على قلعة شيراز ٠ وما أن استسلم هؤلاء حتى أعمل فيهم السيف و قد ساعده فى تنفيذ هذا الانقلاب ابن اخته مراد خان الرجل الطموح الشكوك ٠

اما صادق خان ، فقد اسرع خارجا بقواته من البصرة الى إيران مستعدا لحمـــل السلاح فى وجه كل مدعى للعرش ٠ الا أن زكى خان هدد بانه سيقتل أسرات كل من يميل الى صادق خان ومع هذا استطاع صادق خان أن يلعب دورا عسكريا وسياسيا على مسرح الأحداث خاصة وأن كريم خان قد اسند اليه — وهو على فراش الموت — الوصاية على أبنائه من بعده ٠ ٠

على أن القوة الخطيرة المهددة لحكم زكى خان كانت نمو قوة أغا محمد (قاجار) ٠ فبعث بجيش الى اصفهان بقيادة (على مراد خان) ، ولكن هذا الأخير لم يلبث أن ثار على زكى ، فزحف بجيش كبير ضده ولكنه — أى زكى خان — اغتيل فى سبتمبر ١٧٧٩ وهو فى الطريق اليه وبعد أن أقدم على مذبحة وحشية فى « يزدخاست » ٠

بعد مصرع زكى خان ارتقى العرش أبو الفتح الصبى غير الطموح ، الضـــــائع الشخصية ، ولكنه كان مشهورا بدماثة الخلق ٠ واذا بأول عمل قام به الشـــاه الجديد هو ان سجن أكبر خان (ابن زكى خان) واخاه (محمد على خان) الذى تزوج ابنـــة زكى خـــــان ٠

وفى أوائل يوليو ١٧٧٩ ظهر صادق خان فى شيراز ونجح فى أن يفرض نفسه على الشاه ٠ وكان نظام الحكومة بهذا الشكل مزدوجا ، وهو نظام لا يؤدى فى الغالب الا الى الصراع بين الطرفين فاقصى صادق خان منافسه (أبو الفتح) وسمله (١٧٧٩) بعـد حكم مزدوج لم يزد عن شهرين ٠

أصبح صادق خان بذلك رجل فارس الأول ، وان كان هناك منافسين خطرين له ، وعلى وجه الخصوص « على مراد خان » • ويبدو أن صادق خان اغتر بنجاحه الأولى ، ومن ناحية أخرى ، كان هو نفسه لا يتمتع بالكثير من حسن التدبير ، وان كانت فترة حكمه فى البصرة قد اثبتت أنه حاكم إدارى كفء • ولعل هذا النقص فى القدرات الذهنية يرجع الى أن ادارة مدينة ليست مثل ادارة مملكة مضطربة •

كانت هناك منازعات شخصية بين على مراد خان وصادق خان منذ أيام كريم خان نفسه • كان على مراد خان يطمع فى الزواج من ابنة كريم ، وكان صادق خان هو العقبة فى سبيله إذ كان يدرك ما سيترتب عن ذلك من أفول نجمه وارتفاع نجم على مراد خان • ولهذا تصدى على مراد خان لصادق خان فى أعقاب انفراد الأخـــــير بالحكم ، وطالب بالعرش لنفسه •

وحوالى يناير ١٧٨٠ (كانون الثانى) كان مراد خان قد استولى على أصفهان بينما استولى صادق خان على شيراز بما فيها من ثروة واسرة على مراد خان نفسه • واستطاع (تقى خان) أن يحرز نصرا كبيرا على (على مراد خان) ولكن لم يفد تقى خان من هـــذا النصر الذى اسكره وراح يتنقل معربدا بين قصور أصفهان ، فكانت فرصة لم(على مراد خان) خلالها شعثه ، وانقض على أصفهان فاستولى عليها ثم على شيراز نفسها التى كان يتحصن فيها صادق • ولما انتصر (على مراد خان) واستسلم له صادق وأولاده أذاقهم عذاب الموت باستثناء جعفر الذى سبق له أن تفاهم مع (على مـــــراد خان) ١١٩٥ هـ / ١٧٨١ م • انها لصورة مفزعة لفوضى الصراعات المحلية •

كانت لا تزال الأسرة القاجارية هى القوة الرابضة فى وجه الزنديين خاصة بعد أن سيطروا على مازندان ، وزاد موقف (على مراد خان) سوءا عندما زحف بجيش كبير ضد القاجار ، ولكن أعلن جعفر بن صادق خان الثورة ضد (على مراد خان) وكانت ثورته فى زنجان ، فعاد أدراجه وزحف ضده ولكن على مراد خان مات وهو فى الطريق اليه • فكان موته هو العامل الجوهرى فى أن أصبح الطريق الى العرش ممهدا أمام (اغا محمـــــد قاجار) • اذ كان جعفر خان أقل مقدرة من (على مراد خان) • وظهر هذا جليا لما أصبح الرجلان وجها لوجه جعفر خان فى مواجهة اغا محمد • وكانت الظروف معقـــــدة امام

الطرفين . فالزعامات العشائرية والمحلية انتهزت هذه الفرصة، خاصة غياب السلطة المركزية القوية ، وحاولت أن تستقل بنفسها او تلعب على الطرفين . ولذلك كانت جهود جعفر خان وأغا محمد ضد العصبيات المناهضة لا تقل عن جهودهما الواحد ضد الآخر .

فلقد انتصر أغا محمد على جعفر خان واستولى على اصفهان ولكنه انهزم أمام البختيارى ، فكانت فرصة لجعفر كي يستولى على اصفهان ليجد نفسه مضطرا لقتال ابن عمه اسماعيل خان المتمركز فى همدان فانتصر عليه (١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م). ثم وجه جعفر خان قواته ضد يزد الثائرة دون جدوى ، ويحاول أن يفرض سلطته بقوة فى لرستان وكرمان واصفهان ، ولكن انتهت جهوده عندما دس له السم فى الطعام ومات (١١٩٩ — ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٥ — ١٧٨٩) .

لما سمع (لطف على خان) ابن جعفر خان نبأ مصر أبيه ، فر الى بوشهر ليجد سندا قويا له فى شخص احد زعماء القبائل العربية . ولكنه لم يكن قادرا على الصمود بقوة أمام أغا محمد قاجار ، وان كان قادرا على اثارة المتاعب الكثيرة فى وجهه بسبب شجاعته وقدرته على الانتقال السريع من ميدان لآخر . واضطر فى نهاية الأمر الى التراجع الى كرمان ، وحاول التحالف مع تيمور شاه — الأمير الدورانى — ولكن عاجلت المنية الأمير قبل أن يحزم لطف على خان امتعته للسفر اليه . فاستمر فى الصراع المستميت ضد أغا محمد قاجار حتى استسلم اليه فسمل عينيه ثم قتله (١٧٩٤) .

أما مصير كرمان واهلها على يد أغا محمد وجنده فكان صورة من أبشع صور الانتقام . أباد أغا محمد فى مذبحة دموية أسرة الزند ثم امر ضباطه وجنده بأن يأتوا اليه بعشرين الف زوج من عيون اهلها وهدد قائد هذه العملية بأنه اذا جاءه بأقل من هذا العدد باثنين فقط فلن يكمل العد الا بسمل عينى القائد نفسه . فقام القائد بأبشع مهمة ، وأحال بذلك ذكور المدينة كلها الى ظلام العمى ، أما الفتيات والنساء فكانوا متعة الجند اذ جمعن وسلمن اليهم سبيا . ومن قتلى المدينة شيد اغا محمد تلا من الجماجم فى المكان الذى قبض فيه على « لطف على خان » . فكانت تلك البربرية المتناهية الضربة القاضية لكرمان .

واصبح أغا محمد من بعد هذا كله أقوى رجل فى إيران ، ورفع نفسه الى عرش ايران مؤسسا أسرة جديدة — الأسرة القاجارية — استمرت فى الحكم حتى اسقطها انقلاب رضا بهلوى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

★ ★ ★

الفصل الثالث

الأسرة القاجارية

اهم مشكلاتها الداخلية

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر

الشاهات الأول : أغا محمد وفتح علي شـــاه ومحمد شـــاه

يعتبر اغا محمد مؤسس الأسرة القاجارية ، رغم أنه لم يتول العرش ســوى فترة قصيرة للغاية . ولكن جهوده العديدة من أجل التغلب على كافة المنافســين جعلته قادرا على ان يضع نفسه على العرش بقوة وان تنتهى فوضى الصراعات العديدة الجـــوانب على العرش .

كان اغا محمد هذا أكبر أخوته التسعة . وكان قد وقع فى قبضة « عادل شـــاه » عندما كان فى الخامسة من عمره . وكان ما قاساه خلال سنى اسره وتحوله الى خصى هو السبب فى قسوته الشنيعة .

كان كريم خان الزند قد تزوج من اخت (اغا محمد) . وعامل كريم خان صهره بكل ترحيب خلال وجوده رهينة فى قصره . وما ان علم أغا محمد بوفاة (الوكيل) حتى فر الى الشمال الى موطنه . وبينما هو فى طريقه استولى على قافلة محملة بالأموال وما أن وصل الى عشيرته حتى وجد اخاه يعترض طريقه اذ أعلن نفسه ملكا . ومع هذا أصر أغا محمد ان تكون له اليد العليا فى منطقته ونجح فعلا فى أن يسيطر على الولايات القزوينية . ثم أصبح رجل فارس الأول والشاه فى (١٧٧٩) .

ولكن المعضلة الكبيرة التى كانت لا تزال تواجهه هى التفكك الشائع فى الدولة ، خاصة بسبب تعدى القوى شبه المستقلة ، وعدم التزام الولايات المتطرفة بسياســـة الحكومة المركزية . فقد كانت خراسان تحت الحكم الاسمى « لشاه رخ » ، ولم تلبث أن توزعت الى اقسام متعددة يحكمها مغتصبون متقاتلون .

اما مشهد فكانت مسرحا للقيادات الانتهازية التى لا تتورع عن نهب الأضرحة ، ثم سيطر عليها مامش خان الشيرنان — وهو كردى — استمر فى حكمها خمس سنوات حتى عادت سيطرة شاه رخ اليها بواسطة تيمور شاه الملك الدورانى . واستبد اســحق خان « كراى » بمنطقة ومير حسين خان بأخرى ، واستولى البيات — وهم عشيرة كردية — على نيسابور ؛ وقعت منطقة اخرى فى يد زعيم عربى ينحدر من خزيمة ، وعربى آخر حكم فى « تورشيز » ، واكراد يحكمون فى « كوشان » وأكراد آخرون فى « بوجنورد » ،

وأتراك يحكمون فى « سبزار » ، « وسستان » فى يد مغتصب قوى « وبلوخستان » فى قبضة ناصر الأول (١٧٩٣) . و « اردلان » فى يد خسرو خان أقوى الحكام الأكـــراد والمتمركز فى عاصمته (سنه) ، وكان حليفا لأغا محمد قاجار. هذه هى فارس التى أصبح أغا محمد قاجار يتطلع أن يكون شاها عليها .

ومع هذا بدأ تفوق الشاه محمد أولا فى مجال السياسة الخارجية عندما اصـــطدم بالروس وبجورجيا وحاكمها هرقل وكان جيران فارس لا يرغبون — بصـــفة عامة — فى الاصطدام بأغا محمد باستثناء هرقل حاكم جورجيا . فتيمور شاه — ملك أفغانستان — ومن بعده زمان شاه كانا يكرسان جهدهما للأمور الداخلية خاصة فى زمن الأخير الذى كان يواجه تمردات داخلية عديدة وعدوانا من القوى المحيطة به . وكان حكام بخارى من الأوزبك يفكرون فى ضم خراسان ولكنهم شعروا بعدم قدرتهم على المحافظة عليها تحت يدهم فآثروا تركها تحت الفرس على أن يتولوا عملية غزوها واجتياحها من وقت لآخـــر دون أن يبسطوا عليها حكمهم المباشر . أما الدولة العثمانية فانشغلت بالصراعات الداخلية والقتال فى البلقان ضد النمسا وروسيا تاركة أمور فارس لأهلها . وكان على حكم بغداد (العراق) منذ ١٧٧٩ حتى ١٨٠٢ والي مملوكى مشهور هو سليمان باشا الكبير الذى كان معنيا بتوطيد علاقاته السلمية مع الفرس .

حكم محمد شاه مدة قصيرة لم يلبث أن قتل. ولقد اثبت أنه القوة الأولى فى البلاد ، ولكن دون أن يفرض سيطرته كاملة على كل الزعامات المحلية فى ايران .

وكما هى العادة دبت الفوضى فى البلاد بعد مصرع الشاه ، وتفكك الجيش ، ولكن استطاع فتح على شاه — ابن عم الشاه السابق ، وحاكم اقليم فارس — ان يجلس على العرش (١٧٩٧ — ١٨٣٤) . وكان عليه من بعد ذلك أن يقضى على المنافســـين له ، وكانوا متعـــــددين .

كان صادق خان شكاكى — قد جمع مجوهرات أغا محمد (الشاه محمد) وخمســة عشر ألف كردى ، وتصدى لفتح على شاه ، ولكن الأخير انتصر عليه ، ففر من وجهه .

أما محمد خان بن زكى خان الزندى فكان قد وضع يده على أصفهان ، ولكن طرده منها فتح على شاه وطارده حتى تخلص منه .

كان حسين قولى خان — اخو فتح على شاه — طامعا فى العرش ، واعتقد منافس ثالث هو سليمان خان قاجار ان فى صراع الأخوين فرصة له ، ولكن سرعان ما توصل فتح على شاه مع اخيه قولى خان الى تفاهم على يد أمهما • وما ان شعر سليمان خان بأن قضيته هى الخاسرة فر واختفى،ولكن عفا عنه فتح على شاه واسند اليه حكم اذربيجان•

وكان نادر ميرزا — وكان ثائرا فارا من وجه أغا محمد الى افغانستان — قد عاد واغار على خراسان بعد ان سمع بوفاة اغا محمد قاجار • واستولى نادر ميرزا على مشهد فزحف ضده فتح على شاه بجيش كبير،وتيقن نادر ميرزا أن قضيته خاسرة فخضع فنال عفو الشاه • وفى أيامه ظهرت بوادر الضعف أمام الضغط الأوروبى •

حكم فارس بعد وفاة فتح على شاه ، الشاه محمد (١٨٣٤ — ١٨٤٨) وفى عهده تجلى هذا الضعف أمام روسيا وبريطانيا واما فى الصعيد الداخلى فقد واجه ثورات ولكن اخطرها ظهور الحركة البابية ثم البهائية كنتيجة لها •

كان وصول محمد شاه الى العرش سهلا — الى حد ما — فقد كان هناك منافسين له على العرش ، ولكن لم يكن هناك خطورة كبرى اذ كانت كفة محمد شاه منذ البداية هى الراجحة سواء بسبب الأوضاع الداخلية فى إيران أو خارجها •

فمن الناحية الداخلية ، كانت لدى محمد شاه قوة عسكرية مدربة هى أحسن ما كان فى إيران ، وكان هو نفسه قد تدرب على بعض العمليات العسكرية الواسعة النطاق • وكانت قواته تضم عددا من الضباط الانجليز الذين كانوا يعملون من أجل رفعه هو بالذات الى العرش على أمل ان يكون على علاقات طيبة مع الانجليز • ولذلك كان موقف المتمردين عليه دقيقا ، وهم :

١ — عمه على ميرزا — حاكم فارس — وكان معروفا باسم فارمان فارما •

٢ — عدد من أمراء البيت المالك •

٣ — ثورة اغا خان (١٨٣٨ — ١٨٣٩) •

٤ — ثورة محمد على الباب (١٨٤٤) •

ويتضح من هذا ، أن المتمردين يمكن أن يقسموا الى قســــمين • الأول : من المطالبين بالعرش من البيت المالك نفسه • والثاني : من الزعامات الدينية ذات الاتجاهات المتعارضة مع الاتجاهات الشيعية والسنية الشائعة حينذاك • ولقد كانت ضربات محمد شاه العسكرية السريعة موفقة ضد المطالبين بالعرش ، واضطر عدد منهم الى الفـــرار من فارس الى خارجها ليستقر بهم المقام في بغداد وليشكلوا من بعد مشكلة متواصلة بين الحكومتين الفارسية والعثمانية بسبب استغلال هؤلاء لموقعهم القريب في اثارة المشاكل في وجه الشاه الحاكم • ومع هذا يجب التأكيد على أن اتفاق كل من روسيا وبريطانيا على أن يكون محمد شاه هو صاحب العرش ، وعدم التدخل العنيف في مشكلات وراثة العرش كان من العوامل التي أدت الى أن تسير الأمور لصالح استقرار محمد شاه على العرش •

— ٢ —

ثـــورة اغاخـــــان

أما ثورة اغاخان فكانت ثورة عصبية دينية بدأت ارهاصاتها فى مطلع القرن التاسع عشر بعد وفاة رئيس الطائفـــــة الاسماعيلية ، وظهور أزمة فى المنطقة التى ينزلهـــــا الاسماعيليون الذين كانوا يعتقدون أن الوقت قد حان لكى تصبح لهم اليد العليا فى توجيه امور البلاد على اعتبار ان الحكم القاجارى قد فشل فى الحفاظ على ســـــلامة البلاد أو سلامة الدين ، من وجهة نظر الاسماعيلية · ولذلك فبعد فشل حملة محمد شــــاه على هراة (١٨٣٧ — ١٨٣٨) (١) ثار اغا خان (الجديد) فى اقليمى كرمان ولار · ولكنه لم يصمد طويلا أمام جيش محمد شاه ففر الى كراتشى فى ١٨٤٣ · وتكررت الاعتداءات من جانب الاسماعيليين من قواعدهم فى الهند على الأراضى الفارسية دون أن تحقق هدفــا أو نتيجة ، الا انها كانت تؤكد باستمرار للحكومة الفارسية ان الانجليز هم الذين يحثون ويساعدون الاسماعيليين على ارهاق فارس وجعلهم شوكة مستمرة فى جانبها ·

واذا كانت ثورة اغا خان والاسماعيلية قد أمكن التغلب عليها بسرعة الى حد ما ، فان حركة محمد احمد الباب كانت أشد وطأة وأبعد أثرا فى تاريخ فارس فى تلك الفترة ولذلك يجدر بنا أن نلقى عليها ضوءا ·

★ ★ ★

---

(١) سنتحدث عنها بالتفصيل بعد قليـــل ·

— ٣ —

الحـــــركة البابيـــة

لقد ابتلى العالم الإسلامى منذ القرن السادس عشر بالجمود الفـــــكرى والتأخر الاقتصادى واصيب المجتمع الفارسى بنكبات عنيفة خلال الصراع الذى دار فى ايران بين المطالبين بالعرش . حقيقة ظهر فى ايران شاهات فاتحون نهضوا بالبلاد من امثال عباس الأول ونادر شاه ، ولكن النكسات التى كانت تأتى فى أعقاب امثال هـــذين الملكين كانت تدفع بالبلاد الفارسية الى الوراء . كمـــــا تدهورت قوة الدولة العثمانية ازاء الدول الأوروبية وخاصة روسيا . وضعفت قوتها فى الداخل بسبب استبداد العصبيات بالحكم فى معظم ولاياتها وأقفرت أسواق الأدب والعلوم الدينية مثلما أقفرت أســواق التجــارة العالمية فى مدن الشرق الكبرى .

وخلال فترات التدهور هذه انتشرت الطرق الصوفية . وبعض هذه الطرق قام على اسس سليمة ولكن كثيرا منها لم يلبث أن بعد عن الإسلام كل البعد وترك الناس الصراط المستقيم الى الطريق الضال . وهذا الضعف فى التكوين الدينى للمسلمين يفسح المجــال لنشاط هذه الطرق وبخاصة المتطرف منها فلا غرو أن تمخض القرن التاســع عشر عن ظهور عدد من المهديين لم يظهر مثله من قبل فى وقت متقارب . فقد ظهر (على محمــد الباب) فى العراق وايران ، و (المهدى محمد السنوسى) فى الصحراء الغربية ، و (ميرزا غلام احمد القاديانى) فى البنجاب و (محمد احمد المهدى) فى السودان وكلهم فى القرن التاسع عشر . وجميعهم هدفوا الى فكرة واحدة ، هى تكتل قوى العالم الإسلامى تحت يد واحدة واقالته من عثرته التى تردى فيها بيد انهم حين أرادوا تحقيق تلكم الأهداف لم يتخذوا الطريق السوى فى كثير من الأحيان . حيث أنهم جروا وراء فلسفات تهــــدم العقيدة الإسلامية من أساسها وهى فلسفات ليست بجديدة على أهل المذاهب والنحل . وقد اثارت تلك الفلسفات بلبلة وجدلا طويلا فى الدوائر الدينية الإسلامية . والذى يهمنا هنا اسباب انتشار هذه الدعوة الجديدة والآثار السياسية التى تخلفت عن انتشـــــار الحــــركة البابيــــــة .

قبيل ظهور هذه الحركة البابية سرت فى العراق اشاعات عن قرب ظهور المهـــدى المنتظر • وخرجت هذه الاشاعات أول ما خرجت من النجف وكربلاء •

ولقد كانت الأوضاع السياسية والاجتماعية فى العراق من العوامل الرئيسية التى جعلت العراق يلعب الدور الرئيسى فى التمهيد لظهور هذه الحركة • فالعراق يتميز بتعدد المذاهب الدينية • سواء الإسلامية أو المسيحية • وكان مسلمو العراق — ولا يزالون — قسمة تقريبا بين المذهبين السنى والشيعى • والعراق — كما هو معروف — كان منـذ الفتنة الكبرى بين على ومعاوية معقلا من معاقل الشيعة وحفظت له العتبات المقدسـة (النجف وكربلاء) قداسة جليلة الشأن لدى الشيعة أينما كانوا ، وبوجه خاص فى قلوب شيعة إيران • ولا شك أن وجود ايران الى جوار العراق من العوامل القوية التى حفظت للشيعة قوتهم فى العراق • ومع أن العراق كان تحت الحكم العثمانى السنى منذ ١٥٣٤ الا أن آمال الفرس حكومة وشعبا كانت دائما تتطلع الى الاستيلاء عليه لتكون العتبـات المقدسة تحت عيونهم • كانت الحكومات الفارسية تبعث بجيوشها الى العراق كلما شعرت بقوة • ودار صراع طويل بين إيران والدولة العثمانية لم تحـــرز من ورائه ايران الا مكاسب أرضية يسيرة ولكنها كانت فى كل مفاوضة أو معاهدة تطالب بحمـاية الحجاج الفرس الى العتبات المقدسة ، وبتخفيض الرسوم المفروضة عليهم وتسهيل أمـــر دفن الفرس الى جوار ضريحى الامامين على والحسين وكانت حكومة بغداد من جانبها تعمل على تسهيل زيارة الفرس وغيرهم للعتبات المقدسة لما يدخل الخزينة من وراء ذلك من مبالغ وفـــــــيرة •

وكانت كربلاء والنجف المراكز الأولى الشيعية التى خرجت عددا من كبار مجتهدى المذهب الشيعى • وكانت هذه العتبات أمل طلاب العلم من الشيعة ، فكثرت بها مجالس الدرس والوعظ وذاع صيتها وصيت علمائها لا فى العـــراق وإيران فقط بل كذلك فى الهند • ولذلك شعر مجتهدو العتبات بقيمتهم العظمى وترفعوا عن أن يكونوا تحت الحكم العثمانى خاصة وأن عددا من سيدات ورجال الأسرة المالكة القاجارية يعيش فى كربلاء ويلبى مطالب أولئك المجتهدين وعاشت كربلاء بمنأى عن الحكم العثمـــانى المباشر حتى اقتحمها نجيب باشا — والى بغداد ٤٢ — ١٨٤٧ بالقوة فى ١٨٤٣ •

ومن بين المجتهدين الكبار الذين طار صيتهم فى العراق وفى إيران الشيخ احمـــد الاحسائى (١١٥٧ — ١٢٤٢ هـ / ١٧٤٣ — ١٨٢٦ م) وهو من بنى صخر احدى العشائر العربية الشهيرة اتخذ مجلس علمه فى كربلاء · وكان متعمقا فى الدراسات الدينية،واعتقد الشيخ الاحسائى أنه يسير بهدى خاص من الأئمة الاثنى عشر وبتوجيه من الامام جعفـــر الصادق حيث أن هؤلاء الأئمة فى نظره خالقة · وردد الشيخ الاحســـائى أن الوقت حان لظهور المهدى ، بل ينسب اليه قوله « فلينظر الناس حولهم ، اذ أن المهدى بينهم » فقد كانت آمال عدد كبير من الشيعة بل ومن السنة كذلك متعلقة بظهور المهدى ليملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا · وينتظر الشيعة عودة محمد بن الحسن العســـكرى آخر الأئمة الاثنى عشر الذين احتفى فى سامراء · وما ذكره الشيخ أحمد الاحسائى بشأن قرب ظهور المهدى كان له صدى قوى فى قلوب الشيعة · وتابع هذه الدعوة بعد وفاته تلميذه كاظم الرشتى فى كربلاء أيضا ·

كان كاظم الرشتى من علماء العراق المبرزين ذوى النشاط العلمى والســـياسى الكبير · ونظرا لاعتراض علماء الشيخية عليه فى بعض ما ذهب اليه من آراء دينية انفصل عنهم واسس الطريقة التى عرفت بالكشفية·وتابع دروسه فى كربلاء مبشرا مريديه بقرب ظهور المهدى · وخلال ذلك حضر الى مجلسه شاب فارسى يدعى على محمد وهو مؤسس الحركة البابية ·

ولد على محمد فى غرة محرم ١٣٣٥ هـ / ١٨١٩ م بشـــــيراز من عائلة معروفة بالسادة الحسينية · وتوفى والده محمد رضا قبل فطامه فكفله خاله الحاج مير سيد على التاجر الشيرازى · وكان على محمد من الصبية العابدين ، وتنقل سعيا وراء التجارة بين مدن بوشهر وشيراز · ولكنه كان ميالا الى الرياضات الذهنية الشاقة ، وهى رياضات تقود المرء الى مجال الاستشراق الفسيح · وأرهق على محمد بسبب ذلك كل الارهاق حتى خبا وميض شبابه واصيب بشىء من الاضطراب الذهنى جعل خاله يخشى عليه فبعث به الى كربلاء لينال بركة الحسين علها تشفيه مما ألم به ·

وفى كربلاء استمع الى حديث كاظم الرشتى عن قرب ظهور المهدى واستمع الى أوصافه ، وكان من أوصاف المهدى التى رددها الرشتى تنطبق عليه ، فقد قيل أن المهدى أمى شريف النسب ذو فطرة آلهية ، واعتقد الباب انه هو صاحب الزمان الذى طال على

الناس انتظاره . وعاد الى شيراز وهو يعتقد تماما انه صاحب رسالة كبرى . وبينما عاد على محمد الى شيراز كان عدد من مريدى كاظم الرشتى قد اعتقدوا ان المهدى قد ظهر . فتركوا كربلاء وانتشروا فى الأرض بحثا عنه . وبطريقة غير واضحة التقى الملا حسين – أحد علماء بشروية – بعلى محمد فى شيراز ١٨٤٤ . واعلن الباب دعوته له وظهر بمقام المهدوية والقائمية وبأنه الباب .

ويجدر بنا أن نحدد معنى هذا اللفظ لما سيصبح عليه من دلالة فيما بعد . فمن الأحاديث الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » والباب فى نظر اتباعه الموصل الى جنة الايمان ، وأنه هادى العباد الى العقيدة الحقة ، وأنه صاحب دين جديد . ولكن هناك من فسر هذا اللفظ بمعنى آخر وقال ان الباب ليس الا الواسطة بين حجة الله الموعود وبين الناس . وانه المبشر بظهور المهدى ، وليس المهدى نفسه . وأيما كان الأمر فقد دعا الباب الناس الى ترك معتقداتهم والايمان به .

بدأ الباب دعوته سرا ، وكان الرجل كان يترسم خطى سيدنا محمد [1] لينشر دعوته بأسلوب مشابه للاسلوب الذى اتبعه صلى الله عليه وسلم . ادعى أنه يوحى اليه بكلمات معجزات ، وخرج على الناس بكتاب اسمه (البيان) اراد به أن يكون قرآنا جديدا ، اسلوبه ركيك ، ولحنه لا يمكن ان يحصى لكثرته ، ومعانيه قليلة ولكن كيف حظيت دعوة كهذه بالقبول لدى عدد ليس بالقليل من الفرس ومن الشيعة فى العراق ؟ الواقع ان الجو كان مشحونا فى الأوساط الشيعية بأن المهدى على وشك الظهور . فالرأى العام كان مستعدا لقبول الفكرة ، بسبب الدعايات التى بثها دعاة الشيخية والكشفية . وكانت الظروف العامة للمسلمين تدعو الناس الى نقد أوضاعهم بقوة والى التطلع الى حكومة جديدة والى لتخلص من رواسب قرون لتخلف . فالقرن الثامن عشر الميلادى ، قرن الحركة فى المشرق ، قرن نمت فيه قوة النقد الذاتى لدى مسلمى الشرق . ونمت هذه القوة بصورة أكبر فى القرن التاسع عشر . كان الناس لانتعاش بعض قدراتهم الفكرية والاقتصادية ونتيجة للاحتكاك بالدول الأوروبية قد أدركوا أن الفارق بين مسلمى الشرق ومسيحى الغرب قد اضحى كبيرا . وان اللحاق بالركب يتطلب اعادة النظر فى أساليب

---

(١) كان يتعبد فى خلوة ، وادعى أنه يوحى اليه وأنه أمى .. الخ .

الحياة التى يتبعها الناس ، سواء فى حياتهم اليومية او فى ادارة أمور الدولة أو فى اساليب العبادة ٠ وهذه الأوضاع تضع امكانيات كبيرة تحت تصرف اية داعية لاصلاح امور البلاد لانقاذها مما تردت فيه ٠ وهذا هو السر فى اقبال عدد ليس بالقليل من الفرس ومن شيعة العـــــراق على « الباب » ٠

ودعا الى الحركة البابية فى العراق عالم عراقى هو على البسطامى وسيدة فارسية لقبت بقرة العين واسمها الحقيقى « زرين تاج » أى ذات الشعر الذهبى ٠ وهى فارسية من أسرة علمية ٠ وكانت اسرتها موزعة بين تأييد الشيخية وعدائها ، ويبدو انها كانت تتبادل المكاتبات مع كاظم الرشتى عندما كانت لا تزال فى فارس ٠ وقيل انه اشار اليها فى احدى مكاتباته بأن « فتنة آخر الزمان على وشك الوقوع » فقررت أن تغادر وطنها الى كربلاء ٠ وبعد وفاة كاظم الرشتى جلست للدرس فى تلك المدينـة ، فحازت اعجاب الطلاب بذكائها وعمق دراساتها ٠ واستغلت هذه المكانة فى الدعوة الى البابية ، بينما كان الداعية البسطامى يقوم بنفس الدعوة ٠ وادى نشاط الملا البسطامى وقرة العين الى قلق حكومة بغداد بسبب ما اثاره من فتن فى دوائر بغداد العلمية ٠ فقبضت الحـــكومة على البسطامى ورحلته الى الاستانة ولكنه مات فى طريقه اليها فتابعت قـــرة العين الدعاية للباب فى العراق ٠ ونظرا لما كانت عليه قرة العين من فصاحة وعلم استطاعت أن تجمع حولها عددا من الاتباع ٠ فخشى نجيب باشا ــ والى بغداد ــ مغبة الجدل الدينى الذى أثارته ، والواقع كان من آرائها ما يثير عليها غضب المسلمين حيث أنها رددت القبــول بانتهاء زمن التكاليف وبأنه يوحى للكامل وحى تعليم لما شرع من قبل ٠ وهى دعوة تهدم اسس الدين بعكس الدعوات المهدوية السابقة لها التى كانت تتخذ من الدين الإسلامى قاعدة اساسية لها ٠ كذلك اتهمت قرة العين حينذاك بأنها دعت الى رفع الحجاب ، وهى فكرة لم تكن مقبولة على الاطلاق فى ذلك الوقت ٠

ومما اهاب بالحكومة أن تسرع الى التحفظ عليها وتحديد اقامتها ان الحركة البابية فى فارس كانت قد اتخذت شكلا عنيفا وطاردت الحكومة أتباع الباب وقبضوا عليـــــه وسجنوه وكانت العلاقات السياسية بين الدولتين الفارسية والعثمانية تتحسن بسرعة بسبب اتفاق الدولتين على كثير من نقط الخلاف بينهما تمهيدا لعقد معاهدة ارضروم ١٨٤٧ م ٠

وكان ذلك التفاهم وحسن الجوار بين الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين يتطلب من والى بغداد وضع حد للنشاط البابى حتى لا يصبح العراق - المجاور لإيران - شوكة تقض مضاجع حكومة الشاه . ومن ناحية أخرى كانت البابية - مثلها مثل أية حركة مهدوية - موجهة كذلك ضد الخليفة العثمانى . فالمهدى كان يضع نفسه فى مرتبة أعلى من مرتبة السلاطين حتى ولو كان السلطان خليفة المسلمين . والسلطان العثمانى كان يسعى فى ذلك الوقت الى القضاء على مثل هذه الحركات التى تضعف من قوة سيطرته على الولايات التابعة له خاصة وأن سلاطين آل عثمان فى القرن التاسع عشر - وفى النصف الثانى منه بصفة خاصة - كانوا يعملون جاهدين على اعادة قبضتهم قوية على كل الولايات وجمع المسلمين تحت راية السلطان العثمانى على اعتبار أنه خليفة المسلمين.

ومن ثم كانت الحركة البابية سواء من حيث دعوتها الى مهدوية الباب أو من حيث مناداتها بتعاليم منافية للدين الإسلامى كانت تدفع أولى الامر العثمانيين الى أن يجتثوها قبل أن تستفحل . ولذلك قرر نجيب باشا - والى بغداد - أن يضع حدا للنشاط البابى فى العراق . فقبض على قرة العين وحدد اقامتها فى بيت أبى الثناء الآلوسى - مفتى بغداد .

فأبعد قرة العين عن بغداد الى إيران . وهناك واجهت قرة العين نقمة الحكومة الفارسية على الباب وأتباعه وذلك بسبب ارتقاء ناصر الدين شاه عرش فارس فى ١٨٤٨م وكان منذ ولايته للعهد من أشد الناس مقاومة للباب ولحركته فحاول أولا أن يعيد الى الباب رشده ، وأن يعيده الى سواء السبيل ولكن دون جدوى فصدر ضده حكم بالاعدام، ولقصة اعدام الباب أهمية خاصة من حيث أنها ساعدت على انتشار عقيدته .

تؤكد المصادر العديدة التى تعرضت لموضوع اعدام الباب أنه أحكم وثاقه ثم اصطف أمامه قوة من رماة البنادق ثم أطلقت عليه النيران . وبعد انكشاف الدخان المنبعث من البنادق اذا مكان الباب خال فبحث الجند عنه حتى عثروا عليه مختبئا فى مكان قريب دون أن يصاب بأى طلق نارى . فاقتيد مرة أخرى الى ساحة الاعدام ، واطلق عليه الرصاص مرة أخرى فسقط قتيلا [1] .

---

(١) استولى بعض البابيين على جثة الباب لاخفائها عن أعين أعدائهم .
أنظر ظروف مصرع الباب والقصص التى دارت حوله فى : عبد الحسين أوارة : الكواكب الدرية ، جـ ١ ، ص ١٩١ - ١٩٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٣٩١ ، ٤٥٠ .

كيف وقع هذا الحادث الذى اعتبره البابيون معجزة كبرى للباب ؟ هل حـــدث تواطؤ من جانب فرقة الاعدام لانقاذ الباب ؟ أم أن ذلك وقع قضـــاء وقدرا ؟ انه امر لا يزال يحير الباحثين وان كنا لا نستبعد وجود نوع من التواطؤ بين فرقة الاعدام وبعض البابيين ولكن لم يتم انقاذ الباب بسبب العثور عليه بعد فراره ٠

نشطت الدعاية البابية بعد مصرع الباب ، وبالتالى نشطت الحكومة الفارسية فى اخماد تلك الحركة ، فدبر البابيون مؤامرة لاغتيال ناصر الدين شاه فى ١٨٥٢ وفشلت المؤامرة ودار قتال بين البابيين وجند الحكومة وتعقبت الحكومة الفارسية أنصار هذه العقيدة فقتلت وسجنت واعتقلت ، ومن بين أولئك الزعماء البابيين الذين قبض عليهم حسين على النورى ٠ وكان النورى من المشتركين فى قتال جند الحكومة ونظرا لأنه يمت الى اسرة عريقة حوكم بمحضر عدد من الوزراء وبمحضر السفير الروسى ٠ ولا شك أن وقوف السفير الروسى الى جانب حسن على نورى ومكانة اسرته كانا من العـــوامل الرئيسية التى انقذت رقبته من المشنقة ٠ اذ اكتفى بنفيه خارج البلاد فاختار العراق منفى له ولمن يتبعـــــه ٠

وانه لأمر ذو مغزى ان يدافع السفير الروسى عن حسين النورى ، وأن يكـــون الحاج أحمد ـ الذى خبئت لديه جثة الباب من المشمولين بالحماية الروسية ٠

وصل حسين على النورى وعدد من البابيين الى منفاهم فى العـــراق فى أوائل الخمسينات من القرن التاسع عشر ٠ وفى العراق دب النزاع بين الزعماء البابيين ٠ وكان حسين على النورى يأمل فى أن يتولى هو قيادة هذه الجماعة فى منفاها وان يدير أمورها عله يستطيع أن يجعل لها شأنا فى العالم ولكن صادف حسين على النورى مقاومة شديدة من جانب الزعماء الطامعين فى القيادة ٠ بل كادو يفتكون به ففضل أن يغـــادر مجتمعهم الى مكان قصى ٠ وذهب الى مكان يسمى « سركلو » فى كردستان أمضى فيه مدة من الزمن وضع خلالها كتابه « ايقان » ويعلل حسين على النورى عـــودته الى كردستان الى بغداد بأنه لم يفعل ذلك الا بعد أن « صدر الحكم من مصدر الأمـــر بالرجوع » ٠ وهذا هو الطور الجديد الذى دخلته الحركة البابية ٠

هبط حسين على النورى من كردستان وهو يزمع أن ينسخ الدعوة التى نادى بها

الباب ، وبأن يقول أنه هو المهدى ، وما الباب الا مبشر ومنج له من أعدائه • وليست هذه الفكرة حديثة على المسلمين بل هى قديمة • وظهرت فى أجلى صورها فى المذهب الاسماعيلى إذ ردد دعاة هذا المذهب أن هناك اماما مستترا وآخر ظاهرا ، فالامام الظاهر ليس سوى داعية للامام المستتر الحقيقى وكانت هذه الفكرة مدار جدل شديد حول مؤسس الدولة الفاطمية والأخير هو المعرض للتعـــذيب والمشاق بل والاعدام حتى لا يصـــاب الامام الحقيقى بأذى •

ادعى حسين على النورى أن الباب كان يهىء الطريق أمام شخص أعظم منـــه وأن مؤلفات الباب وتفسيراته للقرآن انما أوحى بها الى الباب الذى كان ينفذ ارادته ، وردد حسين على النورى ان كل خطوة خطاها الباب انما كانت بوحى منـــه وأن مصرع الباب كان لكى يظل حسين على النورى بعيدا عن أيدى الناقمين حتى يتم رسالته [1] •

واخذ حسين على النورى يعد اذهان البابيين فى العراق لهذه الفكرة تمهيـــدا لأن يعلن نفسه المهدى الجديد الحقيقى • ولم يتسرع الرجل فى اعلان دعوته هـــذه حتى وقعت الطائفة البابية فى العراق فى أزمة جديدة •

فخلال السنوات التى قضاها حسين على النورى واتباعه من البابيين فى العـــراق كانوا يقومون بدعايات نشطة لمذهبهم سواء فى العراق أو فى إيران واشتد ضجر حكومة الشاه من هذا النشاط الذى اتخذ من العراق قاعدة له • وزادت مخاوف الشاه من هذا النشاط عندما وثق البابيون صلاتهم بعدد من أفراد الأسرة المالكة القاجارية فى العراق • فخلال القرن التاسع عشر كان الصراع على العرش الفارسى لا يكاد ينقطع، وكانت العراق ملاذ كل من يفشل فى محاولته لارتقاء العرش • ومن العراق كان هؤلاء الأمراء يدبرون المؤامرات المتتالية ضد ناصر الدين شاه الأمر الذى كان يثير ازمات حادة بين الدولتين الفارسية والعثمانية [2] • وكان طبيعيا ان يتدخل بزرك خان القنصل العام فى العـــراق

---

(١) أسلمنت : بهاء الله والعصر الجديد ص ٢٥ — ٣١ •

E. G. Brown; The Episode of the Bap Cambridge 1891 .

Brown; Babis of Persia. Royal Geographical Socielv of London. Vol. xx1, P. 931 .

(٢) انظر دكتور عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ١٨٣١ — ١٨٣٢ الدار القومية • القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ •

مطالبا بوضع حد لنشاط هؤلاء البابيين • وتعاون بزرك خان مع عدد من شيوخ الشيعة فى العتبات المقدسة للقضاء على نشاط تلك الطائفة • وكان بزرك خان فى معاملته للبابيين يعتبرهم رعية للشاه • ولما كان هذا الوضع يضر بمصـــــالح البابيين حيث يضعهم تحت رحمة القنصل الفارسى قرر حسين على النورى أن يخلع عن نفسه الرعوية الفارسـية وأعلن تبعيته السلطان العثمانى (١) • على أن هذا التصرف لم يضع حدا لمتاعب البابيين من المعارضة الفارسية أو الشيعية • ويرجع ذلك الى تعارض اتجاهات الطرفين تعارضا جوهريا سواء من حيث انكار الشيعة فى العراق أن الباب هو المهدى أو من حيث اتبـــاع البابيين تقاليد تتنافى مع التقاليد الشيعية •

فقد كان البابيون يحتفلون فى أول المحرم من كل عام بفـرح زائد بمولد الباب ، والمعروف أن الأيام العشرة الأولى من المحرم هى أيام يكفر فيها الشيعة عن تقاعسهم عن نصرة أبى الشهداء ويبكون خلال ذلك القتيل العطشان • فشق على الشـــيعة ذلك ، وعقدوا الخناصر على التخلص من البابيين ، وبدت فى الأفق نذر شر مستطير • والتقت رغبة البلاطين العثمانى والقاجارى عند ابعاد هذه الطائفة عن بغداد حتى لا يمتد نشاطها بسهولة الى إيران وحتى لا تستغل قوة المذهب الشيعى فى العـــراق فى نشر دعاياتها • فصدرت الأوامر من الباب العالى الى والى بغداد بأن يشرف بنفسه على ترحيل حسين النورى واتباعه الى الاستانة •

انتهز حسين على النورى هذه الأزمة الجديدة التى احاطت بالبابيين ليضرب ضربته التالية • فالطائفة فى تلك الحالة أصبحت ذات معنويات منهارة وتحتاج الى دفعة جديدة وقوة فتية تعينها على تحمل مشاق الغربة والارتحال بعيدا عن الأوطان • ولا شك أن النفى الى العراق بالنسبة للفارسى ليس عقابا شديدا بل على العكس كان العراق امل الفرس • أما أن ينفى فارسى الى أرض تركية مثل الاستانة فهو أمر شاق حقا عليه •

اعلن حسين على النورى أنه « البهاء » الذى بشر به الباب (١٨٦٣) وكان ذلك فى حديقة نجيب باشا ببغداد وهى التى عرفت باسم حديقة الرضوان لدى البهائيين •

---

(١) مقالة سائح فى البابية والبهائية : ١٠٧ — ١١٣ / ١٣٨ — ١٣٩ •

وتعتبر مبادىء البهاء أوسع نطاقا من المبادىء التى دعا اليها الباب وهناك من يؤكد أن المبادىء التى دعا اليها البهاء لم تكن من وضعه هو وانما دبجها نجله عباس — الشهير بعبد البهاء — ونسبها الى أبيه ليرفع من شأن موسس الطـائفة · وعلى أى حال فان اتجاهات البهاء العقائدية لم تتبلور الا بعد مغادرته العراق·على أن البهاء بدأ منذ أن أعلن دعوته يترسم خطى أصحاب الرسالات · فطفق يكتب الى رؤساء الدول الكبرى داعيا الى الايمان به · وهو فى رسائله الى كل من شـاه فارس والى السـلطان العثمـانى كان يستخدم أسلوبا قرآنيا فى مظهره ركيك العبارة فى مخبره · وقد تجاوز فى بعض عباراته صفة النبوة اذ استخدم تعبيرات شبيهة ببعض تعبيرات الحلاج التى أثارت الكثـير من الجدل · فبينما يقول الحلاج ما فى الجبة الا الله ، يقول البهاء أنه لا يرى فى هيـكله الا هيكل الله · وبينما البهاء يبذر البذور الأولى لدعوته فى منفاه الجديد فى الاستانة تصدى له اخوه يحيى مخالفا ، اذ انكر يحيى — الذى عرف باسم صبح ازل — أن أخاه هـو المهدى وادعى أن البهاء هو الامام الظاهر وأنه هو الامام الباطن الحقيقى وشنع على البهاء بأنه غدر به واستولى على صفات لا حق له فيها · واستمر هذا النزاع بين الأخوين ولكن كفة البهاء كانت هى الأرجح · وهذا الاضطراب الجديد فى تحديد من هو المهدى يؤكد لنا مرة أخرى أن الأسس التى قامت عليها الدعوة البابية والبهائية كانت واهية · حقيقـة كسبت الحركة البهائية بعض الاتباع فى العراق ولكن كانت اعدادهم قليلة فى بغـداد والموصل ومعظمهم من اللاجئين الفرس (١) رعرضة للضغط السياسى من جانب فارس من وقت لآخر · فعندما قدم الشاه ناصر الدين العراق زائرا فى ١٨٦٩ قرر مدحت باشا — والى بغداد — أن يبعد البابيين عن بغداد ·

وأخيرا لماذا فشلت الدعاية البابية والبهائية فى أن تحصل على تأييد واسع النطاق فى العراق وفى الشرق العربى بصفة عامة ؟

كان الدعاة البابيون والبهائيون غالبا من الفرس وكانت مؤلفاتهم بالفارسـية فى الغالب ، وما صدر عن الباب وعن البهاء باللغة العربية كان قليلا ركيك العبارة ·

★ ★ ★

(١): Cuinet; La Turquie d' Asie. T. 11, P. 779. ; F. O. 195 / 949 Herbert To Elliot; August 17, 1870. No. 15.

الفصل الرابع

فارس القاجارية

في خضم الصراع الدولي ضد نابليون

– ١ –

فارس والصراع الدولى ضد نابليون

كانت مخاوف الانجليز فى الهند من وصول قوات روسية أو فرنسية أو دفع فارس الى غزو الهند بواسطة الفرنسيين كبيرة جدا ومبالغ فيها . فالى أى حد كان هذا الخطر الفرنسى أو الروسى أو الفارسى يهدد الهند ؟ ولماذا بالغ الانجليز فى تصوير هذا الخطر ؟

لقد كانت هناك فعلا شواهد تشير الى أن الهند كانت معرضة لغزو أوروبى فضلا عن الغزو الفارسى .

١ – فقدرات نابليون بونابرت فى مجالات الحرب والسياسة فى أوروبا وفى مصر واتصالاته ببعض الزعامات الشرقية (العربية والهندية) أثارت مخاوف الانجليز فى الهند خاصة وأن مركز الانجليز فى الهند لم يكن من القوة لدرجة تمنع من ظهور قوى خطيرة معادية للانجليز متعاونة مع الفرنسيين اذا ما حانت الفرصة .

٢ – كانت هناك اتجاهات تشير الى احتمال تعاون روسى فرنسى يوجهه كل من بول – قيصر روسيا المعجب بنابليون – ونابليون نفسه . ولقد أمر بول فعلا فرق القوقاز المشهورة فى روسيا بالتقدم الى الهند فى ١٨٠١ ، ولكنهم توقفوا عن متابعة الزحف بعد أن علموا بوفاة القيصر فى نفس السنة . ولكن كان احتمال الحصول على نصر من الأمور البعيدة بسبب وعورة وطول المواصلات وعداوة العشائر على طريق الهند .

ومن ناحية اخرى كان من مصلحة حكومة الهند البريطانية أن تضخم من خطورة الغزو المشترك الفرنسى الروسى حتى لا تتحمل وحدها تبعة الاجراءات المضادة للنشاط الفرنسى فى الشرق الأوسط ، وحتى لا تعطى فرصة للنمو الروسى أو الفرنسى فى مناطق حساسة بالنسبة للهند وبوجه خاص فى فارس والخليج العربى وبالتالى فى أفغانستان .

وابتداء من هذا الوقت دخلت فارس فيدوامة العـــلاقات الدوليـــة والصراعات الامبريالية بين الدول الأوروبية الكبرى . ولذلك يجدر بنا أن ندرس علاقة ايران بها كل على حدة مع دراسة علاقة فارس كذلك ـ زمن فتح على شاه ـ مع الخليج العـربي والعـــراق (الدولة العثمانية) .

وجاء اعتلاء فتح على شاه العرش قبل نزول الحملة الفرنســـية بقيادة نابليون بونابرت الى مصر بعام واحد . ولقد أدخلت هذه الحملة الفرنسية المنطقة كلها الممتدة من فارس حتى شمال أفريقيا فى حلبة الصراع الدولى العنيف بين الدول الكبرى الأوروبية . ونظرا لموقع فارس وقوتها ولأنها تجاور روسيا التى كانت تتحالف احيانا مع فرنســـا الثورة وخلال حكم الامبراطور نابليون (١٨٠٣ ـ ١٨١٤) ، فقد كان لها أهمية خاصة من حيث امكانية استخدامها لا كطريق مؤد الى الهند فقط بل كذلك كقوة تفتح هـــذا الطريق اليهـــا .

حينذاك كان لورد ولزلى Wollseley ـ حاكم عام البنغال ـ مشـغولا بثورة تيبو الذى حرضه بونابرت على الثورة ضد الانجليز فى الهند ، وفى هذه الظروف وصلته من « زمان شاه » صاحب أفغانستان رسالة تتحدث عن رغبته فى ارسال حملة من قبله ضد الماراثا لطردهم من المناطق الشمالية واعادتهم الى هضبة الدكن .

وجد ولزلى أن قيام زمان شاه بغزوته فى شمال الهند فى الوقت الذى تكون فيـه القوات البريطانية مشغولة ضد تيبو صاحب ميسور فرصة طيبة للتفرغ ضد تيبو بينما ينشغل الماراثا (الهندوس) فى قتال الأفغانيين . ولذلك وافق ولزلى على ما خططه زمان شاه . وهبطت القوات الأفغانية المناطق الشمالية ، ولكنها لم تستطع أن تتحكم فى المنطقة القلقة . وحاول زمان شاه أن يصل بالدبلوماسية الى ما لم يحققه بالسيف فدخل فى مفاوضات معقدة مع أمراء مسلمين ومهراجات هندوس . وخلال ذلك كان ولزلى قد انتهى من تيبو الذى لقى مصرعه عند سقوط سر نجاباتام .

لم تعد هناك حاجة لدى « ولزلى » لأن يستمر « زمان شاه » فى نشاطه فى شمال الهند . لقد انتهى دوره ، وعليه ـ من وجهة النظر البريطانية ـ أن يغادر البـــلاد الى مملكته أفغانستان . واتبع ولزلى فى ذلك نفس سياسته وهى ضرب القوى بعضهـــا ببعض . فحرض (فتح على شاه) على ضرب أفغانستان فى هذه الظروف .

كان باب النزاع بين فتح على شاه وزمان شاه مفتـــوحا على مصراعيه بسبب المنافسات المعتادة بين مملكتين شرقيتين متجاورتين غير منظمتين • فادعى كل منهما أنه يحتل جزءا من أرض الآخر • وبالغ فتح على شاه فى الادعاء عندما اصر على أن يستعيد كافة الأراضى التى كانت تحت يد الأسرة الصفوية أى أن يضم الى مملكته كلا من كابول وقندهار وهراة ، وهذا يعنى أن فتح على شاه يطالب بضم أفغانستان اليه •

كانت لدى فتح على شاه عدة أوراق يستطيع أن يلعب بها ضد افغانستان واهمها أنه كان يحمى لديه اثنين من أخوة زمان شاه • وهما (محمود و فيروز) • فبعث بهمـا على رأس قوة الى افغانستان الا أنهما لم يصلا الى نتيجة عسكرية ايجابية • فتولى فتح على شاه بنفسه المعركة ضد أفغانستان ، مبتدئا بتطهير خراسان من الثوار قاضيا على آمال زمان شاه فيها • وكانت تحركات فتح على شاه هذه هى السبب الرئيسى فى انسحاب زمان شاه من لاهور وبيشاور ليدافع عن بلاده ضد غزوة فتح على شاه • ولم يلبث أن وقعت اضطرابات عنيفة فى أفغانستان اسقطت شاه زمان عن العرش ليتمكن بعد سنتين شاه شجاع من حكم افغانستان (١٨٠٣ — ١٨٠٩) •

ومع هذا كانت هناك دعايات واسعة بريطانية تقول أن الخطر على الهند أصـــبح داهما لا من ناحية الروس والفرنسيين فقط بل كذلك من ناحية الفرس •

وما أن وصلت انباء نزول الحملة الفرنســية فى مصر حتى اسرعت حكومة بمباى (البريطانية) الى ارسال مبعوث الى بلاط فتح على شاه فى أوائل سبتمبر ١٧٩٨ • وكان هذا المبعوث هو مهدى على خان ، وهو فارسى من خراسان ، وكان متمتعا بثقة حاكم بمباى (جوناثون دنكان Jonathan Dankan) وكلفه دنكان لا بالعمل على ابعـــاد أى نفوذ فرنسى من بلاط ايران وانما كذلك من مسقط — وكان بونابرت قد كاتب امامها البوسعيدى — ومن اى مكان يمكن أن يصل اليه النفوذ الفرنسى فى الخليج العـــربى • كذلك كلفه دنكان بأن يجعل العلاقات الفارسية الأفغانية فى خدمة المصـــالح البريطانية وضد النفوذ الفرنسى الساعى الى المنطقة •

استطاع مهدى على خان أن يصل الى تفاهم سريع مع فتح على شاه بشأن الفرنسيين فى بلاده ، ومن قد يصل منهم اليها ووافق الشاه على القبض عليهم ولكن كانت حكومة

الهند (البريطانية) تريد أن تصل الاتفاقات مع الشاه الى درجات أقوى من تلك التى توصل اليها مهدى على خان فارسلت بعثة اخرى برئاسة مالكولم احد ضباط جيش شركة الهند الشرقية البريطانية ، والذى كان يشغل حينذاك منصب مساعد المعتمد البريطانى فى حيدر أباد (الدكن) . وبينما كانت مهمة مهدى على خان موجهة بوضوح ضـــــد الفرنسيين ، فان مهمة مالكولم كانت تستهدف وضع حد للخطر الأفغانى على الهنـــد والوصول الى معاهدة تجارية سياسية مع شاه ايران . والسبب فى اختلاف أهداف كل من البعثتين هو أن الخطر الفرنسى المباشر تقلص بسرعة فى اعقاب تدمير الأســـطول الفرنسى فى أبى قير وفشل بونابرت أمام عكا .

لقد كانت مهمة مالكولم هى ربط فارس بعجلة الامبراطورية البريطانية ، وايجاد قاعدة بريطانية فى الخليج العربى تستطيع أن تطعن منها فارس ان هى اقدمت على تهديد الهند سواء بمفردها ، أو بتحريض أى من الفرنسيين أو الروس . ولعل هذا هو السبب الوحيد من وراء محاولات مالكولم للحصول على جزيرة (خرج) أو (هنجام) أو (قشم) من الفرس الا أن الشاه رفض ذلك رفضا باتا اذ كان يعلم أن الاستعمار البريطانى فى الهند بدأ بصورة مشابهة لهذه الواقعة .

نجح مالكولم فى عقد معاهدة سياسية مع فتح على شاه فى ٢٨ يناير كانون الثانى ١٨٠١ . وكانت هذه المعاهدة تتضمن استمرار التعاون الفارسى البريطانى ضد أى غزو افغانى للهند ، وان لا يعقد الشاه صلحا مع الأفغان الا بعد أن يكون الأفغانيون قد اخلوا أية أراض احتلوها فى الهند . وعلى بريطانيا أن تمد ايران بالمدافع والعتاد الحربى فى حالة اعلان الأفغانيين أو الفرنسيين الحرب على الشاه ، وان تتعاون السلطات الفارســـية والبريطانية فى حملات مشتركة ضد أى وجود عسكرى فرنسى فى أية جزيرة من جزر الخليج العربى حتى يطردوا منها الفرنسيين، أما الشروط التى تضمنتها المعاهدة التجارية الموقعة فى نفس اليوم فكانت على نسق معاهدات الامتيازات التى ســـــبق ان عقدتها بريطانيا مع الدولة العثمانية منذ أواخر القرن السابع عشر وهى المعاهدات التى تعطى للاجانب حقوقا تكاد تجعلهم أكثر قدرة على التحكم فى مقادير البلاد الاقتصادية وبالتالى مقاديرها السياسية . وهذا يزداد وضوحا كلما ضعفت الدولة الفارسية أو العثمانية .

نصت المعاهدة التجارية على : ــ

١ ــ أن يتمتع تجار الطرفين بالحماية فى أرض الطرف الآخر ٠

٢ ــ حرية الاقامة ، والتنقل والتجارة ٠

٣ ــ حددت التعريفة الجمركية لصالح التجار الانجليز ٠

٤ ــ حق الانجليز فى اقامة القنصليات ٠

وردا على سفارة مالكولم هذه بعث الشاه سفيرا الى الهند ، ولكن لم يلبث ان اصيب بعيار نارى قاتل خلال مشاجرة بين خدمه وحرس الشرف الهندى المخصص له فى بمباى (١٨٠٢) وتعطل التصديق على أى من المعاهدتين سالفتى الذكر ٠ فكان ذلك من العوامل التى جعلت التقارب بين الفرس والفرنسيين يزداد يوما بعد يوم ٠ خاصة وأن الانجليز كانوا يتهربون من الموافقة على مساعدة ايران ضد الغزو الروسى فى الوقت الذى كان فيه مبعوثون فرنسيون يؤكدون للشاه رغبة فرنسا فى ذلك التعاون مع ايران ضد روسيا العدو المشترك حينذاك (١٨٠٤ ــ ١٨٠٥) .

واصبحت المساعى الفرنسية على المستوى الرسمى عندما اعطت الحكومة الفرنسية للكولونيل روميو فى طهران تفويضا بالتفاهم مع الشاه على أساس تحالف فرنسى ــ فارسى ضد روسيا (١٨٠٥) حقيقة قوبل روميو مقابلة جافة من السلطات الفارسية، ولكنها تركت أثرا هاما فى نفس الشاه ٠

استمرت الجهود الفرنسية لكسب الشاه مستمرة ونجحت على يد المبعوث الفرنسى الجديد جوبرت M. Jaubert (مايو ١٨٠٦) وأدت جهوده الى أن يبعث الشاه بسفارة ايرانية الى فرنسا تولاها (ميرزا محمد رضا) والذى منح حق عقد معاهدة تحالف مع فرنسا تكون فيها الدولتان على قدم المساواة ٠ وتم ذلك فعلا وعرفت باسم معاهدة فنكنشتين التى وقعها نابليون فى ١٠ مايو ١٨٠٧ أى قبل صلح تلست مع روسيا بشهرين فقط .

لقد أصبح من المتعذر جدا على نابليون ان يطبق مواد معاهدة « فنكنشتين » بعد ان وقع صلح تلست Tilsit ١٨٠٧ مع قيصر روسيا ذلك الصلح الذى يطلق فيه

الامبراطور الفرنسى يد روســـيا للتوسع على حساب الدولة العثمـــانية والدولة الفارسية (١) • لقد أصبح على الامبراطور نابليون أن يعيد النظر فى معاهدة فنكنشتين • وتفتق ذهن نابليون عن خطة تقوم على أساس ارسال بعثة على مستوى عالى الى الشاه تقوم بدور الوساطة فيما نشب من منازعات بين ايران وروسيا وحل المشاكل بينهما فى منطقة جورجيا بدلا من امتشاق الحسام الذى يحرج فرنسا كل الاحراج بين حليفيها •

اسندت هذه البعثة الفرنسية الى الجنرال جاردان Gardanne وهناك استقبل بحفاوة ، وحصل من الشاه على تنازل عن جزيرة خرج لفرنسا ولكن عندما وقع الهجوم الروسى على اريفان فى ١٨٠٨ الروسى على اريغان فى ١٨٠٨ • وفشل جاردان حتى فى وقف التحركات الروسية ، وبدا واضحا للفرس أن فرنسا لا ترسل قواتها ضد روسيا من أجل فارس ، هبطت مكانة الفرنسيين بسرعة ، وتلاشت أمورهم • وكان هذا أمرا طبيعيا حيث لا توجد قواعد قريبة يمكن أن يعتمد عليها الفرنسيون فى الاتصال المباشر الدائم مع الشاه بينما كانت قوة بريطانيا هى الواضحة التفوق فى المنطقة •

كان وصول جاردان الى طهران كفيلا بأن تتحرك الدوائر الانجليزية بسرعة وبقوة أكبر عن ذى قبل • وكانت هذه الدوائر لا تخشى فقط من هذا النمو فى النفوذ الفرنسى فى ايران ، بل كانت تخشى كذلك من امتداد هذا النفوذ بنفس القوة الى أفغانســـتان — مفتاح الهند الشمالى • فبعث المسئولون الانجليز فى الهند سفارة الى شاه شجاع أدت الى عقد معاهدة معه موجهة ضد أى غزو فارسى — فرنسى ضد أفغانستان ، وتعهـــد الانجليز فى مثل هذه الحالة بامداد شاه شجاع بالأموال والأسلحة ، كما تعهد الجانب الأفغانى بتطهير بلاده من أى وجود فرنسى •

أما بالنسبة لفارس فقد أعدت لها بعثتان احداها صادرة عن حكومة الهند واسندت الى مالكولم والثانية صادرة عن حكومة لندن واسندت الى بريدجز H. J. Brydges أحد كبر موظفى حكومة الهند •

---

(١) يقال أن آمال الامبراطور نابليون فى تكوين امبراطورية شرقية كانت لا تزال قوية حيث يقال انه فكر فى فتح فارس واسناد عرشها الى اخيه لوســـــيان ويبدو أن هذا من تصورات الانجليز ولكنه يكشف لنا عن مدى ما وصلت اليه مخاوف الانجليز أو ادعاءاتهم •

وذهب مالكولم الى ايران فى ربيع ١٨٠٨ فى مظاهرة عسكرية مقصودة الأهـداف ومع هذا فشلت بعثته فشلا واضحا لأن الشاه لم يكن قد نفض يده تماما من الفرنسيين · أما بعثة هارفورد جونز بريدجر Brydges فقد طالت فترة وجـوده دون طائل بينما كانت حكومة الهند تعد حملة لاحتلال جزيرة (خرج) · فأثرت أن تطلب منـه الانسحاب من ايران ، ولكن لم تلبث حكومة الهند أن غيرت سياستها وفضلت الحصول على خرج بالطرق السلمية ، بل أن الحصول عليها لم يعد سياسة بريطانيا مقررة بعد أن وصلت أنباء هزيمة الفرنسيين أمام الأسبان فى ١٨٠٩ فتابع بردجز جهـوده مع بلاط فارس حتى عقد معاهدة تمهيدية فى ١٢ مارس آذار ١٨٠٩ ·

واهم ما ورد فى معاهدة ١٨٠٩ امتناع الشاه عن السماح لاية قوة بالمرور عبـر ايران لغزو الهند وبمساعدة بريطانيا للشاه عسكريا اذا ما تعرض لغزو من جانب دولة اوروبية · ومن ثم فهى معاهدة موجهة ضد فرنسا ومنحت المعاهدة تسهيلات عسكرية للقوات البريطانية فى الموانىء الايرانية ، وأن تتوسط بريطانيا بين فارس وافغانستان فى حالة وقوع حرب بينهما ، أما اذا هاجمت افغانستان الهند (البريطانية) فعلى الشاه ان يتخذ اجراءات عسكرية ضدها ·

ادت هذه المعاهدة الفارسية — الانجليزية الى وضع حد نهائى للنفوذ الفرنسى فى طهران ، واستغنى الشاه عن خدمات جاردان Gardanne كما ادت هـذه المعاهدة الى ارسال بعثة بريطانية جديدة الى بلاط الشاه ، أسندت الى مالكولم أيضا ، فأصبحت هذه هى بعثته الثالثة الى البلاط الفارسى · ورحب به الفرس ، واسندت قيادة الجيش الفارسى الى أحد الضباط الانجليز ·

ولكن بعد هزيمة فارس أمام روسيا وعقد معاهدة كلستان دخلت الدوائر الانجليزية مرة أخرى فى مفاوضات مع الشاه للحصول على معاهدة تعطى لبريطانيا حقوقا مساوية لما حصلت عليه روسيا فى معاهدة كلستان ، وعلى أسس المعاهدة التى سـبق أن عقدها هارفارد جونز بريدجز مع الشاه فى (١٨١٢) · واخـيرا وقعت المعاهدة البريطانية — الفارسية فى ٢٥ نوفمبر ١٨١٤ · وهى فى اتجاهها وملابساتها موجهة ضد روسيا ·
وقد اورد لوريمر Lorimer ملخصا لها على هذا النحو :

« فى المادة الأولى أعلنت الحكومة الإيرانية ان محالفاتها المعقودة مع دول أوربية فى حالة عداء مع بريطانيا تعتبر لاغية وارتبطت بعدم السماح لأى جيش أوروبى بالدخول الى الأراضى الايرانية أو ان يتقدم برا أو بحرا تجاه الهند . وتعهــدت بأن لا تسمح لأفراد ينتمون الى دول أوروبية بالتردد على ايران اذا كانت لهم خطط ضد الهند أو عداء مع بريطانيا . وفى نفس المادة تعهد شاه ايران أن يستعمل جميع الوسائل التى تكون تحت تصرفه ليقنع دول آسيا الوسطى فى منع أى غزو أوروبى للهند عن طريق أراضيها .

والمادة الثانية تنص على ايجاد صداقة دائمة بين بريطانيــــا وايران وتلزم بريطانيا بأن تمتنع عن التدخل فى النضال الداخلى فى ايران وتطلب سلامة أراضى المملكة الايرانية .

والمادة الثالثة حددت طبيعة المعاهدة بأنها دفاعية تماما وقررت أن الحدود بين ايران وروسيا يجب أن تقبلها بريطانيا .

والمادة الرابعة تشير الى الالتزامات التى فرضتها المعاهدة التمهيدية سنة ١٨٠٩ على بريطانيا فى حالة غزو ايران بقوة أوروبية وحددت قيمة المنحة التى تدفعها بريطانيا لايران اذا كانت المساعدة تقدم على شكل منحة بمبلغ ٢٠٠ ألف تومانا سنويا . وأضيف الى ذلك أن المنحة لا تدفع اذا كانت الحرب التى أدت الى غزو ايران كان فيها استفزاز باعتداء من جانب ايران ويجب أن يقدم برهان أيضا على أن المنحة ستنفق على الأغراض الحربية التى دفعت من أجلها .

والمادة الخامسة سمحت للحكومة الايرانية بتوظيف ضباط اوروبيين لتدريب قواتها بشرط أن مثل هؤلاء الضباط لا ينتمون الى دول تكون فى حرب أو عداء مع بريطانيا . وفى حالة وجود قوة أوروبية فى سلام مع بريطانيا واعلنت الحرب على ايران فعلى الحكومة البريطانية ان تتوسط . فاذا فشلت الوساطة فان الشرط الذى يقيد بريطانيا بمساعدة ايران اما بقوة عســكرية أو بمنحة يجب ان يبقى ساريا . والمادة السابعة تنص على انه فى حالة دفع المنحة يجب ان تدفع على شكل اقساط عاجلة بقدر الامكان .

وتنص المادتان الثامنة والتاسعة على انه اذا ما قامت حـــرب بين بريطانيا وافغانستان فعلى الشاه أن يقوم بعمل ضد الأفغانيين ويتلقى من الحـــكومة البريطانية منحة لتغطية نفقاته وفى حالة قيام حرب بين ايران وافغانستان فعلى بريطانيا ان لا تتدخل الا اذا كانت كوسيط بناء على طلب الطرفين ٠

وتنص المادة العاشرة على طرد وابعاد المجرمين السياسيين واخيرا بموجب المادة الحادية عشرة فان الحكومة البريطانية تتعهد أن تساعد الشاه فى الخليج ٠٠ بالسفن الحربية والقوات والنفقات .

ومن هنا يتبين لنا أن الانجليز حصلوا على امتيازات ستكون فاتحة عهــد التغلغل البريطانى السريع اقتصاديا ، وفاتحة عهد من التحـــكم البريطانى فى سياسة فارس ٠

لم تلبث هذه المعاهدة ان تعدلت فى أعقاب هزائم فارس أمام روسيا فى حربها ١٨٢٦ ــ ١٨٢٨ ٠ فعندما بدأت الحرب طالب الايرانيون من الانجليز أن يقدموا لهم المساعدات بمقتضى ١٨١٤ ٠ ولكن امتنع الانجليز عن ذلك متذرعين بأن فارس هى التى اعلنت الحرب على روسيا وليس العكس ٠ وبذلك تخلت بريطانيـا عن فارس ، وحررت نفسها من قيود معاهدة ١٨١٤ فى العشرينات٠والواقع ان خسائر فارس امام الروس خلال العقدين الثانى والثالث كانت هى الأخرى باهظة ٠

— ٢ —

الأزمات الفارســـية الروســـية

أما العلاقات الفارسية الروسية خلال تلك الأزمة الكبرى الدولية (الثورة الفرنسية وحروب نابليون) فكانت هى الأخرى شديدة التوتر ، وكان هذا واضحا منذ الأيام الأولى من حكم « أغا محمد قاجار » مؤسس الدولة القاجارية ٠

فلقد شذت جورجيا عن كافة جيران اغا محمد (الشاه محمد) وشرعت فى تهـديد فارس من الشمال ٠ وهذا راجع الى تحريضات القيصرة الروسية كاترين الثانية ٠ وكان هرقل (هراقيلوس) حاكم جورجيا مسـتعدا لأن ينفض تابعيته لفارس فى أى وقت ٠ وفعلا انتهز فرصة الفوضى التى أعقبت مصرع نادر شاه واستولى على بعض الأراضى الفارسية وضمها الى ممتلكاته ٠ وحيث أن هرقل كان يعلم تماما أن فارس لن تلبث أن تشن عليه حملة كبيرة بعد أن تسترد وحدتها وقوتها ، أسرع فى ١٧٨٣ الى عقد معاهدة دفاعية هجومية مع كاترين الثانية نافضا يده من أى نوع من أنواع التبعيـة لفارس ، وتعهدت كاترين الثانية بحماية جورجيا٠ولكن الملاحظ هو أن هذا التعهد كان كلاميا أكثر عمليا حيث لم تذهب حكومة روسيا الى حد ارسال قوات روسية لجورجيا لتكون هذه الحماية فعالة ٠

بعد أن انفرد اغا محمد باليد العليا فى البلاد وجد أن من واجبه مواجهة هـــذا الموقف الخطير فى شمال البلاد ٠ وكان اغا محمد ضد أى تسلط أجنبى — خاصة اذا كان صادرا عن جورجيا او روسيا — على أراضيه فبعث أغا محمد بجيش كبير ، ولكنه عجز عن أن يحسم الموقف بالقوة العسكرية لمناعة قلاع جورجيا ووعورة طرقها ٠ الا انه فى معركة مكشوفة دارت بين الطرفين تفوق أغا محمد تفوقا حاسما واستولى على تفليس التى أخذ منها عشرين الف من شبابها وفتياتها أرقاء ، ثم استولى على اريفان وان كان قد عجز عن فتح شيشه (كانون اول ١٩٧٥ / ديسمبر) ٠ الا أن المظهر العام لجهوده فى جورجيا كان الانتصـــــار ٠

رفع هذا الانتصار من مكانة اغا محمد ، وأصبح بطلا وطنيا لا مجرد مطالب بالحكم ولذلك بعد أن عاد من حملته فى جورجيا اتجه الى تتويج نفسه شاها على البلاد (١٧٩٦ م / ١٢١٠ هـ) . وشرع فى توطيد حكمه فى الاقاليم شبه المستقلة ، وكان ناجحا فى أن يحصل على خضوع الواحد بعد الآخر فى خراسان ، وفر بعض منافسية الى أفغانستان والبعض الى روسيا . ومن بين من فروا الى روسيا اخوة مرتضا قولى خان . فكانت فرصـــة انتهزتها حكومة كاترين الثانية للانتقام من الفرس خاصة بعد أن وقفت الحكومة الروسية مكتوفة اليدين ازاء انتصار الشاه محمد قاجار على هرقل فى جورجيا من قبل .

وفى ١٧٩٦ زحف جيش روسى كبير يقدر بأربعين الف مقاتل واســـتولى على (دربند) وباكو وعلى غير ذلك من القلاع الحصينة هناك وعسكر الجيش الروسى فى وادى موغـــان Morgan وتحت يده كل الأراضى التى كانت تقع وراء هـــذا الوادى (شتاء ١٧٩٦) .

واستعد أغا محمد لخوض المعركة فى الربيع التالى ، الا ان كاترين الثانية توفيت، ولم تكن سياسة بول Paul — خليفتها — تؤيد هذا الاتجاه وسحب الجيش من الأراضى الفارسية . وانتهى الخطر الروسى على فارس مؤقتا . فكان ذلك فرصة انتهزها الشاه محمد فغزا جورجيا وتوغل فيها واستولى على شيشه . ولم يلبث الشاه أن لقى مصرعه بعد قليل . (١٧٩٧ م / ١٢١١ هـ) .

كان ذلك النفوذ القوى الذى احرزه اغا محمد (الشاه محمد) فى جورجيا [1] سببا من الأسباب الرئيسية فى الصدام بين روسيا وفارس . ولكن فى أعقاب اعتلاء فتح على شاه العرش اتجه جوركين Gurgin — خان جورجيا — الى أن ينفض يده من ايران ويفتح أبواب جورجيا امام الروس وهذا ما حدث فعلا فى ١٨٠٠ ، فاستدلوا على بانجا (اليزابثبول) ، ولكن لم تقع الحرب الا بعد أن حاصر الروس اريفان ، وبعد سلسلة من المعارك تابع الروس تقدمهم ، وكسبوا معركة اسلاندوز Aslandus فى ٣١ تشرين أول أكتوبر ١٨١٢، وكشفت هذه المعركة عن ارتفاع عدد الضباط الانجليز الذين كانوا يعملون

---

(١) انظر فيما سبق .

فى جيش الفرس . واضطر الفرس الى عقد معاهدة كلستان ١٨١٣ فى الوقت الذى كانت فيه تعانى من غزوة نابليون الكبرى .

نصت معاهدة كلستان على تنازل فارس على الكثير من اراضيها على النحو التالى : —

١ — يتنازل الشاه عن دربند ، باكو ، شيروان شاكى ، قره باغ ، جزء من تاليش ، كل جورجيا ، داغستان ، منجرليا ، امريتيا ، انجاسا .

٢ — ألا يكون لفارس أسطول فى بحر قزوين .

٣ — أن تساند روسيا عباس ميرزا فى اعتلاء العرش .

وهكذا ، ومن أجل أهداف شخصية اضاع ولى العهد عباس ميرزا — المفاوض مع الروس — تلك المساحات الشاسعة من الأراضى الفارسية . وهناك من يرى أن فارس كانت تستطيع الحصول على حقوق وشروط افضل بكثير من تلك لو أنها استمرت فى القتال قليلا لتصبح روسيا بين شقى الرحى : بين جيش نابليون الضخم والجيش الفارسى .

لقد كان الفرس ، وخاصة ولى العهد عباس ميرزا ، مصرا على أن تلك جولة من الجولات ، وأنه يجب أن يستعد استعدادا جديدا وعلى اسس أكثر اوروبية خاصة فى اعداد الجيش وتدريبه ، وعلى اساس الاستعانة بأكبر عدد من الضباط الانجليز . ولكن يبدو أن الحكومة الروسية كانت تعرف هذه الاتجاهات ، ولذلك عزمت على أن تولى وجه الفرس الى جهة اخرى ، والى العراق بالذات . فكان أن بعث الروس فى ١٨١٨ ببعثة برئاسة الجنرال يارمولوف Yarmoloff الى الشاه لحثه على عقد حلف مع القيصر ضد السلطان العثمانى ، مقدما فى نفس الوقت مطالب روسية جديدة : —

١ — السماح للقوات الروسية بالمرور عبر استراباد لمهاجمة جيوه .

٢ — انشاء وكالة روسية فى رشت Recht ، وكان الشاه محمد (أغا محمد) قد منعهم من ذلك .

٣ ـ تقديم مدربين روس للجيش الفارسى ٠

حقيقة رفض الفرس تلك المطالب ، ولكنهم لم يلبثوا أن شنوا حر با ك
العثمانيين فى العراق (١٨٢٠ ـ ١٨٢٣) وبعدها حاول عباس
مما فقده فى معاهدة كلستان ، بل حاول أن يبعد الجيش الروسى
وجه حق ٠ ولم تلبث أن وقعت الحرب مرة أخرى ، وحاول القا
الى تفاهم مع الشاه وبعث بسفارة جديدة برئاسـ
فى أعقاب اعتلائه العرس ٠ لكن استمرت الأزمة واسترد
مقاطعاتها القزوينية ، ولكن لم تلبث القوات الروسية المدربة ان هزمت الجيش الفارسى بقسوة فى معركة شمكار Shamkar ثم فى جانجـا فى ٢٦ سبتمبر ايلول ١٨٢٦ بسبب سوء قيادة عباس ميرزا ٠ وتقدم الجيش الروسى حتى تبريز فاستولى عليهـا وعلى اوريفان وأملت روسيا على الشاه معاهدة تركمان جاى فى ١٨٢٨ ٠ ولا شك أن شروط هذه المعاهدة كانت مخففة بسبب تصاعد الأزمة بين القيصر والسلطان العثمانى ٠

فى معاهدة تركمان جاى (١٨٢٨) تنازلت فارس لروسـيا عن اريفان ونخشوند الخصبتان ، ودفعت خمسة ملايين تومان (٣ مليون استرلينى) لروسـيا ؛ وحصلت الأخيرة على حق تعيين القناصل ، وتحديد الضرائب على الواردات والصادرات بـ ٥ ٪ ٠

ولكن تباطأ الشاه فى توقيع المعاهدة فهدد الروس بالزحف الى طهران فحثه وزير بريطانيا فى طهران على توقيعها فوقعها ٠

لقد انهت هذه المعاهدة عهدا كانت فيه فارس على قدم المساواة مع الدول الكبرى الأخرى ٠ واصبحت البلاد الفارسية محط اطماع الدول الكبرى ، وأصبح لهم فيهـا امتيازات أجنبية وقضائية ٠

الفصل الخامس

الأزمات الفارسية العثمانية

خلال القرن التاسع عشر

استمر العراق غاية من غايات الفرس وكان العثمانيون والايرانيـــون ـ على السواء ـ يقرعون السيف بالسيف أو المؤامرة بالمؤامرة فكانت الحروب عديدة ونتائجها فى كثير من الأحيان لا تدانى تكاليفهـــا • فايران تقذف بالجيش اثر الجيش والدولة العثمانية تحض ولاتها على الدفاع وتشحن المدن بالحاميات وتدفعها الى اجتياح الأراضى الايرانية اذا اشتمت ريح ضعف فى حكامها أو قواتها الدفاعية ، فكان أن اجتاح حسن باشا ـ والى بغداد ١٧٠٤ ـ ١٧٢٣ مقاطعات ايران الغربية فلقب بفاتح همدان وارتفع بذلك الى مصاف العظماء فى تاريخ العراق • ومن بعده نال ابنه أحمد شـــهرة مدوية لمواقف البطولة التى وقفها خلال استماتته فى مقاتلة نادر شاه •

ومع ما كان عليه ذلك الصراع من عنف فقد وقعت معاهدتا سنة ١٦٣٩ و ١٧٤٦ ولم تشأ العقلية الايرانية او العثمانية أن تعين الحدود العراقية ـ الايرانية أو ان تحدد تبعية العشائر الكردية الشاتية فى ايران الصائفة فى كردستان • وكانت المعاهدات بين البلدين قد شطرت الشعب الكردى بينهما ، كما كانت ثغرات كبيرة تسبب نزاعا لا يفتر وتجعل المعاهدات وقتية وغير ذات قيمة فعلية • ومعاهدة ١٦٣٩ م ـ وهى التى اتخذت أساسا للمعاهدات التالية لها حتى ١٨٤٧ م ـ خير مثال لما أقول فقد تركت سقز وزهاب ودرنة فى هذه المعاهدة دون أن تعين حدودها بدقة كما كانت الهجرات تثير ارتباكا شديدا فى تحديد تبعية القبائل وهذا الارتباك فى التحديد كان فرصة لتقلب القبائل على الطرفين، وكان هناك نوع آخر من الهجرات الموسمية يثير أيضا مشكلات معقدة بين حكام العراق وايران ففى العراق مزارات الشيعة المقدسة • هذا الى أن بغداد والبصرة أصـــبحتا أسواقا كبيرة للتجارة الأوروبية الايرانية ـ الهندية فيتقاطر التجار الى العراق فى قوافل ضخمة ، كما تتقاطر عليه قوافل الزوار التى تحمل رفات من أسعدهم الحظ ـ فى نظر الشيعة ـ بتحقيق أمنيتهم وهى أن يدفنوا بجوار حفيد النبى عليه الصلاة والسلام وكان هؤلاء الزوار يعاملون أحيانا معاملة سيئة من فرض رسوم باهظة الى تهديد القبائل لهم بنهبهم مما كان يثير فى نفوس حكام الفرس روح الانتقام وهم الحاقدون على ما يتمتع به الحكام المماليك من اموال العراق الكثيرة • ويوضح لنا عدد الزوار الســـنوى لمزارات

العراق وهو بين ١٥ — ٢٠ ألف زائر مدى خطورة هذه المشكلة من الناحيتين الدينية والاقتصادية · على أن هذه الناحية الحساسة التى كانت فى كثير من الأحيان مصدر تهديد للسلام بين البلدين — كانت أقل خطورة من المشكلة الكردية · فمنذ فتح سليمان القانونى العراق كان الامير الكردى الذى لا ينال مأربه فى بغداد يفر الى ايران لينال هدفه بحد السيف الايرانى وعلى هذا النحو سارت الأمور خلال العهد العثمانى والمملوكى · وكانت السياسة الايرانية ترمى من وراء ذلك الى أن تشارك الأتراك فى حكم شهرزور وبأن يكون لها رأى فيمن يتولى باشويتها · فكانت هذه الأمانى من أسباب كثرة الاصطدام حتى أصبحت محكا لقياس قوة استعداد الحكام فى بغداد لمواجهة المواقف ·

وفى عهد عبد الله باشا (١٨١٠ — ١٨١٣) — والى بغداد — كان الشاه أشد رغبة من ابنه محمد على ميرزا فى الاستيلاء على بغداد ويعبر أحد ساسة الفرس عن مشاعره فى هذا الصدد فيقول : وا أسفاه على وقوع تلك البلاد الجميلة بين أيدى ذلك الشعب ؟؟ لو أنها كانت لنا (والله سيمنحنا اياها) فيالها من بلد ستصير فردوسا ·

وكانت التيارات السياسية فى أوروبا من العوامل التى أشعلت نار حقد الايرانيين على الأتراك لأن السلطان عقد معاهدة صلح مع قيصر روسيا فنكزت ايران لتصيد العراق · لكن السفير الانجليزى استطاع أن يلطف الجو بين الدولتين بأن أقنع الشاه بسحب ترشيح عبد الرحمن بابان للسليمانية وهكذا كانت للانجليز قدرة على وقف أو تأجيل حرب بين ايران وبغداد · فقد كان نفوذهم فى ايران قويا وكذلك كان فى بغداد أيام سعيد ، فهذا الباشا الضعيف سمح للنفوذ الانجليزى الفارسى ان يشتد فى العراق حتى ان الشائعات كانت تتردد هنا وهناك عن أن العراق على شفا الوقوع بين يدى الشاهزادة محمد على ميرزا حاكم كرمنشاه ·

ولما كانت العراق محط آمالهم ، وما كان الشاه لينسى كارثة كربلاء (١٨٠١) عندما هاجمها الموحدون (الوهابيون) ، وكانت الثمرة قد آن اقتطافها ، فان الشاهزادة محمد على ميرزا أخذ ينظر من جديد الى فتح العراق كله لا السيطرة على شهروزر فقط · وكانت مقدمات هذا الاتجاه عدوانا ايرانيا مستمرا على الحدود العراقية — الايرانية منذ

انتصار داود (١) فى موقعة كفرى (١٨١٢) على عبد لرحمن البابانى ، وكلما ظهرت النية لعقد الصلح ازدادت العراقيل فى وجه المفاوض العثمانى . وكانت العقبات الكبرى التى تواجه المتفاوضين هى :

(أ) مطالبة ايران بأن يكون لها رأى فى تعيين حكام السليمانية .

(ب) دفع حكام السليمانية مبالغ سنوية لايران .

(جـ) مشكلة القبائل الرحل المتنقلة بين الأراضى العثمانية والايرانية .

(د) مشكلة معاملة حجاج العتبات المقدسة .

(هـ) المشكلة الكردية وقبول اللاجئين .

ونظرا لتعقد تلك المشكلات كانت المفاوضات غالبا ما تنتهى دون الوصـــول الى الهدف المنشود فتظل بذرة النزاع نابتة .

على ذلك النحو دارت المفاوضات بين الباب العالى والشاه بشأن تلك المنازعات ، وانتهت المفاوضات دون أن تبت باتا قاطعا فى أية مشكلة من تلك المشكلات الا من حيث تنازل ايران عن الأموال التى كانت تأخذها سنويا من عبد الرحمن بابان وكانت حوالى عشرة آلاف تومان .

وفى حياة عبد الرحمن نالت ايران نفوذا كبيرا جدا فى كردســـتان حتى انها كانت تحتل معظم المناطق المشكوك فى تبعيتها لكل من الطرفين وبعض المناطق التابعة للعراق . فقد كانت تحتل لواء حلوان وهو يشمل (زهاو) ودرتنك وقصر شيرين (٢) .

وكان عبد الله باشا وسعيد باشا أضعف من ان يقفا موقفا حازما من ايران وكانت سياسة داود مناهضة منذ البداية لايران فتحالف داود مع محمود البابانى ضد سعيد على أساس تخلى محمود عن الايرانيين . ومنذ أن تولى داود باشا الحكم لم يحضر فى أية مناسبة يحتفل بها معتمد الشاه فى بغداد . وكانت أسس حلفه مع محمود بابان مضيعة للنفوذ الايرانى فى كردســـتان وقد منحه داود كوى وحـــرير مكافأة له عن تخليه عن

---

(١) والى بغداد من ١٨١٧ — ١٨٣١ .

(٢) جودت : جـ ١٠ ، ١٢٢ .

ايران (١) • وكانت ايران متحفزة لتلتهم العراق ، وتحول هذا التحفز الى رغبة جامحـــة اثارتها السياسة الروسية ، التى بدأت تنفيذ سياسة مرسومة فى الشرق الأدنى • وكانت ايران قد تلقت منذ وقت وجيز صفعة معاهدة كلستان المهينة حتى أصبحت كاتبعـــة لسانبطرسبرج (٢) وهذا هو العامل الجديد الذى ظهر فى المشكلة العراقية الايرانية واعنى به مؤمرات عملاء روسيا فى ايران لاثارتها ضد الدولة العثمانية •

ففى سنة ١٨١٧ لم يكن هناك أمل للايرانيين فى أن يستردوا شـيئا من ممتلكاتهم المفقودة بمساعدة حلفائهم القدماء (الانجليز) • بينما أرسل القيصر الجنرال يارمولوف Yarmoloff الحاكم الجبار والقائد العام للقوقاز على راس بعثة دبلوماسية مهيبة الى طهران ، وبدل أن يتنازل الجنرال عن شبر من الممتلكات التى استولت عليها الروسيا من ايران قدم اقتراحا بعقد حلف ايرانى — روسى ضد الدولة العثمانية • وطالب فى هذا الحلف بأ تمنح القوات الروسية ممرا عبر الأراضى الايرانية فى استراباد وخراســان لتصل هذه القوات الى جيوه، كما اقترح أيضا امداد الجيش الايرانى بالضباط وبالقيادة الروسية • ولكن كل هذه المقترحات رفضت فى هدوء وعادت البعثة الروســـية الى بطرسبورج محملة بالهدايا وان كانت ممتلئة غيظا من ايران (٣) ، ولا شك أن هـــذه التلميحات عن التوسع فى ناحية الغرب كان لها صداها فى البلاط الايرانى •

على أن العوامل الأخرى المؤدية الى النزاع بين ايران والدولة العثمانية كانت على صورة أشد خطورة لأن خطة كرمنشاه لم تقف عند مؤامراتها فى كردستان فقد نشطت كرمنشاه فى جمع الأعوان من كبار الحكام ومن الزعماء العرب أيضا وهى تومى من وراء ذلك الى السيطرة على كردستان بالضغط العسكرى والسياسى • وبشغل الباشا فى بغداد بالمؤامرة تلو المؤامرة حتى يعجز عن منازلة كرمنشاه ويضج العراق من عجز الباشا فيثور ويضطرب ويخلع الباشا ليأتى آخر ربما يكون من المماليك الموالين لايران • ومصداق ذلك

---

(١) جودت : جـ ١١ ، ٣٠ •

(٢) Hoskins, British Routes to India. London 1926.

وانظر نصوص معاهدة كلستان فى Hurewitz, op. cit, Vol. I. وظروف عقدها فى Sykes; A History of Persia. London 1951, Vol. 11, P. 313, 315.

(٣) Ibid.

أشتداد المؤامرات الايرانية داخل بلاط داود نفسه ، ولذلك قضى على الرءوس الخائنة وعمل على أن يبعد محمودا عن الشاهزادة بالنصح والترهيب فارسل مهرداره عناية الله أغا اليه النصيحة بالابتعاد عن الشاهزادة وعبثا حاول المهردار لأن محمودا كان يعتقد أن قوة كرمنشاه عظيمة بينما تولى داود الحكم منذ وقت قصير بحد السيف الكردى ثم أن الباشا لا يستطيع أن يشن ضده حربا فى هذه الظروف ولكن محمودا أخطأ التقدير لأن داود باشا كان مصرا كل الاصرار على ضرورة القضاء على النفوذ الأجنبى فى العراق أيا كان مصدره ، الفرس أم الانجليز . وكان الباشا قد زود مهرداره بالتعليمات التى يجب أن يسير عليها اذا ما رفض محمود العودة الى حظيرة الدولة العثمانية فكلفه بالاستيلاء على كوى وحرير فى هذه الحالة ، فقام عناية الله بمن معه من قوات معززة بجند اربل وعشائر الشمامك وديزه يى واستولى على كوى وحرير،واسندها الى حليفه خسن — أخى محمود البابانى — الذى أنضم الى داود .

وكان من الطبيعى أن يستنجد محمود بحليفه الشاهزادة فأمده هذا بعشرة آلاف مقاتل وكانت هذه العمليات العسكرية السياسية المبدئية الناجحة التى وجهها داود — والى بغداد — الى محمود تنذر بأن محمود يكاد يختنق فاستنجد مرة أخرى بالشاهزادة فلباه هذا بسرعة ليضمن السيطرة على الموقف واخذت قوات الشاهزادة تقرع أبواب العراق بعنف (١) .

وهكذا أصبح لزاما على داود أن يخوض الحرب مرغما مع جارته الكبيرة ومن ورائها ايران بأسرها . وكانت ايران فى ذلك الوقت قد سبقت الدولة العثمانية فى ادخال النظم العسكرية الحديثة فى جيوشها بالقدر الذى سمحت به ظروف ايران ، وبخاصة أنه لم يكن لديها فرق انكشارية لتعرقل هذا التطور . فكان لدى الشاهزادة محمد على ميرزا — واخيه عباس ميرزا — من الجيوش النظامية والمدفعية المدربة ما يستطيعان أن يخوضا بها معركة ناجحة ضد حاكم شرقى . ولا شك أن توزيع الولايات على أولاد الشاه قوى الرغبة فى أن يستولى الفرس على العراق . وكانت بغداد هى الاتجاه الذى يمكن أن يسير فيه محمد على ميرزا ان أراد التوسع . ولتتحقق امنيته هذه يجب أن يخوض حربا عنيفة

---

(١) محمد امين زكى : تاريخ السليمانية ، ١٤٠ .

ضد الدولة العثمانية ، وهذا يحتاج الى اعداد وتنظيم جيوش كبيرة . نعم ان نشـــاط الشاهزادة محمد على ميرزا واخيه عباس فى تنظيم الجيوش انما كان نتيجة درس تلقوه من الروس خلال المعارك التى خاضها الفرس ضد الروسيا فى العقدين الأول والثانى من القرن التاسع عشر ، واستغلوا هذه القوات الحديثـــة التنظيم أولا فى قتـــال الدولة العثمانية (١) ، فاخذ الفرس يعملون على استبدال فرق نظامية بالقوات العشـــائرية ، واعتنى عباس ميرزا بالمدفعية . وكان تحت قيادته وحدة جيش قدر تعداده بحـــوالى ١٠٠ر٤٦٦ مقاتلا ، عدا القوات غير النظامية أما اذا خاض الشاه الحرب بنفسه فان عـدد الجيش الايرانى يرتفع الى ١٠٠ الف وبل والى ٣٠٠ ألف مقاتل . وهذه جيوش كفيلة فى الحقيقة باجتياح العراق تماما . فلم يكن فى العراق من الباشوات منذ سليمان الكبير من استقر فى حكمه هادئا لمدة كافية يستطيع خلالها ان ينظم جيشـا على الطـــراز الحديث (٢) . ولذلك كانت قوى بغداد هزيلة أمام عدوتها كرمنشاه . ويصور لنا الرحالة الانجليزى « هود Heude » قوة بغداد العسكرية تصويرا يؤكد أن العراق سيجثو على ركبتيه عند اول لقاء بين الجيشين البغدادى والايرانى وان قوة العراق أضعف من أن تقف فى وجه المؤامرات الداخلية العنيفة .

ان هذه الحرب التى استعد لها امير كرمنشاه بقـــواته الكثيفة لم تكن حربا على نطاق ضيق مثلما حدث أيام أسلاف داود منذ أيام سليمان الكبير ، وانما كانت حربا على نطاق واسع . ونطاقها كان اكبر من نطاق تلك التى شنها كريم خان الزندى وان اتفقت معها فى الدوافع والأسباب . حرب قصد بها الوصول الى بغداد والاستيلاء عليها لتكون عاصمة الشاهزادة الواسع الآمال . ولا شك ان هذه النيات هى التى طورت أســـاليب العلاقة بين الايرانيين والعراقيين ، فلقد تكشفت المؤامرات الفارسية فى بلاط سعيد ثم فى بلاط داود من بعده عن أن تيار النفوذ الايرانى بعد أن ملأ كردستان بدأ يصب فى بغداد لتغمرها مؤامرات لفظت دواماتها علاقات لحمتها المنفعة الشخصية وسداها خيانة مصالح البلد ، أما لعدم تقدير خطورة تلك الخيانات أو لمصلحة دولة اجنبية . وكان على رأس

---

(١) A. Wilson; Persia. London 1929. P. 321.

(٢) تفصيلات وافية عن الجيش الايرانى فى :
Fraser; Narrative of a Journey in Korassan. PP. 211, 225-227; Wilson, Persian Gulf. P. 321; Heude; op. cit. P. 186.

المتصلين بالشاهزادة القنصل الانجليزى ريتش ، وكانت لهذا القنصل اهداف تتعارض مع مصالح داود والى بغداد ٠

شن الفرس هجومهم على العراق فى وقت كانت فيه الجبهة الداخلية فيه مفككة ، واستطاع الفرس أن يضعوا على حكم الامارات الكردية من يميل اليهم ، ولم تلبث هذه الحرب المحدودة أن تحولت بعد وقت وجيز الى حرب بين الدولتين الفارسية والعثمانية ، وانتصرت القوات الفارسية على جيش داود باشا — والى بغداد — فى موقعة (باريكة) فطلب داود من السلطان أن يمده على جناح السرعة بالقوات اللازمة لصد جيوش ايران ٠ وكانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت منهمكة فى حربها مع ايران فى الجبهة الشمالية وفى حروب المورة وثورات باشواتها ولم يكن فى وسعها ان تمد داود بجيش كبير ٠

ولذلك اتجه السلطان الى جلب العون من الوالى الذى شق طريقه الى الولاية عن طريق الشعب الذى يحكمه وانتزع فرمان التولية من السلطان انتزاعا ذلك هو محمد على والى مصر ٠ اذ ليس فى استطاعة احد من ولاة الدولة سواه أن يقوم بتلك المهمة الخطيرة : وهذا ما قيل فى محمد على باشا قبل أن يفتح الجزيرة العربية ويصل الى الاحساء ، وقد تألق نجمه بعد ذلك ، وتفوق على غيره من باشوات الدولة العثمانية بتغلبـــه على الموحدين (الوهابيين) ، وكان محمد على يعمل على اعداد جيش وطنى وأسطول كبير ٠

واغلب الظن ان السلطان عرض على محمد على باشا أن يقدم المعونة لوالى بغداد (١) لنفس الأسباب التى من أجلها كلف السلطان محمد على بمحاربة ثورة المورة (٢) وبخاصة أن محمد على أصبح مسامتا للبصرة فعلا لأن قواته التى فتحت البلاد السعودية وصلت الى قرب أطراف العراق الجنوبية وهذه المنطقة من الناحية الفعلية وقعت تحت الادارة المصرية فهو بذلك من أقوى وأقرب الولاة من ميدان المعركة فى العراق ٠ اما من الناحية

---

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ ، معية تركى ، صحيفة ٣٥ ٠ أمر رقم ٧٦ من محمد على باشا الى الصدر الأعظم بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ ٠

(٢) كانت الدولة العثمانية تلقى عبء القضاء على الثورات والحـروب التى تشن ضدها على كاهل الولاة فى الأقطار المجاورة لتلك الحروب وهى فى الوقت نفسه تستخدم هذا التكليف فى اضعاف الولاة ليستمروا خاضعين للسلطان العثمانى ٠

العسكرية فان خطوط المواصلات بين العراق ومصر طويلة جدا ، فكانت تكاليفها ضخمة هذا الى أن محمد على فى ذلك الوقت لم يهتم لا بالاحساء ولا بنجد وانسحب منهما على اعتبار أن ادارتهما ترهق الحكومة المصرية ·

وكان محمد على قد شعر بأن السلطان على وشك أن يكلفه بمهمة مساعدة داود - ونلحظ هذا فيما جاء فى كتاب محمد على لابنه ابراهيم :

« ان ·· عباس ميرزا قد نقض العهد واعلن الحرب ·· وان ما هو مجمع للأشقياء من جزرالمورة وكريد ·· قد غض الطرف عن النظر فى أمرها ·· وان مسألة على باشا ال تبه دلنلى [1] لما تنته على صورة يمكن وصفها بها · فتبين لنا من كل ما تقدم ان قد نفخ فى بوق الحرب ضد العجم وان قد ألقى حبل الجزائر المذكورة على غاربها وانه بهذه الصورة قد هبت علينا ريح العمل فى سبيل الدولة والملة وتبدت لنا صفحات الخدمة اما فى احدى هاتين الجهتين أو فى كلتيهما معا ·· غير أنه لما كان أمر تأدية هـــذه الخدمات وتسوية هذه المصالح متوقفا على وجود العساكر الوفيرة فالآن همتك وان أعز مامولى لهو أن تتفضلوا بالمبادرة وتوجيه العناية الى تحريك ابننا اســـماعيل باشـــا ·· و ·· والدفتردار ·· للقيام بغزوات طيبة نافعة لكى ترسلوا هؤلاء السودانيين [2] فى هـــذه الأيام على الوجه المطلوب وأن تصرفوا لآلى همتكم فى عمل ما فيه الخير لنا [3] ·

وكان لهذا التوقع أثره الكبير فى فتح أبواب جديدة أمام محمد على فكان عليه أن يحدد بالضبط الخطر الذى يتهدد العراق ، ومدى تقدم الايرانيين · ومن الحليف ومن العدو ومن هو من وراء [4] هذا كله يرمى الى هدف ثان وهو حماية نجد والبلاد الواقعـــة

---

(١) باشا عثمانى ثائر على الدولة العثمانية فى البلقان ·

(٢) كان محمد على يحث أولاده فى الســـودان لكى يجمعوا اعـــدادا كبيرة من السودانيين لتكوين جيش منهم ثم فشلت التجربة واعتمد على الفلاح المصرى فى تكوين جيشه الحديث ·

(٣) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ ، معية تركى ، أمر رقم ٤٠ تحريرا فى ربيع الأول ١٢٣٧ (٢٠ نوفمبر ١٨٢٢) من محمد على الى والى جدة ·

(٤) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ ، معينة سنية ، وثيقة ٤٦ صفحة ٢٩ بتـــاريخ ١١ربيع الأول سنة ١٢٣٧ من محمد على الى محافظ المدينة المنورة حسن بك ·

تحت الحكم المصرى من المؤامرات التى قد يدبرها له الفرس لأنه عضو فى قـــوة الدفاع العثمانية ، بل عضو خطير (١) ٠

ولذلك اصدر محمد على اوامره بالتحفظ على الايرانيين الذين يوجدون فى بلاد تحت الحكم المصرى (٢) وكتب الى عماله فى البلاد العربية محذرا من المؤامرات الايرانية ، وطلب منهم فى الوقت نفسه أن يمدوه بما لديهم من أنباء القتال فى الجبهة العراقية٠وهذا كل ما فعله محمد على بالنسبة للقتال ضد الفرس ، فعندما طلب من السلطان بعد ذلك أن يبعث بابنه ابراهيم باشا ــ والى جدة ــ الى بغداد عمل « محمد على » على التخلص من هذه المهمة ولذلك كتب للصدر الأعظم يقول :

« ٠٠ ان سفر المشار اليه بمأمورية الى جهة بغداد مع عساكر كثيرة يكون منتجا لفوائد عظيمة ، ولكن بما انى مشغول بـ ٠٠ مشكلة كريد و . . « مخا » فان ذلك الصدد يلزم الذهاب بعساكر كثيرة وتداركات قوية واجراء التدابير الضرورية لدى المقابلة نظرا لبعد مسافة بغداد وكثرة الأعجام وقوتهم ٠ فاذا صدرت الارادة الســنية بتهيئة لوازم السفر والمهمات الحربية فى هذه السنة المباركة والذهاب بعساكر ومهمات كثيرة فى السنة الآتية فانى اذهب فى السنة الآتية بنفسى (٣) ٠

وهكذا أمسك محمد على حتى نهاية الحرب عن امداد داود باشا فى حربه ضد أعداء الدولة العثمانية ولعل السبب فى التخلص من هذه المهمة أن ولايات العراق لا تعنيه كثيرا فى ذلك الوقت الا فيما يتعلق بنجد وما يهددها من اخطار ، فموقفه من هذه الحــــرب سلبى تماما ، يجمع الأخبار عن طريق رجاله فى بلاد نجد ويهتم جدا بتتبع ما يحدث فى العراق ٠ ولكن كل هذا دون أن يقوم بعمل ايجابى فى الحرب العراقية ــ الايرانية ٠

---

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ ، معية سنية ، وثيقة ٤٥ ، صفحة ٢٩ بتاريخ ربيع الأول ١٢٣٧ ٠ من محمد على الى حسن بك محافظ المدينة المنورة .

(٢) الوثائق التاريخيه : دفتر ١٣ ، معية تركى ، صـــحيفة ٣٥ ــ ٣٦ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ ٠

(٣) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ ، معية تركى ، صحيفة ٣٥ أمر ٨٦ بتـاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ ٠ من محمد على باشا الى الصدر الأعظم ٠

نخلص من هذا كله الى أن محمد على باشا لم يطلب منه رسميا التدخل العسكري لتأييد داود الا فى شعبان ١٢٣٨ (ابريل ١٨٢٣) [١] وأن محمد على حتى فى هذا الوقت المتأخر من الحرب مع ايران تخلص من هذا التكليف ٠

فكان على داود أن يوطن نفسه منذ البداية على مواجهة الموقف وحده ، فان وصول الامدادات الى داود فى بغداد من مصر أو من الاستانة يتطلب وقتا ليس بالقليل ، وهذا اذا كانت هناك امدادات ٠ فتحصن داود وراء أسوار بغداد ٠

على أن الامتحان الذى كان يمكن أن يكشف لنا مدى قوة داود الدفاعية لم يقع ، فان الحصار لم يلبث ان اخذ يخف شيئا فشيئا لأن الكوليرا وقد أصبحت من العوامل الحاسمة فى الحروب العراقية تفشت بين الجيش الايرانى وقامت بالمهمة التى عجز عنها جيش داود ٠

ومن حسن حظ داود أن الكوليرا لم توهن قوى الشاهزادة محمد على ميرزا فحسب، بل أصابته هو نفسه أيضا ٠

وكان هذا التطور من الأسباب التى دعت الشاهزادة محمد على ميرزا الى طلب الصلح مع داود باشا ، ولم يلبث أن توقف القتال فى كافة جبهات القتال بين الدولتين الفارسية والعثمانية ، وأدت المفاوضات الى عقد معاهدة أرضروم الأولى (١٨٢٣) ٠

تقضى هذه المعاهدة بتأكيد معاهدة سنة ١٦٣٩ وبعدم تدخل احدى الدولتين فى شئون الأخرى ، وبخاصة فيما يتعلق بالكرد ، والا تقوم الدولة الإيرانية بفرض سيطرتها على الرعايا التابعين للدولة العثمانية ٠ واذا ما عبرت احدى عشائر الدولتين الحدود الى الدولة الأخرى خلال هجراتها الصيفية أو الشتوية فعلى باشا بغداد وممثل ولى العهد الإيرانى أن يتفقا على الضرائب التى تفرض على هذه العشائر وايجار المرعى حتى لا يترتب على ذلك سوء تفاهم بين الدولتين ٠

ونصت المعاهدة على أن يؤخذ من التجار والحجاج الرسوم المعتادة دون أن يطالبوا

---

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ ، معية تركى ، صفحة ٣٥ أمر ٧٦ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ من محمد على باشا الى الصدر الأعظم ٠

بأى شىء من المغارم فلا يدفع الحجاج الذين لا يحملون متاجر شيئا من الرسوم ، وأما الذين يحملون معهم تجارة فتجبى على هذه التجـارة الضريبة الجمركية فقط · وكذلك تعامل ايران التجار العثمانيين بالمعاملة نفسها ·

ويدفع الرعايا والتجار الايرانيون الضرائب نفسها التى يدفعها رعايا وتجار الدولة العثمانية وهى ٤٪ من قيمة التجارة ، ويمنح التاجر تذكرة تثبت دفعه للضرائب القانونية المطلوبة منـــــــه ·

ولما كان انتقال العشائر سببا جوهريا أدى الى هذه الحرب فقد وضعت فى المعاهدة نصوص تقضى بأن تضع الدولتان حدا لتذبذب العشائر بين ايران والدولة العثمانية ، كما نصت المعاهدة على اتفاق الدولتين على عدم قبول أى دولة منهما للاشخاص الفارين من الدولة الأخرى ، كما اتفق على أن تعاد ممتلكات الايرانيين فى الاستانة الى أصحابها وان البضائع التى تحت التحفظ (تحت الحراسة) أو صودرت بأوامـــر من باشوات الدولة العثمانية ترد الى أصحابها بعد اثبات حقهم فيها .

كذلك نظمت المعاهدة طريقة حصول الوارث الايرانى على ارث الأب المتوفى ببغداد ، والتحفظ عليه . ولكى تتم الأمور فى بساطة وعلى بساط البحث المتبادل الودى اتفق على ان يرسل كل بلاط كل ثلاث سنوات وزيرا الى بلاط الطرف الآخر ·

كذلك نصت المعاهدة على اعلان العفو عن أولئك الذين فروا من احدى الدولتين الى الأخرى على ألا يعاقبوا على خيانتهم السابقة وعلى الا تطالب احدى الدولتين الأخـــرى بتعويضات عن الخسائر التى سببتها الحروب أو تكاليفها (١) ·

لم تأت هذه المعاهدة بشىء جديد ، ووضعت فى صورة خطوط عامة بينما كانت الحدود العراقية ـ الايرانية فى حاجة الى نظرة جغرافية دقيقة من حيث طبيعة هـــذه الحدود ومناخها وأسلوب حياة العشائر الكردية النازلة هناك ومدى قوة الحـــكومة المركزية وتبعية تلك العشائر لها · ولم تكن العقلية السياسية والعثمانية حتى ذلك الوقت

---

(١) كانت المفاوضات بين ايران وبغداد تتم أحيانا بوساطة كبـــار رجال الدين فى الدولتين مثلما حدث أيام نادر شاه ـ حديقة الزوراء : ٢٤٠ ٢٦٣ ·

قد ارتفعت بعد لتضع معاهدة تفصيلية للحدود المشتركة . فلم يثر انتباه الدولتين الا مشكلة العشيرة التى كانت السبب المباشر فى الحروب وأما تنظيم أمر العشائر على حدود العراق مع ايران والتدخل الايرانى فى كردستان فانه كان يتطلب تحديدا دقيقا ينص على تبعية كل عشيرة وعلى أراضيها ووضع خريطة مفصلة للحدود لتكون مرجعا عند الخلاف ·

فكان من الطبيعى أن تعود الخلافات بين بغداد وكرمنشاه بشأن المشكلة الكردية وبشأن الحدود بين الدولتين . فلقد بقيت القوات الايرانية تحتل لواء حلـوان مع أن معاهدة١٨٢٣ تجعله تابعا لبغداد وكانت زهاو وحدها تؤدىعشرة آلاف تومان للشاهزادة وهو مبلغ جسيم نسبيا . على أن النزاع الذى دب فى كردستان بين محمود باشا وعمه عبد الله باشا وما ترتب عليه من تدخل ايرانى سافر حطم ركنا هاما من هذه المعاهدة . وزاد المشكلة تعقيدا ظهور «قوة راوندوز» فى ذلك الوقت وتوسعها على حساب البابانيين ولقد شكا داود هذا التدخل الايرانى الى الباب العالى فبعث الباب العالى بأسعد أفندى للتحقيق فى هـــذه المشـــكلة ·

ويروى لنا أسعد افندى بالتفصيل المحادثات السياسية التى دارت بينه وبين داود والايرانيين وهى محادثات أظهرت أن المشكلة الكردية لم تكن مستقلة فى حد ذاتها ، وانما كانت مرتبطة بمشكلة زوار العتبات المقدسة . فقد اتهم المفاوض الايرانى داود باشا بأنه يأخذ « الباج » على الزوار الايرانيين ويفرض ضرائب مستحدثة على رفات من يدفنون فى العتبات المقدسة · وقام أسعد افندى بتحقيق المسألة وكان من الطبيعى أن يبرىء داود وساحته فى هذا الصدد · ولا شك أن المهمة التى كان يرمى اليها اسعد افندى من هـــذه المفاوضات لم تكن فقط لاقرار الأمور بين طرفى النزاع داود والشـــاهزادة ، بل كان يهدف الى كسب ايران عضوا فى الجامعة الاســـلامية التى تعمل الدولة العثمانية على تحقيقها للوقوف فى وجه التكتل الأوروبى ، ذلك التكتل الذى ظهر بأجلى معانيه الدينية والسياسية فى ثورة اليونان ، وبرزت فيها الروسيا كأعنف خصم للدولة العثمانية وأن الدول الاسلامية يجب أن تتعاون ضد هذا الخطر المشترك (١) · محادثات تبودلت فيها الآراء السياسية العالمية ونوقشت المشكلات بكل صراحة ومودة،وكان التحالف علىوشك

---

(١) تاريخ جودت : جـ ١٢ ، ٢٩١ — ٢٩٢ ·

أن يوقع واذا بالسفارات تذهب وتعود دون الوصول الى حل عملى للمشـكلات أو الى قيام تعاون حقيقى بين الدولتين وهذا يرجع الى عدة أمور :

١ ــ عدم الثقة المتبادل بين الدولتين ٠

٢ ــ ان الحكم فى كل من الدولتين موزع على حكام لهم سياستهم شـبه المستقلة عن سياسة الحكومة المركزية ٠

٣ ــ عمق الأزمة المذهبية بين الشيعة والسنة حينذاك ٠

٤ ــ عدم وضع الفريقين يدهم على الداء نفسه وعلاجه بدقة واستخدام عبارات « عدم التدخل » و « عدم قبول اللاجئين » ٠ فقد كانوا ينظرون الى النتائج قبـل أن يدرسوا مسببات هذه النتائج . ان علاج المشكلة الايرانية ليس فى المعاهدات التى تعقد بين ايران والدولة العثمانية ، وانما فى دراسـة مسببات تلك النتائج أولا ، وهذا هو الذى حدث بعد ذلك على يد خورشيد باشا ودرويش باشا عندما درسا شئون العراق من الناحية الجغرافية والاقتصادية والبشرية والسياسية ٠٠ الخ ووضعا التقارير والبحوث فى ضوء هذه الدراسات الدقيقة التى نظمت الحدود بين الدولتين سنة ١٨٤٧ م (١) ٠

وعلى الرغم من أن الباب العالى كان يعمل على توحيد كلمة المسلمين لقتال الكفار، وعلى وجه الخصوص الروسيا ومع أن الظروف كانت تخدم الباب العالى فى مسعاه هذا نظرا للتوتر الشديد الذى وضح بين القيصر والشاه الذى كان ينظر الى معاهدة كلستان نظرته الى وصمة عار فى جبين الدولة الايرانية ، أقول انه على الرغم من كل هذا ظلت سياسة كرمنشاه ثابتة نحو كردستان وبغداد من حيث قبول اللاجئين وامداد البابانيين بالقوات ٠ وكان من الطبيعى أن تتوزع قوى الاسلام فى حرب بين روسيا وايران منذ ١٨٢٦ ــ ١٨٢٨ لا يشترك فيها السلطان ، وأخرى بين روسيا والدولة العثمانية بعـد موقعة نافارينو لا يشترك فيها الشاه ونتيجة كل من الحربين كانت نصرا عسـكريا

---

(١) يعتبر كتاب سياحتنامة حدود كذلك تقرير درويش باشا دراسة قيمة للعراق ولمشكلة الحدود الايرانية العراقية ٠

ودبلوماسيا لروسيا (١) وتمثل ذلك فى معاهدتى تركمانجاى (فبراير ١٨٢٨) ومعاهدة أدرنة سبتمبر ١٨٢٩ (٢) .

كان من المنتظر أن تقع أزمات جديدة بين الدولتين ، وبسبب التوسع المصرى ، وبسبب الحرب الأفغانية لم تركز الحكومة الفارسية جهدها فى اتجاه العراق وانما اتخذت سياسة نشطة نحو المحمرة وعربستان لا لأسباب سياسية فقط وانما لأسباب اقتصادية كذلك فقد كانت الحملة التى قام بها والى بغداد ضد المحمرة ١٨٣٧ موجعة للفرس الذين كانوا مشغولين فى حملتهم ضد هراة ، وشعرت حكومة طهران الى جانب هذا أن سيطرة العثمانيين على المحمرة يفقدهم ميناء يستطيعون به أن ينافسوا البصرة بكل قوة. ولهذا توالت احتجاجاتهم على الدولة العثمانية بسبب تلك الحملة على المحمرة .

ويبدو أن الانجليز بعد أن عقدوا معاهدتهم التجارية مع فارس ، وبعد أن وضعوا بواخرهم بقوة فى أنهار العراق وفى نهر قارون وفى الخليج العربى وجدوا أن من مصلحتهم عدم وقوع المحمرة والبصرة معا فى يد واحدة وأن مصلحتهم أن تكون المحمرة شبه مستقلة وبعيدا عن متناول العثمانيين ، ولذلك كانت احتجاجات الفرس على العثمانيين بشأنها تلقى ترحيبا من الجانب البريطانى .

ولم تقتصر المجهودات الفارسية على تلك الاحتياجات ، بل كلفت منوشرخان معتمد الدولة بالسيطرة على منطقة جنوب غربى فارس التى تنزل فيها عشائر البختيارى وعشائر كعب . فوجه معتمد الدولة الفارسى قواته اولا الى عشائر البختيارى واخضعها ثم تابع معتمد الدولة زحفه صوب عربستان واستولى عليها وعلى المحمرة وفر ثامر — شيخ عشائر كعب — الى العراق بعد أن اغرق البلاد .

ثم بدأ (معتمد) يتطلع الى ما وراء عربستان والمحمرة ، ورفضت السلطات العثمانية فى بغداد والبصرة تسليم ثامر الى معتمد الدولة فما كان منه الا ان زحف صوب البصرة . وضغط على بنى لام — العشيرة العربية الكبيرة — فاضطرت الى الفرار تاركة مراعيها عند سفوح جبال لورستان كما هبطت عشائر الفيلية الفارسية من جبالها منقضة على مضارب بنى لام فأشاعت الفوضى والدمار بينها .

---

(١) Morfill; The Story of Russia, 1930, pp. 286—287

(٢) أنظر المعاهدتين نصوص فى :
Hurewitz; op. cit, Vol. I.

ونظرا لما كانت عليه منطقة عربستان من اهميـة للمشروعات البريطانية التجارية ولخطوط المواصلات العالمية والمحلية عنى تيلر — القنصل البريطانى فى بغداد — بابلاغ سفير بريطانيا بالاستانة تطورات الموقف فى عربستان اولا بأول واسـتقى ستراتفورد كاننج — السفير البريطانى فى الاستانة — أخبار تلك المنطقة من مصادر أخرى (١) ، وكان الوصول الى حقيقة الأوضاع أمرا صعبا للغاية نظرا لأن الشيوخ الذين عينهم على رضا على الفلاحية والمحمرة بعد حملته ١٨٣٧ والشيوخ الذين عينهم « منوشرخان » (معتمد الدولة) ١٨٤٠ — ١٨٤٢ بعد حملته سالفة الذكر على عربستان لم يستطيعوا الصمود أمام ثامر شيخ كعب أو جابر شيخ المحمرة ولعب ثامر وجابر بالفرس والترك كلما عن لهما ذلك فى سبيل الاحتفاظ ببلاده بعيدة عن متناول أيدى الدولتين الطامعتين فيهـا . واضطرت السلطات الفارسية والعثمانية على السواء أن تستخدم ثامرا أو جابرا فى سبيل تأكيد سلطتها فى المنطقة (٢) .

وفى ١٨٤٢ حمى وطيس المناورات الفارسية والعثمانية حول عربستان . ولا شك ان تسوية المسألة المصرية ١٨٤٠ — ١٨٤١ جعل الدولة العثمانية تتفرغ بدرجـة اكثر لمشكلات الحدود الفارسية العراقية ، وكانت تولية نجيب ولاية بغداد (١٨٤٢ — ١٨٤٧) مقدمة لاحتدام النزاع بين الدولتين الفارسية والعثمانية حول عربستان ، خاصة بعـد فرار ثامر الى العراق للمرة الثانية ، وحول السليمانية فى كردسـتان التى كان الفرس يطالبون بها هى الأخـرى .

---

(١) Layard; Early, Vol. II, pp. 367—370.

(٢) Taylor to Sec. Dep.; 24 Ap. 1842. F.O. 195/204.

وكان نجيب باشا شديدا في معاملته للثوار على الدولة العثمانيـة ومصرا على أن يكافح من أجل فرض السيادة العثمانية على كل جزء من الأجزاء المشكوك في ولائهـا للسلطان • وعقب استلامه العمل في بغداد لوحظ ان متسلمه على البصرة آخذ يسـاند بقوة مطالب ثامر في حكم المحمرة • فرد الفرس على ذلك بأن طالبوا بعربسـتان حتى القرنة . وشعر الفرس بأن العثمانيين سيتابعون ضغطهم على كعب والمحمرة فبنوا قلعة على أسوار المحمرة • فاحتج العثمانيون على هذا الاجراء على اعتبار أن المحمـرة تتبع البصرة التي يفصلها عن الأراضي الفارسية نهر كارون وأن الحفار الذي تقع عليه المحمرة ليس منفذا طبيعيا لنهر كارون وانما هو قناة صناعية تابعة للدولة العثمانية • ويبدو أن جابر وجد أنه لن يصل الى شيء من أغراضه الا عن طريق الاتفـاق مع الفرس ، وكان الفرس هم أيضا في حاجة الى جابر اذ عجز رجالهم عن ادارة ديار كعب حيث أن هجـرة العشائر الكعبية — بايعاز من شيوخهم — الى الأراضي العراقية هدد منطقـة عربستان بان تصبح خالية من عشائرها ان لم يغير الفرس موقفهم من جابر . وفعـلا نجحت المفاوضات الفارسية مع جابر وعاد الى الحكم ومعه عشيرته • وكان انتقال هذه العشائر وتلاعب الشيوخ بالدولتين سببا في تزايد حدة أزمات الحدود •

وأدت هذه المصادمات بين السلطتين العثمانية والفارسية في عربستان وكذلك في منطقة السليمانية وبني لام وزهاب الى أن تستعد الحكومة الفارسية لخوض حرب مع العثمانيين . وهددت السلطات الفارسية بارسال جيش لاحتـلال البحرين والكويت ، وطالبت بلواء السليمانية وبعربستان حتى القرنة ، وبابعاد الأمراء الفرس الذين كانوا يتآمرون ضد الشاه عن بغداد • فردت السلطات العثمانية بتعبئة قواتها على الحـدود ودعت عشائر المنتفق وبني لام العربية والبابانيين الأكراد لخوض المعركة المقبلة وبدأت المناوشات العنيفة فعلا على الحدود خاصة في منطقة السليمانية • ولكن ضغطت روسيا

---

(١) كان هؤلاء الأمراء خطرا جسيما على الشاه • كانوا يتعاونون مع الانجليز خلال حرب ١٨٣٧ • وكانت الاشاعات تؤكد ان الانجليز يعملون على رفع أحد هؤلاء الأمراء الى العرش الفارسي (يونيو ١٨٤٠) هذا الى أن الدولة العثمانية كانت تدفع مرتبات لعدد من هؤلاء الأمراء وكان الانجليز يدفعون لبعضهم كذلك •

وبريطانيا على فارس والدولة العثمانية وارغمتاها على قبول وساطتهما (١) لحسم ما بينهما من خلاف ، وعلى تشكيل لجنة رباعية تضم مندوبين من الفرس والترك والروس والبريطانيين لهذا الغرض. فقد دابت بريطانيا — منذ حركة التوسع المصرى فى الشام ونجد والخليج العربى ١٨٣١ — ١٨٤٠ — على أن تمنع الدولتين الفارسية والعثمانية من الاشتباك فى حرب حتى لا تتعرض المنطقة لهزات سياسية أو عسكرية شديدة من شأنها أن تقلب ميزان القوى فى الشرق الأدنى مما يكلف بريطانيا الاحتفاظ بجيش وأسطول قويين على أهبة الاستعداد باستمرار لا لمواجهة نيات فارس العدائية فقط ، بل كذلك للحد من النشاط الروسى المتزايد فى تلك المنطقة . وتشكيل هذه اللجنة سيحول كل أزمة بين الدولتين الى مجال الدراسة والمفاوضة والمساومة والضغط الدبلوماسى حتى تتلاشى نذر الحرب وتحل الأزمة ، بطريقة أو بأخرى ، ولذلك كانت المهمة الرئيسية لهذه اللجنة هى وضع خريطة دقيقة للحدود يمكن الرجوع اليها عند اللزوم .

وكان أول مشروع بريطانى للحدود من وضع الانجليزى لايارد (٢) . وفى هذا المشروع جعل لايارد المحمرة تابعة للدولة العثمانية وجعل نهر بهمشير المنفذ المائى الوحيد لفارس فى عربستان مؤكدا أن الحفار قناة صناعية معترضا على أى حق للدولة الفارسية فى الملاحة فى شط العرب لأن بهمشير — فى نظره — يسد حاجات الفرس كمنفذ لفارس الى الخليج العربى .

وكان كاننج Canning مقتنعا بوجهة نظر لايارد ورشحه ليمثل بريطانيا فى اللجنة الرباعية ، واستغلت السلطات العثمانية المشروع وضغت قدر طاقتها على حكومة بريطانيا لتاخذ به . ولكن تحطمت كل هذه المجهودات أمام اعتراضات أبردين — وزير خارجية بريطانيا — الذى كان مقتنعا بوجهة النظر الروسية الخاصة بضم

---

(١) كان السلطان معترضا فى أول الأمر على تدخل الدولتين الروسية والبريطانية فيما بينه وبين الشاه من منازعات على إعتبار أن هذه أمور تخص المسلمين وحدهم ولا شأن للدول المسيحية فيها .

(٢) رحالة انجليزى مغامر له نفوذ كبير فى الدوائر السياسية البريطانية وتولى منصب سفير بريطانيا فى الاستانة فى السبعينيات من القرن التاسع عشر .

عربستان للدولة الفارسية . ويرجع هذا الاتفاق فى الآراء الى أن روسيا كانت تريد أن تؤيد المطالب الفارسية بصفة عامة وكانت بريطانيا تسعى الى فتح منطقة نهر كارون وجنوب شرقى فارس للمشروعات التجارية والملاحية البريطانية .

اتخذت لجنة الحدود مدينة أرضروم مقرا لها . وأخذت تجمع الوثائق المتعلقة بالحدود وتعمل على استدعاء من يستطيع أن يعاونها على أداء مهمتها ، ولذلك قامت اللجنة باستدعاء ثامر — شيخ كعب وكان لاجئا فى البصرة — لمناقشته فى الوضع القديم والجديد فى منطقة المحمرة ، وكلفت اللجنة فى الوقت نفسه المستر جونز Felix-Jones (١) بأن يتولى وضع خريطة تعين اللجنة على تحديد خط دقيق للحدود .

كان أول اجتماع للجنة الحدود فى ١٥ من مايو ١٨٤٣ ولم تستمر الأعمال التحضيرية سوى أيام قليلة توقفت بعدها أعمال اللجنة بسبب توتر العلاقات الى درجة شديدة الخطورة بين الدولتين العثمانية والفارسية على اثر هجوم قوات نجيب باشا على كربلاء واستيلائه عليها عنوة وتطبيق نظم الحكم العثمانى فيها (١٨٤٣) . وهول الفرس من عدد القتلى الشيعة فى معركة كربلاء كى يستغلوا ذلك سياسيا على مائدة المفاوضات المعقودة لتحديد الحدود بين الدولتين الفارسية والعثمانية . وبعد أن درس الانجليز والعثمانيون الأزمة على الطبيعة تبين لهم أن الفرس فعلا هولوا فى الموضوع وأنه لم يكن يستحق هذه الضجة الكبرى . ومع ذلك تقدمت فارس بمطالب شديدة الى الحكومة العثمانية . واهم هذه المطالب :

١ — أن يدفع السلطان تعويضا لمنكوبى كربلاء .

٢ — ان يعلن الباب العالى عدم رضاه وعدم موافقته على حملة نجيب على كربلاء وأن نجيبا لم يحصل على التصريح بذلك .

٣ — أسف الباب العالي لاسالة الدماء .

٤ — ان يعيد نجيب ما تخرب من العتبات المقدسة .

---

(١) قبطان انجليزى فى العراق ثم قنصلا فى الخليج العربى .

٥ ــ ان يحكم بالعدل ويحمى الفرس فى المدينة والحجاج اليها ·

٦ ــ ان يهدد نجيب بالعزل ان هو أساء التصرف فيما بعد ·

٧ ــ أن تعلن هذه القرارات لجميع السفراء ·

اما عن طلب الفرس ان يعزل نجيب باشا عن ولاية بغداد فلم يوافق عليه الباب العالى ولا السفير البريطانى فى الاستانة . ومن اليسير ان يفهم هذا الرفض . فالباب العالى وافق على شروط فيها ما يكفى لترضية فارس · وأما عزل الوالى ففيه تدخل صارخ فى شئون الدولة لا يرضى الباب العالى عنه حتى لو كان نجيب قد أساء التصرف ·

بعد ان توصلت الدول الأربع الى تصفية أزمة كربلاء عادت لجنة الحدود الى النظر فى مواد النزاع · وكانت المطالب الفارسية على النحو التالى :

١ ــ اعادة الأمراء الفرس اللاجئين الى الأراضى العثمانية الى البلاد الفارسية ، وامتناع السلطات العثمانية عن مساندة أمثالهم فى اتخاذ الأراضى العثمانية قواعد لاثارة الفتن ضد الشاه ·

٢ ــ حق اشتراك الشاه مع السلطان فى تعيين حاكم على السليمانية ·

٣ ــ حق الشاه فى تعيين قناصل فى الدولة العثمانية وأن يمنح القنصل الفارسى حق حماية الرعايا الفرس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين · وان يسمح لهؤلاء القناصل بمغادرة البلاد والعودة اليها وقتما يشاءون .

٤ ــ احترام رعايا الشاه الذين يوجدون فى الدولة العثمانية وعدم توجيه الاهانات اليهم والمساواة بين السنى والشيعى فى الدولة العثمانية . وتسهيل أمر التزاوج بين السنى والشيعى ·

٥ ــ اعادة العشائر التى هاجرت الى الأراضى العثمانية ·

٦ ــ دفع تعويضات عن :

(أ) هجوم الحاكم الكردى لمدينة راوندوز على الأراضى الفارسية .

(ب) الخسائر التى منى بها الفرس خلال ازمة كربلاء سنة ١٨٤٣ ٠

(جـ) الخسائر التى منى بها الفرس خلال فتح « على رضا » المحمرة ٠

٧ ــ معاقبة العشائر العثمانية التى تهاجم الأراضى الفارسية ٠

٨ ــ تسهيل الحج وحريته للحجاج الفرس الى العتبات المقدسة فى العراق والى الأراضى المقدسة فى الحجـــــاز ٠

٩ ــ تخفيض الضرائب المفروضـــــة على الفرس فى الطـــرق التى تربط بين فارس وطـــــرابزون ٠

١٠ ــ الغاء الضرائب المفروضة على دفن الجثث فى العتبات المقدسة وعلى عبور الأنهار ودخول الخانات او عند الحصول على جواز السفر (تذكرة السفر) ٠ والغاء أية ضريبة داخلية فيما عدا ٤٪ المفروضة على البضائع الواردة الى الدولة العثمانية ٠ ورفع كل الضرائب غير المشروعة التى فرضت على الفرس .

١١ ــ دفع متأخرات ايجار الرعى فى الأراضى الفارسية ٠

١٢ ــ رفع القضايا بين الفرس والعثمانيين الى محاكم تأخذ بالشريعة الاسلامية وحتى القضايا التجارية يجب أن ترفع الى مثل تلك المحاكم لا الى المحاكم التجارية التى تطبق القوانين العثمانية الجديدة ٠

أما مطالب السلطان فكانت أقل عددا ، ولكن اكثر تعقيدا وخطورة ٠ فقد طالب بانسحاب الفرس من المحمرة ومن زهاب [1] وأن يوافق الشـــاه على معاهدة بلطة ليمان المعقودة بين الدولتين العثمانية والبريطانية ٠ واحترام المواد الواردة فى معاهدات ١٦٣٩، ١٧٤٧ ، ١٨٢٣ ٠ كذلك طالب السلطان بأن يدفع الشاه تعويضات عن الخسائر التى منيت بها بلاد لواء السليمانية من جراء الهجمات الفارسية عليه ٠ هذا فضلا عن تحديد

(١) كانت زهاب تشرف فى ذلك الوقت على آخــــر طريق استراتيجى بين فارس والعراق وذلك بعد ان أصبح طريق مندلى ــ فارس ــ المحمرة فى يد الفرس ٠ فسيطرة الفرس على طريق زهاب يعرض العراق لأخطار كثيرة (أنظر تقرير درويش : ٢٣ ــ ٢٤)٠

تبعية مجموعة من العشائر المنازلة على الحدود واعادة بعض العشائر الموجـودة فعلا فى الأراضى الفارسية الى حظيرة الدولة العثمانية ٠

وطالب العثمانيون بأن تكون لهم وحدهم تبعية مجموعة من العشـــــائر الكردية والعربية المتنقلة عبر الحدود وأهم هذه العشائر هى :

سنجابى والهورامان والكلهر والجاف ومحاسن ومنكور وبنو لام ٠

ولكن خلال المفاوضات تبادل المندوبون الفرس والعثمانيون اشد الكلم ٠ ويبدو ان الدولتين الوسيطتين شعرتا بأن عمل اللجنة أصبح عبثا بعد أن تطورت المناقشـــات خاصة بين المندوبين الايرانى والعثمانى الى تبادل الاتهامات ومجرد ادعاءات الى تشعب الموضوعات بدلا من أن تكشف عن حقيقة الأوضـاع ٠

وبسبب هذه التطورات عمدت الدولة العثمانية الى أن تخطو خطوة جريئة لسلب فارس مكاسبها فى منطقة كارون وعربستان بان ارسلت سفينة حربية فى ١٨٤٦ لترابط عند مدخل الحفار لا لتحمى السفن العثمانية من عدوان كعب عليها فقط (١) وانما لتحويل تجارة المحمرة الى البصرة ، خاصة وقد أصبحت معظم التجارة الهندية وتجارة البحرين ومسقط وجدة ومكة مع المحمرة (٢) وكانت هذه السفينة ترغم القــوارب الذاهبــة الى المحمرة على أن تصعد النهر أولا الى البصرة لتدفع ما عليها من رسوم جمركية ثم لتذهب بعد ذلك الى حيث شاءت واحتجت الحكومة الفارسية على هذا الاجراء وايدتها فى ذلك الحكومة البريطانية ٠ ولم تقبلا المبررات التى قدمتها السلطات العثمانية القائلة بأن وضع السفينة عند مدخل الحفار لن يؤثر على تجارة المحمرة (٣) . بل ادعت السلطات العثمانية أن السفينة تمنع من استشراء القرصنة ، ولكن ظل الانجليز متمسكين بأن وجـــــود

---

(١) Richard Rogers; British Agent at Bassora to Col. Gen. at Bagdad. 17 Jan. 1861. F.O. 195/676; Per. & Per Gulf., Vol. 85; pp. 15—18.

(٢) Rawlinson to Secret Committee. 27 Ap. - 1846 (Pol. & Sec. Dept. Recs. Ltrs. Pol. Agt. and Consl. Vol. 14, pp. 125—131.

(٣) Lorimer, op. cit., Vol. I, Pt. I, pp. 1378-1380.

السفينة مخالفا لما تسعى اليه الدول المعنية نحو حرية الملاحة فى شط العرب ، واستمروا يضغطون على الباب العالى حتى اضطر الى أن يصدر أوامره الى نجيب باشــا (والى بغداد) بأن يسحب السفينة الى مكان يقع شمالى الحفار • وبذلك أصبح الطريق أمام السفن الى المحمرة سالكا لا يعترضه معترض (١) •

ولما وجدت الدول الأربع ان مشكلات الحدود ستحتاج الى وقت طويل للبت فيها حتى يمكن أن يرسم خط واضح بين الدولتين يقضى على أى نزاع فى المستقبل ويحــدد تبعية كل عشيرة على وجه الدقة فضلت الدول أن تعقد معــاهدة تنص على حل لبعض المشكلات القائمة وأن يترك البعض الآخر تحت الدراسة والتسوية وعلى هذا الأساس قدمت المعاهدة التى عرفت باسم معاهدة أرضروم الثانية (١٨٤٧) للحكومتين الايرانية والعثمانية لابداء الرأى فيها (٢) •

اتفق فى هذه المعاهدة على أن يكون لفارس قناصــل فى الدولة العثمانية لهم نفس الحقوق التى حصل عليها قناصل الدول الأخرى . كما تحددت قيمة الضرائب والجمارك المفروضة على التجار الايرانيين بما كان متفقا عليه من قبل فى اتفاقية أرضروم الأولى • ونصت المادة الثانية من هذه المعاهدة على أن « تتعهد الحكومة الايرانية بأن تترك للحكومة العثمانية جميع الأراضى المنخفضة •• الكائنة فى القسم الغربى من منطقة زهاب ، وتتعهد الحكومة العثمانية بأن تترك للحكومة الايرانية القسم الشرقى منه أى جميع الأراضى الجبلية من المنطقة المذكورة » • فوضعت بذلك حدا لمشكلة زهاب التى استمرت حوالى ربع قرن . وكان هذا التقسيم فى الواقع عادلا ، فقد تركت الاقاليم الجبلية المكملة للهضــبة

---

(١) Rawlinson to Walleseley, Jan. 20, 1847 - F.O. : 195/272; Rawlinson to sheill-Jan. 1847. No. 2 Ibid.

(٢) انظر نصوص هذه المعاهدة فى المراجع التالية :

(أ) قضية الحدود العراقية الايرانية • والنص هنا باللغة العربية •

Aitchison; A Collection of Treaties.

Hurewitz; Diplomacy in the Near and Middle East. 2 Vols.

الايرانية لايران فى معظم المناطق ، والسهول ظلت ضمن العراق وذلك لارتباطها بداخل العراق اكثر من ارتباطها بداخل ايران ٠

كما نصت مسودة المعاهدة على أن تعترف الدولة العثمانية بسيادة الحكومة الفارسية على :

اولا : ١ ــ مدينة المحمرة وميناثها ٠

٢ ــ جزيرة الخضر (جزيرة عبادان) ٠

٣ ــ الأراضى الواقعة على الضفة الشرقية من شط العرب من مصبه الى اتصال حدود الدولتين قرب المحمرة (عند التقاء كارون بشط العرب) ٠

ثانيا : وعلى أن تتنازل الحكومة الفارسية عن كل ما لديها من ادعاءات فى مدينة السليمانية ومنطقتها وبعدم التدخل فى شئون هذه المنطقة .

واتفق الطرفان كذلك فى هذه المعاهدة على تشكيل لجان مشتركة [١] من الجانبين المتعاقدين لتسوية المشكلات التى تنشأ بين البلدين ، وعلى تبادل تسليم المجرمين الفارين ٠

وعندما قدمت المعاهدة[٢] فى صورتها النهائية الى الباب العالى،أدعى انه تنازل عن ميناء المحمرة فقط وان ما حولها من أراض فهو تحت السيادة العثمانية ٠ فرد المندوبان الأوروبيان على هذا الاعتراض بأن المحمرة تقع على ضفتى قناة الحفار وان كليهما سيكونان ضمن الأراضى الفارسية ، وكذلك الأراضى الواقعة شرقى شط العرب . وان الفرس لن يحصلوا على أية بقعة على الضفة الغربية لشط العرب حتى لو كانت فيها

(١) تألفت لجنة الحدود المشتركة من : (أ) الكولونيل وليامز بطل قارص Williams of Kars (ب) الكولونيل Tcherikoff. (جـ) درويش باشا المندوب العثمانى وكان يعرف لغة اوروبية والكيمياء وعالم فى اللغة Loftus; op. cit. p. 3 (د) ميرزا جعفر خان المندوب الايرانى وكان يعرف لغة أوروبية . أنظر المصدر السابق٠

(٢) أنظر مذكرة « السيد محمد امين على » ــ مندوب الدولة العثمانية فى وضع وتوقيع معاهدة ارضروم المؤرخة ٢٩ جمادى ١٢٦٣ هـ ــ ١٨٤٨ م ٠

عشائر فارسية • ومع أن هذا الحل كان لتسوية الأزمة بعد أن أعلنت الدولة العثمانية تنازلها عن المحمرة فقد تمادت الدولتان الاسلاميتان فى المطالبات المتطرفة على طـــول الحدود • ولذلك قررت الدول أن توقع الدولتان الاسلاميتان المعاهدة على أساس تسوية المشكلات المعلقة فيما بعد • ووقعت المعاهدة ونصر فيها على أن تؤلف لجنة لتحــــديد الحدود بين الدولتين ، وعلى أن تقتسم الدولتان منطقة زهاب بالطريقة ســـالفة الذكر وعلى أن تتنازل فارس عن اية مطالب لها فى السليمانية فى مقابل تنازل الســـلطان عن المحمرة وجزيرة الخضر وأن تكون الضرائب المفروضة على التجار ٤٪ • ثم شكلت لجنـــة لتسوية مشـــكلات الحدود كلها من مصب شط العرب حتى الحدود المشتركة عنـــد الأناضول • وأخذ المسئولون العثمانيون بدورهم يحددون خط الحدود حسب مطالبهم ليعارضوا المطالب الفارسية ، مستخدمين لتحقيق ذلك كل الوســـائل الممكنة لتدعيم وجهة نظـــرهم (١) •

واذا بالموقف على الحدود يعود الى اسوأ مما كان عليه قبل توقيع معاهدة ١٨٤٧

---

(١) فيما يلى بيان مفصل عن الوسائل التى استخدمت لاثبات الحقوق العثمانية فى المناطق المتنـــازع عليها :

١ — أقوال الناس والمأثور عن القدامى وما يوقعون عليه من رغبتهم فى أن يكون تحت حـــكم الســـلطان •

٢ — الفرمانات والبيورولديات والأوامر الصادرة عن الولاية والموظفين •

٣ — الحجج الشرعية والقضائية •

٤ — سجلات (دفاتر) الضرائب •

٥ — محفوظات خزانة البصرة •

٦ — تاريخ المنطقـــــة •

٧ — المراجع التركية (مثل دوحة الوزراء) والفارسية مثل (تاريخ وصولى) •

٨ — مذهب العشـــــيرة •

٩ — وحـــدة العشـــــيرة •

١٠ — خطوط تقسيم الميـــاه •

١١ — ذرا الجبـــــال •

١٢ — الأنهار وروافدها وفروعها وتاريخها •

واستمرت روسيا تؤيد مطالب الشاه وبريطانيا فى صف السلطان،وتبادلت هذه الأطراف الاتهامات ، وخاصة عندما وضعت الحكومة الفارسية حامية فى جزيرة الخضر (عبادان) دون أن تستشير اللجنة أو الدولتين الأوروبيتين الوسيطتين (١٨٥١) ٠

وهكذا استمرت اجتماعات لجنة الحدود خلال ١٨٤٩ ـ ١٨٥١ دون جدوى حتى اقترح بالمرستون أن تدور المفاوصات بين حكومات هذه العواصم بدلا من أن يترك أمر فض المنازعات الى لجنة الحدود وحدها ٠ فانتقلت المفاوضات الى عواصم الدول الأربع بينما قامت لجنة فنية بدراسة الحدود ووضع خريطة لها ٠ وخلال قيام اللجنة بعملها نشبت حرب القرم فتوقفت اللجنة عن العمل ٠

تعتبر حرب القرم نقطة تحول رئيسية فى تاريخ أوروبا الحديث وفى تاريخ الدولة العثمانية ٠ ولقد تعرضت كثير من المؤلفات والأبحاث لتاريخ هذه الحرب ، والملاحظ أن الغالبية العظمى من هذه الأبحاث لم تعن بصدى هذه الحروب فى ولايات العراق العثمانى٠

كانت الدولة العثمانية أكبر قوة اسلامية هجومية دفاعية ضد عدوان اوروبا على الشرق الأدنى ٠

ولكن ضعف الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر ومحاولات الباب العالى اصلاح امور البلاد على أساس الحضارة الغربية أدى الى ظهور مفاهيم جديدة عن الدولة العثمانية لدى بعض طوائف الدولة العثمانية ومللها . فقد اعتقد المسلمون أن ذلك الاصلاح سيؤدى الى تحول الدولة الى جانب الدول المسيحية الأوروبية ٠ بينما اعتقدت الملل المسيحية فى الدولة ان ذلك الاصلاح ايذانا بانتصار قريب للمسيحية على الاسلام ، وان الوقت قد أزف لأن يضع مسيحيو الشرق أيديهم فى أيدى مسيحى أوروبا لتحقيق ما فشلت فيه الحروب الصليبية ، ولهذا رأى المسيحيون فى الدولة العثمانية فى ذلك الاصلاح حقوقا لهم ، ولم يروا فيه واجبات عليهم نحو الدولة ، فامتنعوا عن الدخول فى الجندية ، ورحب المسلمون بذلك ٠

والملاحظ أنه منذ اوائل القرن التاسع عشر تزايد اهتمام الدوائر السياسية والكنيسة الأوروبية بمسيحى المشرق العثمانى ، وأصبح هؤلاء المسيحيون يجدون فى قناصل انجلترا وفرنسا وفى المبشرين الفرنسيين الكاثوليك والبروتستنت الانجليز

والأمريكيين قوة يعتمدون عليها فى التخلص من الواجبات المفروضة عليهم ، وفى الحصول على حقوقهم ، بل وفى الثورة على الدولة العثمانية وعلى الحكام المسلمين المحليين . وتطورات كهذه كفيلة بأن تثير فتنا هوجاء ، وهذا ما حدث فى شمال العراق بين النساطرة (١) والأكراد (١٨٤٢) حيث وقعت مذبحة للنساطرة كان لها دوى كبير فى دوائر الدولة والدوائر العالمية .

ولم تكن الأزمات الطائفية بقاصرة على النزاع بين المسلمين والمسيحيين بل وقعت ازمات مشابهة بين الجالية الشيعية الكبيرة فى العتبات المقدسة وحكومة فارس من جهة والحكومات العثمانية من جهة أخرى (٢) .

وخلال الصراع بين محمد على (والى مصر) والسلطان محمود الثانى مد شاه فارس يده الى « محمد على » لعله يتفاهم معه من أجل استحواذ فارس على العراق ، أو على الأقل ليضع يده على انسليمانية والمحمرة والعتبات المقدسة . ولهذا عنيت الحكومة العثمانية قبيل وبعد انسحاب المصريين من الشام بتوطيد الحكم العثمانى فى العراق ، وأدى ذلك بطبيعة الحال الى تزايد التوتر بين الدولتين العثمانية والفارسية .

---

(١) النساطرة هم أتباع نسطوريوس أسقف القسطنطينية (٤٢٨ م) الذى دعا الى المذهب الذى عرف باسمه والذى يجعل للمسيح طبيعتين احداهما لاهوتية والثانية ناسوتية ولكن تحدا كيرلس بطريق الاسكندرية حتى نفاه ومات فى المنفى (٤٥٠ م) . وخلال العصر العباسى كانت أكثرية نصارى العراق من النساطرة واستمروا متمسكين بمعتقداتهم دون أية اضطهادات مقصودة حتى القرن التاسع عشر . وقد درسنا الصراع الدموى بين النساطرة والاكراد فى ١٨٤٢ فى كتابنا تاريخ العراق الحديث الفصل السادس .

(٢) العراق قسمة تقريبا بين الشيعة والسنة وكربلاء والنجف مدينتان عربيتان تقطن فيهما جاليتان فارسيتان كبيرتان كانتا من القوة لدرجة الطمع فى السيطرة على المدينتين سيطرة كاملة .

وبنشوب حرب القرم فى يونيو ١٨٥٣(١) كانت هناك احتمالات قوية لدى العثمانيين بشأن دخول فارس الحرب الى جانب روسيا من أجل ابتلاع العراق ، كما كانت لدى الانجليز احتمالات قوية أيضا عن أن النشاط الروسى سيتزايد فى اتجاه العراق بسبب ظروف الحرب • وكان الانجليز كذلك يخشون من ان يستخدم الروس حكومة فارس فى اثارة المشاكل فى وجه الحكومة العراقية ، خاصة وان علاقات فارس الانجليزية لم تكن أقل سوءا من علاقات فارس بالدولة العثمانية حيث أن حكومة فارس كانت تعتقـــد أن الانجليز هم المسئولون عن ضياع كردستان وأفغانستان منها • كما كانت حكومة فارس تنظر بعين القلق لذلك التفاهم القوى بينهم وبين السيد سعيد سلطان مسقط (٢) •

وكانت ١٨٥٣ من أدق سنوات حرب القرم بالنسبة للدولة العثمانية ، حيث وقفت الأخيرة وحدها أمام روسيا فلم تدخل فرنسا أو انجلترا الحرب ضد روسيا الا فى مارس ١٨٥٤ • وكان من المعروف أن الجيوش العثمانية لا تقوى وحدها على الصـــمود أمام الجيوش الروسية ، ومن ثم أصبح من المحتمل أن تنهار الدولة العثمانية خاصة اذا ما طعنت فارس طعنتها فى العراق • وكان احتمال انهيار الدولة العثمانية قويا جـدا لدى هنرى رولنسون ــ القنصل الانجليزى فى بغداد ــ فطفق يدبر أمره على هذا الأســاس واعتقد أن من واجبه أن يسهل أمر استيلاء انجلترا على العراق وكان يرى ان الانجليز قد فاتتهم فرصة احتلال العراق خلال ازمة التوسع المصرى فى المشرق العربى (١٨٣٢ ــ ١٨٣٩) ، وأن الفرصة قد واتت الانجليز مرة أخرى وعليهم أن ينتهزوها •

---

(١) لن نخوض فى تفاصيل حرب القرم فهى أشهر من أن تعاد • ودراستنا هنـــا قاصرة على دور العراق فى هذه الحرب ويكفى أن نشير الى أن الصراع الفرنسى الروسى السياسى المذهبى كان عاملا رئيسيا لتلك الحرب • على أن آمال روسيا فى المضايق بل فى الاستيلاء على الدولة بأسرها كانت الهدف الأسمى للروس • ونشبت الحرب فى يونيو ١٨٥٣ ودارت مفاوضات لعقد صلح دون جدوى • ولما دمر الأسطول الروسى القطـــع البحرية العثمانية الراسية فى سينوب دخلت انجلترا الحرب • وكانت الأخيرة قد عزمت على منع روسيا من أن تتوسع على حساب الدولة العثمانية •

(٢) كان السيد سعيد سلطان مسقط (١٨٠٦ ــ ١٨٥٦) اكبر حليف لبريطانيا فى الخليج العربى واشترك معها فى العمليات الانتقامية ضد المشيخات العربيـــة المطلة على الخليج العربى فى ١٨٠٩ وفى ١٨١٩ •

وكان رولنسون يرى أن المنطقة التى يجب أن تستعمرها بريطانيا هى ذلك المثلث الواقع بين الزاب الأدنى « وعنه » ومصب شط العرب . وأخذ رولنسون يحث حكومته على الاسراع بالعمل على احتلال العراق لقيمته الكبرى على طريق الهند . ولأن أهـــل العراق أنفسهم — حسب اعتقاده هو — ينتظرون يوم الخلاص من الحـــكم التركى على يد الانجليز (١) .

لكن هذه المخططات التى وضعها رولنسون لم تكن تتمشى مع سياسة حكومة لندن التى أصرت على المحافظة على كيان الدولة العثمانية ومنع الأسطول الروسى من الخروج من البحر الأسود . فوجهت حكومة لندن إنظار قنصلها فى بغداد الى ضرورة العمل على المحافظة على كيان الدولة العثمانية فى دائرة اختصاصه ، واهم ما يجب عليه أن يفعله فى هذا الصدد هو منع فارس من استغلال ظروف الحرب لاقتناص العراق (٢) .

ومع أن المسئولين الانجليز اتصلوا بالشاه ، وتأكدوا منه أنه لن يضرب السلطان فى ظهره وأنه لن يثير مطالبه فى قطور وكردستان وعربستان وكربلاء فى هذه الظروف الا أن السلطات العثمانية كانت فاقدة الثقة تماما بالحكومة الفارسية وكان العثمانيون يعتقدون أن تلك الوعود ليست سوى تمويهات تخفى مخططات تهدف الى اغتصاب العـــــراق بالقـــــــــــوة (٣) .

والملاحظ أنه فى أعقاب نشوب الحرب بين السلطان والقيصر ، وقعت سلسلة من حوادث الحدود فسرتها السلطات العثمانية على أنها مقدمات غزو فارسى للعراق . فقـــد هاجمت عشائر بنى لام الشيعية العربية (٤) القوات العثمانية ثم فـــرت الى الأراضى

---

(١) H. Rawlinson to Addington, June 14, 1853 - F.O. 195/957

(٢) Clarendon to Rawlinson. November 3, 1853. F.O. 195/957.

(٣) Thompson to Clarendon. Nov. 20, 1853 (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 106 pp. 237-239; Rawlinson to Redcliffe, June 29, 1853 F.O. 195/367.

(٤) من كبريات عشائر العراق . انظر عنها عباس العزاوى : عشـــائر العـــراق جزء ٣ ، ص ٢١٠ وما بعدها .

الفارسية دون أن تلحق بها قوات الحكومة العثمانية . كذلك أثارت بعض عشائر الجاف الكردية السنية الفوضى على الحدود العثمانية — الفارسية . وكانت لدى الممثلين الانجليز فى طهران معلومات تؤكد أن بعض الممالئين للروس فى البلاط الفارسى على اتصال بعشائر الحدود بقصد اثارتها ضد الدولة العثمانية لشغل بعض قواتها تخفيفا عن جبهات القتال الرئيسية التى تعمل فيها الجيوش الروسية خاصة فى البلقان والأناضول (١) .

وكان رشيد باشا الكوزلكلى قد تولى باشوية بغداد فى ١٨٥٢ . وكان شديد الاعتقاد بأن الفرس سيشنون هجوما على العراق آجلا او عاجلا . وتبعا لذلك اتخذ عدة تدابير لمواجهة الغزو الفارسي المنتظر . وكان على رشيد الكوزلكلى أن يعتمد على موارد العراق المالية والبشرية دون انتظار مساعدات من الباب العالى الذى لم يكن لديه أى احتياطى من المال أو القوات لارسالها الى العراق . وكانت المشكلة المالية من أهم المشكلات التى واجهت تمويل مشروعات رشيد الكوزلكلى الدفاعية فقد كانت خزانة بغداد خاوية، فلجأ الى فرض ضريبة جديدة دون استئذان من الباب العالى لمواجهة نفقات الاستعدادات العسكرية .

وكان رشيد يريد أن يجعل من العراق نموذجا لبقية ولايات الدولة العثمانية من حيث انكار الذات وبذل الأموال فى مثل هذه الظروف المحرجة . ولكنه عندما شرع فى جمع هذه الضريبة وجد أنها لا يمكن أن تجمع الا من أولئك الذين يقعون مباشرة تحت سيطرة الحكومة . مثل الموظفين ، واصحاب المنازل والتجار والأعيان ، والعلماء ، أما العشائر العربية والكردية التى تؤلف اغلبية سكان العراق — فلم تسهم فى تقديم المعونات المالية أولا لنقص السيولة النقدية لديهم بشكل كبير جدا ، ولأنهم لم يتعودوا دفع الضرائب للحكومة الا بتهديد السلاح . وفكر رشيد الكوزلكلى كذلك فى الاضرار اقتصاديا بفارس بسلبها بعض دخلها الوفير من ميناء المحمرة ، وذلك بأن يجعل ميناء البصرة ميناءا

Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853. F.O. 195/362 Thompson to Clarendon. July 22, 1854; Aug. 21,1854. (I.O.R., F.R., p.p G.) Vol. 108, pp. 594 - 602.

مفتوحا فتتحول اليه السفن ولا تذهب الى المحمرة فيعود الى البصرة ازدهارها (١) ، كما فكر فى اقامة تحصينات رهيبة فى زهاب . وكانت منطقة زهاب مقسمة بين الدولتين الفارسية والعثمانية بمقتضى معاهدة ارضروم الثانية . ومع هذا ظلت منطقة من مناطق النزاع • وباقامة تحصينات عثمانية فى المنطقة يمكن اغلاق اخطر طريق يسلكه الفرس عند غزو العراق • الا أن الانجليز لم يوافقوا العثمانيين على هذه المشروعات لا لأن الفرس يعارضونها بشدة فحسب بل لأنها أيضا ستؤدى الى ان يتخذ الفرس اجراءات مضادة عنيفة وقد يثيروا مشكلات الحدود بشكل يضر بالدولة العثمانية فى هذا الوقت العصيب (٢) •

كذلك اتجه رشيد الكوزلكلى الى وضع نقط مراقبة على الحدود ، وحتى لا يثير أزمات حادة مع السلطات الفارسية ادعى أنه ينشىء محاجر صحية لمنع تسرب الكوليرا الى العراق ، وكان المفروض هو أن تنتشر هذه المحاجر على طول الحدود الفارسية العراقية لتكون بمثابة مراكز مراقبة الى جانب انها يمكن ان تستخدم فى منع المتسللين من اجتياز الحدود من ايران الى العراق . ولكن السلطات الفارسية احتجت على تلك الاجراءات ، واعتبرتها أقرب الى الأعمال السياسية منها الى أعمال الصحة الوقائية الدولية (٣) • ويبدو ان رشيد باشا لم يتابع تنفيذ خطته هذه حيث أن حاكم ششر حشد حينذاك عشرين الف مقاتل (٤) • ومن ثم أصبحت المواجهة العسكرية هى الأمر الملح فى مثل هذه التطورات •

لم يكن تحت يد رشيد الكوزلكلى سوى ١٦ الف مقاتل ، وهو جيش لا يستطيع وحده أن يصد الجيوش الفارسية • ولكن لم يكن فى استطاعته أن يطلب المساعدة

Rawlinson to Redcliffe : July 25 - 27, 1853, F.O. 195/367 Rawlinson to Sheill, Jan. 29, 1853. F.O. 78/957.

Ibid : Turco - Persian Boundary Negotiations Parts I -III. (1843 - 1844).

وانظر عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : بغداد جـ ٧ ص ٧٩ و ١٨١ .

Rawlinson to Redcliffe : No. 36. Dec. 13, 1853 - F.O. 195/367.

Rawlinson to Redcliffe : No. 37. Dec. 28, 1853 - F.O. 195/367.

العسكرية من الولايات الأخرى . فمصر — التى استنجد بها السلطان محمود الثانى من قبل لانقاذ العراق من الغزو الفارسى سنة ١٨٢١ — ١٨٢٣ كانت قد ارسلت جزءا من قواتها الى جبهة البلقان ، وتحولت القوات العثمانية المرابطة فى شمال العراق والشام والأناضول الى أرضروم للاحتشاد هناك لصد أى هجوم من تلك النواحى . بل لقد طلب السلطان العثمانى من والى الموصل — فى وقت متأخر من الحرب — أن يقدم خمسمائة خيال لارسالهم الى جبهة القرم وآثرت القيادات العثمانية الا تسحب أية قوات من تلك التى تحت قيادة رشيد الكوزلكلى حتى تمكنه من مواجهة اى هجوم مفاجىء فارسى .

كان رشيد الكوزلكلى فى نفس الوقت لا يستطيع أن يلقى بكل ما لديه من قوات فى الموقعة المنتظرة ، ولا يستطيع أن يوزع قواته كلها على المواقع الاستراتيجية التى يجب أن تعسكر فيها ، وذلك لأن العشائر الكردية والعربية ما كانت لتتورع عن الثورة فى مثل تلك الظروف الحرجة . ولذلك لم يكن فى وسع رشيد الكوزلكلى سوى أن يستخدم عشرة آلاف جندى فقط من قواته لمواجهة الغزو الفارسى وأما الستة آلاف الباقية فيجب أن تبقى للمحافظة على هدوء العشائر . الا أن رشيد الكوزلكلى عمل على تنفيذ خطة طيبة اعتقد أنها تمكنه من الاستفادة من الستة آلاف جندى — سالفى الذكر — فى مواجهة الغزو الفارسى فقد أعلن أن الحكومة تريد أن تفتح صفحة جديدة مع العشائر وعفا الله عما سلف ، وطلب من العشائر أن تقدم رجالها للدفاع عن البلاد وأن تقف كلها وقفة بطولية الى جانب جيش الحكومة دفاعا عن دولة الخلافة . وكان الكوزلكلى يعتقد انه بذلك يستطيع أن يكسب هدوء العشائر وبالتالى يستطيع أن يستخدم كل ما كان تحت يده من قوات فى جبهات القتال المتوقعة ، كما أن هدوء الجبهة الداخلية العراقية — وهو أمر قليل الحدوث — سيجعل من العسير على الفرس التدخل فى أمور العراق الداخلية ، ناهيك عن غزوه (١) . ويبدو أنه لقى نجاحا فى هذه الخطة ، حيث أننا لم نسمع عن تمردات عشائرية خلال فترة الحرب (١٨٥٣ — ١٨٥٦) (٢) . بل انه استطاع أن يدعو

---

(١) Ibid.

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ ٧ ، ص ١٠٥ — ١١٦ .

عشائر شمر الجربا (١) وعشائر عنزة (٢) الى الانضمام الى الجيش ، كما طلبت من عشائر المنتفق (٣) أن تكون على أهبة الاستعداد لخوض المعركة المقبلة .

كذلك استعان رشيد الكوزلكلى بالأسرات الكردية الحاكمة سابقا ، لجمع قوات اضافية . فقد طلب رسول بك (آخر أمراء راوندوز) أن يتوجه الى كركوك بما يستطيع جمعه من القوات الكردية ، كما استدعى من الاستانة عبد الله بابان — آخر حكام السليمانية — وطلب منه أن يجمع أكبر عدد ممكن من القوات الكردية للدفاع عن الحدود الكردستانية (٤) .

وخلال الحرب اكتشف الكوزلكلى قيمة استخدام البواخر فى النقل سواء من الناحية التجارية أو من الناحية العسكرية ، ولهذا . عمل على تكوين شركة نصف رأسمالها حكومى والنصف الثانى أهلى لشراء باخرتين لتعملا فى أنهار العراق . ونجح المشروع ، وتكونت الشركة ، وكلف الكوزلكلى أحد المصانع البلجيكية (٥) لبناء الباخرتين لحساب الشركة . وهكذا نستطيع أن نقول أن حرب القرم هى أول حرب أوروبية استخدمت فيها البواخر (٦) وأنها أيضا أول حرب أدت الى استخدام البواخر الوطنية فى المياه العراقية .

---

(١) من كبريات عشائر العراق البدوية العربية ولها تاريخ مجيد فى الدفاع عن العراق ضد الفرس .

(٢) أكبر مجموعة عشائرية عربية تنزل فى الصحراء بين العراق والشام .

(٣) دائر المنتفق فى جنوب العراق من أقوى عشائر العراق ولها تاريخ مجيد فى الدفاع عن البصرة ضد الغزوات الفارسية .

(٤) Rawlinson to Redcleffe. No. 34, 35. Nov. lb., 30, 1853. Ibid.

(٥) نلاحظ أن رشيد الكوزلكلى لم يطلب بناء الباخرتين فى المصانع البريطانية ولعله فعل ذلك عن عمد ، بقصد الابتعاد بقدر الامكان عن مصادر النفوذ الانجليزى فى العراق . انظر عباس العزاوى : تاريخ العراق ، ج ٧ ، ص ١١٠ — ١١٤ .

T. Quinet, La Turquie J. Asie. Paris. T. B., p. 249.

(٦) أ . جرانت و هـ . تمبرلى : تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة بهاء فهمى ومراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل العرب ، ص ٤١٧ .

بعد تلك الاستعدادات حشد رشيد باشا قواته على طول الحدود العراقية الفارسية فاستفسرت السلطات الفارسية من المسئولين العثمانيين عن سبب ذلك فامتنع العثمانيون عن اعطاء أى تفسير ، فرد الفرس على ذلك بحشد قواتهم فى مواجهة الحشود العثمانية وحاول السفير العثمانى لدى الشاه أن يقنعه بالعدول عن تلك الاستعدادات حتى لقد بلغ به الأمر أن هدد بمغادرة طهران ان لم توقف تلك الاستعدادات . ولكن دون جدوى (١) . فأخذت العلاقات تتوتر بسرعة كبيرة بين الدولتين خاصة وان القنصل الفارسى فى العراق كان فى الوقت نفسه يهدد هو الآخر بالانسحاب من العراق بسبب المعاملة السيئة التى كان يعانى منها الفرس فى العتبات المقدسة حينذاك (٢) . ومما زاد فى حـدة التوتر أن الفرس عينوا خبيرا روسيا فى الجيش الفارسى المرابط فى (بوشهر) واقليم فارس وهو أمر اعتبره العثمانيون تهديدا مباشرا للعراق حيث ان العثمانيين كانوا فى حرب فعلية ضد الـروس (٣) .

ثم أن الفرس بعثوا بقواتهم الى جزيرة (خـرج) فـرد العثمانيون على ذلك بأن طلبوا من شيخ الكويت الاستعداد لقتال الفرس وأن يضع سفنه فى شط العرب لمنعهم من عبوره (٤) . ومع أن المحمرة كانت قد اصبحت تابعة لفارس بمقتضى معاهدة ارضروم الثانية ، الا ان رشيد وجد أن الخطر الذى يهدد شط العرب من جانبها كبير ، وانه من حسن السياسة أن يقوم بمحاولة لكسب صداقة وتعاون شيخ المحمرة معه . والمعروف أن تاريخ المحمرة عبارة عن سلسلة من التردد بين الولاء للسلطان والولاء للشاه . وفعلا عرض الكوزلكلى على الشيخ جابر - شيخ المحمرة - أن يتعاون مع حكومة بغداد (٥) .

---

(1) Thompson to Clarendon : November 20, 1853 (I.O.R. F.R., P.P. G., Vol. 106, pp. 237 - 9.

(2) Rawlinson to Redcliffe : November 16, 1853, No. 84, November 30, 1853, F.O. 195/367.

(3) Thompson to Clarendon. November 20, 1858 (I.O.R. F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237 - 239.

(4) Kemball to Thompson : December 15, 1853, (I.O.R., F.R., P.P.G.; Vol. 107, pp. 83 - 90.

(5) Rawlinson, to British Embassy : January 28, 1854, No. 2 (Saldanha : Precis of Turbish - Arabia,, Calcutta 1904, Paragraph No. 71.

ولكن يبدو أن شيوخ عربستان والمحمرة فضلوا الوقوف على الحياد خلال هذه الفترة .

والواقع أن الجبهة الجنوبية للعراق كانت أكثر الجبهات عرضة للغزو الفارسى ، وهو امر كان يراه الانجليز على جانب خطير من الأهمية بالنسبة لمصالحهم واطماعهم فى المنطقة ، حيث أن سيطرة الفرس على شط العرب والبصرة تعنى أن منفذ العراق أصبح فى قبضتهم ، وأن السفن الانجليزية العاملة بين بغداد والبصرة والخليج العربى والهند أصبحت تحت رحمة فارس . فضلا عن استيلاء الفرس على البصرة أو شط العرب يضع الطريق العالمى عبر العراق الى الهند فى يد فارس المعادية للانجليز حينذاك ولهذا لم يكتف الانجليز بالاستعدادات التى اتخذها الكوزلكلى للدفاع عن البصرة وعن شط العرب ، وانما ارسلوا الى شط العرب احدى قطعهم الحربية البحرية وهى الباخرة أوكلاند لتسيطر على الوضع الراهن فى المنطقة الحساسة حتى لا تجد فارس أية ذريعة لاقحام حرب على الدولة العثمانية (١) . وأغلب الظن أن الاتفاق — الذى توصلت اليه الحكومتان الفارسية والعثمانية بشأن قيام كل منهما بضرب العشائر الجافية المتمردة على الحدود كلما استطاعت أية قوات فارسية أو عثمانية اللحاق بها — كان بوساطة الانجليز الذين كان من مصلحتهم استتباب الهدوء على طول الحدود بين الدولتين (٢) .

وانقضت بتلك الاستعدادات الأشهر الأولى من الحرب التى وقفت خلالها الدولة العثمانية بمفردها أمام روسيا . ثم حدث أن حطم الأسطول الروسى السفن العثمانية الراسية فى ميناء سينوب فى وقت كانت فيه مفاوضات الصلح قد احرزت تقدما كبيرا ، ولكن تلك الحادثة ادت الى أن تعلن كل من فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا .

ويبدو أن روسيا لم تعن كثيرا بنواحى العراق فى المراحل الأولى من الحرب اعتمادا على المفاوضات الجارية لعقد الصلح ، وعلى مقدرة الفرس على اثارة المشاكل فى وجه العثمانيين فى العراق . فلما أعلنت فرنسا وانجلترا الحرب وتقطعت كل الآمال بشأن الصلح التفتت روسيا الى الاستفادة من القوى الكارهة للحكم العثمانى فى العراق وكانت

---

(1) Rawlinson to British Embassy: January 25, 1854, No. 2 (Saldanha: Precis of Turkish-Arabia, Calcutta 1904, Paragraph No. 7).

(2) Thompson to Clarendon : August 21, 1854 (I.O.R., F.R., P.P.G. Vol. 108, p. 703).

بعض هذه القوى مستعدة فعلا لأن تمد يدها الى الروس ومن ذلك أن شيخ عشـــــيرة (بانيانزلى) الكردى ثار على الحكومة العثمانية وانضم الى الروس [١] . وأجرى الروس من جانبهم اتصالات بعشائر كردية أخرى وكذلك بالنساطرة الكارهين للحكم العثمانى [٢] . ولكن هذه الاتصالات جاءت فى وقت متأخر جدا من الحرب ولعل هـــذا التأخير كان لأن الروس فقدوا الثقة فى أن يقوم الفرس بعمل ايجابى ضـد العـراق . ومع أنه كان من المنتظر أن يؤدى سقوط سباستبول (١٨٥٥/٩/٨) فى يد الخلفاء الى التخفيف من النشاط الروسى نحو العراق ، الا أن سقوط قارص فى يد الروس بعد ذلك بوقت قصير أعطى للروس امكانات وفرصا لزيادة نشاطهم فى أنحاء العراق . وفعلا خشى الانجليز من تزايد هذا النشاط الروسى بين عرب وأكراد العـراق بعد سقوط قارص ، وكان رشيد الكوزلكلى أشد تخوفا من الانجليز فى هذا الصدد حتى أنه طلب من الانجليز أن يبعثوا الى العراق — بأقصى سرعة ممكنة — بقوات هندية للمشـــاركة فى الدفاع عن البـــــــلاد [٣] .

وليست هذه هى المرة الأولى التى تأتى فيها قوات هندية الى العراق خلال حرب القرم . فقد عبر ثلاثون ألف مقاتل من الهند العراق سـنة ١٨٥٥ وهم فى طريقهم الى جبهة القتال الروسية العثمانية فى قارص [٤] ولكن القوات التى طلبها رشيد الكوزلكلى لم تعد هناك حاجة اليها لأن الحرب توقفت بعد ذلك بوقت قصير تمهيدا لعقد الصـلح وبالتالى توقفت كل الاستعدادات العسكرية على طول الحدود الشرقية العراقية .

مما سبق يتضح لنا أن الاستعدادات العثمانية الفارسية على جانبى الحـــدود العراقية كانت كبيرة ولكن دون أن تقع اشتباكات بين الطرفين وظل الهدوء مخيما على المعسكرات حتى وقع صلح باريس ١٨٥٦ م . ولم يتعرض هذا الصالح للعراق حيث لم تجر فيه أية تغيرات .

بعد حرب القرم ، وبعد الحرب الفارسية — البريطانية ، عادت الجهود الرباعية العثمانية الفارسية البريطانية الروسية الى النشاط لتحديد الحدود العراقية الايرانية.

---

(1) Rassam to Redcliffe: No. 10, April 26, 1856, F.O. 195/394.
(2) Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1856, No. 5 February 4, 1856, F.O. 78/1212.
(3) Ibid.
(4) Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1857, F.O. 781 1212.

وتمكنت اللجنة الرباعية من وضع خريطة مبدئية للحدود ، ومع ذلك لم تحسم المشاكل كلها ، وان كانت قد خفت الى حد كبير ، وبدت العلاقات بين ايران والعـراق العثمانى تسير بسرعة الى التحسن فى عهد ناصر الدين شاه (١٨٤٨ — ١٨٩٦)،وأيام ولاية مدحت باشا فى العراق (١٨٦٩ — ١٨٧٢) ، وتوج ذلك زيارة ناصر الدين شاه للعراق ، فمـا هى الظروف التى أدت الى ذلك التحسن فى العلاقات ؟

عندما جاء مدحت الى العراق كان مصمما على تنفيذ توصيات الباب العالى له بأن يراعى دواعى السلم مع جارته ٠ وكان من مصلحة مدحت أن يضمن سـلامة حدوده الشرقية خلال أزماته الشديدة مع عشائر الدغارة وحملته على الخليج العربى . وكانت عوامل المنازعات فى عهد مدحت هى نفسها التى واجهها ولاة العراق بعد عقد معاهدة ١٨٤٧ ، واهمها مشكلة العشائر المترددة بين الدولتين عبر الحدود ، وحماية خطوط البرق من تعدى هذه العشائر عليها ، وتسهيل الحج للفرس الى العتبات المقدسة ٠

كانت أول مشكلة صادفها فى هذه الناحية هى تعدى عشـائر « الهماوند » على مناطق السليمانية تحت حماية حاكم زهاب « زهاو » الفارسى [١] ، كما كانت عشـائر السنجابية [٢] الفارسية تعتدى على خطوط البرق [٣] ، وفى هذا أشـد الاحراج لمكانة الباشا لأن هذه المشكلة كانت سريعا ما ترتفع الى مصاف الأزمات العالمية . كذلك أشاعت عشائر « الفيليه » الفوضى على الحدود المشتركة ، فقد هاجمت هذه العشائر نواحى « شهربان » و « وقزلرباط » الجبلية وأوقعت بالقوافل [٤] ، وكانت مشكلة الهاورامان أشد مشكلات الحدود خطورة فى عهد مدحت .

ونظرا لخطورة تلك الأحداث اتفقت الدولتان على تبادل وجهات النظر فى مشكلات الحدود ووصل الطرفان الى وضع بروتوكول فى ١٨٦٩ وقعتـه السـلطات العثمانية

---

(١) Lorimer; op. cit. Vol. I. Pt. I p. 1421.

(٢) عشائر ٠ على الهى يشتون فى العراق . فكانوا من موارد خزينة بغداد الهامة . العزاوى : تاريخ العراق ، جـ ٧ ، ص ١٨٢ وصحيفة الزوراء ، عدد ٦ فى ١ من ربيع الأول ١٢٨٦ هـ ٠

(٣) العزاوى : تاريخ ، ٧ ، ص ٢٢٤ وكذلك الاعداد ٧ ، ٨ ، ١٢ ٠

(٤) المصدر السابق ٢٠٥ ٠

والفارسية والبريطانية والروسية فعلا يضمن اعتراف الدولتين المتنـــازعتين بخط الحدود المبين على الخريطة التى وضعتها لجنة الحدود · ووفق هـــذا البروتكول ظلت المنحدرات الجنـــوبية الغربيـــة فى بشتكوه قـرب دجلة على ما كانت عليـــه حتى تقرر الحدود بدقة على الا تبنى أية مبان أو حصون على هذه الأراضى (١) ·

وبدأت فرصة جديدة لاستئناف المفاوضات بصورة أكثر تفاؤلا عندما تقرر أن يزور الشاه العتبات المقدسة (٢) . وقد انتهز مدحت والباب العالى الفرصة فأوفد من لدنه مبعوثا ــ وهو قدرى بك ــ لمفاوضة الجانب الفارسى الذى تولى رياسـته محب على خان · وأعد مدحت من الاحتفالات الفخمة ــ برغم ما كانت تعانيه البلاد من قحط شديد ــ ما يليق بزيارة هذه الشخصية الخطيرة للعراق وما يمهد الجو لمفاوضـــات تسودها روح التفاؤل بقيام علاقات أكثر ودية بين البلدين ·

خرج الشعب البغدادى لاستقبال الشاه وارتدى تلاميذ المدارس ملابسهم الجديدة واصطفوا فى الشوارع · ووضعت فى كل جانب من جوانب المدينة زينة · واضيئت المدينة بالأنوار كما أطلقت الصواريخ ليلا . واجتمع الشاه بقناصل فرنسا وبريطانيا والوكيل الايطالى ، ثم زار العتبات المقدسة (٣) (النجف وكربلاء وسامرا) وخلع على علمـــاء الشيعة هناك ومنحهم هبات كثيرة (٤) واستغرقت الزيارة ثلاثة أشهر كلفت خزانة بغداد ٣٠ الف ليرة عثمانية (٥) وخلال ذلك دارت المفاوضات بين الطرفين حول مشكلة الحدود وحول المشكلات الأخـــرى وهى :

---

(١) Aitchison; A Collection, Vol. XII pp. 21—22.

(٢) وصل الشاه الى خانقين حيث استقبله مدحت فى شعبان ١٨٢٧هـ/١٨٧٠م · وكان مدحت باشا حينذاك والى بغداد منذ ١٧٦٩ حتى ١٨٧٢ ·

(٣) تبصرة عبرت : ١٦٩ ·
Lorimer, op. at. Vol. I. Pt. I. p. 1421.

(٤) جعفر آل محبوبة النجفى : ماضى النجف : ١٥٣ — ١٥٤ .

(٥) وزاد من مشكلات مدحت فى هذه الظروف ان السنة كانت سنة قحط ، وأن مرافقى الشاه كانوا عشرين ألف شخص منهم ستة آلاف فقط من اتباع الشاه وحده =

١ ــ دفن الموتى : واتفق فى هذا الشأن على ألا تدفن فى العتبات الا بعــــد مرور ثلاث سنوات على الوفاة (١) ٠

٢ ــ كنز النجف : فقد دفنت فى تربة النجف منذ ثمانين عاما تقريبا مجوهرات عندما هدد الوهابيون مدينة النجف وخشى أهلها من أن يحل بها ما حل بكربلاء وبلغت قيمة المجوهرات حوالى ملايين الليرات العثمانية واقتـــرح مدحت على المفاوض الفارسى أن يستخدم المبلغ لصالح الحجاج الفرس بأن يمد خطا حديديا بين فارس والنجف (٢) أو لانشاء مستشفيات وملاجىء وخانات على طول طريق الحجاج الى العتبات ٠ فلم تنجح هذه المقترحات التقدمية واضطر مدحت الى اعادة الكنوز الى مكانها وان يختم هو ورفاقه من وزراء فارس على باب المخبأ (٣) ٠

وأما مشكلة الحدود فكانت أكثر المشكلات تعقيدا ، خاصة فى مناطق زهاو وأهوار عربستان (٤) التى عاد حكام المحمرة فيها الى اثارة الفوضى ٠ فاشترك مدحت ومبعوث الباب العالى فى دراسة مشكلة الحدود وفى مفاوضة ممثلى الجانب الفارسى وعلى رأسهم محب على خان بشأن تحديد الحدود وبشأن تسليم الفارين من فارس الى العــــراق ٠ وبجانب هذه المفاوضات التى اشترك فيها مدحت عقـــــد المندوبان الفارسى والعثمانى اجتماعات قرب الحدود عند شهربان ، ولكن كل هذه المفاوضات انفضت دون الوصول الى نتيجة مجدية ٠

واذا كانت أساليب المفاوضات وتبادل الراى قد أخفقت فقد اتبع مدحت أساليب عسكرية هجومية ودفاعية ، كان لها أثرها فى وقف مشكلات الحدود عنــد حدها بعض الوقت ٠ فبنى عند المنافذ بين العراق وفارس بعض القلاع ٠ ثم وضع خطـــة لضرب الهماوند والسنجابية بالتعاون مع عشيرة ربيعة وقبض على بعض المشاغبين واعدمهم (٥)،

---

(١) تبصرة عبرت : ١٧٠ ٠

(٢) A.H. Midhat; The Life of Midhat. p. 58.

(٣) تبصره عبرت : ١٧٠ ٠

(٤) العزاوى : تاريخ ، جـ ٧ ، ص ٢٦٣ ٠

(٥) العزاوى : تاريخ ، ٧ ، ١٨٢ ٠

وفى ١٨٧١ استؤنفت المفاوضات ويبدو أن الطرفين اتفقا فى هذه المفاوضات على أن ينتقل اللاجئون والمشاغبون على الحدود الى مناطق بعيدة داخل كل من الدولتين كوسيلة لوقف حوادث الحدود الى حد ما . كذلك تقرر فى هذه المفاوضات أن يعقد مؤتمر فارسى عثمانى فى الاستانة لوضع معاهدة أرضروم فى موضع التنفيذ ، كما تقرر أن يحضر ممثلون عن الحكومتين البريطانية والروسية هذا المؤتمر ، ولكن لم يجتمع هذا المؤتمر . ويعلل اتشسون عدم اجتماع المؤتمر بمماطلات الحكومة العثمانية . وفى ١٨٧٦ م عادت مشكلات الحدود الى الظهور عند « قطور » و « زهاو » واستمرت المنازعات وقدمت فارس مذكرة جاء فيها :

١ ــ ان استمرار احتلال الترك لقطور التى احتلها درويش باشا سنة ١٨٤٩ عندما كان فى طريقه للانضمام الى لجنة الحدود فضلا عن احتلالهم لعدة اماكن أخرى يعتبر خروجا على نصوص معاهدة ١٨٤٧ .

٢ ــ سوء معاملة الزوار الفرس .

٣ ــ عدم تنفيذ امر نقل عباس ميرزا من بغداد وكان العثمانيون قد وعدوا بذلك . وكان عباس ميرزا من مثيرى الفتن فى ايران .

٤ ــ المماطلة فى تحديد الحدود .

٥ ــ مشكلة جزيرة شهلة فى شط العرب ١٨٧٦ (١) .

والملاحظ أن الأزمات العثمانية الايرانية بشأن الحدود ــ خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وحتى قبيل الحرب العالمية الأولى ــ كانت هادئة . ويرجع ذلك الى ان الدولتين أصبحتا تعانيان من ضغوط اوروبية أكثر من أن تحتملها اى منهما . فلقد ساعد التدهور الداخلى فى ايران على أن تسوى الحكومتان البريطانية والروسية مشكلاتهما عن طريق اقتسام فارس ١٩٠٧ فيما عرف باسم (الوفاق الودى الروسى البريطانى). ذلك الوفاق الذى وضع النصف الشمالى من ايران تحت التسلط الروسى

---

(١) Aitchison; A Collection. Vol. XII. pp. 21 - 22.

ووضع النصف الجنوبي تحت التسلط البريطاني ، باستثناء قسم في الوسط ترك للشاه المهيض الجناح .

كذلك كانت الدولة العثمانية تعاني من ضغوط أوروبية قاسية منذ اذلالها في مؤتمر برلين ١٨٧٨ · وحتى بعد ثورة جمعية الاتحاد والترقي الناجحة على السلطان عبد الحميد الثاني ١٩٠٨ ، ظلت حكومة الاتحاديين (١) تعاني الكثير من الأزمات في داخل الدولة العثمانية وبسبب الضغوط الاستعمارية الأوروبية أيضا ·

الى جانب هذا كان نمو الحركة العربية في العراق من العوامل التي شغلت أذهان حكومة الاتحاديين · فقد كانت في العراق حركة عربية ضد سياسة التتريك التي اتبعها رجال جمعية الاتحاد والترقي المتحكمين في توجيه السياسة العثمانية ، فادى هذا الى ضعف مكانة الحكم التركي في العراق · ولكن في نفس الوقت بدأ نوع من التقارب بين حاكم عربستان العربي (خزعل خان) والزعامات العربية الناشئة في العراق · حتى لقد ظهرت محاولات لانشاء دويلة عربية تمتد من عربستان الى البصرة الى الكويت ، وكان المتنفذون في تلك البلاد حينذاك من الزعماء والحكام العرب المناهضين للاتراك وهم على التوالي : خزعل خان ، وطالب النقيب ، مبارك الصباح · ولكن ظلت هذه الاتجاهات في حيز الأفكار ولم تهبط الى مجال الواقع ·

وخلال ذلك كانت حكومة الاتحاديين تريد أن تضع حدا لكافة المشكلات الدولية التي تواجهها حتى تستطيع أن تفتح صفحة جديدة من السياسة القائمة على أسس واضحة ، ولهذا كانت مستعدة للوصول الى تفاهم يضع حدا لمشكلة خط حديد بغداد مع بريطانيا والمانيا ، والى تفاهم مع الحكومة الفارسية لتسوية مشكلة الحدود ، خاصة وان العديد من الحوادث على الحدود كانت تقع في مطلع القرن العشرين وتحتاج الى علاج لها . وكانت لدى حكومتي الدولتين الفارسية والعثمانية النيات للوصول الى اتفاق ، وكذلك كانت لدى الحكومتين الروسية والبريطانية الرغبة في التوصل الى اتفاق جديد بشأن الحدود الايرانية — العثمانية (العراقية) ·

---

(٢) نسبة الى جمعية الاتحاد والترقي .

من بين الظروف التى أدت الى الوصول الى تسوية ما بشأن الحدود العراقية ، الايرانية ، أن سياسة حكومة الاتحاديين كانت فى ١٩١٣ تهدف الى الوصول الى تسوية جميع المشكلات التى تعرض الدولة العثمانية لحرب او ازمة كبيرة ومن ذلك التسويات التاليـــــــــــــة :

١ ــ الاتفاق مع زعماء الحركة العربية التحررية فى أعقـاب نجاح المؤتمر العربى الأول ١٩١٣ على خطة تعاونية بين العرب والأتراك ووقف تيار سياسة التتريك ·

٢ ــ تسوية المشـــاكل المعلقة بين الدولة العثمانية والاســتعمار البريطانى فى الخليج العـــــــــــــربى ·

٣ ــ الوصول الى اتفاق مع كل من انجلترا وألمانيا وفرنســا على توزيع مشروعات مد خطوط السكك الحديدية عليهم ووضع تسوية بشأن خط حديد بغداد ·

٤ ــ تسوية عثمانية فرنسية بشأن شمال أفريقيا والنشاط التعليمى فى ولايات الدولة العثمانية وخاصة العربية منها ·

ولما كانت حــكومة الاتحاديين تعانى ضغطا شــديدا من جانب الدول الكبرى الاستعمارية سواء الصديق منها (ألمانيا) أو المعادى لها (انجلترا وفرنسا) كانت سياسة الاتحاديين فى هذه الظروف هى التنازل عن بعض الحقوق من أجل الوصول الى تســوية ما مع احدى الدول الكبرى · وكانت هذه التنازلات فى الواقع على حساب الوطن العربى ، سواء فى العراق أو الخليج العربى أو شــمال أفريقيا · وبالتالى أن التنازل من جانب الاتحاديين ــ وهم دعاة سياسة التتريك ــ يمكن أن نفهمه بشـــكل آخر · فالأتراك العثمانيون المدافعون عن تمامية الدولة التركية العثمانية على استعداد لأن يحافظوا على اراض تركية صحيحة حتى الموت ، ولكنهم أقل استعدادا اذا كانت المسألة متعلقة بأرض عربية ، خاصة وأن الحركة العربية ضد الأتراك والتتريك كانت على أشدها فى المشرق العربى · وعلى هذا الأساس يجدر بنا أن نضع فى الاعتبار عند تقييم بروتوكول ١٩١١ ، ١٩١٣ اللذين عقدا بين الدولتين الفارسية والعثمانية أن الأتــراك الاتحــاديين كانوا مستعدين للتفريط فى حقوق عربية ما كانت لتفرط فيها حكومة وطنية واعية ·

فماذا نص عليه بروتوكول ١٩١٣ وهو اهمها ؟

١ — فى صدر البروتوكول كان النص على اجتماع مندوبى الدولتين العثمانية والفارسية ومعهما مندوبى الدولتين الوسيطتين : بريطانيا وروسيا (١) .

٢ — تعتقد حكومة روسيا ان تنفيذ مواد معاهدة ١٨٤٨ « بمنزلة الرجوع الى الوضع الذى كان سائدا فى ١٨٤٨ » .

٣ — تسير الحدود مع ذرى أكمات الجبال .

٤ — أما فيما يتعلق بالحويزة وحدود شط العرب فقد نص على أن تستمر الحدود الى قناة خيان حتى « نقطة اتصال القناة المذكورة بشط العرب عند مصب نهر ناز الله . ومن هذه النقطة تتبع الحدود مجرى شط العرب لحد البحر تاركة النهر وجميع الجزر فيه تحت السيادة العثمانية مع مراعاة الشروط والاستثناءات التالية :

(أ) يعود ما يلى الى ايران :

١ — جزيرة محلة والجزيرتين الواقعتين بين جزيرة محلة والضفة اليسرى من شط العرب (ساحل عبادان الايرانى) .

٢ — الجزر الأربع بين شطيط وماوية الجزيرتين الكائنتين مقـــابل منكوحى والتابعتين لجزيرة عبادان .

٣ — جميع الجزر الموجودة الآن أو التى قد تتكون فيما بعد مما يتصل عنـــد هبوط الماء بجزيرة عبادان او بالأراضى الايرانية الى أسفل نهر ناز الله .

(ب) يبقى ميناء ومرسى المحمرة الحديثيين — الى فوق والى أسفل ملتقى نهر كارون بشط العرب تحت السلطة الايرانية عملا بمـا جاء فى معاهدة ارضروم . يبدو أنه ليس لهذا الأمر مساس بحق تركيا فى استعمال هذا القسم من النهر كمـــا أن سلطة ايران لا تتناول أقسام النهر والواقعة خارج المرسى .

(جـ) لا تتناول السلطة العثمانية أقسام الساحل الايرانى التى قد تغطيها الميـــاه مؤقتا عند ارتفاعها أو من جراء عوامل عرضية اخرى ولا تمارس الســـلطة

---

(١) هذا تأكيد قوى بدور الدولتين الوسيطتين .

الايرانية - على جانبها - على الأراضى التى قد تصبح مكشوفة بصورة وقتية أم عرضية عندما يكون مستوى هبوط الماء دون الحد الاعتيادى .

أما أقسام الحدود التى لم تذكر بالتفصيل فى خط الحدود فى بروتوكول ١٩١٣ فقد نص على « بقاء الوضع على ما كان عليه سابقا وذلك عملا بمنطوق المادة الثالثة من معاهدة أرضروم .

كذلك نص فى بروتوكول ١٩١٣ على أنه « حالما يتم تحديد قسم من الحدود يعتبر ذلك القسم كأنه مثبت نهائيا ولا يكون عرضة لأى تدقيق أو تعديل فيما بعد » .

ويمكن أن نلخص الحقوق العراقية (العثمانية) من هذا البروتوكول ١٩١٣ على النحو التالى :

١ - أن ايران اعترفت بأن شط العرب تحت السيادة العثمانية الكاملة ، باستثناء جزر مواجهة للشط الايرانى أو تمتد مسافات قصيرة من شط العرب . وبناء عليه فلميناء البصرة المسئولية الكاملة فى ادارة الأمور الملاحية فى شط العرب .

٢ - أن الحكومة الايرانية اعتمدت على معاهدة أرضروم ١٨٤٧ فى وضع هذا البروتوكول، والاعتراف بما سبق أن اتفق عليه فى معاهدة ارضروم ١٨٤٧ .

ولم تلبث أن وقعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وسرعان ما نزلت الجيوش الانجليزية فى (الفاو) ثم تقدمت لتستولى على البصرة ثم على بغداد ١٩١٧ والموصل ١٩١٨ ، وبذلك سيطرت بريطانيا على العراق ، كما كانت بريطانيا وروسيا تسيطران على ايران [1] .

---

(١) سندرس بالتفصيل التطورات التى أدت الى اقتسام روسيا وبريطانيا لايران فى ١٩٠٧ م .

الفصل السادس

المشكلة الأفغانية

والأزمات الفارسية البريطانية

كانت للشاه محمد قبل اعتلائه العرش فى ١٨٣٤ خبرات واوجه نشاط متعلقة بأفغانستان وهراة · ولقد سبق أن قام بهجوم على الأخيرة فى ١٨٣٣ ، وحصل من عمران — الحاكم الأفغانى لهراة — على جزية الا أنها لم تدفع للشاه · ولما تولى العرش وجه الشاه أنظاره الى هراة وافغانستان بقوة ، وكانت ذكريات الامبراطورية الفارسية الممتدة من حدود الهند الى العراق تثير فى الشاه روح التوسع فى الشرق . ومن ناحية اخرى كانت أفغانستان وهراة فى حالة اضطراب شديد ، وكانت القوى الأجنبية الانجليزية والروسية تتحكم فى ادارات تلك البلاد الأمر الذى جعل الشاه محمد يشعر بمسئولية فارس نحو انقاذ المناطق الشرقية من مصير هو أقرب الى مصير الهند ·

ولقد كانت أفغانستان وهراة كذلك مسرحا للمناورات البريطانية والروسية الخطيرة على مستقبلها ومستقبل جيرانها · فقد كان دوست محمد على حكم افغانستان منذ ١٨٢٦ · وحاول دوست محمد ان يثبت نفسه فى الحكم عن طريق التحالف مع الانجليز · وكان الروس يدركون أن فى هذا الاتجاه خطرا على أهدافهم فى المنطقة فسعوا هم ايضا الى كسبه لصفهم . فاتخذ دوست محمد اجراءات ضد الروس وعمل على تقوية هراة على أمل أن تؤدى هذه الأعمال الى كسب الانجليز الى جانبه · ولكن ظلوا على نوع من الحياد حيث أن الأمور لم تكن تستدعى فى نظرهم تدخلا بسبب أن الأحداث كانت داخلية محدودة · الا أن الأمور تطورت بسرعة فى أعقاب توغل قوات دوست محمد فى سستان اذ رد الشاه محمد على ذلك بالزحف ضد هراة · وهنا تحرك الانجليز لشد أزر دوست محمد ، وحاكم هراة ضد الفرس كذلك يلاحظ أنه فى هذه الظروف الدقيقة تحرك على باشا رضا والى بغداد العثمانى لاحتلال المحمرة (١٨٣٧) · ولعل ذلك حدث بمحض المصادفة دون توجيه بريطانى ، ولكنه أدى الى أن يوغر صدر الشاه وبلاطه بشدة ·

على أى حال ، نظر الانجليز الى هذا التحرك الفارسى ضد هراة على أنه كان بتوجيه من الروس أو على الأقل برضائهم لأنه كان فى مصلحتهم على طول الخط سواء انتصر الشاه الفارسى فى حملته لفتح هراة أم فشل فى مهمته .

وقد عرض احد الوثائقيين الانجليز كيف أن هذا التحرك الفارسى ضد افغانستان كان مفيدا جدا للروس من مختلف جوانبه بقوله :

« ان الحملة الايرانية على هرات كانت تخدم المصالح الروسية • فلو نجحت لكان لروسيا الحق بموجب معاهدة تركمان جاى أن تعين قنصلا فى هراة ، أو بمعنى آخر وكيل سياسى ، وبهذه الوسيلة ستسهل عملية اتمام تخطيط حدود الأراضى الهندية • واذا فشلت الحملة فان ايران ستكون منهكة ، وذلك يجعلها أكثر خضوعا للنفوذ الروسى • واذا عطلت الحملة او منعت عن طريق التدخل البريطانى فسينشأ العداء بين ايران وبريطانيا، وبذلك تجنى روسيا الثمرة • ويبدو أكثر من ذلك أن الكونت سيمونس قدم ٥٠٫٠٠٠ خمسين الف تومان ، اى حوالى ٢٥ ألف جنيه انجليزى الى الشاه لمصاريف الحملة ، على شريطة أخذ هراة • وأن يتجاوز عن باقى حساب تعويضات الحرب المطلوبة لروسيا من ايران ، وانه تغاضى عن فرقة من الفارين الروسيين تحت قيادة الكولونيل سيمونس فى خدمة الجيش الايرانى واستفاد منها الايرانيون فى الحملة ضد هراة » •

كان التحرك العسكرى الفارسى فى اتجاه هراة مثيرا للانجليز خاصة بعد أن استولى الفرس على « غريان » ثم حاصروا هراة نفسها • وكان الانجليز يعتقدون أن هراة لن تصمد طويلا • ولكن أثبت المدافعون عنها صلابة ، فضلا عن أن جيش الغزو الايرانى غير كبير • ومع هذا استخدمت بريطانيا كافة امكانياتها لارغام الشاه محمد على سحب جيشه من هراة ، وعلى عقد معاهدة مع بريطانيا تعطى لها امتيازات تجارية وسياسية واسعة فى ايران تمكن بريطانيا من السيطرة بطريق غير مباشر على البلاد • ونظرا لرفض الشاه لهذه المطالب وجهت اليه الحكومة البريطانية انذارا بأن تحركه ضد (هراة) فى نظرها عدوان على بريطانيا وانسحب الوزير المفوض البريطانى من طهران فى نفس الوقت الذى تحركت فيه القوات البريطانية لاحتلال (جزيرة خرج) • واحتلت الجزيرة منذ يوليو — تموز ١٨٣٨ حتى فبراير ١٨٤٢ •

ومن (خرج) أخذ الانجليز يهددون الساحل الايرانى ، وبوجه خاص ميناء بوشهر ، بينما لم يكن فى استطاعة السلطات الفارسية ازاء هذا الاحتلال البريطانى لأرض فارسية سوى مقاطعة جزيرة (خرج) اقتصاديا ، وفكر بعض المسئولين الانجليز فى وقف التعامل البريطانى مع بوشهر ردا على ذلك ولكن اللورد بالمرستون — وزير خارجية بريطانيا —

« اعتبر أن هذا الاجراء المقترح غير مناسب لأنه يضر بمصالح التجار الهنود الذين يتاجرون مع بوشهر كما يضر بالتجار الايرانيين الذين كانوا يرغبون فى البريطانيين ، كما أنه سيعطى للشاه سلاحا لوقف استيراد البضائع الانجليزية فى ايران الشمالية ومن المحتمل ايضا أنه غير فعال لا تأثير له » ·

وكان طبيعيا أن يتصاعد التوتر بين الانجليز والفرس بسبب هذا الاحتلال المفاجىء لجزيرة خرج ، وبسبب تلك المضايقات التى يسببها الانجليز للسلطات الفارسية على الساحل ، وادى الأمر الى أن تنتقل الوكالة البريطانية فى بوشهر الى جزيرة (خرج) فى ٢٩ — ٣٠ مارس ١٨٣٩ · وبدأت الدوائر الانجليزية تفكر فى طريقة تحتفظ بواسطتها بهذه الجزيرة تحت يدها ·

فجزيرة خرج كانت قد أصبحت على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للاستراتيجية البريطانية الجديدة فى الخليج العربى · وهى استراتيجية أصبحت تعتمد على البواخر المسلحة ، وهذه البواخر فى حاجة الى قاعدة ملائمة للرسو ، وتصبح مخزنا للفحم الذى تحتاجه هذه البواخر ·

كذلك تستطيع البواخر — التى تتخذ من خرج قاعدة لها — أن تراقب باستمرار أى تحرك فارسى معادى فى المنطقة وتتمكن بسرعة من محاصرة الموانىء الرئيسية الفارسية وبوجه خاص بوشهر · ولكن — فى اعتقادنا — ان هناك علاقة جد وطيدة بين الاحتلال البريطانى لخرج فى ١٨٣٨ والجهود العسكرية والدبلوماسية التى كانت تبذلها الحكومة البريطانية من أجل ارغام حكومة مصر على سحب قواتها واداراتها من مختلف مناطق الشام وشبه الجزيرة العربية ·

فقد دخلت الأزمة بين محمد على — والى مصر — والسلطان العثمانى محمود الثانى مرحلة خطيرة فى ١٨٣٨ ، وأصبح الصدام متوقعا ، وفعلا وقعت الحرب فى يونيو ١٨٣٩ ، وهزم الجيش العثمانى شر هزيمة فى موقعة نزيب ، ولم يعد هناك من وسيلة امام السلطان العثمانى الجديد (عبد المجيد) الا ان يتشبث بالتدخل الدولى العسكرى · وكانت بريطانيا تتزعم هذا الاتجاه وكونت تحالفا اوروبيا ضد مصر من روسيا وبروسيا والنمسا ثم لم تلبث أن انضمت اليه فرنسا ·

كانت بريطانيا — بصفة خاصة — تشعر ان مسئولياتها فى الدفاع عن الدولة العثمانية تمتد الى العراق حتى تمنع من وقوع أى اتصال بين قوى العراق الوطنية والمصريين فى الشام (١) ، وحتى تمنع من أى تفاهم بين حكومتى طهران ومصر ضد العدو المشترك (بريطانيا والدولة العثمانية) . فقد كان الشاه شديد السخط على تحرك والى بغداد العثمانى من قواعده فى البصرة لاحتلال المحمرة فى ١٨٣٧ التى كان يعتبرها الفرس تابعة لهم .

وكان محمد على مستاءا من اسناد منصب قبطان البصرة الى احد الضباط الأتراك الثائرين عليه ، وكان يدعى تركجة بيلمز . وانه لأمر ذو مغزى ان يكون الانجليز هم الذين انقذوا بكر « تركجة بيلمز » هذا من الوقوع فى يد القوات المصرية فى السواحل اليمنية ، وأنهم هم لذين نقلوه الى بمباى ثم الى البصرة . لقد كان هذا فى نظر المسئولين فى حكومة مصر استفزازا صارخا حتى أن خورشيد باشا — قائد الحملة المصرية فى شبه الجزيرة العربية — أصبح يتطلع الى البصرة خاصة وان القوى العربية فى تلك الجهات كانت تكاتبه وتدعو اليها . ومن ثم أصبحت منطقة عربستان (المحمرة) والبصرة المتجاورتين محط انظار كل من المسئولين الفرس والمصريين .

ولقد كان خورشيد باشا . قائد الحملة المصرية فى شبه الجزيرة العربية وفى الخليج العربى — يشعر أن من واجبه انقاذ منطقة الخليج العربى من التسلط البريطانى . وفى رسالة قيمة كشف خورشيد هذا عن وجهة نظره فقال :

« أن الانجليز يرمون منذ خمسين أو ستين سنة الى الاستيلاء على مقدار من سواحل بلاد العجم حتى يأمنوا شر الدولة الروسية وحولوا أغراضهم الى الاستيلاء على سواحل عمان والبحرين والاحساء والقطيف والكويت والبصرة لتكون عقبة أمام الدولتين الروسية والايرانية . هذا هو ما يضمرونه فلا يبقى من جزيرة العرب ولا بغداد خبر . أما البحرين فهى بمثابة مفتاح خليج العجم اذا استولت عليه الانجليز فانها فى خمس عشر سنة تصير عظيمة ومعمورة مثل جزيرة مالطة » .

---

(١) لن نتعرض هنا لطبيعة هذه العلاقات بين القوى الوطنية فى العراق والمصريين فى الشام فقد بحثناها تفصيليا ووثائقيا فى كتابنا « تاريخ العراق الحديث » .

وهكذا كان خورشيد باشا يدرك حقيقة اهداف بريطانيا فى المنطقة ، وكان يسعى الى احباط المخطط الانجليزى هناك ، ولكن الرقعة كانت قد اتسعت على حكومة مصر وكان فتح جبهة جديدة فى الخليج العربى فوق امكانيات مصر · وكان لا بد من قيام تعاون كبير بين حكومتى طهران والقاهرة اذا أريد لهما أن يعملا على اخفاق المخطط البريطانى ·

فى هذه الظروف بعث شاه ايران الى محمد على والى مصر برسالة « جس نبض » اليه يقول فيها :

« ان تقوية الجامعة الاسلامية ، واحكام رابطة الصداقة والمودة المنوطة باتخاذ الأفكار والآراء ·· وانه اذا اقتضت المصلحة بمطالبتنا بأى تعضيد ومظاهر فاننا مستعدون لآدائها » ·

ولقد شعرت الدوائر البريطانية فى العراق بأن الشاه يريد أن ينتهز فرصة نمو قوة مصر فى الشام وفى شبه الجزيرة بالقيام بهجوم كبير على العراق فتوالت التحذيرات الصادرة من روبرت تيلر الوكيل السياسى البريطانى الى حكومة لندن من ان الفرس يستعدون لغزو العراق بتحريض لا من الروس فقط ولكن بتحريض من الفرنسيين · ولعل الوكيل السياسى البريطانى بالغ فى هذه الموضوعات ولكن هذا هو اسلوب الانجليز فى تضخيم بعض الأمور البسيطة لتحقيق أهداف معينة · فعلى فرض أن الروس كانوا يحرضون الشاه على مهاجمة العراق — وهذا أمر لم يظهر الا فى بعض الوثائق الانجليزية القليلة — فان كان من المستبعد أن يحرض الفرنسيون الفرس على مهاجمة العراق ، حيث انه كان من الثابت فعلا ان القنصل الفرنسى فيكتور فونتانييه Victor Fontanier هو الذى حث والى بغداد على احتلال المحمرة فى ١٨٣٨ ·

بل فى اعتقادنا ان روسيا كانت حذرة ازاء هذه القضية الحساسة · فقد كان هناك شبه تفاهم بريطانى — روسى حول الطريقة التى ستعالج بها المسألة المصرية ، وأنه ليس من مصلحة روسيا أن تقوض هذا التفاهم فى الموقف الذى كانت فيه حكومة بريطانيا مستعدة للدخول فى حرب ضد اية قوة تتحرك الى العراق ، فضلا عن أن الشاه كان عاجزا عن أن يستولى على « هراة » ومن ثم لا يستطيع أن يفتح على نفسه جبهة جديدة ليس فى

استطاعته التحكم فى تطوراتها أو على الأقل لا يستطيع أن يقدم على خطوات واضحة ضد العراق الا اذا كان هناك تنسيق بينه وبين محمد على باشا • وهـــذا التنسيق كان فى مرحلة « جس النبض » فقط •

حقيقة عرض الشاه فى رسالته فكرة « التحضيد » و « المظاهرة » ولكنها عبارات تشجيع أكثر منها ارتباطات واضحة فالأمر كان يحتاج أكثر من تبادل مثل هذه الرسائل، ولم تنتقل المسألة من مرحلة ارسال مثل هذا الخطـــاب الى مرحلة الجلوس على طاولة المفاوضات والتباحث حول امكانيات التعاون •

والواقع أن أكثر ما كان يخشاه الانجليز هو قيام القوات المصرية فى شبه الجزيرة العربية بالتحرك صوب البصرة ومن هناك تصبح قادرة على الاتصـــال المباشر بالفرس وبالتالى وضع المنطقة تحت ظروف دولية معقدة فقد كانت الحكومة البريطانية تعتقد أنه لو حدث شىء من هذا فان القوات الروسية ستهبط الى الأناضول . وتتدخل ايران فى العراق مباشرة •

لقد وضع المخطط البريطانى لمواجهة هذه الظروف واحتمالاتها المعقدة ونفذ على النحـــو التـــالى : —

١ — تعاونت كل من الحكومتين العثمانية والبريطانية على شن حملة دعاية ضد ايران ، وتحذيرها من أى تحرك نحو العراق سواء أكان هذا التحرك بمظهر سياسى دينى أو عسكرى فقد بعثت حكومة الاستانة برسالة الى محمد على تقول فيها :

« ان أعداء الدين والوطن قد طمعوا فينا من جميع الجهـــات ولا ســـيما أن الايرانيين انتهزوا الموقف الحالى فرصة للتفكير بتدبير هجوم على بغداد بأسباب مصطنعة وان الأمر قد يؤدى الى حرب بين الدولتين العثمانية والايرانية » .

٢ — بعث بالمرسنون — وزير الخارجية البريطانى — الى الشاه محمد برسالة ينصحه ، أو بمعنى آخر يحذره ، من أن ينتهز فرصة ضعف الدولة العثمانية ليهـــاجم العراق ، وطلب من الشاه عدم اللجوء الى السلاح فى هـــذه الظروف فيما يتعلق بالمشكلات الفارسية العراقية ، وانما اذا كانت هناك مشكلات ملحة فلترفع الى مستوى المباحثات بين الطرفين العثمانى والفارسى •

٣ — كان الاجراء البريطانى الثالث هو أكثرها قوة ، ومفاجأة • فقد صممت الحكومة البريطانية على الا تدع الأمور فى منطقة العراق دون تدخل مباشر من جانبهـا ، واسرعت الى اعداد ثلاث بواخر مسلحة (مكفكة) بعثت بها بواسطة سفينة (١) دارت حول رأس الرجاء الصالح لتصل — فى سرية تامة — الى جزيرة « خرج » فى أواخر اكتوبر ١٨٣٩ ، وانزلت فيها حمولتها ، وركبت البواخر الثـلاث على عجل ، وسلحت بالمدفعية وانطلقت صاعدة شط العرب لترابط فى نهر الفرات ولتصبح — من بعد — حاجزا بين القوات المصرية والعراق .

ومن هذا يتضح أن الاحتلال البريطانى لجزيرة خرج لم يكن سببه قاصرا على الأزمة البريطانية — الفارسية حول هراة وانما كانت رغبة بريطانيا فى اتخـاذ جزيرة (خرج) قاعدة بحرية لبواخرها من أهم اهداف استمرار الاحتلال البريطانى لتلك الجـزيرة . فمن خرج تستطيع بريطانيا التحرك ضد الساحل الفارسى وضد العراق اذا ما وجـد الانجليز أن مصالحهم فى المنطقة تتطلب ذلك •

وعندما شعر الشاه بوطأة الانجليز عليه هدد بأنه سيستعين بروسيا ضد بريطانيا اذا استمرت الأخيرة فى انتهاج سياسة عدوانية ضده ، ولكن بريطانيا كانت تدرك أن هذه هى الفرصة التى تضرب فيها ضربتها فى الوقت الذى كانت فيه روسيا غير مستعدة للدخول فى حرب ضد بريطانيا من أجل فارس حينذاك • ومن ثم كانت سياسة روسيا عموما هى عدم الوصول الى حافة الحرب مع بريطانيا • ومن هنا كانت المطالب البريطانية الموجهـة الى الشاه لتسوية الأزمة الشديدة (١١ يوليو — تموز — ١٨٣٩) اذ كانت على النحـو التـالى : —

١ — ان يقدم الشاه اعتذارا كتابيا عن الاهانة التى لحقت لساعى السفير البريطانى •

٢ — اصدار فرمان فى ايران يضمن حماية جميع الأشخاص الذين تستخدمهم البعثـة البريطـانية •

٣ — يجب أن يتم الجلاء عن غريان والأماكن الأخرى فى افغانستان التى ما زالت تحتلها قوات الشـاه •

---

(١) هى السفينة أورانيا Urania

٤ ــ اعتذار كتابى يجب أن يقدم بسبب الاستيلاء على منزل أحد الضباط البريطانيين فى طهــــــــران ٠

٥ ــ يجب أن يعاقب جميع الأشــــخاص الذين لهم علاقة باهانة صراف المعتمـــدية البريطانية فى بوشهر ٠

٦ ــ ان حاكم بوشهر الذى اهان الادميرال سيرف . متيلاند يجب أن يعزل من وظيفته وأن تعلن الحكومة الايرانية السبب فى عزله علنا ٠

٧ ــ يجب تصفية قضايا الرعايا البريطانيين بسبب بعض مصانع الحديد فى « قره داغ» ٠

٨ ــ يجب دفع المبالغ المستحقة للضباط البريطانيين الذين كانوا يعملون أخيرا فى خدمة الحكومة البريطانية ٠

٩ ــ يجب توقيع معاهدة تجارية بين بريطانيا العظمى وايران لتصحب تجديد العلاقات السياسية بين الدولتين ٠

وهذه المطالب تحتوى على محاولة واضحة لاظهار حكومة فارس وكأنهـــا أذعنت للحكومة البريطـــانية ٠

بل لقد اتجهت الحكومة البريطانية الى شراء (جزيرة خرج) لعلها تســتطيع أن أن تتحقق اهدافها بالمفاوضات السلمية والأموال ٠ وبحثت الدوائر السياسية البريطانية موضوع شراء الجزيرة فعلا ، وخرجت بنتيجة هامة هى :

« أن الحصول على (خرج) بواسطة الشراء سيعطى لروسيا الفرصة للحصول على تنازل عن جيلان كلها أو جزء منها فى الشمال فى مقابل تخفيض ميزان تعويضات الحرب المستحقة لها من ايران وهذه نتيجة غير مرغوب فيها وأنه من الأفضل ألا يتم شىء يمكن أن يعرض سلامة (١) ايران للخطر » ٠

---

(١) مفهوم هذه الكلمة يجب أن يتحدد على النحو التالى : أن سلامة ايران فى ذلك الوقت من الخطر الروسى عليها كان فى مصلحة بريطانيا ٠ ولذلك فهى تدافع عن سلامة ايران من أجل سلامة المصالح البريطانية ٠

كان الخوف من روسيا احد الأسباب الرئيسية فى امتناع الانجليز عن الاستمرار فى احتلال (خرج) أو فى شرائها ٠ وكان نجاح التحالف الأوروبى ضد مصر فى ارغامها على الانسحاب من الشام ومن شبه الجزيرة العربية عاملا رئيسيا ثانيا جعل الوجود البريطانى فى خرج غير ذى موضوع (١٨٤٠) ٠ ثم ان المفاوضات بين المسئولين الانجليز والفرس كانت تتقدم ، وان كان التقدم بطيئا ، فى اتجاه تحقيق تلك المطالب التى عرضها بالمرستون منذ يوليو ١٨٣٩ ٠ وفعلا حصلت بريطانيا على مطالبها وأعيد تأسيس المفوضية البريطانية فى طهران فى اكتوبر ١٨٤١ وعقدت معاهدة تجارية بين الدولتين وشرعت بريطـــانيا فى الجلاء عن (خرج) فى أواخر ١٨٤١ وتم فى أوائل ١٨٤٢ ٠

لم يلبث الانجليز أن وصلوا الى اتفاقية بشأن مشكلة هراة بعد اعتلاء ناصر الدين العرش فى ٢٠ أكتوبر ١٨٤٨ وقد وقع الاتفاق فى يناير ١٨٥٣ على النحو التالى :

« ان الحكومة الايرانية لا يجب فى المستقبل أن ترسل قوات الى هراة الا اذا كان ذلك لصد هجوم أجنبى وحتى فى مثل هذه الحالة فان القوات الايرانية لا يجب أن تدخل مدينة هراة ، بل تعود الى ايران بمجرد زوال الخطر ، وان علاقات ايران مع هراة يجب أن تكون على أساس المساواة ٠٠ او بمعنى آخر ، أن الحكومة الايرانية لا يجب أن تحاول ان تقيم حكما مباشرا فى هراة أو تتدخل فى شئونها الداخلية ولا يجب أن يوجد أثر للتبعية لايران مثل سك العملة او أن يطلب حاكم هراة القاء الخطبة باسم الشاه ، وأنه لا يجب ان يكون أى ممثل ايرانى دائم فى هراة أو أى ممثل من هراة دائم فى طهران ويمكن أن يقوم حاكم هرات بالتطوع بالمساعدة من حين لآخر للشاه بغرض اخضاع التركمانيين أو اخماد الاضطرابات أو الثورات فى ايران نفسها ٠ و ٠٠ لا يجب الاحتفاظ بالزعمـــــاء الهراتيين فى ايران بغير ارادتهم كسجناء سياسيين أو مشتبه فى أمرهم أو يقدم لهم ملجأ فى ايران » ٠

لقد فرضت اتفاقية ١٨٥٣ فرضا على ايران ، وكانت بريطانيا متشددة فى شروطها تلك ، وذلك بسبب قرب وقوع الأزمة الكبرى بين روسيا وبريطانيا بسبب اصـــطدام مصالح كل من الدولتين فى الدولة العثمانية الأمر الذى تطور الى ما عرف باسم حرب القرم [١] (١٨٥٣ — ١٨٥٦) ٠

---

(١) أنظر فيما سبق الأزمة الناشئة بين بريطانيا والدولة العثمانية من جهة وفارس من جهة أخرى خلال حرب القرم ٠

وكما كانت فارس تنوى استغلال ازمة الدولة العثمانية خلال هذه الحرب ، سعت كذلك الى استغلال ازمة بريطانيا خلالها ، وذلك عن طريق تكوين حلف رباعى تشترك فيه هراة وكابول وقندهار • وكان دوست محمد خان — حاكم كابول — شديد المخاوف من تدخل حكومة طهران فى أموره والسيطرة على بلاده ، ولذلك كان ميالا بشدة نحو السلطات البريطانية فى الهند ويميل الى التحالف معها (١) . ولذلك فشلت جهود طهران فى تحقيق سياستها ، وشرعت فى اتباع سياسة أشد عنفا نحو أفغانستان ، فعملت على اثارة المشاكل بين هراة وكابول وقندهار،ولما شعر دوست محمد بأن موقفه بدأ يضعف، وبأن الانجليز من جانبهم مستعدون للوقوف بجانبه ضد فارس حماية لسياستهم الاستعمارية فى المنطقة ، اتجه الى عقد معاهدة سلام وصداقة مع شركة الهند الشرقية البريطانية فى ٣٠ مارس آذار ١٨٥٥ •

سرعان ما تصاعدت الأزمات البريطانية الفارسية،سواء فيما يتعلق بسياسة فارس ازاء افغانستان ، أو بعلاقاتها المباشرة مع بريطانيا • وكانت أقل المشكلات تفاهة كفيلة بأن تصبح مشكلة معقدة بين الطرفين • ومع اعترافنا بتفاهة المشكلة التى ادت الى انسحاب الممثل البريطانى من طهران فى ٢٠ نوفمبر ١٨٥٥ فتجدر الاشارة اليها لكى ندرك كم كانت الحكومة البريطانية تستخدم اساليب تعسفية شديدة ضد حكومات الشرق الاسلامى بقصد احراجها ، وفى هذا يحدثنا أحد الوثائقيين الانجليز وهو لوريمر فيقول أن رجلا فارسيا ، كان متزوجا من أخت لواحدة من زوجات الشاه ناصر الدين — الذى تولى العرش منذ ١٨٤٨ — قد عينه السفير البريطانى فى طهران فى سكرتارية السفارة ، وعندما رفضت حكومة الشاه الموافقة على ذلك ، على اعتبار أنه موظف فى الحكومة الفارسية رفضت السفارة البريطانية ، وأصرت على تعيينه فى السكرتارية ، بل عندما اعتقلت السلطات الفارسية زوجة ذلك الرجل الفارسى — وكان يدعى هاشم خان — دافعت عنها السفارة البريطانية على اعتبار أنها زوجة « موظف بريطانى » • وأصر كل على موقفه ، حتى انسحب الممثل البريطانى من طهران الى بغداد •

استمرت الأزمة لهذا السبب ولأن فارس ظلت مستمرة فى استعداداتها ضد هراة سعيا الى الاستيلاء عليها ، وكان سقوطها فى يد الفرس هو السبب فى ان تتمادى بريطانيا

---

(١) أنظر فيما سبق عن موقف دوست محمد •

فى ضغطها بشدة على فارس ، خاصة وان حرب القرم كانت قد انتهت · وهـــذا يفسر تطرف الانذار البريطانى الموجه الى الشاه فى أواخر ١٨٥٦ وكان هذا الانذار ينص على :

١ ــ انسحاب القوات الايرانية من هراة وعدم تدخل ايران مطلقا فى أمورها ، وان أية مشكلة ايرانية معها يجب ان تدخل فيها بريطانيا كوسيط لحلها ·

٢ ــ عقد معاهدة بريطانية فارسية تعطى لبريطانيا حق تعيين قناصل فى أية بقعـــة ايرانيـــــــــة .

٣ ــ ترتيب عملية استئجار بندر عباس لسلطان مسقط (١) ·

٤ ــ عزل الصدر الأعظم (الفارسى) على اعتبار أنه هو المسئول عن الأزمات التى وقعت بين المسئولين الفرس والموظفين الانجليز فى السفارة البريطانية فى طهران .

كانت هذه الشروط لا تسمح للحكومة الايرانية بالوصول الى اتفاق ســـلمى مع الانجليز ، بل هى بمثابة فرض الحرب على فارس · وفعلا أعلنت الحرب عليها فى نوفمبر ١٨٥٦ · والى جانب العمليات الحربية التى كانت تسير فيها الحكومة البريطـــانية ، وسلطات الاستعمار البريطانى فى الهند ، سعت هذه السلطات بسرعة الى التحالف مع دوست محمد خان ــ أمير كابول الأفغانى ــ وعقدت معه معاهدة فى ٢٦ يناير ١٨٥٧ ضد ايران ، وبمقتضاه زودت السلطات البريطانية دوست محمد خان بالأسلحة والأموال ، كما قدمت الأموال لشيوخ العشائر فى المناطق الفارسية المطلة على طول الخليج العربى(٢) . وذلك لأن الأسطول البريطانى كان قد أنهى استعداداته لانزال حملته الكبيرة على الساحل الايرانى وفى عربستان (المحمرة) . كذلك كانت هناك اتصالات انجليزية بكبار تجـــار فارس المتعاونين مع الانجليز لاثارة المشاكل فى وجه الحكومة الفارسية خلال الحـــرب ، واثارة الروح الانهزامية بين الشعب .

---

(١) كان تحت السيطرة البريطانية المقنعة ·

(٢) عمد الانجليز الى طمس هذه الحقيقة بشكل شديد وهذا واضح من حديث لأحد المسئولين الانجليز اذ قال « ان الصفقة كلها يجب أن تلغى وان تعدم الوثائق المرفوضـــة وأن يزال أثر المراسلات من سجلاتنا » · لوريمر : دليل الخليج ، ص ٢٧٥٣ ·

وحتى لا تعتقد الحكومة الايرانية أنها تستطيع الاعتماد على فرنسا — التى اشتهرت بالنزاع مع بريطانيا فى مجالات التسلط الاستعمارى فى الشرق — وافقت فرنسا على ارسال سفينة حربية لها الى المياه الايرانية لكى « تظهر للايرانيين أن التفاهم الودى بين فرنسا وبريطانيا ما زال تاما » وظلت هذه السفينة الفرنسية الحربية فى المياه الايرانية حتى وضعت الحرب أوزارها • بذلك تكون فارس قد وقفت وحدها أمام بريطانيا ، حيث ان روسيا كانت عاجزة عن أن تمد يد المساعدة اليها بعد هزيمتها فى حرب القرم ، كما كانت الحكومة العثمانية مغتبطة من هذا المأزق الذى وقعت فيه فارس لعلها بذلك تكسر شوكة ايران التى كانت تريد أن تفيد — فيما سبق — من المأزق الذى وقعت فيه الدولة العثمانية عندما نشبت حرب القرم •

أما فى الجانب الايرانى فقد أجريت استعدادات كبيرة نسبيا لمواجهة حرب من جبهتين : أفغانستان ، والحملة البريطانية من جهة الخليج العربى • وكانت امكانيات الدفاع الايرانية غير قادرة على كسب المعركة منذ البداية ، وخاصة فى منطقة عربستان والساحل الايرانى •

استطاعت القوات البريطانية أن تستولى بسرعة على بوشهر ، وهزمت القوات الفارسية فى (فبراير ١٨٥٧) أو احتلت المحمرة (٢٦ مارس — آذار ١٨٥٧) وتلقت القوات البريطانية العاملة فى عربستان معونات — غير رسمية — من العراق • وبدا واضحا أن الفرس لن يكسبوا الحرب • ومع هذا بدا كذلك واضحا أن الانجليز لا يريدون الاستمرار فى الحرب أو الزحف مثلا الى داخل قلب ايران ، وانما يرغبون فى عقد صلح سريع يحقق أهدافهم وهذا يرجع الى عدة أسباب :

١ — لم يكن الغرض من الحرب كسب أراضى جديدة وضمها الى حكومة الهند البريطانية ، وانما ارغام حكومة طهران على قبول شروط معينة للصلح •

٢ — كانت فارس فى نظر الانجليز دولة حاجزة خاصة بالنسبة لروسيا • واضعاف فارس الى حد كبير يؤدى الى ضعف فارس عن صد التوسع الروسى فى المستقبل •

٣ — كانت نفقات وتكاليف الحرب سترتفع جدا لو أوغلت القوات البريطانية فى زحفها الى الداخل •

٤ - كانت الثورة الهندية قد بدأت تندلع ومن ثم أصبح من مصلحة الانجليز انهـــاء القضية الفارسية للتفرغ للثورة الهندية ٠

انتهت المفاوضات بعقد صـــلح فى ٤ مارس - آذار ١٨٥٧ وكان يقضى بالشروط التـــــــالية : -

١ - اقامة سلام دائم وصداقة بين بريطانيا وايران تبدأ من تاريخ تبادل التصديق عليها الذى كان سيتم فى خلال ثلاثة شهور ، واطلاق سراح أسرى الحـــرب من كل من الجانبين ، والعفو التام عن جميع الرعايا الايرانيين الذين ارتبطوا بعلاقات مـــع القوات البريطانية أثناء الحرب ٠

٢ - انسحاب القوات الايرانية من هراة ومن كل أفغانستان خلال ثلاث أشـــهر من التصديق على المعاهدة، وتتخلى ايران عن أية مطالب لها فى السيادة على أفغانستان والاعتراف باستقلال هراة وأفغانستان وعدم التدخل فى شئونهما ٠

٣ - انسحاب القوات الانجليزية من الأراضى الفارسية ٠

٤ - عودة العلاقات الدبلوماسية البريطانية - الفارسية ٠

وفعلا نفذت شروط هـــذه المعاهدة ، وتصاعدت بعد ذلك المشروعات الاقتصادية البريطانية فى ايران ٠

فقد مدت خطوط التلغراف - على يد الانجليز - عبر الأراضى الايرانية خــلال الفترة بين ١٨٦١ - ١٨٧٠ وربطها بجيرانها والدول الأوروبية ٠ وحصل البـــارون يوليوس دى رويتر Julius de Rauter على امتياز مد خط حديدى من بحر قزوين الى الخليج العربى (٢٥ يوليو ١٨٧٢) ، وفتح نهر قارون للملاحة البخارية (البريطانية) بصفة خاصة فى ١٨٨٨ ، وكان طبيعيا أن يفتتح الانجليز لهم بنكا ضخما فى ايران لنمـــو مثل هذه المشروعات الاقتصادية الضخمة وهذا يفسر لنا ظهور بنك ايران الامبراطورى الذى منح امتياز انشائه الى البارون دى رويتر نفسه (١٨٨٩) ، وحصل الانجليز كذلك على امتياز مد خطوط حديدية فى جنوب ايران خاصة بين طهران وششتر ٠ وذلك رغم معارضة روسيا الشديدة لهذه المشروعات البريطانية ٠

ومن بعد ذلك ستتوالى المشروعات الروسية فى ايران وهذا سيؤدى الى وقـــوع تنافس وتسابق انجليزى روسى للاستحواذ على اقتصاديات فارس الأمر الذى سيؤدى الى وقوع فارس فى هوة الديون الأوروبية ، ثم السيطرة الأوروبية فى مواجهة حـــركة وطنية شعبية ضد الحكم المستبد وضد التدخل والتغلغل الاستعمارى فى البـــلاد ٠ وقد تجلت هذه الحركة الوطنية على صورة معارضة قوية ضد الشاه ناصر الدين ، واشـــتد ساعد هذه المعارضة الوطنية نتيجة للدعاية الكبيرة التى كان يشنها المصلح الإســـلامى الدستورى جمال الدين الأفغانى ٠

الفصل السابع

الحركة الوطنية
والتقسيم البريطاني الروسي لفارس
عام ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧

شعرت البلاد الاسلامية بوطأة الضغوط الاستعمارية الأوروبى بقسوة ، واكتشف المحتكون بالشئون السياسية بأن البلاد الاسلامية قد ساعدت ــ بضعفها وعدم ارتفاعها الى مستوى العصر ــ على تعاظم التحكم الاستعمارى فى الشعوب الاسلامية . وكانت نظرة سريعة على خريطة الشعوب الاسلامية من أقصى الشرق الى أقصى الغرب تؤكد بسرعة أن هذه البلاد أصبحت فى متناول يد الاستعمار الأوروبى ، وأن بعضها أصبح فعلا تحت قبضته المروعة .

ففى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ضاعت امبراطورية المسلمين العظمى فى الهند اذ أصبحت امبراطورية المغول فى أعقاب ثورة ١٨٥٧ مجرد مستعمرة بريطانية (١)، والدولة العثمانية أصبحت عرضة للتقسيمات الأوروبية منذ مؤتمر برلين (١٨٧٨) ، والعراق اصبح للانجليز فيه بواخر حربية وبواخر تجارية تسيطر على استراتيجية وتجارة العراق ، والخليج العربى اصبح تحت رحمة الأسطول البريطانى بعد أن فرضت بريطانيا على امراء الخليج ومشايخه سلسلة من المعاهدات التى ربطتهم بعجلة الامبراطورية وفصلتهم عن بقية البلاد العربية ، واضعفت بريطانيا دولة البوسعيد حتى وضعت عمان تحت حمايتها وكذلك زنجبار فى شرق أفريقيا،ووضعت مشيخات حضر موت تحت حمايتها أيضا ، واستعمرت عدن ، وطوقت اليمن الشديد التخلف ، واقتسمت الصومال مع ايطاليا وفرنسا والحبشة ، وكبلت مصر بالقيود واستغلت أزمتها المالية فاحتلتها وفعلت فرنسا بتونس مثلما فعلت بريطانيا فى مصر ، وسعت فرنسا الى ابادة الاسلام أو المسلمين من الجزائر لتجعلها مقاطعة فرنسية وامتدت يد الاستعمار الفرنسى والبريطانى الى الشعوب الاسلامية فى غرب ووسط أفريقيا .

فكان أن بحث بعض المصلحين المسلمين أسباب هذا الضعف الذى أصاب الشعوب الاسلامية ، ووجدوا أن الدين نفسه ليس مسئولا عن ذلك وانما تغاضى الناس والحكام عن تعاليم دينهم ، واستبداد الحكام بأمور الشعوب دون الاستئناس برأى الشعب رغم

---

(١) أنظر الباب الثالث .

أن الدين الاسلامى ينص على أن الأمر « شورى بينكم » . فبدأ ظهور عدد من المصلحين الداعين الى انقاذ الشعوب الاسلامية مما وقعت فيه · وكان من أشهر هؤلاء المصلحين وأبرزهم « جمال الدين الأفغانى » ·

كان جمال الدين الأفغانى مصلحا اسلاميا ، لا يستقر له قرار · يذهب الى أى منطقة يشعر انها فى حاجة الى التحرك ضد التسلط الأوروبى ، وضد استبداد الملوك · وكان عدو الاستعمار الأول ، وكان له الفضل فى تأسيس الحزب الوطنى فى مصر فى أواخر أيام الخديوى اسماعيل باشا ، وكان يحث زعماء مصر الوطنيين على توطيد نظام الحكم فى مصر على اسس دستورية على اعتبار أن الحكم المطلق المستبد هو المسئول عن تدهور بلدان الشرق قاطبة ووقوعها تحت براثن الدول الاستعمارية الأوروبية · فكان طبيعيا ان اسرع الخديوى توفيق — عدو الحركة الدستورية فى مصر — الى طرده من البلاد ١٨٦٩ ·

كان الشاه ناصر الدين قد سمع عن جمال الدين الأفغانى ، وكان الشاه فى قرارة نفسه يريد أن ينقذ نفسه وبلاده من التسلط الأوروبى ، ولهذا دعا جمال الدين الى فارس فى ١٨٨٦ ، ولكن لم يطب المقام لجمال الدين هناك ، لأن نشاطه كان مقيدا · فغادر ايران ، ثم التقى به الشاه مرة أخرى فى ميونيخ فدعاه مرة أخرى الى طهران ، وهناك بدأ الأفغانى مرة أخرى نشاطه من أجل الاصلاح · وهو اصلاح يستهدف أمرين :

١ — التخلص من التسلط الأوروبى بكافة اشكاله عن طريق ترقية أحوال المسلمين الى مستوى العصر · وهذا ما كان يريده ناصر الدين شاه ·

٢ — اقامة حكم دستورى فى البلاد يرفع مستوى الشعب الى المسئولية الكبرى الملقاة على عاتقه فى مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وفى مجالات القوة العسكرية · وهذا ما كان لا يرضى عنه الشاه ·

ويوما بعد يوم كان الشاه يتأكد أن استمرار وجود جمال الدين الأفغانى فى فارس سيؤدى الى تكوين حزب قوى يدعو الى الاصلاح ، ويدعو الى القضاء على القوى المناهضة للاصلاح أيضا · ولهذا خشى رجال الشاه على انفسهم وعلى مستقبل وجودهم متسلطين على الناس ، وخشيت الدوائر الاستعمارية على احتكاراتها من أن تتهاوى بقوة نمو الحزب

الاصلاحى الذى كان يتكون حينذاك • ولهذا عزم الشاه على طرد جمال الدين الأفغـانى من البـــــلاد •

شعر جمال الدين بما يدبره له الشاه ، ولم يكن جمال الدين بالرجل الذى يختفى بمجرد سماعه بما يدبر له حتى ولو كان القتل • وكان يبحث عن كل وسيلة يستطيع بها الاستمرار فى دعوته ، وكشف حقائق استهتار الحكام بمقدرات الشعوب . ووجد أنه لو اتخذ مقرا له فى أحد مساجد ــ طهران ــ ذات المكانة الخاصة فى قلوب رجال الدين والشعب، لن يستطيع الشاه ــ وقد عزم على القبض عليه ــ الوصول اليه • ونفذ جمـال الدين الأفغانى خطته ، وتابع من مقره الجديد فى أحد مساجد طهران دعـــوته الى تقويض الاســـتبداد بالشعب •

وصلت نداءات الأفغانى الى أسماع الكثيرين ، وكانت البلاد مستعدة للتحرك ضد الاستبداد والاستعمار فى آن واحد . ومن ثم وجد رجال الشاه أنه لا بد من التخلص من هذا الداعية الشديد الوطأة على الحكم القاجارى ، فالقوا القبض عليه واخرجـــوه من فارس (١) ولكن حركة جمال الدين الأفغانى لم تكن لتنتهى بطرده من البلاد ، فلقد وضع اساس الحركة ، قد تضعف أو تشتد ، ولكنها أصبحت حقيقة لا يمكن تجاهلها • وبينما اعتقد الشاه ورجاله أنهم باخراجه قد تخلصوا ــ الى حد كبير من أكبر خطر يتهـــدد استمرارهم فى الحكم ــ كانت الحقيقة غير هذه •

ففى لندن ، وعلى صفحات جريدة (القانون) شن جمال الدين الأفغانى هجـــوما شديدا على الشاه • وكان يكتب فى هذه الجريدة عدد من ذوى الأسلوب النارى المعـادى للشاه وكانت هذه الجريدة تدخل خلسة الى فارس • ولهذا لم يتعد تأثيرها الدائرة المثقفة والجماعات المعادية للشاه من داخل البلاط القاجارى نفسه • وهى جماعات غير قادرة على احداث ثورة كبيرة ضد الشاه •

---

(١) بعد حياة غير مستقرة هنا وهناك يدعو الى تحرير الشعوب الاســـلامية من الاستعمار والملوك الطغاة استطاع السلطان عبد الحميد الثانى أن يدعوه الى الاســتانة (استنبول) ليعاونه فى الدعاية للجامعة الاسلامية ولكن استطاع الســلطان عبد الحميد الثانى أن يشمل عمل الأفغانى ونشاطه وظل هناك حتى توفى فى مارس / آذار ١٨٩٧ •

وبصفة عامة تنفجر القلاقل الشعبية والثورات بعد ان تتجمع الأزمات الاقتصادية والسياسية معا • ولقد أحدثت نداءات جمال الدين الأفغانى أزمة سياسية بين البلاط والشعب المثقف واحدثت الضرائب والضغوط — التى يتعرض لها التجار والرأسمالية على يد الشاه الذى كان يسعى الى ابتزاز الأموال منهم (١) — أزمة كانت كافية لتكوين ثورة على الشاه • وقد يبدو من هذا أن التجار والمثقفين هم الذين سيشنون حملة كبيرة ضد الشاه ، وضد الاستبداد ، وضد الاحتكارات الأجنبية • والحقيقة هى أن التجار عندما يثورون ، وعندما يطالبون بوقف سلطات الملك والبلاط عند حد انما يفعلون لخدمة مصالحهم بغض النظر عن مصالح الشعب ككل ، وهم فى ثورتهم ضد الملكية والبلاط ، وفى دفاعهم عن ثرواتهم مستعدون للتعاون مع أشد العناصر خطورة على مستقبل البلاد ، ونعنى بذلك المؤسسات الأجنبية السياسية والاقتصادية على السواء •

وعلى اى حال كانت سياسة الشاه ورجاله المالية سيئة للغاية وكانت هى المسئولة عما وقع فى البلاد من اضطرابات استغلتها المؤسسات الأجنبية والسياسية لمصلحتها ولتحقيق مآربها بالتعاون مع قوى الثورة ضد الشاه • وكان تبذير الشاه ورجال الحاشية خاصة خلال رحلاته الى أوروبا من عوامل التحرك الثورى ضد ناصر الدين الشاه •

فبينما كانت رحلات الشاه العديدة الى خارج البلاد ترافقه حاشية باهظة التكاليف — كان الشعب يتضور جوعا ، ويصور لنا احد الكتاب حالة البلاد فى عهده بأنها كانت كثيرة الثورات ، وكانت المحاصيل رديئة الانتاج « وكانت هناك معارك بين الناس على الخبز فى طهران ، وبسبب الجوع دارت المعارك فى شيراز وانتشرت مجاعة مروعة بين ١٨٧٠ — ١٨٧٢ •

واسوأ من هذا أن الشاه سار على سياسة اقتصادية خطيرة كانت تعطى للأجانب امتيازات كبيرة مثل ذلك الامتياز الذى حصل عليه الانجليز منه باحتكار الطباق (الدخان) ١٨٩٠ الأمر الذى أدى الى ثورة واسعة الهبها الأفغانى ومجتهدوا الشيعة ، وقاطع الشعب (الطباق) واضطر الشاه الى سحب الامتياز • وبعد سنوات قليلة لم يلبث ان سقط الشاه نفسه صريعا برصاص رجل ايرانى آمن بأفكار الأفغانى الاصلاحية •

---

(١) ليس معنى هذا أن هؤلاء التجار جمعوا أموالهم بالطرق المشروعة ، وانما هم كانوا يبتزون اموال الشعب •

(١٨٩٦) وتولى بعده مظفر الدين الشاه (١) • وفى عهده سارت ايران شوطا بعيدا فى سياسة عقد القروض من بريطانيا وروسيا •

وهكذا سارت ايران فى نفس الطريق الذى ادى بكل من مصر وتونس ومراكش (المغرب) والصين الى وقوع هذه البلاد اما تحت الاحتلال المباشر الأوروبى ، أو تحت التسلط غير المباشر •

وكانت ايران — مثل بقية تلك الدول — تسعى الى رفع مستواها الى مستوى النصف الثانى من القرن التاسع عشر • وكان القائمون بذلك حفنة صغيرة مؤلفة من الشاه والبلاط وكبار رجال الدولة ، فكان الأخذ بالمظاهر العامة للتحضر على النسق الأوروبى هو الأكثر وضوحا ، ولكن ذهبوا فى طريقهم نحو الافادة من اختراعات العصر الى حدود طيبة كان يمكن أن تؤدى الى نتائج جيدة تعود على الشعب كله بالفوائد لو لم تكن ايران بين براثن قوتين كبيرتين متنافستين على استغلال ايران لمصلحتها بغض النظر عن مستقبل الشعب الايرانى •

كانت الاستدانة هى السبيل الذى سلكه الشاه ورجال حكومته من أجل توفير الأموال ، ولننظر فى تطور هذه القروض وكيف أصبحت هذه القروض وسيلة للتحكم والتسلط الأوروبى وسببا من أسباب الثورة الوطنية •

ففى ١٨٩١ ، أى قبل مصرع ناصر الدين شاه بخمس سنوات ، كانت موارد الدولة تزيد قليلا عن مصروفاتها ، ولكن فى ١٨٩٢ عقد أول دين ايرانى فى لندن بواسطة البنك الامبراطورى الايرانى (البريطانى) وذلك لمواجهة تعويض (شركة الطباق) بسبب الغاء امتيازها ، وكان هذا التعويض يبلغ نصف مليون جنيه استرلينى • وتوالت القروض ، وتصاعدت الديون حتى بلغت فى ١٨٩٨ حوالى مليون جنيه استرلينى ، وفى نفس الوقت لم تكن مرتبات الموظفين ورجال الجيش قد دفعت بعد •

وفى ١٩٠٠ عقدت الحكومة الفارسية قرضا من بنك روسى بواسطة بنك دى جرو دى برس Banque de Grots de Perse وهو فرع لبنك الدولة الروسى • وكانت

---

(١) حكم من ١٨٩٦ — ١٩٠٧ •

القيمة الاسمية للقرض ٠٠٠ر٤٠٠ر٣ جنيها استرلينيا بضـــمان دخل جمارك ايران باستثناء جمارك اقليم فارس وجمارك موانىء الخليج ، على ان لا ينفذ هذا الشرط الا فى حالة العجز عن سداد الدين فقط ٠ ومع هذا فان مجرد وجود هذا الشرط كفيل بأن يؤكد كم كان مظفر الدين شاه ورجال حكومته مستعدين للتفريط لا باقتصاديات البلاد فقط بل وباستقلالها على نفس المستوى الذى كان عليه كل من الخديويين اسماعيل وابنـــه توفيق فى مصر ٠

لقد ادت تلك القروض الروسية الى نوع من الاشراف الروسى على اقتصـــاديات ايران ، ومع هذا كلما فرغت الخزينة ، وعاد الشاه من رحلتـــه فى أوروبا أسرع الى البحث عن قرض جديد ينقذه من اعلان الافلاس ٠ وفعلا قدم البنك الروسى قرضـــا جديدا ، وبلغت مجموع الديون الروسية فى ١٩٠٣ أربعة ملايين جنيه وتوالت القروض البريطانية على فارس خلال الفترة بين ١٩٠٣ ــ ١٩٠٥ ٠ وحيث أن « الجمارك الايرانية كانت تشكل المصدر الوحيد الذى يمكن اعتماده ضمانا لرد الديون فقد أثر ذلك فى الأمور التجارية والاعتبارات الدولية ٠ لذلك كان طبيعيا أن تكون مجالا للخلافات بين بريطانيا وروسيا ٠ وكانت الحكومة البريطانية ترى أن من أهم الأمور بالنسبة اليها أن لا تتسلط روسيا على جمارك جنوب ايران وانه اذا كان لا بد لهذه الجمارك أن تقــع تحت اشراف أجنبى فان ذلك يجب أن يكون لبريطانيا ٠ وأن روسيا يجب أن لا يكون لها من السيطرة فى سياسة ايران التجارية ما يجعلها تتحكم فى التعريفة الجمركية وذلك حتى لا تسخرها لصالح تجارتها وحتى لا تلحق الضرر بالمصالح البريطانية التجارية والسياسية ٠

هكذا بدأ الاصطدام بين القوتين الكبيرتين الطامعتين فى ايران ولكن كانت هنـــاك عوامل أخرى اشعلت من هذا التسابق التسلطى الاستعمارى بين الدولتين ٠ وتســابق المؤلفون والاستراتيجيون والدبلوماسيون فى اصدار الكتب والتصريحات بشأن الخطـــر الروسى على ايران ، وكان الروس هم الذين يشكلون خطرا أما الانجليز فلا يضـــعون أقدامهم فى ايران الا لحماية مصالح ايران وبريطانيا ٠ والواقع أن روسيا وبريطانيا كانتا على قدم المساواة من حيث الاطماع الاستعمارية والغرض من أثارة هذه الزوبعة هو تهيئة الأذهان الى التغير الذى طرأ على السياسة البريطانية ازاء فارس . فقد كانت بريطانيا من قبل تعمل على المحافظة على كيان الدولة الفارسية سليما لكى تكون عقبة شديدة أمام

التوسع الروسى جنوبا ، ولكن بعد ١٩٠٥ تبدلت هذه السياسة وأصبحت بريطانيا تفكر جديا فى أن يكون النصف الجنوبى تحت نفوذها اذا ما وضع الروس النصف الشمالى من ايران تحت سيطرتهم ٠

كذلك عكف المختصون الانجليز فى وزارات الحرب والخارجية وحكومة الهند البريطانية على دراسة امكانيات قيام روسيا بهجوم كبير على فارس ، ومدى تأثير مثل هذا الهجوم على المنطقة بأسرها من الهند الى مصر ٠ وكانت لدى الانجليز مخاوف من أن تهبط القوات الروسية من منابع دجلة الى شط العرب ، ومع ما فى هذه التوقعات من بعد عن الحقيقة ، فقد فكر الانجليز فى السيطرة على كرمنشاه لتكون قاعدتهم ضد أى وصول عسكرى روسى الى منطقة عربستان (المحمرة) وشط العرب والخليج العربى ٠

كذلك عنى الانجليز بدراسة احتمالات وصول قطع من الأسطول الروسى الى مياه الخليج العربى ، ولكن أكد بسهولة قواد البحرية البريطانية ان مثل هذه القطع ستكون عديم الجدوى أمام تفوق بريطانيا البحرى ، بل ستكون أسيرة الحصار البريطانى عليها ٠

لقد كانت حكومة روسيا القيصرية تتطلع حقيقة الى ان تصل الى مياه الخليج العربى عبر فارس والعراق ، ولكنها كانت تتخذ عدة وسائل لتحقيق هذا الهدف . وأيا كان الأمر الذى تهدف روسيا القيصرية الى تحقيقه من وراء الوصول الى الخليج العربى فالأمر المشكوك فيه جدا أن هذا كان هدفا رئيسيا من أهداف السياسة الروسية . وأن الأمر الذى لا شك فيه هو أن روسيا كانت تدرك أن سيطرتها على نصف فارس الشمالى هو ما يجب أن تعمل من أجله دون الاشتطاط وراء المخططات السياسية البعيدة الاحتمال وأغلب الظن أن مناورات الروس السياسية فى منطقة الخليج العربى فى أواخر القرن التاسع عشر كانت من قبيل الرد بالمثل على المناورات السياسية البريطانية فى شمال ايران ضد المصالح الروسية ٠ وعلى هذا يجدر بنا أن ننظر الى المشروعات الروسية فى جنوب فارس وفى منطقة الخليج العربى ٠

ولقد كانت هناك مشروعات روسية عن خط حديدى من الشمال الى الكويت ، وبالتالى كان الانجليز يفضلون القضاء على هذا المشروع فكان ذلك من أسباب عقد معاهدتهم المشهور مع شيخ الكويت ١٨٩٩ التى التزم فيها مبارك الصباح بعدم التنازل

عن اية قطعة من امارته بأية صورة لأية حكومة غير بريطانيا · وكانت سياسة بنـــاء السكك الحديدية — فى نظر بريطانيا — ستؤدى الى أن يصبح جنوب ايران هو الآخر تحت رحمة روســــيا ·

وحيث أن المانيا كانت هى الأخرى تســعى الى تنفيذ مشروع مماثل — بمد خط حديدى من برلين الى بغداد الى الكويت فان بريطانيا تكون بذلك قد ضربت باتفاقيتها مع الكويت عصفورين بحجر واحد · بل ذهب بعض الدبلوماسيين الانجليز الى فكرة ترك باب ايران مفتوحا أمام الألمان حتى يصطدموا هم بالروس هناك · وكانت المانيا قد بدأت توطد علاقاتها مع فارس وحصل بعض الألمان على امتياز من الشاه بمد خط حديدى من طهران الى خانقين ، فرحب بعض الدبلوماسيين الانجليز بذلك لضرب روسيا بالمانيا ·

ولكن اللورد كيرزون Lord Curzon — نائب الملك فى الهند — حسم الموقف وأعلن تصريحه المشهور بأن بريطانيا وحدها ، وليس اية دولة أوروبية أخرى ، هى التى يجب أن تظل صاحبة اليد العليا فى الخليج العربى ، وأنه على بريطانيا أن تمنع روسيا من أن يكون لها ميناء ارتكاز فى الخليج العربى ، ولا المانيا كذلك · وهدد بأنه اذا رفع الروس علمهم فى بندر عباس فسيفعل الانجليز ذلك فى جزر هرمز وهنجام وقشم التى تتحكم فى الخليج العربى بصفة عامة وبسواحل فارس بصفة خاصة · وشرعت أجهـــزة الاعلام فى بريطانيا تتحدث عن (حق) بريطانيا فى الخليج ، وعن أن بندر عباس « ميناء بريطانى منذ أيام شركة الهند الشرقية » وذلك ردا على تصاعد النفوذ الروسى فى طهران · فكان ذلك مقدمة لسياسة اقتسام كل من بريطانيا وروسيا للنفوذ فى ايران ·

ولا شك أن الحكم الملكى المطلق مسئول الى حد كبير عما تطورت اليه الأمور بسرعة فى ايران ، فلقد كان ناصر الدين شاه مستبدا بالأمور مسرفا فى رحـــلاته الى خارج البلاد ، وكان خليفته على العرش كذلك · بل كان أشد منه · كان مظفر الدين شـــاه (١٨٩٦ — ١٩٠٦) لا يتمتع بأية خبرة تجعله أهلا لقيادة البلاد فى خلال الأزمة الطاحنة الاقتصادية والسياسية التى اصبحت تعيشها ايران بمرارة · وحيث أنه كان غير معنى بانقاذ البلاد من الافلاس المالى الذى كانت تعانيه ، فقد كان رجال حاشيته وكبار موظفى الدولة على نفس المستوى من اهدار مصالح البلاد المالية فى سبيل الاثراء · وكانت فرص

الاثراء أمام حكام الولايات واسعة للغاية ، حيث أن حاكم الولاية كان سـيدها المطلق ، وكان هو المسئول أمام الشاه عن المبلغ المقرر على ولايته لتدفعه سنويا الى خزينة الشاه ، والحاكم من بعد ذلك أمامه فرصة كبيرة — دون رقابة واضحة — لجمع مبالغ كثيرة من الأهالى لجيبه الخاص ٠

وانتشر بسرعة الفساد بين موظفى الدولة ، وخاصة بين الصغار منهم ، اذ كانت مرتباتهم لا تدفع اليهم بانتظام ، وكان الطريق المعروف لدى الموظف لتأمين حياته هو الحصول على الرشاوى ٠ ومن أجل ابتزاز عدة مئات من التومانات (١) كان بعض الموظفين لا يتورعون عن تقويض العمل فى بعض المشاريع الاقتصادية .

وكانت خزينة الشاه لا تختلف عن خزينة الدولة حتى ذلك الوقت ٠ وبالتالى كان هناك تشديد فى جمع الأموال ، كما كان هنـاك تراخى واضح فى تنفيـذ المشروعات الاقتصـادية ٠

وكانت الرأسمالية الوطنية الناشئة ، وكبار الملاك هم أقدر القـوى الاقتصادية — بعد الشاه — على القيام باصلاحات ذات أثر فى انقاذ البلاد من التدهور الاقتصادى ، ولكن هذه الرأسمالية الوطنية وكبار الملاك كانوا على مستويات متدنية من الفـكر الاقتصادى ، كما أن الفكر العشـائرى كان هو الذى يسيطر على معظم أثرياء وملاك ايران حينذاك ٠

ولقد انتشرت روح التذمر بين أفراد الشعب ، واندلعت ثورات محلية ضد تعسف رجال الشاه ، وطلبا لقطعة خبز ، كما ان الجماهير الفارسية عانت من نقص فى قيمة النقد أدت الى ارتفاع تكاليف المعيشة الى درجات خطيرة ٠ ومما زاد من هذه الأزمة النقدية حدة تلك المضاربات المالية التى كانت تتعرض لها العملة النحاسية ٠ وكان الشعب يقارن بين حالته التى تردى فيها والشاه الذى يسافر من سنة لأخرى الى أوروبا ، وكبـار الموظفين والملاك الذين يزدادون ثراء بينما يزداد الشعب فقرا ، وبينما كان الموظفـون الأجانب (البلجيكيون) يحصلون على المرتبات العالية ، والبيوت المالية البريطانيـة والروسية تحصل على الأرباح الخيالية دون اى اعتبار لمستقبل البلاد كان التجـار

---

(١) التومان عملة ايرانية ٠

والشعب يجد من العسير عليه دفع الضرائب أو منافسة هؤلاء الأجانب الاحتكاريين لمصلحة الشعب فلقد سيطر الانجليز سيطرة شبه كاملة على اقتصـــاديات موانى فارس المطلة على الخليج العربى ؛ وحول الروس تجارة افغانستان — الذاهبـــــة الى ايران — الى روسيا · واقفلت فى وجه الرأسمالية الوطنية الفارسية أبواب العمل وفضلا عن ذلك زاد الحاح الحكومة على جمع الضرائب المتزايدة سنة بعد أخرى ·

حقيقة كانت هناك أعمال اصلاحية مجدية قام بها شاهات فارس ، ولكن هنـــاك فرق شاسع بين الاصلاحات العشوائية العفوية ، والاصلاحات الشاملة وهذا النــــوع الأخير هو الذى كان يعوز الشاهات والصدور العظام الفرس ·

وحيث أن مثل هذه المشاريع الشاملة الاصلاحية هى التى كانت قادرة على نقـل الطبقة الفقيرة — التى تمثل اغلبية الشعب — الى مرتبة أكثر تقدما،وحيث أن الاصلاحات كانت عفوية فقد عاش الشعب الفارسى فى بؤس شديد · ولكن فى أواخر القرن التاسع عشر كانت هناك وسائل عديدة يمكن أن يعبر الشعب بواسطتها عن آلامه وهى وسائل لم تكن متوفرة من قبل ، واعنى بذلك ظهور الصحافة (١)،وتطور أساليب الكتابة والتأليف والنشر بما جعل الأفكار الغربية أكثر انتشارا بين أفراد الشعب · هذا فضلا عن نمو عدد المدارس ، وظهور جماعات من المثقفين الراغبين فى انقاذ الشعب من احواله المتدنية ، ومن استبداد الشاه ، وفى ادخال أساليب الحكم الحـديثة (الديمقراطية) البرلمانية فى ايـــــــــران ·

وهكذا ، فى الوقت الذى كانت فيه تلك المشاعر الاصلاحية تنتشر بسرعة بين افراد الشعب الايرانى ، كان التغلغل الاقتصادى الأوروبى — الروسى والبريطانى — يتصاعد بشكل يضر ضررا مباشرا بالدخل البسيط للمواطن الايرانى ، ويجعل ميزان الصادرات والواردات لصالح الروس والانجليز بصفة خاصة ·

ولقد كانت هذه الأحوال المالية المتدهورة سببا فى أن يعيد كبار موظفى الشاه النظر

---

(١) ليس معنى هذا أن الصحافة كانت تدخل كل بيت تقريبا كما هو الحـال الآن وانما كانت لا تزال محدودة الانتشار جدا ، ومع هذا كان لها دور هام فى نشر الأفـــكار الحرة بين المثقفين بصفة خاصة ·

فى سياستهم المالية ، فظهرت بعض النظريات القيمة فى هـذا الصدد مثلما حدث ١٨٩٨ عندما أعلن أحد المصلحين الاداريين الفرس فى ١٨٩٨ — وهو أمين الدولة — ضرورة فصل أجهزة الصرف فى الحكومة عن أجهزة تحصيل الضرائب والأموال ، وبذلك يمكن أن توضع موازنة (ميزانية) واضحة الى حد ما امام المسئولين • ولكن هذا الاقتراح لم يلق موافقة من المسئولين• كذلك يلاحظ أنه فى الوقت نفسه طلب أمين الدولة فى معرض خططه لانقاذ البلاد من الافلاس فرض ضريبة جديدة على الأرض الزراعية وتخفيض الجيش النظامى وتكوين شرطة نظامية •

ومعنى هذا أن هذا المصلح ألقى مثالب واخطاء الشاه ورجاله على كاهل الشعب الفقير ، وهذا هو أسلوب الفكر الاصلاحى التقليدى حينذاك الذى يضع الشعب فى خدمة البلاط ، ويحمل الشعب مسئولية أخطاء الحاكم المستبد •

كذلك يلاحظ أن تخفيض عدد الجيش النظامى كان بلا شك سيؤدى الى تخفيض ملحوظ فى مصروفات الدولة ، ولكن هل كان هذا مقبـــولا فى وقت كانت فيه الدولة الفارسية تشعر بضغوط عسكرية متعددة من جانب كل من روسيا وبريطانيا ؟ حقيقة كان الجيش الايرانى طوال تلك الأزمة أضـــعف من أن يصمد أمـــام أى من القوتين البريطانية والروسية• ولكن مجرد التفكير فى انقاص نفقات الجيش — وتجريده من فرص التطوير — من أجل انقاذ ميزانية (الشاه) من التدهور يعتبر — فى اعتقادنا — أسـوء مثال على أساليب الاصلاح وعلاج مشاكل الدول التى تعانى من مثل ما كانت تعـــانيه فـــــــــارس •

بلغت الأحوال فى ايران درجة الغليـــان والتمرد فى الفترة الواقعة بين ١٩٠٤ — ١٩٠٦ ، وكان فى استطاعة الشاه ورجال حكومته أن يضربوا بقوة أولئك الذين يعلنون تمردهم وسخطهم ، وكان الحكام الفرس « ملكيون أكثر من الشـــاه نفسه » • وكانت قوى المثقفين فى المدينة غير قادرة على تكوين جبهة وطنية كبيرة قادرة على التصـــدى لاستبداد الشاه • ولكن كانت هناك مؤسسات وهيئات أجنبية فى داخل ايران مستعدة لأن تضفى حمايتها على أولئك المتمردين ضد الشاه مثل السفارة الانجليزية والروسية ، كما كانت العتبات المقدسة الشيعية فى العراق معقلا من معاقل المعارضة ضد الشاه ، ولا يمكن له ولا لرجاله من الوصول اليها بسيف الانتقام •

وعندما شعر الشاه مظفر الدين أن القلاقل توشك أن تنفجر أسند الحكم الى رجل مخلص له هو (عين الدولة) • وكان الرجل يضع مصالح الشاه فوق مصالح الأمة • وكان شديد الوطأة على كل من يتحرك ناقدا تصرفات الشاه أو الحكومة • وأدت سياسته المالية الجائرة ، وأساليب العنف والقسوة ضد التجار الى ان يعلن هؤلاء نوعا من العصيان المدنى وزادت حدة الحركة بسبب تزعم رجال الدين لتلك الثورات المناهضة لسلطة الشاه المطلقة • واعتصم بعضهم فى المساجد ، وبدأت الأمور تتحرج (ديسمبر — كانون أول ١٩٠٥) • ووجد الشاه ان الأجدى له هو ان ينحنى للعاصفة فأقال (عين الدولة) واصدر بعض القرارات الاصلاحية ، ومرت الأزمة الأولى بسلام • ولكن كل من الطرفين كان يتوجس خيفة من الآخر وبدا واضحا أن الشاه يستعد لتوجيه ضربة قاضية ضد الحركة الشعبية عندما عاد (عين الدولة) الى منصب الصدارة ، بينما كان الشاه يعانى مر المعاناة من مرض شديد ألم به ١٩٠٦ •

لقد كان (عين الدولة) فعلا يضمر ضربة شديدة للمعارضين له وللشاه ، واستعد لتنفيذ سياسة قمع متطرفة ، وامتدت يده هذه المرة الى مجتهدى الشيعة وادى ذلك الى انتشار روح الثورة ، وامتلأت بعض المساجد بالمعتصمين بها ، بينما قامت القوات الفارسية بمحاصرة هؤلاء ، وضيقوا عليهم حتى وجد المجتهدون أن من الأوفق لنجاح حركتهم أن يغادروا طهران الى « قم » • وعندما كانوا فى طريقهم الى المنفى حذروا الشاه من أنه اذا لم يصدر دستورا،ويشكل حكومة برلمانية يمثل فيها الشعب فانهم سيغادرون البلاد • وكان هذا التهديد خطيرا حيث أن المجتهد صاحب مكانة دينية كبيرة لدى الشيعة وخروجهم كلهم مرة واحدة سيترك البلاد معطلة من حيث تنفيذ احكام الشرع كما سيؤدى هذا الى تكوين جبهة قوية ضد الشاه خارج البلاد •

وفى طهران استمرت الأزمات بين (عين الدولة) والتجار الذين كانوا يصرون على تضامنهم مع المجتهدين ومع دعاة الاصلاح ، فاغلقوا حوانيتهم ، واوقفوا المعاملات التجارية ، وعندما هددهم (عين الدولة) بفتح محلاتهم بالقوة ، طلبوا الالتجاء الى المفوضية البريطانية • وهنا وجدت الحكومة البريطانية ان تقف بجانب الحركة الوطنية ضد الشاه ، وفعلا قبلت دخول حوالى ثلاثة عشر ألف مواطن ايرانى الى المفوضية البريطانية فى طهران • وبدت وكأنها اصبحت معقل الثوار على الشاه • واصبحت مكانة

الشاه وحكومته متدهورة بشدة أمام العالم ، ولذلك آثر الشاه مرة أخرى أن يوافق على طلبات الثوار ، فأبعد (عين الدولة) عن الحكم ، واسس نظاما قضائيا حديثا ، وعمل على عودة المنفيين فى (قم) ٠

اما وقد تراجع الشاه أمام الثورة ، فعلى الثوار أن يخطوا الخطوة التاليــة الأكثر اهمية وهى التركيز على مطالبة الشاه بأن يصدر دستورا للبلاد،وان يدعو مجلسا برلمانيا منتخبا الى الانعقـــــاد ٠

ولم يكن الانجليز فقط هم الذين يؤيدون هذه الحركة الدستورية ، بل كذلك كانت السفارة الروسية تؤيد هذه الحركة ٠ وذلك نتيجة لتطورات وقعت فى داخل روســــيا نفسها ٠ فقد هزمت روسيا فى حربها ضد اليابان (١٩٠٤ / ١٩٠٥) ، واشتدت المطالبة من جانب الشعب بتحقيق حكم برلمانى ٠ وكان هناك سبب جوهرى آخر يدفع الروس الى التعاون مع الحركة الدستورية فى ايران ٠ فقد كان نجاح رجال السفارة البريطانية فى جذب تلك الأعداد الغفيرة من الايرانيين التقدميين اليها، يعنى أن تلك السفارة أصبحت حامية للدستوريين ، فتصبح فى أعين الشعب الايرانى فى مستوى أعلى من مـــــكانة السفارة الروسية ٠

ولقد كان الدور الذى لعبه رجال السفارة البريطانية — فى هذه الأزمة بين الشاه وشعبه — كبيرا ٠ فلقد رفض الدستوريون التفاوض مباشرة مع الحكومة ، وبعد وساطة الممثل السياسى البريطانى فى طهران أصدر الشاه أول فرمان بشأن الحياة البرلمانية فى البلاد ، ذهب مارك سايكس — فى كتــابه عن فارس — الى مقــارنته بالعهـــد الأعظم الانجليزى الذى صدر فى منتصف القرن الثالث عشر ٠ وقد ورد فى فرمان الشاه سالف الذكر انه من أجل طمأنينة الرعية وسلامتها ، ومن أجل تقوية تماسك مؤسسات الدولة ستجرى اصلاحات شاملة فى البلاد ٠

وفيما يتعلق بالحكم الدستورى أشار الشــــاه الى الحاجة الى مجلس منتخب من ممثلى الشعب ٠ ولقد حدد الشاه فى الوثيقة من له حق الانتخاب وهم :—

١ — الأمـــراء .
٢ — المجتهدون .
٣ — الأسرة القاجارية .
٤ — الأعيـــان .
٥ — المـــلاك .
٦ — التجـــار .
٧ — أصحاب الحرف .

كما حدد الشاه مكان اجراء الانتخابات بطهران .

وحدد الشاه اختصاصات هذا المجلس التمثيلى، بأن له الحق فى الاستفسار والبحث والتدقيق فى كل أمر يتعلق بمصالح البلاد والشعب ، وسيقدم المساعدة اللازمة لمجلس الوزراء فى مجالات المشاريع التى تخدم تقدم الشعب ورفاهيته .

وحدد الشاه كذلك اسلوب تقديم توصيات وقـرارات المجلس التمثيلى ، اذ أصر الشاه على أن تقدم اليه مثل هذه التوصيات عن طريق رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) ليوقعها الشاه حتى تصبح سارية المفعول .

ان هذا الفرمان الشاهانى فى الواقع يضع بداية هزيلة للحكم الدستورى. فالمجلس المنتخب سيكون ألعوبة فى يد الشاه ، حيث أن من له حق الانتخاب معظمهم من انصـــار الشـــــــــــاه .

ومن ناحية أخرى ، كان الشاه يضع فى يده حق اصــــــدار التشريعات ، وبذلك يستطيع أن يشل عمل المجلس . ان قيمة هذا (العهد الأعظم) هو أنه فتح باب العمل الايجابى فى اتجاه الحكم الدستورى ، وباب تكوين الأحزاب السياسية .

وفعلا صدر الدستور ، ولكنه ظل تحت سيف الشاه ورجاله ، الأمر الذى سيؤدى الى تعقيد المواقف فى ايران بعد ذلك .

ويجدر بنا هنا أن نشير الى وجهة نظر أوروبية شبه محايدة الى ذلك الدســـتور الذى أصدره الشاه مظفر الدين ، والى التطورات التى لابست اصداره .

يقول المؤرخ الفرنسى رنوفن :

« الم يضمن دستور ٨ اكتوبر (تشرين اول) ١٩٠٧ الحريات الشخصية والحريات السياسية ، ويعلن مبدأ فصل السلطات ، وينشىء حتى نظام برلمانى ؟ ٠٠ والحكومة الم تستدع مستشارين اجانب لاعادة تنظيم المصالح الادارية ، والقانونية والمالية ؟ ولكن هذا التقليد ظل سطحيا ٠ ولكى نقيس التشويه الذى يصيب الآراء السياسية الأوروبية، يكفينا أن نرى مدى ثقل السلطات الدينية ، فى الحياة البرلمانية الفارسية : فالدستور كان يمنح للعلماء حق الاعتراض على القوانين التى يصدرها المجلس الوطنى ، فى حالة اذا ما راوا ان هذه القوانين التى يصدرها المجلس الوطنى تتعارض مع المبادىء المقدسة للاسلام » [1] ٠

وفى اعتقادنا أن المشكلة هنا ليست فى اعتراض رجال على بعض القوانين المنافية للتشريع الاسلامى ، ولكن فى مدى استخدام رجال الدين لهذا الحق وفرض اتجاهاتهم السياسية — تحت ستار الدين — على البلاط والشعب خاصة وان رجال الدين — رغم انهم كانوا فى طليعة الثوار ضد الشاه — لم يكونوا حينذاك قد بلغوا درجة من العلم الحديث ما يمكنهم من احداث نقلة حضارية فى البلاد الفارسية ٠

كذلك نلاحظ أن رجال الدين بتعاونهم فى ذلك الوقت مع التجار ضد الشاه قد وضعوا انفسهم — دون ادراك حقيقى — فى خدمة مصالح الراسمالية الوطنية المتعاونة مع المؤسسات الأجنبية الاستعمارية فى ايران ٠

وعلى اى حال ، لم يعش الشاه مظفر الدين بعد توقيعه الدستور الا فترة قصيرة ، فقد كان اشتد عليه المرض حتى انه حضر حفلة افتتاح المجلس التمثيلى بصعوبة بالغة ٠ وبعد وفاته اسند العرش الى الشاه محمد على (يناير ١٩٠٧) ٠ وكان أن دخلت الحركة الدستورية الوطنية فى مرحلة جديدة ودقيقة ٠

كان محمد على شاه يدرك أن التطور الدستورى يعنى أن عمر اسرة القاجار فى الحكم اصبح قصيرا ، وكان فى نفسه يرى ان الحكم المطلق هو الخير لبلاده ، وبالتالى فعليه أن يركز كافة السلطات فى يده لا فى اية مؤسسة أخرى،ولهذا عمل على تعطيل المجلس النيابى

---

(١) يقصد الشريعة الاسلامية ٠

وعلى الغاء الدستور ، وكان يدبر القضاء على البرلمان وعلى الحركة الدستورية عندما وقع الوفاق الروسي البريطاني بشأن اقتسام فارس (١٩٠٧) ٠

كانت الهزيمة الكبيرة التى منيت بها روسيا على يد اليابان ، عاملا جوهريا فى ان تركز روسيا جهودها التوسعية فى اتجاه فارس بالذات ٠ وكان هذا الاتجاه الروسى يعنى حربا بين روسيا وبريطانيا اذا وصلت الأمور الى حد المواجهة ٠ وكانت روسيا وكذلك بريطانيا لا ترغبان فى وقوع هذا الصدام بينهما ٠ حيث أن وقوع حرب بين بريطانيا وروسيا سيجعل العلاقات البريطانية الفرنسية فى منتهى التدهور ٠ وهو أمر كانت تتجنبه الحكومة البريطانية خاصة منذ ان عقدت مع حكومة فرنسا الوفاق الودى ١٩٠٤ الذى يطلق يد فرنسا فى مراكش ، ويد بريطانيا فى مصر ٠ ومن ثم كان لا بد من ايجاد تسوية معقولة بين القوتين المتنافستين فى ايران ٠ وحيث ان فرنسا كانت متحالفة مع روسيا ضد الخطر الألمانى الذى يهددهما معا ، وحيث ان فرنسا كانت متعاقدة مع بريطانيا فيما عرف بالوفاق الودى ، قامت الحكومة الفرنسية بدور الوسيط بين الحكومتين الروسية والبريطانية لتسوية ما بينهما من مشاكل بنفس الطريقة التى أدت الى تسوية ما بين بريطانيا وفرنسا من مشاكل فى ١٩٠٤ ٠

وفوق هذا وذاك ، كانت بريطانيا قد ادركت تماما أن الخطر الحقيقى الذى يهددها هو نمو قوة المانيا البرية والبحرية ، وبالتالى فان وقوع أى صدام بين بريطانيا وروسيا فى اية منطقة احتكاك بينهما لن تخدم الا المصالح الألمانية ٠ فكان ان عزمت كل من الحكومتين البريطانية والروسية على تسوية المشاكل المعلقة بينهما فى فارس عن طريق اقتسام مناطق النفوذ فيها ، وصدرت بيانات بذلك فى ١٨ ، ٣١ أغسطس ١٩٠٧ ٠ والطريف انه فى هذه البيانات تصر على تأكيد قوى ووطيد بشأن احترام سلامة واستقلال فارس ، وتنتقل من هذه التأكيدات الى اقتسام فارس ، الجزء الشمالى لروسيا ، والجنوبى لبريطانيا ، وقسم فى وسط البلاد للشاه ٠ وهكذا كان مصير القوى الشرقية بصفة عامة لأنها لم تكن على مستوى قوة الدول الأوروبية عسكريا او اقتصاديا أو حضاريا ٠

حقيقة كانت أغلبية الشعب لا تضع ثقتها فى القوى الأجنبية ولا فى الشاه وبلاطه

وانما كانت الجماعات المثقفة فقط هى التى ترى فى المساندة الأوروبية قــوة تستطيع (الاعتماد) عليها ضد سياسة الشاه الجديد الاستبدادية · ولهذا مرة أخــرى وضعت السفارة البريطانية يدها فى يد التقدميين ضد الاستبداد الشاهانى · وتجلى هذا عندما احتدمت الأزمة بين الشاه محمد على والمجلس النيابى بشأن حق الأخير فى مناقشـــة القضايا المتعلقة بخزينة الدولة فى الوقت الذى كانت فيه أنباء الوفاق الودى البريطانى الروسى قد أصبحت معروفة فى الأوساط الدولية والايرانية · لقد عرفت الســفارة البريطانية كيف تنفذ هذا الوفاق الودى بين روســيا وانجلترا فى نفس الوقت الذى احتفظت فيه بالتعاون بين التقدميين والسفارة البريطانية فى طهران · هذا الاتجاه العام الانجليزى نحو تأييد تلك الحركة الدستورية الوطنية ضد الشاه جعل الحكومة الروسية ترى أن من مصلحتها أن تقف الى جانب الشاه ضد الدستوريين ، وذلك فى لعبة توازن القوى بين الدولتين المتفقتين على استغلال فارس ·

ومن ثم كان هذا التقسيم فى القوى الوطنية هو جزء من السياسة العامة التى كانت تطبق فى ايران على يد الانجليز والروس · وليس معنى هذا أن الانجليز بسبب اتجاهاتهم البرلمانية ، وبسبب ايمانهم بالتحرر على أسس دســتورية هو الذى دفع الانجليز الى الوقوف بجانب الحركة الدستورية الناشئة فى ايران وليس بصحيح أيضا أن روســيا وقفت بجانب الشاه لأنها كانت تؤكد على حقوق الملك فى الحكم والسيطرة · ان المسألة لا علاقة لها بتلك الأمور الا من حيث المظهر · فكأساس لا يمكن أن يتفق الاستعمار مع الحكم البرلمانى ، فهما على طرفى نقيض · ان السياسة البريطانية المؤيدة للحــركة الدستورية مجرد اساليب للتحكم والسيطرة البريطانية على البلاد ، ولقد سبق ان قامت حركات برلمانية أكثر تقدما من تلك التى ظهرت فى ايران ، ووقفت بريطانيا بكل قــوة وعنف ضدها · بل لقد حشدت بريطانيا جيوشها وأساطيلها للقضاء عليها وتم لها ذلك فعلا فى مصر عندما قامت الحركة العرابية بزعامة احمد عرابى مطالبة بالحكم الدستورى· فى البلاد لمدة نصف قرن تقريبا ·

ان الهدف الانجليزى الروسى كان استمرار التقسيم الاســتعمارى لايران ، ولا قيمة لطبيعة العلاقات الروسية أو البريطانية بالقوى الحاكمة أو المحكومة الا من حيث تأثيرها على استمرارية هذا التقسيم ·

لم يكن فى استطاعة الشاه محمد على أن يوقف الحركة الوطنية ، أو يوقف سيل المنشورات المتدفق عبر الحدود العراقية الايرانية • فقد تحولت العتبات المقدسة الشيعية فى العراق الى مراكز ثورية شديدة الوطأة على الشاه وبلاطه ، وعلى روسيا وبريطانيا • وكانت هذه هى أعقد المعضلات التى تواجه الشاه ورجاله ، وطالبت الحركة الوطنية والمجلس النيابى الشاه بأن يستبعد مستشارية الذين وضعوا البلاد على حافة الاحتلال الكامل • وكان الشاه يدرك أن هدف المجلس هو أن يفرض كلمته عليه ، وكان الشاه مستعدا لأن يبعدهم ولكن فى مقابل ذلك طالب رجال الحركة الوطنية أن يوقفوا الحملة العنيفة التى يشنونها ضده فى الصحف ، وفى مختلف مجالات الدعاية • وفى مثل تلك الظروف — التى يجد فيها الجناح الدستورى تأييدا من جانب الانجليز ، ويجد الشاه تأييدا من جانب الروس — لا يمكن التوصل بسهولة الى اتفاق نهائى خاصة وأن الشاه كان مستعدا لأن يسحب كلمته فى أية فرصة تحين له لتوجيه ضربة قاضية للحركة الوطنية •

ولذلك وجد الشاه أن الفرصة مواتية لضرب الحركة الوطنية عسكريا ضربة سريعة حتى لا تكون لديها الفرصة لتمويل المعارضة الدستورية ، والمظاهرات الى حركة مسلحة ضده • وكان مستشارو الشاه يؤكدون له باستمرار أنه كلما تأخر فى ضرب الحركة الوطنية عسكريا أعطاها الفرصة لتوطيد نفسها وتكوين قوة تستند اليها ضد قوات الشاه ، خاصة وأن السفارة البريطانية مستعدة لتمويل الحركة الوطنية بالأموال والسلاح •

استعد الشاه ليضرب ضربته ، وقوى صلاته بالدوائر الروسية التى كانت ترى فى انتصار الشاه انتصارا لسياستها هى فى ايران على المنافس الآخر (بريطانيا) • والواقع ان بريطانيا كانت معنية بتطورات الأحداث فى طهران بدقة ، ولكن دون أن تتحرك بقوة طالما كانت المسائل محصورة بين الشاه والدستوريين • ولكن خلال استعدادات الشاه لضرب الحركة الوطنية فى طهران بدأت الأمور تسير مرة اخرى نحو التعقد ونحو تصادم المصالح البريطانية الروسية فى المنطقة •

أراد الشاه ان يوجه ضربته الأولى الى الوزراء ، واعادة الحكم كله الى يده هو ، فألقى القبض على عدد منهم ، ويقال أنه كان يستعد لتنفيذ حكم الاعدام فيهم ، لولا ان

علمت السفارة البريطانية فى طهران بالأمر ، فاسرع أحـــد موظفيها — المستر تشرشل السكرتير الشرقى بها — الى مقابلة الشاه فى قصره ، وظل وراءه حتى جعله يعـــدل عن تنفيذ انتقامه المروع الذى كان من الجائز جدا أن يثير فى كل البلاد الايرانية حركة ثورية ليس من اليسير على الشاه أو على الانجليز انفسهم السيطرة عليها الأمر الذى يشـكل خطرا على الوجود الاستعمارى البريطانى (الهادىء) • ولكن الشــــاه ظل يبحث عن الاساليب التى يستطيع بواسطتها القضاء على الدستور وعلى الدستوريين • وقـرر فى نهاية الأمر أن يستخدم القوة ضد المجلس التمثيلى وبعث بقوة عسكرية ضد المجلس ، وأخذت هذه القوة فى ضربه بالقنابل ومع أن الموظفين المدافعين عنه كانوا غير مدربين الا أن حماسهم الشخصى جعلهم يصمدون مدة طويلة نسبيا امام القصف •

خلال هذه العملية بدت الأمور تتعقد • فقد كان الشاه يدرك أنه لا يستطيع الاعتماد على القوات الفارسية وحدها فى تنفيذ عملية ضرب البرلمان • وكان يرى أن اســـتخدام القوات الروسية لا يجعله فقط مطمئنا الى تنفيذ الخطة كما يريدها ، وانمـــا يغرس فى نفوس المدافعين عن البرلمان بعدم جدوى الصمود أمام قوات روسية مدربة • ولقد وافقت السفارة الروسية على أن تشارك القوات الروسية — التى كانت فى خدمة الشاه — القوات الفارسية فى تحركاتها وفى استعداداتها ، ولكن كانت تعليمات السفارة الروسية صريحة لقائد القوات الروسية بأن لا يشترك فى القتال الا بعد الحصول على موافقة منها •

ان السبب فى امتناع السفارة الروسية عن السماح لقواتها الموضوعة تحت يد الشاه فى تلك الأحداث يرجع الى اعتراض السفارة البريطانية على ذلك حيث أن الوفاق الروسى — البريطانى يقضى بأن المنطقة الوسطى المتروكة للشاه يجب أن لا تتفوق أى من بريطانيا أو روسيا فيها تفوقا يضر بمصالح الطرف الآخر • وفعلا سارت الأمور حسب ما كانت تريده كل من الســـفارتين •

لم يؤد ضرب الشاه للمجلس بالمدافع ، وظهوره متفوقا فى هذه الحادثة ، الى حسم الموقف بل بات الدستوريون يؤمنون بان هذا الشاه يجب أن يخلع أو يقتل • وحيث أن الشاه كان موافقا على ترك التفوق الروسى البريطانى فى البلاد دون اعتراض من جانبه فقد كان من مصلحة الطرفين الروسى — البريطانى أن تستمر الأزمات الدستورية دون أن تصل الى حد خلع الشاه الا فى ظروف ملائمة لمصلحتيهما • ولذلك عندما اتجهت بعض

الجماعات السرية الى قتل الشاه بالقاء قنبلة عليه فى أول حزيران / يونيو ١٩٠٨ وجـه الطرفان البريطانى والروسى انذارا الى رئيس المجلس النيابى بتحميله مسئولية حوادث العنف ضـد الشـاه ٠

وجد الشاه أن فرصته الأخيرة فى استعادة حكمه المطلق تتركز فى أن يضع نفسه فى جانب الروس الذين كانوا يؤكدون له انهم مستعدون للقتال بجانبه ضد الدستوريين ، بينما كان الانجليز يقفون بقوة الى جانب هؤلاء ٠ وهذا يفسر لنا لماذا فر الشاه من طهران فى أوائل حزيران / يونيو ١٩٠٨ الى قزوين فى أقصى الشـمال ، وهى منطقة واقعة — بمقتضى الوفاق الروسى — البريطانى تحت تسلط الروس ٠ فيستطيع منها الشاه أن يعيد تنظيم قواته ، ويعيد النظر فى امكانياته المالية عن طريق عقد القروض من الروس الروس الذين كان يعتقد أنهم لن يبخلوا عليه فى هذا الموقف ٠ ولقد اثبت الروس أنهم فعلا يعملون على تثبيت الشاه محمد على على العرش ، وحثوا الحكومة البريطانية على انتهاج سياسة مماثلة ، وطلبوا منها اصدار بيان مشترك روسى — بريطانى بشأن حماية الشاه وحق الأسرة الفاجارية فى العرش . كذلك احتج الشاه لدى الحـكومة البريطانية على معوناتها وتأييداتها للحركة الوطنية المتمردة على السلطات (الشرعية) ، وعلى اصرار الحكومة البريطانية وسفارتها فى طهران على ضرورة اقامة نظـام برلمانى يحـد من سـلطات الشـاه ٠

ولكن الحكومة البريطانية رفضت أن تسير فى نفس الاتجاه الذى كان يريده الروس والشاه ٠ وكانت حجة الحكومة البريطانية فى ذلك هى أن الشعب الايرانى يعارض مثل هذه الاتجاهات الاستبدادية ٠ والواقع أن الحكومة البريطانية كانت تؤيد الحـركة الدستورية ، خاصة وان هذه الحركة كانت ضد الشاه وضد الروس ٠ كذلك كان الانجليز لا يقدمون الى الدستوريين الا معونات محدودة للغاية ، وتجلى ذلك فى موقف السفارة من طلب الدستوريين من الانجليز التدخل ضد الشاه وضد الروس ، خاصة عندما أسند الشاه حكم طهران الى الضابط الروسى لياخوف (١) وعندما اطلق هذا الضابط مدافعه على مجلس النواب وعلى الجامع الكبير فى طهران ٠ فقد أكد المسـئولون للدستوريين

(١) Liakhoff

الايرانيين ان « لياخوف » حقيقة روسي المولد ، ولكنه في تلك الفترة كان في خدمة الشاه ويعمل له ، وبالتالي فالحكومة الروسية ليست مسئولة عن أعماله ، فهو موظف لدى الشاه ومسئول أمامه فقط .

ولكن من جانب آخر ، كانت السلطات البريطانية ترى في اسناد حكم طهران الى « لياخوف » ، وفي قيادته لوحدات فارسية على مقدرة متقدمة في العمليات العسكرية من الأمور التي تعطى لروسيا تفوقا في طهران . ولهذا بذلت الحكومة البريطانية مساعيها لدى الحكومة الروسية من أجل سحب لياخوف وغيره من الضباط الروس العاملين في خدمة الشاه من الخدمة العسكرية الايرانية . ولكن باءت محاولات الانجليز بالفشل . واستمرت سياسة الشاه العنيفة ضد الدستوريين ، فزادت حركة الاعتقالات شدة ، وشرد زعماء الحركة الوطنية ، وأغلقت معظم الصحف في طهران .

هذه الاجراءات العنيفة من جانب الشاه ولدت تذمرا عاما . وكانت السلطات البريطانية والروسية لا تريد مثل هذا الاستياء العام حتى لا يتحول الى حركة ثورية لن تكون ضد الشاه فقط ، وانما ضد القوى الاستعمارية كذلك . ولهذا حثت السلطات البريطانية والروسية الشاه على أن يخفف من عنفه ضد الحركة الوطنية ، وأن يتبع القواعد الدستورية في الحكم وأن يدعو المجلس الى الاجتماع ، وأن يوقف سياسة القضاء على الدستور . فوعد الشاه هذه السلطات بتنفيذ هذه الاتجاهات الا أنه كان يضمر غير ما يقول (سبتمبر / أيلول ١٩٠٨) .

كانت هذه الاتجاهات غير خافية لدى زعماء الحركة الدستورية ، وكانوا يرون في اشتداد الشاه ضدهم مقدمة للقضاء على اى مظهر من مظاهر الحكم الدستوري ، وأن اعناقهم ستتساقط الواحد بعد الآخر ان لم يتكاتفوا في ثورة كبيرة ضد الشاه . وحيث أن طهران كانت تحت سيطرة قوات الشاه ، وأن لا سبيل ألى اندلاع الثورة منها ركز الثوار عملهم في تبريز التي اعلنت فعلا الثورة على الشاه ، وطلبت منه أن يعيد الحياة الدستورية البرلمانية . وكانت لهذه الوقفة الصامدة في تبريز صداها القوى في مختلف أنحاء البلاد ، وحذت حذوها مدن كبرى أخرى مثل رشت في أقصى الشمال ، ومثل أصفهان . وفي هذه المدن طرد الثوار القوات الملكية ، وشرعوا في اعداد قوات عسكرية للدفاع عن مواقعهم وفي لخلق ادارة جديدة تتولى حكم المناطق (المحررة) من تسلط الشاه .

ان قيمة هذه الثورة الناجحة فى هذه المدن الكبرى الفارسية هى انها اثبتت عجز القوات الملكية عن السيطرة بقوة السلاح على الشعب · وأثبتت كذلك ان الثوار قادرين على ادارة البلاد التى تقع فى يدهم ، ويرفعوا يد الحكم الملكى نهائيا منها اذا أرادوا ذلك· ولهذا كان المظهر العام للبلاد حينذاك أنها تسير نحو حرب أهلية طاحنة · وربما كانت فرصة الشاه اوسع وأكثر ملائمة لنجاحه عسكريا ضد الثوار لو كانت الثورة فى الشمال فقط ، او فى الجنوب فقط · وانما وجد الشاه نفسه أمام تحرك عسكرى ثورى من الشمال صوب طهران بقيادة سبهدار (١) ، وأمام تحرك آخر عسكرى من الجنوب الى الشمال بقيادة سردار أسعد زعيم عشائر البختيارى الكبرى ·

كانت الأمور فى ايران قد اصبحت على النحو التالى : —

١ — القوات الروسية فى الشمال ، شعرت أن الأمور ستخرج من يدها بسبب تفوق الحركة الوطنية فى رشت وتبريز ، ولذلك تحركت بسرعة الى تبريز ، بحجة حماية أرواح الأجانب فيها ، وكانت النتيجة المباشرة لذلك هى أن تبريز خرجت من يد الشاه تماما ، ولم تعد معقلا للثوار الا فى مجالات محدودة · الأمر الذى جعل سردار أسعد يطلب من الطرفين الروسى والبريطانى عدم القيام بتدخلات اخرى فى أمور البلاد الداخلية · وكان الثوار يأملون فى استخدام الانجليز ضد الروس على اعتبار ان الانجليز يرفضون التسلط المباشر الروسى على طهران بالذات · ولقد كان الانجليز فعلا يحذرون الروس من ذلك ·

٢ — قامت القوات البريطانية فى اتجاه المناطق الفارسية المطلة على الخليج العربى بعمليات عسكرية مشابهة لتلك التى قام بها الروس فى شمال البلاد الفارسية · ولكنهم فى نفس الوقت كانوا يريدون كبح الحركة الوطنية ، واقناع سردار أسعد بأن الحكومتين البريطانية والروسية تزمعان الضغط على الشاه من أجل القيام باصلاحات تعيد الدستور والمجلس وتوطد الاستقرار فى البلاد عن طريق قرض مالى · ولقد وافق الشاه فعلا على اعادة الحياة الدستورية · ولكن المشكلة هى ان الثوار كانوا قد فقدوا الثقة نهائيا فى الشاه ، وأصروا على ان يفرضوا حكمهم على

---

(١) Sepidar

طهران بقوة السلاح ، ونجحت جهودهم واستولوا على طهران بينما فر الشـــاه لاجئا الى السفارة الروسية ، ثم أبعد عن البلاد بعد أن رصد له مرتب سنوى كبير بشرط الا يعمل على العودة الى البلاد . ورفع الى العرش ابنه الصبى (أحمـــد) تحت وصاية نائب ملك، وحاول الشاه المعزول العودة الى العرش ولكنه هزم هزيمة شديدة كانت خاتمة حياته السياسية ١٩١١ / ١٩١٢ .

وحيث أن تقدم الجيوش الروسية الى داخل ايران خلال تلك الأزمـة كان يعطى الروس تفوقا اكثر مما يحتمله الوفاق الودى ، فقـــد دخلت الحكومتان البريطانية والروسية فى مفاوضات ادت الى أن تنسحب القـوات الروسية من الأراضى الفارسية لتعود الأمور الى ما كانت عليه من قبل . كذلك عدلت الحكومة البريطانية من موقفهـا بالنسبة للمنطقة الجنوبية . ولكن ظلت مناطق النفوذ لكل من روسـيا وبريطانيا على ما كانت عليه . واضطرت الحكومة الفارسية الى أن تدبر الأمـــور فى هذه الظروف الصـــــــعبة .

كانت المشكلة المالية هى اعقد المشكلات التى تواجه الحكم ، وكان هناك اعتقاد عام انه لن يستطيع اخراج البلاد من ورطتها المالية الا اذا اسندت الى خبير اقتصادى مالى كبير . وتجنب الايرانيون أن يسندوا مهمة دراسة واصلاح أوضاع البلاد المالية الى خبير بريطانى أو روسى لحكمة واضحة ، واتجهوا الى أن يطلبوا من رئيس الولايات المتحـدة الامريكية تزويد الحكومة الايرانية بخبير يستطيع أن يقوم بتلك المهمة ، فوقع الاختيار على و.م. شستر W. M. Shuster ووافقت الحكومتان الروسية والبريطانية على تعيينه فى الحكومة الفارسية .

وقصة الجهود التى قام بها شستر فى ايران ، وموقف الحكومتين البريطانيـــة والروسية منه تحتاج منا نوعا من العناية لأهميتها فى فهم سياسة هاتين الدولتين من محاولات الوزارة والمجلس التمثيلى لانقاذ اقتصاديات البلاد .

كان شستر يشعر ان طبيعة كونه امريكيا تعطيه ميزة كبرى من حيث القدرة على التصرف بقوة دون أن توجه اليه تهمة العمل لمصلحة القوى الاستعمارية . وكان هـذا صحيحا الى حد كبير، خاصة وان الوزارة والمجلس وافقا على ان تعطى له كافة الصلاحيات

والسلطات التى تمكنه من القيام بواجبه على خير وجه . وكان شستر قد درس أوضاع ايران المالية والاقتصادية ، وحيث أن مهمته كانت انقاذ البلاد من تدهورها الاقتصادى ، فان الاعتبارات الاقتصادية هى التى أولاها كل عناية حتى لو اصطدمت مع الاعتبارات السياسية الخاصة التى كانت تفرض نفسها على ايران فرضا بواســـطة الحكومتين الروسية والبريطانية . وكان شستر يعتقد أن الاصلاح الاقتصادى لا يمكن أن يتحقق الا عن طريق وضع برنامج يسلب من كل من السفارتين البريطانية والروســية امكانيات التحكم فى اقتصاديات المناطق التى تحت أيديهما بمقتضى الوفاق الروسى — البريطانى لعــــام ١٩٠٧ .

عقد شستر سلسلة من الاجتماعات مع المسئولين الفرس ، وأبدى خلالها ملاحظات معينة جعلت هؤلاء المسئولين أكثر تشبثا به لأنه وضع مصالح البلاد فوق أية اعتبارات أخرى،وهو من جانبه كان حريصا على أن يحصل من المسئولين لا على تفويض بصلاحيات واسعة فقط وانما كذلك بعدم وضع عقبات فى وجه الخطوات التى يقدم عليها،وهدد بأنه فى حالة شـــعوره بأن هناك عقبات تلقى فى طريقـــه لن يتوانى عن أن ينفض يده من المسألة كلهـــــا .

كان شستر يرى أنه لا بد من أن يزود بقوة صغيرة ترافقه فى عملياته التفتيشية ، واقترح اسناد قيادة هذه القوة الى الملحق العسكرى السابق فى السفارة البريطانية . وما كان الروس ليوافقوا على مثل هذا الاقتراح الأمر الذى جعل شستر يتغاضى عن هــذا الطلب .

كانت مهمة شستر تقتضى منه اجراء عمليات تفتيشية فى المنطقة الشمالية الواقعة تحت النفوذ الروسى طبقا للوفاق الودى لسنة ١٩٠٧ . ومن هنا بدأت المشاكل المعقدة تواجه مهمة شستر . فقد كان مجرد قيام شستر بمهمة فى منطقة النفوذ الروسى كفيلة بأن تنقص من هيبة الوجود الروسى فى تلك المنطقة.خاصة وأن شستر كان يبدى اصرارا على تجاهل هذا الوجود ، وحصل من وراء ذلك على تأييد الوطنيين الفرس ، وبدا كأن حركة شستر تسير الى أن تصبح جزءا من الحركة الوطنية الأمر الذى لا يهدد الوجــود الروسى فقط بل كذلك الوجود البريطانى .

تحركت الحكومتان البريطانية والروسية بسرعة ، وتفاوضا بشأن ما سيترتب عن أعمال شستر فى ايران ، واتفقتا على تنفيذ سياسة مشتركة ضده . فلم تكتف الحكومتان بمنعه من القيام بجولاته التفتيشية اللازمة لاتمام مهمته ، بل تقدمتا بمذكرة رسمية الى رئيس الوزارة الايرانية طلبتا فيها انهاء خدمات شستر ٠

كانت هذه المذكرة تحديا بريطانيا روسيا لسلطات الوزارة الفارسية ، وكانت عملا صارخا من أعمال التدخل فى أدق شئون البلاد الداخلية ، وكان قبول هذا المطلب الروسى البريطانى يعنى أن الوزارة الايرانية ليست سوى جهازا للحكم المحلى لا يستطيع أن يبرم شيئا من تلقاء نفسه ٠ ولقد كانت حكومتا بريطانيا وروسيا تريدان ذلك فعـــلا ، ولا تتورعان عن استخدام القوة لفرض ذلك على الوزارة ومجلس النواب الفارسى ٠

ونظرا لخطورة ما سيترتب على انصياع الحـكومة لمطالب الحكومتين البريطانية والروسية دارت مباحثات متعددة الجوانب بين مجلس الوزراء الايرانى وزعماء الحركة الوطنية الدستورية وأعضاء المجلس التمثيلى للنظر فى هذا الموقف الذى جعل طهران أيضا تحت رحمة الدولتين المتنفذتين فى ايران ٠

وظهرت فى مجلس العموم البريطانى أصوات تدافع بعض الشىء عن حق ايران فى النظر فى مثل هذه الأمور الداخلية الخاصة بها بعيدا عن التدخلات الروســية البريطانية ولكن وزير الخارجية البريطانية أكد أن لتدخل الانجليزى الروسى انما يهدف الى عدم وقوع اصطدام بين بريطانيا وروسيا فى ايران ، والى منع تجدد المنازعات بينهما هناك ٠ ولقد صرح وزير الخارجية البريطانية بأن شستر قام بما أملاه عليه واجبه ، وانه لم يكن مدفوعا بدوافع سياسية عندما كان يقوم بجولاته التفتيشية فى الأراضى الايرانية الواقعة تحت النفوذ الروسى بمقتضى الوفاق الودى لسنة ١٩٠٧ ، ولكنه لم يراع خـلال ذلك الاعتبارات الخاصة التى أصبحت تؤثر على أحوال وأوضاع فارس نتيجة لعقـــد ذلك الوفاق الودى ٠ وبين وزير الخارجية البريطانية انه وجد نفسه فى موقف شديد الحرج ازاء حكومة روسيا عندما كان شستر يشن عليها حملة دعاية شعواء بسبب مســـلكها المعارض لمهمته فى المناطق الايرانية الشمالية ، ومحاولتها منعه من اتخـاذ أية اجراءات لا تتفق مع السياسة والأهداف الروسية هناك ٠

وفى معرض الحديث هذا ، فسر لنا وزير الخارجية مفهومه لاستقلال فارس ٠ ولعله اضطر الى ذلك لأن مقدمة الوفاق الودى تنص على ضرورة احترام سلامة واستقلال ايران ، فقال ان استقلال فارس يجب أن يراعى بقدر ما تراعى مصالح ما يجاورها من الدول وهكذا تكون المراعاة المطلوبة تعنى وضع فارس تحت سيف التسلط البريطانى الروسى ٠ وذهب فى تحليله فى هذا الصدد الى انه لولا الوفاق الودى لعام ١٩٠٧ لكان استقلال فارس متعرضا لأخطار أكبر من تلك التى يتعرض لها فعلا بعد عقده ٠

واوضح وزير الخارجية البريطانية بصراحة انه اذا كان من حق حكومة فارس أن تخلص نفسها من ذلك الشاه المعارض للحركات الاصلاحية فى البلاد ، فليس لها الحق فى أن تتخلص من النفوذ الروسى ، وانما عليها أن تتخذ فورا سياسة ودية ازاء روسيا ٠

بهذا المنطق يرى وزير خارجية بريطانيا أن الاحتلال الثنائى البريطانى الروسى لفارس خير لفارس من أن تحتلها دولة واحدة ٠ والحقيقة هى أن الأمور فى كلتى الحالتين فى منتهى السوء،ويبرر وزير الخارجية البريطانية فى نفس الوقت حق حكومته فى احتلال أجزاء فارس الجنوبية على اعتبار ان ذلك نتيجة حتمية لمراعاة فارس لمصالح الدول المجاورة لها ! ٠

كذلك يعلل وزير الخارجية البريطانية هذا التصلب فى تأييد روسيا فى موقفها من قضية شستر بأنه كان يرى أن صداقة روسيا لبريطانيا يجب أن تستمر قوية ، وأن لا تعكرها مثل هذه الأمور البسيطة ، اذ أن بريطانيا فى حاجة ماسة الى روسيا لمواجهة قوة المانيا النامية ، وانه مسئول عن تقوية الوفاق الودى وليس عن اضعافه ٠

لقد وجدت الحكومة الفارسية ، وكبار المسئولين فى البلاد أن الضغط الروسى شديد ، وأن بريطانيا تقف باصرار الى جانب روسيا ، بل هددت روسيا بأن تبعث بقواتها الى طهران ان أصرت الحكومة الفارسية على التمسك بشستر ، وحاولت الحكومة الفارسية أن تصل الى اتفاق ما يحفظ لايران كرامتها دون جدوى ٠ ومع أن المجلس

التمثيلي رفض الرضوخ لهذا التدخل الصارخ فى أدق امور البلاد الداخلية فقد حققت كل من الدولتين أهدافهما عن طريق اقناع شستر نفسه بمغادرة البلاد ٠

اما المجلس التمثيلي الذى ظل متشبثا بموقفه من هذه القضية فقد تخلصت منه ايضا الدولتان المتنفذتان (بريطانيا وروسيا) اذ لم يلبث أن صدر قرار حله ٠ ولم ينعقد المجلس الا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى ، وفى جلسة الانعقاد هذه القى الشاه الجديد الشاب خطاب العرش الذى اكد فيه وقوف فارس على الحياد خلال هذه الحرب ٠

الفصل الثامن

نهـاية الأسرة القاجارية

تعتبر ظروف الحرب العالمية الأولى ، والأزمات التى تعرضت لها ايران خلالهـا المقدمة الطبيعية لسقوط هذه الأسرة القاجارية التى كانت تحتضر منذ ثورة ١٩٠٦ ومنذ الوفاق الروسى البريطانى ٠

حقيقة وقفت الحكومة الايرانية خلال الحرب العالمية على الحيـاد ٠ وكانت هى نفسها مخلصة فى هذا الموقف ٠ ولكن الظروف العسكرية كانت أقوى من ايران ٠

فالى الغرب من ايران يقع العراق العثمانى الذى اصبح منذ الأيام الأولى من تلك الحرب ميدانا من ميادينها بين الأتراك والانجليز ٠ وكان الانجليز قد أعدوا قواتهم فى الخليج العربى للعمل بسرعة فى منطقة شط العرب ، وفى منطقة عربستان التى كانت آبار الزيت فيها (عبدان) هى المصدر الرئيسى لتزويد قطع الأسطول البريطانى بالبترول ٠

ولقد عمدت السلطات التركية فى العراق منذ أن نشبت الحرب الى تحريض قوى العشائر ضد خزعل خان امير عربستان الذى اخذ جانب الانجليز ، كما استعدت وحدات من الجيش التركى للتقدم عبر الحـدود العراقية الفارسية صـوب همدان المدينـة الاستراتيجية الهامة التى تمكن الأتراك من بعد ذلك من قطع وسط فارس ، وتستطيع القوات التركية بذلك من منع الزاحف الروسى من الشمال الى الجنوب من الالتقـاء بالقوات البريطانية الزاحفة من الجنوب الى الشمال ٠

وهكذا وجدت ايران نفسها ميدان حرب لم تشارك هى فيها ، وليست لديها الرغبة فى هذه المشاركة ٠ ولكن مما لا شك فيه أن مشاعر الشعب الفارسى بصفة عامة كانت ضد الانجليز والروس وكانت مشاعره الى جانب المانيا ، لا حبا فى المانيا ولكن بغضا للانجليز والروس الذين غدروا بالحركة الوطنية منذ ١٩٠٧ ٠

ورغم ان عدد الألمان العاملين فى فارس كان ضئيلا للغاية فقد كان لهم تأثير محسوس فى تحريك بعض القوى الوطنية ضد الانجليز ، سواء أكانت فئات مثقفة فى المدن أم كانت عشائر فارسية تضمر كراهية شديدة للانجليز ٠ وكانت عشائر البختيارى من أشد القبائل

رغبة فى القيام بثورة ضد الروس والانجليز ، وضد الشاه القاجارى نفسه • ولعل شدة الحماس هذه كانت ترجع الى فشل البختيارى فى عزل الأسرة القاجارية قبيل الحرب العالمية الأولى ، فتطلعت الى تحقيق هدفها هذا خلال الحرب • ولكن كانت الجهود العسكرية التى بذلها الانجليز ضد البختيارى كبيرة أدت الى القضاء على تحركاتها الثورية ، ولكن ظلت ايران الوسطى والشمالية عرضة للحركات العسكرية المتبادلة بين القوات الروسية والعثمانية ، ولم تتوقف هذه العمليات الا بعد اندحار الجيش العثمانى فى العراق خلال ١٩١٧ ؛ وبعد وقوع لثورة البلشفية فى روسيا (اكتوبر ١٩١٧) •

انتهزت بريطانيا فرصة تدهور الجيش التركى فى العراق ، وخروج روسيا من الحرب فعملت على أن ترث روسيا فى المنطقة الشمالية من ايران • ان هذا التحرك الانجليزى السريع بعد انسحاب الروس من تلك الجهات يثبت لنا أن الوجود البريطانى فى جنوب فارس لم يكن مرتبطا فقط بالتنافس البريطانى الروسى فى المنطقة وانما كان نتيجة لسياسة استعمارية بريطانية تستهدف السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من فارس كلما سنحت الظروف لذلك ، وعندما توقفت الحرب ، وعقدت الهدنة ، وشرع الحلفاء فى اعادة رسم خريطة جديدة للعالم كانت بريطانيا هى صاحبة اليد العليا فى ايران سياسيا واقتصاديا وعسكريا •

ففى الفترة الواقعة قبل الحرب العالمية الأولى كانت روسيا وبريطانيا تتنافسان على السيطرة على ايران ، أما بعدها وجدت ايران نفسها بين جار قوى لا يريد أن يتابع تلك السياسة الاستعمارية التى سار عليها قياصرة روسيا، لقد أعلنت روسيا السوفيتية أنها لا تقبل أبدا أن تحتل أرض دولة أخرى ، وانها لا يمكن أن تسير فى نفس ذلك التيار الاستعمارى البغيض الذى سار عليه قياصرة أسرة رومانوف ، والذى كان يسير عليه الاستعماريون الانجليز • فاعلنت حكومة روسيا السوفيتية تخليها عن كافة الامتيازات غير الطبيعية التى كانت فارس قد ارغمت على التنازل عنها لروسيا ارغاما ولم يلبث أن أدت المفاوضات التى دارت بين الدولتين الفارسية والسوفيتية الى عقد معاهدة جديدة بينهما فى ١٩٢٠ تقوم على أساس الاحترام المتبادل بينهما وعلى أساس احترام استقلال فارس ، والتنازل لها عما سبق أن استولت عليه روسيا القيصرية من أراضى فارسية ،

فكان أن استردت فارس من وراء ذلك أراضى كانت قد فقدتها منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر ٠

اما سياسة بريطانيا ازاء فارس فكانت على النقيض من ذلك تماما ٠ كانت بريطانيا قد خرجت من الحرب منتصرة ، وكانت قد أصبحت هى الدولة الأوروبية الوحيدة التى تتحكم فى المنطقة الممتدة من الحدود الصينية شرقا حتى العراق ٠ ورأت أن فى وجـــود بريطانيا كدولة منتدبة على العراق وتحكم الأسطول البريطانى فى مياه الخليج العربى ، وتعاون الشيخ خزعل — أمير عربستان — معها كل التعاون ، ووجود بعض العشائر التى تميل الى بريطانيا ، كل هذا جعل بريطانيا تسعى الى تحويل فارس الى ما يشبه الدولة التابعة لها عن طريق تكبيلها بمعاهدة تفرض فيها التزامات قاسية على ايران ٠ ونجحت بريطانيا فى سياستها هذه عندما عقدت معـــاهدة ٩ اغسطس / آب ١٩١٩ مع الحكومة الفارســـــية ٠

نصت هذه المعاهدة — على عـادة الانجليز فى معاهداتهم مع فارس من قبل — على الاحترام الكامل المطلق لاستقلال فارس ولسلامة أراضيها ٠

واما فى المادة الثانية ، فقد بدات حكومة بريطانيا تفرض قيـــــودها التى تؤدى بالتدريج الى جعل ذلك الاستقلال مجرد حبر على ورق ٠ فقد نصت المادة الثانية على ان تزود الحـــكومة البريطانية مختلف الادارات وأجهـــزة الحكم فى فارس بالخبراء والمستشارين الذين سيتمتعون بصلاحيات معينة تجعل كلمتهم هى النـــافذة فى دوائر العمل الحـــــكومى ٠

وحددت المادة الثالثة بريطانيـــا بانها هى التى تزود الجيش الفارس بالضباط والمدربين والأسلحة والذخائر ، أو بمعنى آخر يصبح تحت سيطرة الانجليز ٠

وفى المادة الرابعة قدمت بريطانيا قرضا لفارس لتمكينها من القيام بالاصلاحات اللازمة المشار اليها فى المواد السابقة بضمان دخل الجمارك وبذلك تكون المســـــائل الاقتصادية تحت سيطرة بريطانيا ٠

واذا اضيف الى هذا ان شركة البترول التى تستغل آبار الزيت فى عربســـتان بريطانية ، فيمكن القول أن مقدرات ايران الاقتصادية كانت فى يد بريطانيا أيضا ٠

أما المادة الخامسة فقد اشارت الى رغبة بريطانيا فى المســـاهمة فى مشروعات مد المواصلات الحديدية عبر فارس من أجل رفع مستوى فارس الاقتصادى ٠

وبصفة عامة فهذه المعاهدة واحدة من المعاهدات غير المتكافئة التى تنتج عن فرض دولة كبرى لما تريده على احدى الدول المهيضة الجناح ٠

وكان طبيعيا أن يعمل الشعب على تخليص نفسه من هذه المعاهدة ٠ ووجد الشعب فى روسيا السوفيتية قوة نقد شديدة لتلك المعاهدة ٠ كما ان الدول الأوروبية انتقدت بريطانيا بشدة لأنها انفردت وحدها بالسيطرة على فارس ، وكان هذا النقد موجهـــــا لبريطانيا لا حبا فى تخليص ايران من التسلط البريطانى ، وانما محاولة لمشاركة بريطانيا فى بعض مكاسبها هناك ٠ ولا شك أن تلك المقارنة بين المعاهدة الايرانية ــ الروسية ، والمعاهدة الايرانية ــ البريطانية كفيل بأن يؤجج الحركة الوطنية ضد حكومة الشاه أحمد التى قبلت على نفسها معاهدة مذلة مع بريطانيا فى الوقت الذى كان باستطاعتها أن تقاوم وأن تفرض على بريطانيا شروطا تحقق أمانى البلاد الوطنية ٠ وأدى هذا الى تحرك وطنى فى داخل البلاد ، الا أن الجيش كان قد أصبح فى يده مفتاح السيطرة على البلاد ٠ ولم تعد الثورات المحلية قادرة على التفوق على الحكومة والشاه طالما كان الجيش مطيعا له ، ومن هنا كان ظهور ضابط مثقف مصلح من داخل الجيش هو السبيل الممكن لتغيير اوضاع البـــــــــــــلاد ٠

كان رضا بهلوى ضابطا من ضباط فرق القوزاق ، وكان من المطلعين على الفــكر الغربى ، ومن الناقمين على تخاذل الشاه وحكومته أمام الانجليز ٠ وكان ان تم تحالف بين رضا خان ووطنى آخر شديد الحماس هو ضياء الدين طباطبائى ، وزحف رضا خان بقواته الى طهران ، وسيطر عليها بعد عدة اشتباكات (شباط/فبراير ١٩٢١) ، وفرض رضا بهلوى على الشاه حكومة جديدة اسندت الى ضياء الدين ، وتولى فيها رضا بهلوى وزارة الحربيــــــــــــة ٠

عمل ضياء الدين على تطهير الأداة الحكومية ، وتعقب الذين اثروا على حســـــاب الشعب ، فصادر أموالهم ، وتعاون مع رضا بهلوى فى تقوية الجيش ورفع مستواه ٠

كانت السيطرة على طهران ، وفرض حكومة على الشاه لا تعنى أن الأمور استقرت

وان البلاد مقبلة على عهد جديد دون عقبات من جانب العصبيات المحلية القوية • فقد كانت هناك الاقاليم تكره الحكومة المركزية القوية ، ولذلك كانت هناك ولايات شديدة فى مقاومتها للحكومة المركزية الجديدة ، وبوجه خاص : —

١ — جيلان ، ذات التاريخ الطويل من التمردات •

٢ — اذربيجان ، وهى كذلك منطقة صعبة المراس ، بسبب ما تحتويه من عناصر كردية كثيرة ، استطاعت أن تعلن قيام جمهورية كردية •

ان مثل هذه التمردات الداخلية فى مثل هذه الولايات الصعبة
الحكومة جهدا كبيرا ، وضحايا كثيرين من الجانبين • ولقد كان رضا ـ
يفرض كلمة الحكومة فى كل أجزاء البلاد حتى يستطيع بعد ذلك من ادخال اصـ
عامة فيها • فخاض رضا خان سلسلة من المعارك ضد القوى المتمردة ، استطاع بـ
يفرض هيبة الحكومة الى معظم أجزاء ايران •

استطاع رضا خان ان يسيطر على جيلان واذربيجان ، كما استطاع أن يضرب بقوة ثورة فى لورستان ، ليركز جهوده من بعد ذلك فى اخطر خطوة وهى فرض الحكم المباشر الفارسى على اقليم عربستان الذى كان تحت حكم خزعل خان ، وهو أمير عربى استمر فى حكم امارته شبه مستقل منذ أواخر التسعينات من القرن التاسع عشر ، وكانت القيمة الكبرى لامارته (عربستان) انها تحتوى على أغنى مصادر البترول فى المنطقة فضلا عن أن هذه الامارة تتحكم فى طريق شط العرب التجارى الاستراتيجى •

ولا شك أن خزعل خان اعتمد خلال الفترة السابقة على تأييد الانجليز له ، ولهذا عندما وافق الانجليز على توسع رضا خان فى عربستان — بعد أن حصلوا منه على بعض التنازلات — تخلوا عن صديقهم خزعل خان ، فبات وقوع امارته فى يد الفرس أمر وقت ، وتمكن رضا خان من احتلالها فعلا فى ١٩٢٥ •

ان الجهود التى قام بها رضا خان خلال الفترة الواقعة بين ١٩٢١ — ١٩٢٥ جعلته رجل فارس الأول ، وكان الشاه قد غادر من قبل البلاد الى أوروبا ، وانتشرت فى البلاد موجة من الاشاعات القائمة على اساس — تقول ان رضا خان هو شاه البلاد ، ولا يتبقى

من تنفيذ ذلك سوى تتويجه ٠ وعندما ظهرت اتجاهات نحو عودة الشاه من أوروبا الى فارس ، قامت التمردات ضد عودته ، وترددت بقوة الدعوة الى خلع أحمد القاجارى ، وتحت ضغط الحركة الوطنية ، تقرر خلعه وأعلن المجلس التمثيلى رضا بهلوى شاها على ايران فى ابريل/ نيسان ١٩٢٦ ، وبذلك انتهت الأسرة القاجارية ، وحل محلها رضا بهلوى الذى استمر فى الحكم حتى ١٩٤١ وتوفى فى ١٩٤٤ وخلفه فى ١٩٤١ ابنه محمد رضا شاه ٠ وسنتناول فى دراسة مقبلة بأذن الله تاريخ ايران المعاصر منذ الحرب العالمية الأولى ٠

الباب الثالث

مسلمو الهند

الهند مثل بقية البلاد الحضارية تطورت من الحياة البدائية الى العصور الحجرية فعصر النحاس والبرونز والحديد ، ومن شعوب محلية وفدت عليها شعوب هاجرت اليها سواء من الشرق من الملايو أو هبطت الى الهند من الشمال الغربى ، وهى البوابة التى عبرتها الشعوب المهاجرة الى الهند عبر العصور القديمة والوسطى والحديثة . فاستقرت فى الهند العديد من الشعوب ، وهبطت اليها شعوب وافدة استقر بعضها واندمج بعضها.

ومن أشهر الشعوب الأولى التى هبطت الهند من الشمال شعب الدرافيد ، ومن بعده الآريون الذين سيطروا على شمال الهند وازاحوا الدارفيد نحو الجنوب ، الأمر الذى يذكرنا بما حدث فى أوروبا فى أوائل العصور الوسطى من هجرات من شرق أوروبا زحفت الى قلبها دافعة القبائل الأخرى أمامها حتى تغيرت دماء أوروبا . ولقد غيرت الهجرات العديدة التى هبطت الهند مثل الدرافيد والآريون دماء الهند عبر العصور القديمة .

وقامت بنفس الدور هجرات أخرى تركية وفدت من وسط آسيا وايرانية وفدت من ايران ، سيطرت على النصف الشمالى من الهند .

وهذا النصف الشمالى من الهند يشبه فى مصيره هذا الدلتا المصرية التى تعرضت لموجات هجرة متتالية عبر العصور بينما ظل صعيد مصر أقل تأثرا بتلك الهجرات مثله فى ذلك مثل وسط وجنوب الهند .

حقيقة حافظت بعض الشعوب فى الهند على كيانها الا ان العديد من الشعوب فى الهند تمازجت ، ولكن بدت الهند معظم العصور القديمة وكأنها قطعة متعددة الشعوب متعددة اللغات ، على أن الآريين القدامى والعناصر التركية والايرانية التى هبطت الهند أعطت للهند شكلا (آريا) بل وشكلا ثقافيا قريبا من الثقافة الفارسية ، ومن أبرز هذه الملامح ذلك الشبه الواضح بين اللغة السنسكريتية واللغة الفارسية .

وكان الآريون يعبدون عناصر طبيعية بحثا عن الاله الأعظم ، فاله الشمس يعبر السماء من مشرقها الى مغربها باعثا الحياة لما هو على الأرض ، وكاننى بهم على مقربة

شديدة من الاله (رع) وسفن الشمس ومعابد الشمس وكهنتها فى مصر . وما فضل أنهار الكنج والسند على الحضارة فى الهند الا مثل فضل النيل عليها فى مصر ، فكان أن عبدوا الأنهار ، وقدس الهنود البقرة بينما قدس المصريون القدامى الثور (ابيس) ، والبقرة (حتحور) الا أن الهنود قدسوا النار تقديسا لم يعرفه المصريون ، وعرف الهنود بعبادة النار .

ويسوقنا مجال التشابه بين العقائد والتقاليد فى كل من الهند ومصر الى اسطورتين خالدتين لزوجتين هما سافترى وسيتا فى الهند عن وفاء المرأة لزوجها ومثيلتهما أسطورة ايزيس الوفية لأوزوريس فى مصر . حتى أن الطريقة التى أقدمت عليها (سيتا) لاثبات طهارتها ووفائها لزوجها لا تزال معروفة فى مصر باسم (البشعة) أى أن يلعق المتهم النار فان لم تحرقه اثبت أنه برىء . أما قصة سيتا فقد عبر بها الاله النار فكانت بردا وسلاما على سيتا ، ذلك ما كانوا يعتقدون .

ولديهم من الأساطير ما يتحدث عن رحلة خيالية من الأرض قام بها ارجونا الى السماء ، وكان لديهم فى تاريخهم الأسطورى ما يشبه الاسراء والمعراج . ولديهم من مبادىء الفرسان الآريين من شهامة والدفاع عن المرأة والحق ما يشبه مبادىء فرسان العصور الوسطى فى أوروبا .

على أن الهندوسية هى من أقوى المظاهر الحضارية فى الهند ، وكانت الهندوسية لا نبى لها وعبارة عن عبادة الآلة والأصنام زلفى ، حتى تحولت الى فكرة فلسفية . وكان براهما أبو الآلهة ، والملوك كأنهم آلهة ، وأعلى مراتب التدين هو الوصول الى النرفانا . وكتبهم المقدسة (الفيد ، البراهمانيات ، الاوبانيشاد) بالسنسكريتية . وبعد التعدد الكبير للآلهة قصروهم على عدد محدود وتوصلوا فى آخر المطاف الى أن (الروح الكونية) تشمل الكون بأسره ، وان الأرواح تتناسخ .

حقيقة لا تزال الهندوسية هى الأقوى فى الهند ، ولكنها عبر العصور القديمة والوسطى تعرضت لمعتقدات أخرى انتشرت على حسابها وان انتهى الأمر بها الى الضعف بالقياس الى الهندوسية ، ونقصد بذلك بصفة خاصة (البوذية) ومؤسسها جوتاما (٥٦٣ — ٤٨٣ ق.م) الذى ثار على الهندوسية سواء من ناحية الفكر الدينى أو من ناحية الفكر الاجتماعى .

فقد كانت الهندوسية طبقية ، الكهنة البراهمة يمثلون الطبقة العليـــا ، فالكاهن البراهمى الحق ينتهى الأمر به الى الاتحاد بالاله الأعظم (براهمـــــا) والمنبوذون فى المجتمع فقدوا الكيان الانسانى فحرام على الانقياء الاتقياء الهندوس حتى مجرد لمسهم .

أما بوذا وتعاليمه فقد رفضت هـــذه الطبقية ، وهاجمتها بشدة فأقبل عليـــه المنبوذون بصفة خاصة حيث وجدوا آدميتهم وانسانيتهم فى تعاليم بوذا ، ووجد بوذا أن اللغة السنسكريتية لا تقـــدمه للعامة فتحدث اليهم بلغتهم · ورفض كتب الهندوس المقدسة ورفض الهتهم ، واصبح للناس مرشدا بشرا زاهدا داعيا الى الفضائل الثمانية التى لو اتبعها الانسان لحقق أسمى ما تسعى اليه البشرية الا وهو انتشـال البشر من التعاسة والشقاء ، ولا يتم ذلك الا بالعمل ، فما تزرعه هو الذى يقدم حصـــادا ، أما القرابين والتراتيل فما هى بقادرة على أن تنقذ انسانا من تعاسته .

وهذه الفضائل الثمان أو الطريق المثمن :

١ ــ الفهـــم	٢ ــ التفكير	٣ ــ التـأمل	٤ ــ الكـــلام
٥ ــ العـــزم	٦ ــ العمـــل	٧ ــ المجهود	٨ ــ الحياة الحقة

انتشرت البودية عبر عدة قرون انتشارا واسعا فى الهند ، وتراجعت أمامهــــا الهندوسية ، ثم أخذت البوذية تتراجع أمام الهندوسية وكان السبب الرئيسى فى احتضار البوذية هو أنه فيها تتفوق المبادىء الانسانية الاخلاقية دون اعطاء (الوجدان) حقه بينما كانت الهندوسية (عاطفية) . فكان أن ضعفت البوذية جدا فى الهنـــــد بينما انتشرت وترسخت فيما هو شرقى الهند حتى الصين .

وقد قيض للهندوسية زعامات قيادية مذهبية آلت على نفسها لتقوضن البـوذية ولترفعن الهندوسية ، وطورت نفسها حتى لقد أصبحت هى المذهب السائد فى الهند ، وحتى اصبح المذهب مقبولا من حيث البعد عن تعدد الآلهة الى الايمان بروح عالمية واحدة وان الانسان شعاع من هذه الروح العالمية ، وبالايمان المتعمق تتحد روح الانســـــان بالروح العالمية ·

ان الهنود فى التاريخ القديم مثل قدماء المصريين كانوا يجهدون فكرهم لعلهم يصلون

الى ادراك خالق هذا الكون ، وضربوا بفكرهم واهتدوا الى طرق ابتعدت واقتربت ولكن الله فضل لحكمة لديه أن يحرمهم من نعمة الأنبياء والرسل حسبما يعتقد حتى الآن .

وكانت البوابة الشمالية الغربية مفتوحة أمام شعوب وسط آسـيا وغربها لكى تعبرها كلما تجمعت لها القوة ، وكلما كانت قوى الهند ضعيفة مفككة عاجزة عن الدفاع عن حدودها الشمالية الغربية ، فعبرها هبط (دارا الأول) امبراطور ايران ليمد سلطانه الى الداخل ، ولتمتد امبراطوريتهم من السند عبر ايران والهلال الخصيب (العـراق والشام) الى مصر والى آسيا الصغرى (تركيا) حتى أطراف اليونان ٠ وكان من بين جيش دارا مقاتلون من الهند ، وهذا يذكرنا بانه خلال الحرب العالمية الأولى كان من بين الجيش الانجليزى الذى غزا العراق فى ١٩١٤ مقاتلون هنود ، وكذلك كان مقاتلون هنود مع قوات الحلفاء التى أخرجت جيوش ألمانيا النازية من شمال أفريقيا وحاربت فى فرنسا حتى دخلت قوات الحلفاء ألمانيا ١٩٤٥ .

وبعد أن سيطر الاسكندر الأكبر على الجيوش الفارسية فى موقعة أسوس اجتاح ايران ، ووصل الى الحدود الشمالية الغربية ، وكان ملوك الهند يتصارعون فيما بينهم ، وبعضهم كان على استعداد للتعاون مع الأجنبى ، فوجد الاسكندر حلفاء له فى داخل الهند واستطاع الاسكندر أن يسيطر على معظم حوض السند .

وعاد الاسكندر بجيوشه من هناك ، تاركا الهنـد لملوكها المحليين ، ولنكبتها فى الصراع بين القوى المتعددة هناك ، وكانت دولة (ماجادها) أكثر الدول قوة بل بلغ بهـا الأمر أن سيطرت على معظم الهند ، وتبنى أحد ملوكها البوذية فنشرها فى الهند بقوة ، ولكن لم تلبث هذه الامبراطورية أن هزمت ، وهبط الهند من بوابتها الشمالية الغربية شعب (الساكا) ثم (الكوشان) الذى تجددت فى عهدهم على يد (كانشا) البوذية لتصبح (دينا عالميا) ، فمع أن البوذية أخذت تضعف فى الهند الا انها انتشرت وترسخت فيما هو شرقى الهند حتى الصين نفسها .

وضعفت دولة (الكوشان) ، وهبط (الهون) من البوابة الشـمالية الغربية ، واتخذوا من (سيالكوت) عاصمة لهم ، وكانت أيامهم أيام مذابح ودماء سائلة ، وساعد ذلك على زيادة تفكك الهند الى دول وشـعوب يقاتل كل جار جاره حتى ظهـر الملك

(هارشا) (١) فى حوض نهر (الكنج) ، وانتصر على دولة مالوا . ولعله أراد أن يوفق بين أكبر مذهبين فى الهند حينذاك فاعتنق الهندوسية والبوذية ٠

أصيبت الهند منذ النصف الثانى من القرن السابع بفوضى واسعة ، وظهرت بعض الدول الهامة مثل (الراجبوت) ، الذين هبطوا من بوابة الهند الشمالية الغربية واستقروا ، وأخذوا يستقرون فى السند ، ومثل دولة (بالبالا) فى البنغال .

وكانت دولة (بالبالا) فى البنغال بوذية المذهب فى الوقت الذى كانت تتراجع فيه البوذية أمام الهندوسية فى الهند . وفى الوقت الذى أخذت فيه هذه الدولة تضعف فى القرن الثانى عشر الميلادى كانت قوة المسلمين تتعاظم فى اتجاه البنغال حتى شنت عليه القوات الاسلامية هجوما اجتياحيا على دولة (بالبالا) فقضى عليها فى ١١٩٧ ٠

وهكذا بينما كان المسلمون يكافحون من أجل استرداد أرض اسلامية فى قلب العالم الاسلامى (الشام) من أيدى المعتدين الصليبيين بينما كان القادة الاسلاميون فى الهند يوسعون من دار الاسلام باضافة بلاد جديدة اليها ٠

لقد قامت دولة الراجبوت على أكتاف مقاتلين اشداء المقاتلين الراجبوت، بل لقد كانت الحرب مهنتهم ، اذ تربو على القتال والفروسية . واعتنقوا الهندوسية ، وتصدت دولتهم للفتوحات الاسلامية ٠ وقد امتدت دولة الراجبوت منذ القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر ، حيث قضى على كيانها المسلمون فى أواخر القرن الثالث عشر . ولقد كان الراجبوت من اشد المقاتلين مراسا ضد المسلمين .

★ ★ ★

---

(١) مات ٦٤٨ م ٠

الفصل الأول

دخول وتفوق الإسلام فى الهند

كانت العلاقات بين الهند وبلاد العرب قديمة ، الا أن هذه العلاقات اتخذت شكلا جديدا مع انتشار الاسلام ، فلقد كان المسلمون على مستوى عال من الفكر والمكانة الاجتماعية بالقياس الى غيرهم من الشعوب ، فكما كان من مظاهر الرقى أن يتكلم المثقف الأوروبى اللغة العربية أو يستخدم أدوات الحضارة الاسلامية ، كان بعض حكام الهند يفضلون الافادة من المفكرين العرب فى ادارة شئونهم ، وكان للعربى هناك مكانة عليا اجتماعية .

انتشر الاسلام شرقا ودخلته جموع الترك ، وكان فضل الاسلام عليهم كبيرا حيث انه هذب أخلاقهم،وادخلهم فى حضارة العصر (الحضارة الاسلامية) واستبقوا فروسيتهم فكان تفوقهم الحضارى وارتفاع مستواهم كمقاتلين أصحاب رسالة سماوية من العوامل الرئيسية التى جعلت القوى الاسلامية التى غزت الهند من بوابتها الشمالية اقدر على اخضاع الهنود .

كان الاندفاع الاسلامى شرقا أشبه بتيار جارف يصعب على القوى المحلية أن تتصدى له بنجاح خاصة بعد ان سقطت الدولة الفارسية بعد القادسية ، واستمر تقدم المسلمين حتى أصبحوا على مشارف الهند الشمالية فى أوائل عهد الدولة الأموية ، فكان طبيعيا أن يتطلع المسلمون الى الهند أملا فى ان تدخل هى الأخرى تحت مظلة الاسلام . ولقد وقعت بعض المشكلات بين المسلمين وبعض الحكام الهنود ادت الى أن يبعث ابو الحجاج الثقفى بحملة بحرية بقيادة محمد بن القاسم الى حوض السند فى ٧١١ م ، ولكنها لم تؤد الى استقرار اسلامى هناك . ومر حوالى قرنان ونصف قرن من الزمان حتى استعاد المسلمون من قواعدهم فى أفغانستان روح الغزو الى أعماق الهند عبر الممرات الشمالية الغربية .

فقد اقتحم سبكتين — سلطان أفغانستان — الممرات الشمالية الغربية ، وهبط حوض السند ، واستولى على بيشاور وكان (الراجبوت) من أعنف القوى الهندية مقاومة لتلك الغزوة . ولكن بعد ذلك آل محمود الغزنوى ليرسلن الحملة بعد الحملة الى

الهند منطلقا من (غزنة) ، وأنزل الهزيمة بالراجبوت ، وروع معظم شـــمال الهند لما صحبت هجماته العديدة من استيلاء مدمر على الغنائم والاسلاب والمجوهرات لفترة غطت العقود الثلاثة الأولى من القرن الحادى عشر ٠

كانت تلك الضربات العسكرية عاملا من العوامل التى فتحت أبواب الهنـــد امام المسلمين وجعلت شمال الهند تحت سيطرتهم الا أن المبادىء الاســـلامية غزت عقـــول الهنود ، حيث أقبلوا من بعد على الدخول فى الاسلام ، وهناك عدة عوامل أدت الى انتشار الاسلام فى الهند والى هزيمة أكبر قوة ضاربة عسكرية هناك وهى (الراجبوت) .

تعتبر (الطبقية) فى المجتمع الهندى المسئول الأول عن هزيمة الهنود امام المسلمين . فالنظام (الطبقى) يجعل مسئولية النصر أو الهزيمة قاصرة على (طائفة) محددة العدد متميزة ومنفصلة عن بقية الشعب ٠ فتصبح الحرب بالنسبة للشعب مســألة غير ذات موضـــــــوع .

وكانت المقاومة الهندية للتوسع الاسلامى تعتمد على أساليب أتقنها المحاربون فى الهند ، ولكنها بمرور الوقت فقدت فاعليتها ، ومن ذلك اعتماد المقاومة الهندية على سلاح (الفيلة) الذى أثبت عدم فاعليته فى القتال ضد المسلمين ، بينما كان المسلمون فرسانا ومشاه على مقدرة قتالية عالية أدت الى توالى الانتصارات على الهنود ٠

وكانت الهند مفككة ، موزعة على عدد من الحكام الذين كانت فيما بينهم أحقاد متوارثة ، كل واحد منهم عينه على جاره وليس على البوابة الشمالية الغربية بل كان منهم من تعاون مع المسلمين . اما والأمر كذلك فقد أصبح التوسع والاستقرار الاسلامى فى الهند امر وقت .

ان التفكك ظاهرة عامة فى كل شعب يتعرض لهزيمة قاسية وكذلك ظاهرة الانفصال بين المقاتلين والقاعدة الشعبية . ولقد حدث مثل هذا خلال الصراع بين المماليك فى ايام السلطان قنصوه الغورى والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول . فقد كانت الأزمات بين القيادات المملوكية متتالية ، وكل أمير منهم يعد العدة لطعن الآخر من خلف ، والشعب ميدان ووقود تلك المؤامرات ٠ فكان أن تغلب العثمانيون على المماليك واســتولوا على الشام ومصر دون أن يتحرك الشعب المصرى .

وانه لأمر طبيعى أن تجد الطبقة (المنبوذة) فى الاسلام المظلة التى يستعيد تحتهـا كيانه الانسانى ، وأن يجد فى المسلم أخا له فى الاسلام ، وكان الراجبوت يحتقرون هؤلاء المنبوذين الى درجة افتقادهم لآدميتهم · لقد كان الدين الاسلامى ولا يزال الدافع الأول عن (المعذبون فى الأرض) .

ونظرا لما يتفوق به الدين الاسلامى من سماحة واحترام الانسان لانسانيته والأخذ بيد الضعفاء فقد كان من الطبيعى أن يقبل عشرات الألوف من المنبوذين فى المجتمع الهندى على الاسلام فاعتنقوه . ولقد كانت القدوة الحسنة واحدة من الأمور التى ادت الى اقناع الشعوب فى جنوب شرق آسيا وفى أفريقيا بالاسلام فانضووا تحت لوائه .

ولا شك أن ضخامة الغنائم التى حصل عليها الغزاة المسلمون الأول خاصة فى أيام محمود الغزنوى جعلت المسلمين يرون فى حملاتهم على (الوثنيين) الهنود فى داخل بلادهم مكسبا للحياة الأخرى حيث أنهم يقاتلون مشركين وثنيين أمر الله المسلمين أن يقاتلوهم أينما (ثقفتموهم) ومكسبا للحيـاة الدنيـا نظرا لما كان يقـع فى يدهم من كنــوز وثروات الهنــــد .

ثم أن المسلمين فى تيار توسعهم كانوا يرون ان ارض الهند لو دانت لهم ستصبح بفضلهم أرضا يعبد فيها الله الواحد القهار ، ومفتوحة أمام المسلمين ليعملوا فيها وليقيموا فيها حضارة انتاجية متقـــدمة ·

وكانت الدوائر العليا المثقفة الهندية أشبه بمثيلاتها فى بيزنطة فى القرن الخامس عشر من حيث غلبة التيارات الفلسفية الجدلية عليهم حتى لقـد سيطرت عليهم وحالت بينهم وبين ادراك القوة الاسلامية الكبيرة التى تنمو شـمالى الهند حتى هبطت اليهم وسيطرت عليهم مثلمـا فعل الاتراك العثمانيون ببيزنطة عنـدما سيطروا على معظم الامبراطورية البيزنطية بينما رجال الدين فيها مستغرقون فى المناقشات (البيزنطية) التى لا تجدى حتى ضاعت دولتهم وامبراطوريتهم واخيرا عاصمتهم فى ١٤٥٣ لصـالح العثمـانيين .

والاسلام حين دخل وانتشر فى الهند ، أقام دولته فى نفس المكان الذى قامت فيه من قبل دول فى التاريخ القديم ومن هنا يقول (دعاة باكستان) بأن (القومية) الاسـلامية فى باكستان من منطلق تراثى ، هذا فضلا عن منطلقها الثقافى ·

فقد تشبع مسلمو الهند بالاسلام وبمبادئه واخذوا طابعه ، وفى نفس الوقت كان المسلم الهندى منذ دخوله واستقراره يتأثر بالثقافة الهندية ، ومما ساعد على ذلك زواج المسلمين من الهندوسيات وعراقة الحضارة الهندية ، هذا فضلا عن أن انتشار الاسلام لم يكن فقط عن طريق المسلمين الوافدين من الشمال الى الهند ، وانما انتشر الاسلام كذلك بين الهندوس ، ولعب الصوفيون دورا رئيسيا فى نشر الاسلام ، وهو دور عالمى قام به المتصوفة الاسلاميون فى الهند وفى البلاد الافريقية السوداء • وعلى أى حال فقد انتشر الاسلام فى الهند فى الشمال (شرقا وغربا) ، وفى الوسط كانت له مكانة قوية، وأضعف أماكنه كانت فى الجنوب . فلقد كانت مناطق (السند) و (البنجاب) و (منطقة الحدود الشمالية الغربية) و (بلوخستان) و (البنغال) هى المناطق التى انتشر فيها الاسلام بدرجات ساحقة اذ أصبح المسلمون هم أصحاب الأغلبية المطلقة فيها .

فخلال القرن الثالث عشر والرابع عشر كثر دخول الهندوس فى الاسلام ، واخذت الحواجز الفاصلة بين المجتمعين الهندوسى والاسلامى تتساقط،واختلط أفراد المجتمعين بعضهما ببعض وكثر زواج المسلمين من الهنديات ، وتبادل المجتمعان التقاليد والعادات بل لقد عبر (الفن) عن هذا التعايش اذ ظهر فن اسلامى هندوسى يكاد أن يعبر عن النظرية القومية ، فكانت هذه التطورات السياسية والاجتماعية الى جانب اللغة الاوردية — التى أصبحت لغة المسلمين وعدد كبير من الهنود — كانت هذه التطورات تأصيلا للنظرية القومية الاسلامية حتى يحين الوقت الذى تصبح فيه هذه النظرية هى العقيدة السياسية للمسلمين زعامات وشعبا. فقد ظهر بالتدريج عدد من الحكام المسلمين فى الهند يعتبرون هذه البلاد (وطنا) لهم وليس لغيرهم من المسلمين وأدى ذلك الى ظهور أمتين متميزتين عن بعضهما وهما : الأمة الاسلامية والأمة الهندوسية .

ويعتبر انتشار اللغة الأوردية بين المسلمين الهنود ظاهرة اجتماعية اعطت هى والاسلام صيغة متميزة تماما عن المجتمع الهندى الهندوسى السنسكريتى اللغة . ومن ثم اصبحت المناطق الشمالية — التى كانت منذ آلاف السنين مقر حكومات ودول — ذات طابع متميز شعبا وثقافة •

ويرى مؤرخو باكستان الوطنيون أن المنطقة التى تقوم عليها باكستان الحاليـــة (باكستان الغربية) قامت فيها العـــــديد من الدول الكبيرة وانهـــا ذات طابع متميز جعل لها مقومات الدولة ، وان مقومات دولة باكستان لا ترجع الى الفترة الحديثة عندما دعا مفكرو المسلمون الى قيام (باكستان) منذ القرن التاسع عشر ، وانما باكستان قامت فى منطقة يجب أن تقوم بها (دول) الى جانب دول أو دولة فى (القارة الهندية) . خاصة وانه قد قامت فى نفس هذه المنطقة دول اسلامية متعددة .

لتاريخ المسلمين الحديث فى الهند مراحل تتميز الواحدة منهـــا عن الأخـــرى حتى انه يمكن تقسيم تاريخ المسلمين فى الهند على النحو التالى :

١ ــ الحكومات الاسلامية منذ القرن الحادى عشر حتى قيام الدولة المغولية فى الهند .

(أ) الدولة الغزنوية .

(ب) الدولة الغـــــورية .

(جـ) دولة المماليك (١٢٠٦ ــ ١٢٩٠) .

(د) الأمراء الخلجيين (١٢٩٠ ــ ١٣٢١) .

(هـ) دولة آل تغلق (١٣٢١ ــ ١٤١٢) .

(و) التيمـــوريون .

(ز) الســـــــادات .

(ح) اللودهيون الأفغان (١٤٥١ ــ ١٥٢٦) .

٢ ــ الدولة المغولية خلال القرن السادس عشر حتى وفاة أورانجزيب ١٧٠٧ .

٣ ــ التغلغل والسيطرة الأجنبية على الهند حتى هزيمة آخر الحكام المسلمين فى دلهى بها دور شاه ١٨٥٧ وانتهاء الدولة المغولية الاسلامية فى الهند .

٤ ــ جهود اليقظة الاسلامية فى الهند .

٥ ــ الحركة الاسلامية لانشاء دولة باكستان الاسلامية .

بعد الدولة الغزنوية قامت فى الهند الدولة الغـورية التى استمرت فى الحكم حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى عندما استبد المماليك بالحكم الذى احتكروه لحـوالى القرن من الزمان حتى خلفهم الأمراء .

وكانت حكومة (المماليك) من أولى وأهم الحكومات الاسلامية التى تولت أمر شمال الهند (١٢٠٦ — ١٢٩٠) ، وهى حكومة تتزامن مع حكومة المماليك فى مصر (١٢٥٠ — ١٥١٧) . وفى عهد مماليك الهند تعرض شمال البلاد الى اجتياح جيوش جنكيز خان ، ومثلما نجح المماليك فى مصر من صد التيار الاجتياحى المغولى فى عين جالوت ١٢٦٠ نجح الطمش عند بيشاور فى صدهم عندهم ٠

وانه لمن غريب المصادفات التاريخية ان تشتهر سيدتان : (شجرة الدر) عنـد مماليك مصر ، و (راضية) ابنة الطمش عند مماليك الهند وأن تتشابه نهايتهما بالقتل . ولكن بعد شجرة الدر فى مصر استقرت الأمور فى قبضة المماليك ، بينما انتشرت الفوضى فى الهند بعد (راضية) واستمرت حتى تولى الحكم (علاء الدين) (١) فى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر ٠ وقد دار صراع مرير بينه وبين الراجبوت .

من بعد المماليك حكم الأمـــراء الخلجيين من ١٢٩٠ حتى ١٣٢١ وأعقبهم دولة آل تغلق (١٣٢١ — ١٤١٢) ، وفى عهد محمود الغورى — آخر الحـكام من آل تغلق — انقض تيمور لنك على شمال الهند فاجتاحه ، وسقطت العاصمة دلهى فى يد أحد القـواد التيموريين فى ١٤١٤ . ووقعت عمليات نهب واسعة النطاق تذكرنا بمـا حدث على يد محمود الغزنوى فى أوائل القرن الحادى عشر ٠

كان الغزو التيمورى سببا رئيسيا فى اشاعة الفوضى فى الدولة الاسلامية ، وادى الى تعدد الدول والدويلات . فظهرت فى دلهى (أسرة السـادات) على يد (خضر خان) نائب التيموريين واستمر (السادات) فى الحكم حتى ورثهم (اللودهيون) الأفغـان فى ١٤٥١ ، واستمر اللودهيون فى الحكم حتى ١٥٢٦ اذ جاء من بعدهم المغول .

---

(١) علاء الدين .

الى جانب ذلك وجدت مجموعة من الامارات الاسلامية المتفاوتة القوة وأهمها :

١ ــ جنبور : وكانت امارة مستقلة عن دلهى ثم استولى عليها اللودهيون الأفغان .

٢ ــ البنغال : استقل به حسين شاه ، ويقال أن هذا الرجل دعا الى دين جديد يجمع بين عقائد الهندوكيين والمسلمين الذين انتشروا فى البلاد وتولوا الحكم فيها . ولم يلبث البنغال أن وقع فى يد الأفغان بعد ذلك .

٣ ــ امارة كجرات التجارية الثرية ذات الاتصالات الواسعة مع مصر وشرق أفريقيــة والخليج العربى . وقد استقلت هذه الامارة فى ١٤٠١ م / ٨٤٠ هـ .

٤ ــ مالوه ، وتقع شرقى كجرات . واستقلت فى مطلع القــرن الخامس عشر . ولكن استولى عليها بهادر خان أمير كجرات ١٥٣١ م / ٩٣٧ هـ .

٥ ــ خاندش ، استقلت عن دلهى ثم وقعت تحت سيطرة كجرات .

٦ ــ بهمنى ، وكانت تشغل مساحات واسعة من نواحى بمباى وحيدر آباد ودار صراع دموى بين امارة باهمنى ودولة فيايانكر ثم تفسخت الى خمس امارات متحــاربة هى : بدار ، برار ، بيجابور ، أحمد نكر ، غولكنده .

٧ ــ أوريا فى أقصى الشرق .

٨ ــ كشــــمير .

٩ ــ دولة « فيايانكر » الهندوكية القوية فى أقصى الجنوب وكانت تقاتل بعنف شديد ضد الامارات الاسلامية ، وعنـــدما وصل البرتغاليون الى الهنـــد وجدوا فى « فيايانكر » حليفا طبيعيا لهم ضد القوى الاسلامية فى الهند .

١٠ ــ موار : الهندوكية وكان يحكمها راناسنكا وهو من اشهر أمراء الراجبوت .

هكذا كانت الهند مفككة الى عدة دول متحاربة متقاتلة . ولكن من الممكن ان نقول أن التفوق الاسلامى كان حاسما فى الشمال ووسط الهند ، وأن الهندوكيـــة ترتكز على معاقلها العسكرية والسياسية فى الجنوب .

ويمكن أن نقول أيضا أن مطلع القرن الخامس عشر كان يشـــير الى حاجة المناطق الوسطى والشمالية الى حكومة قوية تستطيع أن توقف الصراعات المحليـــة ، وتبلور الموقف فى الشمال ليصبح فيه دولة لودهية أفغانية ، واخرى كجراتية (اسلامية) فى الشمال الغربى . وكانت بداية الدولة اللودهية لا تبشر بقدرتها على خلق حكومة قوية يكون لها اليد العليا فى حكم البلاد .. بل لقد استشرت الصراعات بين رجـــال الأسرة الحاكمة اللودهية نفسها ، فكانت فرصة واسعة أمام الأمــراء الاقطاعيين ليتخففوا من اعباء التبعية للأسرة اللودهية ، واعلنوا الثورة عليها . فكانت هذه الظروف هى التى مهدت الطريق أمام بابر — صاحب غزنة — ليندفع بجيوشه الى سهول الهند ليستولى على دلهى ، وليؤسس امبراطورية مغولية حضارية فى الهند .

وفى ختام استعراضنا لتاريخ الهند الاسلامية قبل دولة المغول يجدر بنا أن نضع الحقائق التـــــالية :

١ — ان انتشار الاسلام فى الهند لا يرجع فقط الى الهجرات الاســلامية الى الهند بل كذلك الى دخول الهنود أنفسهم فى الاسلام باعداد غفيرة جعلت اعداد المســلمين هناك تصل على الأقل الى ربع سكان الهند بأسرها .

٢ — ان المتصوفين الاسلاميين وكذلك الدعاة من المذهب الاسماعيلى قاموا بادوار كبيرة جدا فى نشر الاسلام بين الهنود .

٣ — ان المسلمين كانوا مركزين فى النصف الشمالى من الهند وخاصـــة فى حوض نهر السند (البنجاب) وفى الشرق فى البنغال ، وعدة ملايين اخرى من المســلمين فى وسط الهند ، وكلما اتجهنا جنوبا قلت أعدادهم .

٤ — ان مسلمى الهند كانوا موزعين على المذهبين الرئيسيين الاسلاميين : مذهب اهل السنة ، مذهب الشيعة .

تلك كانت التطورات التى أدت الى أن يصبح عدد المسلمين فى الهند موازيا تقريبا لتعدادهم من الشرق الأوسط بأسره من افغانستان الى الدولة العثمانية حتى المغـرب عندما وصلت الدولة العثمانية الى ذروة توسعها فى القرن السادس عشر ، وبمعنى آخـر كان للمسلمين دول كبرى رئيسية فى القرن السادس عشر .

١ ـ الدولة العثمـــــانية .

٢ ـ الدولة الصفوية فى ايران .

٣ ـ الدولة العلوية فى المغرب .

٤ ـ الدولة الاسلامية فى الهند .

والى جانب هذه الدول الكبرى توجد دول اخرى اسلامية أقل شأنا فى شـــبه جزيرة الملايو وفى شرقها ، وفيما وراء الصحراء الكبرى الافريقية،وبينما كان العثمانيون يتوسعون فى البلقان فى القرن الخامس عشر كان المسلمون يفقـــــدون الأندلس . ومع ذلك فقد أصبح العالم الاسلامى أكثر اتساعا فى القرن السادس عشر عنه عن ذى قبل .

على أن قيام دولة المغول فى الهند فى أوائل القرن السادس عشر كان من العــوامل التى رفعت حضارة الهند الى مستويات أكثر سموا من حضارات الهند الســابقة ومن حضارات أخرى معاصرة لها .

الفصل الثاني

امبراطورية المغول في الهند

عصر الذروة

- بابـــــــــر
- همــــــايون
- اكبـــــــــر
- اورانجـــزيب

فى المشرق الاسلامى لا يكاد انسان يسمع كلمة مغول حتى تقفز الى ذهنه صورة من المعارك الدموية التى كانت تنتهى بأهرامات تبنى من جماجم القتلى عنـد قدمى خانات المغول وقوادهم ، وحتى يتذكر المرء بسرعة صـور الخراب والدمار الذى أصـاب بغداد على يد المغول ، وما ترتب عن ذلك من أن تصبح هذه العاصمة الاسلامية الأولى مجرد مدينة تحت حكم وثنى غاشم ، كذلك سرعان ما يتذكر المرء صورة نهر دجلة وقد زاحمت فيه جثث العلماء وكتبهم وتراثهم اشلاء الحامية البائسة التى دافعت عن آخـر خليفة عباسى اقام فى بغداد (١٢٥٨) .

وهناك اتجاه عام لدى من يكتبون عن المغول وهو اتهامهم بأنهم لم يبنوا امبراطوريتهم الواسعة الممتدة من حدود الصين حتى الشام الا بسبب تفوقهم العددى المهول الذى كان يكتسح أمامه قوى المقاومة كبيرها وصـغيرها • كذلك يتحدث كثير من الكتـاب عن ان انتصارات المغول على اعدائهم كانت ترجع فى اغلب الأحيان الى اهتزاز اعصاب قوى المقاومة اهتزازا كبيرا نتيجة للدعايات المروعة التى كانت تسبق الجيوش المغولية ، وتردد انهم اذا دخلوا مدينة قتلوا رجالها وهتكوا فتياتها ونساءها . وساقوا بقيـة السيوف عبيدا او الى الأسـواق .

ولا شك ان هذه الدعايات كانت تقوم على حقائق ثابتة ، وان ما اقدم عليه المغول من مذابح جماعية ، ومن افناء لسكان مدن بأجمعها ، كان كفيلا بأن يثير الرعب فى نفوس اعدائهم . ولكن ليس هذه هى فقط اسباب انتصاراتهم • فهناك عامل التفكك الذى كان عليه العالم الاسلامى ، وفى اعتقادنا ان العامل التنظيمى هو السبب الأول فى نجاح المغول فى بناء امبراطوريتهم الشاسعة ، وفى اعتقادنا ان صور الفزع والرعب والدمار حجبت عن الناس حقيقة هامة هى ان المغول انتصروا بفضل دقتهم فى تنظيم الجيوش ، وسيطرتهم عليها ، وهذا ما كان ينقص معظم القوى التى اصطدمت بهم فيما عدا مماليك مصر الذين هزموا المغول فى موقعة عين جالوت فى ١٢٦٠ .

هذه الصورة المفزعة حجبت عن اهل الشرق صورة رائعة من صور الحضـارة

المغولية التركية عاشت زهاء خمس قرون ونصف ، ونعنى بذلك الدولة المغـــولية فى الهنــــــد .

يعتبر « ببر » من عظماء التاريخ الاسلامى بصفة عامة ، وتاريخ الهند بصـــفة خاصة ، فهو مؤسس دولة المغول فى الهند التى اســتمرت تحكم — وان كان ذلك على درجات متفاوتة من القوة والضعف — من مطلع القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر .

و « ببر » ، هو الاسم الذى اشتهر به ، وهو يعنى (النمر) ، وأما اسمه الحقيقى فهو « ظهير الدين محمد بن عمر شيخ ميرزا » . وهو ينحدر من ناحية الأب من ســلالة « تيمورلنك » ، وكذلك ينحدر من سلالة الفاتح المغولى الشهير جنكيز خان .

ولد « ببر » فى ١٤٨٣ م / ٨٨٨ هـ . توفى عنه أبوه صغيرا ، ليصبح على عرش فرغانة (١) مهيض الجناح بين عدد كبير من الطامعين فى عرشه . وكان اثنين من أعمامه مستعدين لأن يخوضا المعارك الدموية من أجل السيطرة على فرغانة ، ولقد عانى السلطان الفتى مر العناء من هذين العمين ، ولم يخلصه منهما سوى انهما توفيا الواحد بعـــد الآخر . واستطاع ببر من بعد ذلك ان يستولى على « سمرقند » (٢) عاصمة وسط آسيا وحاضرة التيموريين . وكم كان « ببر » يريد أن تظل ســمرقند تحت يده ، ولكن كان هناك العديد من القوى الراغبة فيها . فدار صراع طويل مرير بين ببر وشيبانى خان الأوزبك (٣) حتى ثبت أن لا جدوى أمام هذا المقاتل العنيد (شــــيبانى خان) ، فترك سمرقند وبلاد ما وراء النهر ، وكاد أن يصبح مجـــرد أمـــير يضرب فى الأرض على غـــير هـــدى .

وكانت شدة ضربات الأوزبك (٤) فى المنطقة كفيلة بأن تشتت شمل الكثير من القوى العشائرية هناك ، وكانت هذه القوى لا تجد من وسيلة سوى أن تحافظ على ما تبقى

(١) فرغـــــانة .

(٢) ســـــمرقند .

(٣) انظر الفصل الأول من القسم الأول من هذا الكتاب .

(٤) انظر الفصل الأول من القسم الأول عن التعاون بين الشاه اسماعيل وببر ضد الأوزبك .

لها من تماسك ، مثلها فى ذلك مثل « ببر » . وعندما تلتقى قوتان من هذا النوع سرعان ما يتفقان معا نتيجة لتشابه المصير والعدو المشترك . ومن هنا استطاع « ببر » أن يجمع حوله عددا من المقاتلين اعتمد عليهم فى أن يؤسس لنفسه ملكا عزيزا بعيدا عن متناول الأوزبك ، ولذلك وضع يده على بلاد كابل وغزنة المضطربة ، فأصبحت هـذه البلاد له بمثابة قاعدة أكثر ثباتا ، وقوة يستطيع أن يعتمد عليها لا فى صد القوى المحيطة به ، بل جعلته يتطلع الى التوسع فى اتجاه الهند ، لا على اعتبار أنها أرض جديدة يريد الاستحواذ عليها ، وانما على اساس أنه هو وريثها اذ كانت من قبل للتيموريين . فقام بحملات الى داخل الهند ، وتمكن من أن يضع يده على بعض الأقاليم ، وخاصة (بهيرة) فى ١٥١٩ . ومن هنا أصبحت أمور الهند مكشوفة أكثر أمام ببر ، وكانت الأوضاع الداخلية هناك تغرى ببر بمتابعة الفتح والتوسع .

فقد كانت الهند — تحت حكم أسرة اللودهى — فى اضطراب شديد فى أوائل القرن السادس عشر . وتقوى الهندوكيون ، وكونوا جبهة قوية ضد الدولة اللودهية . وكان « ببر » على دراية بما كان يجرى فى الهند ، ويدرك ان دولة اللودهى تحتضر ، وأن قوة الراجبوت الهندوكيين تتعاظم وقد تتمكن من أن تفرض نفسها على الحكام المسلمين . وكان الأمراء الأفغانيون فى الدولة اللودهية قد فقدوا الثقة فى سلطانهم ، وشعروا أنه لا بد من زعيم قوى يعتمدون عليه ضد السلطان اللودهى . وكان ببر مستعدا لأن يضع يده فى يدهم ، فلقد كانت له آماله الخاصة أيضا فى الهند .

تحرك ببر على رأس جيشه صوب الهند ، واستولى على لاهور فى ١٥٢٤ ، وخاض ضد الشاه اللودهى معركة كبيرة فى بانى بت حصدت خلالها مدفعية جيش ببر ورماة بنادقه جنود الجيش اللودهى الذى منى بهزيمة حاسمة قضت على الدولة اللودهية ، اذ لم يلبث ان جلس ببر على العرش فى اكرا (١٥٢٦ م / ٩٣٢ هـ) .

استطاع ببر أن يوحد معظم شمال الهند تحت سيطرته ، ولكن كان عليه ان يتابع الحرب ضد القوى الأخرى فى الهند الكارهة له ، العاقدة العزم على كسر شوكته . وهذه القوى كانت هندوكية ، وبعضها كانت اسلامية .

كان الصدام بين الغازى الجديد والأمراء الأفغانيين الذين استنجدوا به من قبل أمرا لا بد منه . كانوا هم يريدون منه أن يخلصهم من سلطانهم اللودهى ، لا أن يرث هو هنا

السلطان بينما كان ببر يرى انه أحق الرجال بالحكم فقد فتح البلاد بحد السيف ، وهى بلاد اجداده . وكانت مشاعر الأمراء أشد سخطا عليه من سخطهم على سلطانهم اللودهى السابق . لقد كان اللودهى ضعيفا يستطيعون فرض كلمتهم عليه ، أما ببر فكان عملاقا ذا طباع قاسية ، ولهذا امتشق الأمراء الأفغانيون السيف ، وكانوا فى قتالهم للجيش المغولى على باس شديد وكانت دقة معرفتهم للبلاد ومسالكها من الأمور التى أعانتهم على قتال ببر لمدة طويلة .

ولكن جينذاك كان الأمراء الراجبوت (الهندوكيين) يجمعون صفوفهم ضد هذا الغازى الكبير ، وآثر ببر ان يترك أمر هؤلاء الأفغانيين مؤقتا ، ليركز جهوده ضد الراجبوت وزعيمهم « رانا سنكا » الذى كان يسيطر على معظم الوسط والجنوب . واصبحت المعركة المقبلة بين أكبر قوتين فى البلاد ، كل منهما يدعى أنه صاحب البلاد . وكانت جبهة الراجبوت قوية ، وكانوا يعتقدون أن قوة الغازى الجديد ليست بقادرة على أن تفرض نفسها على البلاد كلها ، وأقل من أن تصمد امام العسكرية الراجبوتية المشهورة . ولكن الراجبوت كانوا من تراث الماضى ، ويعتمدون على أساليب الحرب والقتال التقليدية ، بينما كان ببر أوسع افقا ، وأكثر من استخدام الأسلحة النارية التى كانت العامل الحاسم فى كسب معركة (بانى بت) من قبل .

ولكى يقوض الراجبوت ادعاء ببر بحقه فى الملك والأرض ، ظلوا وراء الأمراء الأفغانيين حتى اقنعوهم بالتحالف معهم ضد (المغتصب) ، وايدوهم فى أن يتولى السلطنة واحد من الأسرة اللودهية ، وليس مغامرا — مثل ببر — وفد من خارج البلاد . وفعلا أعلنوا محمود خان سلطانا على البلاد ، وامتشقوا الحسام باسم اعادة صاحب الحق الشرعى الى عرشه فى آكرا .

لقد كان الخطر كبيرا على ببر ، وكانت القوات التى تحت يده قادرة على الصمود فترة ، ولكن ليس على حرب طويلة الأمد ومن ثم كان على ببر أن يخوض معركة يكسر فيها اعداءه كسرة لا قيامة لهم من بعدها ، والا تعرض لسلسلة من الحروب لا يعرف كيف تنتهى . وكان لا بد له من أن يرفع معنويات جنده الى درجة الاستماتة الى اقصى حد فى القتال ، ودخول المعركة على أساس النصر أو الموت . وهنا لجأ ببر الى العامل

الدينى ليصبح الدافع القوى الذى يحث جنده على القتال دون رهبة من الموت بل رغبة فى اعلاء كلمة الله ٠

ولكن ببر كان سكيرا . حقيقة كان مؤمنا بالله ، باستثناء ما يتعلق بالخمر ٠ وكان قواده على شاكلته ، وحيث انه كان فى حاجة الى الفكر الدينى الخالص لكى يلقى فى روع جنده انه مقبل على حرب جهاد فى سبيل الله ، وحيث انه كان فى حاجة الى نفوس متطهرة من كل آثام لكى يضعها على مستوى المسئولية الدينية ، ضرب هو أولا المثل فى التخلص من كل ما يتعارض مع الايمان الكامل وأقسم ليتركن الشراب ، وليحطمن الكئوس ، وليغفر الله عما سلف ، خاصة وأن التوبة ستعقبها تضحية بالنفس فى جهاد الوثنيين (الهندوكيين) .

وهكذا عبأ ببر جيشه ، واعده للمعركة الحاسمة . واستطاع أن يخوض المعركة وهو واثق من صلابة جيشه وقدرته على احراز النصر وانتزاعه انتزاعا من يد الراجبوت . فلقد كان بابر يدرك أن الراجبوت ليسوا بالعدو السهل المنال ، وانما للتغلب عليهم يجب أن تبذل كافة الجهود ضدهم .

وفى معركة « خانوة » وهى من أعنف المعارك التى دارت فى القرن السادس عشر فى ١٣ جمادى الثانى ٩٣٣ / ١٦ مارس ١٥٢٧ م — انتصر ببر أروع انتصار ٠ ولم تقم لا للراجبوت ولا للأفغانيين قائمة فى الهند لمدة طويلة ٠ حقيقة كان هناك من ظل متمسكا من الأمراء الهندوكيين ومن الأمراء الأفغانيين بقلاعهم وحصونهم وبعض اقطاعاتهم ٠ ولكنهم لم يعودوا قوة كبيرة قادرة على اقتلاع الدولة المغولية التى ثبتت أقدامها بعد خانوة ، وشرع ببر من بعد فى توسيع رقعة مملكته .

أصبح لببر ملك عريض ، وطفق يعمل لبناء دولة اسلامية قوية . وكان يعيد النظر حين أدرك انه يحكم شعبا خليطا من المسلمين ومن الهندوس ، وما كان له أن يقوم باصلاحات عامة الا اذا كانت الأمور الداخلية مستقرة وهادئة وألا اذا كانت العلاقات الطائفية غير متفجرة . ومن هنا كانت دعوة ببر الى التسامح الدينى . فكانت هذه من اهم الوصايا — التى أوصى بها ابنه همايون — قبل أن يتوفى فى ١٥٣٠ ٠

اعتلى همايون العرش خلفا لأبيه ليجد نفسه أمام قوى عديدة تتربص به من داخل اسرته ، ومن خارج مملكته ٠ فقد انقض عليه أخواه « كمران و عسكر » ، وتمزقت

المملكة ، وفقد بيهار والبنجاب ، بل فقد كذلك افغانستان ليصبح من بعد ذلك طريدا هائما فى اقليم السند لا يعرف لنفسه مستقرا .

وخلال هذه الأزمة الحادة جاءته الأنباء بأن زوجته « حميدة » قد انجبت له ولدا (١٥٤٢) ، فاذا بهاميون الطريد يتحول الى مقاتل على أعلى مستويات الصلابة والعنف ، وأقسم ليقاتل ويقاتل حتى يعيد بناء ملك جدير به ليرثه هذا الطفل الملكى من بعده . لقد كانت ولادة هذا الطفل — الذى سمى جلال الدين محمود واشتهر « باكبر » — قوة دافعة عظمى لهمايون . فخاض حروبا ومعارك دامية عديدة ، ولكنه خسرها الواحدة بعد الأخرى ، حتى لقد عجز عن أن يجد حصانا ثانيا لزوجته لتفر معه من وجه المطاردين ، فحملها من ورائه تاركا طفله الصغير « اكبر » ليقع أسيرا فى قبضة عمه « عسكر » . ولكن « عسكر » كان كريما نحو ابن أخيه فلم يصبه بسوء .

لم يهدأ همايون ، وأصر أن يتابع الحرب والقتال ، كان يجمع القليل من القوات من هنا ومن هناك ، ولكنه كان مصمما على أن يصل الى هدفه ، وأن يستعيد ابنه ، ويبنى له ملكا . وبعد جهاد متطاول استطاع أن يدخل « كابل » فى ١٥٥٥ ، وهناك اجتمع همايون وحميدة — بعد طول فراق وعناء — بابنهما أكبر الذى كان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره .

التفت همايون الى ولده ليربيه ، وليعده لكى يحكم من بعده . فاحضر له أعلى الأساتذة كعبا فى العلوم ، وأشهر المربين قدرة على تعليم الصبية والفتيان . ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام فتى على غير ما ألفوه من الصبية والفتيان . فيهم العنيد ، وفيهم الصلب الذى لا يلين لعلم أو يتقبل الدراسة ، ولكن كانوا جميعا يقبلون بدرجات متفاوتة — بعد جهد كبير أو قليل — على الدرس والتحصيل فيحصلون على شىء من المعرفة ، وقد يستمرون أو لا يستمرون طويلا ولكن كانوا يحصلون شيئا . أما اكبر فكان كصخرة قدت من جبل ، وذهنه أبعد ما يكون عن الدرس . وبذل الأساتذة جهدهم ، وما هو فوق طاقتهم أمام هذا الصبى العنيد ، ففشلوا حتى فى تعليمه مجرد القراءة والكتابة .

كان اكبر معتزا بشبابه وقوته ، وكانت له قوة جسمية خارقة ، ورثها عن جده ببر ولكنه تفوق عليه فيها . كان منصرفا كلية الى الرياضة العنيفة ، وكان يعشق الجندية والاقتتال ، فعاش سنوات الفتوة الأولى مع السيف والخيل والعاب الفروسية معرضا

كل الاعراض عن آداب العصر ، وعن أساليب الحكم والادارة . ولكن خلال ذلك مـــات همايون فى ١٥٥٦ تاركا الدولة التى أسسها بعد جهد جهيد فى يد هذا الفتى الذى لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد .

ولكن قيض « لأكبر » ان يقف الى جانبه فى هذه السن الحرجة رجل مخلص وهو الوزير بيرم الذى يرجع اليه الفضل فى الانتصار الحاسم فى موقعة بانى بت الثانيـــــة (١٥٥٦) على « آل سور » فى (البنجاب) (واورا) . وكان « آل سور » فى الواقع هم اخطر القوى على « اكبر » . ولهذا يكون بيرم قد حفظ المملكة والعرش لأكبر · ولكن اكبر لم يلبث أن عزله من منصبه بتأثير المؤامرات التى نصبت ضده ولأن اكبر خشى على نفسه من هذا الوزير القوى الذى أصبح له الفضل عليه . حقيقة ثار بيرم ضد هذا الاجـــراء الظالم ، ولكنها كانت ثورة نفسية أكثر منها عسكرية ضد اكبر · اذ لم يلبث أن ألقى السلاح ، وقبل بيرم أن يغادر البلاد وأن يعيش فى المنفى فى مكة المكرمة .

لم يتول اكبر امور الدولة مباشرة بعد اقصاء بيرم ، وانما كانت امور الدولة تدار بواسطة بعض الأميرات المتنفذات وبعض رجال البلاط . فلما تولى اكبر كل السلطات فى يده وجد امامه مهمة شاقة للمحافظة على ملكه . فقد كانت الى جـــواره مجموعة من الامارات القوية تتطلع الى التوسع على حسابه · ولهذا شن اكبر سلسلة من الحملات المتتابعات على الســـند والملتان وكشـــمير وكجرات وخاندش واوريســـا وغندوانا والراجبـــــــوت (١) .

ونحن لا نستطيع هنا أن نبين بالتفصيل كيف استطاع اكبر ان يتغلب على كل تلك الامارات ولكن سنشـــير فيما يلى الى بعض الأمـــور الهامة التى توضح طبيعة الانتصارات والفتوحات التى احرزها :

أولا : لقد كانت المعارك ضارية ودموية ، خاصة فى معركة بانى بت الثانية وفى القتال الدى دار قبل سقوط حصون الهنادكة المنيعة الثلاثة : جنور وكلنجر وتنبوبهور .

---

(١) عن حروب اكبر انظر :

Powell - Price : PP. 247-274.
Edwards and Garrett : op. cit. : PP. 23-35.
Lane-Poole : op. cit : PP. 238-258.

ثانيا : ان معظم سنى حكم اكبر — التى امتــــدت نصف قــرن من الزمان (١٥٥٦ — ١٦٠٥) — كانت حروبا ومعارك ضد أعدائه .

ثالثا : ان أسهل الحروب التى خاضها كانت حربه القصيرة ضد اخيه ميرزا حكيم الذى حرضه الثائرون على اكبر وحرضوه على الاستحواذ على العرش . ولكن اكبـــر سرعان ما اخضعه وندم ميرزا حكيم على ما اقدم عليه فعفى عنه اكبر واعاده الى منصـــــبه .

رابعا : ان اكبر لم يواجه أعداء متكتلين وانما واجه كل امارة على حدة ، وكان اكبر يدرك حقيقة الأمور فى الهند من حيث أنه لا احترام فيها الا للقوة • ولهذا عنى بقـــوته المسلحة خير عناية فكانت لديه اقوى مدفعية فى الهند وكانت المدفعية هى السلاح الحاسم فى المعارك حينذاك . ولهذا درس طرق صناعة المدافع وادخل تحسينات عليها لتكون سهلة الحركة .

خامسا : كان اكبر شخصية قيادية فذة ، اســتطاع ان يحتفظ بترابط الجيش حتى فى ادق المواقف . وكان عظيم الثقة بنفسه وفى أن النصر حليفه ولكن دون أن تعميه تلك الثقة عن اتخاذ الاحتياطات اللازمة •

سادسا : كان اكبر يحترم ويقدر عدوه الذى يستبسل فى الدفاع عن نفسه وعن ماله ، حتى انه بنى تماثيل لعدد من القواد الذين قاتلوه سيفا لسيف ويدا ليد حتى آخر قطرة فى دمائهم . صنع تمثالا للقائد الهندوكى « جمال » الذى دافـــع عن حصن « جتور » حتى صرعه اكبر برصاصة أطلقا عليه . واقام تمثالا للملكة الوصية على ابنها أمير « بتا » ولابنها ولزوجته الشابة الصغيرة ، لأنهم انتحروا بعد ان يئسوا من النصر (١) •

سابعا : كان اكبر لا يعامل البلاد التى ينتصر عليها على اعتبار أنها بلاد مفتوحة يعرضها للنهب والاذلال ، وانما كان يحترم حكامها السابقين ، فكان يقرب اليه بصـــفة خاصة الأمراء الهنادكة . لقد كان اكبر عازما على أن يعيش فى الهند وللهند . ولهذا

---

(١) Edwards and Garrett : op. cit. : p. 35, and Binyon : op. cit. p. 70. and Powell - Price : op. cit. pp. 250-251.

أشرك هؤلاء الأمراء الهنادكة معه فى توجيه امور البلاد . ثم ان اكبر صاهرهم بما فى هذه الكلمة من معانى التعاطف الأسرى والسياسى (١) .

ثامنا : ان قيمة انتصارات وفتوحات اكبر فى انها أقامت امبراطورية واضحة المعالم مستقرة الجوانب . حقيقة لم يسيطر على كل الهند بأسرها ولكنه فى الحقيقة سيطر على معظمها فقد اصبح يسيطر على كل شمال الهند ووسطها (٢) ولم تبق سوى دولة فيايانكر الهندوكية فى اقصى جنوب الهند خارج دولته .

ولا تقل مغامرات وشطحات اكبر فى مجالات التصوف والالهيات أهمية عن حركاته العسكرية . ويمكن تقسيم تاريخ اكبر من الناحية الدينية المذهبية الى ثلاثة فترات .

الفترة الأولى : منذ اعتلائه العرش حتى ١٥٧٨ م — كان مسلما سنيا يؤدى الفرائض وينشر الدين الاسلامى ومتحمسا فى بناء المساجد . ومن روائع مساجده مسجد (بلند دروزة) .

الفترة الثانية : : بين ١٥٧٨ الى ١٦٠١ وتتميز بمحاولته الانطلاق فى أجواء الفلسفات الآلهية . وانتهى به الأمر الى اعلان (المذهب الآلهى) (٣) .

الفترة الثالثة : تمتد من ١٦٠١ — ١٦٠٥ فكانت فترة من القلق النفسى والأزمات العاطفية ، فقد خلالها ابنه الأصغر وامه الحنون ، واعز أصدقائه وخلصائه أبا الفضل ، وخلالها ثار عليه ابنه سليم . وخلال هذه الفترة ايضا غادر الى الأبد عاصمته الرائعة (فتحبور) (٤) . واغلب الظن أن هذه الأزمات النفسية الشديدة التى صاحبت ثورة ابنه سليم عليه هى

---

(١) يذكرنا هنا بالزيجات السياسية بين سلاطين آل عثمان واميرات البيت البيزنطى الأمر الذى اعان العثمانيين على التوسع على حساب الامبراطورية البيزنطية .

(٢) اصبحت امبراطورية اكبر تضم ما يلى : أفغانستان ، كشمير ، البنغال ، بيهار ، جولكندة ، أحمد نكر ، كجرات ، دهلى ، الملتان ، اجمير ، اودة ، ملوة ، الله آباد .

(٣) سنتناوله بعد قليل .

(٤) مدينة بناها (اكبر) لتكون عاصمته ولتكون ذات طابع خاص .

التى اعادت اكبر الى حظيرة الدين الاسلامى ، فتوفى فى ١٦٠٥ وهو يحاول أن ينطق باسم الله سبحانه وتعالى .

كان اكبر فى سبيل بناء تلك الامبراطورية قد خاض معارك دمـــوية كلفت الآلاف المؤلفة من الضحايا ، فكم من حامية دافعت عن قلعتها حتى أصبح من المتعذر على الجند أن يتخطوا الجثث والاشلاء ، وكم من اهرامات عالية بنيت من رؤوس القتلى الهنادكة والمسلمين على السواء ، وكم من أمير قتل أسرته قبل أن تقع فى قبضة اعدائه المنتصرين؛ وكم من كنوز من ذهب وفضة جمعها المنتصرون بقسوة من المهزومين ثم يدور عليها من بعد ذلك صراع مرير بين المنتصرين أنفسهم .

انها فى الواقع لمأساة كبرى عاشها اكبر ، واشترك فيها ، ودبر بعض اطرافها ، وهو كاره لبشاعتها ولقسوتها . وأخذ يطلق العنان لفكره لعله يجد تفسيرا واضحا لتلك المذابح البشرية التى بدأت منذ أن دب الانسان على الأرض .

ورأى اكبر أن من بين الهنادكة من دافع عن نفسه وجنسه ومعتقده حتى لقى المنون وكذلك فعل المسلمون الذين تصدوا لاكبر وحاربوه حتى انتصر عليهم . فهم هنا سواسية فى مقاومته . ثم إن هناك ملايين من الهنادكة تمسكوا بمعتقداتهم البرهمية والزردشتية والجينية ولا يريدون لها بديلا .

ويصاب اكبر فى بعض الاحيان بشطحات فلسفية فاذا به يرى هذه الضجة التى تملأ الحياة عجيبة مليئة بالمتناقضات فهو يرى أمامه صورا من صراع لا يهدأ بين خليط من الأجناس والمعتقدات وكل جنس يرى فى نفسه انه هو اسمى الأجنـــاس ، وكل صاحب عقيدة يعتقد انه هو فقط الذى كسب الحياتين الدنيا والآخرة وان ما عداه فى سقر .

فكيف لاكبر أن يحكم شعبا كهذا خليطا من معتقدات شتى ومن أجناس مختلفة . ان ادخال جميع الهندوكيين فى الاسلام كان أمرا بعيد الاحتمال ، وأن ترك هذه المعتقدات وتلك الأجناس تتصارع لهو خطر ساحق على مستقبل الدولة التى أسسها .

لقد سعى اكبر الى البحث عن المذهب أو العقيدة الحقة التى يجب أن يتبعها والتى يجب أن يتبعها اهل الهند . فنظر حوله فاذا بالفرق الاسلامية متناحرة متعادية . واوضح

مثل على هذا ذلك الصراع الدموى الذى كان بين الشيعة الصفوية من جهة والعثمانين السنة من جهة أخرى ، وهو صراع اشماز منه اكبر .

اراد اكبر أن يتبين الطريق السوى بين الفرق الاسلامية ولكنه لم يستطع أن يتبين الطريق من شدة الأضواء التى كانت على جانبيه وفى وسطه ولاختلاف ألوانها . ولكنه كان فى نفس الوقت طريقا مضرجا بالدماء مليئا بالمآسى التى خلفها صراع متطاول بين الفرق .

كان اكبر خلال بحثه عن الحقيقة يصاب بأزمات نفسية حادة حتى لتجده فجاة قد امتطى صهوة جواده العربى العراقى (حيران) فيطلق له العنان الى أى اتجاه ويظل حيران منطلقا ويظل اكبر يحثه على المضى الى أى شىء حتى يعجز (حيران) عن الركض ، واذا باكبر فى مكان موحش فيعيش فيه مع خيالاته الصوفية الفلسفية ، حتى تهدأ نفسه . واخيرا يجد (حيران) بين يديه فيعود به الى صخب الحياة وضجتها والى مآسى الحكم والقتال .

ولقد بلغ باكبر الهوس الصوفى والفلسفى الى الدرجة التى جعلته يجمع عددا من الأطفال ويربيهم بعيدا عن تأثيرات المجتمع ليعرض عليهم الأديان والمذاهب فلعل فطرتهم تهديهم الى الدين الأصيل الفطرى الحقيقى . فلما عرض عليهم الأديان والعقائد فوجىء بأن عزلتهم عن المجتمع جعلتهم جماعة من البكم لا تعى ما يقدم لها ولا تستطيع التعبير عما تنفعل به (١) .

واتجه اكبر كذلك الى دراسة الكتب السماوية ، القرآن الكريم والانجيل . ولكنه وجد ان الأفضل هو أن يجمع كل صاحب مذهب او دين فى مكان واحد ليتجادلوا فى أمور العقيدة ، وليدافع كل واحد عن معتقده لعله يصل الى الطريق الصحيح الى الله . ولهذا بنى اكبر (عبادة خانة) فى ١٥٧٤ فى عاصمته الجديدة (فتحبور) لتكون مقرا لتلك الندوات الدينية .

وكان اكبر يتساءل : هل يمكن اتحاد الترك والفرس والمسلمين والهندوكيين

---

(١) Binyon : op. cit. p. 49.

احمد الساداتى . تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية جـ ٢ ص ١٤٣ هامش .

والزردشتيين والجينيين والبراهمة . جميعهم فى بوتقة واحد مثلما حدث للغات الهندية والفارسية والتركية عندما خرجت الى الوجود اللغة الأوردية التى اخـذت من كل تلك اللغـــــات ؟

فلقد كانت اللغة الفارسية هى لغة الأدب والمثقفين فى الهند ، وكانت اللغة التركية هى لغة رجال الجيش المغولى الذى يضم أعدادا كبيرة من الأتراك فى العهد المغولى الأول ، ثم أصبح الجيش يضم تركا وهنودا مسلمين وغير مسلمين ، واختلطت هناك اللغـــة الفارسية بالتركية بالهندية . ونتج عن هذا الخليط لغة جديدة عرفت الى يومنا هـذا باللغة (الأوردية) ، وأصبحت هذه اللغة الأوردية — منذ عهد مغول الهند — اللغـــة الأولى هنـــاك .

وتساءل اكبر لماذا لا يتفق الناس ويتوحدوا ويمتزجوا — امتزاجا سلميا هادئا — ليشكلوا شعبا متماسكا مترابطا متحدا من جميع الوجوه ، مثلما تشكلت اللغة (الأوردية) من لغات عـــدة ؟!

ولقد كان اتحاد اللغات واللهجات مثالا واقعيا أثر على تفـكير اكبر تأثيرا كبيرا ، الأمر الذى دفعه الى تعميم الفكرة على مختلف المستويات الاقتصادية والفكرية ، واتجه كذلك الى أن يعمم الفكرة فى المجالات الدينية ، على أمل توحيــــد المعتقدات والأديان ووضعها فى اطار واحد يعيش داخله جميع الناس .

دعا اكبر فقهاء الدين الاسلامى من سنة وشيعة ورجال الدين البراهمة وكهنـــة زرادشت ورجال المذهب الجينى وكذلك دعا ثلاثة من المبشرين البرتغاليين الجزويت (١) ليشاركوا فى الندوات التى تعقد فى (عبادة خانة) .

كان اكبر يفتح صدره لكل صاحب نحلة،وظن الآباء الجزويت ان اكبر حين أحاطهم برعايته واستمع بامعان الى أحاديثهم عن المسيح وعن الديانة المســـيحية قد مال الى

---

(١) هم رودلفر اكوافيفا وانطونيو مونزرات وهنرى جيز
Rudolfo Aquairva; Antonio Monserrate; Henri-quez.
وكان الأول والثانى من الآباء الجزويت الأوروبيين أما الثالث فكان مسلما فارسيا ارتد عن الاسلام وشهر سلاح التبشير فى وجه المسلمين فى الهند بالتعاون مع الاســـتعمار البرتغـــالى .

معتقدهم وانه على وشك الايمان بالمسيحية وانه لو فعل هذا للعب دورا رائعا فى تاريخ المسيحية لا يقل عن الدور الذى لعبه قسطنطين (١) الأول حين اعترف بالمســــــيحية فانتشرت المسيحية بسرعة فى الدولة الرومانية .

ولكن الآباء الجزويت لم يقدروا حقيقة ذكاء اكبر ، فلم يلبث أن انهـــال عليهم بالأسئلة المحرجة . لماذا هم فئات متناحرة ؟ لماذا هناك تلك التعقيدات العديدة المختلف عليها فى العبادات ؟ لماذا هذا الاختلاف الشديد فى تحديد طبيعة المسيح نفسه ؟ هل هـو طبيعة واحدة أم طبيعتين ؟ وهل الى هذا الحد يختلف الخلق فى طبيعة الخالق ؟ · وحاول الآباء الجزويت أن يصمدوا أمام ذكاء اكبر ولكن دون جدوى . وظلوا على معتقدهم على أمل أن ينتصروا يوما ما ·

واوقع اكبر الفقهاء والعلماء والكهنة والمبشرين فى ميدان الجدل والنقاش ، وخلال ذلك الجدل كان اكبر يبتعد رويدا عن جميع تلك المعتقدات وأخذ يكون لنفسه فلســفة قائمة بذاتها ، حتى اذا اكتملت الصورة لديه دعا اليها وهى (المذهب الالهى) .

(والمذهب الآلهى) الذى دعا اليه اكبر يطالب بأن يعبدوا ربا واحدا « واكبر » ظله على الأرض ، وأن يعيشوا نباتيين لا يشربون الخمر ، ولا يكذبون . والمذهب يقوم على اساس المساواة التامة بين الرعية لا فرق بين شخص وآخر . فهو مذهب يريد أن يصهر الجميع فى بوتقة . ولهذا اصدر اكبر من التشريعات التى تمنع ممارســة بعض العادات والتقاليد المتضاربة مع الانسانية بصفة عامة ومع مذهبه بصفة خاصة · ومن ذلك أنه منع الساتى منعا باتا ، والساتى هو أن تنتحر الأرملة ــ التى لا أطفال لها ــ فى أعقـــاب وفاة زوجها . وأحل اكبر زواج الهندوكيات الأرامل · وكان هــذا محرما وفق العقائد البرهمية . ووضع شروطا للزواج ، فلا يتزوج العجائز من هم فى سن أبنائهم أو بناتهم ، ومنع زواج الفتى أو الفتاة الا بعد اكتمال الصفات الجسمية والعقلية والفطـــرية حتى لا يصاب الزوجان بأزمات نفسية خطيرة وحتى لا يخرج الى الدنيا اطفال مشوهون نتيجة

---

(١) الامبراطور الرومانى الذى يقال انه اعتنق الديانة المسيحية ، فقد اصــــدر مرسوم ميلان ٣١٣ م معطيا الحرية الدينية للمســـيحيين فانتشرت المسيحية بسرعة فى الدولة الرومانية بعد ذلك .

لتلك الزيجـــات المبكرة . ودعا أكبر الناس الى التزاوج من أسرات لا توجد بينها صلة القرابة ، لأن تزاوج الأقرباء يضعف النسل . وهو أمر اثبته الطب الحديث . هذا الى أن التزاوج من خارج الأسرة يعين على تحطيم العصبية القبلية ويزيد من سرعة وسهولة التفاهم بين مختلفى أجزاء البلاد · وفى نفس الوقت منع تعدد الزوجات والحق أن الدين الاسلامى أباح التعدد ولكن بشروط شديدة (١) وتطور الأمر الى أن أصبح التعدد مباحا دون مراعاة لشروطه ·

ان تلك المشروعات التى نفذها اكبر هى فى الواقع اصلاحات اجتماعية . وهى من ناحية تعتبر ثورة على المذاهب الهندوكية أكثر منها ثورة على الدين الاسلامى . لأن تلك المبادىء التى دعا اليها من مبادىء الدين الاسلامى أيضا . حقيقة الحياة النباتية ليست من الأمورالتى دعا اليها الاسلام ولكنها لا تتعارض معه . فعدد ليس بالقليل من علمـــاء المسلمين كان نباتيا .

ولكن هنا من يقول أن اكبر كان شديد الوطأة على المسلمين متسامحا مع الهندوكيين ومع المبشرين المسيحيين · وان بناء المساجد توقف فى أيام اتجـــاهه الى فكرة المذهب الآلهى ، وان الناس امتنعوا عن تسمية أولادهم باسم محمد (صلى الله عليه وسلم) نتيجة لذلك الاتجـــــاه ·

ان الأمر الذى لا جدال فيه ان اكبر فى محاولته تجميع الناس كلهم تحت لواء عقيدة واحدة أخذ يبتعد عن تعاليم الاسلام ويقترب من العلمانية ، ولكنه كشرقى كان فى حاجة الى دين سماوى ، وكامبراطور كان فى حاجة الى توحيد الناس تحت لوائه ومن هنا اتخذ الأسلوب الآلهى فى عملية صهر الجميع فى بوتقة واحدة . فاضطرب عليه الأمر ولم يستطع أن يرى الطريق الذى كان يسير فيه لا شعوريا . لقد كان اكبر يسير فى طريق (القومية الهنـــــــدية) .

فلو استبدل اكبر مذهبه الآلهى بفكرة القومية لكان اجدى وما تعرض لاتهـــامه بالخروج عن الدين الاسلامى . فالقومية تترك لكل انسان حق عبادة الاله الذى يؤمن به

---

(١) الشروط هى العدل فى المعاملة وهيهات أن يعدل من له أكثر من زوجة .

(٢) Edwards and Garrett : op. cit. p. 45.

فى حرية تامة ، على أن يكون الولاء للهند · وبذلك تنصهر العناصر والعصبيات فى بوتقة القومية وتعيش الأديان والمعتقدات جنبا الى جنب دون صراع · ان هذا هو ما نلمسه الآن فى مختلف ارجاء العالم . فالحرية الدينية والقومية شيئان متكاملان ولم يدرك اكبر هذه الحقيقة لا عن قصر نظر وانما لان فكرة القومية لم تكن قد ظهرت بعد فى الشرق الأقصى ولأن مفهوم القومية نفسه كان غريبا عند الشرقيين فى تلك الفترة .

ان العجيب حقا هو أن الثورة الدينية التى بدأها اكبر فى الهند عاصرت ثورة دينية كبرى فى أوروبا ضد الكنيسة البابوية وأن الفكرة القومية التى سار فيها أكبر كانت هى أساس الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأوروبا منذ عصر النهضة . فهل تأثر اكبر بتلك التيارات السياسية والدينية التى ظهرت فى أوروبا حينذاك ؟

الواقع أن اكبر لم يتأثر بالفكر الأوروبى البروستنتى الثائر على الفكر الكاثوليكى البابوى . وانما تأثر اكبر بأمرين هامين :

١ — واقع الأمور فى الهند .

٢ — التيارات الحديثة الدينية فى الهند القائلة بانه على رأس الألف الثانية سيظهر المهدى المنتظر أو المسيح ليعيد العدل الى الأرض بعد أن ملئت ظلما وجورا ·

ولا شك أن اكبر علم بتلك التيارات الدينية ، فهل رأى اكبر فى نفسه أنه أحق من المدعين النبوة فى أن يكون ظل الله على الأرض فهو أكثرهم علما واعرف الناس بالمذاهب واقدرهم على توجيه أمور الرعية لما فيه الخير [١] ·

والحق أن ما قاله الدكتور أحمد الساداتى فى هذا الشأن هو خير بلورة للموضوع . فقد قال أن السياسة هى دينه ووحدة أهل الهند تحت سلطانه هى عقيدته [٢] . بينما يقول بول — بريس Powell - Price أن اكبر استهدف من مذهبه الآلهى أن يصبح خليفة حتى يرتفع مكانته فوق مكانة السلطان العثمانى والشاه الفارسى [٣] .

---

(١) Ali : op. cit. : pp. 220, 223.

(٢) أحمد الساداتى . تاريخ المسلمين ج ٢ . ١٤٣ ويشاركه هذا الرأى كذلك : Ali : op. cit. : pp. 219-220.

(٣) A History of India : p. 262.

والمعتقد أن اكبر لم يفكر فى موضوع الخلافة ولم يضع نفسه موضع المقارنة بالشاه أو بالسلطان وانما كان تفكيره قاصرا على الهند وللهند ولا يريد الانطـــلاق الى ما وراء الهند ولا الى المحيط الذى كان يزخر بالأساطيل الأوروبية .

هذا الموقف السلبى من القوى الأوروبية والعالمية فى المحيطات يفسر لنا علاقة اكبر بالبرتغاليين وان موقف اكبر من البرتغاليين يعتبر نقطة ضعف شديدة فى سياسته .

فلقد اطل اكبر على المحيط الهندى بعد استيلائه على امارة كجـرات الواقعة على المحيط الهندى فاصبح على مرأى من الأسطول البرتغالى الذى احتـــكر السيطرة على المحيط الهندى وعلى طريق رأس الرجاء الصالح الى أوروبا واغلق مداخل البحر الأحمر والخليج العربى وأخذ كل سفينة عربية أو اسلامية غصبا ، يستولون على ما فيهـــا ثم يحرقونها بمن فيها من حجاج بيت الله الحرام (١) .

ان هذا النشاط الصليبى البرتغالى فى المياه العربية الجنوبية هو حلقة من حلقات الحرب الصليبية التى كانت تشنها شبه الجزيرة الايبيرية ضد المسلمين . فماذا فعـل اكبر بالبرتغاليين ؟

تحدثنا اخبار اكبر عن انه اتصل بهم عندما شرعت الاميرة جلبادان فى السفر بحرا الى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج (١٥٧٥) . فقد خشى اكبر عليها من عدوان الأسطول البرتغالى ، فطلب من البرتغاليين عدم التعرض للاميرة وفى مقابل ذلك حصلوا على موقع على ساحل (دامان) ولما عادت الاميرة سالمة من رحلة الحج ، انقض جنـــود الدولة على دامان وديو وسورات وكانت كلها معاقل برتغـالية . ولكن لم تستطع تلك القوات المغولية أن تطرد البرتغاليين من تلك المعاقل . وعندما احتج نائب الملك البرتغالى على ذلك الهجوم أدعى اكبر أن ذلك من عمل بعض عماله وانه لم يأمر بذلك . وأرسل اكبر رسالة ودية الى فرديناند الثانى ملك أسبانيا والبرتغال حينذاك مع أحد المبشرين الجزويت ولكن الرسالة لم تصل الى الملك (٢) .

ويقول المؤرخ سميث أن السبب الرئيسى الذى جعل اكبر يتصل بالبرتغاليين هو

---

(١) Panikkar : Asia and Western Dominance, p. 42.

(٢) Powell-Price : op. cit : p. 264.

رغبته فى الحصول على مساعدتهم العسكرية . فلقد وجد اكبر فى فتح حصن (عسير) مشقة كبيرة جدا لأن العاملين على المدفعيـــة فى ذلك الحصن كانوا من البرتغـــاليين . كذلك نلاحظ أن سليما ـ الذى ثار على أبيه اكبر ـ طلب من البرتغاليين مســاعدته فى ثورته ضد أبيه .

ومما سبق يتبين لنا أن اكبر كان يدرك مدى قوة البرتغاليين البحـرية ولكنه لم يواجه تلك القوة بالاستعدادات اللازمة . او بمعنى آخر لم يرتفع اكبر الى المســتوى المطلوب بالنسبة للسياسات والاستراتيجية العالمية . فالعصر الذى عاشه اكبر كان نهاية القوى البرية وبداية القوى المحيطية .

ان عدم ارتفاع اكبر الى مستوى الأحداث العالمية جعل الهند محاطة بالقوى المحيطية واضطرت الهند الى القوقعة وراء سواحلها ثم أخذت القوى البحرية تطرق أبواب الهند بقوة حتى انتهى الأمر بوقوع الهند بأسرها فى قبضة الاستعمار الأوروبى (١) .

وكما كان اهمال اكبر لأمر القوى البحرية المحيطية من الأســـباب التى مهدت للاستعمار الأوروبى ، كان تسليم اكبر أمر ابنه سليم الى مبشر برتغالى من العـــوامل الرئيسية التى ادت الى ان تصبح شخصية سليم مهزوزة والى أن يتحول الى ابن عاق .

ولعل السبب فى اسناد أمر تعليم سليم الى احد المبشرين الجزويت هو ان اكبر وجد فيهم ما لم يجده فى المعلم التقليدى الاسلامى الذى حصر نفسه فى تعاليم الدين ومناقشة المسائل الدينية والتعقيدات اللغوية دون أن ينطلق فى زحمة العلم والاختراع والحيـــاة الحديثـــــــــة .

اما المبشر الجزويتى الأوروبى فكانت لديه معلومات اوسع فى امور الحياة لما كانت عليه أوروبا من تقدم واضح منذ القرن الخامس عشر وكانت الرحلات الطويلة البحرية والبرية التى يقوم بها المبشرون من أوروبا الى مختلف بقاع العـــالم تكسبهم خبرات ومعلومات هائلة .

---

(١) هذا ما حدث لمعظم الدول الشرقية (كالدولة الفارسية والدولة العثمانية) .

(٢) The Oxford Hist. of India, p. 353.

ولكن اكبر حين اسلم امر تعليم سليم الى أحد المبشرين كان فى الواقع كالمستجير من الرمضاء بالنار . فالمبشر الجزويتى معروف بشدة تعصبه للكاثوليكية ومقته الشديد للاسلام وللمسلمين ، حتى لقد جر تعصبهم عليهم نقمة بعض ملوك أوروبا حينذاك . وكانت البرتغال تتزعم حركة صليبية عسكرية تبشيرية واسعة النطاق . وتحث المبشرين على مضاعفة الجهد ضد القوى الاسلامية . ومن ثم حين يقوم مبشر جزويتى بتعليم سليم فان الأهداف الجزويتية التبشيرية ستكون أمامه فى كل درس لسليم .

وهذا الأسلوب من التربية يتضمن تعاليم ليست فقط مخالفة لتعاليم الاسلام بل كذلك لطبيعة المجتمع الذى يعيش فيه سليم . فنشأ سليم مهزوز الشخصية مضطرب الوجدان زائغ العقيدة . ومما زاد امر اضطراب شخصية سليم فى الضياع أن اكبر نفسه كان لا يثق كثيرا بالأديان والمعتقدات . فعاش سليم فى ضياع نفسى لا يستطيع أن يفر منه الا بواسطة كؤوس الخمر وقطع الأفيون ، وأخيرا تمرد الابن على أبيه .

على أن ثورة سليم على ابيه وعقوقه هى صورة من صور ذلك العصر المتكررة . فلقد تصارع أولاد ببر بعد وفاته ، ولم يع اكبر هذا الدرس فلم يعمل على القضاء على داء الصراع الاسرى فى بيته . والغريب حقا هو أن ظروف اكبر وابنه سليم كانت تشير بكل تأكيد الى أن صراعا على العرش لن يقع بينهما أو حتى بين أولاد اكبر . فقد توفى مراد الابن الثانى لاكبر كما أن الابن الأصغر دنيال قد أصبح شبه أبله بسبب الخمر التى صرعت مراد واصبحت تعد دنيال لنفس المصير . وهكذا لم يكن هناك سوى الابن الاكبر سليم الذى يستطيع أن يرث العرش . حقيقة كان سليم مدمنا على الخمر ولكنه لم ينحدر الى ذلك المستوى الذى انحدر اليه أخواه مراد ودنيال . ومع هذا ثار سليم مطالبا باقصاء أبيه عن العرش .

هناك من يقول أن السبب فى ثورة سليم هو تحريض بعض الأمراء الهنادكة الحاقدين على اكبر وهناك من يعتقد أن سليما كان يشعر بضعف شخصيته والحاجة الى اثبات ذاته وانه لا يقل عن أبيه قوة وعظمة وقدرة على أن يبنى لنفسه ملكا بحد السيف .

والواقع أن شخصية اكبر كانت طاغية ، وكان تركيب جسمه ضخما بارز العضلات

وتقاسيم وجهه صارمة وتاريخه مليء بالانتصارات والمغامرات فضاعت شخصية سليم فى دوامة شخصية اكبر الطاغية .

كان سليم قد بلغ الحادية والثلاثين من عمره سنة ١٦٠٠ وتشبع بفكرة تأسيس ملك لنفسه بسيفه وجهده وأن يثبت للناس انه لا يقل عن أبيه مقدرة وعظمة . بل انه قادر على اسقاط ذلك الرجل الضخم الذى أذل كل من وقف ضده ·

ولكن هل يكفى كل هذا لتفسير أسباب ثورة ابن على أبيه ليرث ملكا عريضا هو له ان آجلا أو عاجلا ؟ اننا نعتقد أن الخمر والأفيون من الأسباب الرئيسية وراء تلك النكبة الأسرية . فالخمور والأفيون ذات تأثيرات متناقضة . فهى تصيب مدمنها بمركب العظمة يغطى خورا فى العزيمة وشفافية روحية زائفة مع اشراقات فلسفية يطلقهـــا الخور فى العزيمة وتلك العظمة المدعاة .

والحق أن طبيعة الأعمـــال التى قام بها سليم خلال ثورته ضـــد أبيه تثبت أن شخصيته كانت مهزوزة ومتناقضة · فقد بدأ عملياته الحربية مستهدفا احتـلال أكرا ولكنه لم يلبث أن تحول عنها الى الله آباد لانها كانت فى نظره أقرب منالا . وبدأ مترددا لا يثبت على خطة .

سمعت حميدة ـــ جدة سليم ـــ بأنباء تمرده ، وتذكرت سنوات الكفاح التى عاشتها مع همايون حتى استطاع أن يبنى لنفسه ولولده أكبر ملكا ، وخشيت أن يضيع ذلك الملك بسبب هذه الثورة الطائشة · ذهبت حميدة الى سليم وحثته على الكف عن هذه الفتنة طالما ان كل شيء سيكون له وأن ينتظر حتى يرث هذا الملك متكاملا بدلا من أن يحصل عليه ممزقا ملطخا بالدماء .

وعبثا حاولت حميدة اقناعه ، ولم يعد الا الاحتكام الى السيف ، بعد أن عاد اكبر من الجنوب مسرعا ليواجه تمرد سليم . وبعث اكبر جيشا ضد ابنه بقيادة أبى الفضل ، الذى كان أشد الناس اخلاصا لاكبر ، واحبهم الى قلبه ، وأكثر علماء ذلك العصر عمقا فى التفكير ، وهو صاحب (أكبر نامة) التى تعتبر من روائع الانتاج الادبى والتاريخى فى ذلك العصر . وقد كان أبو الفضل اديب القصر وفيلسوفه وقائد جيش اكبر ·

أدرك سليم انه لا شك سيهزم ان هو واجه أبا الفضل فى معركة مكشوفة . ولهذا لجأ سليم الى الغدر . ودبر خطة لاغتيال ابى الفضل نفذت بنجاح (١) فأدى مصرعه على هذا النحو الى اثارة ثائرة اكبر · ولكن اكبر كان قادرا على أن يكبح جماح نفسه فى مثل هذه الظروف العصيبة . ورأى أنه يجب التغلب على عقوق سليم بكل الطرق السلمية والا تعرضت الامبراطورية كلها للضياع · فكبت آلامه وبعث الى ابنه رسولا استطاع أن يقنع سليما بالعودة الى طاعة أبيه ·

وأغلب الظن أن سليما وجد أنه ان تمادى فى ثورته قد يفقد كل شىء حيث ظهر حزب قوى فى البلاط ينادى برفع خسرو بن سليم نفسه الى العرش بعد اكبر . وهكذا بدأ سليم يشرب من الكاس التى أراد أن يسقيها لأبيه اكبر .

ولعل هذا يفسر لنا لماذا كانت طاعة سليم لابيه غير صافية ، فقد كان سليم — رغم تأكيدات اكبر له — يوجس خيفة من أبيه حتى تغلبت عليه أوهامه وشهر السلاح مرة أخرى ضد أبيه . فعزم اكبر هذه المرة ليزحفن على ابنه وليلقنه درسا يعيده الى رشده ·

وخشيت حميدة على سليم من ثورة اكبر الطاغية . فغادرت فراش المرض تستعطف اكبر ليعود الى أكرا وألا يتابع الزحف ضد ابنه . وكان اكبر يعتقد أن حميدة تدعى المرض استعطافا له فلم يتأثر لدموعها ولكنها لا تكاد تعود الى فراشها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة · فعاد اكبر اليها وأشرف على مراسيم دفنها الى جوار شريكها فى الجهاد همايون . وبعد قليل جاءه نعى ابنه الأصغر دنيال . وكأنها كانت سنة المصائب والمحن بعد أن طالت الحياة الحلوة بأكبر . وعاش اكبر فى عالم كئيب تعس . وكان فقدان الأم الرؤم والابن وثورة ابن آخر عاق كل هذا قد اثر على نفسية اكبر . وآثر اكبر أن يضمد بعض الجراح الغائرة قبل أن تستفحل . ولهذا عكف على محاولة جديدة للتفاهم مع ابنه سليم .

راسل اكبر ابنه مرة أخرى ودعاه الى ترك الخصام وأكد له أنه هو وارث كل شىء من بعده ولا داعى لاسالة الدماء ونجح اكبر فى اقناع ابنه بالعودة الى طاعته وظل وراءه حتى قبل سليم وذهب الى أبيه نادما ولكن فى هذه المرة اعتقله اكبر حتى توسط من أجله عدد من سيدات البلاط ورجاله . فاطلق سراحه وبعد ذلك مرض اكبر مرض الموت

(١) Ibid : pp. 147-8 and Smith : op. cil. p. 354.

وظهرت فى القصر اتجاهات قوية نحو ابعاد سليم عن العرش واسناده الى خسرو بن سليم. ولكن ذهب سليم الى ابيه المحتضر وذرف دموع التوبة امامه فمد اكبر يده الى سيف همايون وسلمه الى سليم ليتولى به أمر الامبراطورية من بعده .

ومات اكبر بين يدى ابنه سليم الذى حمله الى مثواه الأخير فى قلعة أكرا . وتمت مراسيم الدفن بسرعة أذهلت الآباء الجزويت الذين كانوا ينتظرون المشاركة فى الوداع الأخير بشموعهم وموسيقاهم الجنائزية فلم يدرك هــؤلاء الآباء الجزويت أن من تعاليم الدين الاسلامى فى الدفن السرعة مع البساطة فى المراسيم الجنائزية (١) .

والملاحظ أن كتابات الآباء الجزويت عن اكبر غير ودية حتى بعـــد وفاته ، حيث انهم اعتقدوا أنه غرر بهم عندما مال اليهم دون أن يتحول الى المسيحية واغلب الظن أن نقمة الآباء الجزويت كانت شديدة لانهم لم يظفروا من وراء مجهوداتهم التبشيرية فلم يتحول الى المسيحية الا أفراد قلائل جدا (١) .

لقد عاش اكبر طوال نصف قرن من الزمان والسيف فى يده ولكنه كان فى نفس الوقت صاحب حساسية فنية دقيقة وصاحب ذوق أدبي راق ولقد كان ببر وهمايون من المغرمين بالفنون والآداب ولكن لم يكن لديهما الوقت والفرصـــة والامكانيات التى توفرت لاكبـــر .

وتعتبر مدينة فتحبور أعظم مثال على روعة فن المعمار فى أيام اكبر . فقد بناهـــا لتكون عاصمته فاخرجها تحفة من تحف الهندسة ، واصبح فن المعمار فيها نقطة تحول فى تطور ذلك الفن فى الهند ونقطة انطلاقة جديدة له ، وكانت حدائقها بورودها واشجارها ونافوراتها تضفى على المدينة جمالا شاعريا شرقيا ساحرا ، وكان طول فتحبور ميلين وعرضها ميل وكانت محاطة بالأسوار من ثلاث جهات . أما الجهة الرابعة فكانت تمتد بحيرة صناعية مترامية . ولا تزال بعض مبانيها قائمة الى الآن شاهدة على روعة ذلك الماضى القريب وصورة تعكس تعاسة تلك المدينة البائسة .

فان عمر تلك العاصمة كان قصيرا جدا لم يتجاوز خمسة عشرة عاما ، ثم هجرها

---

(١) Binyon : op. cit. pp. 157-158.

(٢) Smith : op. cit. : p. 356.

اكبر فاذا بالقصور خاوية ، والحدائق قد جفت أشجارها وأخذت بنات أوى والكلاب والقطط تمرح على القباب الرخامية والقصور القرمزية (١) .

واذا كنا نجد هنا وهناك بعض بقايا تلك القصور الرائعة فى فتحبور فاننا لا نجد أثرا على الإطلاق (لعبادة خانة) مع انها كانت قوية البناء مرتفعة وأكثر الأبنية فنا وأبعدها صيتا . ولعل صدر اكبر فى أيامه الأخير كان قد ضاق بذلك الانحراف عن الدين الاسلامى الذى وقع فيه خلال فتوته وجبروته، فانتزع ذلك البناء من أساسه ، حتى تضيع ذكراه . أو لعل بعض خلفائه هم الذين أقدموا على ذلك . الأمر لا يزال محيرا (٢) .

لم تكن احاسيس اكبر الفنية بقاصرة على المعمار وهندسته وانما تعدتها الى فنون الرسم والتصوير . وتعتبر رسوم الفنان عبد الصمد من آيات ذلك العصر . ولشدة ولع اكبر بهذه الفنون أسس مدرسة ابتدعت جديدا فى الألوان والرسم واخرجت لوحـــات فنيـــــة عاليـــــة (٣) .

ان رجلا عرف عنه حب فنون المعمار والتصوير لا بد وان يعشق الأدب وأساليب الفن الأخرى السماعية والوجدانية . فمع أن فنون الموسيقى كانت ضائعة بين فنـــون الهند الا انها اصبحت فى عهد اكبر ذات مكانة ممتازة بين فنون العصر . وكان آكبـــر لشدة ولعه بالموسيقى يحتفظ فى قصره بجوقة موسيقية تعزف له الأنغام كلما استشعر حنينا الى الشفافية الروحية .

أما اذا انتقلنـــا الى الأدب فى عهـــد اكبر فاننـــا نطـرق فنا أصـــبح من أرقى الفنـــون حينذاك . فهـــو عهد ارتقـــاء الآداب الفارســـية والهنـــدية على السواء . فبالفارســـية كتب أبو الفضـــل اروع انتـــاج ادبى فى ذلك العصر ونعنى به (اكبـــر نامة) .

والى جانبه كان يوجد عبد القادر البدوانى صاحب منتخب التواريخ الذى كتب فيه تاريخ اكبر من وجهة نظر أخرى تختلف عن (اكبر نامة) .

---

(١) Powell - Price : op. cit. : pp. 276-280; Lane- Poole : op. cit. pp. 270-271; Binyon : op. cit. p. 13; Smith : op. cit. : p. 343

(٢) Smith : the Oxford Hist. of India : pp. 346-7.

(٣) Powell-Price : op. cit. p. 280.

وأما الشاعر فيضى فكان متعمقا فى الدراسات العربية وفى الطب ، وظهـــر بجانبه عدد من الشعراء الذين غطوا سماء الهنـــد بأغانى الحب والوجد ، ولم تختلف سيدات البيت المغـــولى عن الخوض فى مجال الأدب ، فقد كانت جلبـدان بيجـــوم (ابنـــة ببر وعمة اكبر) فى طليعة المثقفات والأديبات . فهى مؤلفـــة (هيمايون نامة) كذلك السلطانة سليمة (زوجة اكبر) وماهان انكرا من اديبات ومتذوقات الأدب حينـذاك . وكان اكبر متعلقا بهن . وانه لأمر عجيب حقـــا ان يعيش اكبر فى بلاط مثقف هـــكذا رجالا وأمراء واميرات وســـلطانات وأن يـكون هو اميـــا لا يعـرف القـــــراءة والكتابة ، ولكنه كان ذا ذاكرة خارقة يحفظ ما يسمع وكان يستمع الى الكتاب ويناقش عويص المشكلات الأدبية والفنية ويقال أن مكتبته الضخمة حوت ٢٤ الف مخطوط من أنفس المخطـــوطات .

وكان فى بلاطه أعظم الأدباء والشعراء ويحصلون على جوائز كبيرة مقابل ما يبتدعون ولقد كان العصر عصر المجالس الأدبية فى البلاطات الكبرى الأوروبيـــة فى بلاط اليزابيث الأولى ملكة انجلترا وفى عهدها نبغ شكسبير ، وكلاهمـــا كان صاحب ذوق أدبى رفيع . وكذلك كان الحال فى الهنـــد على يد اكبر (١) .

لقد كان عصر اكبر آخر عصر من عصور القوة الاســـلامية فى الشرق . كان عصر السلطان سليمان القانونى العثمانى وعصر الشاه عباس الأول فى فارس وكان عصر هؤلاء يقابل عصر النهضة الأوروبية الكبرى .

(١) Powell-Price : op. cit. pp. 281-282.

الفصـل الثالث

تدهور الدولة الاسلامية المغولية

وسـقوطها

يعتبر شاه جهانكير (١٦٠٥ – ١٦٢٧ م) – (١٠١٤ – ١٠٣٧ هـ) واورانكزيب (١٦٦٩ – ١٧٠٧) آخر الأباطرة الكبار المغول ولكنهما لم يكونا على مستوى ببر أو اكبر، وورثا نفس المشاكل الكبرى التى كان يواجهها اكبر وهى الصراع لأسرى والحروب المتصلة ضد الامارات الساعية الى الاستقلال وكان هذان العاملان كالسوس ينخر فى عظام الدولة المغولية ، فضلا عن التغلغل الاستعمارى .

ثار خسرو – بن جهانكير – على أبيه وانضم الى خسرو عدد من الناقمين على أبيه، وعدد من الزعماء الهندوكيين، ومن بينهم (كورو) زعيم السك ، فما كان من جهانكير الا أن قتل (كورو) ، ليصبح من بعد ذلك شهيدا قديسا لدى طائفته التى ستعادى الدولة المغولية على طول الخط ، وسمل جهانكير عينى ابنه خسرو ، وهزم الأمراء الأفغانيين الثائرين ، ولكنه لم يكن شديد الوطأة عليهم ، واصطدم بعنف مع قوة هندوكية ناشئة هى قوة « الماراتا » وستكون فى المستقبل قوة لها شأنها فى توجيه الأمور .

وثار ابن آخر لجهانكير أيضا وهو (شاهجهان) ، وجاء هذا بعد أن استولى الشاه عباس الكبير (الصفوى) على قندهار . ولكن مما الهب حدة هذا الصراع بين جهانكير وابنه شاهجهان تحريض (نورجهان) الجميلة لزوجها ضد ابنه. وكان الامبراطور جهانكير شديد الوله بزوجته ، وكانت هى ذات شخصية قوية وذهن حاضر وذكاء وعلى علم وسمو فكرى وارادة ، حتى لقد اصبحت فى فترة من الفترات صاحبة اليد العليا فى توجيه أمور البلاد. ونظرا لأن الامبراطور كان سكيرا فقد استغلت ذلك فى توجيه أمور البلاد بالطريقة التى تريدها ، الأمر الذى أدى الى نشوب الكثير من الثورات الكبيرة .

ووقعت فتنة كبرى بين الأمراء فى عهد شاهجهان بن جهانكير اتت على الزرع والضرع فى مواقع الصدام ولن يصل أرانكزيب الى العرش الا بعد سلسلة من المعارك الدموية ضد ذوى قرباه وظلت هذه الحروب الأسرية تتوالى حتى أصبح الامبراطور المغولى العوبه فى يد القوى التى يعتمد عليها من أجل الوصول الى العرش فى دلهى ، وبلغ هذا الضعف ذروته عندما دخل شاه علم دلهى على أسنة رماح المراتا الهندوكيين فى (١٧٧٢ – ١١٨٥ هـ) .

وفى عهد خلفاء أكبر كانت الجبهة الاسلامية فى الهند شـــديدة التفكك ليس فقط بسبب تلك الصراعات الدموية الأسرية وانما أيضا بسبب نمو الحركة الشعبية بين مسلمى الهند والمعروف عن المغول انهم كانوا سنة متحمسين لسنيتهم وانهم كانــوا ينظرون — والألم يعتصر قلبهم — الى الهند الوثنية وقد تعددت طوائفها تعدد الآلهة المائة والعشرين أو قل المائتين الذين كانوا يعبدون فى الهند ، وكانوا يرجون توحيد الهند تحت راية المغول السياسية وتحت راية الاسلام الدينية على المذهب السنى أو أن يدخلوا فى دين يوفق بين معتقداتهم والدين الاسلامى ولكن فشلت مساعيهم فاقل ما أصبح يرجوه اباطرة المغول هو أن يظل المسلمون متمسكين بوحدتهم الدينية والمذهبية ، ولكن بدأت الدعوة (الشيعية) تنتشر فى الهند وخاصة فى مناطق الدكن وبدأت حركات انفصـــالية شيعية فى تلك الجهات رأى فيها الامبراطور أرانكزيب خطرا شديدا على دولته .

وكان أرانكزيب على عكس « ببر و اكبر » شديد التمسك بالاسلام وبقواعده الأولى وبان يطبق مبادىء الاسلام الشرعية دون أن ينهج منهج التوفيق ودون أن ينظــر الى الاعتبارات الخاصة التى جعلت ببر وهمايون واكبر وجهانكير يتبعــون ســـياسة التسامح الدينى .

ومع هذا فهناك مبررات خاصة أيضا جعلت من أورانكزيب يضع جانبا فـــكرة التسامح والمساواة ويفرض الجزية على الهندوس ، ويبعد الأمراء (الراجبـــوت) عن مناصب الحكم والادارة ، وينقض بسيف الانتقام على الشـــيعة وعلى الهندوس على السواء فى عنف واضح .

فلقد ذهبت أيام ذروة الدولة ، تلك الذروة التى كانت على أيام أكبـــر ، وبدأت الدولة المغولية تهبط من عليائها ، وكان اورانجزيب يشعر بهذا ، وفى مثل هذه الظروف يحل التطرف محل التسامح ، ولم تكن قوة أورانجزيب على ذلك المستوى الذى كانت عليه على أيام أكبر ، بينما أصبحت القوى المعادية اشد صلابة وأقوى تسلحا ، وتعتمد على فكر حضارى وفلسفى أكثر تطورا عن ذى قبل . وكان هذا حال المراتا والســـيخ والراجبوت بصفة خاصة أيام أورانكزيب .

لقد أحرز أورانكزيب انتصارات كبيرة ضد تلك القوى ، واتسعت دولته حتى كادت أن تصل الى شبه القارة الهندية الجنوبية ، ولكن نتائج تلك الانتصارات — فى اعتقادنا —

هى بداية النهاية بالنسبة لامبراطورية المغول فبالنسبة الى الراجبوت نجد انهم صمدوا، بل أصبحوا بعد ذلك القوة الرئيسية التى اعتمد عليها ابنه (أكبر) لعله يصل بواسطتها الى العرش .

حارب أورانكزيب (المراتا) زهاء ربع قرن أو أكثر فأصابهم بالنكبات ، وأصابوا هم بلاده بالدمار ، وأصابوا خزينته بالخراب ، ومن بعـــد ذلك دب التحلل فى امبراطورية المغول،كما دب التحلل فى المراتا فى نفس الوقت الذى كانت فيه القوى الشمالية الاسلامية الأفغانية والفارسية تتطلع الى السيطرة على هذه البلاد المفككة .

فقد تعرضت الهند لغزوة كبرى فارسية بقيادة نادر شاه [1] . ثم لغزوة أفغانية . وتختلف هاتان الغزوتان الاسلاميتان الشماليتان عن تلك الغزوات الاسلامية التى هبطت الهند من بواباتها الشمالية ٠ فقد كانت تلك الغزوات الشمالية السابقة عليهما غزوات حضارية يقودها بناة دول وامبراطوريات ، أما غزوة نادر شاه فكانت تهـدف الى أن تصبح الهند مصدر ثراء لفارس ٠ كان نادر شاه قائدا عسكريا ناجحا ولكنه لم يكن على المستوى الادارى الذى يمكنه من بناء دولة له فى الهند . فضاعت فتوحاته فى الهند ، كما سقطت أسرته فى فارس فى أعقاب وفاته وتفكك جيشه ، وضاعت آخر فرصة لانقاذ الهند من القوى الأوروبية المتربصة بها ، كما ضاعت آخر فرصة للتخفيف من حدة التيـــار الشيعى فى فارس .

لقد استطاعت القوى الاسلامية أن تفتح الهند عسكريا وحضاريا ، واســـتطاع المسلمون أن ينقلوا الهند من مستويات حكم متدنية الى مستويات أكثر تقدما . وكانت حضارة المغول مزيجا من حضارة الاسلام وحضارة الهند ، وكانت سياسة الأباطرة المغول نحو رعيتهم من الهنود لا تختلف عن سياسة أى حاكم اسلامى لرعيته من المســـلمين . وركزوا ــ باســـتثناء قلة قليلة ــ على سياسة التســـامح الدينى ، وتجنب التعصب والطائفية . فالأباطرة المغول كانوا يبنون ملكا كبيرا لهم ولأولادهم يقوم على أكتاف شعب كبير من الهندوس ٠ ولا شك أن أروع ما فى حكم هؤلاء هو التسامح الدينى٠وكان رفعهم الأمراء الهندوكيين الى مناصب الحكم والادارة الى جانب المسلمين واحـدة من روائع التسامح الاسلامى لدى المغول .

---

(١) انظر الباب الثانى ٠

ولكن الامتزاج بين المسلمين والهندوس لم يتكامل ، وظلت قوى هندوسية متعصبة ، تنظر الى تراث الماضى والى ما كان لهم من يد عليا فى الحكم والادارة ، وتتطلع الى استعادة هذا الحكم من المسلمين الذين احتكروا العرش لأنفسهم . وكان الوسط والجنوب هو أبعد المناطق عن يد الحكام المسلمين ، وكانت فيه دول هندوكية قوية استطاعت أن تقف على قدميها حتى فى وجه « أكبر » . وكان هناك جهود فى هذه الدول الهندوكية لرفع شأنه وتطوير قدراتها .

لقد انتشرت عمليات التطوير والنهضة بشتى الصور العملية والفلسفية بين الطوائف الهندوكية ، وكانت المقارنة بين حضارة وتفوق المسلمين وبين ما كان لدى الهنود من حضارة ، وما صارت اليه من تدهور ،كانت هذه المقارنة تثير فى نفوس المفكرين الهندوس روح البحث والتنقيب عن اسباب التفوق والتدهور ، وناقشوا عقائدهم الموروثة ، واعادوا تقييمها ليخرجوا من وراء كل هذا بافكار جديدة ، واهداف جديدة ، بعضها من تراث الهند القديم ، وبعضها أخذوه من الاسلام والمسلمين . وظهرت طوائف عقائدها هندوسية اسلامية أو قل اسلامية هندوكية ، مثل السيخ ، ومثل اتباع مذهب (برهمو سماج) ومثل طائفة (اريا سماج) .

ولكن الى جانب هذا التفوق الحضارى الاسلامى ظلت هناك مناطق وامارات قوية متمسكة كل التمسك بعقائدها القديمة ، ولغتها القديمة ، وترى شخصيتها فى التعلق بتلك العقائد واللغات . ولقد كانت دولة (فيايانكر) واحدة من تلك الدول الهندوسية شديدة التعصب ضد الدولة المغولية سواء من الناحية الدينية أو الناحية السياسية ، بل ومن الناحية الحضارية ايضا . وساعدها على ذلك انها كانت ترتكز على الطرف الجنوبى من شبه القارة الهندية فكان أن ظلت الهند تعانى من صراع بين الحضارتين الهندية والاسلامية فكان هذا الصراع الى جانب تفكك الدولة المغولية بعد أورانكزيب من العوامل الجوهرية التى مهدت لتفوق قوى خارجية أجنبية جديدة على الهند بعضها استقر على السواحل فترة مثل (البرتغاليين) و (الفرنسيين) وبعضهم انطلق من السواحل الى الداخل مثل الانجليز حتى جعلوا الهند كلها (من ممتلكات التاج البريطانى) .

لا شك أن اقوى عامل ادى الى فتح الهند أمام الأوروبيين — الى جانب تلك

العوامل — هو أن نظم الحكم والادارة والانتاج واتجاهات السياسة الخارجية فى الهند لم تكن على مستوى العصر ، كما أن القدرات العسكرية فى داخل الهند لدى المسلمين والهندوس على السواء كانت تمت الى القرون السابقة ولم يتجه المسلمون ولا الهندوكييون الى القوة الضاربة الحديثة (البحرية) فظلت متأخرة فى عصر أصبحت فيه القوة البحرية والمحيطية هى اداة الحرب والتوسع الأولى . وكانت هناك على الشواطىء الهندية الغربية قوتان كبيرتان اصطدمتا بالبرتغاليين فى وقت مبكر وهما :

١ — امارة كجرات فى شمال غرب الهند .

٢ — قليقوت (كاليكوت) ·

كانت امارة كجرات واحدة من أقوى الامارات الاسلامية منذ القرن السادس عشر وكانت ذات علاقات تجارية على نطاق واسع مع البلاد العربية وشرق أفريقيا · وعندما جاء البرتغاليون ببوارجهم الكبيرة المزودة بصفوف المدافع انقضوا على كل سفينة اسلامية غصبا ، كانوا يستولون على بضائعها ويحرقونها بمن فيها من رجال ونساء وأطفال ويبيعون الأسرى بيع الرقيق ، فقضوا بذلك على مبدأ هام اسلامى هو حرية البحار . واستصرخت امارة كجرات سلاطين المسلمين وخاصة قنصوه الغورى — سلطان مصر المملوكى — ثم استصرخت السلطان العثمانى سليم الأول الذى استولى على مصر سنة ١٥١٧ م ثم دعت السلطان سليمان القانونى العثمانى ليتعاون مع مسلمى الهند ضد هذا العدوان الصليبى البرتغالى .

ولقد بعث الغورى بأسطول بحرى كبير نازل الأسطول البرتغالى فى موقعة ديو الشهيرة سنة ١٥٠٩ · والملاحظ هنا أن الجهد الكبير الذى كان يبذل لانقاذ خطوط التجارة العالمية البحرية أصبح على عاتق مصر ، واصبح عليها أن تنازل أساطيل البرتغال على مقربة من شواطىء الهند دون أن يبذل حكام الهند مجهودا مماثلا . وذلك لأن حكام الهند فى مطلع القرن السادس عشر كانوا لا يعيرون التفاتا كبيرا الى ما يحدث على سطح المحيطات من تطورات فى أساليب الملاحة والحرب المحيطية ومن معارك عالمية حاسمة ، وكانت معركة ديو من بين هذه المعارك العالمية الحاسمة ، ولم ينتصر فيهاأى من الطرفين البرتغالى او والمصرى . ومع هذا فالنتائج لصالح البرتغاليين حيث ظلوا محتفظين بمواقع أقدامهم — القليلة ولكن الخطيرة — على الشواطىء الهندية . وتفصلهم جبال

الفات الغربية عما يدور فى داخل الهند من حروب كبرى بين أباطرة المغـــول والامارات الهندية الاسلامية والهندوكية .

انفرد البرتغاليون بخطوط الملاحة العالمية المؤدية الى الهند حوالى قـرن ، وبدأت امبراطوريتهم البحرية تنهار تحت ضربات القوى البحرية الأوروبية القومية الناشئة وعلى وجه الخصوص هولندا وفرنسا وبريطانيا . اذ عملت هذه القوى على كسر احتـــــكار البرتغاليين لخطوط الملاحة البحرية الى الهند ، ونجحوا فى ذلك عن طـــريق الشركات التجارية الانجليزية والهولندية والفرنسية التى كانت لها أساطيلها الحربية والتجارية القادرة على التصدى للقوى البرتغالية . ومن أشهر هذه الشركات شركة الهند الشرقية البريطانية التى ظهرت فى مطلع القرن السابع عشر ٠

كانت هذه الشركة تنشىء وكالات (Factory) فى أول الأمر على السواحل الهندية وكان يحصل عليها الانجليز فى مقابل أموال يدفعونها الى السلطات الحاكمة المحلية ٠

وكانت بومباى وسورات ومدراس وكلكتا أهم المناطق التى أنشـــأ فيها الانجليز وكالات لهم . وكان الحكام المغول لا يشعرون بخطورة هذه الوكالات الصغيرة عليهم ، ولم يدركوا أن وراء هذه الوكالات شركة كبيرة بحرية ذات أسطول قوى يستطيع أن يضرب حصارا شديدا على الهند . وكانت الصدامات الأولى بين تلك الوكالات والسلطات المحلية التابعة لدولة المغول تأكد لهذه السلطات أن هذه الوكالات تافهة الشأن وظل حكام الهند المسلمين لمدة طويلة يعتقدون ذلك .

كانت شركة الهند البريطانية فى أول الأمر تنقل البضائع من الهند الى أوروبا أمـــا بعد الانقلاب الصناعى أصبحت ــ الى جانب ذلك ــ تنقل الانتـــاج الصناعى الانجليزى المتكدس الى الهند ، وهذا هو الذى يفسر لنا انتقال مهمة الوكالات البريطانية من مجرد التبادل التجارى الى الاستعمار المباشر . فقد كان على شركة الهند الشرقية البريطـانية أن تبيع كميات متزايدة من انتاج بريطانيا ومن ثم كانت فى حاجة الى فتح أسواق فى داخل الهند وجاء هذا فى وقت كانت فيه امبراطورية المغول قد تفككت وحلت محلها ــ فى الاقاليم الشرقية ــ امبراطورية المراتا وكان مركزها فى (بونا) كما كانت هنا وهناك فى شـــبه القارة امارات متعددة اسلامية وراثية ضعيفة متناحرة . هذا التفكك وهـــذا التصارع يجعل حاجة الأمراء فى الهند متزايدة الى الأموال ٠ وكانت قد ظهرت حينذاك طبقة من

الرأسماليين الهنود المرتبطين بتلك الوكالات الانجليزية ، وبدات هذه الرأسمالية الهندية بما تقدمه الى هذا الامير أو ذاك — تؤثر على توجيه الأمور السياسية .

كانت هذه الراسمالية الهندية من الهنـدوس فى غالبيتها العظمى . وكانت تكن كراهية شديدة للمسلمين ولحكام البنغال من قبل الامبراطور المغولى . واستطاعت هذه الرأسمالية أن تتغلغل فى بلاطات الأمراء والحكام . وأن تثير الفوضى السياسية هنـا وهناك بدافع من الكراهية المذهبية ، وبدافع الحصول على أرباح وفيرة من وراء القروض التى كانوا يقدمونها الى الامراء بفوائد عالية للغاية . ونظـرا لارتباطهم (بالوكالة البريطانية) كانت أعمالهم وسياساتهم المالية تستهدف تقويض نفوذ الحكومة المركزية (المغولية) أو اية شخصية قوية تستطيع ان تفرض كلمتها على المنطقة الساحلية حتى تظل يد الانجليز مطلقة فى عملياتهم التجارية بعيدة عن متناول يد الحكومة . وهذا يفسر لنا العداء الذى كان بين هذه الرأسمالية الهندية وسراج الدولة نائب الامبراطور فى اقليم البنغال ، فقد عمل سراج الدولة على السيطرة على مراكز الانجليز على الساحل ، وبوجه خاص معقلهم المنيع فى فورت وليم .

زحف سراج الدولة على فورت وليام ، وهـزم القوات الانجليزية — الهنـدية المشتركة ، واستولى على الحصن فى ٢٠ يونيو / حزيران ١٧٥٦ . وكان هـذا التفوق الذى أبداه « سراج الدولة » خطرا كبيرا على الوجود الاستعمارى البريطانى فى الهند ، وبوجه خاص فى البنغال . ولذلك قرر الانجليز أن يعيدوا النظر فى سياستهم فى الهند ، وفعلا أسندوا الأمور الى رجل على جانب كبير من الخبرة والذكاء وهو كليف Clive وتولى الرجل مهمة القضاء على سراج الدولة ، خاصة وان سراج الدولة كان قد اعتمد على بعض الضباط الفرنسيين فى تدريب وتجهيز جيشه . وكانت فرنسا حينذاك تخوض حرب السنوات السبع [1] ضد بريطانيا وحلفائها .

كان (كليف) يدرك أن الجيش الانجليزى رغم تفوقه فى سلاح المدفعية لا يستطيع التفوق على جيش سراج الدولة الكثيف . ولكن كانت ظروف الهنـد المتفككة تعطى للانجليز فرصا واسعة لأن يجدوا لكل امير عدوا مستعدا للتعاون معهم . بل لقد وجـد الانجليز بين خلصاء سراج الدولة من كان مستعدا لأن يخونه طمعا فى أن يحل محله . لقد

---

(١) حرب السنوات السبع من ١٧٥٦ — ١٧٦٣ .

كان (مير جعفر) رجلا شديد الانانية لا يقيم وزنا للوطن أو للصداقة أو للملة فى سبيل الحصول على الأموال والمنصب الرفيع . فاشتراه الانجليز ، واتفقوا معه على أن يخون ولي نعمتـــه سراج الدولة خلال الحرب التى ســتقع بين الانجليز وحلفائهم ضـــد سراج الدولة .

وفى بلاسى Plassy فى ٢٣ يونيو/حزيران ١٧٥٧ دارت المعـــركة . وبينما كانت المعركة تتذبذب بين هذا الطرف وذاك ، ضرب مير جعفـــر ضربته فى الوقت المناسب ، وانقضت القوات الانجليزية وما معها من الحلفاء على جيش سراج الدولة فأبادته ، ولم يلبث ان وقع سراج الدولة نفسه فى يد الانجليز فاعدموه ، بينما تولى مير جعفر حـــكم البنغـــــــال .

كان هذا الانتصار الانجليزى الكبير فى (بلاسى) نقطة تحول كبيرة فى تاريخ الهند بصفة خاصة . ولقد كانت لأنباء هذا الانتصار وذلك المصير الذى لقيه سراج الدولة صدى قوى لدى الحكومة المركزية المغولية الضعيفة فى دلهى . وأدركت القوى الاسلامية الحاكمة أن الخطر الانجليزى أصبح أعظم من أن تترك له أبواب الهند هكذا مفتوحة . ولكن هذا الادراك جاء بعد فوات الآوان بزمن طويل . فارسل الامبراطور المغولى جيشا ضـــد الانجليز وحلفائهم . فدارت معركة (بوكسار) Buxar فى ١٧٦٤ وفيها كانت الهزيمة الحاسمة للامبراطورية المغولية ، وفقدت الى الأبد البنغال اذ أرغم الانجليز الامبراطور المغولى على أن يمنح الشركة الحق « الديوانى » أى « حق التصرف الادارى فى الايرادات فى مناطق البنغال وبيهار وأوريسا العريضة الثراء » .

ماذا أصبحت عليه أحوال البنغال بعد أن أصبحت فى يد الانجليز ؟ هذا السؤال اجاب عنه المؤرخ الهندى الكبير بانيكار .

« انقضت على تلك الولاية المنظمة عشر أعوام كانت كل قواها فيها توجه نحو غرض واحد .. هو النهب ، كانت دولة لصوص نشأت على ظهر البسيطة وكتب ريتشارد بكر — أحد موظفى الشركة . الى ســـادته فى لندن بتاريخ ٢٤ مايو ١٧٦٩ يقول : لا بد ان يحز فى نفس أى انجليزى أن يكون لديه من الأسباب ما يدعوه الى الظن بانه منذ أن تولت الشركة جمع (الديوانى) سارت أحوال الناس فى هذه البلاد اسوأ مما كانت عليه من قبل .. فان هذا البلد البديع كان يزدهـر

تحت أشد الحكام استبدادا وتعسفا أخذ يشرف على الدمار . وهناك وثيقة تسترعى الأنظار،شكا فيها بعض البارزين من اصحاب الأملاك الى المجلس وذكروا فى ملتمسهم : أن وكالات السادة الانجليز كثيرة كما أن كثيرا من مخازنهم التجارية موجودة فى كل مكان وبكل قرية بل تكاد تكون موجودة بكل أرجاء ولاية البنغال .٠

« وهم يتجرون .٠ فى جميع أنواع الحبوب والمنسوجات وكل نوع آخر من انواع السلع يوجد بالبلاد ، ولكى يشتروا هذه السلع يفرضون نفوذهم فرضا على كل فلاح حتى اذا اشتروا البضائع بهذه الوسائل الاستبدادية بثمن بخس يجبرون السكان واصحاب الدكاكين على شرائهما بثمن مرتفع يزيد على ما يدفع لهـا فى الأسواق .٠ الواقع انه لم يعد باقيا فى هذه البلاد شىء تقريبا » .

ذلك كان مصير البنغال على يد شركة الهند الشرقية البريطانية ، ولقـد أعان ذلك الانجليز على أن يكرروا نفس خططهم مع بقية القوى العديدة المتناحرة فى داخل الهند ، فارغموا (نظام حيدر آباد) على أن يسرح القوات التى كان قد دربها الفرنسـيون من قبل ، ثم هاجموا أكبر قوة فى الهند حينذاك هى (الماراتا) ، وهزموها شر هزيمة فى موقعة (آساى) بالدكن ١٨٠٣ ثم قرب « بونا » فى ١٨١٥ . ولم يبق أمامهم من قوة كبيرة قادرة على التصدى للانجليز سوى امارة (ميسور) التى تولاها حيدر على ثم خلفه عليها ابنـه فتح على أشد أعداء الانجليز .

كان حيدر على قد استطاع أن يصبح ملك ميسور خلال منتصف القرن الثامن عشر ٠ وكانت تحيط بميسور قوى عديدة معادية . فالى جانب الانجليز ، كان جـاره « نظام حيدر آباد » مستعدا للتوسع على حسابه اذا ما واتته الفرصة بالتعـاون مع الانجليز . وكان المراتا من خصوم (حيدر على) الالداء ٠ فكان أن شـكل الانجليز من هؤلاء الخصوم حلفا ضد ميسور وهاجموها (١٧٦٥) . ولقد استطاع (حيدر على) أن يصمد ضدهم ، وأن يثبت أنه قادر على التفوق . ولكنه كان تفوقا مؤقتا حيث أن قوى الخصوم كانت مستعدة لأن تعيد الكرة جماعة وفرادا ، الأمر الذى كان ينهك قوى ميسور ويحملها أعباء فوق طاقاتها . خاصة أن (حيدر على) أدرك أن التفوق على الانجليز تفوقا حاسما لا يمكن ان يتم طالما هو لا يزال متبعا الطريقة التقليدية فى اعداد الجيوش ، وانه لا بد من الاستعانة بالخبراء الأوروبيين فى تدريب وتجهيز الجيش بالمدفعية الحديثة ٠

ونشط (حيدر على) فى تحقيق هدفه ، واستخدم الفرنسيون فى اعادة بناء جيشه، واستطاع أن يحقق الانتصارات عندما دخل فى حرب ضد الانجليز ، ولكنه كان فى حاجة ماسة الى معونة الفرنسيين البحرية ، ولقد قدموا هؤلاء بعض المساعدة التى اعانته على الصمود أمام الانجليز وحلفائهم لفترة ليست بالقصيرة،حتى اذا ما انتهت حرب الاستقلال الامريكية ، التى وقفت فيها فرنسا ضد بريطانيا ، نفضت فرنسا يدها من (حيدر على) ، وتركته يواجه الانجليز وحده ، ولذلك تفوقوا عليه واضطروه الى التراجع الى الداخل ، ولم يلبث أن مات فى ١٧٨٢ ليخلفه ابنه (فتح على) المشهور باسم « تيبو » ، ليتابع من بعد القتال ضد الانجليز وحلفائهم (نظام حيدر آباد والمراتا) ، فهزموه وأرغموه على عقد اتفاقية (سرنجا باتام) التى فقد فيها الكثير من أملاكه ودفع غرامة باهظة (١٧٩٢) .

ولكن استمر تيبو فى العمل على اعادة تنظيم قواته ، وكان يبحث كذلك عن حلفاء يستطيعون الوقوف معه ضد هذا الخطر الضخم . ولكن لم يكن فى الهند حليف يمكن أن يطمئن اليه (تيبو) ، وتطلع الى فرنسا التى كانت قد قامت فيها الثورة الفرنسية الكبرى ، وأعلنت بريطانيا الحرب على فرنسا فى ١٧٩٣ . وبعد أن سيطر بونابرت على ايطاليا شرع يفكر هو وحكومة الادارة الفرنسية فى ارسال حملة الى مصر لتكون قاعدة للوثوب على الانجليز فى الهند .

وكانت آمال بونابرت فى الاتصال والتعاون مع تيبو كبيرة وهذا ما تبينه الوثائق المتعلقة بالحملة الفرنسية على مصر . وكذلك كان تاليران وزير خارجية حكومة الادارة متحمسا للاتصال بتيبو والتعاون معه فى عمل مشترك عسكرى ضد الانجليز . وكان تاليران يعتقد أن سقوط مصر فى يد الجيش الفرنسى سيكون سهلا ، ومنها يمكن أن يرسل الفرنسيون قوة مؤلفة من خمسة عشر ألف مقاتل الى تيبو لمعاونته فى طرد الانجليز من الهند .

كذلك كان كل من تاليران وبونابرت يعتقدان ان فى الهند العديد من الأمراء المستعدين للعمل معهم ضد الانجليز . ولقد كان هناك فعلا العديد من القوى المحلية الهندية الكارهة للوجود الاستعمارى البريطانى ، ولكن الشىء الذى غاب عن الفرنسيين ان امكانية تحريك هذه القوى فى جبهة متحدة ضد الانجليز كان مستحيلا .

وعلى أى حال ، كان على الفرنسيين أن يستعينوا بكل قوة يمكن أن تتحرك ضد الانجليز أو معادية لهم . ولهذا بعثت حكومة الادارة برسائل الى فتح على حيدر (تيبو) وملك جزيرة سيلان وعدد آخر من امراء الهند تحثهم على زيادة نشاطهم العسكرى ضد الانجليز والتعاون مع الفرنسيين ضدهم .

ولكن الرسالة التى أرسلت الى تيبو وقعت فى يد الانجليز ، وأدرك الانجليز أنهم فى موقف يتطلب منهم القضاء عليه ، خاصة بعد أن علموا بنزول الجيش الفرنسى الى أرض مصر (١٧٩٨) . فشدد الانجليز حملاتهم عليه وحاصروه فى عاصمته (سرنكا باتام).

ومثلما حدث مع سراج الدولة ، حدث لتيبو . فقد كان الانجليز على صلة قوية مع (مير صادق) ، أحد قواد تيبو . وأغروه بالخيانة ، فخان تيبو فى أدق موقف ، وفتح للانجليز باب القلعة فاستولوا عليها وظل تيبو يقاتل المهاجمين حتى سقط والسيف فى يده . فتخلص الانجليز بذلك من أخطر قوة وطنية تصدت لسياستهم الاستعمارية . وكان آخر حاكم اسلامى كبير يقف فى وجه الانجليز وقفة صلبة . ولم يلبث أن توسع الانجليز بسرعة فى الهند ، ليضعوها بأسرها تحت سيطرتهم المباشرة بعد أن قضوا على مقاومة المارانا ، والسيخ والامارات الاسلامية الباقية ، ولكن ظلت هناك آمال لدى هذه القوى لحركة كبرى ضد المستعمر . وتحركت قوى الهند فى ثورتها الكبرى المشهورة فى مايو ١٨٥٧ .

الفصل الرابع

الثورة الهندية

١٨٥٧ - ١٨٥٨

الثورة الهندية واحدة من أهم ثورات (العالم الثالث) التحررية ، وهى — مثل الثورة العرابية فى مصر — التى عمل المستعمر الانجليزى على التقليل من شأنها الى أدنى المستويات ، مع أن كلا منهما كان ثورة وطنية استهدفت تخليص البلاد من المستعمر .

ومثل كل ثورة تحررية ناجحة أو فاشلة كانت هناك عوامل وظروف أدت الى نشوبها وتطورها ، فما هى الأسباب والعوامل والظروف الرئيسية التى أدت الى ثورة ١٨٥٧ / ١٨٥٨ .

١ — لا شك أن الحكم الانجليزى بعد تغلبه على الامارات الاسلامية الواحدة بعد الأخرى، وعلى القوى الهندوكية المختلفة انكشف وجه الانجليز أمام أهل الهند من حيث أن الانجليز الذين خرجوا فائزين من وراء الحروب الأهلية التى دارت فى الهند ، وكانت اللوعة أشد لدى المسلمين لأنهم وجدوا انفسهم وقد فقدوا تقريبا كافة ما كانوا يتمتعون به من مكانة عالية ، اذ سلب الانجليز الامبراطور المغولى والأمراء حق الحكم ، وابقوا فى يدهم مظاهر تافهة ، واستأثرت شركة الهند الشرقية البريطانية بكل خيرات البلاد . فكان ذلك عنصرا هاما فى تكوين قيادة قادرة على اثارة الشعب عندما يشعر الشعب بأن هناك قضية تتطلب منه الثورة .

٢ — كان المسلم البسيط الذى كان يعيش جنبا الى جنب الهندوكى — لا يريد من الدنيا الا هدوء البال واستمراره فى أعماله التقليدية وقيامه بما فرضه الله عليه من صلوات خمس وصوم . ولكنه فى القرن التاسع عشر شاهد بعينى راسه أن هناك محاولات خطيرة موجهة ضد مذهبه ودينه . فقد أخذ الانجليز جانب الهندوس واطلقوهم على المسلمين يهزأون بدينهم ويسومنهم العذاب . وتوالى ذلك فى أكثر من مكان .

ولكن الأدهى من ذلك أن السياسة الانجليزية تهدف الى (تنصير) (١) الهند .

---

(١) Christianization of India

اذ أعلن رئيس مدراء شركة الهند الشرقية البريطانية مستر مانجلر (١) فى مجلس العموم البريطانى أن الهدف هو أن يرفرف علم المسيحية فوق الهند وأن يصبح الهنود مسيحيين . وبهذا المعنى تحدث كثرة من المسئولين الانجليز . وكان الانجليز فى الهند يهزأون من الأسماء الاسلامية والهندية ذات القداسة مثل (محمد) و (رام) . وكانت آلهة الهندوس محقرة والسخرية من الاسلام معتادة بل لقد كان الانجليز يدفعون الهنود والمسلمين نحو احترام الطقوس المسيحية، وذهب بعض المسئولين الانجليز الى أن الفشل فى (تنصير) الهند وراء أية مشكلات تحدث فيها . وقد قال مستر مانجلز : انه يجب أن يبذل كل انجليزى كل جهده من أجل تحويل الهند الى المسيحية .

لقد كان الانجليز فى الهند موقنين أنه لا يمكن تحويل مسلم واحد عن دينه وانه من الخير للسياسة التبشيرية المسيحية أن تركز على تعليم أبناء الهندوس تعليما مسيحيا . ولقد كانت عمليات التبشير بين الأسرات الكبيرة الهندوسية تلقى بعض النجاح، ولكن هذا ما كان ليتناسب مع المبالغ الطائلة التى كانت تنفقها شركة الهند الشرقية البريطانية على المبشرين والمدارس التبشيرية . الا أن وضوح هذه الاتجاهات لدى الحكام الانجليز ، ولدى المبشرين الانجليز كان كفيلا بأن يثير أشجان المسلمين ويدعوهم الى التحرك دفاعا عن أنفسهم أمام جيوش من المبشرين تنفق عليهم الشركة البريطانية ، خاصة أنه فى الوقت نفسه حرمت أموال الخيرات الاسلامية على المسلمين وعلى مدارسهم ومساجدهم التعليمية .

لم يعن الانجليز بتعليم أبناء المسلمين أو حتى الابقاء على أساليب التعليم التقليدية سائرة فى طريقها ، بل عملوا على تعطيل التعليم الاسلامى فى الكتاتيب والمساجد والمدارس . فقد كانت الأوقاف الخيرية الاسلامية هى الممول الوحيد تقريبا لتلك الكتاتيب والمدارس ، فما كان من الانجليز الا أن استولوا عليها . وفى نفس الوقت فتحوا أبواب التعليم أمام الهندوس بصفة خاصة على أسس انجليزية . حقيقة كان عدد المتعلمين الهندوس قليلا فى تلك المدارس اذا قيس بأعداد الهند المهولة . ولكن النتيجة التى ترتبت عن تلك السياسة التعليمية هى ظهور العديد

(١) Mangles

من الهندوس القادرين على المشاركة فى الدواوين الحكومية جنبا الى جنب مع الانجليز بينما لم يفز من المسلمين بتعليم راق سوى عدد ضئيل جدا بالنسبة للهندوس . وكانت هذه خطة مرسومة بريطانية .

لقد كان التعليم الحديث واحدا من أدوات الانجليز لتحويل المجتمع الهندى المسلمين فيه والهندوس وغيرهم الى الدين المسيحى ، الأمر الذى جعل المسلمين والهندوس ينظرون بعين الريبة والشك الى كافة أدوات الحضارة الحديثة التى كان يدخلها الانجليز فى الهند . حتى لقد أصبحت دفاتر التعليم لدى الوطنيين مجرد دفاتر شيطانية (1) لقد كانت أساليب الحضارة الحديثة من سكك حديدية وتلغراف وبواخر مجرد أدوات دمار أطلقها (الصليبيون) على المسلمين أو شياطين سلطها المستعمرون على الهندوس ، تلك كانت رؤية المسلمين حينذاك .

٣ — تكشف بمرور الوقت أن شركة الهند الشرقية أشد قسوة بكثير من جشع واستبداد الحكام الوطنيين ، فالمآسى التى أنزلتها الشركة بالوطنيين خلال عمليات جمع الضرائب كانت امورا معروفة على نطاق واسع جدا عبر الهند ، وكان الانجليز انفسهم يتحدثون عن ذلك ، ولكن حديث السيد عن عبد لا يستحق سوى أن يعمل لسيده مكتفيا بكسرة خبز تافهة سقطت من السماط عند أقدام سيده . فكان هذا السخط السياسى والدينى يؤججه واقع اقتصادى مؤلم حتى لقد قيل : « أن المصائب التى أنزلها الانجليز بالهند هى أعمق بكثير من كل ما حل بها فى الماضى . . فكل الحروب والغزوات والفتوحات والمجاعات اصابت الهند سطحيا ، أما انجلترا فقد دمرت أسس النظام الاجتماعى دون أن تبدى . . رغبة فى بناء اى شىء . ان الغزاة الانجليز حطموا ودمروا الأنوال والمغازل الهندية ، وبدأت انجلترا بطرد منسوجات القطن الهندية من أسواق أوروبا ، ثم شرعت فى تصدير الخيوط القطنية الى الهند ، وأخيرا أغرقت المنسوجات القطنية (الانجليزية) وطن هذه المنسوجات (الهند) . ومن ١٨١٨ الى ١٨٣٦ زادت صادرات الخيوط البريطانية الى الهند من ١ — ٥٢٠٠ ، فى عام ١٨٢٤ بلغت صادرات الموسلين الانجليزى الى الهند اقل قليلا من مليون ياردة ، وارتفعت فى ١٨٣٧ الى أكثر من

(1) Shaitani Daftars

٦٤ مليون ياردة وفى الفترة ذاتها هبط عدد سكان دكا من ١٥٠ ألف الى ٢٠ ألف ، ولم يكن انحطاط المدن الهنـــدية الشهيرة بمنتجاتها أسوأ عواقب الســيطرة البريطانية . فقد دمر العلم البريطانى واستخدام الآلة البخارية من قبل الانجليز ٠٠ فى كل أرجاء الهند الرابطة بين الزراعة والصناعة الحرفية » .

لقد كان هناك سخط عام فى الهند على الوجود الاستعمارى ولكن كانت الهند مفككة ولم يكن هناك زعيم يستطيع أن يوحد المسلمين والهندوس فى حركة عامة كبرى ضد الانجليز ، الا أن الفكرة كانت موجودة فى المناطق الشمالية بصفة خاصة . وهى مناطق يكثر فيها المسلمون . ولهذا كانت تلك المناطق تنتظر ظرفا ملائما كى تثور . وكانت هناك حركات سرية تبث منشورات تدعو للثورة ، وكانت تحث كافـــة الطوائف للتحرك ضد العدو المشترك : الانجليز ٠ وبدأت الثورة من مكان لم يكن يتوقعه الانجليز ٠

٤ ـ كان الانجليزى يعامل المواطن الهندى معاملة ســيئة ، وتكاد تكون (الاهانة) هى أبرز مظاهر العلاقة بين الانجليزى والمواطن الهندى . لقد كان الانجليزى حينذاك على مستوى حضارى عالى بينما كان المواطن الهندى مسلما كان أم هندوسيا على حالة متدنية من الحضارة والفكر ، وكانت التقاليد الاجتماعية والدينية سواء لدى المسلمين أو الهندوس تثير اشمئزاز الأوروبى . ومن ذلك مثلا انتحار الأرملة بعد وفاة زوجها ، وتقديس البقرة واستخدام روثها بطريقة يشمئز منها الأوروبى ، والخرافات التى أزاغت المسلمين عن جوهر الدين الاســلامى . وكان الموظف الانجليزى فى الهند يحصل على راتب عالى جدا، بينما كان الموظف الوطنى يتقاضى مرتبا تافها ، بل وكانت الترقيات مفتوحة أمام الانجليز ، موصدة أمام الوطنى . واحتكر الانجليز المناصب العليا دون الوطنيين .

٥ ـ سياسة ضم الشركة للولايات الهندية اليها بشكل متسارع خلال حكم دالهوزى[١]، فابرزت هذه السياسة صورة الاستنزاف المروع الذى كانت تمارسه شركة الهند

---

(١) Dalhousie

الشرقية لثروات ونتائج جهود الهند والهنود • وفضـــلا عن ذلك أن تلك الأموال الطائلة التى كانت تجمعها الشركة على صور شتى وأنواع مختلفـة من الضرائب والقوانين — كانت تخرج من البلاد الفقيرة — لرفاهية الشعب البريطانى •

ولقد كان ضم شركة الهند الشرقية لولاية (أودة) من العــــوامل التى أثارت اشجان (السيبوى) . فلقد وجد السيبوى أنهم فى الوقت الذى قدموا فيه خدمات جليلة للشركة وقدموا تضحيات ضخمة اذا بتلك الخدمات والتضحيات تؤدى الى ضياع استقلال (أودة) وقيام الشركة بادارتها وبالتالى ابتزازها .

٦ — كانت شركة الهند الشرقية البريطانية فى حاجة شديدة الى أعداد كبيرة من الشباب والرجال الهنود للعمل فى قواتها المسلحة خلال القرن الثامن عشر وحتى العقـــود الأولى من القرن التاسع عشر ، وذلك لفرض المخططات الاستعمارية للشركة ، ولمنع القوى السياسية العديدة الوطنية المتناحرة من الاقتتال ، حيث كانت هذه القوى الوطنية قد استمرأت الصراعات المحلية بشكل وبائى ، فكان أن أعطوا الفرصـــة الواسعة لشركة الهند الشرقية لكى ترفع شعارا انسانيا وهو فرض السلام على المتقاتلين والقيام بدور الشرطى ذى العصى الغليظة .

كان ذلك هو مفهوم السلام البريطانى (١) . أن يعيش الجميع فى ظل سلام يعيش فيه الانجليز حياة السيادة والحضارة والبذخ والوطنيون — وهم يتمتعون بالسلام البريطانى — فى خدمة هذا السيد الأجنبى الانجليزى •

٧ — وقد وقعت تطورات عسكرية على الحدود الهندية الافغانية أدت الى اهتزاز الولاء العسكرى لدى (السيبوى Sipoy) ، فقد انتصرت القوات الافغانية على القوات الانجليزية الأمر الذى أدى الى هبوط هيبة القوات الانجليزية أمام القـــــوات العسكرية الوطنية (السيبوى) • ويذكرنا هذا بما حدث فى مصر فى عهد (الدولة البطلمية) ، حيث استبعد البطالمة الوطنيين المصريين من الخدمة العسكرية ، حتى اذا ما عجزت القوات الاغريقية البطلمية عن صد غزوات أغريق سوريا لمصر ، فتح البطالمة المجال العسكرى أمام المصريين ، وتشكلت فرق عسكرية مصرية ، واستعاد

(١) Pax Britannica

البطالمة قدرتهم القتالية وخاضوا معركة رفح (٢١٧ ق.م) وانتصروا فيها بفضل القوات المصرية ، ولكن الاغريق البطالمة ظلوا يعاملون المصريين معاملة سيئة للغاية، بينما كان المصريون يستنكرون هذه التفرقة التعسفية ، الأمر الذى أدى الى اندلاع ثورات المصريين ضد المغتصب الأجنبى .

ولقد وجد السيبوى فى ضعف الانجليز العسكرى خلال مواجهتهم للأفغان فرصتهم لاشاعة الأمل بين أفراد القوات المسلحة الوطنية ، انه عند المواجهة لن تصمد القوات الانجليزية أمام شجاعة السيبوى الذائعة الصيت .

ثم أن السيبوى كانوا ممتعضين من أن الانجليز كانوا لا يستخدمون قوات السيبوى فى أوطانهم ، وانما كذلك بعيدا عنها ، فقد كان الانجليز يستخدمون السيبوى فى (بورما) وغيرها فى الوقت الذى لم يكن لدى السيبوى أى سبب مقنع ليقاتلوا بعيدا عن أوطانهم لمصلحة التوسع الاستعمارى الانجليزى فقط لا غير .

أدت تلك العوامل الى ظهور العديد من رجال الدين الداعين الى تقوية الدين الاسلامى فى قلوب الناس ، وحثهم على التمسك بأهدابه وقوانينه ، وحثهم على التكاتف ضد قوى الابادة المسلطة عليهم. فخرجت من هذه الدعوات نداءات الى امتشاق الحسام دفاعا عن المسلمين من سيوف السيخ والمراتا وانقاذ الهند من التسلط البريطانى الذى كان فى نظر المسلمين السبب الحقيقى لما أصابهم من نكبات وآلام .

وتعتبر شخصية (سيد أحمد) المشهور بالشهيد نموذجا للزعيم المسلم الهندى الذى آمن بأن الوقت قد حان للجهاد ضد القوى الوثنية ، وضد الحرب الصليبية التى يشنها الانجليز على مسلمى الهند . وكان الرجل متفقها فى الدين وكان من ارباب السيف ، وكانت لديه اتجاهات قوية نحو العودة الى نقاء الدين الاسلامى ونبذ كل ما اقحم من خرافات وتحريفات على المذاهب الاسلامية .

وأراد (سيد أحمد) أن يوحد قوى المسلمين ضد العدوان الانجليزى وعدوان السيخ ، وخاض سلسلة من المعارك ضد السيخ حتى خفف كثيرا من ضغطهم على المسلمين . ولكن الجبهة الاسلامية كانت مفككة . وسرعان ما ظهر من رجال الدين من ناقشه فى دعوته تلك ، واتهمه بالخروج عن الدين الاسلامى. ولذلك كانت حركته محدودة

ولكنها كانت ذات آثار قوية فى انعاش نفوس المسلمين خاصة بعد استشهاد ســــيد أحمـــــد فى ١٨٣١ .

ولقد عبر الشعب فى الهند عن رفضه لذلك الابتزاز وتلك الاهانات بعنف اذ وقعت عدة تمردات قبل الثورة ١٨٥٧ ، ومنها تمرد فلور (١) ١٨٠٦ وفى براكبور (٢) فى ١٨٢٤ وفى فيروزبور فى فبراير ١٨٤٢ ، كما قامت عدة فرق عسكرية بتمردات فى ١٨٤٩و١٨٥٠ و ١٨٥٢ وتمرد الكوله فى ١٨٣١ — ١٨٣٣ ، وتمرد راجات كانجرا (٤)، وتمرد سانتال(٥) فى ١٨٥٥ — ١٨٥٦ . وكانت هذه التمردات غالبا نتيجة للأســـاليب الادارية والمواقف السياسية المرفوضة من الجانب الهندى (٦) .

ومن ثم كانت عاصفة تتجمع فى الثلاثينيات والاربعينيات حتى انفجرت فى ١٨٥٧ .

هناك اجماع عام على أن الجنود المسلمين والهندوس فى الجيش البريطـــانى فى المعسكرين فى ثكناتهم فى (ميروت) هم الذين بدأوا الثورة فى مايو ١٨٥٧ ، وأن السبب المباشر لثورتهم ارغام الضباط الانجليز لهم على أن يقطعوا بأسنانهم قطعا من دهن مركب من دهون الخنازير والبقر لتشحيم بنادقهم . والمعروف أن المسلم محرم عليه تذوق دهن الخنزير وأن الهندوس محرم عليهم تذوق دهن البقر . ومع هذا تمادى الضباط الانجليز فى عقاب الجند الذين تذمروا،ولم يلبث الجند أن انقضوا على ضباطهم الانجليز وقتلوهم، وانطلقـــوا معلنين الثـــورة ، وسرعان ما انتشرت ســـواء فى دلهى أو خارجهـــا وفى المناطق الشمالية بصفة خاصة .

وحين يتكلم الانجليز عن هذه الثورة يصفونها بأنهـــا (تمرد السيبوى) (٧) ولا يستخدمون كلمة (ثورة) . ونرى انها ثورة الهند ضد الاستعمار الانجليزى رغم أنها لم

---

(١) Vellor
(٢) Barrackpore
(٣) Kole
(٤) Rajas of Kangra
(٥) Santhal
(٦) Graver; op. cit. p. 218.
(٧) السيبوى Sipoy كلمة محرفة عن (سباهى) الفارسية وتعنى الفارس .

تشمل كل البلاد الهندية . الا أن هذه الثورة شملت معظم القوى الهندية التى كانت قادرة على التحرك . وكانت المناطق الشمالية هى أكثرها تلبية لنداء الثورة .

ونظرا لأن الثورة قامت دون تخطيط مسبق دقيق ، فقد انطلقت الثورة فى دلهى دون قيادة منظمة ، وكذلك كان الحال فى بقية الأجزاء الثائرة . وكان أول اتجاه نحـو خلق قيادة تتحكم فى توجيه الثورة هو احياء مكانة الامبراطور المغولى واعادة السلطات كاملة الى الامبراطور (بهادرو شاه) الكهل .

لقد كان الهدف من وراء احياء الامبراطورية المغولية هو العـودة الى ما كان من تسامح دينى بين المسلمين والهندوس ، بينما افتقدت الهند هذا التسامح تحت الحكم الانجليزى ، وأصبحت التفرقة والبغضاء — بسبب الانجليز — هى السائدة حتى انفـرد الانجليز بالبلاد دون المسلمين والهندوس على السواء .

ولكن هذا الاختيار الذى وقع على الامبراطور بهادور شاه ليقود ثورة المسلمين والهندوس كان اختيارا غير موفق . فلا هو ولا أعوانه كانوا يعرفون أساليب الحـرب والقتال الحديثة حينذاك . كانوا متحمسين أكثر منهم قادة محنكون . ولهذا ستكون ثورة المتحمسين الذين يقتلون هنا وهناك ويقتتلون أيضا هنا وهناك . بينما كانت لدى الانجليز فرصة واسعة لتجميع قواتهم وقوات هندية موالية للانجليز من مختلف أجزاء الهند . ثم انقض الانجليز على معاقل الثوار الواحد بعد الآخر حتى أخمدوها وألقـوا القبض على الامبراطور ليسير فى موكب السخرية ، وليطلق الضباط الانجليز النار على أولاده فى الطريق ثم قدموهم على هيئة وجبة غذائية للأب المهيض الجنـاح . ولم يلبث الامبراطور أن قدم للمحاكمة ونفى الى رانجون . ذلك كان مصير آخـر أباطرة المغول .

وانقضت القوات البريطانية ومعاونوها من رجال السيخ على المسـلمين بشـكل وحشى ، فقتلوا مئات الالوف ، وأحرقوا الأسرى . فكانت أبشع مذبحة دبرها الانجليز ، وكانوا يرون فى فشل الثورة فرصة للقضاء قضاءا مبرما على المسلمين حتى لا يستطيعوا الثورة مرة أخرى .

فما هى اسباب فشـل الثـورة ؟

١ — لم تشمل الثورة كل الهند . اذ ظلت بعض الولايات الهامة على ولائهـا للانجليز ،

وظلت السند وراجستان هادئة ، بل قدمت بنبال مساعدة للانجليز أسهمت فى اخماد الثورة وظل (دوست محمد) — حاكم أفغانستان — متعلقا بصداقته للانجليز ، كما أن منطقة البنجاب ظلت هادئة تحت سيطرة جون لورنس J. Lawrence . والمنطقة جنوب نار بادا [1] لم تتحرك الا بشكل محدود جدا . أما المناطق التى اشتعلت فيها الثورة بعنف هى : بيهار ، أوده ، روحيخاند [2] ، دلهى وكذلك البلاد الواقعة بين شامبال [3] ونار بادا .

٢ — كانت الثورة ذات طابع (اقطاعى) ، وخاصة فى (أوده) ، و (روحيخاند) ، وفى بعض أجزاء شمال الهند ، ولكن وقف عدد من الامراء الاقطاعيين ضد الثورة مثل راجات باتيالا [4] وجند [5] وحيدر آباد و (جواليور) [6] والوزير سالار جنك وزير حيدر آباد ، وظلت سنديا [7] هادئة ، وهى التى لو ثارت لقلبت الموازين . وقد حصل الأمراء الذين أيدوا الانجليز على مكافآت سخية جدا على حساب خصوم الانجليز .

٣ — لم يكن لدى الثوار شعار يجمعهم باستثناء شعار (طرد الأجنبى) ، وهو شعار عظيم وجذاب ، ولكن فى ظروف التفوق الحضارى الكبير الذى كان يتمتع به الأجنبى (الانجليز) ، وفى ظل التفكك الاجتماعى والسياسى الذى كان يسود شعوب الهند ، ضاع ذلك الشعار العظيم (طرد الأجنبى) فى خضم الثورة غير المنظمة والصراعات والاحقاد المذهبية والسياسية . بل لقد كانت الأزمة بين الهندوس والمسلمين عاملا جوهريا من عوامل ضعف وضرب الثورة .

٤ — غاب التنظيم عن الثورة ، فقد فوجىء بها (بهادور شاه) فلم تكن هناك خطة محددة . حقيقة كان الثوار شجعان يضحون بحياتهم فى سبيل الاستقلال ، ولكن

---

(١) Narbada
(٢) Rohikhand
(٣) Chambal
(٤) Patiala
(٥) Jhind
(٦) Gwalior
(٧) Sindhia

ليست الشجاعة كل شيء خاصة في العصر الحديث الذي أصبح للادارة والتنظيم فيه دور رئيسي في احراز النجاح في وقت الحرب والسلم على حد سواء .

٥ ـ كانت موارد الانجليز أعظم بكثير جدا من موارد الثوار ، وكانت لدى شركة الهند الشرقية البريطانية مجموعة من القيادات العسكرية الفــذة (١) ، استطاعت أن تمتص المفاجأة ، حيث أن الانجليز فوجئوا بالثورة وهجمات الثوار ، وصمدوا حتى وصلت النجدات ، وأعادوا تنظيم القوات والتنسيق فيما بينها ، ثم قاموا بسلسلة الهجمات التي ادت الى هزيمة الثوار واخماد الثورة .

٦ ـ انتهت حرب القرم في ١٨٥٦ ، وكذلك توقفت الحرب في الصين فتوفرت القــوات للانجليز لمواجهة الثورة الهندية . ثم أن تعداد الجيش الانجليزي كان يصل الى ١١٢ ألف وبجانبها قوات هندية تصل الى ٣١٠ الف هندى ، وسلحت القوات الانجليزية بأحدث الأسلحة مثل بندقية (ليانفيلد) .

لقد كان سوء حظ الثوار أن بريطانيا كانت قد خرجت منذ وقت قصير من حربها الظافرة ضد روسيا (حرب القرم) وأصبحت قواتها حرة في التجمع في الهند ضد الثوار . وكانت فرنسا ـ حليفة بريطانيا حينذاك ـ لا تريد أن تستخدم هذه الثورة ضد حليفتها بريطانيا في حرب القرم فلم تجد هذه الثورة موقفا دوليا يدافع عن مطالبها الحقة ، وانما تركت الهند لبراثن الانجليز في ذروة قوتهم الاستعمارية .

ومن الأسباب الجوهرية لفشل الثورة الهندية أنها نشبت في وقت كانت فيه امكانية توحيد البلاد مستحيلة . لقد كانت الهند حينذاك مجرد تعبير جغرافي ، كان تعدادها يبلغ ٤٠٠ مليون نسمة . ومع ذلك فشلت في أن تقف في وجه جيش صغير يقوده الانجليز . وتفسير ذلك أن هذا الجيش الانجليزي كانت قيادته فقط من الانجليز ، وقلة من الجنود الانجليز ، والأكثرية من الهندوس ، ثم أنه كان جيشا هنديا يعيش على نفقة الهند ويفتح البلاد بالسيف أمام الاستعمار الانجليزي .

---

(١) من أمثال : الأخوة (لورنس) و (أوترام) و (هافلوك) .

ما هى النتائج الرئيسية لثورة الهند ١٨٥٧ / ١٨٥٨ ؟

١ ـ كانت النتيجة الرئيسية لهزيمة الثـــورة الوطنية انها أدت الى زيادة التسلط الانجليزى على البلاد . ومن ثم فهى بالمقارنة بالثورة العرابية فى مصر شـــديدة الشبه من هذه الزاوية حيث أن فشل الثورة الهندية ١٨٥٧ / ١٨٥٨ ، وثورة مصر فى ١٨٨١ / ١٨٨٢ أثبتا أنهما وقعتا فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تتحين مثل هذه الفرص لزيادة قبضتها الاستعمارية على بلاد العالم الثالث المهيضة الجناح . ولذلك ستمر العقود بعد العقود حتى تستطيع الهند ومصر أن تحرر من الاستعمار البريطانى ، وهذا لن يتحقق الا بعد خروج بريطانيا من الحرب العالمية الثانيـــة منتصرة ولكن منهكة كل الانهاك ، وهبوطها الى المستوى الثانى بعـــد الدولتين العظمتين (الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى) اذ حصلت الهنـــد وباكستان على الاستقلال فى ١٩٤٧ وحصلت مصر على الاســـتقلال الكامل فى ١٩٥٤ / ١٩٥٥ .

لقد ادركت الحكومة البريطانية فى لندن أن شركة الهند الشرقية البريطانية قد استنفذت أغراضها ، وفقدت مقوماتها ، وأصبحت غير قادرة على قيادة المسيرة الامبريالية فى القرن التاسع عشر . ولذلك ألغت الحكومة البريطانية الشركة ، وتولى (التاج) البريطانى مسئوليات حكم وادارة شئون الهند ، وفقا لمرسوم أصدرته الملكة فيكتوريا فى أول نوفمبر ١٨٥٨ . وكان من العوامل التى أدت الى اصدار مرسوم الالغاء هذا أن رسم السياسة البريطانية للهنـــد كان يعانى من ازدواجية الرؤية ، اذ كانت هنـــاك رؤية لمجلس ادارة شركة الهنـــد الشرقية البريطانية ، بينما كانت هناك رؤية أخرى لحكومة بريطانيا فى لندن حتى لقد بلغ الأمر ببعض الكتاب ان قال أن الهند كانت كعربة يجرها حصانان أحدهما يجرها من مقدمتها ، والثانى يجرها من مؤخرتها .

٢ ـ كان طبيعيا ان يعيد المسئولون الانجليز النظر فى تنظيم وتكوين القوات المسلحة فى الهند، وفعلا فقد رفعوا من قدرتها القتالية عن طريق زيادة تعداد أفراد الجيش، ولكن بشرط أن تصبح نسبة الأوروبيين الى الوطنيين فيه ١ : ٢ على الأكثر . وأن

تكون المناصب العليا العسكرية حكرا على الأوروبيين . وكذلك وضع المسئولون الانجليز فى اعتبارهم أن لا يتمكن الوطنيون فى القوات المسلحة من تجميع قواهم تحت قيادة وطنية واحدة .

٣ — بعد أن ضربت القوى القادرة على الحركة عسكريا ، عملت السلطات البريطانية على استعادة ثقة كثرة من القيادات الوطنية حتى لقد اقسمت العديد من هـــذه القيادات يمين الولاء للحكم البريطانى مثلما حدث فى (أوده) اذ اعيدت شخصيات كبيرة عديدة الى مناصبها بعد قسم يمين الولاء حتى لقد وصفوا من بعـد بأنهم أصبحوا وكأنهم (بارونات أوده) . ولقد أصبحوا فعلا من أعمدة الحكم البريطانى هناك . وكذلك عمدت السلطات البريطانية الى اصدار عفو عام لم يستثن منه الا أولئك الذين اتهموا بقتل بريطانى .

٤ — تقرر فتح باب الوظائف العليا أما الوطنيين،اذ كان مفتوحا أمام الاجنبى الانجليزى فقط ، ولكن لم يكن ذلك على نطاق واسع حيث وضعت الحكومة البريطانية قيودا تحول دون تولى المواطن الهندى منصبا رفيعا ، اذ تقرر عقد امتحانات للترشيح لتلك الوظائف العليا ، وكانت هذه الامتحانات تعقد فى لندن ، ووضعت لها لوائح معقدة ، وكانت النتيجة هى أن المناصب العليا ظلت فى يد الانجليز .

٥ — كان من بين أسباب الثورة ضعف العلاقة بين الحاكم (الانجليزى) والمحـــكوم (الهندى) ولذلك اتجهت السلطات الانجليزية الى تضييق الفجوة بين الطرفين ، عن طريق اشراك الوطنيين فى المجالس التشريعية ، وبذلك يســـهمون فى ادارة شئون بلادهم وهو مطلب كل مواطن حر ، فكان ذلك خطوة هامة للغاية فى الطريق نحو اقامة مؤسسات ذات شكل نيابى،ولهذا الغرض صدر القانون المعروف باسم Indian Council Act 1861 حقيقة يعتبر ذلك ارهاصا نحو البرلمانية الانتخابية ، الا اننا نعتقد أن التمثيل النيابى فى ظل الاحتلال لا يخدم الا متطلبات المستعمر أو على الأقل ادارة البلاد بما يضمن تحقيق أطماع المستعمر فى البلاد .

٦ — عمقت الثورة الفجوة بين العنصرين (الأبيض الأوروبى) و (الهندى) حيث عامل الانجليز الهنود على اعتبار انهم أقرب الى السائمة منهم الى الآدميين ، واصـــبح الانجليز يرددون أنهم أصحاب رسالة حضارية يحملها (الرجل الأبيض) لتحرير الهنود ومن هم على شاكلتهم من تخلفهم الحضارى .

واذا كانت القوى الاقطاعية فى الهند على جانب كبير من القدرة على اشعال ثورة ضد الوجود الانجليزى فى الهند ، فانها ضربت ضربة قاضية خلال ثورة الهند ١٨٥٧ / ١٨٥٨ ، وتخلصت السلطات البريطانية من هذا الخطر الذى هدد بريطانيا بالزوال . ولكن الحقيقة هى أن الثورة الهندية أرغمت السلطات البريطانية على ادخال نظم سياسية واقتصادية وثقافية جديدة فى الهند ، فتهيأت أذهان الانتلجنسيا الهندية للكفاح الوطنى من أجل الاستقلال . أو بمعنى آخر أصبح التقدم الذى تحرزه الهند على يد الانجليز هو المسئول عن نمو الحركة الوطنية اللبرالية الهندية ، تلك الحركة التى توجت بالنجاح فى ١٩٤٧ عام اعلان استقلال (الهند) و (باكستان) .

هل كانت ثورة الهند ١٨٥٧ / ١٨٥٨ ثورة قومية ؟

أثير هذا الموضوع بكثرة فى الغالبية العظمى من الدراسات الاكاديمية التى تناولت تاريخ الهند الحديث بصفة عامة وتاريخ الثورة الهندية بصفة خاصة . وهنـــاك بعض الاعتبارات والمفاهيم يجدر أن نراعيها عند الخوض فى مثل هذه الموضوعات ومن أهمها :

١ ـ ان النظرية القومية نظرية نشأت وقننت فى أوروبا الحديثة ، ومن ثم فان مقومات القومية تنطبق على الشعوب الأوروبية بوضوح بينما هى لا تنطبق بمثل هـــذا الوضوح على الشعوب الشرقية .

٢ ـ أن مقومات القومية قد تتوافر لدى شعب من شعوب الشرق ، من حيث حـــدود لدولته ، ولغته القومية ووحدة العناصر أو السلالة ، ومن حيث الشعور بالمواطنة ضمن دولة معينة . ولكن لا تصبح القومية (شعارا) ولا مفهوما ولا ايديولوجية معلنا عنها الا اذا كان الشعب يؤمن بقوميته عن ادراك .

ولدينا فى الشرق العديد من الأمثلة ، فمصر ذات ممارسات قومية عبر القرون فى العصر الفرعونى ، وفى العصر الاسلامى وفى العصر الحديث ، من حيث حـــدود الدولة وتجانس الشعب ، ومفهوم المواطنة ، ووحدة اللغة ، والدين ، والمذهب ، واقتصاديات الدولة . ولكن دون أن يكون لها (شعار) قومى . وكذلك فارس (ايران) ، فهى عبر التاريخ تمتلك مقومات الدولة دون أن تتخذ القومية شعارا الا فى أوائل القرن العشرين ، وكذلك دولة البوسعيد فى عمان والأئمة فى اليمن .

وبالنسبة للهند فان الثورة الهندية ثورة عبر فيها الشعب الهندى المســـلم والهندوسى ـ وان لم يكن كل الشعب ـ عن رفضه للاحتلال الاجنبى لبلاده ، وأن من

مسئوليات الشعب تحرير بلاده من الاستعمار وان يتولى أمور نفسه بنفسه ، ومن ثم كان هناك شـعور (وطنى) عام يشبه الى حد كبير جدا الشعور (القومى) فى الهند . ولكن المشكلة الخطيرة التى كانت تواجه (القومية) كايديولوجية فى الهند هى أن الهند كانت تضم العديد من المجتمعات المتباينة تباينا شديدا مثل : الهندوس ، والمسلمون ، والسيخ ، حتى لقد ذهب بعض الكتاب فى تاريخ الهند الى القول بأن الهند فى عهد الثورة الهندية وقبلها كانت مجرد تعبير جغرافى Geographical Experission وهو نفس المصطلح الذى اطلق على ايطاليا قبل أن تتحقق وحدتها وأطلق كذلك على المانيا قبل أن تعلن وحدتها فى ١٨٧١ . كذلك كان يرى كثرة من المفكرين فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ان (أوروبا مجرد تعبير جغرافى) بينما نلاحظ أن الدولتين الألمانيتين يسيران حثيثا نحو الوحدة ، وأن دول أوروبا الأخرى تسعى الى وحدة أوروبية .

نخلص من هذا كله أن القومية كانت ممارسة فى الهند وبلورتها ثورة ١٨٥٧ ولكن دون أن تكون القومية أيديولوجية أو شعارا .

وبسبب تلك الأوضاع كان من بين الباحثين فى تاريخ الهند من يرى أن ثـورة ١٨٥٧ / ١٨٥٨ ثورة قومية ، ومن بينهم من يرى أن القيادات التى قادت الثورة افتقدت المقوم القومى ، وان هذه القيادات كانت تشارك فى الثورة من أجل مصالحها .

وكثرة من الباحثين فى تاريخ تلك الثورة الهندية يرفضون الفـكرة القائلة بأنه كانت توجد حينـذاك (امة واحـدة) ، ويرون ان (البنغـالى) و (البنجابى) و (الهندوستانى) و (المادراسى) و (الماهاراستارى) لم يكن أى منهم يدرك أنه ينتمى الى (امـة واحـدة) .

ويثور جدل عميق حول نتائج هذه الثورة الهندية ، ونتـائج الحكم المباشر البريطانى . فلقد ذهب كارل ماركس الى أن الاستعمار البريطانى فى الهند أحدث ثـورة اجتماعية فى البـلاد .

وهناك من يعارض هذا الرأى جوهريا ، فيرى أن الهند لو تركت لنفسها لسارت فى نفس التيار التقليدى نحو حكم البورجوازية وثورة بورجوازية ثم ثورة شعبية .

والحقيقة هى أن الاستعمار البريطانى أحدث ثورة اجتماعية وادارية قام بهـا

الانجليز حينما أنشأوا حكومات وادارات فى الهند ، كان موظفوها من الانجليز ، وليس من الهندوس أو المسلمين . وعندما مدوا خطوط السكك الحديدية بواسطة الشركات البريطانية ، وعندما نقلوا حضارة أوروبا ليقوم على غرسها فى الهند الانجليز أنفسهم من دون أهل البلاد ، فانهم بتلك الأعمال أحدثوا ثورة اجتماعية وادارية . وفتح الانجليز باب هذه الحضارة أمام أقلية ضئيلة للغاية اذا ما قيست بتعداد الهند الضخم .

بعد أن قضى الانجليز بقسوتهم البالغة على الثورة الهندية ، حلوا شركة الهند الشرقية البريطانية وجعلوا الهند تابعة للتاج البريطانى،واصبحت الهند مجرد مستعمرة بريطانية ، وشرعوا فى تطبيق سياسة جديدة تختلف عن تلك السياسة التى كانت تتبعها الشركة .

كانت الشركة لا تعنى الا بموازين الربح والخسارة الا من حيث الحصول على أكبر قدر من الأرباح المادية حتى تتخم جيوب الانجليز ، وحتى ترتفع أسهمها فى الدائر المالية العالمية . أما بعد أن أصبحت الهند مجرد مستعمرة فقد راعت السياسة البريطانية استمرارية القدرة الهندية على اعطاء دخل كبير للانجليز على المدى الطويل ومن ثم يجب عدم اجهاد الهند والا تتعرض لافتقاد القدرة الانتاجية العالية .

واتبع الانجليز كذلك سياسة التفرقة بين الهندوس والمسلمين . وكان المسلمون ينظرون بعين الارتياب الى المؤسسات الانجليزية التعليمية وشجعهم الانجليز على ذلك اذ قربوا منهم البيوتات الهندوكية ، فكان أن تفوق الهندوس على المسلمين فى مجالات الوظائف العامة والأعمال التجارية . وستكون هذه السياسة المنحازة عاملا أساسيا فى ظهور تيارات تحررية بعضها اسلامى المظهر ، والبعض الآخر هندوكى .

ونظرا لأن السيبوى كانوا قوة ضاربة ثورية متميزة خلال الثورة الهندية ، فقد كان من الأمور التى عنى بها الباحثون تحديد العلاقة بين الشورية لدى (السيبوى) والايديولوجية القومية . ولقد نفى البعض — من أمثال الدكتور (ماجومدار) [1] أية مشاعر (قومية) أو مشاعر الدفاع عن (أمة) ولا حتى الكفاح من أجل (الاستقلال) وتطرف حين قال أن السيبوى انما ثاروا فقط لأسباب متعلقة بمرتباتهم فنفى عنهم دورا بطوليا قاموا به خلال سنتى الثورة .

---

(١) Majumdar

وينتهى الدكتور ماجمدار الى القول بأن الثورة لم تكن على الاطلاق حرب الاستقلال الأولى . وهـــو قول يرفضـه المؤرخ S. B. Chaudhuri اذ يرى أنها فعلا حــــرب الاستقلال التى شارك فيها الشعب .

ويؤيد البروفسور سن (١) أن الثورة قومية ، ولكن قادتها أقلية على نحو الثورة الامريكية (١٧٧٥ — ١٧٨٣) والثورة الفرنسية . وان الثورة الهندية (١٨٥٧ — ١٨٥٨) ثورة قادتها أيضا (الاقلية) . ويرى البروفسور سن أن الشكل الوطنى الاســـتقلالى للثورة لم يظهر الا بعد أن انضم ثوار ميروت (٢) الى الداعين الى الانضـــواء تحت راية الامبراطور بهادور شاه كرمز لحكم وطنى يرغبون فى اعادته الى ما كان عليه من استقلال وعظمة وتقاليد شرقية أضاعها الأجانب فى زحمة اصلاحاتهم الحديثة التى تخـــدم أولا أغراضهم الاستعمارية .

ولقد انتهى كل من البروفسور (سن) والبروفسور (شودورى) الى أن ثـورة ١٨٥٧ هى أول حرب استقلالية هندية ، على عكس ما يقوله (ماجمدار) تماما .

---

(١) Sen

(٢) Meerut

الفصل الخامس

الصحوة الاسلامية

من الهزيمة الى الدولة الاسلامية (باكستان)

كان الوجود الاستعمارى البريطانى فى الهند يعتمد على القوة العسكرية البريطانية وعلى القوة العسكرية الهندية التى كانت تعمل بكفاءة تحت القيادة البريطانية ، والى جانب ذلك كانت الأجهزة الادارية التى شكلتها السلطات البريطانية تتحكم بكفاءة فى شئون البلاد الداخلية والقضائية والتعليمية . وكانت الشركات والمؤسسات البريطانية الكبيرة تسيطر على الاقتصاد .

حقيقة أعطت تلك الادارة وتلك الشركات سيطرة بريطانية قوية على شبه القارة الهندية ، الا انها كانت فى نفس الوقت مؤسسات تعطى فرصة للهنود للتعرف على الحضارة الحديثة ، ولذلك ساعدت تلك الادارة والمؤسسات والشركات على تفتيح اذهان الهنود على اسس وقيم الحضارة الغربية ٠

اخذ المثقف فى الهند يقرأ روايات (شكسبير وديكنز) والنظريات السياسية لـ (لوك) وأدبيات كارليل ، ووصلت اليه مؤلفات كبار فلاسفة التحرر ، وأخذ قناع التفوق البريطانى ينحسر تدريجيا حتى تبين له أن الانجليز مجرد شعب من شعوب اوروبا التى اصابت من الحضارة قدرا أكبر ، وأن الهندى ـ مسلما كان أم هندوسيا ـ يستطيع أن يرتفع الى المستوى الحضارى اللائق وأن يرفع الشعب اليه ، خاصة اذا امتلك الشعب زمام أموره وحرر نفسه من الاستعمار . فكان طبيعيا أن تنمو حركة تحررية تدعوا الى تخليص الهند من الاستعمار .

بل هناك كثرة من المفكرين يرون أن المشاعر الأيديولوجية الاسلامية كانت قد بدأت تتضح منذ اوائل القرن الثامن عشر، بل أن شاه ولى الله الدهلوى (١٧٠٢ ـ ١٧٦٣) هو الذى وضعها فى اطار محدد عندما دعا الى تأسيس كيان خاص بالمسلمين اما تحت لواء (الخلافة) أو (دولة اسلامية هندية) . وقاد ابنه شاه عبد العزيز الحركة حتى توفى فى ١٨٢٣ ، فتولاها من بعده (سيد احمد الشهيد) (١) الذى دعا الى تحرير عقول المسلمين من البدع والتقاليد غير الاسلامية ومن الخرافات ، وتحرير أرض الهند من غير المسلمين،

---

(١) استشهد فى ١٨٣٠ ٠

خاصة من الوثنيين ، وكان (السيخ) فى نظره من هؤلاء الوثنيين ، واعلان دولة (الخلافة) ، وليكن هو خليفة المسلمين اذا ما استطاع أن يقوم بهذه المسئولية العظمى .

دعا (سيد أحمد الشهيد) المسلمين الى الجهاد فى سبيل الله على مبادىء شبيهة الى حد كبير بالمبادىء التى دعا اليها محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية . ولكن المسلمين فى الهند كانوا موزعين على العديد من القيادات ، فلم يصغ الى ندائه سوى عدد محدود جدا ، بينما أشاح الآخرون بوجوههم عنه ، حقيقة أيده (الباتان) الا أنهم لم يلبثوا أن انفضوا عنه ، ولذلك فانه رغم الانتصارات التى أحرزها على خصومه الألداء (السيخ) الا أنهم وجهوا اليه ضربة أجهزت عليه فى مايو ١٨٣١ .

لقد كانت حركة المجاهدين بقيادة (سيد أحمد الشهيد) تستلهم الماضى أكثر من تقييمها للعصر ولأدواته الحاضرة ·

رفض المسلمون الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة على اعتقادهم أن الأخذ بأدوات الحضارة الحديثة يؤدى الى تشويه الهوية الاسلامية .

أما الهندوس فقد نهلوا من الحضارة الغربية ، وشجعهم الانجليز ، فكان أن ظهرت فيهم كفاءات على مستوى العصر أفادت من الانجليز وافادوا هم منهم . الأمر الذى جعل كفة الأمور تميل لصالح الهندوس · خاصة وأن الانجليز كانوا يضمرون كراهية تقليدية للمسلمين الأمر الذى جعل مصالحهم لدى الانجليز تالية لمصالح الهندوس .

ان ذلك الوضع يذكرنا بما حدث فى فلسطين . فقد أخذ اليهود بأدوات الحضارة الحديثة ، وكانوا أقدر على التعامل مع الدول الغربية التى كانت تتحكم — الى حد كبير — فى مقدرات الشعوب . بينما رفض المسلمون الفلسطينيون — الى حد كبير — الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة ، وكانوا متخلفين حضاريا عن اليهود ، فكان أن تعاون الانجليز والصهيونية على تطبيق تصريح بلفور لسنة ١٩١٧ بشأن تحويل فلسطين الى وطن قومى لليهود لا مكان فيه لمسلم أو عربى فلسطينى .

ونلاحظ أن الدولة السعودية الأولى والثانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانتا ترفضان الأخذ بأسباب وأدوات الحضارة الحديثة ، حتى تولى الامامة

عبد العزيز بن سعود ، وعرف كيف يفيد من أدوات الحضارة الحديثة دون مساس بالهوية الاسلامية ، وعلى نهج سار من بعده الحكام من آل سعود حتى الآن .

ووجد المسلمون انفسهم بعد ثورة ١٨٥٧ — ١٨٥٨ مسئولين عن تلك الثورة وأصبحوا بمرور العقود فى مستوى اضعف بكثير من المستوى الذى كان عليه الهندوس . فالمناصب الادارية والأعمال الاقتصادية أصبحت من نصيب الهندوس ، بينما ظل المسلمون على حالهم رافضين الحضارة الغربية واصحابها .

وما حدث لمسلمى الهند فى هذا الصدد حدث لمسلمى لبنان . فقد كان (شيعة) لبنان هم اصحاب الكلمة العليا فى المنطقة المارونية شمال لبنان حتى ازاحهم الموارنة . وكان (للدروز) الكلمة العليا فى حكم لبنان حتى أزاحهم الموارنة ، وعندما حاول الدروز إستعادة سيطرتهم على الموارنة وعندما حاولوا الحفاظ على تفوقهم انهالت عليهم الضربات من جانب الدولة العثمانية والدولة الفرنسية حتى اصبحت الكلمة العليا للموارنة ، وانزوى الدروز ولكن الى حين .

والحق ، أن الدروز والسنة والشيعة لم يفقدوا مكانتهم العليا لصالح الموارنة الا لأنهم لم يأخذوا بأدوات الحضارة الحديثة ، بينما نهل منها الموارنة وارتفع مستواهم الحضارى فعرفوا كيف يفرضون أنفسهم على غيرهم وعرفوا كيف يحصلون على دعم القوى الكبرى . وعندما ارتفع المستوى الحضارى للدروز وللسنة وللشيعة خلال النصف الثانى من القرن العشرين عملوا على سحب الكلمة العليا من الموارنة ووضعهم فى موضع مواز لهم . وهذه هى سنة الحياة ، ونتاج الصراعات الحضارية .

ولقد كان الموارنة ، وحتى الآن ، يتهمون المسلمين بأنهم خانوا لبنان وارضه المقدسة خاصة عندما تطلع كثرة من المسلمين الى الارتباط بقوة بالتيار العربى . وقال الموارنة انهم هم اللبنانيون الحقيقيون ، لأنهم يسعون الى أن يكون الجميع لبنانيين يتمتعون بالديمقراطية ، والانتخابات الحرة ، وذلك لأن الأوضاع العامة والخاصة كانت تعطى للموارنة تفوقا عدديا ، سواء فى عدد الناخبين او فى عدد الدوائر الانتخابية او فى عدد مقاعد البرلمان ، أما المسلمون فكانوا أغلبية عددية فى الواقع ولكن محرومة من التمتع بحقوق الاغلبية ، حتى فرضت الاغلبية الاسلامية (الشيعية والسنية وغيرها) نفسها على الموارنة فى ثمانينيات القرن العشرين .

ولقد كانت الثورة الهندية ١٧٥٧ — ١٨٥٨ سابقة على الثورة العرابيـة فى مصر ١٨٨١ — ١٨٨٢ . وكل منهما قامت ضد الاستعمار الانجليزى ، وكل منهما فشلت فى تخليص البلاد من الاستعمار ، وكل منهما أصيب بضربة اذهلت القيادات والشعب ، حتى لقد انكفأ الناس من بعد الهزيمة على اعمالهم الروتينية اليوميـة ينتظرون أن يزيل الله عنهم هذه (الغمة) ، وما كانت لتزول الا بنعمة الكفاح من أجل الحرية .

كانت الثورة الهندية وأعقابها محنة جد قاسية على زعامات وطنية كانت قد رفعت سيف الجهاد فتكسر على نصال خصوم الاسلام والمسلمين .

لقد عاين المسلمون من قبل الثورة ما كان عليه الانجليز من قوة ، ولكنهم أدركوا كنه هذه القوة ، وشتان بين أن تعاين وان تدرك . حقيقة وقعت هزة شديدة فى نفس مسلمى الهند ، ولكنها كانت صدمة عن قليل من بعدها يفيـق البعض ، ويعيدوا تقييم المواقف والقوى والأهداف والأساليب والاستراتيجية والتكتيك . فاذا كانوا قد خسروا معركة ، فانهم لم يخسروا أنفسهم أو أرضهم . وان كان العدو فى زمانهم لا يقهر ، فالزمن دوار ، وعوامل القوة غير أبدية . كذلك عوامل الضعف ، ليست أبدية ، وما أن تحددت عناصر القوة والضعف لدى شعب من الشعوب وجد طريقه نحو التحرر والحـريـة والتقدم . وما أشقه من طريق ، ولكن حلاوة الوصول الى الحق والاستمتاع به لا تفوقها حلاوة أو لذة ، حتى ولو كانت مفروشة بجثث الشهداء والأرض المقدسة تسقيها الدماء .

فلا غرو ان خرج من أبناء عهد النكبة من قاد الحركة التحررية الجديدة أو أعـد الناس لها ، فكان لهم شرف اجتياز الصدمة وعلاج الاكتئاب العام الذى أصاب الشعب واخرجوه منه ، وطرحوا أمام الملأ هدفا أسمى لا يمكن التخلى عنه ، فهو استراتيجية ثابتة لا محيص عنها ولا بديل ، فالغالبية العظمى من مسلمى الهند كانت بعد النكبـة تؤمن بأن الأزمة مؤقتة وانها عن قريب أو عن بعيد ستنفرج فآمنوا بالهدف : حـرية المسلم على أرضه واختلفوا فى التكتيك ، وفى الأساليب ، وما أعـرف شعب يتفق على الاستراتيجية ويختلف فى الأساليب سعيا الى تحقيق الهدف الأسمى .

لقد كانت الثورة الهندية ١٨٥٧ — ١٨٥٨ نقطة انطلاق للامبريالية البريطانية ، وكانت فى نفس الوقت نقطة تحول فى الدعوة الاسلامية الى وطن اسلامى فى الهنـد (باكستان) . أو بمعنى آخر تبلورت المشاعر فى أيديولوجية وطنية .

وانه لمن المتشابهات أن مصر فى أعقاب محنتها الكبرى فى ١٨٨٢ انطلقت فيها صيحة (مصر للمصريين) ، وان لم تستبعد النظرية الاسلامية السياسية العامة القائلة بضرورة وجود دولة اسلامية عامة هى دولة الخلافة ، وأن مسلمى الهند سـعوا الى دولة لهم اسلامية هندية معلقين الآمال فى نفس الوقت على قيام دولة الخلافة الاسلامية . ولكن هذه البلورة وهذه الأيديولوجية استغرقت عدة عقود من الزمن حتى أصبحت جليـة واضحة أمام الداخل والخارج ، وقادت الشعب المسلم فى الهند الى تأسيس باكستان بعد الحرب العالمية الثانية .

كان حزب المؤتمر الوطنى قد تأسس فى ١٨٨٥ وكان يسعى الى تحـرير الهند من الحكم الاستعمارى الانجليزى ، وان يحكم الهنود — دون تفرقة بين هندوسى ومسلم وسيخ — بلادهم بأنفسهم بتبنى النظرية الديمقراطية الانجليزية القائمة على أسـاس الدستور والانتخابات الحرة والمجالس البرلمانية . ولكن كانت هذه الديمقراطية النبيلة من وجهة نظر الزعامات المسلمة الهندية نكبة على المسلمين ، وفى ذلك يقول سيد أحمد خان (١٨١٧ — ١٨٩٨) :

« ... لعل مبدأ الحكم الذاتى بواسطة هيئات الممثلين المحليين هو أكبر وأعظم وأنبل درس تتعلمه الهند من كرم انجلترا ، ولكننا عندما نقلد انجلترا فى نظـام هيئات الممثلين ، فانه من الأهمية القصوى بمكان أن نتذكر تلك الأوضـاع الاجتماعية والسياسية التى تتميز بها الهند عن انجلترا .

ان الأوضاع السياسية والاجتماعية الراهنة فى الهند ما هى الا نتاج لتاريخ يمتد قرونا من الطغيان ومن فساد الحكم ، وسيطرة جنس على جنس آخر ، ودين على دين آخـر .

ان الآثار الانسانية التى جاء بها الحكم البريطانى لم تقض بعد على ذكريات أيام النزاع والشقاق والخصام التى سبقت فترة السلم التى جاءت بها السـيادة البريطانية على الهند » .

« ان الهند تعتبر قارة وحدها . اذ تقطنها اعداد زاخرة وهائلة من الناس تنحدر من أجناس مختلفة ، وتؤمن بمذاهب متباينة . ولقد كانت التعاليم الدينية

الصارمة فاصلا يفصل حتى بين الجيران ، وان نظام الطبقات ما يزال الى اليوم سائدا وقويا . وأن المواطنين فى منطقة واحدة قد يدينـــون بمعتقدات ومذاهب مختلفة ، وقد ينتمون الى قوميات متعددة ، بينمـا يكون قطـــاع من المواطنين يتحكم فى الثروة والتجارة وقد يكون قطاع آخر حائزا للعلم وفارضـــا للنفـوذ ، وقد يكون قطاع من أهل البلاد أكبر عددا من قطاع آخر ، وقد يكون مســـتوى المعرفة الذى بلغه قطاع ما من المواطنين أعلى بكثير من المستوى الذى بلغته بقية القطاعات . وقد تكون فئة من المواطنين مدركة تماما لأهمية ضـــمان تمثيلها فى المجالس المحلية ومجالس المناطق ، بينما تكون فئة أخرى غير ملقية بالا لمثل هذه الأمـــــــــور ... » [١] .

« اننى بت قانعا أن هاتين الأمتين (الهندوس والمسلمون) لا يمكن أن تتفقا اتفاقا قلبيا كاملا فى أى شىء من الأشياء ، انه ليس ثمة عداء ســـافر الآن بين الفئتين ، ولكنه سيزداد مباشرة فى المستقبل بفعل من يســـمون بالمثقفين . ومن يعيش يرى » .

« انهم يريدون تقليد مجلسى اللوردات والعموم البريطانيين فلنتصور الآن أن مجلس نائب الملك يتم تكوينه بهذه الطريقة ، ولنفـــرض أن جميع الناخبين المسلمين يصوتون لعضو مسلم وأن جميع الناخبين الهندوس يصوتون لعضـــو هندوسى . ولنعد الآن عدد الأصوات التى يحصل عليها الأعضاء المسلمون ، وعدد الأصوات التى ستكون للهندوس . ان من المقطوع به أن الأعضـــــاء الهندوس سيحصلون على **أربعة أضعاف** ما يحصل عليه المسلمون ، نظرا لأن عدد السكان الهندوس أكبر أربع مرات من عدد المسلمين .. فكيف يمكن للمسلم عندئذ أن يحمى مصالحه ؟ » [٢] .

---

(١) Choudhry Khaliquzzaman, Path to Pakistan, pp. 249-270.
نقلا عن بيرزادة : نشأة باكستان ، ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) اقتطف هذا الاقتباس من مقال لجمال الدين أحمد نشر فى (أخبـــار الصباح) — ملحق عيد باكستان ١٩٦٠/٣/٢٣ نقلا عن بيرزادة ، نشأة باكستان ، ص ٧٢ — ٧٣ .

« والآن لنفرض أن كل الانجليز قد غادروا الهند . . فمن ترى سيكون حكام الهند ؟ هل من الممكن فى هذه الظروف أن كلتا الأمتين — المسلمين والهندوس — ستجلسان على العرش نفسه ، ويكون لهما سلطة متساوية مستمرة ؟ قطعا لا . فلا بد لاحداهما من أن تخضع الأخرى وتقهرها . ولأن يأمل المرء أن تظل الأمتان متساويتان فهو انما يرغب فى المستحيل » (١) .

لقد كان سيد أحمد خان بعيد النظر حين أبدى تعاونا كبيرا للغاية مع السلطات الاستعمارية البريطانية فى الهند على اعتبار أنها السلطات التى يمكن أن تهيىء له الفرص لتحقيق هدفه الأسمى وهو قيام دولة اسلامية وبدلا من أن يتأثر بالدعوات الى قتال ومعارضة الانجليز لما أقدموا عليه من آثام بالنسبة للمسلمين بصفة خاصة وللهند بصفة عامة ، اعترف باليد العليا للانجليز فى البلاد وفتح قنوات تعاون معهم اكتسب بها ثقتهم وكسبوا هم ثقته ، وسار كل فى طريق تحقيق أهدافه الخاصة واضعا هدفا أسمى أمامه باستمرار .

وانها لصعوبة بالغة ومجازفة محفوفة بالمخاطر أن يتبنى مفكر مثل هذه السياسة التى يمكن أن تضع صاحبها أمام الاتهام بالعمالة والخيانة والطائفية البغيضة ، وهذا ما حدث فعلا لسيد أحمد خان ، ولكنه نظرا لايمانه بالهدف الأسمى شق طريقه وسط مثل تلك الأخطار ساعيا الى تحرير المسلمين من سيطرة الهندوس على المسلمين ومن السياسة الاستعمارية البريطانية .

أليس من العسير جدا أن يتصدى سيد أحمد خان بالطائفية الاسلامية النظرية القومية الهندية الديمقراطية ؟

بل انها حقا لصعوبة بالغة أيضا أن يتصدى لمبدأ الديمقراطية الذى كان ينادى به الهندوس . فالديمقراطية مبدأ انسانى عظيم من العسير جدا أن يتصدى له مفكر بنجاح . ولكن (سيد أحمد) لم ينكر على الديمقراطية سموها وانما أنكر على الهندوس استخدام الديمقراطية للسيطرة والتحكم فى المسلمين ، وان الديمقراطية على الطريقة الهندوسية كفيلة بأن تمحو الهوية الاسلامية لمسلمى الهند .

---

(١) بيرزادة ، نشأة باكستان ، ص ٧٠ .

وحيث أن اللغة واحدة من اهم مظاهر التعبير عن الهوية الخاصة ، فقد أصبحت اللغة اللاوردية ، عنصرا رئيسيا فى الحفاظ على الهوية الاسلامية لمسلمى الهند . وكانت اللغة الاوردية هى لغتهم ، بل كانت هى اللغة السائدة خاصة فى المستويات الحكومية قبل رسوخ أقدام الاستعمار البريطانى. واتجه الهندوس الى ضرب اللغة الأوردية والى الأخذ باللغة الانجليزية وبلغاتهم العديدة القديمة ، وحتى لا يعطى (سيد أحمد خان) الفرصة لضرب اللغة الأوردية ، طالب بأن تكون هى اللغة الرسـمية ، فعارض الهندوس ذلك بشدة ، وازداد تمسكهم بالانجليزية وبلغاتهم ، فكان أن انقسمت الهند ثقافيـا الى شطرين رئيسيين أحدهما اسلامى يتكلم الأوردية ، وآخر هندوسى يتكلم لغته الى جانب اللغات الأخرى الهندية المحلية .

وادراكا منه بالتخلف الحضارى الذى كان عليه المسلمون عمل على احداث نقلة حضارية ، ولا يمكن احداث نقلة حضارية الا اذا ما نهل المسلم من الحضارة الغربية ، ولكن دون أى تشويه لهويته الاسلامية ، وتلك كانت فلسفة التعليم لدى (سيد أحمد خان) تلك الفلسفة التى تبلورت فى كلية عليكرة الاسلامية .

ونتيجة لتلك التطورات بدأ المفكرون الانجليز يتصورون امكانية قيام كيان اسلامى وهو أمر كان محض خيال من قبل . ومن هؤلاء الدبلوماسى السـياسى ولفرد سكاون بلنت (١) ، وهو المعروف فى مصر بمؤازرة الحركة الوطنية الدستورية قبيل الثـورة العرابية والمعروف بعلاقاته الوثيقة بالمصلح الدينى الكبير الشيخ محمد عبده .

فى ١٨٨٣ اقترح ولفرد بلنت اقامة (حكومة اسلامية) وأخرى (هندوسية) فى الهند وذلك على شكل أقاليم ذات حكم ذاتى يقوم على أساس الأغلبية المذهبيـة فى الأقاليـم .

انطلقت حركة التنوير بين المسلمين . وكان بعض قادتها قد شرعوا فى ابراز مظاهر التخلف وطرحها كقضية عامة ، حيث أن الاصلاح لا يمـكن أن ينطلق الا اذا ما أدرك الجميع حقيقة الوضع المتدنى الذى يعيشونه وحاجتهم الضرورية الى احـداث تغيير حضارى ومن الملاحم الأدبية التى تناولت هذه القضية (ملحمة مسدس) التى كتبهـا

---

(١) W. S. Blunt

حالى) (١) وعبر فيها عن روعة الحضارة الاسلامية عندما كانت فى ذروتها،وعن التدهور المشين الذى حاق بجمهرة المسلمين ، تناول ذلك بشكل يهز العواطف والمشاعر ويحرك الأحاسيس واعطى قوة الى المدرسة الاسلامية الحديثة فى الهند ، وحذر فى نفس الوقت من استغلال الديمقراطية الغربية لازالة الهوية الاسلامية لصالح الهندوسية .

ولقد ذهب سيد امير على (١٨٤٨ ـ ١٩٢٨) (٢) الى القول بأن الهندوسية نظام اجتماعى لا مكانة للديمقراطية فيه ، بينما الاسلام ديمقراطى أبوابه مفتوحة لمن يريد الدخول فيه ولذلك دعا سيد أمير على الى انسحاب كل مسلم من حزب المؤتمر على اعتبار أن ذلك الخروج عليه هو واجب على كل مسلم .

ونظرا لأن المسلمين كانت تعوزهم حينذاك منظمة يعملون تحت مظلتها تكون قادرة على التعبير عن آمال المسلمين فقد أعلن عن قيام حزب (الرابطة الاسلامية) (١) فى ديسمبر ١٩٠٦ .

حقيقة كانت هناك عناصر قوية اسلامية مؤمنة بحزب المؤتمر الهندى الا أن الغالبية العظمى من القيادات والشعب الاسلامى هناك انضوى تحت مظلة الرابطة الاسلامية . وتبنت هذه الرابطة النظرية السياسية التى اتبعها سيد أحمد خان ، وهى حماية حقوق مسلمى الهند مع الاعتراف باليد العليا للانجليز فى توجيه أمور البلاد حتى يحين وقت خروجهم من البلاد ، وخلال ذلك يعمل المسلمون على الحفاظ على حيوية حركتهم .

وحينذاك كانت الدعوة الى الجامعة الاسلامية والى استعادة الخلافة الاسلامية مكانتها العالية التى كانت عليها فى العصور الوسطى الاسلامية قد تصاعدت، فكان كل هذا من الأدوات التى استخدمت لرفع شأن المسلمين فى الهند . وكان أنصار الخلافة فى الهند من أقوى

---

(١) ولد فى ١٨٣٧ .

(٢) رجل قانون اشتهر بكتابه (روح الاسلام) وكان على علاقة وثيقة بجمال الدين الأفغانى ومع سيد أحمد خان وأسس سيد امير على (الجمعية الوطنية المحمدية) ، وكان من بين ما دعا اليه القول باشتراكية الاسلام ولكن هذه الفكرة لم تلبث أن تلاشت نظرا لعدم واقعيتها فى العالم الاسلامى .

الجبهات دفاعا عن الدولة العثمانية على اعتبار أن سلطانها هو خليفة المسلمين . على أن اندحار الدولة العثمانية فى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨، والغاء مصطفى كمال أتاتورك الخلافة فى ١٩٢٤ أدى الى نوع من الضيق لدى أنصار الخلافة فى الهند ، ولكن ذلك لم يثبط هممهم فى السعى نحو أهدافهم الموضوعة (اقامة دولة اسلامية) . وفى اعتقادنا أن الغاء الخلافة كان من العوامل الهامة فى أن تصبح الحركة التحررية الاسلامية فى الهند ذات طابع (قومى اسلامى هندى) .

على أن الدور الذى قام به (محمد اقبال) (١٨٧٥ — ١٩٣٨) فى حصول المسلمين على حقهم فى اقامة دولة اسلامية هو دور من اروع ما عرفه تاريخ المسلمين . كان اقبال يمتلك ناصية الفكر الشرقى والفكر الغربى . كان يميل فى أول الأمر — الى (الحدة الهندية) ثم تحمس للخلافة الاسلامية معارضا الاستعمار البريطانى . وتحمس كذلك لحقوق المسلمين الهنود فى (التطور الحر) على اساس (ثقافى) ، على اعتبار أن الطائفية فى حالتها السامية هى [1] ثقافة) ، والهند — كما هو معروف — متعددة (الثقافات) و (الأجناس) و (اللغات) ، ومن ثم فلا مجال (للديمقراطية) على الطريقة (الغربية) ، ولا مجال (للشيوعية) وانما الفكر والمبادىء الاسلامية تبنى (دولة) على اساس (ثقافى) . وهذه الدولة يجب أن تقوم فى الهند ولا ضير عليها أن قامت فى اطار الامبراطورية البريطانية أو خارج هذا الاطار .

ان تاريخ الحركة التحررية فى الهند لهو من أعقد فصول التاريخ بصفة عامة ، فقد اختلطت فى هذه الحركة صراعات الأديان : مسلمون ضد هندوس ، علماء من المذهب السنى أو المذهب الشيعى ضد علماء من العقيدة البراهمية ومن العقيدة البوذية . والى جانب ذلك كان هناك مسلمون يدعمون القيادات الهندوسية ويلعبون دورا هاما للغاية فى حزب المؤتمر الهندى . وكان هناك هندوس مع المسلمين ضد الانجليز ، وشعوب أخرى وطوائف حائرة بين هذا وذاك . بل كانت مفاهيم التحرر غير واضحة ، فمن المسلمين من كان متعلقا بالوجود الاستعمارى البريطانى ومن الهندوس من كان يرى أن الارتباط ببريطانيا لا يمكن فصمه حتى لو خرج الانجليز من الهند بل لقد كان هناك من يستبعد خروج الانجليز من البلاد .

---

(١) بيرزادة ، ص ١٥٢ — ١٦٢ .

وهناك من المفكرين الهنود من كان يرى أن الوجود الاستعمارى الانجليزى فى الهند ما هو الا رحمة بها لأن غياب هذا الوجود الانجليزى يعنى وقوع مذابح لا يمكن معرفة متى تنتهى .

وكانت السلطات الانجليزية قد ادخلت فى الهند بعض اشكال المجالس التمثيلية التى يعبر فيها المواطنون عما يجيش فى صدره من آمال وما يعانيه من آلام ومتاعب ، على أن كافة ما تتوصل اليه تلك المجالس هو مجرد توصيات قد يأخذ بها نائب الملك — حاكم عام الهند — أو لا يأخذ بها . ومن هذه المؤسسات (المجلس التشريعى) .

ولا شك أن تأسيس (المؤتمر الهندى) فى ١٨٨٥ كان خطوة ذكية وجريئة انجليزية . حيث أن المؤتمر الهندى هو الذى افرز الزعامات الوطنية ، مثل المهاتما غاندى . الذى قاد حركة تحرر الهند من الاستعمار البريطانى .

كما أنه لا شك أن تأسيس (الرابطة الاسلامية) فى ١٩٠٦ هى التى قادت المسلمين هناك الى تأسيس (باكستان) .

واذا كان هناك زعيم رائع الدور فى الجانب الهندى مثل المهاتما غاندى : فهناك زعيم اسلامى على مستواه من حيث الارتقاء الى مصاف (بناة الدول) ألا وهو (محمد على جناح) .

واذا كان لدى الهنود اديب فذ يكاد يكون نسيج وحده مثل (رابندرانات طاغور). فلدى المسلمون قمة الفكر والأدب فريد عصره (محمد اقبال) .

رجال هم على سمو فى الزعامة نادر المثال ، أصحاب نظريات انسانية سامية ولكن فرقت بينهم رواسب الزمن والدهور واختلاف أدوات الحياة ومقومات المعيشة فى مكان ، وتطورات العلاقات البشرية وما يعتريها من نوازع النفس .

كانت الزعامات فوق التعصب ، وما كانت شعوبهما كذلك فلم تظهر بعد على وجه البسيطة تلك المدينة الفاضلة التى تخيلها الفلاسفة .

لقد رات الزعامات المثقفة ان الوقت قد حان لتخليص البلاد من الاستعمار البريطانى . ونمت حركات التحرر بين المسلمين والهندوس ، ولكنها لم تستطع أن تتحول الى حركات عامة الا ابتداء من العقد الأول من القرن العشرين .

كان (المؤتمر الهندى) يقود — منذ تأسيسه فى ١٨٨٥ — حركة تحرير الهند تدريجيا من الاستعمار . وكانت قيادات اسلامية من داخل المؤتمر نفسه تبذل جهدا رائعا لتحقيق هذا الهدف . وفى نفس الوقت بدأت الخلافات تظهر بين المسلمين والهندوس ، خاصة حول شكل الحكم فى البلاد بعد خروج الانجليز منها .

بدأت الانشقاقات الطائفية بين الطرفين تتضح أكثر عن ذى قبل فى أعقاب قيام اللورد كيرزون (١) — نائب الملك فى الهند — بتقسيم البنغال بين المسلمين والهندوس . فأعلن الهندوس — زعامة وشعبا — رفضهم لهذا الاجراء من منطلق أن الهند وحدة واحدة، وامة واحدة ، وجبهة واحدة ضد الاستعمار البريطانى وبعد خروج الاستعمار من البلاد. ورفض الهندوس رفضا باتا هذا التقسيم للبنغال لأنه قام على أساس (طائفى) ، ومعنى هذا — فى نظر الهندوس — انسحاب هذا المبدأ على بقية المناطق أى أنه لا توجد (قومية هندية) — وهى التى يؤمن بها الهندوس — وانما توجد طائفية : هندوسية واسلامية . وأن الطائفية تعنى تمزيق المجتمع الهندى .

كان الهندوس يرون فى تقسيم البنغال بمثابة اعطاء المسلمين حقوقا لا يجب أن تعطى لهم، فعلى المسلمين — من وجهة نظر الهندوس — أن يعيشوا تحت سيطرة الهندوس مثلما عاش الهندوس تحت سيطرة المغول المسلمين من قبل .

أدت تلك التطورات الى نمو وزيادة صلابة حركة التضامن الاسلامية ، وهى حركة كانت ترى فى (المؤتمر الهندى) أداة تسلط هندوسية على المسلمين . وعجل ذلك من تأسيس (الرابطة الاسلامية) فى ١٩٠٦ لتدافع عن مصالح المسلمين ازاء الاستعمار البريطانى وتطلعات (المؤتمر الهندى) . وزاد من تماسك المسلمين وتعلقهم (بالرابطة الاسلامية) انه عندما أقام المسلمون (جامعة اسلامية) فى « دكا » (٢) ثارت ثائرة الزعماء الهندوس بشكل جعل المسلمين يجدون فى (الرابطة الاسلامية) شخصيتهم ومستقبلهم . ولكن ظلت (الرابطة الاسلامية) هيئة سياسية محدودة النشاط عاجزة عن مواجهة تفوق (المؤتمر الهندى) حتى مال (محمد على جناح) — عضو المؤتمر الهندى — الى الرابطة الاسلامية ابتداء من ١٩١٣ .

---

(١) Lord Curzon

(٢) عاصمة بنجلادش حاليا .

وخلال الحرب العالمية الأولى قويت الدعوات الى استقلال الشعوب سواء قبل صدور مبادىء ولسون الأربعة عشرة أو بعدها .

وألهبت هذه المبادىء مشاعر الشعوب المهيضة الجناح . وفى الهند صعد غاندى من ضغوطة من أجل استقلال الهند ، كذلك كان يسعى المسلمون لنفس هذا الهدف ، وكانوا يعملون على انقاذ (الخلافة) العثمانية الاسلامية من براثن الانجليز (١) .

كانت حركة (الخلافة) قد نمت فى الهند وخشى أنصارها هناك عليها من التفوق العسكرى الانجليزى ، فمن المعروف أن الدولة العثمانية دخلت الحرب العالمية الأولى فى صف دولتى الوسط (ألمانيا وامبراطورية النمسا — والمجر) . وفعلا لم تصمد الدولة العثمانية أمام الضغط البريطانى على الدولة العثمانية من أكثر من جبهة : جبهة العراق وجبهة سينا — الشام وجبهة الحجاز وجبهة الدردنيل . وفى الحجاز توصل الانجليز مع الشريف حسين — أمير مكة — الى اعلان ثورة عربية شاملة ضد الأتراك ، وفعلا انطلقت الثورة فى ١٩١٦ ، وابتداء من ١٩١٧ توالت الهزائم على الدولة العثمانية حتى اضطرت الى قبول الهدنة فى ١٩١٨ ، وادت هذه الهزيمة الى ظهور حركة انقاذ وطنى من القيادات العسكرية التركية وعلى رأسها مصطفى كمال أتاتورك الذى ألغى السلطنة والخلافة . فكان الغاء الخلافة فى (١٩٢٤) بمثابة طعنة وجهت الى دعاتها فى الهند .

كان الزعيم محمد على جناح لا يرى فى الغاء (الخلافة) أية مساس بالحركة الاسلامية فى الهند ، اذ كان يرى أن (حركة الخلافة) تقوم على أساس (عاطفى) ، وأن عهد الخلافة قد مضى وانقضى وانه على مسلمى الهند أن يحددوا أهدافهم بشكل واقعى .

اتخذ محمد على جناح سبيله فى تكوين (كيان اسلامى) فى الهند على أساس معارضة الفلسفة السياسية والأساليب التى يتبعها غاندى من أجل تحرير الهند من الاستعمار واقامة دولة هندية كبرى ديمقراطية على اعتبار أن تلك الفلسفة والأساليب

---

(١) انظر مجلة معهد البحوث والدراسات العربية العدد   سنة ١٩٨٨ عن رؤية مفكر هندى مسلم لثورة العربية التى نشبت فى ١٩١٦ ضد الدولة العثمانية .

تخدم فقط تفوق الهندوس على المسلمين وتجعل اليد العليا فى البـــــلاد للهندوس أما المسلمون فدورهم — فى نظر غاندى — توابع لمحض كونهم يشكلون ربع تعداد الهندوس .

هاجم محمد على جناح بكل قواه وحشية الانجليز عندما انقضوا على الثوار الهنود فى ١٩١٩ لمجرد أنهم يتظاهرون مطالبين بحق بلادهم فى التحرر من ربقة الاستعمار . ولكن أن تكون (الساتيا جراها) أى (العصيان المدنى) والالتجاء الى (المغزل) لمقاطعة البضائع الانجليزية أدوات للتحرير فان ذلك كان فى نظر محمد على جناح يضر الشعب الهندى أكثر مما يفيد حركة التحرر الهندية . فيرى محمد على جناح أن المقاطعة تضر بالشعب الفقير أكثر مما تضر شعبا غنيا مثل الانجليز ، وأن العودة الى (المغزل) — وهى ركن أساسى فى سياسة غاندى التحررية — ليس سوى رجعة الى الماضى ، وخير منها — من وجهة نظـر محمد على جناح — انشاء المصانع التى تمكن الهند من الوقوف بقوة أمام المصنوعات البريطانية ، فاذا ما أصبح للهند قاعدة صناعية قوية تستطيع مقاطعة البضائع الانجليزية بنجاح دون اضرار بمصالح الشعب . فالساتيا جراها والمغزل ما هى الا أساليب عاطفية لا تؤدى الى نتيجة واقعيـــــة .

وانتقد محمد على جناح اضفاء لقب (المهاتما) على غاندى ، على أنه يكرس مسيرة غاندى فى خدمة الهندوس وليس فى خدمة المسلمين ، فهو يفتخر بالألقاب الهندوسية دون الاسلامية وفى ذلك ما فيه من دلالة سياسية يرفضها جمهرة المسلمين .

وانتقد محمد على جناح بشدة التعاون بين حزب المؤتمر الهندى والســـــــلطات الاستعمارية البريطانية فى اصدار دستور للبلاد يعطيها طابعا هندوسيا ، ومعنى هذا أنه من بين أهداف تأسيس الحياة الدستورية اذابة السكان المسلمين فى البوتقة الهندوسية ، ونظرا لفشل محمد على جناح فى اقناع غاندى والزعامات الهندية بوجهة نظرة تلك أصدر هو مبادئه الأربعة عشر التالية :

١ — سن دستور أساسى للهند يخول لكل مقاطعة (ولاية) الصلاحية التامة فى الحكم المبـــــــــــاشر .

٢ — مساواة جميع المقاطعات فى الحقوق والامتيازات .

٣ — مراعاة حقوق الاقليات فى سائر المقاطعات وتخويلهم حق التمثيل النيابى فى سائر المجالس النيابية والتشريعية وحماية حقوقهم ضد ضغط الأكثرية .

٤ — أن يكون ربع المقاعد لممثلى المسلمين فى المجلس النيابى الذى سيؤسس بمقتضى الدستور .

٥ — أن ينتخب الأعضاء المثلون للفرق والطوائف انتخابا مستقلا مع تمتعهم بالصلاحية التى ينص عليها الدستور .

٦ — أن لا يكون فى تغيير النظم التى ستجرى فى سائر المقاطعات ما يمس الحقوق والمزايا التى تتمتع بها الأكثرية المسلمة الموجودة فى مقاطعات البنجاب والبنغال والحدود الشمالية .

٧ — أن يضمن الدستور الهندى الجديد الحرية التامة المطلقة لجميع الملل والمذاهب من اقامة الشعائر والتعليم وغير ذلك .

٨ — أن لا ينفذ أى قانون أو أى لائحة فى مجلس من المجالس التشريعية أو النيابية فى أية مقاطعة من المقاطعات ويكون ذلك القانون أو تلك اللائحة تمس قوما من الأقوام أو طائفة من الطوائف ما لم يوافق على ذلك ثلاثة أرباع الأعضاء من ممثلى تلك الطائفة .

٩ — فصل مقاطعة السند عن بمباى فصلا تاما بغير قيد أو شرط .

١٠ — أن تنظم مقاطعتا الحدود وبلوخستان تنظيما يتفق والحالة التى عليها سائر المقاطعات .

١١ — مراعاة حقوق المسلمين فى سائر الامارات المستقلة بما يتفق والحرية الدينية التامة والعدالة الكاملة فى سائر الحقوق والوظائف .

١٢ — أن يضمن الدستور الهندى الجديد الحرية التامة للمسلمين فى اقامة شعائرهم الدينية وصيانة حقوقهم ومقدساتهم وأماكن معتقداتهم والمحافظة على ثقافتهم الدينية فى التعليم واللغة فى سائر المقاطعات والولايات المستقلة ، وان تخصص كل ولاية منحة مالية تصرف سنويا على الشئون الاسلامية .

١٣ — أن لا تؤلف وزارة من الوزارات أو حكومة من الحكومات فى المقاطعات الهندية ما لم يمثل فيها المسلمون بنسبة (الثلث) ٠

١٤ — أن لا يقبل أى تعديل او تغيير فى الدستور الهندى الأساسى بعد تشريعه الا بعد أخذ رأى وموافقة سائر المقاطعات .

ولكن أصر زعماء حزب المؤتمر على أن يسيروا فى الحركة التحررية الوطنية بدون محمد على جناح وبدون (الرابطة الاسلامية) . وشجعهم على ذلك أن عددا ليس بالقليل من الزعماء المسلمين كان متعاونا الى أقصى الحدود مع (المؤتمر الهندى) ، وكان هـذا التعاون ليس من منطلق خيانة القضية الاسلامية ولكن اقتناعا بقيمة الهنـد المستقلة (الموحدة) ولكن ثبت أن كل حركة تحررية لا تحظى بموافقة (الرابطة الاسلامية) تصبح حركة (هندوسية) فلا تحرز نجاحا فى اتجاه الهند المستقلة الموحدة .

وعلى أى حال أدت المواجهات المتتالية بين غاندى وحزب المؤتمر من جهة السلطات الحاكمة الاستعمارية من جهة أخرى الى أن يفتح الانجليز باب الاتصـال المباشر مع (الرابطة الاسلامية) فى ١٩٣١ . ولا شك أن الانجليز ربحوا كثيرا من وراء ذلك . ولكن كافة أوجه النشاط التى كان يقوم بها حزب المؤتمر أو الرابطة الاسلامية كانت تهدف الى اخراج الانجليز من البلاد ٠ فكان أن أصبحت تكاليف الوجود الانجليزى فى الهنـد باهظة مما دفع الانجليز الى تعديل سياستهم بتلبية بعض المطالب الوطنية فصدر الدستور فى ١٩٣٥ ٠ وبرزت من وراء ذلك مشكلة خطيرة وهى : هل ستكون الانتخابات النيابية المقبلة (عامة) أم تكون على اسس (طائفية) . وكان الهندوس والمؤتمر الهندى يصرون على أن تكون الانتخابات المقبلة انتخابات (حرة) عامة . ومعنى هذا ان المجلس المقبل سيكون مجلسا هندوسيا يكون فيه المسلمون باستمرار أقلية مهيضة الجناح .

وأعلن غاندى رأيه بكل وضوح ، وهو أنه لا توجد فى الهند طوائف أو شعوب ، وانما يوجد شعب واحد له أديان مختلفة . ومن بين ما قيل دفاعا عن وجهة نظر غاندى هذه أن انفصال المسلمين عن الهند يعنى اضعافها اضعافا شديدا خاصة ان التيار العالمى هو اقامة (وحدت سياسية كبيرة) ، بمعنى أن التقسيم نظرية عفى عليها الزمن وأن الوحدوية هى تيار العصر . وهناك من يرى أن سبب معارضة الهندوس لقيام دولة اسـلامية فى

شمال الهند سيعطى دفعة قوية للشعوب الاسلامية نحو التعاون فيما بينها ، فتظهر وحدة اسلامية تضم افغانستان والبلاد العربية وهذا وضع يهدد كيان الهند .

وفى عبارة موجزة صور (محمد على جناح) اسس الخلاف بين المسلمين والهندوس :

« نحن من الجنس الآرى وهم درافيد ...... ونحن من أهل الكتاب وهم وثنيون يعبدون البقرة ، ويقدسون الحيوانات ، وسنظل الى آخر الدهر نذبح هذا المعبود ونأكله . وسيظلون هم الى آخر الدهر يقدسونه ويعبدونه ، هم يتكلمون الهندوستانية ولا يريدون عنها بديلا . أبطال تاريخنا اعداؤهم لأنهم دحروهم وهزموهم ، وأبطال تاريخهم أعداؤنا لأنهم دحرونا وهزمونا ، ويوم يحتفل أحد الفريقين بذكرى ابطاله يبكى آخر حزنا وحسرة ، ولا يمكن أن تزول الخلافات بيننا وبينهم ، ولم نثق فى وعودهم فقد حاولنا دائما ومنينا أكثر من مرة بالخيبة ، وحكومة حزب المؤتمر دليل على صدق قولى ، وفظائعها معنا شهيد على ذلك ، فلن نقبل بعد الآن أن يحكمنا الهندوس وهم كثرة ونحن قلة . فبمثل ذلك فناؤنا النهائى ، وفرصتنا الوحيدة : باكستان . وسنريق دماءنا الى آخر نقطة فى سبيل تحقيقها . فالمناطق الاسلامية يجب أن يحكمها مسلمون . والمناطق الهندوسية يحكمها هندوس . وستبقى أقلياتهم عندنا فيحفظ التوازن ويطمئن الطرفان الى العدالة والمساواة » .

وفى ١٩٤٠ تحقق أمل الفيلسوف اقبال فى اعلان المسلمين بتمسكهم بدولة خاصة بهم أطلقوا عليها (باكستان) وكانت فترة الحرب العالمية الثانية وأعقابها أحرج فترات الصراع بين الفكرتين التاليتين :

١ — الهند الموحدة .

٢ — الهند المقسمة التى تحصل فيه الولايات ذات الأغلبية الحاسمة من المسلمين على حقها فى أن تكون ضمن دولة اسلامية .

وقد استخدم خصوم محمد على جناح كافة الوسائل من ارهاب دموى الى دبلوماسية المفاوضات معه ومع الانجليز ، وعملوا على اضعاف قوته عن طريق تحريض بعض الطوائف (الشيعية) و (الاسماعيلية) ضده . ورغم ذلك استطاع محمد على جناح أن يكسب الغالبية العظمى من مسلمى الهند الى جانب فكرة تأسيس دولة (باكستان) .

وفى ١٩٤٦ بذلت آخر محاولة لفرض كلمة المؤتمر الهندى على الرابطة الاسلامية ٠ وحاولت الجموع الهندوسية أن تفرض بالقوة وبالمذابح (الوحدة) على المسلمين ، وكانت المذابح مروعة ، فكانت واحدة من الأسباب الرئيسية التى قطعت الطريق على دعاة قيام نظام فيدرالى يعيش تحت مظلته المسلمين والهندوس ٠

وأصبح (التقسيم) هو الهدف الوحيد الذى يسعى اليه المسلمون . وأخيرا اضطر زعماء حزب المؤتمر الى أن يوافقوا على انفصال المسلمين وظهرت دولة باكستان (الاسلامية) فى منتصف اغسطس ١٩٤٧ .

وهكذا ظهر نتيجة لسياسة التقسيم فى اعقاب الحرب العالمية الثانية دولتان احداهما اسلامية والثانية صهيونية يهودية . ولكن شتان بين النظرية التى قامت على أساسها دولة باكستان وتلك النظرية التى قامت على أساسها دولة اسرائيل .

لقد أثير جدل حول التشابه بين النظرية القومية الاسلامية التى دعا اليها (محمد اقبال) والدعوة التى أطلقها هرتزل : الصهيونية (القومية اليهودية) . ولقد نجحت كل من الدعوتين فى اقامة باكستان الاسلامية واسرائيل اليهودية ٠

وبادىء ذى بدء ، لقد أدرك زعماء المسلمين فى الهند ، وزعماء الصهيونية أن العصر عصر القوميات ، ومن يتبنى الفكر القومى هو الذى يعيش على مستوى العصر ، ويستطيع أن يحقق أهدافه ، خاصة اذا ما أخذ بأدوات الحضارة الحديثة ٠ واتخذت الصهيونية من قيام باكستان على أساس دينى حجة تبرر بها قيام دولة اسرائيل فى فلسطين حتى ولو كان ذلك على حساب الفلسطينيين وطردهم من ديارهم .

فالحقيقة هى أن الدولة الاسلامية (باكستان) قامت على أرض اسلامية يعيش عليها مسلمون فعلا ، بينما الدولة الاسرائيلية قامت ولا تزال تقوم على أساس تهجير اليهود من مختلف أجزاء العالم الى فلسطين لاسرائيل ، وكان العرب قبل ١٩٤٨ يشكلون الأغلبية الساحقة لشعب فلسطين ، فطردوا منها لتقوم اسرائيل . انه قياس مع الفارق الشاسع جدا . وما أكثر الأحيان التى رددت فيه أجهزة الاعلام الاسرائيلية أن قيام

باكستان على أساس دينى يدعم النظرية الصهيونية فى اقامة دولة يهودية (اسرائيل) ؟ وانه ـ كما بينا ـ لقياس مع الفارق الشاسع بين قيام تلك وفرض قيام اسرائيل وتهجير اليهود من بلاد نائية ليقيموا على جثث العرب وما خلفه الفارون العــرب من وجــه الاستعمار الصهيونى .. دولة .

الملاحـــــق

أ ـ الملاحـــق العربيــــة

ب ـ الملاحق الانجليزية

اولا — الملاحـــق العربية :

١ — سلاطين الدولة العثمانية ٠

٢ — شـــــاهات فارس ٠

٣ — أباطرة مغول الهند العظـــام ٠

٤ — مرسوم السلطان سليم بهزيمة اسماعيل الصفوى ٠

٥ — مرسوم السلطان سليم الأول العثمانى بفتح الشام ومصر أوائل محرم ٩٢٣ هـ — ١٥١٧ م ٠

٦ — معاهدة ارضروم المؤرخة فى ٣١ مارس — أيار سنة ١٨٤٧ ٠

٧ — مذكرة ايضاحية حول بعض الشروط الواردة فى معاهدة ارضروم المقترحة قدمها السفيران البريطانى والروسى فى الاستانة الى الحـــكومة العثمانية فى السادس والعشرين من شهر نيسان سنة ١٨٤٧ ٠

٨ — بروتوكول طهران المؤرخ ٢١ كانون الأول سنة ١٩١١ ٠

٩ — البروتوكول الموقع عليه فى الاستانة فى الرابع (السابع عشر) من شـــهر تشرين الثانى ســـــنة ١٩١٣ ٠

ـ ١ ـ

سلاطين الدولة العثمانية

التـــــاريخ	اسم الســـــلطان
١٥١٢	ســـــــليم الأول
١٥٢٠	ســـــــليمان الأول
١٥٦٦	ســـــــليم الثـــــانى
١٥٧٤	مـــــــراد الثـــــالث
١٥٩٥	محمـــــــود الثالث
١٦٠٣	أحمـــــــد الأول
١٦١٧	مصـــــــطفى الأول
١٦١٨	عثمـــــــان الثانى
١٦٢٢	مصطفى الأول (للمرة الثانية)
١٦٢٣	مـــــــراد الرابع
١٦٤٠	ابراهيـــــــم
١٦٤٨	محمـــــــد الرابع
١٦٨٧	ســـــــليمان الثـــــانى
١٦٩١	أحمـــــــد الثـــــانى
١٦٩٥	مصطفى الثـــــانى
١٧٠٣	أحمـــــــد الثالث
١٧٣٠	محمـــــــود الأول
١٧٥٤	عثمـــــــان الثالث
١٧٥٧	مصطفى الثـــــالث
١٧٧٣	عبد الحميـــــــد الأول
١٧٨٩	ســـــــليم الثالث

١٨٠٧	مصطفى الـــرابع
١٨٠٨	محمــــود الثانى
١٨٣٩	عبد المجيـــــد
١٨٦١	عبد العـــــزيز
١٨٧٦	مـــراد الخامس
١٨٧٦	عبد الحميـــد الثانى
١٩٠٩	محمــــد الخامس
١٩٢٢	عبد المجيـــد (خليفة فقط)

— ٢ —

شاهات فارس منذ ١٥٠٠ الى الآن

الأسرة الصفوية :

١ ـ الشاه اسماعيل الصفوى	١٥٠٠ ـ ١٥٢٤
٢ ـ طهمسب الصفوى	١٥٢٤ ـ ١٥٧٢
٣ ـ اسماعيل الثانى الصفوى	١٥٧٢ ـ ١٥٧٨
٤ ـ محمد خدا بنده الصفوى	١٥٧٨ ـ ١٥٨٧
٥ ـ عباس الكبير الصفوى	١٥٨٧ ـ ١٦٢٩
٦ ـ صفى الصفوى	١٦٢٩ ـ ١٦٤٢
٧ ـ عباس الثانى الصفوى	١٦٤٢ ـ ١٦٦٧
٨ ـ سليمان الصفوى	١٦٦٧ ـ ١٦٩٤
٩ ـ حسين الصفوى	١٦٩٤ ـ ١٧٢٢

فترة الغزو الأفغانى :

١٠ ـ محمود لأفغانى	١٧٢٢ ـ ١٧٢٣
١١ ـ اشرف الأفغانى	١٧٢٣ ـ ١٧٣٠
١٢ ـ طهمسب الصفوى	١٧٣٠ ـ ١٧٣٦

اسرة نادر شاه :

١٣ ـ نادر شاه	١٧٣٦ ـ ١٧٤٧
١٤ ـ عادل	١٧٤٧ ـ ١٧٤٩
١٥ ـ شاه رخ (وآخرون)	١٧٤٩ ـ ١٧٥٧

الأسرة الزندية :

١٦ ـ كريم خان الزند	١٧٥٧ ـ ١٧٧٩

١٧ ـ صراع اخوته وأولاده على العرش	١٧٧٩ ـ ١٧٩٦

الأسرة القاجارية :

١٨ ـ أغا محمد	١٧٩٦ ـ ١٧٩٧
١٩ ـ فتح على شاه	١٧٩٧ ـ ١٨٣٤
٢٠ ـ الشاه محمد	١٨٣٤ ـ ١٨٤٨
٢١ ـ ناصر الدين شاه	١٨٤٨ ـ ١٨٩٦
٢٢ ـ مظفر الدين شاه	١٨٩٦ ـ ١٩٠٦
٢٣ ـ محمد على	١٩٠٧ ـ ١٩١٢
٢٤ ـ احمد	١٩١٢ ـ ١٩٢٦

الأسرة البهلوية :

٢٦ ـ رضا بهلوى	١٩٢٦ ـ ١٩٤١
٢٦ ـ محمد رضا بهلوى	١٩٤١ ـ ١٩٧٩

- ٣ -

اباطرة مغـول الهند العظـام

١ ـ بابـر	١٥٢٦ ـ ١٥٣٠
٢ ـ همـايون	١٥٣٠ ـ ١٥٥٦
٣ ـ اكبـر	١٥٥٦ ـ ١٦٠٥
٤ ـ جهـانكير	١٦٠٥ ـ ١٦٢٧
٥ ـ سـاهجان	١٦٢٧ ـ ١٦٦٦
٦ ـ أرانكـزيب	١٦٦٩ ـ ١٧٠٧

— ٤ —

مرسوم السلطان سليم بهزيمة اسماعيل الصفوى

« الحمد لله الذى أذل أعداءنا واجل أولياءنا وأظفر نبيل المآرب رجاءنا وجعـــل ايامنا بالايامن مسفرة ولياليها الميامن مقمرة ومساعينا بالمحامد مثمرة ومعاهد معادينا بقهر النقم مقفرة » ·

« نحمده حمدا كثيرا على أن من على بالفتح الأكبر والنجح الأزهر والنصر الأشهر واليمن الأنصر والعز الأشهق الاسنى والفوز الأتم الأنمى والسعد الأحمد الاجدى وهــو الفتح الذى يفرح برؤياه مهاب الفتوح وتلوح تباشير بشراه فى لوح الدهور لكل مؤمن فيتلقاه بالوجه السافر والصدر المشروح » ·

« ونصلى تصلية دائمة على كل ناسخ كل ملة وفاسخ كل نحلة المبعوث بعد امتداد من الفترة واشتداد من الهترة وانقطاع من الهدايا والدلالة واتساع من الغواية والضلالة محمد المجتبى من أفخر القبائل والمصطفى من أطهر الفضائل وعلى آله واصحابه الذين هم ولاة الخلق ورتقة الفتق وغرر السبق وفتحة الغــرب والشرق منهم رد ردة المرتدين من اسلامها ومنهم من أزال أرجل الأكاسرة عن أسرتها وتيجانها عن هامها ومنهم الأشداء على الكفار الاسداء اذا زاغت الأبصار ومنهم السابقون والتابعون وسلم تسليما دائما ما هبت الصبا واختلف الصبح والمسا » ·

« وبعد فانا ارصدنا هذه المفاوضة الشريفة الى الحضرة العلية للأعلمية والأهملية الأورعية الأروعية الاكملية الأفضلية الاعدلية الأكرمية الأفخمية الاعظمية العونيـــــــة الفوثية وهو الذى جمع المحاسن كلها واستولى على المفاخر قلها وجلها والقت اليه المعالى مقاليدها وارجعت اليه أخبار المكارم أسانيدها حامى الحرمين المبجلين المعظمين كهف المظلومين ملاذ الملهوفين نصير الاسلام والمسلمين ظهير أمير المؤمنين » ·

« أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره وأيد دولته واجزل من الخيرات همته ولا اخلى من نعمه رياضها ممرعة وحياضها مترعة وحدها متمهد وظلها ظليل وخطها جزيل ولا زالت الأمال به منوطة ويده بالمكارم مبسوطة وما برح لقوام المجد قواما وللزمان ابتســـاما

ما قرت الأرض قرارها وابقت الأفلاك مدارها تهدى لعلمه ان الرجل الجافى المدعـــو باسماعيل الصوفى قد خرج من جيلان واجتمع على الملاحدة واحزاب الشيطان فسار معهم الى سروان ودخله غضبا وأوسعه نهبا ثم هجم اذربيجان عنوة فنال منها حظوة » .

« ثم استولى على ممالك الشرق يوما فيوما قد ناب من استلامهم خطة خراسان التى هى سرة بلاد ايران ما تاب وأصاب ديار البوارات ما أصاب نزع الله الرأفة من قلوبهم فنقلها الى عدو لهم وعنب بهم ما يريده من تعذيبهم واشتعلت نار جمرتهم فى فحم ذنوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون وأمدهم فى طغيانهم يعمهون رفعوا التكليفات وحفظوا الشرعيات وقد تعين الجهاد على كل مسلم ولم يكن أحد يكون له هذا الحلم غير متألم فيتصدى لدفعهم ملوك الاسلام فانتقموا منهم وبلغوا المرام » .

« من حارب هذا العدو الكافر ما غلب بل غلب ومن صادف ذاك الغوى الفاجـــر ما سلب بل سلب ففجر الناس وتبرأوا من اعتداد العدة والغدر جرى على كل لسان لكل قوم مدة فظلت الآفاق من غياباتهم واشتنق الاسلام من نكاياتهم فنادى بلسان الحال كل قوم : أين المؤدون فرض الجهاد المتقين واين المهتدون فى تهييج الرشاد المبين » .

« فلما اقتربت الساعة التى قدر فيها رغم أنفه وحان ظهور الآية التى جعلت سببا لهلاكه وحتفه الهمنا الله أن نهتم لهذا الأمر الخطير فانه من فرض الهـام واهم الفروض واختال فى صدورنا أن ننفرد فى حمل عبء هذا القادم الباهظ بالنهوض فقلنا ان هـذه فضيلة خصنا الله بها واسعدنا بسببها بل هى بلية جلا علينا وجه نعمه فيها وقضية وفا النجح بعهد قوافيها وثلة اختارنا لدفعها وثائرة كلفنا الله اطفاء جمرها وارداء جمعها اذ لا يرى أحدا ولى من تفريج هذه الغمة وكشف هذه الممة » .

« فدعونا مشايخ الفقهاء ومشاهير العلماء واستفتيناهم عن حالهم وســألناهم عن قتالهم فأفتوا مطابقين وأجابوا متوافقين بأن سعى من جد فى قمعهم مشكور وعمل من جاهد فى دفعهم مبرور فحكموا لدينا بكفرهم والحادهم وارتدادهم فقوى عزمنا وقمنا على ساق الجد والاجتهاد فاشتد علينا من جميع الجهات جموع الجهاد واجتمع جم غفير » .

« فعبئت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد الشرق فى زمن الربيع النضير فعبرنا بعد الاستعاذة بالله تعالى فى سهر صفر ختم بالخير والظفر من خليج القسطنطينية حماها

الله عن البلية وكتبنا اليه كتابا مستطابا متضمنا للنصيحة والموعظة فأمرنا فيه أن يتوب من جرائمه وجرائره ويستغفر لصغائره وكبائره ويغير ما تعود فى الأيام الماضية والأعوام الخالية من سوء الاعتقاد وتعذيب العباد والفعل اللئيم والخلق النميم فقلنا : لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم واوضحنا المعالى المنيفة باللفظ الوجيز فما وفق لذلك والتوفيق العزيز » •

« فسرت مستعينا بالله الى دياره وبلاده مصمم العزيمة على قتاله وجلاده فمادت الأرض بحركتنا وغامت السماء من غبرتنا واضطربت السهول والوعوث والدغوث وانبعثت الهمم وهجم البعوث والعسكر فى كل يوم يعدون ويفتدون وفيما يجدون الطريق اليه من النكاية فى العدو يمدون ويجيدون » •

« فلما بلغ السير الى بلده سيواس صانها الله من الاندراس عرضنا عساكرنا المنصورة وكان عرضها مذكرا ليوم العرض ومن شاهدها تلا : ولله جنود السموات والأرض فرأينا أن الأرض شاكية من اجحاف الجحافل فانتخبنا منها الأنجاد وجددنا الجدود واستجدنا الجياد واعدنا ما وراء البحر بقية الاجناد » •

« ثم ارتحلنا منها من جنود محسورة وبنود منشورة للعدو طالبا وبالغرم غالما وللنصر صاحبا ولذيل العز ساحبا فنزلنا على بلدة أرزنجان فطار الخبر اليه فطارت قلوب من معه رعبا وطاشت وخضعت افئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت » •

« وأرسلنا اليه منها كتابا آخر داعيا للطعن والضرب مستدعيا منه المقارعة والحرب ومن موضع آخر كتابا رصيف المبانى مؤكدا للأول والثانى واردفنا رسولا برسول والزمناه القتال بمعقول ومنقول واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون » •

« فسرنا منها نحو سرير ملكه شهرا وبدلنا ثياب العهود سرها جهرا وخطبنا من الله الكريم بكر فتح وجعلنا بذل المهج لها مهرا وصار العدو المخذول فى هذه الأيام يطوف حول القرى من قرية الى أخرى بحيث لا يعرف سأنه ولا يعلم مكانه » •

« فاذا بلغنا المنازل القريبة من بلدة تبريز دعته الضلالة الى المكابرة بحسه وخطارة

بنفسه عين لجنوده وثبت وفوده وبل ندى جموعه وصب عليهم ماء دروعه فسار بكثرة وقلة وجزئه وكله وجاء والأدبار قائده والخذلان رائده موضعا يسمى نجالدران فأختاره لان يكون معارك القتال ومصارع الرجال ومجامع الأبطال ومطالع اللقاء ومواضع الهيجاء ومصالت الأقدام ومثابت الأقدام ومواقف الصفوف ومصاف الوقوف وأماكن البعوث ومكامن الليوث وقادها هنا تطرح الرءوس وتمسك النفوس وتسفك الدماء وتهلك الدهماء ويسمح بالروح ويصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح » ٠

« واذ قرع مسامعنا هذا الخبر بذلنا الجهد على مقابلتهم فطوينا المراحل وقطعنا المنازل ذلك اليوم فمزقنا وقت العصر على جبل منيع نرى منه خيامهم وخلفهم وقدامهم فضربت سرادقاتنا وركزت أعلامنا فحجز الليل بين الفريقين وحجرت الخيل على الطريقين » ٠

« وكان الجمعان فى تلك الليلة الظلماء على تعبئتهما واجابة داعى الموت بتلبيتهما وبات الاسلام للكفر مقابلا والرشد للرفض مقاتلا والهدى للضلالة مراقبا للباطل مجاريا وهيات دركات النيران وهنات درجات الجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان » ٠

« فلما تجلى الصبح وعموده وانهزم الليل وجنوده وانكست أعلامه وبنوده نفر النفير غراب الغبار وانتبهت فى الجنون الصوارم وسقط النار وكان اليوم يوم الاربعاء وهو اليوم الثانى من شهر رجب المرجب » ٠

« وماجت خضارمنا وهاجت ضراغمنا وثارت غمائمها وسدت الأفق غمائمها وترتبت اطلابنا على قلب وجناح داعين للفوز والنجاح وعين لكل امير موقف لا يبرح عنه ولا يغيب جمعه ولا أحد عنه فاتحدنا عليهم بهيئة مهيبة وابهة عجيبة والتوفيق مسامرنا والتأييد مؤازرنا والتمكين مقارننا والجد مكاثرنا واليمن محاضرنا والقدر مسامرنا والظفر مجاورنا والاسلام شاكرنا والله عز وجل ناصرنا » ٠

« وقابلنا العدو والحذور فى عدتهم وعديدتهم وقوتهم وحديدهم بالسلاهب المجنبة والمتواضب المقربة والصوائب المجعبة عارضا لهامة ناير الغنامة باشر الاعلامة فسار عسكره وثار عنتره ونعرت كوساته وصاحت بوقاته وكانوا فى زهاء مائة الف أو يزيدون ويكيدون ما يكيدون » ٠

« فلما احس فى نفسه عدم الاستطاعة من ضرب حسامنا وسطوة عبيدنا وخدامنا جعل جموعه فرقتين وصفوفه شرذمتين فعين لاحدهما قسم راسه وشكيمه ياسه أميرا هو الحاكم للديار البكرية المعروف بمحمد أستراحالى فارسله على ميمنتنا البارة وهجم بنفسه وجيشه ومطاعينه وشياطينه على ميسرتنا السارة فتصادم الصفوف وتزاحم الرجوف واطلقت الاعنة وأشرعت الاسنة وقامت الحروب بين اهل الحق وبين الطائفة الجافية الفاجرة وقد كانت لهم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » .

« واشتد الهياج وامتد العجاج وتصافح الصفاح وتشاجر الرماح وتكاثر الجراح واشتعل الضرام وتطايرت السهام وتضايق المجال وتسابقت الآجال والتفت الساق بالساق وتلاعبت الأسياف بالاكتاف وخضبت الدماء الخناجر وبلغت القلوب الحناجر » .

« واما الطائفة التى اتت الميمنة فقام امير الميمنة فى صدورهم وأشرع الأسنة فى نمورهم وروى اللهازم من نامورهم ورفع صولتهم ومنع سطوتهم وكسر حدتهم فهزمهم باذن الله ولم يبق أحد من شريفهم وخسيسهم حتى خر رأس رئيسهم » .

« وأما حال الميسرة فجاء عليه العدو المدبر برمته وكليته وبذل جهده واستفزع ما فى وسعه وقدرته فحمل عليهم حمل الليث الحاذر وسطا عليهم سطوة الأسد الزائر لكن السيل اذا بلغ الجبل الراسى وقف والليل اذا انتهى الى الصبح انكشف » .

« وتناوبت الحملات وتناوبت الاسلات والصفوف ما خرجت عن مقارها ولا انزعجت عن محال قرارها وواصل النبال النصال والنصال النبال فثبت فى وجههم مناصف مرصوص البنيان واسرعوا الى نحو تلك الذئاب ثعالب الحرصان وقتل جم غفير من الغاوى فملأت منهم دركات النيران واستشهد منا جماعة استحلوا طعام الطعان وساقهم حنا الجنان » .

« وكان أمير الميسرة مقروحا بقروح عديدة ومجروحا بجروح مبيدة فخرج عن مواضع الهيجا واندرج بعد ساعة فى زمرة الشهداء والصالحين والسعدا فما آثر فى اخرابنا هذا النصب ولا صدهم عن الطلب ذلك التعب » .

« فبرز الأمر العالى أن يمدهم جماعة من الطوجبين وحزب من الغرباء وثلة من الآجلين فلما نالهم المدد تسنت للاسلام مناهج ووضحت للسعادة مباهج وتالفت فى الاقدام

مقدمات ونتائج المباهج والتأمت فى مد الرحال مدارج واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات وكانت لنا كسرات ولاعدائنا مساءات » ٠

« وساعدت الأقدار وتباعدت الأكدار كلما حلوا ردوا وأرادوا وكلما ساروا وشدوا أسروا وشدوا وناسبهم النشاب فعادت أسودهم قنافذ وسابقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ وأستعملت الكنيات والصريزايات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى أذانهم من الصواعق حذر الموت » ٠

« فصار حسب حالهم ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمونى فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون وحل بهم الصغار والذلة والدمار فاووا الى جبل ليعصمهم من طوفان الدمار » ٠

« فمن الله علينا بالفتح الجميل وايدنا من عنده بالنصر الجليل فزلت اقدامهم وولت أعلامهم وانحل عقدهم وانفك حدهم وانتكس تدبيرهم وانعكس تقديرهم فما بقى من تلك الآلاف آحاد وما نجا من هذه الاعداد اعداد فعاد مجروحا بجراحات مؤلمة فى عدد يسير عاجزين حائرين خائبين خاسرين » ٠

« وبعد ما رجعوا على هذه الحالة التى زيدت والصفة التى ذكرت لم تثبت فى تبعة اقدامهم ولم تخنق لوقفة أعلامهم بل رأوا النجاة من أيدى الزرايا والخلاص من حبائل المنايا والخروج عن الولايا فخرجوا عنها هاربين وللنجاة طالبين وقطعوا المنازل وطووا المراحل وتركوا الدواب والرحال وطرحوا الأحمال والأثقال وعدوا فراسخ الفرار وان امتدت خطوة وأيام الهرب وان طالت لمحة وهذه حالهم وشر منا ما لهم لا يحميه حار ولا يأويه دار وكل ذلك عاقبة الظالمين والحمد لله رب العالمين » ٠

« فأما من أسر فلم يكف أطناب الخيام لقيده وشده وأما من قتل فلقد حصرت الألسن عن حصره وعده فلم تقع عين الا على أشلاء طريحة وأعضاء جريحة وأصابع مقصوصة واشاجع مفصومة وصدور مرصوصة ونحور مبصوصة واجساد منصبة واعضاد منصفة وصارت تلك المعركة بالدماء دارا وعادت الغبراء حمراء وجرت أنهار الدم وسقى بتلك الخبائث وجه الدين المطهر » ٠

« فتعدنا فى ذلك المنزل يوما واحدا ثم أصبحنا على عقبه سائرين مسرورين

محبورين والوجوه سافرة والألسن بانعم الله شاكرة والأنفس للألسنة مسامرة والأقدام بالأقدار متظافرة متظاهرة فحللنا بالطائر الأسعد والمجد الأمجد ببلدة تبريز » ٠

« وانحسمت الظلمة المستولية بمقدمنا العزيز فطابت قلوب الرعايا وبشرت من الله بما ظهر من الطافة الخفايا لما بدلوا من الظلمات نوراً وأعقبوا من الموت نشورا فوجدناهم بلدة اخربت فيها بقاع الخيرات ومساكن العباد وعطلت المساجد فجعل هذا الظالم بعضها اصطبلا للدواب وبعضها مسكنا للشراد والحداد فأمرنا أن تعود كلها الى وضعها القديم ويذكر فيها اسم الله الرحمن الرحيم » ٠

« فلما دخل يوم الجمعة أصبح الناس يقولون هذا يوم كريم ٠ موسم عظيم يوم تجاب فيه الدعوات وتصب فيه البركات فطوبى لمن عاش حتى حضر هـــذا اليوم الذى انتعش فيه الاسلام وارتاس ما افضل هذه ٠٠ فأشرف من هذه الجماعة التى شرفها الله تعالى لتوفيق هذه الطاعة امتلأ الجامع واختلفت المجامع وتوحشت الأبصار والمســامع وغصت بالسابقين اليه المواضع واجتمع الزاهد والعابد وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد والقائم والقاعد وعبد الأحد والواحد وابكى الحفاظ فتلى التنزيل وأسلى الوعاظ بحق الحق وبطلت الأباطيل » ٠

« وصعد الخطيب المنبر فخطب وأنصتوا ونطق فسكتوا ووعظ فى خطبته وخطب بموعظته وتلاها على مذهب اهل السنة وجماعتهم وذكر الخلفاء الراشدين والأئمـــة المجيدين رضوان الله عليهم اجمعين بالتعظيم والتبجيل على ترتيب خلافتهم بعد أن يذكروا بالخير أمد مديدا وعهدا بعيدا ورقت القلوب وجفت الكروب وتصاعدت الزفرات وتجذدت العبرات وصاح التوابون وماج الأوابون » ٠

« فلما دعا بخلود أيام دولتنا واخواننا الذين سبقونا بالايمان ختم بقوله : ان الله يأمرنا بالعدل والاحسان ونزل وصلى بالمحراب وافتتح باسم الله من أول الكتاب فصلينا معه والصفوف على سعة المسجد بها متصلة والأمة الى الله تعالى بدوام نصرتنا متبهلة ولما قضيت الصلاة انتشر الناس واستمد الناس الايناس وطابت النفوس والأنفاس » ٠

«فنشكر الله شكرا كبيرا على أن جعل أيامنا للفتوح مواسم واوقاتنا للزمان مباسم ومآثرها فى ضحو المعالى خالدة ومناقبنا على ممر الليالى آيدة ونرجو من لطفه الخفى على أن يجعل سعينا مشكورا ويجزينا فى الآخرة جزاء موفورا » .

« ولا خفاء فى أن هذا الفتح الجليل العظيم والضيع الجليل الكريم وفقنا الله به أمر بتبيض الأيام السود وأعاد الحسن المفقود واقر الخير فى قراره وأسقط لواء الشر بعد انتصابه واضحك وجه الاسلام وبرد صدور الأنام » .

« فأصبح ولو كانت الفتوح حسبما لحل منه محل الفؤاد ولو كانت أرضا لكان سماؤها ذات العماد وهو جدير بان تواردت نسبة البشرى واليسرى وتدامت الكتب والأخبار على الأكارم والاقانيم وسلاطين الاقاليم سيما على حضرة من كان من مقامنا الشريف وثفره المنيف وشرف الجوار وتفاوت الدار وكمال المودة التى تصفو مشاربها على الأقذار ومناهلها على الأكدار وتكتلب آثارها بسواد الليل على بياض النهار » .

فلهذا اسطرت فى اليوم الثالث والعشرين من شهر رجب المرجب لسنة عشرين وتسعمائة من بلدة تبريز هذه المكاتبة الشريفة مبشرة بما أجده لله من الجد وانجز من الوعد وأجزل من الوفد وحلى وجه المؤمنين ببشراه بشرى وملأ صدور الموحدين منا وقلوب الملحدين ذعرا » .

« واختير لتبليغ هذه البشارة العظمى على سبيل السرعة والاستعجال الى مقامكم العالى المفضال الأميرى الكبيرى الأوحدى الأمجدى الأخص المقربى المؤتمنى خير الدين حضر رزقت سلامته وحملناه من السلام ما هو ألطف من الغمام والله تعالى يديم من عاداته أجملها ونعمة أجزلها ومنحة أكملها ما بث الليل رجاه ونشر الصبح سناه وحسبنا الله ونعم الوكيل (١) » .

---

(١) أحمد بن طولون : مفاكهة ، جـ ٢ ، ص ٤٨ — ٥٧ .

- ٥ -

مرسوم السلطان سليم الأول العثمانى بفتح الشام ومصر
أوائل محرم ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م

« قدوة الأمراء الكرام ، وعمدة الكبراء الفخام ، ذو القدر والاحترام ، كافل مدينة الشام دام عزه ، واقضى قضاة المسلمين ، أولى ولاة الموحدين ، معدن الفضل واليقين ، حجة الحق على الخلق اجمعين ، مولانا قاضى القضاة بالشام المحروس ، أبدت فضائله مرسومنا هذا ، يوضح لعلمها الكريم ، اننا توكلنا على الله سبحانه ، وتوسلنا بسيد الكائنات ، محمد صلى الله عليه وسلم » .

وتوجهنا بعساكرنا وصناجقنا وأعلامنا وجيوشنا وخيولنا السابقات الصافنات وقسينا الصائبات ورجالنا المرصدين لصيد أعدائنا ، مع هداية الله تعالى ، من الشام مع السعد والظفر أى جهة مصر فوجدنا طومان باى،الذى تولى سلطنة مصر واقام جان بردى الغزالى كافلا للشام ، وجهزه غزة وصحبته فرقة من العساكر المصرية .

« وكان قد تقدمنا قدوة الوزراء العظام ، وعمدة الكبراء الفخام ، الغازى فى سبيل الله ، المجاهد لوجه الله الوزير الأعظم سنان باشا ، اى جهة غزة ، فوقع بهم والتحم بينه وبينهم القتال العظيم ، فبعون الله تعالى وسعادتنا الشريفة ، حصل له النصر والظفر ، وقتل منهم من قتل ، وأسر منهم من أسر ، ومن سلم من سيفه فر منهزما صحبه الغزالى المذكور الى مدينة مصر » .

« ثم ان ركابنا الشريف جد فى السير ، فى السعد والاقبال ، بعساكرنا وجنودنا ، واجتمع بنا سنان باشا المشار اليه وصرنا نرحل من مرحلة الى مرحلة مثل السهام » .

« فلما وصل اليهم خبر توجه ركابنا الشريف على هذه الوجة ، أرادوا أن يتداركوا بقاء نفوسهم وأرواحهم فجمعوا عساكرهم السيفية ، والجلبان ، ومماليك الأمراء ، والعربان ، نحو الثلاثين ألفا » .

« وجمعوا ما فى القلعة المصرية ، وبيوت الأمراء وثغر اسكندرية ، وسائر البلاد والقلاع ، من المكاحل ، والكفيات ، والسيفيات والبندقيات ، واللبوس ، والسلاح » .

« وحفروا خندقا فى الريدانية ، من بحر النيل الى الجبل وجمعوا أخشابا جعلوها

تشاتير على الخندق ، وأحضروا رماة من الفرنج وغيرهم ، وسائر آلات الحرب وهيئوها لقــــــــــــائنا » .

« فوصل ركابنا الشريف ، بعساكرنا المنصورة ، الى الريدانية فى يوم الخميس التاسع والعشرين من ذى الحجة الحرام سنة أثنتين وعشرين وتسعمائة ، وقت الغداة ، فوجدناهم قد لبسوا السلاح ، وتكملوا العدد ، وتقلدوا بالعدد ، وهم غارقون فى الدروع والزرد ، وأرادوا مقابلة عساكرنا المنصورة التى هى بأعداد الرمال ، وأمثال الجبال ، ولها قلوب الأسود وشخوص الرجال » .

« فلما وقف الصفان ماج عسكرنا كموج بحر عمـــان ، فبقى يغلى ويضطرب ، فرتبنا وزيرنا الأعظم سنان باشا فى ميمنة العسكر ودستورنا المكرم ومشيرنا المفخم نمر وهزبر الهيجاء وزيرنا يونس باشا فى الميسرة » .

« واصطف الجيشان ، وزحف العسكر المصرى على سنان باشا فى الميمنة ، ورموا عليه بالمكاحل والسبقيات والكفيات والبندقيات ، وجاء أعداؤه للقتال ، فما روعه ذلك، ولا أزعجه ، بل جال فيهم وصال ، وقطع منهم الأوصال ، ورمى منهم الرؤوس عن الجثث ، وغنى فيهم السيف ، الى أن خاضت خيولهم فى الدماء والقتلى » .

« ثم ولوا منه منهزمين الى الميسرة ، فتلقاهم يونس باشا المشار اليه ، وجال فيهم بطعن وضرب ، فأرادوا الفرار ، فناداهم لن ينفعكم الفرار ، ان فررتم من الموت أو القتل، فكم من فارس تجندل صريعا ، وكم من أمير أحضروه الينا أسيرا » .

« وأما غالب العسكر المخذول ، فداسهم عسكرنا تحت حوافر الخيول ، واستمر الحرب من أول النهار الى بين الصلاتين ، وصار حرب عظيم ، وجرح سنان باشا » .

« وآخر الأمر بارادة الله تعالى : الا ان حزب الله هم الغالبون ، وصارت عساكرنا غالبة ومنصورة ، والعساكر المصرية مغلوبة مقهورة ، وقالوا : — أين المفر ؟ والذى سلم من سيوفنا منهم رمى بنفسه عن فرسه فقبضوا عليه ،ومنهم من قطعوا راسه واحضروه الينا ، والماسورون منهم عملناهم اشارات لنبلنا وغذاء لسيوفنا ، وصـــارت أبدانهم ورؤوسهم وخيولهم كيمانا » .

« واقمنا بعد هذه المعركة فى الريدانية أربعة أيام بالسعد والاقبال ثم انتقل ركابنا الشريف عن الريدانية الى جزيرة بولاق » .

« وكان قد فضل بقية سيوفنا من العساكر المصرية، فهربوا واجتمعوا هم والسلطان طومان باى ، وجمعوا العربان ، والتموا نحو العشرة آلاف ، ليلا من نهار الثلاثاء خامس شهر المحرم الحرام سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة خفية ، ودخلوا البيوت الحصينة ، وحفروا حولها الخنادق ، وستروا التساتير ، واجتمعوا فى الحارات واظهروا الفساد ، وابرزوا العناد ، فعلمت عساكرنا المنصورة بهم ، فربطوا الخيالة لهم الطرقات ، لئــــلا ينهزم منهم احد ، وصاحت عليهم مماليكنا الينكشارية والتفكجية ، وحملت عليهم حملة رجل واحد ، ودخلوا عليهم الى البيوت التى تحصنوا فيها ، ونقبوا عليهم البيوت يمينا وشمالا ، وطلعوا على اسطحة تلك البيوت التى تحصنوا فيها ، ورموا عليهم بالبنــــادق والكفيات ، واستمر الحرب بين عساكرنا المنصورة وبينهم ثلاثة أيام » .

« وفى يوم الجمعة ركب مقامنا الشريف ، وأشتد الحرب ، وصار مثل يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ومثل يوم يفر المرء من أخيه وامه وأبيه وصاحبته وبنيه فخر بنا ما عملوه من التساتير والخنادق ، فالتجئوا الى بعض البيوت الحصينة ، فحرقنا عليهم تلك البيوت التى التجئوا اليها وبقوا فى العذاب الأليم ، وارادوا الهروب فما لقوا لهم طريقا الا بحر النيل ، فأرموا انفسهم فيه وغرقوا كيوم فرعون » .

« وفى هذه الثلاثة أيام يستمر القتال من الصبح الى العشاء ، وبعون الله تعـــالى قتلنا جميع الجراكسة ، ومن انضم اليهم من العربان ، وجعلنا دماءهم مسفوحة وابدانهم مطروحة ، ونهب عسكرنا قماشهم وأثاثهم وديارهم وأموالهم وبركهم ويرقهم ثم صارت أبدانهم للهدام » .

« وأما طومان باى سلطانهم ، فما عرفنا هل هو مات أم بالحياة ، وأطاعتنا بعون الله تعالى جميع العربان والمشايخ والأكابر بمصر بأعمالها ، والحمد لله الذى هدانا لهذا ، والمسؤول من الله سبحانه أن يكون عدونا دائما مقهورا ، وعسكرنا منصورا ، والداعى بدوام دولتنا مسرورا ، الى يوم النشور ، آمين يا معين » .

« وبعد هذه الفتوحات العظمى ، أردنا أن نعلم جميع رعايانا،سكان ممالكنا الشريفة بذلك ليأخذوا حظوظهم من هذه البشرى ، ويبتهلوا الى الله تعالى بالأدعية الصالحة بدوام دولتنا الشريفة ، ويدقوا البشائر ويعلنوا التهانى ، ويرموا بالبارود فى القلعة المنصورة ، ويعلموا بذلك أطراف البلاد ومقدميها ليكونوا مسرورين بهذه البشرى وكتب فى أوائل المحرم ، بمنزلة جزيرة بولاق » .

– ٦ –

معاهدة أرضروم المؤرخة ٣١ مارس ــ آيار سنة ١٨٤٧

المادة ١ ــ تتنازل الدولتان الاسلاميتان عن كل ما للواحدة على الأخرى من ادعاءات مالية فى الوقت الحاضر على شرط انه ليس فى هذا الترتيب ما له مساس بالأحكام الموضوعية لتسوية الادعاءات التى تبحث فيها المادة الرابعة ٠

المادة ٢ ــ تتعهد الحكومة الايرانية بان تترك للحكومة العثمانية جميع الأراضى المنخفضة ــ اى الأراضى الكائنة فى القسم الغربى من منطقة زهاب ــ وتتعهد الحكومة العثمانية بأن تترك للحكومة الايرانية القسم الشرقى ــ اى جميع الأراضى الجبلية ــ من المنطقة المذكورة بما فى ذلك وادى كرند ٠

وتتنازل الحكومة الايرانية عن كل ما لها من ادعاءات فى مدينة السليمانية ومنطقتها وتتعهد تعهدا رسميا بان لا تتدخل فى سيادة الحكومة العثمانية على تلك المنطقة أو تتجاوز عليها ٠

وتعترف الحكومة العثمانية بصورة رسمية بسيادة الحكومة الايرانية التامة على مدينة المحمرة ومينائها وجزيرة خضر والمرسى والأراضى الواقعة على الضفة الشرقية ــ أى الضفة اليسرى ــ من شط العرب التى تحت تصرف عشائر معترف بانها تابعة لايران ٠ وفضلا عن ذلك فللمراكب الايرانية حق الملاحة فى شط العرب بملء الحرية وذلك من محل مصب شط العرب فى البحر الى نقطة اتصال حدود الفريقين ٠

المادة ٣ ــ لما كان الفريقان المتعاقدان قد تنازلا بهذه المعاهدة عن ادعاءاتهما الأخرى المختصة بالأراضى فانهما يتعهدان بأن يعينا حالا قوميسرين ومهندسين بمنزلة ممثلين عنهما من أجل تقرير الحدود بين الدولتين بصورة تنطبق على أحكام المادة المتقدمة ٠

المادة ٤ ــ يوافق الفريقان على أن يعينا فى الحال قوميسرين من الجانبين للحكم فى كل قضية سببت ضررا لأحد الفريقين وتسويتها تسوية عادلة من القضايا التى وقعت منذ قبول الاقتراحات الودية التى وضعتها وقدمتها الدولتان الكبيرتان الوسيطتان فى شهر جمادى الأول سنة ١٢٦١ وكذلك للحكم فى جميع المسائل المتعلقة برسوم الرعى منذ السنة التى وقعت فيها بقايا فى تلك الرسوم وتسويتها تسوية عادلة ٠

المادة ٥ — تتعهد الحكومة العثمانية بان يقيم الامراء الايرانيون الفارون فى بروسه وبان لا تسمح لهم بمغادرة ذلك المحل ولا بأن تكون لهم علاقات سرية بايران · وكذلك تتعهد الدولتان الســـاميّتان بتسليم جميع المهـــاجرين الأخر عمــلا بأحكام معاهدة أرضروم الأولى ·

المادة ٦ — على التجار الايرانيين أن يدفعوا الرسوم الجمـــركية على بضائعهم — عينا او نقدا — حسب قيمة تلك البضائع التجارية الحالية وعلى المنوال المشروح فى المادة المتعلقة بالمتاجرة فى معاهدة ارضروم المنعقدة فى الســـنة ١٢٣٨ (١٨٢٣ ميلادية) · ولا يستوفى شىء اضافى ما علاوة على المقادير المعينة فى تلك المعاهدة ·

المادة ٧ — تتعهد الحكومة العثمانية بمنح الامتيازات المقتضية لتمكين الـــزوار الايرانيين وفق المعاهدات السابقة من زيارة الأماكن المقدســـة فى الأراضى العثمانية بسلامة تامة ومن غير التعرض لمعاملات مزعجـــة مهما كانت · وكذلك لما كانت الحكومة العثمانية راغبة فى تقوية وتوثيق عرى الصداقة والتفاهم الواجب بقاؤها بين الدولتين الاسلاميتين وبين رعاياهما فانها تتعهد باتخاذ أنسب الوسائل التى من شأنها أن تؤمن أمر التمتع بالامتيازات المذكورة فى الأراضى العثمانية ليس للزوار فحسب بل لجميع الرعايا الايرانيين وذلك بصورة تحميهم من كل ظلم أو تعرض او خشونة سواء أكان ذلك فيما يتعلق بأعمالهم التجارية ام بأى أمر آخر ·

وفضلا عن ذلك تتعهد الحكومة العثمانية بالاعتراف بالقناصـــل الذين قد تعينهم الحكومة الايرانية فى أماكن واقعة فى أراضى عثمانية تتطلب وجودهم بداعى المصـــالح التجارية او لحماية التجار وسائر الرعايا الايرانيين انما تستثنى من ذلك مكة المكرمة والمدينة المنورة · وتتعهد فيما يخص القناصل المومأ اليهم بأن تحترم جميع الامتيازات التى لهم حق التمتع بها بناء على صفتهم الرسمية والممنوحة لقناصل الدول المتحـــابة الأخـــــــرى ·

وتتعهد الحكومة الايرانية فيما يخصها بتطبيق أصول المعاملة المتبادلة من جميع الوجوه بحق القناصل الذين تعينهم الحكومة العثمانية فى اماكن واقعة فى ايران ترى تلك الحكومة لزوما لتعيين قناصل فيها · وكذلك تتعهد بتطبيق اصول المعاملة المذكورة على التجار العثمانيين وعلى سائر الرعايا العثمانيين الذين يزورون ايران ·

المادة ٨ ــ تتعهد الدولتان الإسلاميتان المتعاقدتان الساميتان باتخاذ وتنفيذ الوسائل اللازمة لمنع ومعاقبة السرقات والسلب من جانب العشائر والأقوام المستقرة على الحدود وتقومان لذلك الغرض بوضع الجنود فى مراكز ملائمة • وتتعهدان فضلا عن ذلك بالقيام بالواجب المفروض عليهما ازاء مختلف أعمال التعدى كلها كالنهب واللصوصية والقتل مما قد يقع فى أراضيهما •

على الدولتين المتعاقدتين الساميتين فيما يخص العشائر المتنازع فيهـــا والتى لا تعرف لمن السيطرة عليها أن تتركها حرة فى اختيار وتقرير الأماكن التى سيقطنونها دائما من الآن فصاعدا • أما العشائر التى تعرف لمن السيطرة عليها فترغم على المجىء الى داخل اراضى الدولة التابعة لها •

المادة ٩ ــ تؤيد بهذا من جديد جميع النقاط والمواد المدرجة فى معاهدات ســابقة ــ ولا سيما المعاهدة المنعقدة فى أرضروم فى السنة ١٢٣٨ (١٨٢٣ ميــــــلادية) والتى لا تعدلها أو تلغيها هذه المعاهدة بصورة خاصة • ويسرى هذا التأييد الى نصوصها كلها كما لو كانت قد نشرت بحذافيرها فى هذه المعاهدة •

وتوافق الدولتان المتعاقدتان الساميتان على أن تقبلا وتمضيا هذه المعاهدة عند تبادل نسخها وعلى أن يتم تبادل وثائق ابرامها فى ظرف مدة شهرين أو قبل ذلك •

— ٧ —

مذكرة ايضاحية حول بعض الشروط الواردة فى معاهدة ارضروم المقترحة قدمها السفيران البريطانى والروسى فى الاستانة الى الحكومة العثمانية فى السادس والعشرين من شهر نيسان سنة ١٨٤٧

تشرف الموقعان فى ادناه ممثلا بلاطى بريطانيا العظمى وروسيا الوسيطين بتسلم المذكرة المطابقة — مع الملحق — المتعلقة بالمفاوضات التركية الايرانية والتى تفضل معالى على أفندى وزير الخارجية بارسالها اليهما فى الحادى عشر فى الشهر الحالى .

لقد ارتاح الموقعان أشد الارتياح من تصريح معاليه فى المذكرة المذكورة بالنيابة عن الباب العالى بانه قد قر القرار على اصدار التعليمات على الفور الى المندوب العثمانى المفوض فى أرضروم للتوقيع على مواد المعاهدة المنعقدة مع بلاط ايران غير المعدلة أى وفق النص الذى وضعه مندوبا البلاطين الوسيطين وكما قدمت لموافقة الحكومات المختصة من قبل وزرائها المفوضين فى أرضروم على شرط أن يقدم ممثلا البلاطين المذكورين الى الباب العالى الايضاحات عن بعض النقاط التى ترى الحكومة العثمانية انها غير واضحة كل الوضوح .

أما النقاط التى يريد الباب العالى تقديم ايضاحات عنها فهى كالآتى : —

١ — يظن الباب العالى بان الفقرة الواردة فى المادة الثانية من مسودة المعاهدة والتى تنص على ترك مدينة المحمرة ومينائها ومرساها وجزيرة خضر لايران لا يمكن أن تشمل أراضى الباب العالى المتضمنة (١) خارج المدينة ولا موانيه الأخرى الواقعة فى هذه الاقاليم .

ويهم الباب العالى كذلك فيما يتعلق بالنص الوارد فى فقرة اخرى من هذه المادة حول امكان تقسيم العشائر التابعة فعلا لايران أى اسكان نصفها الواحد فى أراضى

---

(١) قد استعملت كلمة (الواقعة) بدلا من كلمة (المتضمنة) فى النبذة المرسلة الى المندوب الايرانى فى شهر كانون الثانى من سنة ١٨٤٨ .

عثمانية ونصفها الآخر فى اراضى ايرانية أن يعلم هل ان ذلك معنـــاه أن تصبح أيضا اقسام العشائر الموجودة فى تركيـــا خاضعة لايران وبالتالى أن تترك كذلك لايران الأراضى التى تحت تصرف تلك الأقسام وهل سيكون لايران الحق يوما من الأيام فى المستقبل فى أن تنازع الباب العالى حق التصرف فى الأراضى المذكورة ٠

٢ — يهم الباب العالى فيما يخص فى أحكام المادتين الأولى والرابعة الحالية أن يعلم هل ان للحكومة الايرانية الحق فى أن تدخل التعويضات المالية فيما بين الحكومتين التى تنازلت عنها برمتها ضمن الادعاءات الشخصية ٠ والمفهوم لدى الباب العالى أن هذه الادعاءات لا تسرى الا الى بعض رسوم الرعى والخســـائر التى تكبدها رعايا الحكومتين من جراء الأعمال التى ارتكبها قطاع الطرق وما شاكل ذلك ٠

ثم ان الباب العالى يستفهم ما اذا كان سيتم الحصول على موافقـــة الحكومة الايرانية على مسألة الاستحكامات والحصون المضافة الى المادة الثانية وكذلك على الفقرات المختصة بالمعاملة المتبادلة التى سهى عن درجها فى المادة السابعة من مسودة المندوبين ٠

ولما كان الممثلان أدناه راغبين وملزمين فى ازالة الغموض العالق بذهن الباب العالى حول جميع المسائل المذكورة فى أعلاه فانهما يصرحان بهذا كالآتى : —

بخصوص ١ — أن مرسى المحمرة هو القسم الواقع مقابل مدينة المحمرة فى قناة الحفار ٠ وهذا التعريف لا يحتمل ان يؤثر أى تفسير آخر فى معناه ٠

وفضلا عن ذلك فان الممثلان الموقعان فى أدناه يشاطرا الحكومة العثمانية الرأى القائل بأن قيام الحكومة العثمانية بتركها لايرانمدينة المحمرة وميناثها ومرساها وجزيرة خضر فى المنطقة المذكورة لا يعنى تركها أية أراض أو موان أخرى موجودة فى تلك المنطقة ٠

ويصرح كذلك الممثلان الموقعان فى ادناه بأنه سوف لا يكون لايران الحق بأية حجة كانت فى أن تقدم ادعاءات حول المناطق الكائنة على الضفة اليمنى من شط العرب ولا حول الأراضى العائدة لتركيا على الضفة اليسرى حيث تقطن من تلك الضفة أو من تلك الأراضى عشائر ايرانية أو اقسام منها ٠

بخصوص ٢ — اما بشأن تخوف الباب العالى من احتمال تفســير المادتين الأولى

والرابعة من مسودة المعاهدة تفسيرا غير قانونى بحيث يؤدى بالحكومة الايرانية الى اثارة مسألة الادعاءات المالية التى بين الحكومتين من جـــديد فان الممثلين الموقعين فى ادناه يصرحان بهذا بانه كما أن المادتين المذكورتين من مسودة المعــاهدة قد صرحتا بالتنازل الآن وفيما بعد عن جميع الادعاءات التى من هذا القبيل مهما كان منشاؤها فانه ليس فى الاستطاعة استئناف البحث فى هذه المسألة بشأن اية قضية كانت وبانه على الفريقين ترضية أصحاب الادعاءات الشخصية فقط دون غيرها • وفضلا عن ذلك فان تدقيق تلك الادعاءات الشخصية والبت فى مشروعيتها سيناط بلجنة خاصة تؤلف لهذا الغرض • كما أن البت فى أى هى الادعاءات التى ستعتبر بمنزلة ادعاءات شخصية سيحال كذلك الى هذه اللجنــــــــــة •

وللجواب على السؤالين الفرعيين اللذين وردا فى ختام مذكرة معالى على افندى فان الموقعين فى ادناه يعتقدان بأن هنالك ما يسوغ لهما القول بأن الحكومة الايرانية ستوافق بلا تردد على أن تدرج فى المادة السابعة الفقرات المتعلقة بأصول المعاملة المتبادلة التى على كل من الحكومتين مراعاتها حبا بصالح رعاياها وزوارها وموظفيها القنصليين • أما بشأن مسألة الاستحكامات والحصون فلا يستطيعا سوى بيان رايهما الشخصى وهو ان تعهد الدولتين الاسلاميتين تعهدا متبادلا بعدم تحصين ضفتى شط العرب معناه ضمان آخـر لدوام العلاقات السلمية بين المملكتين كما انه من شـــأنه توثيق عرى الاخلاص وحسن النية وهذا ما ترمى اليه المعاهدة المذكورة •

بناء على ما تقدم فانه فى وسع الممثلين الموقعين فى أدناه أن يعضدا تلبية رغبـــات الباب العالى حول هذه النقطة بواسطة توسط زملائهم فى طهران ولهما وطيد الأمل بأن عملهما هذا سيسفر عن نتيجة مرضية •

وفى عين الوقت يعتقد الممثلان الموقعان فى أدناه بانه فى الامكان امضاء المعاهدة قبل ظهور نتيجة المفاوضات حول النقطة الخاصة الآنفة الذكر لأنه فى الاستطاعة فيما بعــد اضافة مادة جديدة الى المعاهدة •

بيرة فى ١٤ (٢٦) نيسان ١٨٤٧

الموقعــان
أوســـــتينوف
أ ج • وليسلى

★ ★ ★

– ٨ –

بروتوكول طهران المؤرخ ٢١ كانون الأول سنة ١٩١١

لما كانت الحكومتان الايرانية والعثمانية راغبتين فى أن تجتنبا من الآن فصاعدا كل موضوع يفضى بهما الى الجدل حول حدودهما المشتركة ولما كانتا قد اصدرتا الأوامر الأولى لوزير خارجية ايران والثانية للسفير التركى فى طهران لكى يضعا أسس المفاوضات والأصول التى ستتبع لأجل تحديد الحدود المذكورة فقد وافق الموقعان فى أدناه بعد المداولة على النقاط التالية : –

أولا – يجتمع قومسيون مؤلف من عدد متساو من مندوبى الفريقين فى الاستانة باسرع ما يمكن ٠

ثانيا – تصدر التعليمات لمندوبى الحكومتين بعد تزويدهم بكافة الوثائق والأدلة المؤيدة لادعاءاتهما ليقرروا باخلاص وعدم محاباة خط الحدود الذى يفصل بين البلدين ٠ وبعد ذلك يقوم قومسيون فنى بمجرد تثبيت التحديد القطعى على الأرض وفاقا للأسس التى وضعها القومسيون السابق ٠

ثالثا – تكون أعمال القومسيون المشترك الذى سيجتمع فى الاستانة على مواد المعاهدة المعروفة بمعاهدة أرضروم المنعقدة فى ١٢٦٣ ٠

رابعا – اذا لم يتفق مندوبو الفريقين على تفسير وتطبيق بعض مواد المعاهدة فمن المتفق عليه انه عند ختام مدة ستة أشهر المفاوضات المعينة لحسم مسألة تحديد الحدود حسما كاملا تحال جميع النقاط المختلف فيها معا الى محكمة التحكيم فى لاهاى وذلك بغية حسم المسألة برمتها بصورة نهائية ٠

خامسا – من المفهوم أنه لا يجوز لأى من الفريقين ان يتخذ احتلال الأراضى المتنازع فيها احتلالا عسكريا كحجة قانونية يدلى بها ٠

كتب عن نسختين وتم تبادل الأصل بين الموقعين فى ادناه بالنيابة عن حكومتيهما ٠ السفارة العثمانية الامبراطورية فى طهران فى الحادى والعشرين من شهر كانون الأول سنة ١٩١١ ٠

(الامضاء) وثوق الدولة　　　　(الامضاء) هـ ٠ حسيب

★ ★ ★

البروتوكول الموقع عليه في الاستانة في الرابع (السابع عشر) من شهر تشرين الثاني سـنة ١٩١٣

ان الموقعين في أدناه :

صاحب الفخامة السير لويس مالت السفير المفوض والمندوب فوق العادة لصاحب الجلالة البريطانية لدى جلالة السلطان وصاحب الفخامة مرزا محمود خان قاجار احتشام السلطنة السفير المفوض والمندوب فوق العادة لصاحب الجلالة شاه ايران لدى جلالة السلطان وصاحب المعالي المسيو ميشيل ده جيير السفير المفـوض والمندوب فوق العادة لصاحب الجلالة امبراطورية روسيا لدى جلالة السـلطان وصاحب السـمو الأمير سعيد حليم باشـا الصدر الأعظم ووزير الخارجية في الامبراطورية العثمـانية ٠

قد اجتمعوا ليدونوا في هذا البروتوكول الاتفاق الذى تم بين حكوماتهم بشـأن الحدود التركية الايرانيـة ٠

بدأ المجتمعون بتلخيص المفاوضات التى جرت لحد تاريخه والتى كانوا قد باشروا بها في الآونة الأخيرة ٠

لوحظ ان القومسيون المشترك المنصوص على تاليفه في المادة الأولى من البروتوكول المضى في طهران والمنعقد بين سفارة الامبراطورية العثمانية وبين وزير خارجية ايران للبت في اسس المفاوضات المتعلقة بتحديد الحدود التركية الايرانية قد عقد ثمانية عشر اجتماعا الأول في ١٢ (٢٥) آذار والأخير في ٩ (٢٢) آب سنة ١٩١٢ ٠

وفي ٩ (٢٢) آب سنة ١٩١٢ ارسلت السفارة الروسية الامبراطورية في الاستانة الى الباب العالى مذكرة برقم ٢٦٤ تقول فيها « وتعتقد الحكومة الامبراطورية بأنه ليس في الاستطاعة القول بضرورة وضع الشروط الصريحة الواردة في معاهدة أرضروم موضع التنفيذ بلا تأخير لأن تلك الشروط تعتبر بمنزلة الرجوع الى الوضع الذى كان سائدا في السنة ١٨٤٨ » ٠ وفي عين الوقت أرسلت السفارة المذكورة الى الحكومة العثمانية مذكرة

تبين خط الحدود بوجه التفصيل وبصورة تنطبق على الشروط الموضوعة فى المعاهدات النافذة العمل ٠ فاجابت الحكومة العثمانية على تلك المذكرة بمذكرة رقمها ٣٠٤٦٩/٤٧ وتاريخها ١٨ (٣١) آذار سنة ١٩١٣ جاء فيها انه « لما كان الباب العالى تواقا للعمل حسب الرغبة التى اعربت عنها الحكومة الروسية وذلك بازالة أسباب الخلاف فى علاقاتها الحبية معها ولما كان كذلك راغبا فى ان تبرهن للحكومة الايرانية على حسن نواياه فيما يخص النزاع القائم حول هذا الموضوع بين المملكتين فقد قرر أن يقبل الخط الوارد ذكره فى مذكرتى السفير الروسى الآنفتى الذكر لاجل تحديد القسم الشمالى من الحدود التركية الايرانية من سردار بولاق الى بانه أى الى خط العرض درجة ٣٦ » ٠

ومع ذلك فان الحكومة العثمانية اقترحت ادخال بضعة تعديلات على الخط المقترح فى المذكرة الملحقة بمذكرة السفارة الروسية المرقمة ٢٦٤ والمؤرخة فى ٩ (٢٢) آب سنة ١٩١٢ ٠ ثم أن الحكومة المذكورة ذيلت مذكرتها « بمذكرة ايضاحية حول مسألة حدود زهاب والتدابير التى تستطيع قبولها بغية التوصل الى تفاهم نهائى عادل مع الحكومة الايرانية حول ذلك القسم من الحدود » ٠

فاجابت السفارة الروسية على ذلك بمذكرة رقمها ٧٨ وتاريخها ٢٨ آذار (١٠ نيسان) سنة ١٩١٣ قالت فيها انها احاطت علما بالبيان « الذى تعترف فيه الحكومة العثمانية بفحوى المادة الثالثة بالضبط من معاهدة السنة ١٨٤٨ المعروفة كمعاهدة ارضروم كمبدأ لتحديد منطقة ارارط بانه وذلك كما ورد فى المذكرة المرقمة ٢٦٤ والمؤرخة فى ٩ (٢٢) آب سنة ١٩١٢ » ٠ ماا بشأن التعديلات التى اقترحها الباب العالى فقد قالت السفارة الروسية (وبتحفظ حول مسألة اكرى جاى) بانه من الضرورة القصوى الا يجرى تغيير ما فى الخط المقرر فى مذكرتها المؤرخة فى ٩ (٢٢) آب سنة ١٩١٢ ٠ وأما فيما يتعلق بقضية زهاب فان السفارة الروسية مع كونها احتفظت بحق تقديم ملحوظات مفصلة عن تلك لحدود لكنها اعربت « عن رأيها حول المسودة العثمانية برمتها وهى على ما يلوح لها لا تضمن حفظ النظام والسلم على لحدود فى المستقبل ضمانة كافية » ٠ وفى اليوم العشرين من نيسان (٣ آيار) سنة ١٩١٣ بعثت السفارة الروسية الى صاحب السمو الامير سعيد حليم باشا بمذكرة مطابقة مشفوعة بمذكرة اخرى تلخص نقطة نظرها بشأن تحديد منطقة زهاب والاقاليم الواقعة الى الجنوب منها ٠

تم اعقبت هذه المذكرات محادثات بين المسيو ميشيل ده جيير والسير جيرارد لوثر من جهة وصاحب السمو المرحوم محمود شوكت باشا من الجهة الأخرى · ودونت نتائج هذه المحادثات فى مذكرة اضافية رفعها السفير الروسى الى الصدر الأعظم فى السادس من شهر حزيران سنة ١٩١٣ وكذلك فى مذكرة عدد ٣٤٥٥٣ بعث بها الباب العالى الى السفارة الروسية فى السادس والعشرين من شهر حزيران (٩ تموز) سنة ١٩١٣ والى السفارة البريطانية فى الثانى عشر من شهر تموز من السنة المذكورة ·

وفى التاسع والعشرين من شهر تموز سنة ١٩١٣ امضى « تصريح » فى مدينة لندن من قبل السير ادوارد غراى وابراهيم حقى باشا حول تحديد الحدود الجنوبية بين ايران وتركيا · وبعد ذلك شرعت السفارة الروسية فى تلخيص أسس ومبادىء التحديد المقرر فى المراسلات المتعلقة بالحدود التركية الايرانية وقدمت الى الباب العالى مذكرة عددها ١٦٦ وتاريخها ٥ (١٨) آب سنة ١٩١٣ كما أن السفارة البريطانية قدمت اليه مذكرة مطابقة فى عين التاريخ · فأجاب عليهما الباب العالى بمذكرة مطابقة مرقمة ٣٧٠٦٣ / ١١٣ ومؤرخة فى ٢٣ أيلول سنة ١٩١٣ ·

وقد أسفرت المفاوضات التى دارت فيما بعد عن موافقة مندوبى بريطانيا العظمى وايران وروسيا وتركيا الأربعة المفوضين على الأحكام التالية : —

اولا

لقد تم الاتفاق على تعريف الحدود بين ايران وتركيا على الوجه التالى : —

تبدأ الحدود فى الشمال من علامة الحدود رقم ٣٧ على الحدود التركية الروسية الكائنة بالقرب من سردار بولاق على الذروة الواقعة بين اراراط الكبير · ثم تنزل نحو الجنوب عن طريق الاكام تاركة على الجانب الايرانى وادى دربند وسارنوش ومياه يارم قيا التى ترتفع الى جنوب جبل أيوب بك · وتترك الحدود بعد ذلك بولاق باشى فى ايران وتستمر متبعة أعلى أكمة كائن طرفها الجنوبى فى الدرجة ٤٤ والدقيقة ٢٢ من الطول الغربى والدرجة ٣٩ والدقيقة ٢٨ من العرض الشمالى بوجه التقريب · ثم تسير متاخمة للجانب الغربى من الهور الممتد الى الغرب من يارم قيا وتقطع جدول صارى صو مارة بين اقريتى كرده باران (التركية) وبازركان (الايرانية) وبعد صعودها الى الاكمة الكائنة

الى جنوب بازركان تتبع الأصباب المســـماة صارانلى وزندولى وكركلمة وقانلى بابا وجدوكة خاسينا ودوه جى ·

وبعد دوه جى يقطع الخط وادى اكرى جاى فى مكان يعينه قومسيون التحـــديد وفقا لمبدأ بقاء الوضع على ما كان عليه سابقا تاركا قريتى نادو ونفطو فى ايران ·

وتقرر ملكية قرية قزيل قيا (بلاسور) بعد تدقيق وضعها الجغرافى على أن تعطى تركيـــا الجانب الغربى من الصب الموجـــود فى تلك المنطقـــة وتعطى ايران الجانب الشرقى منه ·

واذا ترك خط الحدود النهائى قسما من الطريق الذى يمر بالقرب من قزيل قيــا ويوصل منطقة بيازيد بمنطقة وان خارج الأراضى العثمانية فمن المفهوم بان الحكومة الإيرانية ستجعل المرور فى القسم المذكور من الطريق حرا للبرد العثمانية وللمسافرين والبضائع انما تستثنى من ذلك الجنود والقوافل العسكرية ·

وبعد ذلك يصعد خط الحدود الى الاكام التى تتكون منها الأصباب الآتية : قزيل زيارت وصـــارى جمنة ودومانلو وقره بورغا والتـــل الكائن بين حوضى ايرى جاى (الايرانى) ويللى كول (التركى) واودال داشى ورشكان والتـــل الكائن بين اخورك وتافرا وبواره بك زادان وجورى ماهينة وخضر بابا وآورستان ·

اما بشأن منطقة كوتور فيطبق البروتوكول المؤرخ فى ١٥ (٢٨) تموز سنة ١٨٨٠ المعروف باسم بروتوكول صارى قامشى بحيث تبقى قرية كه ولك فى تركيا وقرى بيله جك ورازى وغراتيل (هراتيل) ويلليك (الاثنتين) وبانا مريك فى ايران ·

وتتسلق الحدود وهى متبعة اكمة مير عبر جبل سوراوا وبعد أن تترك خانياكا على الجانب التركى تمر عن طريق الصبب المكون من مضيق بورش خوران وجبال هارافيل وبله كو وشيين تال وسار دول وكلامبى وكوبة وبركة بند وبرى خان واسكندر وآفينة وكوتول . ويبقى وادى بجركا فى تركيا وقريتا سارتك وسرو فى ايران وتمر الحدود من طرف كوتور الجنوبى على الاكمة التى ترتفع الى غربى قرية بهك الايرانية ثم تتصـــل وهى متبعة قمم جبل سربايدوست بذروة جبل زونت .

ومن جبل زونت تتبع الحدود بصورة متواصلة الصبب الكائن بين المناطق الايرانية المسماة تركه ور ودشت ومركة ور وسنجق جيكارى التركى اى ذرى جبـــال شيفه شيشالى وجبل جوفرى وجبل برديز وكوتاكوتر وكازى بك وايوح وماى حلانة والجبال الواقعة الى غربى دينار ودلامبر . وبعد ذلك تصل الى مضيق كله شين بعـد أن تترك الجانب الايرانى الحوض الذى يصب ـ بطريق اوشنو ـ فى بحيرة اورميه بما فى ذلك ينابيع نهر كادر (قادر) المعروف باسم آب سركادر (الواقع واديه الى الغرب من جبـل دلامبر والى الشرق من جبل كرده) .

والى الجنوب من مضيق كله شين تترك الحدود حوض لاونيه بما فى ذلك وادى جومى كلى (الواقع الى شرق زردة كل والى الجنوب الغربى من سبى رز) على الجانب الايرانى ومياه رواندوز على الجانب التركى . ثم تسير مارة بالقمم والمضايق التالية : سياه كوه وزرده كل وبوز وبارزين وسرشيوه وكوى خوجه ابراهيم . وبعد ذلك تواصل سيرها نحو الجنوب متبعة سلسلة جبال قنديل الرئيسية وتاركة على الجانب الايرانى أحواض سواعد نهر كيالو من الجانب الايمن : وهى جـداول بردانان وخضر آفا وتلى خاتان .

ومن المفهوم بأن العشائر التركية التى من عادتها قضاء فصل الصيف فى الوديان المذكورة عند ينابيع كادر ولاوينه ستستمر على التمتع بمراعيها وفق عين لشروط المعمول بها فى الماضى .

وبعد أن يصل خط الحدود قمة سرقلة (قلعة) كلين يمر من فوق زنوى جاسوسان ومضيق بامين ويقطع نهر وزنه بالقرب من جسر برده بردان . وهناك على قومسيون التحديد أن يبت فى مصير قرية شينيه وفقا لمبدأ بقاء الوضع على ما كان عليه سابقا .

ثم بعد برده يصعد خط الحدود الى سلسلة جبال فوكابا باكير وبرده سبيان وبرده عبد الفتح ومضيق كانى رش . وبعد ذلك يتبع الصبب المكون من لاكاف كرد ودونلرى ومضيق خان احمد وطرف تبة سالوس الجنوبى . وهكذا تمر الحـــدود ما بين قرية قاندول (التركية) وقريتى كيش كيشيوا ومازنى اوه (الايرانيتين) وتصل الى مجرى نهر كيالو (الزاب الصغير) .

وبعد اتصال خط الحدود بمجرى نهر كيالو يسير متبعا اياه مع المجـرى وتاركا الضفة اليمنى منه (آلان عجم) على الجانب الايرانى والضفة اليسرى على الجـــانب التركى . وعند وصول الحدود الى مصب نهر خيله رشى (احد ســواعد نهر كيالو فى الجانب الايسر) تسير مع مجرى النهر المذكور تاركة قريتى آلوت وكويرو الخ .. على الجانب الايرانى ومنطقة آن مايونت على الجانب التركى . وتترك مجرى النهر المذكور عند طرف جبل بالو الجنوب الغربى صاعدة الى الطرف الشــمال الغربى من سلسلة جبال سور كوف الممتدة لى الجنوب من ذلك النهر وتمر على اكمة ســور كوف تاركة منطقتى سويل وشبوه كل على الجانب التركى .

وعند وصول الحدود الى النقطة الفلكية من جبال سور كوف الواقعة تقريبا فى الدرجة ٣٥ والدقيقة ٤٩ من العرض الشمالى تمر فى اتجاه قرية جامبارو التى سيقرر مصـــيرها من قبل قومسيون التحديد وفقا لمبدأ بقاء الوضع على ما كان عليه سابقا . ثم يصعد الخط الى سلسلة الجبال التى تؤلف الحدود بين منطقة بانه الايرانية ومناطق قزلجة وكالاش وبردكجل وبشت هالكاجال ودوبرا وباراجال وسبى كانا التركية . وبعد ذلك يصل الى مضيق نوخويان . ومن ثم تنثنى الحدود — وهى متبعة الصبب — تارة نحو الجنوب وطورا نحو الغرب مارة بطريق قمم فول كوزا وبشت شهيدان وهزار وبالى كدر وقلة ملائك وكوه كوسه رشه وفاصلة منطقة تره تل التركية من منطقة مر يوان الايرانيـــــــة .

ومن هناك تتبع الحدود جدول خليل آباد سائرة عكس المجرى الى حد ملتقاه بنهر جام قزلجة وبعد ذلك تتبع نهر جّام قزلجة مع المجرى لحد مصب ساعده الايسر الذى يصب من قرية بناوه سوته . ثم تتبع جدول بناوه سوته مع المجرى وتصل — بطـريق مضيقى كله نافى صار وكله بيران — الى مضيق سودين المعروف على ما يظهر باســم جيكان (أو جاقان) .

ثم تصبح سلسلة جبال اورامان الرئيسية الممتدة الى الجهة الشمالية الغربيـــــة والجنوبية الشرقية عبارة عن الحدود بين ايران وبين منطقـــــة شهر زور العثمانية . وتستمر الحدود عند بلوغها قمة كيماجار (الى الجنـــوب الشرقى من قلة سلم والى الشمال الغربى من شهر اوراماه) فى اتباع الاكمة الرئيسية الى محل تفرعها على الجانب

الغربى وترتفع الى شمال وادى ديروولى تاركة قريتى هانه كرمله ونوسود على الجانب الايرانى ٠ أما فيما يخص القسم الباقى من الحدود لحد نهر سيروان فعلى القومسيون أن يقوم بصورة استثنائية بتحديد الأرض آخذا بنظر الاعتبار — التغييرات التى طرأت هناك ما بين السنة ١٨٤٨ والسنة ١٩٠٥ .

والى جنوب نهر سيروان تبدأ الحدود بالقرب من مصب نهــــر جام زمكان مارة بطريق جبل بيزل ومنه تنزل الى مجرى مياه جام رزشك . ثم بعــــد أن تتبع الصبب الواقع بين المجرى المار الذكر وبين النهر الذى يسمى (حسب الخريطة المطابقة) بشت غراو عند ارتفاعه الى جبل بنديمو تعود فتصعد الى قمة الجبل المذكور .

وبعد أن تسير الحدود متبعة اكمة بمو تعود فتتبع عند بلوغها سلسلة جبال دربند دهو (دربندهور) نهر زنجينة (عباسان) لحد أقرب نقطة من قمة شوالدير (نقطــــة فلكية) واقعة الى أسفل قرية ماميشان . وتصعد الحدود الى هذه القمة وبعد ذلك تمر بطريق ذرى التلال التى يتألف منها صبب بين سهول تليكو وسرقله ومن ثم بطريق جبال خولى بافان وعلى بك وبندر كوك كرميك وسنكلر واسينكوران لحد النقطة الكائنة فى مضيق تنك حمام الواقع مقابل طرف جبال كراويز الشمالى ٠

ومن هناك تتبع الحدود مجرى نهر قوراطو لحد القرية المسماة بذلك الاسم٠ وعلى قومسيون التحديد أن يقرر مصير قرية قوراطو بالنظر الى قوميات سكانها . ومن ثم تمر الحدود بطريق الطريق الواقع بين قريتى قوراطو وكوشى كورك وبعد ذلك تسير على محاذاة ذرى جبلى كيشكه وآق داغ وبعد أن تترك قلة سبزى فى ايران تنثنى نحــو الجنوب لحد مخفر كانى باز العثمانى . ومن هناك تتبع نهر الوند مع المجرى لحد النقطة الكائنة على بعد مسافة ربع ساعة نزولا من ملتقاه بجدول كيلان . ومن تلك النقطـــة تستمر فى سيرها لحد نقطة صو متاخمة آب بخشان (وفق الخط المتفق عليه مع محمود شوكت باشا والمبين بصورة تقريبية على الخريطة الملحقة بمذكرة السفارة الروســــية المؤرخة فى ٥ (١٨) آب سنة ١٩١٣) تاركة نقط مقاطعسى فى تركيا . وبعد أن يتبع خط الحدود جدول نفط دره سى ويبلغ نقطة تقاطع طريق قصر شيرين والجدول المذكور يعود فيواصل سيره على محاذاة جبال واربلند وكونزغ كيليشوفان وجبل غربى (تتمة جبل حمر يناجين) . وعلى قومسيون التحديد أن يضع اتفاقية خاصــــة لتوزيع مياه كنكير (سومر) ما بين الفرقاء ذوى الشأن ٠

وبما انه لم يتم البحث بالتفصيل فى قسم الحدود الواقع بين منـــدلى والنقطة الشمالية للخط المبين فى التصريح المنعقد فى لندن بتاريخ ٢٩ تموز (شويب) بين حقى باشا والسير ادوارد غراى فان الموقعين فى ادناه يتركون البت فى ذلك القسم من الحدود لقومسيون التحـــديد .

واما بشأن التحديد من منطقة حويزة لحد البحر فان خط الحدود يبدأ من المحـل المسمى أم الشر حيث ينفصل خور الدول من خور العظيم . وتقع أم الشر الى شرق محل اتصال خور المحسين بخور العظيم على بعد تسعة أميال الى الشمال الغربى من بساتين الواقعة فى الدرجة ٣١ والدقيقة ٤٣ والثانية ٢٩ من العرض الشمالى . ومن أم الشر ينثنى الخط نحو الجهة الجنوبية الغربية لحد الدرجة ٣٥ من الطول الغربى تقريبا فى الطرف الجنوبى من بحيرة صغيرة تعرف باسم العظيم أيضا وواقعة فى خور العظيم على بعد مسافة قصيرة الى الشمال الغربى من شويب . ومن هذه النقطة يواصـــل الخط سيره نحو الجنوب على محاذاة الهور لحد الدرجة ٣١ من العرض الشمالى ويتبعه سائرا نحو الشرق تماما لحد النقطة الكائنة الى الشمال الشرقى من - كشك بصره بحيث يترك هذا المحل فى الأراضى العثمانية . ثم يسير الخط من هذه النقطة نحو الجنوب لحد قناة خيان الى نقطة كائنة بين نهرى ديايى ونهر أبو العرابيد ويتبع منتصف مجرى قناة خيان لحد نقطة اتصال القناة المذكورة بشط العرب عند مصب نهر ناز الله . ومن هذه النقطة تتبع الحدود مجرى شط العرب لحد البحر تاركة النهر وجميع الجزر الموجودة فيه تحت السيادة العثمانية مع مراعاة الشروط والاستثناءات التالية : -

(أ) يعود ما يلى الى ايران : ١ - جزيرة محله والجزيرتين الواقعتين بين جزيرة محله والضفة اليسرى من شط العرب (ساحل عبادان الايرانى) . ٢ - الجزر الأربع الواقعة بين شطيط وماوية والجزيرتين الكائنتين مقابل منـكوحى والتابعتين لجزيرة عبادان . ٣ - جميع الجزر الصغيرة الموجودة الآن أو التى قد تتكون فيما بعد مما يتصل عند هبوط الماء بجزيرة عبادان او بالأراضى الايرانية الى اسفل نهر ناز الله .

(ب) يبقى ميناء ومرسى المحمرة الحديثين - الى فوق والى أسفل ملتقى نهـر كارون بشط العرب - تحت السلطة الايرانية عملا بما جاء فى معاهدة أرضروم . بيد انه ليس لهذا الأمر مساس بحق تركيا فى استعمال هذا القسم من النهر كما أن ســلطة ايران سوف لا تتناول أقسام النهر الواقعة خارج المرسى .

(جـ) لا يجرى تغيير ما فى الحقوق والتقاليد والعادات الحالية فب
ةلأسماك فى الضفة الايرانية من شط العرب . وتشمل كذلك كلمة (ضفة
تتصل بالساحل وقت هبوط الماء .

(د) لا تتناول السلطة العثمانية أقسام الساحل الايرانى ا
مؤقتا عند ارتفاعها أو من جراء عوامل عرضية أخرى . ولا تم
ـ على جانبها ـ على الأراضى التى قد تصبح مكشوفة بصورة
يكون مستوى هبوط الماء دون الحد الاعتيادي .

(هـ) يستمر شيخ المحمرة على التمتع وفق احكام القوانين العثمانية بحـــــر
ملكيته فى الأراضى العثمانية .

ان خط الحدود المقرر فى هذا التصريح مبين بالأحمر على الخارطة الملحقة بهـذا
البروتوكول (١) .

أما أقسام الحدود التى لم تذكر بالتفصيل فى خط الحدود المذكور فى أعلاه فتقرر
على اساس مبدأ بقاء الوضع على ما كان عليه سابقا وذلك عملا بمنطوق المادة الثالثة من
معاهدة أرضروم .

ثانيـــــا

يتم تحديد خط الحدود على الأرض من قبل قومسيون تحديد مؤلف من قومسيرى
أربع حكومات يمثل كلا منها قومسير واحد ونائب قومسير . ويحل النائب محل القومسير
فى القومسيون اذا دعت الحاجة .

ثالثـــــا

على قومسيون التحديد عند قيامه بالمهمة الملقاة عليه أن يمتثل : —

١ ـ احكام هذا البروتوكول .

٢ ـ النظام الداخلى للقومسيون المرفق بهذا (الذيل من هذا البروتوكول) .

رابعـــــا

اذا تضاربت آراء القوميسرين بشأن خط الحدود فى اى قسم كان من الحدود فعلى
القوميسرين العثمانى والايرانى أن يقدما فى ظرف ثمانى وأربعين ساعة بيانا خطيا كل
بنقطة نظره الى القوميسرين البريطانى والروسى وعلى هذين القوميسرين أن يعقـــدا

---

(١) لم ترفق هذه الخارطة بمذكرة الحكومة الايرانية ـ السكرتيرية .

اجتماعا خصوصيا ويصدرا قرارا فى المسائل المختلف عليها ويبلغا قرارهما الى زميلهما العثمانى والايرانى . ويجب أن يدرج هذا القرار فى محضر الاجتماع العام وان يعترف به كأنه يقيد الأربع حكومات كلها .

خامسا

حالما يتم تحديد قسم من الحدود يعتبر ذلك القسم كأنه مثبت نهائيا ولا يكون عرضة لأى تدقيق أو تعديل فيما بعد .

سادسا

يحق للحكومتين العثمانية والايرانية أن تؤسسا أثناء سير اعمال التحديد مخافر على الحدود .

سابعا

من المفهوم بان الامتياز الممنوح بموجب المعاهدة المؤرخة فى الثامن والعشرين من شهر آيار سنة ١٩٠١ (٩ صفر سنة ١٣١٩ هجرية) من قبل حكومة صاحب الجلالة الامبراطورية شاه ايران الى وليم نوكس دارسى والذى تشغله الآن (عملا بمنطوق المادة التاسعة من تلك المعاهدة) شركة النفط الانجليزية الفارسية المحدودة الكائن محل ادارتها المسجل فى ونجستر هاوس بلندن (ويشار الى هذه المعاهدة فى أدناه بكلمة « المعاهدة » فى الذيل « ب » من هذا البروتوكول) سوف يبقى نافذ العمل بصورة تامة مطلقة فى كل الأراضى التى حولتها ايران الى تركيا بناء على أحكام هذا البروتوكول والذيل « ب » منه .

ثامنا

توزع الحكومتان العثمانية والايرانية على موظفى الحدود عددا كافيا من نسخ خريطة التحديد التى رسمها القومسيون مع نسخ كافية من ترجمة البيان المنصوص عليه فى المادة الخامسة عشرة من نظام القومسيون الداخلى لكنه من المفهوم بأن النص الفرنسى وحده هو النص المعول عليه .

الامضاءات

لويس مالت

احتشام السلطنة محمود

ميشيل ده جيير

سعيد حليم

★ ★ ★

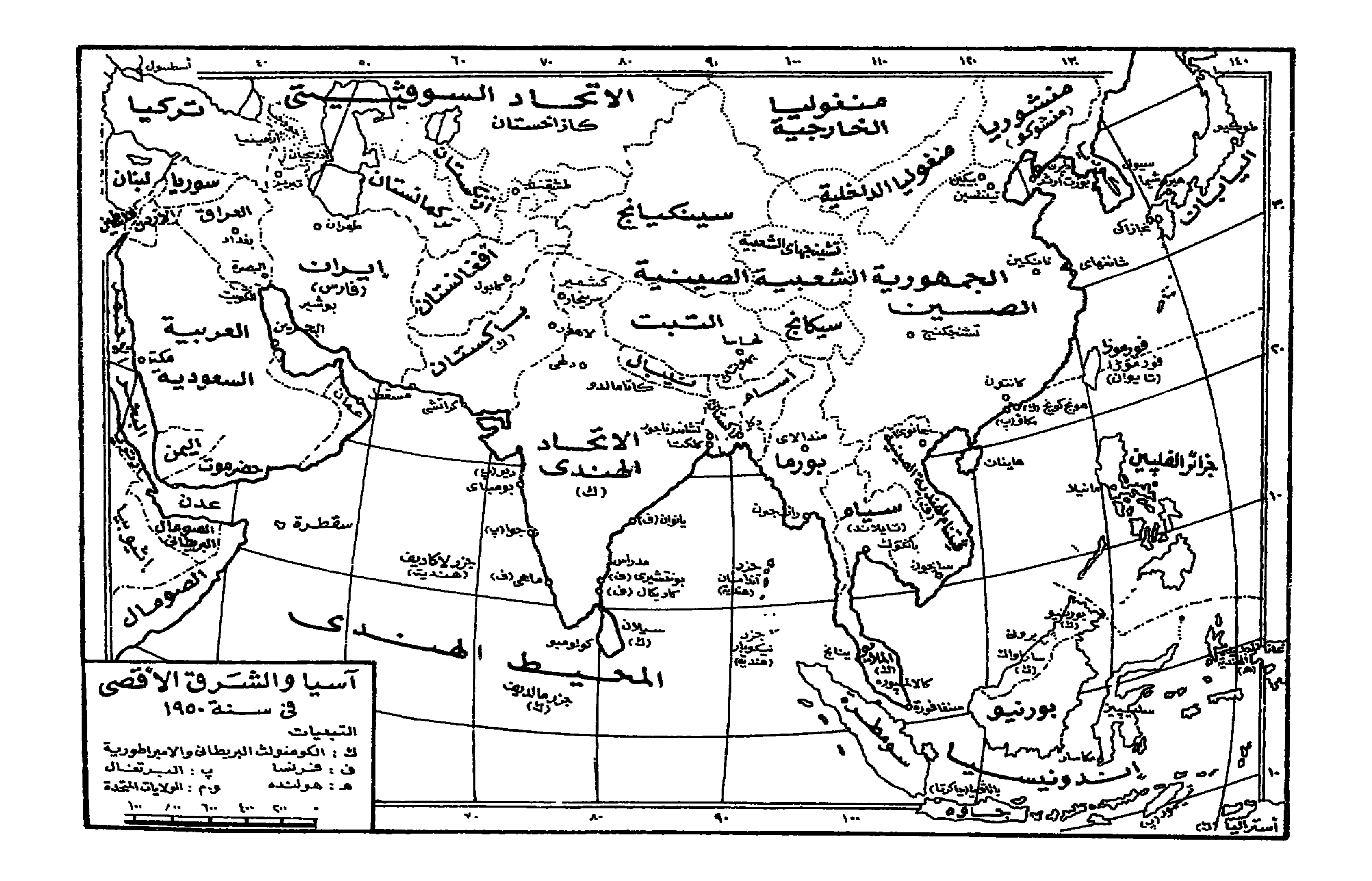
آسيا والشرق الأقصى
فى سنة ١٩٥٠
التبعيات
ك : الكومنولث البريطانى والامبراطورية
ف : فرنسا
پ : البرتغال
هـ : هولنده
و.م : الولايات المتحدة
الاتحاد السوفيتى
كازاخستان
تركيا
سوريا
لبنان
العراق
بغداد
البصرة
الكويت
ايران
(فارس)
طهران
بوشير
البحرين
العربية
السعودية
مكة
اليمن
حضرموت
عدن
سقطرة
مسقط
عمان
الصومال
الصومال البريطانى
أفغانستان
كابول
باكستان
كراتشى
لاهور
دلهى
كشمير
سرينجار
التبت
لهاسا
نيبال
كاتماندو
الاتحاد
الهندى
(ك)
بومباى
مدراس
كلكتا
سيلان
كولومبو
المحيط
الهندى
سينكيانج
منغوليا
الخارجية
منغوليا الداخلية
منشوريا
(منشوكو)
اليابان
الجمهورية الشعبية الصينية
الصين
سيكانج
بورما
سيام
(تايلاند)
بانكوك
كانتون
هونج كونج
فورموزا
هاينان
جزائر الفلپين
مانيلا
بورنيو
سومطرة
إندونيسيا
جاوه
سنغافورة
استراليا

المصـــادر الوثائقية

- وثائق عابدين بالقاهرة ، نقلت الى القلعة

Public Record Office

المراجـــع العربيـــة

- احمد الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم . مكتبة الأداب ، القاهرة .
- أحمد جمال باشا : مذكرات . ترجمة احمد شكرى ، القاهرة ١٩٢٣ .
- احمد عزت الأعظمى : القضية العربية . ستة أجزاء ، بغداد .
- احمـــد طربين : الوحدة العربية . القاهرة .١٩٦٠ ،
- الماوتلن : عبد الحميد ظل الله على الأرض .
- بيتشـــون : بواعث الحرب العالمية الأولى فى الشرق الأدنى . ترجمة عزة دروزة .
- جمال الدين الشيال : الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق. معهد الدراسات العربية العليا (جزءان) .
- حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط . القاهرة .
- ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية . القاهرة .
- عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث . القاهرة ، ١٩٦٨ .
- عبد العزيز نوار : داود باشا ، القاهرة ١٩٦٨ .
- عبد العزيز نوار : مصر والعراق . القاهرة ١٩٦٨ .
- عبد العزيز نوار : المصالح البريطانية فى انهار العراق . القاهرة ١٩٦٨ .
- عبد العزيز نوار : البابية والبهائية فى العراق . مجلة الجمعية التاريخية بالقــاهرة ١٩٦٤ .
- عبد العزيز نوار : دور العراق فى حرب القرم ، مجلة الجمعية التاريخية بالقـــاهرة ١٩٦٦ .

ـ عبد العزيز نوار : تاريخ العرب المعاصر . بيروت ١٩٧٣ .

ـ عبد العزيز نوار : تاريخ أوروبا الحديث من الثورة الفرنسية الى الحرب البروسية .

ـ عبد العزيز نوار : تاريخ أوروبا المعاصر .

ـ عبد العزيز نوار : تاريخ الولايات المتحدة الامريكية .

ـ عبد العزيز نوار : وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث . جامعة لبنان العربية .

ـ عبد العزيز نوار : العلاقات العراقية الايرانية ؛ دار الفكر العربى .

ـ عبد العزيز نوار : الجذور التاريخية للحرب العراقية الايرانية .

ـ عبد الرحمن السويدى : حديقة الزوراء فى سيرة الوزراء (مخطوط فى دار الكتب بالقاهرة) .

ـ محمد فاضل : الحرب فى صدر البها والباب . القاهرة .

ـ محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية . القاهرة .

ـ محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية (١٨٥٦) . معهد الدراسات العربية العليا . القاهرة .

ـ محمد رفعت : التيارات السياسية فى البحر المتوسط . دار المعارف . القاهرة .

المراجع الاوربية الوثائقية

— Aitchison, C. :

A Collection of Treaties, engagements and sanads relating to India and Neighbouring Countries. 12 Vols. Calcutta 1892.

— Hertslet, Sir Edward. :

Treaties between Great Britain and Persia and between Persia and other Foreign Powers in Force on the 1st April 1891. London 1891.

— Hurewitz, J. :

Diplomacy in the Near and Middle East, 2 Vols. New York 1958.

— Lorimer, J. G. :

Gazetteer of the Persian Gulf, Vol. I, Parts I-II. Calcutta, Superintendent Government Printing. India 1905.

— Parliamentary Debated (Hansard's)

— Parliamentary Papers.

المؤلفـــات الاروبية

— Andrew, W. P. :

Indian Railways as connected with British Empire in the East. 4 th Edition. London 1884.

— Ali, K. :

A Study in Moslem Rule in Indo-Pakistan. 3 rd Edition. The Famous Publishers. Decca 1963.

— Arnold, A. :

Through Persia By Caravan. 2Vols. Tinsley Brothers. London 1877.

— d'Avrile. A. :

La Golfe Persique, route de l'Inde et de Chine. Paris 1908.

— Baha Ullah,

La Livre de la Certitude. Paris 1904.

— Chand, Dr. Tara :

Society and State in Mughal Empire. The Publication Divisions. Ministry of Information. India 1961.

— Curzon, Hon George N. :

Armenia. A year at Erzroom and on the Frontiers of Russia, Turkey and Persia, John Murray. London 1854.

— Curzon, Hon George N. :

Persia and the Persian Question. 2 Vols. London 1928.

— Curzon, Hon. George N. :

Russia in Central Asia in 1889 and the Anglo-Russian Question. Longmans. London 1889.

— Dupré, A. :

Voyage en Perse. Paris 1819.

— Edwards, S. and Garratt, H. :

Mughal Rule in India. Chand & Company 1956.

— Fraser - Tytler :

Afghanistan. A Study of Political Development in Central Asia. Oxford University Press 1950.

— Flandin, E. :

Voyage en Perse. Par Ordre de M.L. Ministre des Affaires Etrangères. 2 Tomes. Paris 1851.

— Garrett, G. :

The Legacy of India. London 1937.

— Huart, C. :

Histoire de Baghdad dans les Temps Modernes. Paris 1901.

— Huart, C. :

Les Calligraphes et les Ministuristes de l'Orient Musulman. Paris 1908.

— Huart, C. :

La Religion de Bab. Reformateur Persan du XIX Sciecle. Ernest Leroux. Paris 1889.

— Hoskins, H. :

British Routes to India. New York 1928.

— Hunt, G. H. :

Outram and Havelock's Persian Compaigne, London 1858.

— Invasion of India from Central Asia. London, Richard Bentley and Son. Published in Ordinary to Her Majesty the Queen, 1879.

— Latham, G. :

India to England. Proposed New Overland route Via Turkish Arabia. 1870.

— Layard, H. :

Nineveh and its Remains. 2 Vols. London 1849.

— Layard, H. :

Early Adventures in Persia London 1887.

— Lynch, B. :

Note on Steam Communication between England and India. Aug. 1837.

— Low, C. R. :

History of the Indian Navy (1613-1863). 2 Vols. London. 1877.

— Morand, R. :

La Routes des Indes. Paris 1936.

— Morland, (W.), and Chatterjee (A.) :

A History of India. 2nd Edition. London 1944.

— Morland, W. :

India at the Death of Akbar. An Economic Study. Delhi 1962.

— Kisrawi Tibrizi and Sayyid Ahmed :

Two Hundered Years History of Khus. Tehran 1934.

— Panikkar, K. :

Asia and Western Dominance. Allen and Unwin. London 2nd Impression 1954.

— Pharood. J. B. :

Progress and Present Position of Russia in the East. Madras MDCCCXXXVIII (1838).

— Phelps, M. :

Life and Teaching of Abbas Effendi. A Study of the Religion of the Babis or Bahais. London 1903.

— Pichon, J. :

Les Origines Orientales de la Guerre Mondiale. Paris 1937.

— Prasad, I. :

A Short History of the Muslim Rule in India. Allahabad. 1933.

— Prawdin, M. :

The Mongol Empire. Its Rise and Legacy. Allen and Unwin. 2nd Impression. 1941. Translated by Eden and Cedar Paul.

— Rolandshay, Earl of :

The Life of Lord Curzon. Being the Authorized Biography of George Nathaniel Marquess Curzon of Kedleston. K.G. 3 Vols. London. Ernest Benn. Ltd. 1928.

— Rawlinson, H. :

Notes on a March (Zohab), at the Foot of Zagros, along the Mountains to Khuzistan (Susiana), and from Thence through the Province of Luristan to Kirmansheh in the year 1836. (The Journal of the Royal Geographical Society of London. Volume 9th 1839. Part I.).

— Rouire, Dr. :

La Rivalité Anglo-Russe au XIXe Sc. En Asie, Golfe Persique Frontière de l'Indes. Paris 1908.

— Smith, V. A. :

The Oxford History of India. 3rd Edition. Edited by P. Spears. Clarendon Press. London 1961.

— Sykes, P. :

A History of Persia. 2 Voles. London 1951.

— Wilson, A. :

The Persian Gulf. London 1954.

خاتمــــــــــة

تناولنا فى هـــــذا الكتاب تاريخ ثلاث شـــــــعوب اســــلامية : (الدولة العثمانية) منذ كانت فى تركيا ثم البلقان ثم مسيطرة على الغالبية العظمى من البــــلاد العربية ، والدولة الفارسية ، ومسلمو الهند ، وكل ذلك بين القــرنين السادس عشر واوائل القرن العشرين .

وسنتناول فى الجزء الثانى من تاريخ الشعوب الاسلامية مجموعة من الشــــعوب الاسلامية فى جنوب شرق آسيا ، ونسير فى نفس الوقت فى اصدار تاريخ الشعـــــوب الاسلامية فى المشرق العربى والمغرب العربى خلال نفس تلك الفترة ، وقد صدر تاريخ العراق منذ عدة سنوات ونحن بصدد اصدار تاريخ الشام الحديث .

المحتوى

signature of the present Agreement, shall be devoted to the same purpose as in the past.

It is equally understood that the revenues of the Persian customs of Farsistan and of the Persian Gulf, as well as those of the fisheries on the Persian shore of the Caspian Sea and those of the Posts and Telegraphs, shall be devoted, as in the past; to the service of the loans concluded by the Government of the Shah with the Imperial Bank of Persia up to the date of the signature of the present Agreement.

V. In the event of irregularities occuring in the amortization or the payment of the interest of the Persian loans concluded with the « Banque d'Escompte et des Prêts de Perse » and with the Imperial Bank of Persia up to the date of the signature of the present Agreement, and in the event of the necessity arising for Russia to establish control over the sources of revenue guaranteeing the regular service of the loans concluded with the first-named bank, and situated in the region mentioned in Article II of the present Agreement, or for Great Britain to establish control over the sources of revenue guaranteeing the regular service of the loans concluded with the second-named bank, and situated in the region mentioned in Article I of the present Agreement, the British and Russian Governments undertake to enter before-hand into a friendly exchange of ideas with a view to determine, in agreement with each other, the measures of control in question and to avoid all interference which would not be in conformity with the principles governing the present Agreement.

roads, transport, insurance, & c. — beyond a line starting from Kasr-i-Shirin, passing through Isfahan, Yezd, Xakhk, and ending at a point on the Persian frontier at the intersection of the Russian and Afghan frontiers, and not to oppose, directly of indirectly, demands for similar Concessions in this region which are supported by the Russian Government. It is understood that the above-mentioned places are included in the region in which Great Britain engages not to seek the Concessions referred to.

II. Russia, on her part, engages not to seek for herself and not to support, in favour of Russian subjects, or in favour of the subjects of third Powers, any Concessions of a political or commercial nature — such as Concessions for railways, banks, telegraphs, roads, transport, insurance, & c. — beyond a line going from the Afghan frontier by way of Gazik, Birjand, Kerman, and ending at Bunder Abbas, and not to oppose, directly or indirectly, demands for similar Concessions in this region which are supported by the British Government. It is understood that the above-mentioned places are included in the region in which Russia engages not to seek the Concessions referred to.

II Russia, on her part, engages not to oppose, without previous arrangement with Great Britain, the grant of any Concessions whatever to British subjects in the regions of Persia situated between the lines mentioned in Articles I and II.

Great Britain undertakes a similar engagement as regards the grant of Concessions to Russian subjects in the same regions of Persia.

All Concessions existing at present in the regions indicated in Articles I and II are maintained.

IV. It is understood that the revenues of all the Persian customs, .with the exception of those of Farsistan and of the Persian Gulf, revenues guaranteeing the amortization and the interest of the loans concluded by the Government of the Shah with the « Banque d'Escompte et des Prêts de Perse » up to the date of the

-11-

ANGLO-RUSSIAN CONVENTION ON PERSIA, AFGHANISTAN AND TIBET

18 31 August 1907

AGREEMENT CONCERNING PERSIA

The Governments of Great Britain and Russia having mutually engaged to respect the integrity and independence of Persia, and sincerely desiring the preservation of order throughout that country and its peaceful development, as well as the permanent establishment of equal advantages for the trade and industry of all other nations;

Considering that each of them has, for geographical and economic reasons, a special interest in the maintenance of peace and order in certain provinces of Persia adjoining, or in the neighbourhood of, the Russian frontier on the one hand, and the frontiers of Afghanistan and Baluchistan on the other hand ;and being desirous of avoiding all cause of conflict between their respective interests in the above-mentioned provinces of Persia;

Have agreed on the following terms :—

I. Great Britain engages not to seek for herself, and not to support in favour of British subjects, or in favour of the subjects of third Powers, any Concessions of a political of commercial nature — such as Concessions for railways, banks, telegraphs,

against Persia, and the British Govenrment engages further that as soon as the stipulations in regard to the evacuation by the Persian troops of Herat and the Afghan territories, as well as in regard to the reception of the British mission at Tehran, shall have been carried into full effect, the British troops shall without delay, be withdrawn from all ports, places, and islands belonging to Persia; but the British Govenrment engages that, during this interval, nothing shall be designedly done by the Commander of the British troops to weaken the allegiance of the Persian subjects towards the Shah, which allegiance it is, on the contrary, their earnest desire to confirm; and further the British Government engages that, as far as possible, the subjects of Persia shall be secured against inconvenience from the presence of the British troops, and that all supplies which may be required for the use of those troops, and which the Persian Government engages to direct its authorities to assist them in procuring, shall be paid for, at the fair market price, by the British Commissariat immediately on delivery.

appointed by the British Government, shall examine into and decide upon the pecuniary claims of all British subjects upon the government of Persia, and shall pay such of those claims as may be pronounced just, either in one sum or by instalments, within a period not exceeding one year from the date of the award of the Commissioners, and the same Commissioners shall examine into and decide upon the claims on the Persian Government of all Persian subjects, or the subjects of other powers, who, up to the period of the departure of the British mission from Tehran, were under British protection, which they have not since renounced.

ART. 12. Saving the provisions in the latter part of the preceding Article, the British Government will renounce the right of protecting hereafter any Persian subject not actually in the employment of the British mission, or of British Consuls-General, Consuls, Vice-Consuls, or Consular Agents, provided that no such right is accorded to or exercised by any other foreign powers; but in this, as in all other respects, the British Government requires, and the Persian Government engages, that the same privileges and immunities shall in Persia be conferred upon and shall be enjoyed by the British Government, its servants and its subjects, and that the same respect and consideration shall be shown for them, and shall be enjoyed by them, as are conferred upon and enjoyed by and shown to the most favoured foreign government, its servants and its subjects.

ART. 13. The high contracting parties hereby renew the agreement entered into by them in the month of August 1851 (Shawal 1267) for the suppression of the slave trade in Persian Gulf, and engage further that the said agreement shall continue in force after the date at which it expires, that is, after the month of August 1862, for the further space of ten years and for so long afterwards as neither of the high contracting parties shall, by a formal declaration, annul it; such declaration not to take effect until one year after it is made.

ART. 14 Immediately on the exchange of the ratifications of this Treaty, the British troops will desist from all acts of hostility

of the Shah which may cross the frontier for the above-mentioned purpose shall retire within its own territory as soon as its object is accomplished, and that the exercise of the above-mentioned right is not to be made a pretext for the permanent occupation by Persia, or for the annexation to the Persian dominions, of any town or portion of the said States.

ART. 8. The Persian Government engages to set at liberty without ransom, immediately after the exchange of the ratifications of this Treaty, all prisoners taken during the operations of the Persian troops in Afghanistan, and all Afghans who may be detained either as hostages or as captives on political grouonds in any part of the Persian dominions shall, in like manner, be set free; provided that the Afghans, on their part, set at liberty, without ransom, the Persian prisoners and captives who are in the power of the Afghans.

Commissioners on the part of the two contracting powers shall, if necessary, be named to carry out the provisions of this Article.

ART. 9. The high contracting parties engage that, in the establishment and recognition of Consuls-General, Consuls, Vice-Consuls and Consular Agents, each shall be placed in the dominions of the other on the footing of the most favoured nation; and that the treatment of their respective subjects and their trade shall also, in every respect, be placed on the footing of the treatment of the subjects and commerce of the most favored nation.

ART. 10. Immediately after the ratifications of this Treaty have been exchanged the British mission shall return to Tehran, when the Persian Government agrees to receive it with the apologies and ceremonies specified in the separate note signed this day by the plenipotentiaries of the high contracting parties.

ART. 11. The Persian Government engages, within three months after the return of the British mission to Tehran, to appoint a Commissioner, who in conjunction with a Commissioner to be

ART. 5. His Majesty the Shah of Persia engages further to take immediate feasures for withdrawing from the territory and city of Herat, and from every other part of Afghanistan, the Persian troops and authorities now stationed therein; such withdrawal to be effected within three months from the date of the exchange of the ratifications of this Treaty.

ART. 6. His Majesty the Shah of Persia agrees to relinquish all claims to sovereignty over the territory and city of Herat and the countries of Afghanistan, and never to demand from the Chiefs of Herat, or of the countries of Afghanistan, any marks of obedience, such as the coinage, or «Khootbeh», or tribute.

His Majesty further engages to abstain hereafter from all interference with the internal affairs of Afghanistan. His Majesty promises to recognise the independence of Herat and of the whole of Afghanistan, and never to attempt to interfere with the independence of those States.

In case of differences arising between the government of Persia and the countries of Herat and Afghanistan, the Persian Government engages to refer them for adjustment to the friendly offices of the British Government, and not to take up arms unless those friendly offices fail of effect.

The British Government, on their part, engage at all times to exert their influence with the States of Afghanistan, to prevent any cause of umbrage being given by them, or by any of them, to the Persian Government; and the British Government, when appealed to by the Persian Government, in the event of difficulties arising, will use their best endeavours to compose such differences in a manner just and honourable to Persia.

ART. 7. In case of any violation of the Persian frontier by any of the States referred to above, the Persian Government shall have the right, if due satisfaction is not given, to undertake military operations for the repression and punishment of the aggressors; but it is distinctly understood and agreed to that any military force

-10-

TREATY OF PEACE (PARIS) : BRITAIN AND PERSIA

4 March 1857

ART. 1 From the day of the exchange of the ratifications of the present Treaty there shall be perpetual peace and friendship between Her Majesty the Queen of the United Kingdom of Great Britain and Ireland on the one part and His Majesty the Shah of Persia on the other, as likewise between their respective successors, dominions and subjects.

ART. 2. Peace being happily concluded between their said Majesties, it is hereby agreed that the forces of Her Majesty the Queen shall evacuate the Persian territory, subject to conditions and stipulations hereafter specified.

ART. 3. The high contracting parties stipulate that all prisoners taken during the war by either belligerent shall be immediately liberated.

ART. 4. His Majesty the Shah of Persia engages, immediately on the exchange of the ratifications of this Treaty, to publish a full and complete amnesty, absolving all Persian subjects who have in any way been compromised by their intercourse with the British forces during the war from any responsibility for their conduct in that respect, so that no persons, of whatever degree, shall be exposed to vexation, persecution, or punishment on that account.

between Russian subjects the examination and the decision of the case will be the exclusive concern of the Russian Minister, Chargé d'Affaires or Consul by virtue of the jurisdiction over their nationals conferred upon them.

If a Russian subject is found implicated with individuals of another nation in a criminal suit he cannot be pursued nor harried in any manner without proofs of his participation in the crime, and in this case even as in that where a Russian subject may be accused of direct culpability, the courts of the country may only proceed to take cognizance and give judgment concerning the crime in the presence of a delegate of the Russian Mission or Consulate, and if they are not to be found at the place where the crime has been committed, the local authorities will transport the delinquent there where there is a constituted Russian Consul or Agent

Testimonies for the prosecution and for the defense of the accused will be faithfully collected by the Hakim and by the Judge of the ocality, and invested with their signature; transmitted in this form there where the crime has to be judged, these testimonies will become authentic documents or parts of the suit unless the accused proves clearly their falsity.

When the accused shall have been duly convicted and sentence shall have been pronounced, the delinquent will be turned over to the Minister, Chargé d'Affaires or Consul of His Imperial Majesty who will return him to Russia to receive there the punishment prescribed by the laws.

ART. IX. The High Contracting Parties will take care that the stipulations of the present Act may be strictly observed and fulfilled, and the Governors of their Provinces, Commandants and other respective authorities will not permit themselves in any case to violate them, under penalty of a grave responosibility and even of dimissal in case of complaint duly proven.

Persian subjects forming part of the suite of the Minister or Chargé d'Affaires or Consuls, and necessary for their service. will enjoy, so long as they shall be attached to them, their protection on an equality with Russian subjects, but if it may happen that one amongst them renders himself culpable of some misdemeanor and that he makes himself liable thereby to punishment by the existing laws, in this case the Persian Minister or Hakim and, in his absence, the competent local authority, shall address himself immediately to the Russian Minister, Chargé d'Affaires or Consul, in the service of which the accused is to be found in order that he may be delivered to justice; and if this request is founded on proofs establishing the culpability of the accused, the Minister, Chargé d'Affaires or Consul will interpose no difficulty for the satisfaction thereof.

ART. VII. All suits and litigations between Russian subjects will be subject exclusively to the examination and decision of the Russian Mission or Consuls in conformity with the laws and customs of the Russian Empire; as well as the differences and suits occurring between Russian subjects and those of another Power where the parties shall consent thereto.

When differences or suits shall arise between Russian subjects and Persian subjects, the said suits or differences will be brought before the Hakim or Governor and will be examined and judged only in the presence of the Dragoman of the Mission or the Consulate.

Once juridically terminated, such suits may not be instituted a second time. If, however, the circumstances were of a nature to demand a second examination, it may not take place without notification to the Russian Minister, Chargé d'Affaires or Consul and in this case the affair will only be considered and judged at the Defter, that is to say, in the Supreme Chancellery of the Shah at Tabriz or at Teheran, likewise in the presence of a Dragoman of the Russian Mission or Consulate.

ART. VIII. In case of number or other crime committed

may export from the Empire by the same means, will be subject, as in the past, to a duty of five per cent, collected one time for all at entry or departure, and will not be subject thereafter to any other customs dues. If Russia may judge it necessary to draw up new customos regulations or new tarifs, it undertakes however not to increase even in this case the rate above-mentioned of five per cent.

ART. IV. If Russia or Persia find themselves at war with another Power it will not be forbidden to the respective subjects to cross with their merchandise the territory of the High Contracting Parties to proceed into the confines of the said Power.

ART. V. Seeing that after existing usages in Persia it is difficult for foreign subjects to find for rent houses, warehouses or premises suitable as depots for their merchandise, it is permitted to Russian subjects in Persia not only to rent but also to acquire in full ownership houses for habitation and shops as well as premises to store therein their merchandise.

The employees of the Persian Government shall not be able to enter by force in the said houses, shops or premises, at least without having recourse in case of necessity to the authorization of the Russian Minister, Chargé d'Affaires or Consul who will delegate an employee or dragoman to assist in the visit to the house or the merchandise.

ART. VI. At the same time the Minister or the Chargé d'Affaires of His Imperial Majesty, the employees of the Russian Mission. Consuls and Dragomans, not finding for sale in Persia neither the effects to serve for their clothing nor many objects of food which are necessary to them, shall be able to introduce free of tax and of dues, for their own account, all objects and effects which may be destined solely to their use.

The public servants of His Majesty the Shah residing in the States of the Russian Empire will enjoy perfect reciprocity in this regard.

ART. II. Contracts, bills of exchange, bonds and other written instruments between the respective subjects for their commercial affairs will be registered with the Russian Consul and with the Hakim (Civil Magistrate) and there, where there is no Consul, with the Hakim alone, so that in case of dispute between the two parties one can make the researches necessary in order to decide the difference in conformity with justice.

If one of the two parties without being provided with the documents drawn up and legalized as stated above, whéich will be valid before every court of justice, should desire to institute a suit against the other in producing only proofs of testimonials, such pretensions will not be admitted at all unless teh defendant himself may recognize the legality thereof.

Every undertaking entered into between the respective subjects in the forms above prescribed will be religiously observed and the refusal to give satisfaction therein which may occasion losses to one of the parties will give place to a proportional indemnity on the part of the other. In case of bankruptcy of a Russian merchant in Persia, his creditors will be recompensed with the goods and effects of the bankrupt, but the Russian Minister, the Chargé d'Affaires or the Consul shall not refuse if demanded their good offices to assure themselves whether the bankrupt has not left in Russia available properties which may serve to satisfy the same creditors.

The provisions drawn up in the present Article will be reciprocally observed in respect of Persian subjects who engage in commerce in Russia under the protection of its laws.

ART. III With a view to assuring to the trade of the respective subjects the advantages which are the object of the previous stipulations, it is agreed that merchandise imported into Persia or exported from that Kingdom by Russian subjects and equally the products of Persia imported into Russia by Persian, subjects, whether by the Caspian Sea or by the land frontier between the two States, as well as Russian merchandise which Persia subjects

2. THE COMMERCIAL TREATY

ART. I. The two High Contracting Parties desiring to make their respective subjects enjoy all the advantages which result from a reciprocal liberty of commerce, have agreed upon the following :

Russian subjects provided with passports in proper order shall be able to engage in commerce throughout the whole extent of the Persian Kingdom, and to proceed equally in the neighboring States of the said Kingdom.

In reciprocity thereof Persian subjects shall be able to import their merchandise into Russia, either by the Caspian Sea or by the land frontier which separates Russia from Persia, to exchange it or to make purchases for exportation, and they will enjoy all the rights and prerogatives accorded in the States of His Imperial Majesty to the subjects of the most favored friendly Powers.

In case of the decease of a Russian subject in Persia, his movable and immovable property, as belonging to the subject of a friendly Power, will be turned over intact to his relatives or associates, who will have the right to dispose of the said property as they may judge fitting. In the absence of relatives or associates the disposition of the said property will be confided to the Mission or to the Consuls of Russia without any difficulty on the part of the Russian authorities.

this day in order to transport themselves freely with their families from Persian States into Russian States, to export and to sell their movable property, without the Governments or the local authorities being able to place the least obstable in the way thereof, nor to deduct previously any tax or any recompense on the goods and objects sold or exported by them. As for their immovable property there will be accorded a term of five years to sell or to dispose therefore as may be desired. There are excepted from tis amnesty those who may have rendered themselves culpable within the period of time above-mentioned of one year of some crime, or misdemeanor liable to penalties punished by the Courts.

Art. XVI. Immediately after the signature of the present Treaty of Peace, the respective plenipotentiaries will hasten to send the necessary notices and injunctions in all localities for the immediate cessation of hostilities.

time · in order to prevent the mutually prejudicial consequences which might be able to result from the correspondence which some of these deserters may seek to hold with their former compatriots, or vessels, the Persian Government undertakes not to tolerate in its Possessions, situated between the Araxe and the line formed by the River known as Tohara, by Lake Urumiah, by the River called Djakatou and by the River known as Kizil-Ozane, to its descent into the Caspian Sea, the presence of individuals who will be designated now by name or who may be nominated to it in the future. His Majesty the Emperor of All the Russias promises equally on His side not to permit Persian deserters to establish themselves or to remain fixed in the Khanats of Karabag or of Nakhitchevan or in the part of the Khanat of Erivan situated on the right bank of the Araxe. It is, however, understood, that this clause is and will only be obligatory in respect of individuals possessing a public character of a certain dignity, such as the Khans, the Begs and the spiritual leaders or mullahs, whose personal example, intrigues and clandestine correspondence may be able to exercise a pernicious influence on their former compatriots, those formerly under their administration or their vassals. In so far as concerns the mass of the population in the too countries, it is agreed between the High Contracting Parties that the respective subjects who shall have passed or who may pass in the future from one State into the other, will be free to establish themselves or to sojourn wherever the Govenment under whose domination they will be placed will find it proper.

Art. XV. With the beneficent and salutary aim of restoring tranquility in his States and of removing from his subjects all that may aggravate the evils which have brought on them the war to which the present Treaty has put an end so happily, His Majesty the Shah accords a full and complete amnesty to all the inhabitants and functionaries of the province known as Azerbaijhan. No one of them, without exception of category, may not be either pursued, no molested for his opinions, for his acts or for the conduct which he may have pursued, either during the war or during the temporary occupation of the said province by Russian troops. There will be, moreover, accorded them a period of one year dating from

Art. XI. All the affairs and suits of the respective subjects, suspended by the intervention of the War, will be resumed and terminated in accordance with justice after the exclusion of Peace. The debts that the respective subjects may have the one in favor of the other, as well as to the treasury, will be promptly and entirely liquidated.

Art. XII. The High Contracting Parties agree by common accord in the interest of their respective subjects to fix a term of three years in order that those among them who (own) immobile property on both sides of the Araxe may have the right to sell or exchange it freely. His Imperial Majesty of all the Russias excepts, however, from the benefit of this provision, so far as it concerns Him, the former Sardar of Erivan, Houssein Khan, his brother Hassen Khan and Kerim Khan, the former Governor of Nakitchevan.

Art. XIII. All prisoners of war made in one way or another, whether in the course of the last War, or before, as well as the subjects of the two Governments reciprocally fallen into captivity, at no matter what time, will be freed within a period of four months and, after having been provided with food and other necessary objects, they will be directed to Abbas Abad in order to be turned over there into the hands of Commissioners, respectively charged with receiving them and to decide upon their eventual return to their homes. The High Contracting Parties will undertake the same in respect of all prisoners of War and all Russian and Persian subjects reciprocally fallen into captivity, who may not have been freed within the period above-mentioned, whether by reason of the isolated distance where they are to be found, or for any other cause or circumstance. The two Gocernments reserve expressly the unlimited right to reclaim them at no matter what time, and they obligate themselves to restore them mutually in the measure that they may present themselves for that purpose, or in the measure that they may reclaim them.

Art. XIV. The High Contracting Parties will not demand the extradition of fugitives and deserters who shall have passed under their respective jurisdiction before or during the war At the same

Majesty the Shah of Persia, having at heart to strengthen by all means the ties so happily reestablished between them, are agreed that the Ambassadors, Ministers, and Chargés d'Affaires, who may be reciprocally delegated near the respective High Courts, whether to discharge a temporary Mission or to reside there permanently, will be received with the honors and distinction befitting their rank and conformable with the dignity of the High Contracting Parties, as with the sincere friendship which unites them and conformable with the customs of the country. An understanding to this effect will be reached by means of a special Protocol regarding the ceremonial to be observed by both sides.

Art. X. His Majesty the Emperor of all the Russias and His Majesty the Shat of Persia, considering the reestablishment and the extension of commercial relations between the two States as one of the first benefactions which the return of peace should produce, have agreed to regulate in a perfect accord all provisions relative to the protection of commerce, and to the safety of the respective subjects, and to embody them in a separate Act annexed hereto, drawn up between the respective Plenipotentiaries and which is and will be considered as forming an integral part of the present Treaty of Peace.

His Majesty the Shah of Persia reserves to Russia, as in the past, the right of appointing consuls or commercial agents wherever the good of commerce will demand it, and he undertakes to endow these consults and agents. none of which shall have a suite of more than ten persons, with the protection, the honors and the privileges belonging to their public character. His Majesty the Emperor of all the Russias promises on His side to observe a perfect reciprocity in respect of the consuls and commercial agents of His Majesty the Shah of Persia. In case of well-founded complaint on the part of the Persian Government against one of the Russian consuls or agents, the Minister or Chargé d'Affaires of Russia, residing at the Court of His Majesty the Shat, and under the immediate orders of whom they will be placed, will suspend him from his functions and will confer provisionally the office upon whom he will deem fitting.

occasioned to the Russian Empire, as well as the losses and damages which have resulted therefrom, for Russian subjects, His Majesty the Shah of Persia undertakes to make them good by means of a pecuniary indemnity. It is agreed between the two High Contracting Parties that the total of this indemnity is fixed at ten kupours of silver tomans or 20,000,000 silver roubles and that the method, the terms and the guarantees of payment of this sum will be regulated by a special arrangement which shall have the same force and value as if it were inserted word for word in the pressed Treaty.

Art. VII. His Majesty the Shah of Persia having judged it fitting to appoint as his Successor and Heir Presumptive his August Son Prince Abbas Mirza. His Majesty the Emperor of all the Russia, with a view to giving to His Majesty the Shah public evidence of his friendly dispositions and of his desire to contribute to he consolidation of this order of succession, undertakes to recognize as from today, in the August Person of His Royal Highness Prince Abbas Mirza, the Successor and Heir Presumptive of the Crown of Persia and to consider Him as the Legitimate Sovereign of this Kingdom from his ascension to the throne.

Art. VIII. Russian merchant vessels will enjoy, as in the past, the right to navigate freely on the Caspian Sea and along its coasts and to land there. They will find in Persia aid and assistance in case of shipwreck. The same right is accorded to Persian merchant vessels to navigate on the old footing in the Caspian Sea and to enter Russian Rivers where, in case of shipwreck, the Persians will receive reciprocally aid and assistance.[1]

As for war vessels, those which bear the Russian military flag being *ab antiquo* the only ones which have had the right to navigate on the Caspian Sea, this same exclusive privilege, is for this reason, equally reserved and assured today, so that, with the exception of Russia, no other Power shall be able to have war vessels on the Caspian Sea.

Art. IX. His Majesty the Emperor of all the Russias and His

of the mountains, it is agreed that there declination from the side of the Caspian Sea will belong to Russia and that their opposite slope will belong to Persia. From the crest of the heights of Djikoir, the frontier will follow follow the summit of Kamarkouia, the mountains which separate the Talyche from the district of Archa. The crests of the mountains, separating on all sides the watershed, will determine here the frontier line in the same manner as stated above concerning the distance included between the source of the Odinabazar and the summits of Djihor. The frontier line will follow thereafter, from the summit of Kamarkouia, the crests of the mountains which separate the district of Zouvante from that of Archa to the limit of that of Welkidji, always conforming to the principle enunciated in connection with the watershed. The district of Zouvante, with the exception of the part situated on the opposite side of the summit of the said mountains, will fall in this way in division to Russia. Beginning with the limit of the district of Welkidji, the frontier line between the two States will follow the summits of Klopouty and of the principal chain of mountains which traverse the district of Welkidji to the northern source of the river called Astara, always observing the principle relative to the watershed. From there the frontier will follow the bed of this river to its discharge in the Caspian Sea, and will complete the line of demarcation which will separate in future the respective possessions of Russia and Persia.

Art. V. His Majesty the Shah of Persia in testimony of his sincere friendship for His Majesty the Emperor of all the Russias, solemnly recognizes by the present Article, both in his name as in that of his Heirs and Successors to the throne of Persia, as belonging forever to the Russian Empire, all the countries and all the islands situated between the line of demarcation designated by the preceding Article on the one side ,and the crest of the mountains of the Caucasus, and the Caspian Sea on the other, as well as the peoples, nomads and others who inhabit these countries.

Art. VI. With a view to recompensing the considerable sacrifices that the war, which occurred between the two States, has

cession. His Majesty the Shah undertakes to turn over to the Russian Authorities, within six months at the latest, from the date of signature of the present Treaty, all the archives and all public documents concerning the administration of the two Khanates abovementioned.

Art. IV. The two High Contracting Parties agree to establish, as the frontier between the two States, the following line of demarcation : In parting from the point of the frontier of the Ottoman States. the nearest in a straight line from the summit of the little Ararat, this line will continue to the summit of this mountain from whence it will descend to the source of the river known as the Lower Karassou which flows from the southern side of the Little Ararat and it ill follow its course until its discharge in the Araxe, opposite Cherour. Arrived at this point, this line will follow the bed of the Araxe to the Fortress of Abbas-Abad; around the exterior works of this place which are situated on the right bank of the Araxe, there will be traced a radius of a half agatch, or three versts and a half from Russia. which will extend in all directions; all the land which will be enclosed in this radius will belong exclusively to Russia and ill be demarked with the greatest exactitude in the space of two months, dating from this day. From the locality where the eastern extremity of this radius will have rejoined the Araxe, the frontier line will continue to follow the bed of this river to the ford of Jediboulouk, from whence the Persian Territory will extend the length of the bed of the Araxe for a distince of three agatch or twenty-one versts from Russia; arrived at this point, the frontier line will traverse in a direct manner the plain of Moughan to the bed of the river known as Bolgarou, to the place situated at three agatch or twenty-one versts below the conjunction of the two small rivers kno:n as Odinabazar and Sarakamyche. From there, this line will reascend from the left bank of the Bolgarou to the junction of the said rivers Odinabazar and Sarakamyche and will extend the length of the right bank of the river of Odinabazar to its source and from their to the summit of the heights of Djikoir so that all the waters which flow towards the Caspian Sea will belong to Russia. and all those watershed is of the Persian side will belong to Persia. The limit of the two States being marked here by the crest

-9-

TREATIES OF PEACE AND COMMERCE (TURKMANÇHAY): PERSIA AND RUSSIA

10 22 February 1828

1. THE TREATY OF PEACE

Art. I. There will be, dating from this day, peace, friendship and perfect understanding between His Majesty the Emperor of all the Russias on one hand, and His Majesty the Shah of Persia on the other, their Heirs and Successors, their States and their respective Subjects, in perpetuity.

Art. II. Considering that the hostilities taken place between the High Contracting Parties, and happily terminated today, have brought to an end the obligations which the Treaty of Gulistan imposed upon them, His Majesty the Emperor of all the Russias and His Majesty the Shah in Shah of Persia have judged it appropriate to replace the said Treaty of Gulistan by the present Clauses and Stipulations, which are designed to regulate and to consolidate more and more the future relations of peace and friendship between Russia and Persia.

Art. III. His Majesty the Shah of Persia, both in his name as n that of his Heirs and Successors, cedes i nentire ownership to the Russian Empire the Khanate of Erivan on both sides of the Araxe, and the Khanate of Nakhitchevan. In consequence of this

when, according to the Register of the Courts of Judicature, the property shall be delivered up. The customary fees and the hire of the place for depositing the effects are to be paid, and should they be burnt or destroyed within the above stated period, no claims are to be advanced for the recovery of the property. If during the said period the heir of the executor of the deceased does not arrive the Officers of the Treasury, with the knowledge of the Agent of the Persian Government, shall sell the property and keep the amount in deposit.

Art. VII. Agreeably to former Engagements, and for the purpose o fadding fresh ties to the Alliance, a Minister shall be sent every three years to reside for that period at the respective Courts.

The subjects of the Two High Powers, who, during the War, may have deserted from either country, in consideration of this happy Peace, shall suffer no punishment for the offence committed.

Final Article. — The Capitulations detailed in the Basis of the Treaty, and the Stipulations and different Articles which have been the result of the Conferences, shall be approved of by both Parties. No claims shall be advanced on account of plunder and losses, or any indemnification required for the expenses of the War, and the principle adhered to by both Governments shall be to overlook all past occurrences.

these tribes continue to invade and molest the Persian Territory, and the Frontier Authorities do not put a stop to these aggressions, the Ottoman Government shall cease to protect them, and should these Tribes of their own will and choice return to Persia, their departure shall not be prohibited nor opposed. But after their arrival in Persia, should they again desert to Turkey, the Ottoman Government shall afford them no further protection, nor shall they be received. In the event of their return to Persia, should these tribes disturb the tranquillity of the Ottoman Territory, the Persian Frontier Authorities agree to use every effort to prevent these irregularities.

Art. IV. In conformity with ancient engagements, the deserters from either Country shall not be received; an in like manner, from this period, the wandering Tribes and others quitting Persia for Turkey, or Turkey for Persia, shall not receive protection from either party.

Art. V. The property of the Persian Merchants sequestrated at Constantinople, with the cognizance of the Law and according to the public registers, from the date of this Treaty to the period of sixty days, wherever the sequestration may have taken place, shall be restored to the Proprietors. Besides the goods under sequestration, whatever effects during the war may have been taken by force from the Persian Pilgrims and Subjects throughout the Ottoman Dominions, by the different Vizirs and Governors, on the representations of the Persian Government, Firmans shall be delivered up to the Agents of such persons, who, on giving lawful proofs of the authenticity of their claims, shall receive the required restitutions.

Arft. VI. On the demise of any Persian Subjects in the Ottoman Dominions, should the deceased have no lawful heir and executor present, the Officers of the Treasury *(Beit ul Mal)* shall, with the cognizance of the Law, register the property, and shall enter it upon the Records of the Court of Judicaturė. For the period of one year the effects shall be lodged in a secure place, until the lawful heir on administrator of the estate may arrive,

Pilgrims and Merchants shall be considered as in full force and acted upon.

The Pilgrims shall be conducted from Damascus to the Holy Cities, and back to Damascus, and on the part of the Emir-Elhadj every attention shall be shown towards them; whilst no treatment at variance with the existing engagements shall be permitted; on the contrary, every exertion shall be made to afford them aid and protection. In case any disputes should arise amongst the Persian Pilgrims, the Emir-Elhadj, in conjunction with the chief person among them, is to settle their differences. To the female attendants of His Persian Majesty, the wives of the Royal Princes, or of the Grandees of the Empire, who may be on pilgrimage to Mecca, or to Kerbelah and Nujuff, every respect and honour shall be paid according to their respective ranks. Persian Merchants and Subjects shall pay the same rate of Customs as those of the Ottoman Government. The duties are only to be exacted once, and they shall be at a computation of four piastres to a hundred on the value of the merchandize; *Teskérés* shall be given; and whilst the goods remain in the possession of the first proprietors, and are not disposed of to other Persons, no further duties are to be demanded.

The Persian Merchants, who carry the *Choobooks*, or Pipesticks of Sheeraz to Constantinopl, shall be allowed to traffick them without any restrictions, and to sell them to whomsoever they may think proper. To the Merchants, Subjects, and Dependants of the Two High Powers, visiting the two Countries, in consideration of the Mahomedan religion, every friendly treatment shall be extended, and they shall be preserved from all molestation and injury.

Art. III. The Tribes of Hyderanloo and Sibbikee, which have been the cause of contention between the Two High Powers, and are now dwelling in the Territory of the Ottoman Empire, should they from thence transgress the boundary of Persia, and commit any ravages, the Turkish Frontier Authorities will endeavour to prevent such proceedings, and punish the offenders. In case that

captured on both sides, without concealment of prevention, shall have free permission to depart. Provisions and other necessaries requisite for the journey shall be afforded them, and they shall be sent to the Frontiers of the two Countries.

Art. I. The Two High Powers do not admit each other's interference in the internal affairs of their respective States. From this period, on the side of Bagdad and Koordistan no interference is to take place, nor with any Districts of the Divisions of Koordistan within the Boundaries, is the Persian Government to intermeddle, or authorise any acts of molestation, or to assume any authority over the present or former Possessors of those Countries.

And on that frontier, should the Tribes of either side pass the boundaries for a summer or winter residence, the Agents of His Royal Highness the Heir Apparent, with the Pasha of Bagdad, shall arrange the tribute customary to be paid, the rent of the pasture lands, and other claims, inorder that they may not cause any misunderstanding between the two Governments.

Art. II. Persian subjects proceeding to the Holy Cities of Mecca and Medina, as to other Mahomedan towns, such as Pilgrims. and persons travelling through the Ottoman Territories, are to be entirely exempted from all contributions; and other impositions at variance with lawful usage are not to be demanded from them.

In like manner the Pilgrims to Kerbelah and Nujuff, as long as they have no merchandize, neither tribute not tax of any kind is to be extracted from them; but in case they have in their possession articles of commerce, the just rate of Customs is to be levied on such goods. and nothing extra is to be demanded.

The Persian Government is likewise bound to pursue the same line of conduct towards the Merchants and Sudjects of the Ottoman Empire. In conformity with former Engagements, from this period, on the part of the Vizirs the Emir-Elhadj, and other Commanders and Governors, the ancient Stipulations respecting the Persian

-8-

TREATY OF PEACE (ERZURUM) : THE OTTOMAN EMPIRE AND PERSIA

28 July 1823

Basis. — The Stipulations of the Treaty concluded in the year of the concluded in the year of the Hegira 1159 [4 September 1746] respecting the ancient Boundaries of the Two Empires, and the former Agreements relating to Pilgrims, Merchants, the delivery of Refugees, the free egress of all Prisoners, and the residence of a Minister at the respective Courts, are considered valid, and are to be strictly observed. The slightest deviation from the engagements therein detailed shall not be permitted, and the amity between the Two powerful States shall be for ever preserved.

Stipulations. — Henceforward the Sword of Enmity shall be shealthed, and every circumstance shall be avoided, which may produce coldness or disgust, and may be contrary to friendship and perfect union. The Countries within the boundaries of the Ottoman Empire, which, during the war, or previously to the commencement of hostilities, have been taken possession of by Persia, including Fortresses, Districts, Lands, Towns, and Villages, to be restored in their present state, and, at the expiration of sixty days from the signature of this Treaty, to be delivered over to the Ottoman Government.

And in token of respect for this happy peace, the prisoners

receive intelligence of the wishes of the Persian Government respecting him, he shall refuse him admission. After such prohibition, should such person persist in his resolution, the said Governor shall cause him to be seized and sent to Persia, it being understood that the aforesaid obligations are reciprocal between the contracting parties.

Art. 11. Should His Persian Majesty require assistance from the English Government in the Persian Gulf, they shall, if convenient and practicable, assist him with ships of war and troops. The expenses of such expedition shall be accounted for and defrayed by the Persian Government, and the above ships shall anchor in such ports as shall be pointed out by the Persian Govenment, and not at other harbours without permission, except from absolute necessity.

Great Britain.

Art. 6. Should any European power be engaged in war with Persia when at peace with England, His Britannic Majesty engages to use his best endeavours to bring Persia and such European power to a friendly understanding. If, however, His Majesty's cordial interference should fail of success, England shall still, if required, in conformity with the stipulations in the preceding Articles, send a force from India, or in lieu thereof, pay an annual subsidy of twohundred thousand tomans for the support of a Persian army so long as a war in the supposed case shall continue, and until Persia shall make peace with such nation.

Art. 7. Since it is the custom of Persia to pay the troops six months in advance, the English minister at that Court shall do all in his power to pay the subsidy in as early instalments as may be convenient.

Art. 8. Should the Afghans be at war with the British nation, His Persian Majesty engages to send an army against them in such force and in such manner as may be concerted with the English Government. The expense of such an army shall be defrayed by the British Government in such manner as may be agreed upon at the period of its being required.

Art. 9. If war should be declared between the Afghans and Persians, the English Government shall not interfere with either party unless their mediation to effect a peace shall be sollicited by both parties.

Art. 10. Should any Persian subject of distinction showing signs of hostility and rebellion take refuge in the British dominions, the English Government shall, on intimation from the Persian Government, turn him out of their country, or, if he refuse to leave it, shall seize and send him to Persia.

Previously to the arrival of such fugitive in the English territory, should the Governor of the district to which he may direct his flight

between the Princes, Noblemen, and great Chiefs of Persia, and if one of the contending parties should even offer a province of Persia with a view of obtaining assistance, the English Government shall not agree to such a proposal, nor by adopting it possess themselves of such part of Persia.

Art. 3. The purpose of this Treaty is strictly defensive, and the object is that from their mutual assistance both States should derive stability and strength, and this Treaty has only been concluded for the purpose of repelling the aggression of enemies; and the purport of the word aggression in this Treaty is an attack upon the territories of another State. The limits of the territories of the two States of Russia and Persia shall be determined according to the admission of Great Britain, Persia, and Russia.

Art. 4. It having been agreed by an Article in the preliminary Treaty concluded between the high contracting parties that in case of any European nation invading Persia, should the Persian Government require the assistance of the English, the Governor General of India, on the part of Great Britain, shall comply with the wish of the Persian Government by sending from India the force required, with officers, ammunition, and warlike stores, or, in lieu thereof, the English Government shall pay an annual subsidy; the amount of which shall be regulated in a definitive Treaty to be concluded between the high contracting parties; it is hereby provided that the amount of the said subsidy shall be two hundred thousand (200,000) tomans annually. It is further agreed that the said subsidy shall not be paid in case the war with such European nation shall have been produced by an aggression on the part of Persia; and since the payment of the subsidy will be made solely for the purpose of raising and disciplining an army, it is agreed that the English minister shall be satisfied of its being duly applied to the purpose for which it is assigned.

Art 5. Should the Persian Government wish to introduce European discipline among their troops, they are at liberty to employ European officers for that purpose, provided the said officers do not belong to nations in a state of war or enmity with

-7-

TREATY OF DEFENSIVE ALLIANCE :

Britain and Persia

25 November 1814

Art. 1. The Persian Government judge it incumbent on them, after the conclusion of the definitev Treaty, to declare all alliances contracted with European nations in a state of hostility with Great Britain null and void, and hold themselves bound not to allow any European army to enter the Persian territory, not to proceed towards India, nor to any of the ports of that country, and also engage not to allow any individuals of such European nations entertaining a design of invading India, or being at enmity with Great Britain whatever, to enter Persia. Should any of the European powers wish to invade India by the road of Kharizen, Taturistan, Bokhara, Samarkand, or other routes, His Persian Majesty engages to induce the kings and governors of those countries to oppose such invasion, as much as is in his power, either by the fear of his arms or by conciliatory measures.

Art. 2. It is agreed that these Articles formed with the hand of truth and sincerity shall not be changed or altered, but there shall arise from them a daily increase of friendship which shall last for ever between the two most serene kings, their heirs, successors, their subjects, and their respective kingdoms, dominions, provinces, and countries; and His Britannic Majesty further engages not to interfere in any dispute which may hereafter arise

States, merchants shall be allowed to sell or exchange their goods without the further permission of the Custom House Officers because it is the duty of Custom House Officers to prevent all sorts of delay, in the prosecution of trade, and to receive the King's customs from the buyer or seller as may be agreed between them.

Art. 11. After the signature of this Treaty the respective plenipotentiaries shall immediately announce the peace to the different frontier posts and order the suspension of all further hostilities; and two copies of this Treaty being taken with Persian translations, they shall be signed and sealed by the respective plenipotentiaries, and be exchanged.

Art. 8. With regard to the intercourse of caravans, the merchants o feither country must be provided with a passport that they may travel either by sea or land without fear, and individuals may reside in either country for the purpose of trade so long as it suits their convenience, and they shall meet with no opposition when they wish to return home. In regard to merchandise and goods, brought from Russia to Persia, or sent from Persia to Russia, the proprietors may at their own discretion either sell or exchange them for other property. Merchants having occasion to complain of failure of payment or other grievances will state the nature of their cases to the merchantile agents; or, if there are none resident in the place, they will apply to the Governor, who will examine into the merits of their representations, and will be careful that no injustice be offered this class of men. Russian merchants having entered Persia with merchandise will have permission to convey it to any country in alliance with that State, and the Persian Government will readily furnish them a passport to enable them to do so. In like manner, Persian merchants who visit Russia will have permission to proceed to any country in alliance with Russia. In case of a Russian merchant dying in Persia, and his goods remaining in Persia, as they are the property of a subject of a friendly State, they shall be taken charge of by the proper constituted authorities, and shall be delivered over, on demand, to the lawful heirs of the deceased, who shall have permission to dis pose of them. As this is the custom among all civilised nations, there can be no objection to this arrangement.

Art. 9. The duties on Russian merchandise brought to Persian ports shall be in the proportion of five hundred dinars (or 5 per cent.) on property of the value of one toman, which having been paid at one city the goods may be conveyed to any part of Persia without any further demand of duty being made on any pretence whatever. The like percentage, and nothing more, will be paid o nexports. The import and export duties from Persian merchants in Russia will be levied at the same rate.

Art. 10. On the arrival of goods at the seaport towns, or such as come by land-carriage to the frontier towns of the two

according to their former practice, have permission to enter the Persian harbours, and the Persians shall render to the Russian Marine all friendly aid in case of casualties by storm or shipwreck.

Persian merchantmen shall enjoy the same privilege of entering Russian harbours, and the like aid shall be afforded to the Persian Marine by the Russians in case of casualties by storm or shipwreck.

The Russian flag shall fly in the Russian ships-of-war which are permitted to sail in the Caspian as formerly; no other nation whatever shall be allowed ships-of-war on the Caspian.

Art. 6. The whole of the prisoners taken either in battle or otherwise, whether Christians or of any other religion, shall be mutually exchanged at the expiration of three months after the date of the signature of the Treaty. The High Contracting Parties shall give a sum to each of the prisoners for his expenses, and send them to Kara Ecclesia; those charged with the superintendence of the exchange on the frontiers shall give notice to each other of the prisoners being sent to the appointed place, when they shall be exchanged; and any person who either voluntarily deserted or fled after the commission of a crime shall have permission to return to his country, for shall remain without molestation. All deserters who return to their country shall be forgiven by both contracting parties.

Art. 7. In addition to the above articles, the two contracting sovereigns have been pleased to resolve to exchange Ambassadors, who at a proper period will be sent to their respective capitals, where they will meet with that honour due to their rank, and due attention shall be paid to the requests they may be charged to make. Mercantile agents shall be appointed to reside in the different cities for the purpose of assisting the merchants in carrying on their trade; they shall only retain ten followers; they shall be in no ways molested; they shall be trated with respect and attention, and parties of either nation injured in the way of trade may by their interference have their grievances redressed

thening mutual confidence after the conclusion of the Treaty, Commissioners shall be appointed respectively, who, in concurdence with each other and with the cognizance of the Governors concerned, shall determine what mountains, rivers, lakes, villages, and fields shall mark the line of frontier, having first ascertained the respective possessions at the time of making the Treaty, and holding in view the *status quo ad presentem* as the basis on which the boundaries are to be determined.

If the possessions of either of the High Contracting Parties shall have been infringed on by the above-mentioned boundaries, the Commissioners shall rectify it on the basis of the *status quo ad presentem.*

Art. 3. His Majesty the King of Persia, in demonstration of his amicable sentiments towards the Emperor of Russia, acknowledges in his own name and that of his heirs the sovereignty of the Emperor of Russia over the provinces of Karabagh and Georgia, now called Elizabeth Paul, the districts of Shekie, Shiriwan, Kobek, Dergend, Bakoobeh, and such part of Talish as is now possessed by Russia, the whole of Degesten, Georgia, the tract of Shoorgil, Achook, Bash, Gooreea, Mingrelia, Abtichar, the whole country between the boundary at present established and the line of Caucasus, and all the territory between the Caucasus and the Caspian Sea.

Art. 4. His Majesty the Emperor of Russia, actuated by similar feelings towards His Majesty of Persia, and in the spirit of good neighbourhood wishing the Sovereign of Persia always to be firmly established on the throne, engages for himself and heirs to recognise the Prince who shall be nominated heir-apparent, and to afford his assistance in case he should require it to suppress any opposing party. The power of Persia will thus be increased by the aid of Russia. The Emperor engages for himself and heirs not to interfere in the dissensions of the Prince, unless the aid of the Russia narms is required by the King of the time.

Art 5. - The Russian merchantmen on the Caspian Sea shall,

-6-

TREATY OF PEACE (Guliston)

Russia and Persia 30 September 12 October 1814

Art. 1. After the conclusion of this Treaty the hostilities which have hitherto existed between the States of Russia and Persia shall cease, and peace shall be established between the respective sovereigns and their allies for ever.

Art. 2. The *status quo ad presentem* having been agreed on as the basis of treating in virtue of this arrangement, the several districts hitherto possessed by the respective States shall remain under their subjection, and the frontier is determined in the manner under written.

The line of demarcation is to commerce from the plain of Aduna Bazar, running direct towards the plain of Moghan to the ford of the Anas at Yuln Bulook, up the Anas to the Junction of the Capennuk Chace at the back of the hill of Mekri; from thence the boundary of Karabagh and Nukshivan is from above the mountains of Alighuz to Dualighuz, and thence the boundary of Karabagh, Nukshivan, Erivand, and also part of Georgia, and of Kuzah and Shums-ud-deen Loo is separated by Eishuk Meidaun; from Eishuk Meidaun the line is the chain of mountains on the right ans the river of Humya Chummun, and from the tops of the mountains of Alighuz it runs along the village of Shoorgil and between those of the village of Mystery until it reaches the river of Arpachahi; and as the district of Talish during the hostilities has been partially subjected by the contending parties, for the purpose of streng-

ART. 11. If a French fleet should be dispatched to the Persian Gulf and to the ports of H.M. the Emperor of Persia, it will be granted all the facilities and help which it might need.

ART. 12. If it were the intention of H.M. the Emperor of the French to send an army by land to attack English possessions in India, H.M. the Emperor of Persia, as a good and faithful ally, will grant this army passage on his territories. In such event, a special convention will be concluded in advance by the two governments stipulating the route that must be taken by the troops, the food and transportation that would be provided and the number of auxiliary troops that H.M. the Emperor of Persia would be prepared to attach to this expedition.

ART. 13. Everything furnished to either the fleets or the troops in accordance with the preceding two articles shall be offered at prices and under conditions prevailing among the [Persian] nationals themselves and shall be paid for by the said fleets and troops

ART. 14. The stipulations enumerated in article 12 above shall be applicable only to France. They shall, accordingly, not be extended by future treaties to either England or Russia.

ART. 15 For the reciprocal advantage of both Powers, a treaty of commerce, to be negotiated in Tehran, will be concluded.

King of Italy, undertakes to supply as many field guns and rifles with bayonets as may be requested by H.M. the Emperor of Persia. Payment for these arms will be made in conformity with their value in Europe.

ART. 7. H.M. the Emperor of the French, King of Italy, undertakes to provide for H.M. the Emperor of Persia artillery, engineer and infantry officers in such numbers as may be considered necessary by H.M. the Emperor of Persia to strengthen his firtresses and to organize Persian artillery and infantry in accordance with principles of European military art.

ART. 8. H.M. the Emperor of Persia for his part undertakes to sever all diplomatic and commercial relations with England, to declare war at once on the latter power and to commence hostilities without delay. Accordingly, he will recall the Persian Minister accredited to Bombay The consuls, factors or other agents of the English Company residing in Persia and in the ports of the Persian Gulf will have to leave their places of residence immediately. H.M. the Emperor of Persia will seize all English merchandise and will forbid England communications in his territories, either by sea or by land. Every minister, ambassador or agent who might present himself on behalf of this power during the war will not be recognized.

ART. 9. In any other war in which Britain and Russia may ally themselves against Persia and France, France and Persia will ally themselves equally against Britain and Russia. They shall act against the common enemy as soon as official notification is given by the Contracting Party, menaced or attacked, that a state of war exists. All diplomatic and commercial relations will be conducted in accordance with the preceding article.

ART. 10. H.M. the Emperor of Persia will use all his influence to persuade the Afghans and other peoples of Qandahar to add their armies to his in fighting England and, after obtaining passage on their territory, he will send an army against the English possessions in India.

-5-

TREATY OF ALLIANCE (FINKENSTEIN) : FRANCE AND PERSIA

4 May 1807

ART. 1. Peace, friendship and alliance shall be constantly maintained between H.M. the Emperor of the French, King of Italy, and H.M. the Emperor of Persia.

ART. 2. H.M. the Emperor of the French, King of Italy, guarantees to H.M. the Emperor of Persia the integrity of his present territory.

ART. 3. H.M. the Emperor of the French, King of Italy, recognizes Georgia as belonging legitimately to H.M. the Emperor of Persia.

ART. 4. He undertakes to direct every effort toward compelling Russia to withdraw from Georgia and Persian territory. This withdrawal will be the constant goal of his policies.

ART. 5 H.M. the Emperor of the French, King of Italy, will maintain at the Persian Court a Minister Plenipotentiary and Legation Secretaries.

ART. 6 H M the Emperor of Persia, desirous of organizing his infantry, his artillery and fortifications, according to the principles of the European system, H.M. the Emperor of the French,

be levied upon the purchasers. And the duties, imports, and customs which are at this period established in Persia and India (on other goods) are to remain fixed and not to be increased.

The high in rank Hajee Kulleel Khan Mullick-oo-Tijjar is charged and entrusted with the arrangement and settlement of the remaining points relative to commerce.

ART. 4. If any person in the empire of Persia die indebted to the English Government, the ruler of the place must exert his power to have such demand satisfied before those of any other creditor whatever. The servants of the English Government, resident in Persia, are permitted to hire as many domestic natives of that country as are necessary for the transaction of their affairs; and they are authorised to punish such, in cases of misconduct, in the manner they judge most expedient, provided such punishment does not extend to life or limb; in such cases the punishment to be inflicted by the ruler or governor of the place.

ART. 5. The English are at liberty to build houses and mansiins in any of the ports or cities of Persia that they choose, and they may sell or rent all such houses or mansions at pleasure. And should ever a ship belonging to the English Government be in a damaged state in any of the ports of Persia, or one of Persia be in that condition in an English harbour, the Chiefs and rulers of the ports and harbours of the respective nations are to consider it as their duty to give every aid to refit and repair vessels so situated. And if it happens that any of the vessels of either nation are sunk or shipwrecked in or near the ports or shores of either country, on such occasions whatever part of the property is recovered shall be restored to their owners or their heirs, and a just hire is to be allowed by the owners to those who recover it.

FINAL ARTICLE Whenever any native of England or India, in the service of the English Government, resident in Persia, wishes to leave that country, he is to suffer obstruction from no person, but to be at full liberty to do so, and to carry with him his property.

The Articles of the Treaty between the two States are fixed and determined. That person who turns from God turns from his own soul

ADDITIONAL ARTICLE It is further written in sincerity that on iron, lead, steel, broadcloth, and purpetts that are exclusively the property of the English Government, no duties whatever shall be taken from the sellers; a duty not exceeding one per cent. to

While time endures, and while the world exists, the contents of this exalted Treaty shall remain an admired picture in the mirror of duration and perpetuity, and submission to the fair image on this conspicuous page shall be everlasting.

2. THE COMMERCIAL TREATY

ART. 1. The merchants of the high contracting States are to travel and carry on their affairs in the territories of both nations in full security and confidence, and the rulers and governors of all cities are to consider it their duty to protect from injury their cattle and goods.

ART. 2. The traders and merchants of the kingdom of England or Hindoostan that are in the service of the English Government shall be permitted to settle in any of the seaports or cities of the boundless empire of Persia (which may God preserve from calamity) that they prefer: and no government duties, taxes, or requisitions shall ever be collected on any goods that are the actual property of either of the governments; the usual duties on such to be taken from purchasers.

ART. 3. Should it happen that either the persons or property (of merchants) are injured or lost by thieves or robbers, the utmost exertions shall be made to punish the delinquents and recover the property. And if any merchant or trader of Persia evades or delays the payment of a debt to the English Government, the latter are authorized to use every possible mode for the recovery of their demands, taking care to do so in communication and with the knowledge of the ruler or governor of the place, who is to consider it as his duty to grant, on such occasion, every aid in his power. And should any merchants of Persia be in India, attending to their mercantile concerns, the officers of the English Government are not to prevent them carrying on their affairs, but to aid and favour them, and the above-mentioned merchants are to recover their debts and demands in the mode prescribed by the customs and laws of the English Government.

Solomon, in dignity like Jumsheed, the shade of God ! who has bestowed his mercy and kindness on the earth; when negotiations are opened for an amicable adjustment, it shall be stipulated in the peace concluded that the king of the Afghans, or his armies, shall abandon all design of attack on the territories subject to the government of the king above mentioned, who is worthy of royalty, the king of England.

ART. 4. Should ever any king of the Afghans or any person of the French nation commence war and hostilities with the powerful of the enduring State (of the king of Persia), the rulers of the government of the king (of England), whose Court is like heaven, and who has been before mentioned, shall (on such event) send as many cannon and warlike stores as possible, with necessary apparatus, attendants, and inspectors, and such supply shall be delivered over at one of the ports of Persia, whose boundaries are conspicuous, to the officers of the high in dignity, the king of Persia

ART. 5. Should it ever occur that an army of the French nation, actuated by design and deceit, attempts to settle with a view of establishing themselves on any of the islands or shores of Persia, a conjunct force shall be appointed by the two high contracting States to act in co-operation for their expulsion and extirpation, and to destroy and put an end to the foundation of their treason. It is a condition, if such event happens, and the conquering troops (of Persia) march, that the officers of the government of the king (of England), who is powerful as the heavens and as before mentioned, shall load, transport, and deliver (for their service) as great a quantity of necessaries, stores, and provisions as they possibly can. And if ever any of the great men of the French nation express a wish or desire to obtain a place of residence or dwelling on any of the islands or shores of the kingdom of Persia that they may there raise the standard of abode or settlement, such request or representation shall not be consented unto by the high in rank of the State encompassed with justice (the government of Persia), and leave for their residing in such a place shall not be granted.

-4-

TREATIES OF ALLIANCE AND COMMERCE : GREAT BRITAIN AND PERSIA

28 January 1801

1. THE POLITICAL TREATY

ART. 1 As long as the sun, illuminating the circle of the two great contracting powers, shines on their sovereign dominions and bestows light on the whole world, the beautiful image of excellent union shall remain fixed on the mirror of duration and perpetuity, the thread of shameful enmity and distance shall be cut, conditions of mutual aid and assistance between the two States shall be instituted, and all causes of harted and hostility shall be banished.

ART. 2. If the king of the Afghans should ever show a resolution to invade India, which is subject to the government of the monarch (above mentioned) the prince of high rank, the king of England, an army overthrowing mountains, furnished with all warlike stores, shall be appointed from the State of the conspicuous and exalted, high and fixed in power (the king of Persia), to lay waste and desolate the Afghan dominions, and every exertion shall be employed to ruin and humble the above mentioned nation.

ART. 3. Should it happen that the king of the Afghans ever becomes desirous of opening the gates of peace and friendship with the government of the king (of Persia), who is in rank like

As long as the conditions stated above are mutually respected, the amity and good understanding between the two high powers and their illustrious sovereigns shall be maintained and observed by them and their descendants.

[the Ottoman functionaries] shall take every precaution for [the pilgrims'] comfort and protection.

ART. 2. In order to confirm the amity between the two governments and to demonstrate their good harmony, every three years the Ottoman Imperial Government and the Persian Government shall accredit ambassadors to each other's court. The attendant expenses shall be borne by the host government.

ART. 3. Prisoners of war of the two contracting parties shall be liberated and may not be bought or sold [as slaves]. Those prisoners desiring to return to their homes shall not be impeded by either side.

APPENDIX

The limits and frontiers, established under Sultan Murad IV, shall be verified, and the frontier commanders shall abstain from measures detrimental to friendship. Moreover, the Persian people, having totally abandoned the unseemly innovations introduced in the time of the Safavis and having embraced the religion of the Sunnis, shall mention the Orthodox Caliphs, of blessed memory, with respect and veneration.

Henceforth Persians who may go in pilgrimage to Mecca, Medina and to other cities of the Ottoman Empire shall be received with the same friendliness as that [accorded] to Muslim pilgrims, travellers and inhabitants of the Empire. No tribute or tax, repugnant to the laws and regulations, may be levied on [the Persian pilgrims]. Similarly the authorities at Baghdad shall not levy any customs duty on Persian pilgrims who are not transporting merchandise. From those who are transporting merchandise a customs duty no higher than that estimated according to ancient usage will be collected. Merchants and inhabitants of the Ottoman Empire shall be treated in the same manner in Persia.

If after the date of the conclusion of this treaty there should be those who wish to flee from Persia to Turkey or vice versa, they shall not receive asylum and upon the demand for extradition, they shall be surrendered to the authorities of the pertinent signatory.

-3-

TREATY OF PEACE (KURDAN) : THE OTTOMAN EMPIRE AND PERSIA

4 September 1746

BASIS OF THE TREATY

The treaty of peace concluded in the reign of Sultan Murad IV [at Zuhab on 17 May 1639], of glorious memory, shall be maintained as valid by the two governments, and the frontiers and limits fixed by that treaty shall be preserved on the same footing, and there shall occur neither change nor alteration of the principles enunciated therein.

CONDITION

Henceforth all hostility must cease, and everything that is compatible with the dignity and honor of the two contracting parties shall be observed, and everything that may cause coolness or may be contrary to peace and good understanding shall be avoided.

ART. 1. Persian pilgrims may go to the Holy Cities by way of Baghdad and Damascus. The Governors-General, the Judges and the Amirs al-Hajj [Commanders of the Pilgrimage] on this route shall conduct [the pilgrims] from place to place in full security and tranquillity, and in entrusting them from one to the other,

justice will be administered, whenever any harm may have been done to the subjects of the two Sovereigns. The lawsuits will be settled without delay, and those who may have suffered damage will receive satisfaction.

7. It has also been agreed that His Majesty the Shah will not adjudge as unfaithful subjects those Persians who, during the invasion by Russian troops and their stay in the Persian provinces and cities. may have entered the service of or may otherwise have been employed by Her Imperial Majesty. After the withdrawal of the Russians, [the Persian subjects concerned] will not receive either corporal punishment or fine [for their earlier action]. They will not be troubled but will remain in peaceful possession of their goods. Her Imperial Majesty similarly promises that after the exchange of ratification no subject of the Shah will be taken away against his will, [and] all those who entered Russian service voluntarily will be allowed to resign and return home.

or relatives without anything being mislaid or withheld.

4. Her Imperial Majesty promises that the subjects of the Shah coming to trade in her states or passing through her states for other lands will enjoy all freedoms and advantages that may be granted according to the customs and charters of her Empire. Upon application [the Persian merchants] will be given exact justice. To this purpose orders will be issued to all the officers of Her Imperial Majesty in the cities to grant [the merchants] every kind of liberty and to protect them and their trade. Her Imperial Majesty also promises that when merchants of the Court of the Shah may come to Russia with good certification that they are sent to buy goods for His Majesty, they will pay no duty for goods belonging to the Shah. In conformity with ancient usage, the said merchants will be received with every kind of consideration, and in the same manner will be sent off provided indeed that they are Persian and that they buy not for others but solely for the Shah.

5. Since in the recent troubles in Persia several Russian marchants were massacred by the rebel subjects of the Shah who seized several thousand rubles, an act that plunged several persons into deepest misery, His Majesty the Shah promises to have these losses investigated for the benefit of the Russian subjects and to render them justice, when the culprits can be identified, by having the loss repaid from the movable or immovable property of the guilty or of their heirs.

6 It has also been decided and enacted that the two signatories will be permitted to have, at the Court of Her Imperial Majesty and at the Court of His Majesty the Shah, Ministers of such character as the importance of the negotiations may dictate. Each of the parties will give the said ministers such lodging and daily appointment as is suitable to their character. Similarly, the signatories will be allowed to have agents or consuls in other cities where they may deem fit, and every respect commensurate with their duties will be shown them. The officers of these cities will be ordered to respect them as is proper and to protect them against every damage and insult. Also, upon their complaints, good

located on this side of the Kura will remain under the domination of Her Imperial Majesty, as they are at present, for the sole purpose of preventing the restless nations along the frontiers from joining the evil-intentioned subjects of the Shah and causing new troubles, if Her Imperial Majesty should withdraw her troops, by seizing forsibly the places now under Russian occupation. As for the remainder, His Majesty the Shah recognizes in the return of his provinces the generosity of Her Imperial Majesty and promises to demonstrate his gratitude by all sorts of expressions of amity.

3. In consequence, His Majesty the Shah undertakes on his own behalf and that of his successors to live in perpetual and inviolable amity and good neighborliness with Her Majesty and her Empire. He will regard as his own enemies those who may be enemies of Her Imperial Majesty. He will allow the subjects of Her Imperial Majesty to trade freely in all the lands and places under his domination without payment of duty on merchandise brought from Russia to Persia for sale or barter. To this end the Shah will order all his officers in the cities and provinces not to exact either duty or presents from Russian merchants but, upon seeing a declaration by Russian officers at the frontier that [the merchants] are truly Russian subjects, to allow them to trade in all localities of Persia without payment of duty and, if they should wish to cross over to the Indies or to another country in pursuit of trade, to permit them free passage by sea or by land, without payment of duty or tax of [grant of] of gift or present to the profit of His Majesty the Shat. [The Persian officials] are required to see that [the Russian merchants] obtain good justice and suffer not the least harm. Similarly the said merchants are permitted to build in suitable places houses and stores to hold their merchandise. The Persian officers will designate teh said places for this purpose and will give them all assistance. If a ship or vessel, loaded with Russian merchandise, should happen to meet with accident within the domain of His Majesty the Shah, those in danger will be given every assistance to save their goods. Pillage or theft in such circumstances is forbidden under severest penalty. If a Russian subject should happen to die in Persia, his effects, against receipt, will be placed in the custody of his companions

-2-

TREATY OF PEACE, AMITY AND COMMERCE : PERSIA AND RUSSIA

21 January '1 February 1732

1. All misunderstandings which occurred at the time of the unrest in Persia and the hostilities in which the two sides engaged will be forgotten forever. The ancient good and inviolable friendship that obtained between the two Empires will be re-established in such a manner that each side will seek the good of the other insofar as it can and will carefully avoid all harm and damage.

2. Her Imperial Majesty of Russia, [desiring] to give His Majesty the Shah persuasive proof of her friendship, renounces of her own generous volition the rights acquired -by treaty and conquest over the provinces of Persia by her ancestors of glorious memory because of the great expenditures and preparations of war. She promises the Minister Plenipotentiary of His Majesty the Shah that one month after the signature of the present treaty she will evacuate and return to the Shah the province of Lagetshank [Lahijan or Daghistan] with its dependencies, all of Ranakut and [the area] that lies beyond the River called Safid Rud; and five months after the conclusion of the present treaty and the exchange of ratifications, the provinces of Gilan, Astarinsk [Astara] and other lands between Astarabad and the Kura River in the same good state in which they are under the guard of the troops of Her Imperial Majesty. The other provinces and places

Villages on the Mountain above Sailm Calè, near Chehrezor, will be in the possession of the Sultan, and the Villages lying on the East, will be in the possession of the Shah, who will also keep the Castle of Orman with the Villages which are dependent on it. The defile leading to Chehrezor has been established as a frontier. The fortress of Kizilidji with its dependencies shall remain in the possession of the Sultan; and Mihreban with the dependencies thereof, in that of the Shah. The fortresses of Cotour (Kotur) and Makoo on the frontier of Van, and the fortress of Magazberd towards Kars and Van, will be demolished by the two Parties, and so long as the Shah will not have molested the fortresses of Akiskha, Kars, Van, Chehrezor, Bagdad, Bassora, and other Places within the limits, such as fortresses, forts, Districts, lands, hills and mountains, and no such horrible act as provoking to rebellion shall have been committed by Him, on their part also His Majesty our Great Padishah will respect this Peace, and no molestation shall contrary to Treaty, be done to the places which remain within the limits of the other side.

In order, therefore, that Merchants and travellers belonging to either Party may come and go and meet with a friendly reception, [illegible] full power and positive authority written down this egregious Treaty, the contents of which are true, and sent it to His Majesty the Shah, and to our most August Padishah. So long as the Shah shall, according to the Sacred text : « Do not violate an agreement after ye have done it » observe this treaty as it ought to be observed, His Imperial Majesty, our most Magnificient Padishah also, will act in obedience to the Holy Command : « Fulfil your agreement. for an agreement is obligatory. »

This Happy Peace will last and be maintained, with the permission of God, till the day of resurrection : « And he who shall alter it after having heard it, verily this sin shall be upon those who shall have altered it. »

Praise to God; He is the sole God, and blessings upon him after whom there will be no Prophet. In the beginning; and in the end and externally; and internally.

The most humble of the servants of God.

MUSTAFA, *Grand Vizier.*

fire of war should be extinguished and the dust of fighting dispersed, stating that His Majesty the Shah's will is that reconciliation and peace between the two Parties should take place, I, on my part too, wishing to act in conformity to the sacred text, to wit : « If they incline to peace, do ye also incline to it, » have readily consented, for the sake of the safety and transquillity of mankind to make Peace; and a letter was sent to the Shah to the end that His Majesty might send a Person of confidence with power to settle the conditions of the Peace, in a manner suitable to the honour and dignity of the two Governments. Consequently the Shat has appointed according to the established laws and rules, to negotiate and conclude this treaty of Peace, and establish and fix the state of the frontiers, the most excellent and faithful Saroukhan, may he always be fortunate in transacting affairs on which quiet and security depend ! Saroukhan, on his arrival in the Imperial Camp at Zahab, was received with marks of hospitality; and on the 14th day of Muharem, in the year 1049 of the Hegira of the Prophet, upon whom be the best benedictions, a Divan was hel din the Imperial Camp, in which were present the illustrious Vizirs, the Miri Miran, the Commanders and Agas, the Aga of the Janissaries, six Agas of six Companies, and other officers of the army. Saroukhan, the Plenipotentiary who was duly accredited, and the Ambassador Mehmed Culy Bey, were introduced in the Divan, and the preliminaries were discussed with them so as to put on a good footing the position of the Rayas and of the poor who are a trust imposed by the Author of all beings, and the result of the discussions on both Parties has been written down and is as follows : Tzanan, Bedrie, Mendelgeen, Derteuk and Dernai, in the Pashalik of Bagdad, will remain under the authority of our august Padishah, who will also take possession of the Plains between Mendelgeen and Derteuk, and the Mountain will remain under the authority of the Shah. Serminil is fixed as frontier between Derteuk and Dernai. That part of the country of Haronia, occupied by the Tribes of Djaf and Zilja Uddin, will belong to the Sultan. Pezai and Zerdony remain to the Shah. The fortress of Zındjır, which lies on the top of the Mountain, shall be demolished; the Sultan will take possession of the Villages lying westward of it, and the Shah will take possession of those lying eastward. The

the scabbard; and nations which were making war with each other, cordially reconciled themselves. « That is a favour of God. He grants it to whom He pleases : and God is most gracious. »

I, therefore, the most humble of all the servants of God, being charged and authorized to do or undo whatever concerns the Empire and the nation, and to make, just as I choose, war or peace, an authority which I hold from the most glorious Padishah who is the Defender of the faith, whose Majesty is as great as that of Solomon, who is the substitute of God in the world, and who has justified the maxim that « An equitable Sultan is the shadow of God on earth »; the asylum of the greatest Musulman Princes, the shelter of the most illustrious Turkish Sovereigns, the supporter of Islamism and of Musulmans, the exterminator of heresies and of the polytheists, the Sovereign of the two lands and of the two seas, the Sovereign of the two Orients and of the two Occidents, the servant of the two Holy Cities, the treasure of Mankind and the apple of the age, who is protected by the Supreme Being whose divine assistance men implore, and favoured by the most High and propitious God; May His Imperial Majesty's Dynasty last till the end of the world, and their reign be prolonged till the consummation of ages ! have, in virtue of my full powers and my real character of the Sultan's substitute, ordered the Turkish victorious troops to march from beneath Bagdad, and began to go forward with an intention of entering the Persian territory. On our arrival at a station called Haronia, the most distinguished among the Grandees Chems Uddin Mehmed Culy Bey, Great Equerry, arrived there in the capacity of Ambassador with a Letter from Him who is the ornament of the Persian Throne, the splendor of the Kingdom of Djem, and whose magnificence is equal to that of Darius, the great Prince and illustrious Lord, the Precious Pearl of the Sea of Royalty, the sun of the sky of Sovereignty, the noble Eagle of the high region of the Dignity of Shah, the most Illustrious and Majestic Prince whose troops are as numerous as the stars; may the most High God raise the banners of his strength from earth to Heaven, and exalt the edifice of his glory to the height of the vaulted sky ! to our great and august Padishah, and also a flattering Letter to me. The Ambassador having asked that the

-1-

TREATY OF PEACE AND FRONTIERS : THE OTTOMAN EMPIRE AND PERSIA

17 May 1639

Praise to God, the Holy, the Gracious, the bestower of Victory; who has opened the door of peace and concord with the key of the words : « Verily I wish nothing so much as reconciliation, » and dispelled the darkness of war and fighting with the light of quiet and happiness. Blessings and benedictions, so long as flowers spread their perfume and daylight shines, upon his Prophet who has fully and clearly manifested the faith, and with whose auspicious advent Islamism was greatly rejoiced; and upon his family, children and companions who have been active in propagating that faith.

Now, whereas, by the will and good pleasure of Him who raised the skies without pillars, and by an effect of the wisdom and omnipotency of Him who composed all things from various elements, and who has no equal, good order in society, and the conservation of the world depend upon the justice and equity of the Sovereigns, and upon their good understanding and union, no less than upon their submission to the positive and to the negative divine Commands, the August Sultans have, in conformity to this sacred percept : « Fear God and reconcile yourselves, » resorted to reconciliation, which is a source of happiness, and renounced to hostilities and war, the sword of mutual contrariety was put into

Apendices

1 - Treaty of Peace and Frontiérs : The Ottoman Empire and Persia . 17 May 1639.

2 - Treaty of Peace, Amity and commerce : Persia and Russia . 21 January / 1 February 1732 .

3 - Treaty of Peace (Kurdam) : The Ottoman Empire amd Persia 4 September 1746 .

4 - Treaties of Alliance and commerce : Great Britain and Persia . 28 January 1801 .

5 - Treaty of Alliance (Finkestein) : France and Persia 4 May 1807 .

6 - Treaty of Peace (Guliston) Russia and Persia 30 September 12 October 1814 .

7 - Treaty of Defensive Alliance : Britain and Persia 25 November 1814 .

8 - Treaty of Peace (Erzurum) : The Ottoman Empire and Persia 28 July 1823 .

9 - Treaties of Peace and commerce (Turkmanchay) . Persia nnd Russia .

10/22 February 1828 .

10 - Treaty of Peace (Paris) Britain and Persia 4 March 1857 .

11 - Anglo - Russian Convention on Persia, Afghanistan and Tibet . 18/31 August 1907 .

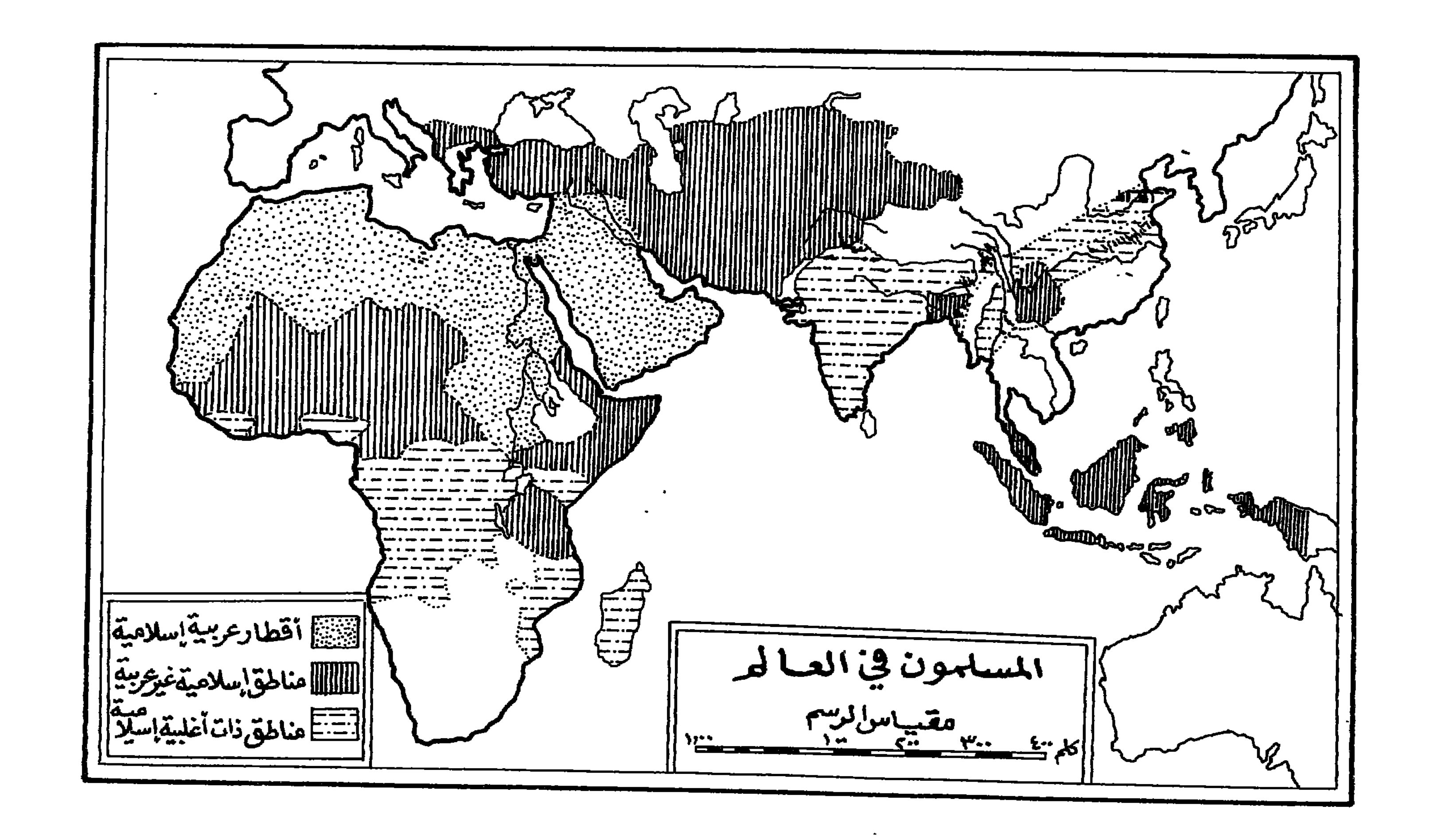

المسلمون في العالم
مقياس الرسم
كلم ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ١٠٠٠
أقطار عربية إسلامية
مناطق إسلامية غير عربية
مناطق ذات أغلبية إسلامية

نهر السند
پانيپان
دلهي
راجبوتانا
السند
كجرات
مالوا
سورات
نهر براهما پوترا
نهر الكانج
البنغال
البحر
العربي
أحمدنكر
غلكوندة
خليج
البنغال
بيجابور
كالكوتا
مدراس
جزيرة
سيلان
امبراطورية المغول
١٦٠٥

البلقان بين ١٨٠٠ - ١٨٧٨

إفريقية الإسلامية
حدود إفريقية الإسلامية
إفريقية الاسلامية
أقليات إسلامية
المحيط الأطلنطى
المحيط الهندى
البحر المتوسط
الرباط
المغرب
الجزائر
ليبيا
الجمهورية العربية المتحدة
القاهرة
موريتانيا
مالي
النيجر
تشاد
السودان
أثيوبيا
كينيا
تنزانيا
أنجولا
ساحل العاج
جمهورية الكونغو
أفريقيا الوسطى
جنوب أفريقيا

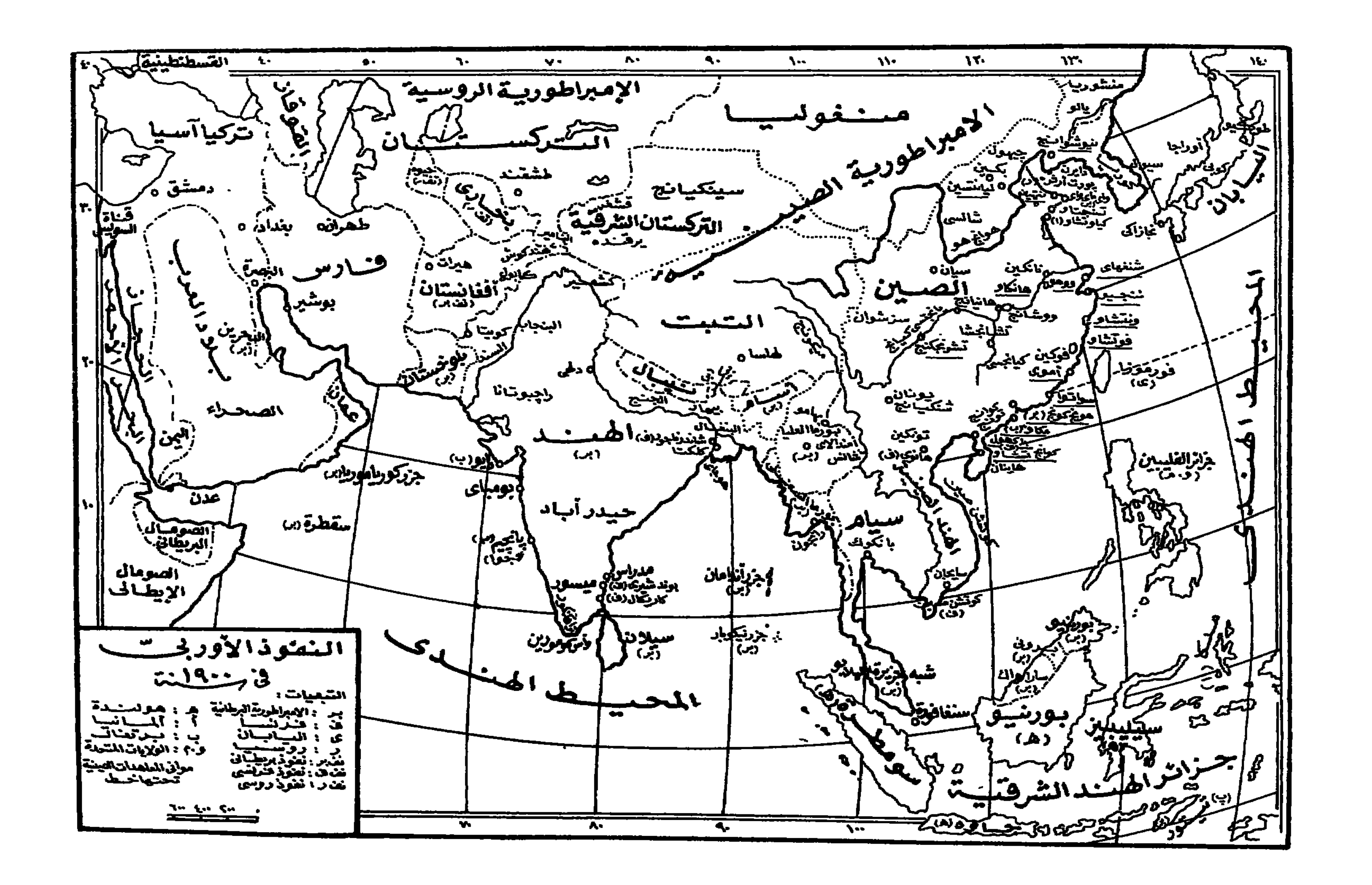
النفوذ الأوربي
في سنة ١٩٠٠
التبعيات :
بر : الإمبراطورية البريطانية
ف : فرنسا
ى : اليابان
ر : روسيا
نف بر : نفوذ بريطاني
نف ف : نفوذ فرنسي
نف ر : نفوذ روسي
هـ : هولندة
أ : ألمانيا
ب : برتغال
و م : الولايات المتحدة
موانئ المعاهدات الصينية تحتها خط
الإمبراطورية الروسية
التركستان
منغوليا
الإمبراطورية الصينية
تركيا آسيا
القوقاز
القسطنطينية
دمشق
قناة السويس
بغداد
طهران
فارس
البصرة
بوشير
البحرين
بلاد العرب
الصحراء
عمان
اليمن
عدن
الصومال البريطاني
الصومال الإيطالي
سقطرة (بر)
جزر كوريا موريا (بر)
بخارى
طشقند
سينكيانج
التركستان الشرقية
يرقند
كشغر
كشمير
هيرات
كابول
أفغانستان
بلوخستان
البنجاب
دلهي
راجبوتانا
التبت
لهاسا
نيبال
آسام
الهند
بومباي
حيدر أباد
مدراس
ميسور
سيلان (بر)
جزر أندامان (بر)
جزر نيكوبار (بر)
سيام
بانكوك
سايجون
الهند الصينية
شبه جزيرة الملايو
سنغافورة
سومطرة
بورنيو
سيليبز
جزائر الهند الشرقية
جزائر الفلبين (و م)
فورموزا (ى)
الصين
سيان
هانكاو
نانكين
شنغهاي
فوتشاو
أموي
كانتون
هونج كونج (بر)
تونكين
منشوريا
بكين
تينتسين
اليابان
نجازاكي
المحيط الهندي
المحيط الهادي